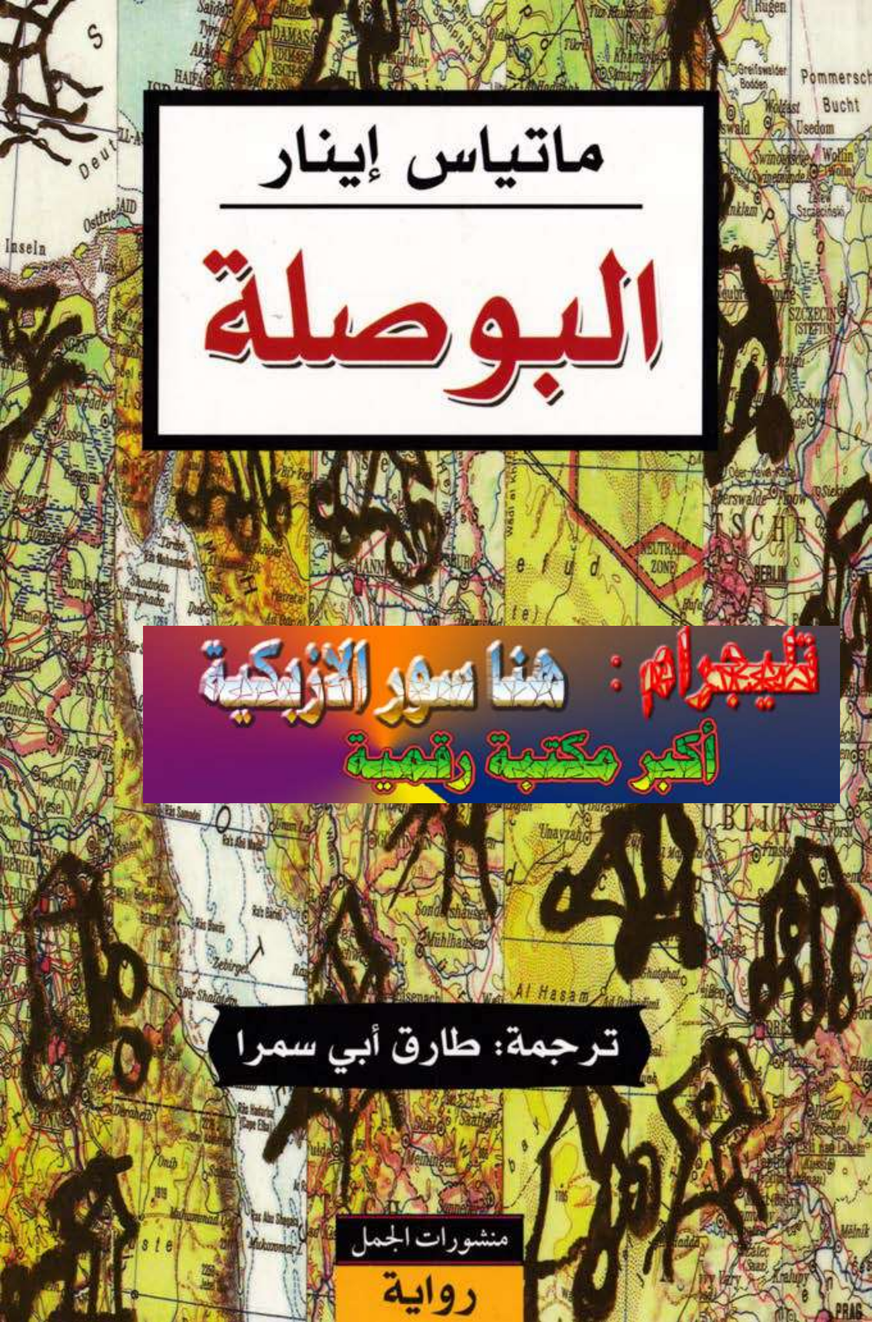

ماتياس إينار
البوصلة
تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية
ترجمة: طارق أبي سمرا
منشورات الجمل
رواية



ماتياس إينار: البوصلة، رواية

ماتياس إينار: **البوصلة**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: طارق أبي سمرا

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Mathias Enard: *Boussole*, roman

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ماتياس إينار

البوصلة

رواية

ترجمة: طارق أبي سمرا

منشورات الجمل

Die Augen schließ' ich wieder,
Noch schlägt das Herz so warm.
Wann grünt ihr Blätter am Fenster?
Wann halt' ich mein Liebchen im Arm?

أغمضُ عينيّ مرّة أخرى
ولكن قلبي لا يزال يخفق بقوّة.
متى ستعود الأوراق خضراءَ خلف نافذتي؟
متى سأحتضن حبّي بين ذراعيّ؟

فيلهلم مولر وفرانتس شوبرت
رحلة الشتاء.




أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

نحن مُدَخّنا أفيون كلّ مقيم في سحابته، لا نُبصر شيئًا من العالم الخارجيّ، منفردَين، من دون أن يفهم أحدنا الآخر أبدًا نُدخّن، وجهان يُحتضران داخل مرآة، نحن صورة تجمّدت، يُوهم مرور الزّمن بحركتها، بلّورة ثلج تنزلق على كرة من الخيوط الجليد لا أحد يَلحظ تعقيد تشابكها، أنا قطرة الماء هذه التي تكاثفت على نافذة صالوني، لؤلؤة سائلة تنساب فلا تعرف شيئًا عن البخار الذي كوّنها، ولا عن الذّرات التي لا تزال، حتّى اللحظة، تُشكّلها لكنّها ستُستخدم قريبًا في تأليف جزيئات أخرى، وأجسام أخرى، والغيوم التي تَقبع بثقلها على فيينا هذا المساء: من يدري أي رقبة سيبلّلها هذا الماء، أيّ بَشرة سيُلامس، ثمّ على أيّ رصيف سيجري ونحو أيّ نهر، وهذا الوجه المُبهَم على الزّجاج ليس لي سوى لبُرهة، هو واحدة من ملايين الهيئات المُحتملة التي قد يتّخِذها الوهم - ها هو السيّد غروبر يُنزّه كلبه بالرّغم من تساقط الرّذاذ، يعتمر قبّعة خضراء ومعطف مطر؛ يقوم بقفزات صغيرة ليهرب من المياه الموحلة التي قد تُلطّخه بفعل مرور السيّارات: يعتقد الكلب اللّعين أنّ صاحبه يُلاعبه، فيقفز نحوه ليتلقّى صفعة قويّة ما إن تُلامس قدمه القذرة معطف السيّد غروبر الذي ينتهي به الأمر، بالرّغم من كلّ شيء، إلى الاقتراب من حافّة الطريق ليجتازه، أعمدة الإنارة تمطّ طيفه كنقعة صغيرة سوداء وسط بِحار من

ظلال الأشجار الكبيرة، تكسرها أضواء المصابيح الأماميّة التي تعبر شارع «بورتسلانغاسه»، والسيد غروبر يبدو متردّدًا في الغوص في ليل «ألزرغوند»[1]، كما أنا متردّد في ترك تأمّلي قطرات الماء، ميزان الحرارة وإيقاع عربات الترامواي المتّجهة نحو محطة «شوتنتور».

الوجود انعكاس مؤلم، حُلم مدمن أفيون، قصيدة لجلال الدّين الرومي يُنشدها شهرام ناظري، «أوستيناتو»[2] «الكاسور»[3] يجعل زجاج النّافذة يرتجّ بخفّة تحت أناملي كجلدة الآلة الإيقاعيّة، عليّ مواصلة القراءة بدلًا من التّفرّج على السيّد غروبر يختفي تحت المطر، بدلًا من الإصغاء إلى الإطناب النّغمي[4] المتماوج للمُنشد الإيرانيّ الذي بمقدور جرس صوته الجهوري أن يحمل كثيرًا من مغنّي «التينور» في بلادنا على الاحمرار خجلًا. عليّ أن أوقف الأسطوانة، مستحيل أن أركزّ؛ رغم إعادة قراءة هذه المقالة للمرّة العاشرة، فأنا لا أفهم معناها الغامض، عشرون صفحة، عشرون صفحة مُرَوِّعة، يقشعرّ لها البدن، تَصلني اليوم تحديدًا، اليوم وطبيب متعاطف ربّما قدّ سمّى مرضي، أعلن جسدي مريضًا بشكل رسمي، لعلّه شعر بالارتياح حين وضع - يا لها من قبلة مميتة - تشخيصًا لأعراضي، تشخيصًا، قال لي، ينبغي تأكيده لاحقًا لكن مع المباشرة فورًا بالعلاج ومن ثمّ تتبّع سَيْر المرض وتحوّلاته، التّحوّلات، ها نحن نعود إلى تأمّل تحوّلات قطرة ماء وهي تنحو نحو الزّوال قبل أن يُعاد تشكيلها ضمن الكُلّ الأكبر.

ليس هناك من مصادفات، كلّ شيء مترابط، كانت ستقول

---

(١) منطقة في فيينا.
(٢) عملية تكرار عبارة أو جملة موسيقية باستمرار طوال سير اللّحن الأصليّ.
(٣) آلة إيقاعية إيرانية الأصل.
(٤) الإطناب النغمي، أو «المليسما»، هو أسلوب في الغناء.

سارة، لماذا اليوم، على وجه التّحديد، أتلقّى هذه المقالة عبر البريد، لقد نُشرت ضمن عدد مجلةٍ، لكنّها مطبوعة على حدة، هي عبارة عن أوراق مُكبّسة بدلًا من ملفّ «بي دي إف» مُلحق بتحيّة ما، بدلًا من رسالة إلكترونيّة كان يمكن أن تَنقل لي بعضًا من أخبار سارة، أن تشرح لي أين هي، ما هو هذا الـ«ساراواك» من حيث نَكتب والذي، بحسب أطلسي، هو إقليم ماليزيّ في شمال غربي جزيرة بورنيو، على بعد خطوتين من بروناي وسلطانها الثّري، على بعد خطوتين أيضًا من موسيقى «الغاميلان»[1] التي تأثّر بها ديبوسي وبريتن في ما أعتقد - إلا أن فحوى المقالة يختلف كثيرًا عن ذلك: ما من موسيقى، ربّما باستثناء نشيد جنائزيّ طويل؛ أربعون صفحة مرصوصة نُشرت في عدد أيلول من «ريبريزانتاسيون»، المجلّة الأنيقة التي تُصدرها جامعة كاليفورنيا، والتي غالبًا ما تكتب سارة فيها. إهداء مقتضبًا يتصدّر الصفحة الأولى، «إلى عزيزي فرانتس، أُقبّلك بحرارة، سارة»؛ أرسِلت المقالة في تاريخ ١٧ تشرين الثاني، أي من أسبوعين - لا يزال البريد يستغرق أسبوعين ليصل من ماليزيا إلى النّمسا، ربّما بخلت بالطوابع، كان باستطاعتها أن ترسل بطاقة بريدية أيضًا، ما معنى كلّ هذا، لقد عاينتُ في شقّتي كلّ أثر خلّفته وراءها، مقالاتها، كتابان، بضع صور فوتوغرافيّة، وحتّى نُسخة مطبوعة من أطروحتها للدكتوراه، مُغلّفة بجلد أحمر اصطناعيّ، مجلدان ضخمان يزن كلّ واحد منهما ثلاثة كيلوغرامات:

«في الحياة جراح كالجذام... تأكل الرّوح ببطء... وتبريها في انزواء»[2]، كتب الإيرانيّ صادق هدايت في مطلع روايته «البومة العمياء»: كان هذا

---

(١) فرق غنائية تقليدية في إندونيسيا.

(٢) «البومة العمياء» لصادق هدايت، ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا.

الرّجل القصير القامة، ذو النّظارات المستديرة، مُدركًا ذلك أكثر من أيّ شخص آخر. إذ إنّ جرحًا من هذه الجراح قد أفضى به إلى ترك الغاز يتسرّب في شقته الواقعة بشارع «شامبيونيه» الباريسيّ ذات مساء من الانزواء الهائل، ذات مساء من شهر نيسان، بعيدًا كلّ البعد من إيران، لا يؤنِس وحشته سوى صحبة بضع قصائد لعمر الخيّام وزجاجة كونياك داكنة، أو ربّما حصاة من الأفيون، أو ربّما لا شيء، لا شيء على الإطلاق، ما عدا النّصوص التي كانت لا تزال أمامه، في انتظار أن يكتبها، فحملها معه إلى أعماق خواء الغاز الدّفينة.

لا يُعْلم ما إذا كان ترك رسالة، أو حتّى إشارة ما، باستثناء روايته «البومة العمياء»، المُنجَزة منذ فترة طويلة والتي ستجعله، بعد عامين من وفاته، موضِع إعجاب مثقفين فرنسيين لم يكونوا قد قرأوا شيئًا من الأدب الإيرانيّ: سيُصدر الناشر «جوزي كورتي» «البومة العمياء» بعد إصداره «على ضفاف خليج السرت» بوقت قصير؛ سيلقى جوليان غراك النجاح عام ١٩٥١ وغاز شارع «شامبيونيه» أعطى للتو مفعوله، وسيقول أنّ «على ضفاف خليج السّرت» هي رواية «جميع الانحلالات النّبيلة»، كتلك التي فرغت حالاً من بَزّي روح هدايت في أثير الخمر والغاز. سيناصر أندريه بروتون الرّجلين وكتابيْهما، لكن بعد فوات الأوان لإنقاذ هدايت من جراحه، ذاك إن كان بالإمكان إنقاذه أصلًا، إن لم يكن المرض الذي أصاب روحه مرضًا عضالًا لا سبيل لشفائه.

كان الرّجل القصير القامة، ذو النّظارات السّميكة المستديرة، في المنفى كما في إيران، هادئًا ومُتحفّظًا، يتكلم بصوت خفيض. سخريته وحزنه البغيض جلبا له اللّوم، ما لم يكن ذلك حبّه للمجانين وللسكارى، أو حتّى افتتانه ببعضٍ من الكُتُب وبعضٍ من الشعراء؛ وربّما كان سبب اللّوم تعاطيه قليلًا من الأفيون والكوكايين بين الفينة والأخرى، في حين أنه كان يستهزئ بالمدمنين؛ أو لأنّه كان يعاقر الخمر وحده، أو لأنّه كان

مُصابًا بعاهة عدم التعويل على الله بتاتًا، حتّى خلال أمسيات الإنزواء المهول حينما كان يسمع الغاز يناديه؛ أو ربّما لأنّه كان بائسًا، أو لأنّه كان مقتنعًا بأهمية كتاباته، أو لأنّه لم يكن مقتنعًا بذلك، وهي كلها أمور تثير الريبة.

مهما يكن من أمر، فما من لوحة في شارع «شامبيونيه» لتُشير إلى إقامته في هذا المكان أو إلى رحيله عن هذه الدنيا؛ ما من نصبٍ في إيران لاستذكاره، بالرّغم من ثقل التاريخ الذي يحيله حضورًا طاغيًا لا مفرّ منه، بالرّغم من وطأة موته التي ما زال أبناء بلده يرزحون تحتها. كتاباته، في يومنا هذا، تحيا في طهران مثلما مات هو، يلفّها البؤس والكتمان، فيجدها المرء مرميّة في سوق المستعمل، أو على شكل نسخات مُجتزأة شُذِّب منها أيّ تلميح قد يدفع بالقارئ نحو المخدّرات أو الانتحار، وذلك لحماية الشّباب الإيرانيّ المصاب أصلًا بأمراض اليأس هذه، الانتحار والمخدّرات، والذي يرتمي على كُتُبه بنهم وتلذّذ كلّما سُنِحت له الفرصة؛ فمُحتَفًى به على هذه الشّاكلة، ومقروءًا بهذه الطريقة السّيئة، ينضم هدايت إلى الاسماء الكبيرة التي تحيط به في مقبرة «بير لاشيز» الباريسيّة، على بعد خطوتين من بروست، رزينًا في سباته السّرمدي مثلما كان في حياته، كتومًا، من دون بهرجة الورود، وقلّة قليلة تزور ضريحه، منذ ذلك اليوم من شهر نيسان ١٩٥١ حين اختار الغاز وسيلة لوضع حدٍّ لكلّ شيء، ببريه جذام الرّوح القاهر اللاسبيل لشفائه. «ليس هناك شخص يكتسب التصميم على الانتحار، إن الانتحار موجود عند البعض، في أصلهم وطبيعتهم»[1]: لقد خطّ هدايت هذه السّطور أواخر عام ١٩٢٠. خطّها قبل أن يقرأ ويترجم كافكا، قبل أن يكتب تقديمًا لرباعيات الخيّام. افتتح مسيرته الأدبيّة من النّهاية. استهلّ المجموعة القصصية الأولى التي

(١) «حي في مقبرة» لصادق هدايت، ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا.

نَشرها، بحكاية «حي في مقبرة» – «زنده به گور» –، بالانتحار والخراب، فوصف بدقة، في ما نعتقد، الأفكار التي ستخالجه، بعد عشرين سنة، خلال اللحظة التي سيستسلم فيها للغاز، لنعومة النعاس، عقب إتلافه، بعناية، أوراقه ومسوداته في مطبخ بالغ الصغر، في مطبخ اجتاحه عبير ربيع وشيك لا يُطاق. لقد أتلف مخطوطاته، ربّما لأنّه يتحلى بشجاعة تفوق شجاعة كافكا، أو لأنّه لم يكن قد حظيَ بأي ماكس برود، أو ربّما لأنّه لم يكن يثق في أحد، أو لأنّه كان مقتنعًا بأنّ ساعة الرحيل قد حانت. وفي حين أن كافكا كان قد لقيَ حتفه وهو يَسعل، مُنقِّحًا حتّى اللحظة الأخيرة نصوصًا أراد حرقها، فإن هدايت لفظ آخر أنفاسه رويدًا رويدًا، مُثقلًا بنوم عميق، وفيما موته مكتوب عليه منذ عشرين سنة، وحياته موصومةً بقروحٍ وجراحِ هذا الجذام الذي بَرى روحه في انزواء، والذي نُخمِّن أنه على صلة بإيران، بالشّرق، بأوروبا وبالغرب، مثلما كان كافكا، في براغ، ألمانيًا ويهوديًا وتشيكيًا في الوقت عينه من دون أي يكون أيًّا من هذه الأشياء، تائهًا، أو حرًّا، أكثر من أيّ شخص آخر. كان هدايت يعاني من أحد هذه الجراح التي تصيب النفس والذات، فتجعل المرء يسير مترنّحًا في الحياة؛ هذا هو الشّقّ الذي انفتح فصار صدعًا عميقًا؛ وفي ذلك، كما في الأفيون والخمر وكل ما قد يَشطر المرء نصفين، قرار وخيار، لا مَرَض، إرادة لقَلع الذات، حتّى النهاية.

إن افتتحنا هذا العمل بصادق هدايت وروايته «البومة العمياء»، فلأننا نسعى إلى اكتشاف الصدع هذا وسبر أعماقه، فنتسلل إذًا إلى دواخل نشوة أولئك الذين تهاووا عميقًا في الغيريّة؛ سوف نأخذ بيد هذا الرّجل قصير القامة وننزل معًا لمعاينة الجراح التي تبري، والمخدّرات، والأمكنة التي هي خارج هذه الحياة، فنستكشف هذا البين بين، هذا البرزج، هذا العالم الذي بين العوالم حيث يسقط الفنانون والرّحالة.

هذه مُقدمة مدهشة حقًا، ما زالت هذه الأسطر الأولى مُحيّرة بالقدر ذاته بعد مرور خمسة عشر عامًا - يبدو أن الوقت تأخّر، عيناي تُغلقان وأمامهما هذا النص القديم المطبوع على الآلة الكاتبة، تُغلقان بالرّغم من صوت «الكاسور» وغناء شهرام ناظري. خلال مناقشة أطروحتها للدكتوراه، استشاطت سارة غضبًا حين تلقّت لومًا على أسلوب مقدمتها «الرومنطيقي»، وعلى المقارنة «الخارجة تمامًا عن الموضوع» بين غراك وكافكا. لكن مورغان، الأستاذ المشرف على بحثها، حاول أن يدافع عنها، فقال إن «الحديث عن كافكا أمر دائمًا مستحسن»، ما حمل على التنهُّد هذه الهيئة من المستشرقين المستائين والبيروقراطيين الناعسين الذين لم يكن ليوقظهم من سُباتهم الفكري سوى مُقت بعضهم بعضًا؛ إذ إنهم سريعًا ما نسوا إفتتاحية سارة الخارجة عن المألوف، وراحوا يتناكفون حول مسائل منهجية، أي إنهم لم يجدوا في مصطلح «النُزهة» (لقد بصق الرّجل العجوز هذه الكلمة كأنها شتيمة) أيّ شيء علمي، ذلك حتّى لو كان صادق هدايت نفسه هو الممسك بأيدينا خلال الطريق. كنتُ في باريس لزيارة قصيرة، مسرورًا بهذه الفرصة لحضور مناقشة أطروحة دكتوراه في السوربون للمرّة الأولى، ومسرورًا بأن الأطروحةَ أطروحتُها هي، لكن ما إن تلاشت مفاجأة اكتشاف رثاثة الممرات، والصالة، وهيئة التحكيم المنفية في أصقاع قسم جامعي ضائع في متاهات المعرفة، وحده الله يعلم أين هو، وحيث خمسة من كبار الأساتذة سيشرعون، واحدًا تلو الآخر، يستعرضون عدم اكتراثهم بالنصّ الذي من المفترض أن يُناقشوه، ذلك وهم يبذلون - مثلي أنا حينذاك - جهودًا خارقة لمقاومة النُعاس، حتّى ملأتني هذا المسرحية بالمرارة والأسى، وفي لحظة مغادرتنا المكان (صالة من دون أُبّهة، طاولاتها المصنوعة من خشب رديء، مُتشقّق ومُتفسّخ، لا تُخفي في طياتها

علمًا، بل خربشات هزليّة وعلك ممضوغ)، مُفسحين المجال أمام هؤلاء الأشخاص للتشاور في ما بينهم، تَملكتني رغبة قويّة في الفرار، في النزول إلى آخر جادّة «سان ميشال» ثمّ السير بمحاذاة النهر كي لا ألتقي بسارة فتتكهن حينئذٍ انطباعاتي حول هذه المناقشة العظيمة التي في غاية الأهميّة لها. كنّا حوالي ثلاثين شخصًا، أيّ بمثابة حشد في هذا الرواق البالغ الضيق حيث رحنا نتكدّس؛ خَرجتْ سارة مع الحضور، كانت تتكلم مع امرأة أنيقة جدًّا، تكبُرها سنًّا، كنتُ أعرف أنها والدتها، ومع شاب يُشبهها إلى حد مُريب، شقيقها. التقدم نحو المَخرج كان مستحيلًا من دون مصادفتهم، فعدت أدراجي لأتأمل بورتريهات المُستشرقين التي تُزّين الرواق، رسومات مطبوعة، قديمة ومصفرة، ولوحات تذكارية من عصر تَرفٍ مُنصرم. كانت سارة تثرثر، تبدو مُنهكة وليس مكتئبة؛ لعلّ الإحساس الذي راودها في خضم المعركة العِلمية، وهي تُدَوِّن الملاحظات تأهبًا للإجابة عن الأسئلة، كان إحساسًا مختلفًا عن الذي راود الحضور. لمحَتني، فأومأت لي. كان السبب الأساس لمجيئي دعمَها، لكن أيضًا تهيئة نفسي، ولو في مخيّلتي فقط، لمناقشة أطروحتي أنا - وما كنت للتو قد شهدت عليه لم يكن ليطمئنني. كنت مخطئًا، فبعد بضع دقائق من التشاور، وعندما سُمح لنا بدخول القاعة من جديد، نالت سارة أعلى علامة؛ رئيس الهيئة المرهوب الجانب وعدّو «النُزهة» اللدود، أثنى على عملها بحرارة واليوم، بعد إعادة قراءة هذا النص، لا بدّ من الإقرار بأن شخصًا ذا فكر ثاقب ومُجدِدٍ قد كتب هذه الصفحات الأربعمئة حول التصورات والتمثيلات المرتبطة بالشّرق، حول التهويمات الأيديولوجية والطوباوية، الأمكنة المُتخيلة التي تاه فيها كثرٌ من الذين غامروا وعبروا بواباتها: إن أجساد الفنانين، والشعراء، والرّحالة الذين حاولوا استكشاف هذه

الأمكنة، قد آلت شيئًا فشيئًا إلى الهلاك؛ لقد بَرَى الوهم أرواحهم في انزواء، كما كان يقول هدايت - وما أطلِق عليه، لفترة طويلة، تسمية الجُنون والسويداء والاكتئاب، غالبًا ما كان نتيجة احتكاك: ضياع الذات في الإبداع عند مُلامستها الغيريّة؛ ومع أن ما كَتَبَتْه سارة يبدو لي، اليوم، مُتسرعًا بعض الشيء، رومنطيقيًا حتى، فلا شكّ في أنه ينمّ عن حَدْس حقيقي بَنَتْ عليه أبحاثها اللاحقة.

ما إن صدر الحُكْم حتّى تَقدّمتُ لتهنئتها مسرورًا، فقَبّلتني بحرارة وهي تَسألني ماذا تفعل هنا؟ فأجبتها إن مصادفة سعيدة أتت بي إلى باريس في هذا الوقت بالذات (كذبة بريئة)، فدعتني إلى شرب الشامبانيا برفقة أقربائها وأصدقائها، فقبلْت الدعوة وكان الإحتفال في الطبقة العلوية من أحد مقاهي الحيّ، حيث غالبًا ما تُقام مناسبات كهذه. فجأة، بدت سارة مُكتئبة، لاحظتُ أنها تسبح في ردائها الرمادي الواسع، لقد بَرت البيئة الأكاديميّة ملامح جسدها الذي كان يحمل آثار جهد الأسابيع والأشهر الماضية، فآخر أربع سنوات كانت كلّها تَصُبّ في هذه اللحظة، لم يكن لها معنى سوى بالنسبة إلى هذه اللحظة، أما الآن والشامبانيا يتدفق، فكانت تعلو وجهها ابتسامة رقيقة وواهنة، ابتسامة امرأة اجتازت لتوّها آلام المخاض وعذاباته - كانت ثمة هالات سود تحت عينيها، فرحتُ أتخيّل أنها أمضت ليلتها تستعدّ لمناقشة اليوم، لا تقوى على النوم من شدّة الانفعال. جيلبير دي مورغان، الأستاذ المُشرف على بحثها، كان طبعًا في المقهى؛ كان سبق لي أن التقيته في دمشق. لم يكن يُخفي شغفه بالتلميذة التي أخذها تحت جناحه، كان يغمرها بنظرات أبويّة يلمع فيها، خلسةً ونتيجة تفاقم مفعول الشامبانيا، شيء من سفاح القربى؛ بعد الكأس الثالثة، مُتّكئًا بمفرده على طاولة مرتفعة، نظراته مشتعلة ووجنتَاه متوردتّان، باغتُه يجول بعينيه بين كاحليّ سارة وحزامها، من الأسفل

إلى الأعلى فمن الأعلى نزولًا - تجشّأ بكآبة وأفرغ كأسه الرّابعة بجرعة واحدة. انتبَه إليّ أراقبه، فرمقني بنظرات متعجّبة ساخطة قبل أن يدرك أنه يعرفني ويبتسم لي، لقد التقينا سابقًا، أليس كذلك؟ أنعشتُ ذاكرته، نعم، أنا فرانتس ريتر، إلتقينا في دمشق برفقة سارة - آه بالطبع، الموسيقيّ، وكنت قد اعتدتُ للغاية هذا الإلتباس، فأجبتُه بابتسامة بلهاء بعض الشيء. بالكاد كنتُ قد قلتُ كلمتين للدكتورة المنهمكة بأصدقائها وأقربائها، حتّى وجدتُني محشورًا برفقة هذا الباحث المرموق الذي يتمنّى الجميع تفاديه خارج صفٍّ أو اجتماعٍ لمجلس القسم. راح يسألني عن عملي الأكاديمي، أسئلة لم يكن لدي إجابة عنها وكنت أفضّل حتّى عدم طرحها على نفسي؛ كان برغم كلّ شيء، يبدو في كامل صحته وعافيته، قبضاي كما يُقال، كي لا ننعته بالفاحش أو الداعر، ولم أكن لأتصوَّر قط أنني ساعود وألتقي به في طهران بعد بضعة أشهر، في ظروف مختلفة جدًّا وقد تبدّلت أحواله هو أيضًا، ومجددًا برفقة سارة التي كانت الآن غارقة في حديثها مع نديم - كان قد وصل لتوه، لا بدّ أنّها كانت تُطلعه على كامل مجريات مناقشة الأطروحة، لماذا لم يكن ضمن الحضور، لا أعلم؛ كان أنيقًا جدًّا هو الآخر، يرتدي قميصًا أبيض جميلًا، ذا ياقة مستديرة تُضفي رونقًا على بشرته الداكنة ولحيته القصيرة السّوداء؛ وكانت سارة مُمسكة بكلتا يديه كما لو أنهما سيباشران الرقص. اعتذرتُ إلى البروفسور وسرت نحوهما؛ احتضنني نديم بطريقة أخويّة، ما أعادني على الفور إلى دمشق، إلى حلب، إلى عُودِ نديم في الليالي، مُسكِرًا بألحانه نجوم السّماء السّورية المعدنيّة التي أضحت اليوم بعيدة، بعيدة جدًّا، تُمزّقها ليس المُذَنَّبات، بل الصواريخ والقذائف وصيحات الحرب - من كان يتخيّل في باريس عام ١٩٩٩، وهو يشرب الشامبانيا، أن سورية

ستؤول إلى الخراب نتيجة أشنع أعمال العنف، أنّ سوق حلب ستلتهمه النّيران، أنّ مئذنة الجامع الكبير ستنهار، وأنّ كثيرًا من الأصدقاء سيلقون حتفهم أو يُرغَمون على اختيار المنفى؛ ومن بمقدوره، حتّى في هذه اللحظة، أن يتخيل جسامة الأضرار وفظاعة الألم وهو قابع في شقته المريحة والهادئة في فيينا.

آه، لقد انتهت الأسطوانة! يا لسطوة مقطوعة ناظري هذه! يا لبساطتها السحرية، المُنوِّمة! بُنيّة صوتية معقّدة تآزر نبض الغناء البطيء، إيقاع نشوة بعيدة ومرتجاة، ذِكرٌ صوفي يَسكن الأذُن فيرافق المرء لساعات. نديم عازف عود ذو شهرة عالمية اليوم، لقد أثار زواجهما ضجة كبيرة في أوساط الجالية الأجنبيّة الصّغيرة في دمشق، كان أمرًا غير مُتوقَّع، مباغتًا للغاية، فصار مشبوهًا مريبًا في نظر كثيرين، خاصة في نظر السّفارة الفرنسيّة في سورية - إحدى مفاجآت سارة المعهودة التي لا تُحصى، آخِرها هذه المقالة المُدهشة فعلًا عن ساراواك. ودّعتُهما بعد وصول نديم بقليل، فشكرتني سارة مُطوَّلًا على قدومي، سألتني ما إذا كنتُ سأمكث في باريس لبضعة أيّام، وما إذا كان سيُتاح لنا أن نلتقي ثانيةً، فقلت لها إنني عائدٌ إلى النمسا غدًا؛ بكل احترام، ودّعتُ الأستاذ الجامعيّ الذي أضحى خائرًا متراخيًا تمامًا على طاولته، وغادرت.

خرجتُ من المقهى واستأنفت نزهتي الباريسيّة. اجتررت مطولًا، وبينما قدماي تجولان في الأوراق الميتة المتجمّعة على رصيف نهر السّين، الأسبابَ الحقيقية التي دفعتني إلى هدر وقتي هكذا، لحضور مناقشة أطروحة ثمّ الاحتفال الذي تلاها، فلمحتُ داخل هالة الضّوء التي تُحيط، في باريس، بالأذرع الأخويّة للجسور، منتشلةً إيّاها من الضباب، لحظةً من مسار، من تسكّع لن يتّضِح هدفه ومعناه سوى لاحقًا ربما، لكن من المؤكد أنّ المعنى

والهدف هذين على علاقة بالآن وبالهُنا، بفيينّا حيث يعود السيّد غروبر من نُزهته برفقة حيوانه النَّتِن: خطوات ثقيلة على الدّرج، كلب ينبح، ثمّ، من فوقي، آتية عبر السّقف، أصوات العَدْوِ والحكّ. لا يُجيد السيّد غروبر بتاتًا عدم إزعاج جيرانه، وهو مع ذلك أوّل المُسارعين إلى التّبرّم من موسيقى أسطواناتي، شوبرت قد يُطاق، يقول لي، لكن كلّ هذه الأوبرا العتيقة وهذه الموسيقى ال. . . الإكزوتيكيّة والغريبة، هذا لا يتناسب بالضّرورة مع أذواق الجميع، هل تفهم ما الذي أحاول قوله. أفهم، أيّها السيّد غروبر، أن الموسيقى تزعجكم، وأنا، كما ترون، آسف لذلك. لكنّني أودُّ أن أوضّح لكم أنّني قُمت، خلال غيابكم، بكل ما يُمكن تَخيّله من تجارب على حاسّة سمع كلبِكم، فاكتشفتُ أن بروكنر وحده (وهذا إن بلغت ألحانه مستويات صوتية تلامس حدّ ما هو غير مقبول) يهدّئ حَكّه لأرضية الخشب وينجح في إخراس عواءه الحادّ للغاية، والذي تشتكي منه البناية برمتها، وهو ما أرمي إلى توسيعه في مقالة علميّة حول الاستخدامات المُحتملة للعلاج بالموسيقى في الطبّ البيطريّ ستجلب لي، من دون أيّ شكّ، ثناءَ أقراني الباحثين: «حول مفاعيل آلات النّفخ النّحاسيّة على أمزجة الكلاب: تحديثات وتطويرات».

لحسن حظّ غروبر أنني تَعِبٌ، فلولا ذلك لوجّهت إليه بكل سرور ضربة «كاسور» أخرى، جرعة قويّة من الموسيقى الإكزوتيكيّة، إليه وإلى كلبه. تَعِبٌ نتيجة يوم طويل أمضيته مستحضرًا الذّكريات للهروب - لِمَ دَفْنُ الرّأس في الرمال - من حقيقةِ أنّني مصابٌ بالمرض، هذا الصّباح بالذّات، بعد عودتي من المستشفى، فتحت صندوق البريد فوجدت مغلّفًا ظننته يحتوي على نتائج الفحوصات الطّبيّة التي ينبغي على المختبر إرسال نسخة منها إليّ: تردّدتُ لدقائق في فتحه قبل أن ألحظ الختم البريديّ وأدرك خطئي. كنتُ أظنّ سارة

في مكان بين دارجيلينغ وكالكوتا، وها هي تظهر في أحد الأدغال الوارفة شمال جزيرة بورنيو، في مُستعمرة بريطانية سابقة كانت قائمة في هذه الجزيرة الشبيهه برجل ذي كرش. إنّ موضوع مقالتها الشّنيع، كما أسلوبها الجافّ، البعيد كلّ البعد من شاعريّتها المُعتادة، مرعبان؛ مرّت أسابيع ونحن لم نتبادل أيّ رسائل، ثمّ تحديدًا في اللحظة التي أجتاز فيها أصعب فترة من حياتي، تعود لتظهر بهذه الطريقة الغريبة - أمضيت كلّ نهاري برفقتها اليوم، معيدًا قراءة نصوصها، ما جنّبني التفكير في نفسي، هذا بدلاً من مباشرة تصحيح رسالة ماجستير إحدى الطّالبات، لقد حان وقت النوم، أعتقد أنني سأرجئ إلى الغد الغوصَ في تأملات هذه الطالبة: «الشّرق في أوبرا غلوك»، فعيناي تُغلقان من التّعب، عليّ أن أكفّ عن القراءة وآوي إلى السّرير.

في آخر مرّة رأيتها، كانت سارة تمضي ثلاثة أيّام في فيينا لدواعٍ أكاديميّة لا أذكر ما هي. (طبعًا اقترحْتُ عليها أن تبيتَ هنا، لكنّها رفضتْ، متذرّعة بأن المنظّمة التي تَستقبلها قد حجزت لها غرفة في فندق رائع، فيه الكثير من طابع مدينة فيينا، فلم تكن تودّ استبدال ذلك بأريكتي «المُترهّلة»، وعليّ أن أقرّ بأنّ الأمر أحرجني وأغاظني). كانت تضجّ نشاطًا وحيوية، وقد ضربت لي موعدًا في أحد مقاهي الدّائرة الأولى من المدينة، أحد هذه المحال الفاخرة التي يضفي عليها إقبالُ السيّاح الكثيف، صبغةً من الانحطاط كانت تروق لها. أصرّت على أن نقوم بنزهة، بالرّغم من تساقط الرذاذ، ما أثار استيائيَ، فلم أكن أرغب بتاتًا في لعب دور المستجمّ خلال بعد ظهرٍ خريفيّ، ممطر وبارد، لكنّها كانت تفيض حماسة، فأقنعتني أخيرًا. كانت تريد أن تركب التّرام «دال» حتّى آخر الخطّ، حتّى «نُسدورف» هناك في الأعلى، ثمّ التنزّه في شارع بيتهوفن؛ قلت لها

إن ذلك يعني أنّنا سنمشي عمومًا في الوحل، وإنّه من الأفضل ألّا نغادر الحيّ - طفنا عبر شارع «غرابن» وصولًا إلى الكاتدرائيّة، ورويتُ لها طُرفتين أو ثلاثًا حول المقطوعات الفاحشة التي ألّفها موتزارت، فراحت تضحك.

- هل تعلم يا فرانتس، قالت لي لحظة مرورنا بمحاذاة أرتال عربات الحنطور التي على طرف ساحة «سان شتيفان»، ثمّة شيء مثير جدًّا للإهتمام لدى الّذين يعتقدون أنّ فيينا هي بوابة الشّرق، فأخذتُ أضحك بدوري.

- كلا، كلا، لا تَستهزِئ بالأمر، أعتقد أنّني سأكتب عن هذا الموضوع، عن التّصوّرات حول فيينا كبوّابة الشّرق.

بسبب البرد، كان البخار يتصاعد من مناخر الأحصنة وهي تتغوّط بهدوء في أكياس من الجلد عُلّقت تحت ذيولها كي لا تتسخ أرصفة فيينا الجليلة.

- لا أقوى على فهم هذا التّصوّر مهما حاولت. فمقولة هوفمانستال: «فيينّا، بوابة الشّرق»، تبدو لي في غاية الإيديولوجية، مرتبطة بأمنيات هوفمانستال حول مكانة الإمبراطورية النّمساويّة المجريّة في أوروبا. هذه الجملة تعود إلى العام ١٩١٧... بالطّبع ثمّة الكباب والبابريكا، لكن، فيما عدا ذلك، فيينا هي بالأحرى مدينة شوبرت وريتشارد شتراوس وشونبرغ، وما من شيء شرقيّ للغاية في ذلك برأيي. وحتّى في التّصوّرات والتّخيّلات المرتبطة بفيينّا، أجد صعوبة في العثور على شيء، فيما عدا «الكرواسون»، قد يوحي ولو قليلًا بالشّرق.

إنّه كليشيه. أبديت لها كامل ازدرائي بهذه الفكرة المتسهلكة بإفراط، إلى درجة أنها فقدت أيّ معنى:

- وصول العثمانيين إلى أبواب مدينتنا مرّتين لا يعني بالضّرورة أنّنا صرنا بوّابة الشّرق.

- هذه ليست المسألة، ليس الموضوع واقعيّة الفكرة أو عدم واقعيتها، فما يهمُّني هو فهم كيف ولماذا كلّ هذا الكم من الرّحّالة رأوا في فيينا وبودابست أولى المدن «الشّرقيّة»، وما يمكن هذا الأمر أن يُعلمنا حول المعنى الذي ينسبونه إلى هذه الكلمة. وفي حال كانت فيينا هي بوّابة الشّرق، فإلى أيّ شرق تُفضي؟

بحثها عن معنى الشّرق... بحث لامتناهٍ، أبدي - أعترف بأنّني رحت أشكّ في قناعاتي، بأنّني شرعت بدوري أفكّر، وعندما أعاود الآن النظر في هذه المسألة، بينما أطفِئُ الضّوء في غرفتي، لعلّ في كوزموبوليتيّة فيينا وقت العهد الإمبراطوريّ، شيء من روح إسطنبول، شيء من «الأوستر رايش»، من الإمبراطوريّة الشّرقيّة[1]، إلّا أنّ ذلك يبدو لي بعيدًا، بعيدًا كلّ البعد في يومنا هذا. ففيينّا لم تعد عاصمة البلقان منذ فترة طويلة، ولم يعد للعثمانيّين أيّ وجود. لا شكّ في أنّ إمبراطوريّة آل هابسبورغ كانت إمبراطوريّة أوروبا الوسطى، ومع خفوت وتيرة التّنفّس الذي يسبق النّوم، مُصغيًا إلى السّيّارات تنزلق على الإسفلت المبلّل، وبينما وسادتي ما زالت باردة مُنعشة وطيف ضربات «الكاسور» لم يبارح أذنيّ بعد، عليّ أن أقرّ أن سارة تعرف فيينا أكثر مني على الأرجح، تعرفها بشكل أعمق ومن دون أن تتوقّف عند شوبرت ومالر، ومثلما يَعرِف الغرباء، في أغلب الأحيان، مدينة ما أفضل ممّا يعرفها أهلها التائهون في حيواتهم الرّوتينيّة - جرّتني مرّة معها، منذ زمن طويل، قبل رحيلنا إلى طهران وبعد استقراري في

(١) «الأوستر رايش»، أي الإمبراطوريّة الشّرقيّة: إشارة إلى «الإمبراطورية الرّومانية المقدّسة الجرمانيّة» خلال القرون الوسطى.

هذا المكان، جرّتني إلى «الجوزيفينوم»، المستشفى العسكريّ القديم حيث واحد من أشنع المتاحف وأفظعها: معرض لنماذج تشريحيّة تعود إلى نهاية القرن الثامن عشر، كانت قد صُمّمت خصيصًا لتنوير جرّاحي الجيش وتدريبهم على مهنتهم من دون اللّجوء إلى الجثث وروائحها - تماثيل من الشّمع، أوكِل إنجازها إلى أحد أكبر مشاغل النّحت في فلورنسا؛ من بين النّماذج المعروضة في صناديق من الخشب النّفيس، كان هنالك، على وسادة زهريّة بَهت لونها مع الزّمن، شابّة شقراء رقيقة الملامح، ممدّدةٌ ووجهها يميل جانبًا، رقبتها مقوّسة قليلًا وشعرها مُنسدل، يحيط بجبينها تاج من الذّهب، شفتاها بالكاد مشقوقتان، حول عنقها صفّان من اللآلئ البديعة، إحدى ركبتيها نصف مثنيّة، عيناها مفتوحتان بينما هي مستلقية في وضعية غير مُعبّرة لكنّها توحي، إن تأمّلناها مُطوّلًا، بالخضوع، أو على الأقل بالاستسلام: كانت بعريها الكامل وعانتها الدّاكنة أكثر من شعرها والنّاتئة بعض الشّيء، في غاية الجمال. مفتوحة ككتاب من أسفل عنقها حتّى مهبلها، كان يمكن رؤية قلبها، رئتيها، كبدها، أمعائها، رحمها، أوردتها، كما لو أن سفّاحًا مهووسًا جنسيًا، يمتلك مهارة مدهشة، قد شَقّها بعناية فائقة، شَرَطَ صدرها وبطنها، فعرض دواخلها على الملأ كما تُعرض أحشاء ساعةٍ ثمينة أو رجلٍ آلي. شعرها الطّويل المتراخي على الوسادة، نظرتها الهادئة ويداها المضمومة أصابعها نصفيًّا، قد توحي أنّها استمتعت بذلك، وكان هذا الشّيء الذي داخل قفص زجاجيّ ذي قوائم من خشب «الأكاجو»، مثيرًا الشّهوة والهلع، الافتتان والقرف؛ رحت أتخيّل الأطباء المتدرّبين وهم يكتشفون، قبل قرابة قرنَين، هذا الجسد من الشّمع، لِمَ التفكير في هذه الأمور قبل النّوم، من الأجدى تخيّل قبلة أمٍّ على جباهنا، هذا الحُنُوّ الذي نترقبه في الليالي فلا يأتي أبدًا،

بدلًا من تخيّل «مانيكانات» تشريحيّة مبقورة من أعلى الصّدر حتّى أسفل البطن؛ ماذا كان يدور في أذهان هؤلاء الدّكاترة اليافعين وهم أمام هذا التّمثال العاري، هل كان بمقدورهم التّركيز على الجهاز الهضميّ أو التّنفسيّ بينما أوّل امرأة يرونها على هذه الشّاكلة - من دون ملابس، ومن على مُدرّجات صالة المُحاضرات وهُم بالكاد قد بلغوا العشرين من العمر - هي جثّة مُزيّفة تفانى النّحات في عمله كي يَمنحها كلّ مظاهر الحياة، عمد من أجلها إلى استخدام كامل موهبته، فيّ ثنية الرّكبة، في تَوَرُّد لحم الفخذين، في حركة يديها المُعبّرة، في واقعيّة تصويره فرجها، في أصفر طُحالها المُخطّط بعروق الدّم، في أحمر رئتيها الدّاكن. أثار هذا الشّذوذ حماسة سارة، أُنظرْ إلى شعرها، راحت تقول، إنّه أمرٌ لا يُصدَّق، لقد نُسّق بمهارة لكي يوحي باللامبالاة، بالعُشق، وصرتُ أتخيّل صالة مُحاضرات تعجّ بطلّاب طبّ عسكريين، يطلقون صيحات إعجاب لحظة ما ينزع بروفِسورٌ صارم ذو شاربين، الغطاء عن هذا التمثال ثمّ يشرع، والعصا في يده، يعدّد الأعضاء واحدًا تلو الآخر قبل أن يَضرِب بخفّة، متخذًا هيئة الفهيم العليم، على ما يُمثّل ذروة هذا العرض: الجنين البالغ الصّغر الذي في داخل الرّحم الزّهريّ، على مسافة بضعة سنتيمترات من العانة وشُعيراتها الشّقر التي بالكاد تبصرها العين، وذات نعومة يُخيّل إليكَ أنّها انعكاسٌ لعذوبة مُروِّعة ومُحرَّمة. سارة هي التي لفتت انتباهي إلى ذلك، أُنظر، هذا غير معقول، إنّها حامل، فرحتُ أتساءل إن كان الحَبَل الشَّمعيّ هذا، نزوة من الفنّان أو مطلبًا من الزّبون، إظهار الأنوثة الأبدية بكلّ جوانبها، بكلّ احتمالاتها؛ كان هذا الجنين، حال اكتشافه فوق الفرو الذّهبي، يُضاعف من التّوتّر الجنسيّ المُنبعث من مُجمل التّمثال، فيستحوذ عليكَ إحساس هائل بالذنب، لأنّكَ عثرت على جمالٍ في

الموت، على شُعلة من الرّغبة في جسد قُطع بمهارة فائقة - كان مستحيلًا عدم تُخيُّل لحظة التّخصيب، لحظة ضائعة في الشّمع، وعدم التّساؤل من هو هذا الرّجل (أكان من لحم ودم أم مُكوّنًا من مادة أخرى) الذي ولج أحشاءً في منتهى الكمال ليغرس فيها بذرته، فتُشيحُ بنظركَ على الفور: حياتي جعل سارة تبتسم - هي لطالما رأتني مفرطًا في احتشامي -، على الأرجح لأنّها لم تكن تستطيع أن تُدرك أنّ ما حملني على الإشاحة بنظري ليس المشهد بحدّ ذاته، بل ذاك المشهد الآخر الذي ارتسم في ذهني وسبّب لي مزيدًا من الإضطراب - تصوّرت نفسي (أو ربّما أحدًا يُشبهني) ألج هذه الميتة الحيّة.

كانت بقيّة المعرض على النّسق ذاته: رجل مسلوخ، ركبته مثنيّة، يبدو في غاية الهدوء كأنّ شيئًا لم يكن، في حين لم يعد يكسوه ولو سنتيمتر مربّع واحد من الجلد، ذلك لإبانة دورته الدّمويّة بكامل تعقيداتها؛ أرجل، أيادٍ وأعضاء متنوعة داخل علبٍ من زجاج، تفاصيل من عظام ومفاصل وأعصاب؛ باختصار، كلّ ما يحويه الجسد من ألغازٍ صغرى وكبرى، وبالطّبع عليّ أن أفكّر الآن بكلّ هذه الأمور، هذا المساء، هذه الليلة تحديدًا، وبعد أن قرأت صباحًا مقالة سارة المُرَوّعة، وأُبْلِغْتُ بمرضي، وفي حين أنتظر نتائج هذه التّحاليل اللعينة، لنُبْعد هذه الهواجس، لنُغيِّر وضعيتنا في السّرير، يستلقي طالب النّوم على طرف آخر من جسده وها هي انطلاقة جديدة، محاولة ثانية، لنتنفّس بعمق.

عربة ترام تترجرج تحت نافذتي، هي عربة أخرى تهبط شارع «بورتسلانغاسه». العربات التي تصعد الشّارع أكثر هدوءًا، أو ربّما عددها أقلّ بكلّ بساطة؛ من يدري، لعلّ البلديّة ترغب فقط في استقدام المستهلكين إلى وسط المدينة ولا تكترث كيف ستعيدهم إلى منازلهم. ثمة شيء موسيقي في هذا الترجرج، شيء من مقطوعة

«السّكة الحديديّة» التي ألّفها ألكان، لكن بوتيرة أبطأ، شارل فالنتين ألكان، أحد أساطين البيانو المَنسيّين، صديق شوبان وفرانتس لِيست وهاينرش هاينه وفيكتور هوغو، والذي يُقال أنّه لقي حتفه مسحوقًا تحت مكتبته وهو يحاول القبض على كتاب التّلمود من على سُلّم - قرأت أخيرًا أنّ الأمر غير صحيح على الأغلب، هي أسطورة أخرى نُسِجت حول هذا المؤلّف الأسطوريّ واللّامع للغاية لدرجة أنّه ظلّ طيّ النسيان لأكثر من قرن، لقد لقي حتفه، في ما يبدو، مسحوقًا تحت مشجب أو رفّ ثقيل توضع عليه القُبعات، لم يكن للتلمود أيّ علاقة بالأمر على الأرجح. في كلّ حال، إنّ مقطوعة «السّكة الحديديّة» التي ألّفها للبيانو، تنمّ عن مهارة فائقة، إذ نسمع فيها تصاعد بخار القطارات الأولى وصريرها؛ القاطرة تجري مع يد العازف اليمنى، بينما يده اليسرى تحرّك أذرعة التّوصيل، ما ينتج منه إحساس حقًا عجيب بتعاظم قوّة دفع المحرّك؛ أتخيّلُ أن أداء هذه المقطوعة عسيرٌ جدًّا - كيتش، كانت ستقول سارة بنبرة لاذعة، قصّة القطارات هذه في غاية الكيتش، وهي لن تكون مخطئة تمامًا في قولها هذا، فصحيحٌ أنّ المقطوعات التي تعتمد على تقليد الأصوات قد عفا عليها الزّمن نوعًا ما، إلّا أنّ بإمكاني الإنطلاق منها لكتابة مقالة، «أصوات القطارات: السّكة الحديد في الموسيقى الفرنسيّة»، فأضيف إلى لحن ألكان مقطوعة «الباسيفيك ٢٣١» لآرثر أونيغر، و«تجارب على القاطرات» للمستشرق فلوران شميت، و«أنشودة سكك الحديد» لبرليوز: باستطاعتي أنا أيضًا أن أؤلّف لحنًا قصيرًا، «عربات التّرام الخزفيّة»، للأجراس والكاسور والطّاسات التّبتيّة[1] سارة سوف ترى هذا في قمّة الكيتش أيضًا، لكن هل سترى أن

---

(١) آلات إيقاعية من التِبت لها شكل طاسة.

مقطوعة توحي بدوران دولاب الغزِل، أو بعَدْو حصان، أو بصوت قارب يتهادى على سطح الماء، هي بالدّرجة نفسها من الكيتش، بالتأكيد كلا، أذكُر أنها كانت، مثلي أنا، تُحب أغاني «اللّيد»[1] التي ألّفها شوبرت، كنّا غالبًا ما نتكلم عنها في أيّ حال. لا أقوى على انتزاع سارة من ذهني؛ لماذا وأنا أغوص في طراوة الوسادة، في نعومة وحُنُوّ الرّيش، جرّتني معها إلى متحف الشّمع العجيب هذا، مستحيلٌ أن أتذكّر - على أيّ بحث أو مقالة كانت تعمل حينذاك، حين انتقلتُ أنا إلى هنا، وبينما كان يُلازمني شعورٌ بأنّني مثل برونو فالتر الذي استُدعِيَ لمعاونة مالر العظيم في دار أوبرا فيينا كنتُ قد عدتُ منتصرًا من حملةٍ على الشّرق، من حملةٍ على دمشق تحديدًا، فطُلِب منّي معاونة أستاذي السّابق، فعثرتُ توًّا على هذا السَّكن الذي يبعد خطوتين من حرم الجامعة الرّائع حيث كنتُ سأبدأ التّعليم، هي شقّة صغيرة لا شكّ، لكن مريحة، بالرّغم من أصوات الحكّ التي تصدر من حيوان السيّد غروبر، وحيث الأريكة التي تتحوّل سريرًا، مهما كان رأي سارة فيها، هي لائقة جدًّا، والبرهان على ذلك: خلال المرّة الأولى التي أتت فيها إلى هنا، حين قمنا بزيارتنا العجيبة إلى متحف الجميلات المبقورات، نامت على هذه الأريكة لمدّة أسبوع في الأقلّ ولم تَصدُر عنها شكوى. كانت تقول إنّها في منتهى السّعادة لرؤية فيينا، إنّها في منتهى السّعادة أنّني جعلتها تستكشف فيينا، وإن كانت هي التي جرّتني إلى أماكن مريبة ومجهولة من المدينة. لقد أخذتُها طبعًا لرؤية منزل شوبرت والبيوت الكثيرة التي سكن فيها بيتهوفن؛ وبالطّبع صرفتُ ثروة (لم أعترف لها بذلك، إذ

---

(١) في الموسيقى الكلاسيكية، أغاني «الليد» (Lied أو Lieder) هي عبارة عن قصائد مُلحّنة.

كذبْتُ حول ثمن البطاقة) لكي نذهب إلى الأوبرا: «سيمون بوكانيغرا» لفيردي، الزّاخرة بالسّيوف والغضب العارم، من إخراج بيتر شتاين العظيم. كانت سارة في منتهى السّعادة في نهاية العرض، كانت مصعوقة ومذهولة، لكن يا إلهي كم بمقدور الأوبرا أن تغوص عميقًا في الكيتش! إلا أنّها استسلمت لسحر فيردي وألحانه، ليس من دون الإشارة، كعادتها، إلى مصادفة مُسلّية: هل لاحظْتَ أنّ هذه الشّخصيّة التي يتمّ التلاعب بها طوال العرض، تُدعى أدورنو؟ الرّجل الذي يعتقد أنّه على حقّ، الذي يتمرّد فيفشل، لكنّه يُنصَّب حاكمًا للمدينة في نهاية المطاف؟ كان أمرًا لا يعقل: فهي لا تستطيع أن تلجم عقلها ولو للحظة، حتّى في الأوبرا. ماذا فعلنا لاحقًا، لا شكّ في أنّنا استقللنا سيّارة أجرة لتصعد بنا إلى «هوريغر»[١]، فنتناول طعام العشاء وننعم بنسيم الرّبيع الدافئ بشكل إستثنائي، عندما تعبق تلال فيينا برائحة المشاوي والعشب وتنتشر الفراشات، هذا ما قد يُشعرني الآن بتحسّن، قليل من شمس حزيران بدلًا من هذا الخريف الأبديّ وهذا المطر المتواصل الذي ينقر على نافذتي - نَسيْتُ أن أسدل السّتائر، يا لحماقتي، أويت إلى السّرير مستعجلًا وأطفأت الضّوء، سيكون عليّ أن أنهض، لا، ليس الآن، ليس الآن وأنا في «هوريغر»، أشرب النّبيذ الأبيض تحت عريشة برفقة سارة وربّما نستذكر إسطنبول وسورية والبادية، من يدري، أو نتكلّم عن فيينا والموسيقى، عن البوذيّة التيبتيّة، عن زيارتنا المرتقبة إلى إيران. ليالي «غرنتسينغ»[٢] بعد ليالي تدمر، نبيذ الـ«غرونر فلتلينر» بعد النّبيذ اللبناني، عذوبة مساء ربيعي بعد سهرات دمشق القائظة. بعضٌ من

---

(١) نوع من الحانات النّمساويّة في الهواء الطّلق، تُقدّم النّبيذ والمأكولات.

(٢) منطقة في فيينا.

التوتُّر والإحراج. هل أسهبتُ وتبذاك في الحديث عن فيينا كـ«بوّابة الشّرق»، لقد صدمني نقدها اللاذع والمُحطّم لأحد كتبي المُفضلة، «الدانوب» لكلاوديو ماغريس: كانت تقول إن ماغريس يحنّ إلى أسرة آل هابسبورغ المَلكية، وإن كتاب «الدانوب» في غاية الإجحاف بحقّ البلقان؛ فالمعلومات التي يوردها تَشُحُّ شيئًا فشيئًا كلّما ابتعدَ أكثر فأكثر من نقطة انطلاقه. أول ألف كيلومتر من مجرى النّهر تحتّل أكثر من ثلثيّ الكتاب، فيما لا يُكرِّس سوى حوالي مئة صفحة للكيلومترات الألف والثمانمئة التاليّة: ما إن يغادر بودابست حتّى لا يعود لديه تقريبًا أيّ شيء ليقوله، موحيًا (على عكس ما أعلَنَه في مقدمته) أن كامل جنوب شرقي أوروبا أقل إثارة للاهتمام، أنّ ما من حدث أو مَعْلم ذي أهميّة هناك. إنّ هذا المنظور للجغرافيا الثقافية، يتمحور للغاية حول الإمبراطوريّة النمساويّة، هو بمثابة إنكار شبه مطلق لهوية البلقان وبلغاريا ومولدافيا ورومانيا، وخاصّةً لإرثها العثماني.

بمحاذاتنا، كانت ثمة طاولةُ يابانيين يلتهمون قطع «إسكالوب» مهيبة، تتدلى كآذان دباديب عملاقة من أطراف صحونهم على الرغم من حجم هذه الأخيرة المهول أيضًا.

تصاعدت حماستها خلال الحديث، وتلبّدت عيناها، فيما راحت زاوية فمها ترتجف بعض الشّيء؛ لم أقوَ على لجم قهقهاتي:

- أنا آسِف، لكنني لا أرى أين المشكلة؛ إذ أجدُ أن كتاب ماغريس ينمّ عن علم واسع، كتاب شاعريّ، حتّى أنّه مُضحك أحيانًا، هو كناية عن نزهة، نزهة في عوالم المعرفة والذات، فما الضّير في ذلك، لا شكّ في أنّ النّمسا مجالُ اختصاص ماغريس، فقد كتب أطروحةً عن التصوّرات المرتبطة بالإمبراطوريّة في أدب القرن التاسع عشر النّمساويّ، لكن ما الذي تريدينه، لن تنتزعي منّي

فكرة أنّ «الدانوب» كتاب عظيم، وقد لاقى، علاوة على ذلك، نجاحًا عالميًا.

- ماغريس يُشبهُكَ، هو مُصابٌ بالحنين إلى الماضي.

كانت طبعًا تبالغ، وللنّبيذ دورٌ في ذلك: منفعلة محتدمة، كان صوتها يعلو أكثر فأكثر لدرجة أن جيراننا اليابانيين أخذوا يلتفتون نحونا بين حين وآخر؛ شعرتُ بشيء من الحرج - أضف إلى ذلك أنّ سارة، وحتى لو بدت لي فكرتها عن التّحيّز إلى الإمبراطورية النمساوية في أواخر القرن العشرين، فُكاهية جدًّا ومُسلية، كانت قد أثارت استيائي بعبارة «الحنين إلى الماضي».

- الدّانوب هو النّهر الذي يربط بين الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة والإسلام، أضافت. هذا بيت القصيد: هو أكثر من صلة وصل، هو... هو... وسيلة نقل. إمكانية عبور.

نظرتُ إليها، كان يبدو أنّها هدأت تمامًا. كانت يدها على الطاولة، وقد أدنتها منّي قليلًا. حولنا في الحديقة الوارفة للحانة، بين الكروم، بين جذوع أشجار الصنوبر السّوداء، كانت النّادلات بمآزرهنّ المطرزة يركضن حاملات صواني ضخمة مُثقلة بأباريق يندلق بعضٌ من محتواها مع خطواتهنّ على الحصى، نبيذٌ أبيض أُخْرِج حديثًا جدًّا من البرميل لدرجة أنّه كان عكرًا ويرغي. كنتُ أودّ أن أستعيد ذكريات عن سورية، فوجدت نفسي أنَظر حول كتاب «الدانوب» لماغريس. سارة!

- لقد نَسيتِ الديانة اليهوديّة، قُلت.

إبتسمت لي، متفاجئة بعض الشّيء. لمع بريق خاطف في عينيها،

- أجل، بالطّبع، اليهوديّة أيضًا.

هل اصطحبتني إلى المتحف اليهوديّ قبل أم بعد ذلك، لم أعد

أذكر، لقد استشاطت غضبًا وصُدمت بقوّة حين رأت «الفقر المدقع» لهذا المتحف - حتّى أنّها كتبت «تعقيبًا مُلحقًا بالدّليل الرّسميّ لمتحف فيينا اليهوديّ»، نصٌّ بالغ السّخرية وفكاهيّ نوعًا ما. يجب أن أعود مجددًا إلى هذا المتحف في يوم من الأيّام لأرى ما إذا كانت أحواله قد تبدّلت؛ في تلك الفترة، كانت زيارته تتمّ طبقة تلو الأخرى: المعارض المؤقّتة أوّلًا، ثمّ المجموعات الدّائمة. بدت لها الجولة «الهولوغرافية»، ثلاثيّة الأبعاد، على كبار شخصيّات العاصمة اليهود، مبتذلة بشكل لا يوصف، صوَر تجسيميّة تَحلّ محلّ جاليةٍ أصابها الهلاك، محلّ أشباح، يا له من أمر بدهي ومُرعب! ذلك ناهيك بقباحة الصور. كانت سارة في بداية سخطها فقط. الطبقة الأخيرة جعلتها تنفجر من الضّحك، ضحكٌ تحوّل رويدًا رويدًا غيظًا حزينًا: كانت العشرات من واجهات العرض تفيض بأغراض من شتّى الأنواع، مئات من الكؤوس والشّمعدانات و«التّيفيلين»[1] والشّالات، آلاف من الخردوات اليهوديّة المُكوّمة بعشوائيّة، مُرفقة بشرح مقتضب ومُروِّع: «أغراض مسلوبة بين عامي ١٩٣٨ و١٩٤٥ لم يرجع أصحابها لاسترجاعها»، أو شيء من هذا القبيل، غنائم حرب عُثِر عليها بين أنقاض ألمانيا النّازيّة وكُدِّست تحت سقف متحف فيينا اليهوديّ وكأنّه تمّ توضيبها في عُليّة جَدَّةٍ فوضويّة بعض الشّيء، تراكُمٌ عبثي، أغراض بالية تَصلُح لمتجر أنتيكا وضيع. ما من شكّ لديّ، قالت سارة، أنّ من جَمَعَ هذه الأغراض كانت تُحرِكه النّيّات الفضلى، رغبة بانتزاع هذا الرّكام من سطوة الغبار كي لا يضيع معناه إلى الأبد. كانت تَضحك ثمّ تَغضب بالتناوب: لكن يا لها من صورة

(١) صندوق صغير من الجلد مُزوّد حزامًا، يحتوي على نصوص من التوراة، ويضعه بعضٌ من اليهود حول الجبهة أو الذراع خلال أداء الصلاة.

عن اليهود! حقًا يا لها من صورة! تَخيَّل تلاميذ المدارس الذين يزورون هذا المتحف، سيظنون أنّ هؤلاء اليهود الذين اختفوا، كانوا بورجوازيين مُرابين يهوون تكديس ما هبّ ودبّ من الخردوات في صناديقهم، وأعتقدُ أنّها كانت مُحقّة، فالمشهد هذا كان محبطًا موحشًا، وأشعرني بشيء من الذّنب.

السّؤال الذي استبدّ بعقل سارة عقب زيارتنا المتحف اليهوديّ، كان ذلك المتعلق بالغيريّة، كيف أن هذا المعرض كان يتحاشى مسألة الاختلاف من خلال التركيز على «كبار الشخصيات» التي تُبرز «التماثل»، وعلى مراكمة عديمة المعنى للأغراض، «تُسطّح»، بحسب قولها، الفروقات الدّينية والشعائرية والاجتماعية وحتّى اللغوية، وتستبدلها بالثقافة المادية لحضارة باهرة إندثرت. هذا يشبه تكديس الخنافس الفرعونية في واجهات عرض متحف القاهرة الخشب، أو مئات رؤوس السهام والمقاشط المهيبة المعروضة في متحفٍ لعصور ما قبل التاريخ، كانت تقول. الأغراض تملأ الفراغ.

ها أنّني كنتُ في «الهوريغر» منذ برهة، أنعَمُ، صافي الذهن، بأمسية ربيعيّة خلّابة، وها هو مالر يتسلل الآن إلى داخل رأسي، مصحوبًا بـ«الأناشيد الجنائزيّة لأطفال موتى» التي ألّفها قبل سنوات ثلاث من احتضانه جثة ابنته في قرية «مايرنيغ» الكائنة في ولاية «كيرنتن» النمساويّة، أناشيد لن يتّضح مدى الهَوْل الكامن في طياتها سوى بعد فترة طويلة على وفاته عام ١٩١١: فالتاريخ يُضخّم أحيانًا، بشكل مُروِّع، معنى عمل فني ما، يضاعفه ويُعظّمه في قلب الرعب. ليس هناك من مصادفات، كانت ستقول سارة المتأثّرة كثيرًا بالبوذية، فضريح مالر هو في مقبرة «غرنتسينغ»، على بعد خطوتين من هذا «الهوريغر» الشهير حيث أمضينا أمسيّة جميلة على الرّغم من «المشاجرة» الدانوبيّة، كما أن هذه «الأناشيد الجنائزية» هي تلحين

لقصائد كتبها روكرت، أول شاعر ألماني كبير كان مستشرقًا، هو وغوته، الشّرق، دائمًا أعود إلى الشّرق.

ليس هناك من مصادفات، لكنني ما زلت لم أسدل الستائر، كما أن هذا المصباح الذي اقتنيته من متجر في شارع «بورتسلانغاسه»، يُزعجني. تَشَجَّعْ: فهو أمرٌ شاقٌّ على الذي أوى لتوه إلى سريره أن ينهض مجددًا، أكان قد أغفل قضاء حاجة طبيعية راح جسده يُذكّره بها فجأة، أم نسيَ المنبّه بعيدًا منه، يا له من أمر خَرائي، إذا أردنا التكلم بسوقية، أن نضطر إلى إزاحة اللحاف والبحث بأصابع القدمين عن الخفيْن اللذين لا ينبغي أن يكونا بعيدَيْن، ثمّ عدم الاكتراث بالخفيْن لأن المسافة قصيرة جدًّا، فالقفز نحو حبل الستارة، ثمّ عقد العزيمة على الانعطاف سريعًا باتجاه المرحاض للتبوّل جلوسًا بينما القدمان في الهواء لتفادي ملامسة البلاط البارد كالثلج، ثمّ القيام بالرحلة العكسية بأسرع ما يمكن للعودة أخيرًا إلى الأحلام التي لم يكن ينبغي هجرانها أبدًا؛ لا أزال أسمع اللحن نفسه يلعب داخل رأسي الذي أضعه للمرّة الثانية على الوسادة، فأشعر بارتياح - خلال مراهقتي، كانت هذه المقطوعة هي الوحيدة لمالر التي كنتُ أقوى على تحمُّلها، بل حتّى إنها كانت إحدى المقطوعات النادرة التي بإمكانها أن تثير عواطفي وتجعلني أذرف الدموع، نحيبُ هذا المزمار، هذا الغناء المرعب، كنتُ أخفي شغفي هذا كأنه عاهة معيبة بعض الشيء ومن المحزن جدًّا أن نشهد في يومنا الراهن على هذا الكم من الابتذال الذي يتعرض له مالر، أن نرى السينما والإعلانات تبتلعه، ووجهه النحيف والجميل مُستهلَكًا للغاية بهدف بيع سلع وحده الله يعلم ما هي، ينبغي كبح النفس لكي لا نكره هذه الموسيقى التي تزدحم في برامج فرق الأوركسترا، في صناديق بائعي الأسطوانات، على محطات الراديو وقد توجّب في العام الماضي،

خلال الذكرى المئوية لوفاته، صمّ الأذنَين لدرجة ما صارت ألحان مالر تَئِزّ من فيينا عبر جميع شقوق المدينة، كُنا نرى السُيَّاح يرتدون بفخر قمصان الـ«تي شيرت» وصورة غوستاف مطبوعة على صدورهم، كنا نراهم يشترون المُلصقات ولُعب المغناطيس التي تُعلّق على البرادات وبالتأكيد كان هناك حشد كبير في مدينة «كلاغنفورت» لزيارة كوخه المحاذي بحيرة «ورثير سي» - لم أذهب أبدًا إلى هناك، هذه نُزهة يمكن اقتراحها على سارة، أن نجوب ولاية «كيرنتن» الغامضة: ليس هناك من مصادفات، فالنمسا تمتدّ في وسط أوروبا بيني وبينها، النمسا هي حيث التقينا لأول مرّة، وقد انتهى بي المطاف بالعودة إليها، وسارة لم تنفك أبدًا تزورني هنا. الكارما أو القدر، مهما كانت التسمية التي نُطلقها على هذه القوى التي تُؤمِن بها سارة: المرّة الأولى التي التقينا فيها كانت في «ستيريا»، لمناسبة ندوة هي بمثابة أحد القداديس الكبرى للاستشراق، يقيمها بانتظام جهابذة اختصاصنا الذين، حسب الأصول المرعية، رضوا بمُشاركة بعضٍ من «الباحثين الشّباب» - معمودية النار بالنسبة إليّ وإليها. أتيتُ من توبنغن بالقطار، من طريق شتوتغارت ونورنبرغ وفيينّا، مُستغلًّا هذه الرحلة الخلابة لوضع اللمسة الأخيرة على مداخلتي («المَقام والمسافة في نظرية الفارابي الموسيقية»، عنوان في منتهى الإدعاء إن أخذنا في الإعتبار قلّة المعلومات الأكيدة التي يتضمنها هذا المُلخّص عن رسالتي للماجستير)، ولقراءة «عالم صغير»، رواية دايفيد لودج المُضحكة جدًّا، والتي ظننتُ حينذاك أنها تُشكّل أفضل مقدمة عن العالم الأكاديمي (لم أعِد قراءتها منذ فترة طويلة، هذه فكرة جيدة، هذا ما قد يؤنسني خلال أمسية شتاء طويلة). سارة كانت ستُقدّم ورقة أكثر ابتكارًا واكتمالًا من مداخلتي بأشواط، «العجائبية في كتاب 'مروج الذهب' للمسعودي»، وهي مُقتطفٌ من رسالتها للماجستير.

بصفتي «الموسيقي» الوحيد، وجدت نفسي بين جَمْعٍ من الفلاسفة؛ استغربتُ مُشاركة سارة في طاولة مستديرة حول «الأدب العربي والعلوم الباطنية». كانت الندوة أقيمت في منطقة «هاينفلد»، بقصر جوزيف فون هامر-بورغشتال، أوّل مستشرق نمساوي كبير، مُترجم «ألف ليلة وليلة» وديوان حافظ الشيرازي، مؤرّخ الدولة العثمانية، صديق سِلفستر دي ساسي وكل ما كانت تَعُدُّه شلّة مستشرقي تلك الفترة من أعضاء، والوريث الوحيد لإحدى عائلات «ستيريا» الأرستقراطية التي حصل منها كتَرِكة، عام ١٨٣٥، على لقبه وعلى هذا القصر الذي هو الأضخم في سائر المنطقة. فون هامر-بورغشتال، أستاذ فريدريش روكرت (علّمه الفارسية في فيينا وترجم برفقته مقتطفات من «ديوان شمس الدّين التبريزي» للرومي)، هو صلة تربط بين قصر مَنْسي في «ستيريا» و«الأناشيد الجنائزية لأطفال موتى»، صلة تربط بين مالر من جهة، وأشعار حافظ ومستشرقي القرن التاسع عشر من جهة ثانية.

بحسب برنامج الندوة، كانت جامعة «غراتس» التي استضافتنا في القصر المرموق، نظّمت الأمور على أكمل وجه؛ كنا سنبيت في «فيلدباخ» أو «غلايسدورف»، وهما بلدتان صغيرتان على مسافة قريبة جدًّا من القصر؛ وكانت حافلة «استُئجِرت خصيصًا» لذلك، ستقلّنا كلّ صباح من «هاينفلد» وتعيدنا مساءً بعد تناول العشاء الذي «سيقَدَّم في نُزُل القصر»؛ وكانت ثلاث من صالات المبنى قد هُيّئت للمناقشات، واحدة منها هي المكتبة البديعة لفون هامر نفسه، والتي كانت رفوفها لا تزال مُحمَّلة بمجموعات كتبه؛ وأخيرًا، لتتويج كلّ ذلك، كان مكتب «ستيريا» السياحي سينظّم مناسبات لـ«تذوق المنتوجات المحلية وشرائها»: كلّ ذلك كان «يدعو إلى التفاول»، كما قد تقول سارة اليوم.

كان المكان مذهلًا تمامًا.

خنادق مائية عريضة وأخّاذة، محشورة بين مزرعة حديثة وغابة صغيرة ومستنقع، كانت تحيط بمبنى من طبقتين، أسطحُه حادّة وذات قرميد غامق اللون، يحوي باحة مُربّعة يبلغ طول كلّ ضلعٍ من ضلوعها خمسين مترًا - كانت هندسة القصر غريبة للغاية إلى حدّ أنه يبدو من الخارج، وبالرّغم من أبراجه العريضة، بالغ الانخفاض بشكل غير متناسب مع ضخامة حجمه، كأن يدَ عملاقٍ سحقته في وسط السهل. على الجدران الخارجية القاتمة، كان الطلاء الرمادي ينحسر في بقع كبيرة، كاشفًا الحجارة المرصوفة، ووحده المدخل الفسيح - نفق طويل ومُظلم، سقفه مقوَّس - كان مُحافظًا على تألقه القوطي. أمام العتبة، فوجئ جميع المستشرقين بكتابة عربية منقوشة على الحجر فوق البوابة، تُبارك الزوار وتَقي المنزل وسكانه من الشر: ما من شكّ في أن هذا هو القصر الوحيد في سائر تلك الأنحاء الذي يَرفع اسم الله العظيم على واجهته. تَساءلتُ وأنا أنزل من الحافلة، عمّا يتأمله هذا القطيع من الجامعيين، رافعين أنوفهم نحو السماء، قبل أن أقف مشدوهًا أيضًا أمام هذا المُثلّث الصغير من الزخرفة العربية التائه في الأراضي الكاثوليكية، على بعد بضعة كيلومترات من الحدود المجريّة والسلوفينيّة: هل أحضر هامر معه هذا النقش من إحدى رحلاته الكثيرة، أم أوكل إلى نحات محليّ مهمة نسخه الشّاقة؟ لم تكن عبارة الترحيب العربية هذه، سوى أولى المفاجآت، تلتها مفاجأة ثانية هي أيضًا ذات شأن: فحَالَ اجتيازنا نفق المدخل، شعرنا فجأة بأننا دخلنا ديرًا إسبانيًا، بل رواقَ ديرٍ إيطالي؛ سلسلة لامتناهيّة من الأروقة المُحاطة بالأعمدة، من الأقواس بلون التربة الحمراء، كانت تتعاقب على طبقتين حول الفناء الشاسع، لا يعترضها سوى مُصلّى كَنَسِي أبيض قوطي الطراز، برجه

الذي على شكل بصلة يشذ عن الطابع العام للمكان. كانت حركة تنقلات القصر بأكملها تتم إذًا عبر هذه الشرفة المترامية الأطراف التي تَطلُّ عليها، بانتظام رهباني، الغرف الكثيرة الكثيرة، أمرٌ جد مُستغرب في ناحية معزولة من النمسا لم يكن يُعرف مناخها أنه من بين الألطف في أوروبا، لكنّه يجد تفسيرًا في أن المهندس، كما علمت لاحقا، إيطاليٌّ لم يزرْ المنطقة سوى خلال فصل الصيف. كان وادي نهر «الراب» يتخذ إذًا شرط بقائنا في هذا الفناء العملاق، طابعًا توسكانيًا. كنّا في بداية تشرين الأول، وكان الطقس سيئًا في اليوم الذي تلى وصولنا إلى «ستيريا»، إلى منزل المرحوم جوزيف فون هامر-بورغشتال؛ كنتُ مُنهكًا بعد رحلتي في القطار، فأمضيتُ ليلةَ سباتٍ عميق كغيبوبة، في نُزُل صغير ولائق في قرية بدت لي (ربّما نتيجة إرهاق السفر، أو بسبب انتشار الضباب الكثيف على الطريق المتعرّج بين التلال، الذي سلكته آتيًا من مدينة غراتس) أبعد بكثير ممّا فهمته من المنظمين، سبات عميق كغيبوبة، أهذا أنسبُ وقت للتفكير في هذا الأمر، ربّما عليّ الآن أيضًا، أن أجد وسيلة لإرهاق نفسي، رحلة قطار طويلة، الركض في الجبال، التسكّع في الحانات المشبوهة في محاولة للعثور على قطعة أفيون صغيرة، لكن احتمال مصادفة جماعة من مدخّني الأفيون الإيرانيّين في منطقة «ألزرغوند» ضئيل جدًا: للأسف أن أفغانستان التي وقعت في يومنا هذا ضحية الأسواق العالمية، تُصدّر بشكل خاص الهيروين، هي مادة مخيفة حتّى أكثر من الأقراص التي يصفها لي الدكتور كراوس، لكن كلّي أمل، أملٌ بأنني سأغفو، وإن لم يحصل ذلك، فستشرق الشمس أخيرًا في لحظة ما. لا يزال هذا اللحن المشؤوم يطُنّ في رأسي. قبل سبعة عشر عامًا (لنحاول تغيير وضعيتنا في السرير كي نطرد روكرت ومالر وجميع الأطفال الموتى)، كانت سارة أقل تطرفًا

في مواقفها، أو ربما على القدر نفسه من التطرف، لكن أكثر خجلًا؛ أحاول أن أستحضرها مجددًا وهي تنزل من الحافلة أمام قصر «هاينفلد»، أن أرى شعرها الأصهب الطويل والمُجعّد؛ وجنتاها الممتلئتان، والنمش المتناثر على وجهها، كانت تمنحها هيئة طفولية تتناقض مع نظراتها العميقة التي تكاد أن تكون قاسيّة؛ حتّى خلال تلك الفترة، كان لوجهها ولون بشرتها وشكل عينيها صبغة شرقية ما، أخذت تبرز أكثر فأكثر مع تقدم السن في ما يبدو لي، ينبغي أن يكون لدي صور في مكان ما، بالتأكيد هي ليست صورًا من «هاينفلد»، لكن ثمة صورًا كثيرة منسيّة من سورية وإيران، صفحات من ألبومات، أشعر الآن بهدوء كبير، بخَدَر، تُهدهدني ذكرى تلك الندوة النمساوية وقصر هامر-بورغشتال، ذكرى سارة في الباحة، بينما تتأمل النقش العربي وتهزّ برأسها غير مصدقة والذهول بادٍ على وجهها، الرأس ذاته الذي غالبًا ما رأيته يتأرجح بين الدهشة، والحيرة، والبرودة اللامبالية، البرودة التي أبدتها بعد مُداخلتها، وأنا ألقي التحيّة عليها للمرّة الأولى، مفتونًا بنصّها، وبجمالها الباهر، وبخصلة شعرها البنية المائلة إلى الإحمرار التي كانت تحجب وجهها حين راحت، متأثرة بعض الشيء خلال الدقائق الأولى، تقرأ بحثها عن مُسوخٍ ومعجزاتِ كتاب «مروج الذهب»: كائنات الغول المرعبة، الحن والجن والنسانيس والهواتف، المخلوقات الغريبة والخطيرة، السحر والتنجيم والشعوذة، الشعوب النصف آدمية والحيوانات العجائبية. أقتربُ منها مخترقًا زحمة العلماء المحتشدين، خلال فترة الإستراحة، حول طاولة «البوفيه» على إحدى تلك الشرفات المُحاطة أروقتها بالأعمدة، والمُطلّة على الباحة ذات الطابع الإيطالي للغاية. منزوية بمفردها، مُتكئة على الدرابزين وممسكة بفنجان فارغ، هي تتأمل واجهة المُصلّى الكنسي البيضاء التي ينعكس عليها ضوء

الشمس الخريفي فأقول لها عُذرًا، إن مُداخلتُكِ حول المسعودي رائعة، هذا الكمّ من المسوخ أمر لا يُعقل، فتبتسم لي بلطف من دون أن تُجيب بشيء، وتَنْظُر إليّ أتخبّط في صمتي وخجلي: أُدركُ فورًا أنها تنتظر لترى ما إذا كنت سأغوص في التفاهات. أكتفي بأن أقترح عليها أن أملأ فنجانها، فتبتسم لي ثانية، وبعد خمس دقائق صرنا في خضمّ حديث شيّق، نتكلم عن الجن وكائنات الغول؛ الأمر المُبهر، تقول لي، هو التصنيف الذي يلجأ إليه المسعودي، فيميّز بين مخلوقات «حقيقية»، «مُوثّقة»، وأخرى هي فبركات الخيال الشعبي البحت: فالجنّ وكائنات الغول حقيقية جدًّا بالنسبة إليه، هو يجمع عنها شهادات مقبولة بحسب معايير البُرهان الخاصة به، في حين أن النسانيس على سبيل المثل، أو كائنات «الغرفين» وطيور الفنيق، هي أساطير. يُطلعنا المسعودي على تفاصيل كثيرة متعلقة بحياة مخلوقات الغول: بما أن مظهرها وغرائزها تعزلها عن جميع الكائنات الأخرى، يقول المسعودي إنها تبحث عن الإنزواء الأكثر توحشًا ولا يروق لها العيش سوى في الصحارى. شكل أجسادها دليل على أنها مُتحدرة من البشر ومن الحيوانات الأكثر شراسة على حد سواء. ما يثير اهتمام «عالم الطبيعيات» هذا، هو فِهم كيفية ولادة مخلوقات الغول وتكاثرها، ومعرفة ما إذا كانت حقًّا حيوانات: هو يرى أن العلاقات الجنسية مع البشر، في وسط الصحراء، هي احتمالٌ ممكن. لكن الفرضية التي يُرجحها على غيرها هي تلك التي يطرحها علماء بلاد الهند، والقائلة إن كائنات الغول هي تَجلٍّ لطاقةِ بعض النجوم عند بروزها في السماء.

ينضم أحد المشاركين في الندوة إلى حديثنا، يبدو أن إمكان الجماع بين البشر ومخلوقات الغول يثير اهتمامه كثيرًا؛ هو فرنسيٌ ودودٌ إلى حدٍّ ما، إسمه مارك فوجيه ويُعرِّف عن نفسه، بكثير من

الفكاهة، كـ«مختصّ بالجماع العربي» - إنطلقَتْ سارة في شروحات مُروِّعة نوعًا ما، حول سِحر هذه المسوخ: تقول إنه في اليمن، وفي حال اغتَصب غولٌ رجلًا خلال نومه - الأمر الذي يمكن التثبت منه عبر ارتفاع الحرارة وانتشار بثرات في غير محلها -، يُستخدم حينئذٍ ترياق هو مزيج من الأفيون ومن نباتات تنبت وقت بروز نجمة الكلب، كما تُستخدم طلاسم وتعويذات أيضًا؛ وينبغي، في حال الوفاة، حرق الجثة في الليلة التالية تجنبًا لولادة غول. إن بقيَ المريض على قيد الحياة، وهو أمر نادر، يُوشم صدره برسم سحري - من ناحية أخرى، ما من كاتب يَصف، في ما يبدو، ولادة المسخ... كانت مخلوقات الغول المُرتدية خرقًا رثّة وأقمشة عتيقة، تسعى إلى تضليل المسافرين بواسطة أغانٍ تنشدها لهم؛ هي بمثابة حوريات الصحراء إلى حدّ ما: وإن كان مظهرَ هذه المخلوقات الحقيقي مظهرُ جثّةٍ متحللة، ورائحتَها الفعلية رائحةُ جيفةٍ نتنة، فهي تتمتع مع ذلك بقدرة على التحول واتخاذ هيئة تفتن الرّجل التائه. يُخبرنا شاعرٌ جاهلي، يُلَقّبَ بـ«تأبّط شرّا»، عن علاقة حبّ جمعته بغول أنثى، فيقول:

فأصبحت الغول لي جارة ... فيا جارتا لك ما أهولا
فطالبتها بضعها فالتوت ... علي وحاولت أن أفعلا
فمن كان يسأل عن جارتي ... فإن لها باللوى منزلا

يبدو على الفرنسيّ أنه يستمتع بهذه القصص المقيتة؛ أما أنا، فأجد حكاية العشق هذه بين الشاعر والمسخ مؤثرة نوعًا ما. حديث سارة لا ينضب؛ تُواصل الكلام على هذه الشرفة بينما يعود العلماء بمعظمهم إلى أشغالهم وطاولاتهم المستديرة. بعد وقت قصير، نبقى نحن الثلاثة في الخارج لوحدنا، فيما راح المساء يهبط؛ الضوء

برتقالي: آخر فَضلات الشمس أو أولى شرارات المصابيح الكهربائية في الباحة. شعر سارة يلمع.

- هل تعلمان أن قصر «هاينفلد» يحتوي على مسوخ وعجائب؟ إنه منزل هامر المستشرق بكل تأكيد، لكنّه المكان الذي ألهَمَ شيريدان لي فانو كتابة روايته «كارميلا» أيضًا، أوّل قصّة عن مصاصي الدماء، ستصيب بالقشعريرة أعضاء المجتمع الراقي في بريطانيا قبل عشر سنوات من رواية «دراكولا». إن أوّل مصاص دماء في الأدب هو امرأة. هل رأيتما العرض في الطبقة الأرضية؟ إنه فعلًا مُدهش.

إن طاقة سارة غير معقولة؛ هي تذهلني؛ سوف أتبعُها عبر ممرات القصر الشاسع. انصرَفَ الفرنسي إلى شؤونه العلميّة؛ أما نحن، فأخذنا كتلميذَين هاربَين من المدرسة، نبحث، في عتمة الظلال والمُصلَيات الكنسية المَنسية، عن ذكريات مصاصي دماء منطقة «ستيريا» الغامضة - لقد أقيم العرض في السرداب تحت الطبقة الأرضية، داخل أقبيّة مقوّسة السقوف جُهّزت خصيصًا لهذه المناسبة؛ نحن الزائران الوحيدان؛ في أول صالة، ثمة تماثيل كبيرة من الخشب المطلي تُمثّل المسيح مصلوبًا، إضافة إلى فُؤوس، ورماح قديمة، وتصويرات للإعدام حرقًا - نساء مُشتعلات في خرق بالية: «ساحرات فيلدباخ»، بحسب الشرح؛ إن مصمم السينوغرافيا لم يُجنّبنا حتّى الأصوات: عويلٌ بعيدٌ تَغمُره فرقعة الخشب المتوحشة. أشعر باضطراب وأنا أبصر جمال هؤلاء النساء اللواتي يدفعن ثمن تواصلهنّ مع الشيطان وقد رسمهنّ فنانو القرون الوسطى نصف عاريات، أجسادًا تتماوج بين ألسنة النار، حوريات ملعونة. سارة تتأمل وتُعلّق، سعة علمها لا تُعقل، كيف لها أن تَعرف كلّ هذه الحكايات، كلّ هذه القصص عن منطقة «ستيريا» في حين أنها هي أيضًا قد وصلت لتوها إلى «هاينفلد»، أمرٌ يكاد يكون مقلقًا. بدأ الخوف يعتريني، أشعر

باختناق داخل هذا القبو الرطب. القاعة الثانية مخصصة للعقاقير السحريّة؛ ثمّة حوض من الغرانيت، نُقشت عليه أحرف بالأبجدية الرونية، يحتوي على سائل أسود لا يثير الشهية ونَصدح، لدى الإقتراب منه، موسيقى بيانو أعتقد أنني أميّز فيها لحنًا لجورج غوردجييف، إحدى مقطوعاته التي تتسم بالباطنيّة؛ على الحائط، ناحية اليسار، رسمٌ لتريستان وإيزولده في قارب وأمامها لعبة شطرنج؛ تريستان يشرب من كأس كبيرة يُمسكها بيده اليُمنى بينما خادم يعتمر عمامة يَصُب من قِرْبَةٍ شرابَ الحب لإيزولده التي تنظر إلى رقعة الشطرنج وتمسك بأحد أحجار اللعبة بين الإبهام والسبابة - وخلفهم الخادمة برانجين تُراقبهم، والبحر الذي لا حدود له يفرد بساط تَمَوُّجاته. يتملّكُني فجأة إحساسٌ بأننا في الغابة المُظلمة، وقرب النافورة الغرانيتية، غابة ونافورة أوبرا «بيلياس ومِيليساند»؛ تلهو سارة بخاتم ترميه في السائل الأسود، ما يتسبب في ارتفاع مستوى صوت لحن جورج غوردجييف الرحب والغامض؛ أنظر إليها جالسة على حافة الحوض الحجري؛ خصائل شعرها المجعّدة والطويلة تداعب الأحرف الرونية، بينما تغوص يدها في المياه الداكنة.

القاعة الثالثة - من دون شك مُصلّى كنسي قديم - هي صالة «كارميلا» ومصاصي الدماء. تروي لي سارة كيف أمضى الكاتب الإيرلندي شيريدان لي فانو شتاءً كاملًا في قصر «هاينفلد» قبل بضع سنوات من استقرار هامر المستشرق فيه؛ إن «كارميلا» مستوحاة من قصة حقيقية، تقول لي: الكونت بورغشتال قد آوى بالفعل تحت سقف بيته فتاة يتيمة من أقاربه تُدعى كارميلا، فنشأت فورًا، بينها وبين ابنته لورا، صداقة عميقة وكأن معرفة الواحدة بالأخرى تعود إلى زمن غابر - بسرعة خاطفة، أضحت العلاقة بينهما وطيدة جدًا، فصارت كلّ منهما تبوح للأخرى بأسرارها وأهوائها. راحت لورا

تبصر في مناماتها حيوانات عجائبيّة تزورها في الليالي وتعانقها وتداعبها؛ وكانت مخلوقات هذه الأحلام تتحوّل أحيانًا، مُتلبّسة هيئة كارميلا، لدرجة أن لورا أخذت أخيرًا تتساءل ما إذا كانت كارميلا شابًا مُتنكرًا، الأمر الذي قد يُفسّر ما كانت تشعُر به من اضطراب. أصيبت لورا بمرض اكتئابٍ ووهنٍ عجز جميع الأطباء عن شفائه، إلى أن علم الكونت بحالة مماثلة على بعد بضعة أميال من هنا: فقبل سنوات عدّة، لقيت صبية حتفها وكان ثمّة ثقبان دائريّان في أعلى عنقها؛ كانت وقعت ضحية مصاصة الدماء ميلاركا كارنشتاين. كارميلا ليست سوى تَقَمُّصُ ميلاركا كما أن اسمها ليس سوى اسم الثانية مقلوبة أحرفه؛ إنها هي التي تمتصّ حياة لورا - سيتوجب على الكونت قتلها وإعادتها إلى القبر عبر اللجوء إلى طقس شعائري مُرعب.

في عمق السرداب، حيث لوحات حمر كالدم كُتِبتْ عليها شروحات حول علاقة «هاينفلد» بمصاصي الدماء، ثمة سرير ذو قبة، سرير مُرتب أبيض الشراشف، غُطّي رأسه الخشبي بحرير لامع، وأَضاءَه مصمم سينوغرافيا هذا العرض من الأسفل، بواسطة إنارة خافتة جدًا؛ وثمة، ممدٌ على السرير، جسد شابة في فستان رقيق وشفاف، تمثالٌ من الشمع يُحاكي النوم أو الموت؛ هناك علامتان حمراوان على جذعها، على مستوى الثدي الأيسر الذي تمكن رؤيته بالكامل من خلال الحرير المُخرّم - تقترب سارة، مفتونة؛ تنحني فوق المرأة، تُداعب بلطف شعرها وصدرها. أشعر بالانزعاج، أتساءل عن معنى هذا الشغف المباغت قبل أن تتملكني أنا الآخر رغبة خانقة: أروح أنظُر إلى فخذيّ سارة في الجوربين النسائيين السوداوين، يحُفّان بقماش قميص النوم الأبيض الرقيق، أراقب يداها تُلامسان بطن التمثال بخفة، أشعر بالخجل نيابة عنها، بخجل شديد،

أغرَق فجأة، آخذُ نفسًا عميقًا، أرفع رأسي عن وسادتي، الظلام يحيط بي، تبقى هذه الصورة الأخيرة في ذهني، هذا السرير من الطراز الباروكي، هذا السرداب المُخيف والذي يبعث على السكينة في الوقت عينه، أفتح فمي على اتساعه لكي أتنشق هواء غرفتي المُنعِش، لكي أشعر مجددًا بملمس الوسادة المُطمئِن، بثقل اللحاف.

عارٌ ممزوج بآثار رغبة، هذا ما تَبقّى.

نستيقظ من دون أن نكون قد غفونا، محاولين التقاط بقايا لذة الآخر في دواخل ذاتنا.

ثمّة زوايا من السهل الإضاءة عليها، وأخرى أكثر ظلامًا. على الأرجح أن للسائل الأسود علاقة ما بالمقالة المُروعة التي وصلتني هذا الصباح. مُضحكٌ كيف أن مارك فوجيه يدعو نفسه إلى داخل أحلامي، فأنا لم أعد ألتقي به منذ سنوات. مختصّ بالجماع العربي: هذا ما قد يجعله يُقهقه عاليًا. بالطبع، هو لم يكن حاضرًا خلال هذه الندوة. لماذا ظهر إذًا في هذا المكان، عبر أيّ تداعي أفكار سرّي، من المستحيل معرفة ذلك.

هو فعلًا قصر «هاينفلد»، لكن أضخم ممّا هو عليه في الواقع في ما يبدو لي. إحساسٌ جسديٌّ عارم بالفقدان يجتاحني الآن، وجع الفراق، كما لو أنني حُرمت للتو من جسد سارة. العقاقير السحرية، الأقبية، الفتيات الميتات - يبدو لي، حين أعيد الآن التفكير في الأمر، أنني كنت أنا نفسي ممددًا هناك، تحت قبة السرير، أشتهي بحرارة، على فراش موتي أنا، مُلامسات سارة المواسيّة. الذاكرة حقًا مُدهشة، غوردجييف المريع، يا إلهي! ما الذي أتى بهذا المُستشرق العجوز، هذا المشعوذ العليم بالأمور الباطنية، إلى هنا، أنا متأكد أن هذا اللحن الرقيق والساحر ليس له. إن المنامات تُركّب الأقنعة واحدًا فوق الآخر، وقد كان هذا القناع غامضًا بالفعل.

مَن ألّف موسيقى البيانو هذه، إن اسمه على طرف لساني، لعله شوبرت، كلا، ربّما مقطع من «أغنيات بلا كلمات» لمندلسون، في أي حال، هي ليست موسيقى أستمع إليها غالبًا، هذا أمر أكيد. إن غفوت فورًا، لعلني أعثر على هذه المقطوعة، وعلى سارة ومصاصي الدماء أيضًا.

على حد علمي، لم يكن ثمّة سرداب في قصر هاينفلد، لا سرداب ولا عرض، كان في الطبقة الأرضية نُزُل يقدم «الإسكالوب» وحساء «الغولاش» والـ«سرفيتنكنودل» - صحيحٌ أننا تقاربنا على الفور، أنا وسارة، وحتّى من دون مخلوقات الغول وممارساتها الجنسية الخارقة الطبيعة، وتناولنا معًا جميع وجبات الطعام، وتفحصّنا مطوّلا رفوف مكتبة جوزيف فون هامر-بورغشتال المُدهش. تَرجمتُ لها العناوين الألمانية التي استصعبَت قراءتها؛ لقد أتاح لها مستواها في العربية، الأعلى من مستواي بكثير، أن تشرح لي مُحتوى المؤلفات التي لم أكن أفهم منها شيئًا على الإطلاق، فبقينا فترة طويلة لوحدنا، كتفانا متلاصقتان، بينما كان تهافت المستشرقون كلّهم إلى النُزُل، خشية ألّا تكفي البطاطا الجميع - لم أعرفها سوى من البارحة فقط وها نحن نقف مُتلاصقَين، مُنحنيَين فوق كتاب قديم؛ لا بد من أنّ نظري كان يزوغ وصدري ينقبض، كنت أستنشق للمرّة الأولى عبير خصائل شعرها المُجعّد، أختبر للمرّة الأولى سطوة ابتسامتها وصوتها: من الغريب التفكير في أننا، في هذه المكتبة التي تَطُلُّ نافذتها الكبيرة (وهي الشيء الوحيد الذي يكسر رتابة الواجهة الخارجية) على شرفة صغيرة تعلو الخندق المائي، كنا نُمسك، من دون إشرافٍ من أحد، بمجموعة فريدريش روكرت الشعرية التي في داخلها إهداء بخط يده إلى أستاذه القديم هامر-بورغشتال - خطٌّ عريض ومُنبسط، إمضاء معقّد ومُصْفَرّ بعض الشيء، مُورَّخ من

«نويس»، التي تقع في إحدى أنحاء بلاد «الفرنجة»، عام ١٨٣٦ - بينما يرتعش أمامنا، على حافة المياه، هذا القصب العطري المُسمى عود الوَجّ والذي كانت تُصنع منه أقلام الخطاطين القُدامى. «بشنو از نى چون حكايت ميكند»، «أنصتْ إلى النّاي يحكي حكايته»، يفتتح جلال الدّين الرومي ديوان «المثنوي» وكانت شِبْه أعجوبة أن نكتَشِف أن هذين المُترجمَيْن عن الفارسية، هامر وروكرت، هنا معًا، بينما القصب في الخارج يُقدّم لنا عرضًا مَهيبًا يمزُج بين الحواس المختلفة، مُستحضرًا، دفعة واحدة، أغاني «الليد» لشوبرت وشومان، الشعر الفارسي، النباتات المائية التي تُصنع منها آلات الناي هنالك في الشّرق وجسدانا الجامدان، بالكاد يتلامسان في ضوء شبه منعدم داخل هذه المكتبة ذات الرفوف الضخمة التي تقوّست تحت عبء السنين أو نتيجة ثقل المُجلدات التي وراء الواجهات المُزخرفة النفيسة. قرأتُ لسارة بضع قصائد من كتاب روكرت، حاولتُ ترجمتها قدر استطاعتي - على الأرجح أن ترجمتي الفورية هذه لم تكن باهرة جدًّا، لكنني لم أرِد لهذه اللحظة أن تنقضي، فأخذت كامل وقتي، أعترف بذلك، أما هي، فلم تبادر إلى أي حركة من شأنها اختصار تردّداتي، كما لو أننا كنا نقرأ قَسَمًا ما.

قَسَمٌ مُضحك، فهي لم تَعُد تذكر تلك اللحظة في الغالب، أو بالأحرى لم تُعلّق عليها أبدًا الأهمية ذاتها التي علّقتها أنا، والدليل أنها ارسلتْ إليّ هذا الصباح، من دون كلمة تحيّة أو أي شرح، هذه المقالة الشاذة، المخالفة للطبيعة والتي راحت تُسبب لي كوابيس كالتي قد يبصرها مُدمن أفيون عجوز ومُخضرم.

لكن الآن وعيناي مفتوحتان على وسعيهما، مُتنهدًا ومحمومًا بعض الشيء، عليّ محاولة أن أغفو من جديد (بطتا ساقيّ ترتعشان قليلًا، أشعر بحرّ شديد وأنا أقاسي بردًا قارسًا، إذا جاز التعبير) وأن

أنسى سارة. لم يعد عَدّ الأغنام وسيلة مُتّبعة لمحاربة الأرق؛ «اِذهبْ إلى مكانك السعيد والآمن»[1]، سمعْتُهم يقولون، في مسلسل تلفزيوني، لرجل يحتضر، تُرى أين يقع «مكاني السعيد والآمن»، أفي حيّز ما من الطفولة، على شاطئ بحيرة من منطقة «زالسكامرغوت» في فصل الصيف، خلال عرضٍ لـ«أوبريت»[2] لفرانتس ليهار في قرية «باد آيشل»، أو في مدينة ملاهٍ، برفقة أخي، حيث كنا نلعب بسيارات التصادم، ربّما عند جدّتي في إقليم تورين الفرنسي، منطقة كانت تبدو لنا مدهشة بصورة إستثنائية، أرضٌ غريبة لكن ليس تمامًا، حيث لُغتنا الأمّ التي كنا نخجل بها قليلًا في النمسا، تتحول بغتة لغة سائدة: كان كلّ شيء في «باد آيشل» إمبراطوريًا وراقصًا، أما في تورين، فكل شيء فرنسي، كنا نذبح الدجاج والبطّ، نَجمع الفاصولياء الخضراء، نصطاد عصافير الدوري، نأكل الأجبان المُتعفنة والمُغلّفة بطبقة رقيقة من الرماد، نزور قصورًا تشبه تلك التي في الحكايات الخرافية ونلعب مع أقارب لنا لم نكن نفهم لهجتم، فالفرنسية التي كنا نتكلمها هي فرنسية الكبار، فرنسية والدتنا وبعض الفرنكوفونيين من محيطنا، الفرنسية المُستَخْدمة في فيينا. أرى نفسي مجددًا في هيئة ملك الحديقة ممسكًا عصا بيدي، في هيئة قبطان مَركب مُتّجهًا نحو أسفل نهر «اللوار» تحت جدران ألكسندر دوما في بلدة «مونتسورو»، أرى نفسي على درّاجة هوائيّة في الكروم التي حول بلدة «شينون» - إن أمكنة الطفولة هذه تسبب لي ألمًا رهيبًا، ربّما لأنها اختفت فجأة، ما يُنذر باختفائي أنا، وبالمرض والخوف.

تهويدة؟ لنرى ما في قائمة التهويدات: برامز وتهويدته الشبيهة

---

(١) بالإنكليزية في النص الأصلي: "Go to your happy place".

(٢) نوع من المسرحيات الغنائية.

بلحن صندوق موسيقي رخيص، تلك التي سمعها أطفال أوروبا كلّهم في أسَرَّتهم طالعةً من عمق دبدوب أزرق أو زهريّ، تهويدات برامز كسيارات «الفولكس فاغن»، متينة وفعّالة، ما من شيء بمقدوره أن يجعلك تغفو أسرع من برامز، هذا الشرير المُلتحي الذي نهب شومان ولم يكن يملك جراة الأخير، ولا جنونه - كانت سارة تَعشق سُداسِيّات برامز، السُداسية الأولى على الأرجح، العمل الرقم ١٨ حسبما أذكر، ذلك الذي يَتميّز بجملة لحنية... كيف أقولها، تجتاح كيان المُستمع. أمرٌ مُضحك أن النشيد الأوروبي الحقيقي، ذاك النشيد الذي يُلعلع من أثينا وصولًا إلى «ريكيافيك»، مُلامسًا بحنوّ رؤوسنا الشقر البهيّة، هو هذه التهويدة اللعينة لبرامز التي تتسم ببساطة فظيعة وشنيعة، كضربات سيف فعّالة ومميتة. قبل تهويدته، كانت ثمة تهويدات شومان وشوبان وشوبرت وموتزارت وهلمّ جرا، آه، لعلّ في هذا فكرة لمقالة، دراسة حول التهويدة كنوع موسيقي، تحليل تأثيراتها والأحكام المُسبقة المرتبطة بها - ثمة، على سبيل المثل، قليل من التهويدات للأوركسترا، فالتهويدة تنضوي، حسب تعريفها، تحت موسيقى الحُجرة. على حد معرفتي، ليس ثمّة تهويدات إلكترونية أو تهويدات للبيانو المُعَدّ[1]، لكن ينبغي التأكد من ذلك. هل باستطاعتي أن أتذكر تهويدة معاصرة؟ إن الإستوني الشديد التقوى أرفو بارت ألّف تهويدات، تهويدات للكَوْرس وللآلات الوتريّة، تهويدات بمقدورها جعل أديرة بكاملها تغرق في سبات عميق، لقد تكلّمت عن هذا الأمر في مُلاحظتي الفتّاكة التي كتبتها حول مقطوعته للأوركسترا «شرق - غرب»: نتخيّل بسهولة

---

(١) البيانو المُعَدّ أو المُجَهّز: بيانو يُعدَّل صوته عبر وضع أشياء على الأوتار أو بينها، أو على المطارق.

مهاجع أديرة حيث يُطلق الرهبان أناشيدهم قبل أن يغطوا في النوم تحت إشراف قسيسين مُلتحين. لكن، ويجب الإقرار بذلك، ثمة شيء من المواساة في موسيقى أرفو بارت، شيء من ذاك التَّوْق الروحاني الذي تمتلكه حشود الغرب المسيحي، تَوق إلى موسيقى بسيطة تَرنّ كالأجراس، إلى شرق حيث تخلو العلاقة التي تربط الإنسان بالسماوات من أي شائبة، شرقٌ يُقرِّبُه من الغرب قانون الإيمان المسيحي؛ موسيقى بارت نوع من الحُطام الروحاني، فُتاتٌ وقُشور لزمن يأسٍ وضياع - أي تهويدة أنتقي إذًا لنفسي وأنا مضطجع في الظلام، هنا والآن، بينما أشعر بالخوف، أنا خائف، خائف من المستشفى ومن المرض: أحاول أن أغمض عينيّ لكنني أخشى هذه المواجهة مع جسدي، مع دقات قلبي التي سأجدها متسارعة أكثر من اللازم، مع الأوجاع التي، عندما نلتفت إليها، تتضاعف في كلّ طرف من أطراف الجسم. ليت النوم يأتي بشكل مباغت، من الخلف، كالجلاد الذي يعدم المرء خنقًا أو يقطع رأسه، كالعدوّ الذي يَضرب - أستطيع ببساطة، تناول حبة دواء بدلًا من البقاء منكمشًا على نفسي ككلب يَطحَنه الجَزَع بين أغطية السرير الرطبة التي أزيحها عنّي، أشعر بحرّ شديد تحتها، لنَعُد إلى سارة واستحضار الماضي، فلا مفر من الذكريات، ولا من سارة: كانت أصيبت بمرض هي أيضًا - مرض يختلف تمامًا عن مرضي، هذا أمر أكيد، لكنّه يبقى مرضًا رغم ذلك. لعلّ قصة الساراواك هذا تؤكد شكوكي، قد تكون هي الأخرى قد تاهت، ابتلعها الشّرق كما سبق له أن ابتلع تلك الشخصيات كلّها التي كتبَتْ عنها دراسات كثيرة.

ما رسّخ فعلًا صداقتنا، بعد «هاينفلد» وأشعار روكرت، كان تلك الرحلة القصيرة، على بعد ثلاثين كيلومترًا من هناك، التي قمنا بها عند انتهاء الندوة؛ عرضَتْ عليّ مُرافقتها، فوافقْتُ طبعًا، وكذبت

حول إمكان استبدال تذكرة القطار التي في حوزتي - بعد هذه الكذبة البسيطة إذًا، إنضممتُ إلى النُّزهة، ما سبب استياء نادل النُّزُل الذي كان يقود السيارة ويعتقد، من دون شك، أنّه سيجد نفسه في الريف وحده مع سارة. يَتبين لي الآن بوضوح أن هذا هو، بلا ريب، الدافع الحقيقي وراء دعوتِها لي، كانت تُريدني أن ألعب دور الوصيّ عليها، أو أن أنزع عن هذه النُّزهة أي طابع رومنسي مُحتمل عبر حضوري. علاوة على ذلك، وبما أن سارة كانت لا تُجيد الألمانية والسائق المُستحدَث يتكلم إنكليزيّة رديئة، كان المطلوب منّي (أدركتُ ذلك سريعًا لسوء حظّي) الحؤول دون انقطاع الحديث. ما كانت سارة تتوق إلى رؤيته، هدفُ رحلتنا هذه، أثار اهتمامي بشكل متواضع فقط: النصب التذكاري لمعركة «سان غوتار»، أو «موغرسدورف» لمزيد من الدقة، على بعد رميّة حجر من الحدود المجريّة - ما الذي كان يدفعها إلى الاهتمام بمعركة تعود إلى عام ١٦٦٤، انتصرت فيها الإمبراطورية الرومانية المُقدّسة وحلفاؤها الفرنسيون على العثمانيين في قرية نائية، هضبة تُطل على وادي نهر «الراب»، وهو أحد روافد الدانوب، يجري على بعد بضع مئات من الأمتار من قَصَب هاينفلد العطري، لن يمرّ وقت طويل قبل أن أعلم سبب اهتمامها هذا، لكن قبل ذلك، كان عليّ تحمُّل ثلاثة أرباع الساعة من الثرثرة وتبادل الترهات مع شاب ليس ودودًا على وجه التحديد، يَشعُر بخيبة كبيرة من وجودي هنا، إلى جانبه، في المقعد الأمامي، حيث كان تَخيّل سارة وتنورتها القصيرة؛ كنتُ أتساءل عمّا دفعني إلى تكبّد كلّ هذه التكاليف - تذكرة القطار، ليلة إضافية في فندق مدينة «غراتس» - حتّى أتجاذب أطراف الحديث مع هذا الغُلام الذي، لنعترف بالأمر، لم يكن كريهًا. (لا بد من أن سارة، الجالسة بصمت على المقعد الخلفي، كانت تضحك في داخلها لأنها نجحت في إحباط مكيدتين

إيروسيّتين بضربة واحدة: عاشقان يلغي واحدهما الآخر في جوّ من الكآبة والإحباط المتبادل). كان مسقط رأسه بلدة «ريغرزبورغ»، وكان درس في أحد معاهد الفندقية التي في الجوار؛ روى لنا، ونحن في السيارة، حكاية أو حكايتين عن بلدة «غالرين»، إقطاعة عائلة بورغشتال، عشّ صقر يجثم، منذ العام ألف، على رأس إبرة، لم ينجح المجر ولا الأتراك في الإستيلاء عليه أبدًا. في فصل الخريف هذا، كانت أوراق الأشجار تفرش وادي نهر «الراب» كبساط برتقالي، بينما تلال «ستيريا»، وبراكينها القديمة الخامدة المحيطة بنا، تَمتدُّ، خضراء وارفة، إلى ما لا نهاية في السماء الرماديّة، فتتعاقب على سفوحها الغابات والكروم: منظر طبيعي وسط أوروبي بامتياز؛ لم يكن ينقص سوى بضع سحابات من الضباب، وصرخات جنّيات أو ساحرات في الخلفيّة، حتّى يكتمل المشهد - راح الرذاذ يتساقط؛ كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا، إلّا أنه كان يمكن أن تكون الخامسة بعد الظهر أيضًا، كنت أتساءل ماذا أتى بي إلى هنا نهار أحدٍ بحق الله، كان في إمكاني أن أكون جالسًا بهدوء في القطار المُتّجه إلى «توبنغن» بدل أن أذهب إلى ساحة معركة في منطقة نائية برفقة امرأة بالكاد أعرفها وغلام قروي يعمل في نُزل ولم يحصل على رخصة قيادة سوى منذ الصيف الماضي على الأرجح - راح التّجَهم يبدو شيئًا فشيئًا على وجهي وأنا في السيارة؛ لقد فاتنا بالتأكيد طريق فرعي، إذ وصلنا إلى الحدود المجرية، مقابل مدينة «تسينتغوتارد» التي كنا نُبصر بناياتها ما بعد حواجز الجمارك؛ كان الارتباك باديًا على سائقنا الشاب؛ عدنا أدراجنا - كانت بلدة «موغرسدورف» تبعُد بضعة كيلومترات، وتقع على أحد أطراف التلّة الشامخة التي كانت مقصدنا: مُعسكر الإمبراطورية الرومانية المُقدّسة الذي يُشير إليه صليب هائل من الباطون، يبلغ طوله حوالي عشرة أمتار وقد شُيِّد في

ستينات القرن الماضي؛ على مسافة قصيرة منه، ثمة كنيسة صغيرة، هي أيضًا من الباطون وتعود إلى الحقبة ذاتها، وطاولة من الحجر نُقشت عليها خريطة تُفَصِّل سير المعركة. ما من شيء كان يعيق الرؤية؛ على يسارنا، يمتدّ الوادي شرقا نحو المجر؛ أما جنوبًا، فتَفْرُد الهضاب طيّاتها على الثلاثين أو الأربعين كيلومتر التي تَفصلنا عن سلوفينيا. أخذت الإثارة تبدو على سارة وبالكاد قد ترجلتْ من السيارة؛ بعد أن تمعّنتْ في الخريطة، شرعت تُعاين المنظر الطبيعي ثمّ الصليب، من دون أن تكفّ عن ترديد «هذا مُدهش للغاية»! كانت تذرع الموقع ذهابًا وإيابًا، من الكنيسة الصغيرة إلى النصب التذكاري، قبل أن تعود لتقف مقابل الطاولة الحجرية الكبيرة. أخذتُ أتساءل (كما نادل النُزل في ما يبدو، الذي كان يُدخن مُتكئًا على باب سيارته بينما يرسل إليّ، من وقت لآخر، نظرات مذعورة بعض الشيء) إن لم نكن نَشهد على عمليّة إعادة تركيب مسرح جريمة على طريقة رولتابيل[1] أو شرلوك هولمز: رحت أتوقع أن تَنبُش سارة من تحت الأرض سيوفًا صدئة وعظام خيول، أن تُفَصِّل لنا مكان تموضع هذا الفوج أو ذاك من سلاح الفرسان البولندي أو المشاة حَمَلة الرماح من بييمونتي، هذا إن كان هناك أصلًا فرسان بولنديّون ومُشاة من بييمونتي في هذه المعركة الدموية ضدّ الانكشاريين الشرسين. كنت آمل بأن يمنحني ذلك فرصة للتباهي بمعارفي حول الموسيقى العسكرية التركية وأهميتها بالنسبة إلى ما يُعرف بـ«الأسلوب التركي» في الموسيقى الغربية، الشائع للغاية في القرن الثامن عشر والذي كان موتزارت المثل الأشهر عنه، كنتُ، باختصار، أترقّب أن تحين فرصتي، مُتربصًا قرب عربة الخيل برفقة

(١) شخصية من روايات الكاتب غاستون ليرو البوليسية.

الحُوذِيّ، لا تستهويني فكرة مبارحة مكاني وتلطيخ حذائي بالوحل للتوجّه نحو حافّة التّلة، نحو الطاولة الحجريّة أو الصليب الضخم، إلّا أنه بعد خمس دقائق من توقفها عن الدوران في الموقع، كانت سارة، هذه المُحقِقة الجامحة، لا تزال مستغرقة في تأمل عميق أمام الخريطة وكأنها تنتظرني لأنضمّ إليها: تقدّمتُ إذًا، ظانًا أن في الأمر نوعًا من المُناورة النسائية لحثّي على الاقتراب، لكن لعلّ ذكرى المعارك ليست مواتية للعبة الحب، أو على الأرجح أنني لم أكن أعرف سارة على الإطلاق: شعرتُ بأنني أزعجها في تأملاتها، في قراءتها المشهد المحيط بها. ما كان يثير اهتمامها في هذا المكان هو طبعًا طريقة إعادة تنظيم الذاكرة وتشكيلها، لا المواجهة العسكرية بحد ذاتها: كان الشيء الأساسي في نظرها الصليبُ الكبير من عام ١٦٦٤ الذي، وبينما أحْيَا ذكرى هزيمة الأتراك، رَسَم حدودًا، أو حتّى جدارًا، في وجه المجر، في وجه الكتلة الشيوعية، ذاك العدو الجديد، الشّرق الجديد الذي حلّ تلقائيًا محل القديم. لم يكن هناك من مُتّسع لي، ولا لسوناتا «المسيرة التُركية» لموتزارت، ضمن اهتمامات سارة الحاليّة: سَحَبَتْ من جيبها دفترًا صغيرًا وأخَذتْ تُدوّن بعض المُلاحظات، ثمّ ابتسمت لي، مسرورةٌ للغاية من نتائج رحلتها الاستكشافيّة في ما يبدو.

راح المطر ينهمر من جديد؛ أغلقت سارة دفترها وأعادته إلى جيب معطفها الأسود؛ توجّب عليّ الاحتفاظ بتأملاتي حول تأثير الموسيقى العسكرية التركية وآلاتها الإيقاعية لطريق العودة: من المؤكد أن في عام ١٧٧٨، أيّ حين ألّف موتزارت السوناتا الحادية عشرة للبيانو، كان قد انقضى وقت طويل على زوال الوجود العثماني وحصار فيينا، وعلى انتهاء معركة «موغرسدورف»؛ إلا أن المقطع الثالث من هذه السوناتا، «الروندة على الطريقة التركية»، هو حتمًا

المقطوعة الأكثر ارتباطًا، في تلك الحقبة، بموسيقى فرق المهترخانه التابعة للإنكشاريين؛ هل كتابات الرّحالة هي ما يُفسّر ذلك، أم أن موتزارت امتلك بكل بساطة عبقرية التوليف بين العناصر المُختلفة، فأعاد، بشكل باهر، استخدام جميع ميّزات «الأسلوب التركي» الرائج وقتذاك، إنه أمرٌ غير معلوم، وأنا نفسي، لكي أتألق في تلك السيارة الهائمة وسط «ستيريا» الخريفيّة، لم أتردّد عن التوليف بين (أو في سرقة) أعمال إيريك رايس ورالف لوك، أبرز من كَتَب حول هذا الموضوع. لقد نجح موتزارت نجاحًا تامًا في استحداث «الأسلوب التركي» وإيقاعاته لدرجة أن بيتهوفن العملاق نفسه عَبْر الـ«تام تارادام تام تام تارادام» التي نسمعها في «المسيرة التركية» التي تتضمنها مقطوعته المعنونة «أطلال أثينا»، بالكاد استطاع تقليده، أو ربّما توجيه نوع من التحيّة إليه. ليس بمستشرق جيد كلّ من أراد ذلك. أرغب الآن في أن أخبر سارة، لكي أضحكها قليلًا، عن ذاك العرض الهزليّ، الذي تم تسجيله عام ١٩٧٤، لثمانية عازفي بيانو ذوي شهرة عالمية، أدّوا «المسيرة التركية» لبيتهوفن خلال حفلة موسيقية، ثماني آلات بيانو وُضِعت بشكل دائري. يعزفون مرّة أولى هذا التوزيع الموسيقي الغريب لستّ عشرة يدًا، ثم، بعد التصفيق، يجلسون كي يؤدّوه مرّة ثانية، لكن بطريقة ساخرة: تضيع جان-ماري داريه خلال قراءتها النوتات؛ أما رادو لوبو، فيسحب، لا أحد يدري من أين، طربوشًا يُثبّته على رأسه، ربّما ليُظهِر بوضوح، هو الآتي من رومانيا، أنّه الأكثر شرقيّة بين الجميع؛ ويصل به الحد إلى سحب سيجار من جيبه والشروع بالعزف كيفما اتفق، أنامله يعيقها التبغ، مثيرًا استياء جارته أليسيا دي لاروشا التي يبدو أنها لا تجد الأمر مُضحكًا، كلّ حفل النّشاز والنوتات الخاطئة هذا، مثلها مثل المسكينة جينا باشوير ويديها الصغيرتين للغاية مقارنة بجسدها

العملاق: من المؤكد أن «المسيرة التركية» هي مقطوعة بيتهوفن الوحيدة التي كانوا سيسمحون لأنفسهم بتحويلها دعابة هزليّة، حتّى لو تمنّينا أن يُكرَّر هذا الإنجاز عبر الإستعانة بمقطوعات أخرى، كـ«بالاد» لشوبان مثلًا، أو «السويت للبيانو» التي ألّفها شونبرغ؛ أودّ الإستماع إلى ما في وسع الفكاهة والتهريج إضافته إلى أعمال كهذه. (ها هي فكرة أخرى لمقالة، «حول التحوير والسخرية في الموسيقى خلال القرن العشرين»؛ موضوعٌ واسع بعض الشيء طبعًا، لا بد أن ثمة من تناوله، أعتقد أنني أذكر دراسة [لمن؟] حول السخرية عند مالر على سبيل المثل).

المُدهش والساحر في سارة، هو إلى أي درجة كانت، حتّى وقتذاك في «هاينفلد»، واسعة العلم وتواقة إلى المعرفة: حتّى قبل وصولها (في ذلك الزمن القديم نسبيًا، لم يكن متاحًا إجراء بحث سريع بواسطة الـ«غوغل»)، كانت قد انكبّت على دراسة حياة المُستشرق هامر-بورغشتال إلى حدّ أنني رحت أشكّ في أنّها ربّما قرأت مُذكراته، وأنها كانت تكذب حين قالت لي إنها لا تعرف سوى القليل جدًّا من الألمانية؛ لقد قامت بالكثير من الأبحاث تحضيرًا لزيارتها «موغرسدورف»، فكانت ملمّة تمامًا بكل ما يتصل بهذه المعركة المَنسية وبالظروف التي أحاطت بها: كيف أن الأتراك المتفوقين عددًا، بوغتوا بفرسان الإمبراطورية الرومانية المُقدّسة ينزلون من التلّ مسرعين بينما هم كانوا اجتازوا نهر «الراب» ولم يباشروا بعد بإعادة تشكيل صفوفهم؛ قام آلاف الانكشاريين المحاصرين بين العدوّ ومجرى النهر، بمحاولة انسحاب يائسة، فغرق أو ذبح على ضفة النهر عدد كبير منهم لدرجة أن ثمة قصيدة عثمانية، كما أطلعتنا سارة، تصف جسد جندي مُهشّم ومبتور، حرفته المياه حتّى مدينة «جيور»: كان الجندي قد وعد حبيبته بأنه سوف يعود

إليها، وها هو الآن جثة مُتحللة، جَوَّرَت الغربان عينيه، يحكي قصته المهولة عمّا آلت إليه المعركة، قبل أن ينفصل رأسه عن جذعه ويستكمل رحلته المُرعبة عبر مجرى الدانوب، وصولًا إلى بلغراد أو حتى إسطنبول، دليلٌ على شجاعة الانكشاريين وصلابتهم - خلال طريق العودة، حاولتُ أن أترجم هذه الحكاية لسائقنا (كنت أُبصر عينيه في المرآة الخلفية) الذي كان يُراقِب سارة الجالسة إلى جانبه ويبدو عليه شيء من الخوف: طبعًا ليس بالأمر اليسير مُغازلةُ شابة تُخبرك قصصًا عن المعارك والجثث المُتعفنة والرؤوس المقطوعة، حتّى لو كانت تروي هذه القصص بتأثّر وشفقة حقيقيين. قبل أن يتمكن من تأمل الجمال، على المرء أن يغوص في أقذع أنواع الرعب وأن يجوب جميع أصقاعه، ها هي نظريّة سارة.

في أي حال، كان مرافقنا اليافع ودودًا جدًّا، أوصلنا مع أمتعتنا إلى «غرانس» بعد الظهر، ولم يغادر من دون أن يَدُلّنا (حتّى أنه تَرجّل من السيارة ليقوم بواجب تقديمنا) على نُزل يملكه أحد معارفه في المدينة القديمة، على بعد خطوتين من الطريق التي تصعد نحو القصر. شكرناه بحرارة. (ما اسم هذا الغُلام الذي راح يجول بنا في سيارته بكل لطف وكرم؟ يُخَيَّل إليّ أنه كان يحمل اسمًا يُطلَق عادة على من ينتمون إلى أجيال أقدم من جيله، مثل رولف أو فولفغانغ - لا، ليس فولفغانغ، كُنتُ سأتذكر ذلك؛ أوتّو ربما، أو غوستاف، بل حتّى فينفريد - ما كان يُبديه أكبر سنًّا ممّا هو عليه ويخلق، بشكل مُصطنع، نوعًا من التوتر بين عُمرين، توتر يزيد من حدّته شاربان خفيفان، عبثًا يحاولان تجاوز طرف الشفتين، كجيش الأتراك الذي فشل في تجاوز نهر «الراب» المشؤوم).

كنتُ أستطيع الذهاب إلى المحطة واللحاق بأول قطار مُتجه إلى فيينا، لكنني كنت مفتونًا جدًّا بهذه الشابة، بحكاياتها عن

المسوخ، عن المستشرقين، وعن المعارك، حتّى أتركها بهذه السرعة في حين أن لدي فرصة لتمضية السهرة برفقتها، لوحدنا، بدلًا من أن أمضيها برفقة والدتي، وهو أمرٌ ليس كريهًا، لكن في مُنتهى الاعتيادية - فهدف مكوثي في توبنغن لبعض من الوقت كان تحديدًا مغادرة فيينا الخانقة والمألوفة للغاية، وليس العودة لتناول العشاء مع والدتي كلّ نهار أحد. كان عليّ، بعد ستة أسابيع، أن أسافر للمرّة الأولى إلى إسطنبول، وكان الطابع التركي بعض الشيء لهذه الإقامة في «ستيريا» يسحرني - ألم يَستهِلّ الترجمان الشاب جوزيف هامر حياته المهنية (لكن بعد السنوات الثماني التي أمضاها في معهد الترجمة في فيينا) في مقرّ القنصلية النمساوية على ضفاف البوسفور؟ إسطنبول، البوسفور، هذا «مكان سعيد وآمن» كنتُ سأعود إليه على الفور لولا أن الأطباء لا يستبقونني في شارع «البورتسلانغاسه»، كنتُ سأمكث في شقة صغيرة جدًّا على قمة بناية ضيّقة في حي «أرنافوتكوي» أو «بيبيك»، فأتأمّل مرور القوارب وأحصي عددها بينما أراقب تَبَدُّل ألوان الضفة الشّرقيّة حسب فصول السنة؛ كنتُ سأستقلّ الباص البحري، فيقلّني إلى «أسكدار» أو «قاضي كوي» لأشاهد الأضواء الشتويّة في شارع بغداد، فأعود متجمدًا من البرد، عينيّ مُرهقتَين، نادمًا على عدم شراء قفازيّن من أحد مراكز التسوق ذات الإنارة المُشعّة للغاية، يديّ في جيبَيّ ومُتطلعًا بحنُوٍ نحو «برج الفتاة» الذي يبدو قريبًا جدًّا في الليل وسط المضيق، ثم، عند وصولي إلى منزلي في الطبقة العلويّة، مُنقطعَ الأنفاس بعد صعود الدرج، أصبُّ لنفسي شايًا ثقيلًا للغاية، أحمرَ للغاية، مُحّلى جدًّا، أُدخّن غليون أفيون، غليونًا واحدًا فقط، وأغفو رويدًا رويدًا جالسًا في مقعدي، فتوقظني من حينٍ إلى آخر صفّارات ناقلات النفط الآتية من البحر الأسود.

كان المستقبل يبدو مُشرقًا كالبوسفور خلال يوم خريفيّ بديع، واعدًا جدًّا كتلك الأمسيّة التي أمضيتها وحدي برفقة سارة في التسعينات، أول عشاء بمفردنا، كنتُ مذعورًا ممّا ينطوي عليه لقاء كهذا من رومنسية (وحتى إن لم يكن ثمة شمعدان من القصدير على طاولة النُزُل)، لكن هي لم تكن مذعورة: كانت تتكلم بالطريقة ذاتها تمامًا - وعن الموضوعات المروعة نفسها - التي كانت ستتكلم بها لو كنا نتناول العشاء في كافيتيريا سكن جامعي مثلًا، لا بصوت أعلى ولا أدنى، بينما أنا، فكان السكون المحيط بنا، كما الأضواء الخافتة ولباقة الندلاء الباردة، تدفعني إلى التكلم همسًا، كمن يبوح بسرٍّ ما - لكنني لم أكن أدري أي نوع من الأسرار قد أبوح به لهذه الشابة التي كانت تُكمِل سرد حكاياتها عن المعارك التركية، يحفّزها على ذلك زيارتنا لمدينة «غراتس» ولـ«اللاندزوغوس»، متحفُ أسلحة في «ستيريا» يحتوي على ترسانة ضخمة تعود إلى القرن السابع عشر. في ذلك المنزل الجميل والقديم ذي الواجهة المُزيّنة، ثمّة آلاف من الأسلحة، رُتّبت بعناية فائقة وكأن خمسة عشر ألف رجل سيصطفّون غدًا في طابور في شارع «هيرنغاسه» كي يأخذ بعضهم سيفًا أو درعًا، وآخر قربينة أو مسدسًا، فيهرعون حينئذ للدفاع عن المنطقة ضد غزوة إسلامية بعيدة الاحتمال: آلاف من البنادق، مئات من الرماح، من المَطارِد لإيقاف الخيول، من الخُوَذ لحماية جنود المشاة والخيّالة، عدد هائل من الأسلحة اليدوية والأسلحة البيض الجاهزة لكي يستلّها أحد ما، من قرون البارود المُهيّئة لتوزّع على الجنود، وكان مخيفًا أن أدوات كثيرة منها، وسط هذا التراكم المُنَظّم للغاية، كانت قد استخدمت بالفعل: فالدروع كانت تحمل آثار رصاصات ردعتها، والنصول متضعضعة نتيجة الضربات التي وُجّهَت بواسطتها، وكان من السهل جدًّا تَخيُّل الألم الذي تسببت فيه كلّ هذه الأشياء الجامدة،

الموت المُنتشر حولها، البطون المبقورة، الأجساد الممزقة إربًا إربًا خلال احتدام المعركة.

قالت سارة إننا نستطيع، في مخزن الأسلحة هذا، سماع صمتٍ رهيب يَطلع من هذه الأدوات الحربية، صمتٌ مُعبِّر جدًّا، أضافت، إذ إن تراكم كلّ هذه الآلات المميتة التي تَبقَّت بعد فناء أصحابها، يرسم لوحة حيّة عن معاناة هؤلاء، عن مصائرهم وعن زوالهم: هذا ما حدّثتني عنه خلال العشاء، الصمت الذي يُمثّله «اللاندزوغوس»، وكيف أنها تَربط بين هذا الصمت والقصص الكثيرة التي قرأتها، قصصٌ تركيّة بشكل خاص، أصوات مَنسيّة تحكي عن هذه المواجهات - لا بد أنني أمضيت السهرة أنظر إليها وأستمع إلى كلامها، أو هذا ما يُخيّل إليّ الآن على الأقل، مفتونًا بها، مسحورًا بحديثها الذي راح يمزج بين التاريخ والأدب والفلسفة البوذية؛ هل أمعنتُ النظر عند ذاك، وكما سبق لي أن فعلت في المتحف، بتفاصيل جسدها، بعينيها ووجهها، بسحابتيّ النمش اللتين تبرقعان وجنتَيها، بصدرها الذي غالبًا ما تُخفيه بساعديها عبر شبك يديها تحت ذقنها كأنّها تستر عريها: حركةٌ تلقائية دائمًا ما بدت لي فاتنة ومُحتشمة ومزعجة في الوقت عينه، إذ كانت تحيلني إلى الشهوة المُفترَضة في نظرتي إليها. الذاكرة أمرٌ عجيبٌ حقًّا؛ أعجز عن استحضار وجهها القديم، جسدها القديم، كلاهما يمّحي ليحلّ مكانهما وجه اليوم وجسده، لكن وسط مشهد من الماضي - لا شك في أنني ساهمت في الحديث بتوضيح موسيقي: إذ كان ثمة موسيقيٌّ في معركة «موغرسدورف»، مُلحّنٌ باروكي مَنسي، الأمير بال إسترهازي، أوّل حامل لهذا اللقب والمُلحّن الكبير الوحيد الذي كان في الوقت ذاته محاربًا، لقد خاض معارك لا تُحصى ضد الأتراك، ألّف عددًا من «الكنتاتا»، من بينها مجموعة «التناغم السماوي»،

وكان عازف «هاربسيكورد» ممتازًا - لا نَعلم إن كان إسترهازي أوّل مؤلف استلهم من هذه الموسيقى العسكرية التركية التي كثيرًا ما سمعها، لكنني أشك في ذلك: فبعد المعارك والكوارث كلّها التي شَهدها على أراضيه، لا بد أنه كان يرغب في نسيان العنف والدم ليُكرّس نفسه (بنَجاحٍ كبير) للتناغم السماوي.

للمناسبة، وبما أنني أهذي حول الموسيقى العسكرية: ها هي المسيرة الصاخبة للسيد غروبر هو يستعدّ للإيواء إلى فراشه. إنها الساعة الحادية عشر إذًا - لا يعقل أن يركض هذا الرّجل إلى المرحاض كلّ ليلة؛ في كلّ ليلة يُنعمها الله علينا، يهرع السيّد غروبر إلى مرحاضه في تمام الساعة الحادية عشرة، فتطقطق الأرضية الخشبية وتهتزّ ثرياتي.

وأنا عائدٌ من طهران، توقفتُ في إسطنبول حيث أمضيتُ ثلاثة أيام رائعة، وحدي، أو تقريبًا وحدي باستثناء سهرة جديرة بالذكر، أمضيتها برفقة ميشيل بيلغر، «احتفالًا بإطلاق سراحي»، إذ بعد عشرة أشهر من دون مغادرة طهران، عشرة أشهر من الحزن العميق، كنت أستحق حفلة ماجنة، في المدينة، في حانات تعبق بالدخان، في خمّارات حيث ثَمّة موسيقى وفتيات وكحول، وأعتقد أنها المرّة الوحيدة في حياتي التي كنت فيها مخمورًا، التي سَكِرتُ فيها حقًا، سَكرتُ من الصخب، من شَعْر النساء، من الألوان ومن الحرية، سكرت من النسيان ومن وجع رحيل سارة - بيلغر، عالم الآثار البروسي، كان مُرشدًا سياحيًا ممتازًا، طاف بي، من حانة إلى أخرى، عبر منطقة «بيوغلو» قبل أن يَقضي عليّ بالضربة القاضية في نادٍ ليلي لم أعد أذكر أين يقع: خَررت منهارًا وسط المومسات وفساتينهنّ الصارخة الألوان، أنفي داخل وعاء صغير فيه جزر مقطّع وعصير ليمون. في اليوم التالي، قال إنه اضطر إلى حملي حتّى غرفة

الفندق، وكنتُ بحسب روايته، أغني بأعلى صوتي (يا للفظاعة!) «مسيرة راديتزكي»، لكنني أعجز عن تصديق هذا الأمر تحديدًا، لماذا بحق الله (وحتى لو كنت في طريقي إلى فيينا) قد أغني هذا اللحن العسكري في ليل إسطنبول، لا شك في أنه كان يهزأ بي، لطالما سخِر بيلغر من لهجتي، لهجة أهل فيينا - لا أعتقد أنني غنّيت أبدًا لحنًا ليوهان شتراوس بأعلى صوتي، ولا حتّى دندنت «رقصة المتزلجين»؛ في أيام الثانوية، كانت حِصّة الفالس عذابًا حقيقيًا، فضلًا عن أن الفالس لعنة حلّت على فيينا، كان ينبغي منعه بعد قيام الجمهورية النمساويّة، أي في الوقت ذاته الذي أُلغِيَت ألقاب النبلاء: هذا ما قد يُجنبنا عددًا من هذه الحفلات الراقصة المريعة التي تُلهب الحنين إلى الماضي، كما كثيرًا من هذه العروض الموسيقة المقيتة التي تُقام للسُيّاح. كان يجب حَظر كلّ أنواع الفالس، طبعًا ما عدا تلك الفالس القصيرة لآلتي الفلوت والتشيلو، «لحن سارة»، مقطوعة غامضة، طفولية ودهِشة، كُنّا نَحارُ ونسأل من أين نبشتها يا تُرى؟ وكانت بمثابة مكان تَطيب العودة إليه، الموسيقى ملجأ بديع يقينا عيوب الحياة وتدهُور الجسد.

في اليوم التالي في إسطنبول، إستيقظت مفعمًا بالنشاط، وكأن شيئًا لم يكن، لدرجة ما كانت حيوية هذه المدينة ومِتعة التجوال فيها تمحوان آثار كميات الكحول التي ابتلعتها خلال السهرة، ما من صداع ولا غثيان، ما من شيء إلا واختفى فجأة، سارة والذكريات، إلا وكنسته رياح البوسفور.

تلك الفالس القصيرة مُخدِّرٌ في منتهى القوّة: تحتضن أوتارُ التشيلو الحنون صوتَ الفلوت، ثمة شهوانيّة حادّة في هذه المعزوفة لآلتين متعانقتَين في حين تلعب كلّ واحدة لحنها الخاص، جُملتها الخاصة، كأن التناغم الموسيقي هو مسافة مُتعمَّدة، رابطٌ وثيق

وفضاء لا يمكن اجتيازه في الوقت ذاته، جمودٌ يَلحم واحدنا بالآخر بينما يحول دون اقتراب بعضنا من بعض بشكل كامل. جُماع أفاعٍ، أعتقد أن الاستعارة لسترافينسكي، لكن عمّ كان يتكلم، بالتأكيد ليس عن الفالس. الحبُّ عند برليوز، في أعمال مثل «العنة فاوست الأبدية» و«الطرواديون» أو«روميو وجولييت»، هو دائمًا حوار بين كمانٍ متوسط وفلوت أو آلة «أوبوا» - لقد مرّ دهرٌ ولم أستمع إلى «روميو وجولييت»، إلى مقاطعها الأخاذة التي تفيض شغفًا، عنفًا وشغفًا.

ثمّة أضواء في هذا الليل، أبصرها من تحت الستائر؛ أستطيع أن أقرأ من جديد، يجب أن أريح نفسي، سوف أكون مرهَقًا غدًا.

لا شك في أنني لم أنم جيدًا في «غراتس» بعد ذلك العشاء برفقة سارة، كنت أشعر بشيء من الإكتئاب بسبب روعة هذه الفتاة، بسبب جمالها، بسبب طلاقتها التي في الكلام والتعليق، في عرض وشرح المعارف والأفكار الأكثر تعقيدًا بطريقة مدهشة ببساطتها ومن دون أي تكلُّف. هل كنتُ أدرك مدى تلازم مسارينا، هل حدست إلى ما كان يُمهِّد هذا العشاء، أم إنني تركت لرغبتي أن تُسيِّرَني حين قلت لها «تُصبحين على خير» في رواقٍ أراه الآن بوضوح تام، جدرانٌ مكسوة بمخمل كستنائي، أثاث من خشبٍ فاتح اللون، مصابيح خضر داكنة، كما أرى نفسي ممددًا بعد ذلك على سرير ضيّق، شابكًا ذراعيّ تحت رأسي، متنهدًا ومحدّقًا في السقف، مُصابًا بخيبة لأنني لست إلى جانبها، لأنني لا أكتشف جسدها بعد أن سحرني عقلها - رسالتي الأولى ستكون لها، قلت لنفسي وأنا أفكر في رحلتي إلى تركيا؛ أخذت أتخيّل مُراسَلاتٍ مُلتهبة، مزيجٌ من الغنائية والوصف والتعليقات حول الموسيقى (لكن للغنائية الحيّز الأكبر). أظن أنني شرحت لها بالتفصيل الهدف من رحلتي إلى تركيا، الموسيقى

الأوروبية في إسطنبول منذ القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين، فرانتس لِيست، بول هندميث وبارتوك على ضفاف البوسفور، من عهد عبدالعزيز الأول حتّى عهد أتاتورك، وهو المشروع الذي نلت بفضله، من مؤسسة رفيعة المستوى، منحة بحثية كنت فخورًا بها وأثمرت مقالة حول شقيق دونيزيتي، غيسيبي، بوصفه من أدخل الموسيقى الأوروبية إلى أوساط الطبقات الحاكمة العثمانية - ما قيمة هذا النص اليوم يا ترى؟ لا شيء يُذكر على الأغلب، باستثناء رسم سيرة هذا الشخص الفريد من نوعه والمنسي تقريبًا، الذي عاش أربعين سنة في كنف السلاطين ثمّ دُفِن في كاتدرائية «بيوغلو» على وقع المسيرات العسكرية التي كان قد ألّفها للدولة العثمانية. (الموسيقى العسكرية هي حتمًا نقطة تبادل بين الشّرق والغرب، كانت ستقول سارة: إنه أمرٌ بالكاد يُصدّق أن تَعثر هذه الموسيقى التي صارت منسوبة شبه حصري إلى موتزارت، على طريق العودة إلى مصدرها الأصل، إلى العاصمة العثمانية، وهذا بعد مرور خمسين سنة على تأليف «المسيرة التركية»؛ في أي حال، طبيعيٌّ أن يُفتتن الأتراك بهذا التحوّل الذي لحق بإيقاعاتهم وألحانهم، إذ كان ثَمّة - إن استعرنا مفردات سارة - شيءٌ من الذات في الآخر).

سأحاول إسكات أفكاري بدلًا من الاستسلام لذكرى مقطوعة الفالس القصيرة وشجنها؛ سوف أستعين بإحدى تقنيات التأمّل التي تستخدمها سارة، والتي شرحتها لي وهي تضحك، هنا في فيينا: لأحاول أن أتنفّس بعمق وأترك أفكاري تنزلق نحو ذلك الفراغ الأبيض الشاسع، مغمضًا عينيّ ويداي على بطني، لأتصنّع الموت قبل أن يحين موعده.

الساعة الحادية عشرة والدقيقة العاشرة ليلًا

سارة نصف عارية في غرفة في ساراواك، بالكاد يستر جسدها قميص بلا أكمام و«شورت» من القطن؛ ثمّة قليلٌ من العَرَق بين عظمتيّ الكتف وفي تجويف الركبتين، وشرشفٌ مردودٌ ومُكَوَّر بين بطني الساقَين. حشرة تتشبث بالناموسية، يجذبها الدم الذي ينبض في عروقِ النائمة، على الرّغم من تسلل نور الشمس عبر الأشجار. يستيقظ سكّان «البيت الطويل»[1]، النساء صرن في الخارج، تحت سقيفة المدخل، على المصطبة الخشب؛ يحضّرن الطعام؛ تتناهى إلى سمع سارة جلبة الأواني - جلبة مُبهمة كضرباتٍ على «السيماندر»[2] - وأصوات خافتة تتكلم بلغة أجنبية.

ماليزيا تسبقنا بسبع ساعات، لقد بزغ الفجر هناك.

كم من الوقت صمدتُ - عشر دقائق؟ - من دون أن أفكر في أيّ شيء تقريبًا؟

سارة في أدغال عائلة بروك، حُكّام ساراواك البيض، سلالة أولئك الذين أرادوا أن يصيروا ملوكًا في الشّرق ونالوا مبتغاهم،

(١) البيت الطويل هو كوخ طويل وضيّق يُبنى عادةً من الخشب.
(٢) آلة إيقاعية مكونة من صفائح معدن أو خشب، تُستخدم في بعض من أديرة اليونان ورومانيا لاستدعاء الرهبان إلى الصلاة.

فأمسكوا بالبلاد طوال قرنٍ من الزمن، وسط القراصنة وقاطعي الرؤوس.

لقد مرّ زمنٌ...

منذ قصر «هاينفلد» ونُزُهاتنا في فيينا، منذ إسطنبول ودمشق وطهران. نحن مستلقيان، كلّ على فراشه، بيننا أراضي الدنيا وبحارها. قلبي يخفق بسرعة؛ أستطيع أن أشعر به؛ أتنفس بسرعة أيضًا؛ يمكن الحُمّى أن تتسبب بهذا التسارع الطفيف لضربات القلب، قال الطبيب. سأنهض من السرير. أو آخذ كتابًا. عليّ أن أنسى. ألّا أفكر في الفحوصات الطبيّة اللعينة، ولا المرض أو العزلة.

أستطيع أن أكتب لها رسالة؛ هذا شيءٌ أشغل نفسي به - «عزيزتي الغالية سارة، شكرًا على هذه المقالة، لكنني أعترف أن مضمونها يُقلقني: هل أنت بخير؟ ماذا تفعلين في ساراواك؟». كلا، عادي للغاية. «عزيزتي سارة، عليّ إبلاغك بأنني أحتَضَر». سابق لأوانه بعض الشيء. «عزيزتي سارة، أنا مُشتاق إليكِ». صريح جدًا. «عزيزتي الغالية سارة، هل يمكن الآلام القديمة أن تتحول أفراحًا من جديد؟». جميلةٌ هذه العبارة، الآلام القديمة. هل نهبتُ الشعراء، في رسائلي التي كتبتها في إسطنبول؟ آمل بأنها لم تحتفظ بها - هي أنموذجٌ للإدعاء والتباهي.

الحياة كسيمفونية لمالر، هي لا تعود أدراجها أبدًا، ولا تقف مجددًا على قدميها. من هذا الإحساس بمرور الزمن، والذي هو تعريفٌ للسويداء، إدراكٌ لمحدوديّة الحياة، ما من مهرب إلا الأفيون والنسيان؛ تمكن قراءة أطروحة سارة (لم يخطر لي ذلك من قبل) كفهرس عن مصابين بالسويداء، فهرس في قمّة الغرابة، عن مغامرين من أصناف وبلدان مختلفة، ضلّوا طريقهم في متاهات السويداء،

صادق هدايت، آنا ماري شفارتسنباخ، فيرناندو بيسوا، كي لا نذكُر سوى المفضلِين لديها، وهم أيضًا من تُخصِّص لهم سارة العدد الأقل من الصفحات، مُرغَمةً على الالتزام بمعايير البحث الأكاديمي وعدم الانحراف عن موضوعها الأساس: «النظرة إلى الآخر بين الشّرق والغرب». هل ما كانت تسعى وراءه في رحلتها الاستكشافيّة، ما كانت تصبو إليه خلال حياةٍ مُكرَّسة للبحث العلمي تماهت تمامًا مع حياتها الخاصة، هو الشِفاء يا ترى - أن تَهزُم السويداء، عبر السفر في البداية، عبر العلم والمعرفة لاحقًا، ومن ثمّ عبر التَصوّف ولا شكّ في أنها حالتي أنا أيضًا، أنا أيضًا، إن أخذنا في الإعتبار أن الموسيقى هي الزمن مُعقلَنًا، الزمن مُحددًا في أُطر ومُحَوَّلًا أصواتًا، إن تخبّطي اليوم وسط شراشفي يعني أن ثمّة احتمالًا كبيرًا أنني أعاني أنا أيضًا من هذا المرض الذي يُطلِق عليه الطب النفسي الحديث، بعد أن اشمأز من الفنّ والفلسفة، تسمية «الاكتئاب البنيوي»، حتّى لو أن الأطباء لا يهتمّون، في حالتي، إلا بالجوانب الجسديّة لآلامي، آلامٌ لا شك في أنها حقيقية، لكنني أرغب كثيرًا في أن تكون وهمية - سوف أموت، سوف أموت، هذا ما عليّ قوله لسارة في رسالتي، لنَتنفّس، لِنَتنفّس، لِنُشعل الضوء، لا ينبغي أن نترك أنفسنا ننزلق على هذا المنحدر. سوف أقاوم ذلك.

أين نظّاراتي؟ مصباح السرير هذا حقًّا رديء، عليّ حتمًا استبداله بآخر. كم من ليلة أشعلته ثمّ أطفأته مرددًا لنفسي ذلك؟ يا له من إهمال! ثَمّة كتبٌ مبعثرة في أنحاء الغرفة كلّها. أغراض، وصُوَر، وآلات موسيقية لن أتعلّم أبدًا العزف عليها. أين هذه النظّارات؟ مستحيلٌ أن أعثر مجددًا على وقائع ندوة «هاينفلد» حيث نُشِر نَصُّها حول كائنات الغول والجنّ ومسوخ أخرى، إلى جنب مُداخلتي حول الفارابي. أنا لا أرمي شيئًا من أغراضي، بل أضِيع كلّ شيء. الوقت

يَنْهَبُني: لقد انتبهتُ إلى أن ثمّة مُجلّدين مفقودين من الأعمال الكاملة لكارل ماي. لا بأس، فلن أعيد قراءتها أبدًا على الأرجح، سوف أموت من دون أن أعيد قراءتها من جديد، شنيعٌ التفكير في الأمر، في أننا في يوم من الأيام، سنصبح عاجزين تمامًا عن إعادة قراءة «الصحاري والحريم»، إذ سنكون قد فَطِسنا؛ التفكير في أن رسمة «رؤية بانورامية لإسطنبول من برج غالاتا» سينتهي بها الأمر عند تاجر أثريات في فيينا سيحاول بيعها شارحًا أن مصدرها مجموعةُ مُستشرقٍ تُوفيَ حديثًا. لمَ استبدال مصباح السرير إذًا؟ «رؤية بانورامية لإسطنبول»... أو هذا الرسم لدايفيد روبرتس، الذي طَبَعُه لويس هاغ بواسطة تقنية «الليتوغرافيا» ولوَّنه يدويًا بعناية، رسمٌ يُصَوِّر مدخل مسجد السلطان حسن في القاهرة، يجب على تاجر الأثريات ألا يبيعه بثمن بخس، فقد كلّفني ثروة. المُدهش في سارة، عدم امتلاكها شيئًا. تحتفظ بكُتبها وُصوَرها داخل رأسها؛ داخل رأسها، وفي دفاترها التي لا تُعدّ ولا تُحصى. أما أنا، فامتلاك الأشياء يُطمئنني. بخاصة الكُتب والمخطوطات الموسيقيّة. أو يُقلقني. ربّما يُقلقني بقدر ما يُطمئنني. أتخيّلُ بوضوح تامّ الحقيبة التي أخذَتها معها إلى ساراواك: سبعة سراويل داخلية، ثلاث حمّالات صدر والعدد نفسه من قمصان الـ«تي شيرت»، سراويل «الشورت» و«الجينز»، والكثير الكثير من الدفاتر النصف الممتلئة. وفقط. حين سافرتُ أوّل مرّة إلى إسطنبول، أرغمتني أمي على أن آخذ معي صابونًا ومسحوق غسيل وعلبة إسعافات أولية ومِظلة. كانت حقيبتي تزن ستة وثلاثين كيلوغرامًا، فسببت لي مشكلات في مطار «شفشات»؛ اضطررت إلى ترك جزء من الأغراض مع أمي، إذ كانت قد تكرّمت عليّ ورافقتني: تركْتُ إذًا بحوزتها، وعلى مضض، مراسلات فرانتس لِيست ومقالات هاينرش هاينه (التي افتقدتها كثيرًا في ما بعد)، كان

مستحيلًا أن أعيد إليها علبة مسحوق الغسيل، أو الأداة المُساعدة في انتعال الأحذية، أو حذاء تسلّق الجبال، كانت تقول لي: «لكنها ضرورية ولا غنى عنها، لا يمكن أن تسافر من دونها! هي لا تَزِنُ شيئًا»، لمَ لا أحمل معي أداة انتزاع الجزمات أيضًا إن كان هذا ما آلت إليه الأمور، فقد أخذتُ معي تشكيلة كاملة من ربطات العنق والسترات «تحسبًا لأي طارئ: دعوةٌ إلى منزل أشخاص محترمين مثلًا». كادت أن تُرغمني على أخذ مكواة للسفر، لكنني نجحت في إقناعها أنه، إن كان العثور على مسحوق غسيل نمساوي في هذه البلاد البعيدة أمرٌ مستبعد، فالأجهزة المنزلية متوافرة بكثرة أو حتّى منتشرة في كلّ مكان، فالصين ومصانعها على مسافة قريبة، ما طمأنها قليلًا جدًّا فقط. صارت هذه الحقيبة بمثابة صليبي إذًا، صليب يزن ستة وثلاثين كيلوغرامًا، جررته خلفي مُرهقًا (طبعًا انفجرت الدواليب بسبب الحمل الزائد عند أوّل عثرة في الطريق) من سَكَنٍ إلى آخر في شوارع إسطنبول ذات المنحدرات المرعبة، من «يانيكوي» إلى «ميدان تقسيم»، ما عرّضني لكيلٍ من ملاحظات زملائي الساخرة، بخاصةً بسبب مسحوق الغسيل وعلبة الإسعافات الأولية. الصورة التي وددتُ أن أعطيها عن نفسي كانت صورة المغامر والمُستكشِف و«الكوندوتييرو»[1]، لكنني كنتُ مجرد فتًى مُدلّل حمّلته والدته أدوية للإسهال، وأزرارًا وخيوطَ حياكة، «تحسبًا لأي طارئ». هو أمرٌ يبعث على شيء من الاكتئاب، الإقرار بأنني لم أتغيّر، بأن الترحال والسفر لم يصنعا مني رجلًا شجاعًا ومقدامًا، لوّحت الشمس بشرته، لكن مسخًا ذا نظّارات، شاحب الوجه، يرتعد اليوم خوفًا من فكرة عبور الحيّ الذي يقطنه للذهاب إلى المَحْجَر الصِحّيّ القديم.

---

(١) قائد فرقة عسكرية من المرتزقة في إيطاليا خلال القرون الوسطى.

انعكاسات ضوء المصباح تبرز الغُبار المُتجمّع على رسمة «رؤية بانورامية لإسطنبول من برج غالاتا»، بالكاد يُمكن أن أرى القوارب، عليّ أن أمسحها، عليّ أن أعثر على النظّارات اللعينة. لقد ابتعتُ هذه الصورة التي ظُهِّرَت بواسطة تقنية «الفوتوكروم»، من متجر خلف شارع «الاستقلال» (لا بدّ من أنّ الكثير من هذا الوسخ يأتي من إسطنبول، قذارة من المصدر) برفقة عالم الآثار بيلغر - بحسب آخر الأخبار، ما زال على القدر نفسه من الجنون، تتعاقب إقاماته في المستشفى مع فترات حماسة وهوسٍ مُرعبين، يكتشف خلالها قبر توت عنخ أمون في الحدائق العامة لمدينة «بون» قبل أن ينتكس من جديد، مهزومًا من المخدّرات والاكتئاب، فيتساءل المرء حينئذٍ أيٌّ من هذين الطّورَين هو أكثر إثارة للقلق. يجب سَمَاعُه وهو يصرخُ ويُحرّك يديه بعصبية، قائلًا أنه ضحية لعنة الفراعنة، واصفًا المؤامرة العلمية التي تحول دون تبوؤه مناصب رفيعة، لإدراك مدى اضطرابه العقلي. حاولت أن أتجنبه في المرّة الأخيرة، عندما دُعيت إلى مؤتمر في «بيت بيتهوفن»، لكنّه لم يكن في المستشفى لسوء حظي، بل بين الحضور، وفي الصفّ الأول، وطبعًا طرح سؤالًا لا نهاية له، عصيًا على الفهم، حول مؤامرة كانت قائمة في فيينا خلال العهد الإمبراطوري، استهدفت شخص بيتهوفن، سؤالًا اختلط فيه الحابل بالنابل، الحقد، جنون الاضطهاد، ويقينه أنه عبقريٌ مغمور - أخذ الحاضرون يحدّقون فيه (أعتقد أنهم لم يفهموا أيّ كلمة ممّا تفوه به) بذهول، بينما راحت مُنظِّمَة المؤتمر ترمقني بنظرات مرعوبة. كنّا مُقرّبَين كثيرًا في ما مضى - كان مستقبله «واعدًا للغاية»، وقد شغل لبضعة أشهر منصب المدير بالوكالة لفرع «المعهد الألماني للآثار» في دمشق. كان يجني مالًا وفيرًا، يجتاز سورية ذهابًا وإيابًا في سيارة بيضاء باهرة، رباعية الدفع، فينتقل من مواقع حفريات دولية إلى

التنقيب في مواقع هيلينيّة عذراء، يتناول الغداء برفقة مدير الآثار والمتاحف السورية ويعاشر كثيرًا من الديبلوماسيين الرفيعي المستوى. رافقناه مرّةً في رحلة عبر نهر الفُرات، زيارة تفقديّة وسط الصحراء التي خلف مدينة الرقّة الشنيعة، وكان أمرًا عجيبًا لا يُصدّق رؤية كلّ هؤلاء الأوروبيين يتصببون عرقًا وهم يشرفون، وسط الرمال، على عُمّالٍ سوريين - مغاوير بحقّ، فنانون في استخدام الرفش - ويدلّونهم على الرّمل وكيف يحفرونه لكي تنبعث منه بقايا الأزمنة الغابرة. منذ الفجر الجليدي، تفاديًا لقيظ منتصف النهار، كان رجال يعتمرون كوفيات، يشرعون ينقبون في الأرض تحت أوامر علماء فرنسيين وألمان وإسبان وإيطاليين، أكبرهم لم يبلغ الثلاثين بعد، لا يتاقضون رواتب في أغلب الأحيان، قدموا لاكتساب خبرة ميدانية على إحدى تلال بادية الشام. كان لكلّ أمة مواقعها الخاصة على طول مجرى النهر، وصولًا إلى أراضي الجزيرة الفراتية الكئيبة على تخوم العراق: للألمان تلّ حلف وتلّ البيعة القائم فوق مدينة تعود إلى حضارة بلاد ما بين النهرين، أُطلِق عليها هذا الاسم الناعم: «توتول»؛ للفرنسيين «دورا أوروبوس» و«ماري»؛ للإسبان قلعة «حلبية» وتلّ حالولة وهلم جرّا، كانوا يتنازعون امتيازات التنقيب السورية كشركات تتقاتل على حقول نفط، وكانوا متمسّكين بحصاهم، لا يتقاسمونها مع أحد، تمسّك الأولاد بكراتهم الزجاجية الصغيرة، إلّا عندما تَحين فرصة الاستفادة من أموال بروكسل، فيتحتم عليهم التحالف إذًا، إذ كانوا يتفقون في ما بينهم حين يتعلق الأمر بنبش ليس الأرض أو التراب، بل خزينة المفوضية الأوروبية. كان بيلغر يسبح في هذه البيئة مثل سمكة في الماء؛ بدا لنا كالملك سرجون الأكدي وسط حشود من عباده الكادحين؛ كان يُسهب في إبداء الملاحظات حول مواقع التنقيب والاكتشافات والخرائط،

ينادي العمّال بألقابهم، أبو حسن، أبو محمد: كان هؤلاء الحفّارون «المحليّون» يتقاضون أجورًا زهيدة، لكنّها أقل بؤسًا ممّا قد يحصلونه لو عملوا في ورشِ أبناء بلدهم، وهذا فضلًا عن التسلية المتأتيّة من العمل عند هؤلاء الفرنجة الذي يلبسون سترات «سفاري» وأوشحة بلون الكريمة. ها هي المنفعة الكبرى من حملات التنقيب «الشّرقيّة»: فحيث في أورورِبا، هم مرغمون، بسبب شُحّ موازنتهم، على الحفر بأنفسهم، كان في وسع علماء الآثار في سورية، على نسق أسلافهم المجيدين، أن يوكلوا الآخرين مهماتهم الوضيعة. فكما كان يقول بيلغر، مقتبسًا من فيلم «الطيب والشرس والقبيح»: «ثمة فئتان من البشر: أولئك الذين يحملون مسدسًا، وأولئك الذين يحفرون». اكتسب علماء الآثار إذًا، مفردات عربية فريدة جدًّا وتقنية للغاية: احفر هنا، أزل التراب من هناك، بالرفش، بالمعول، بالرفش الصغير، بالمجرفة - كانت الفرشاة حكرًا على الغربيين. إحفر بروية، أزل التراب بسرعة، ولم يكن بأمر نادر سماع الحوار الآتي:

- انزل هنا مترًا.

- حاضر سِيدي. بواسطة الرفش؟

- آه، رفش كبير... رفش كبير كلا. معول أفضل.

- بواسطة المعول الكبير؟

- معول كبير كلا. معول صغير.

- إذًا نحفر مترًا بواسطة المعول الصغير؟

- نعم نعم، شوي شوي، فَهِمت؟ لاتخلخلوا السور بأكمله لكي تنهوا عملكم بشكل أسرع، أوكي؟

- حاضر سِيدي.

في ظروف كهذه، غالبًا ما كان يحصل سوء تفاهم، فتنتج منه خسارة للعلم لا تُعوَّض: إن عدد من الجدران وقواعد الأعمدة قد

وقع ضحية هذا التحالف الشاذ بين اللسانيات والرأسمالية، لكن علماء الآثار كانوا راضين في العموم عن طاقم عمّالهم الذي كانوا باشروا يدربونه منذ عشرات السنين إذا جاز التعبير: فمهنة الحفر في المواقع الأثرية كانت مُتداولة عند البعض من الأب إلى الإبن منذ أجيال عدّة، وثمة عمّالعرفوا أوائل كبار علماء الآثار المستشرقين، وكانوا يظهرون في صور فوتوغرافية لأعمال تنقيب تعود إلى ثلاثينات القرن المنصرم. ما كانت طبيعة علاقتهم بهذا الماضي الذي كانوا يساهمون في إعادة إحياءه؟ طبعًا طرحت سارة السؤال:

- لدي فضول لمعرفة ما تُمثّله هذه الحفريات لهؤلاء العمال. هل يشعرون بأننا نسلبهم تاريخهم، بأن الرّجل الأوروبي يسرق منهم، مرة أخرة، شيئًا ما؟

كان لبيلغر نظريته، إذ كان يزعم أن هؤلاء الحفارين يعتبرون أن كلّ ما سبق الإسلام ليس ملكهم، بل ينتمي إلى حيّز آخر، إلى عالم آخر يصنفونه «قديمًا جدًّا»[1]؛ وكان بيلغر يجزم بأن تاريخ العالم، في نظر السوري، ينقسم إلى ثلاث حقبات زمنية: «الجديد»، «القديم»، و«القديم جدًا»، ولم نكن نُدرك تمامًا إن كان مستواه بالعربيّة هو سبب هذا التبسيط: فحتى لو حصل وحدّثه عُمّاله عن السلالات الحاكمة التي تعاقبت على بلاد ما بين النهرين، فإن غياب لغة مشتركة بينه وبينهم، وحاجته لفهم شيء ممّا يتفوهون به، سيضطرانه إلى اللجوء إلى مفهوم «القديم جدًا».

لقد سحبت أوروبا التاريخ القديم من تحت أقدام السوريين والعراقيين والمصريين؛ لقد استولت أممنا المجيدة على العالميّة عبر احتكارها العلم عمومًا، وعلم الآثار في وجه التحديد، فجّردت

---

(١) بالعربية في النص الأصلي.

الشعوب المُستعمَرة، بواسطة هذا النهب، من ماضٍ صار إذًا، في نظر أصحابه، غريبًا عنهم وحكرًا على الأجانب: يستطيع هؤلاء المُدمِرون الإسلاميون المعتوهون، استخدام الحفّارات بسهولة أكبر في المدن القديمة الأثرية، طالما أنهم يجمعون، إلى جانب جهلهم وغبائهم المطلق، الاحساس المنتشر إلى حدّ ما، بأن هذا التراث انبعاثٌ غامضٌ وذو أثر رجعي، عن القوى الأجنبية.

الرقّة هي اليوم إحدى المُدن التي تقع تحت السيطرة المباشرة لتنظيم «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، ما لم يجعلها مِضيافة أكثر بكثير على الأرجح، فالسفاحون المُلتحون يسرحون فيها ويمرحون على هواهم، يقطعون شرايين رقاب من هنا، وأياديَ من هناك، يحرقون الكنائس ويغتصبون الكفار في أوقات فراغهم، تقاليدٌ «قديمة جدًّا»، يبدو أن الجنون قد استبدّ بالمنطقة، جنون ربّما لا شفاء منه، كالجنون الذي يعاني منه بيلغر.

تساءلتُ غالبًا عن المؤشرات التحذيرية التي سبقت جنون بيلغر، وعلى عكس جنون سورية نفسها، أنا لا أرى، إذا استثنينا طاقته الخارقة، وحنكته المُحكمة في التعامل مع الناس، وأوهام العظمة التي كانت تنتابه، إلا القليل من المؤشرات. لكن لعل هذه الأخيرة كانت كافية بل كثيرة. كان يبدو شخصًا مسؤولًا ومتزنًا بالكامل؛ حين التقينا في إسطنبول قبل رحيله إلى دمشق، كان كفوءًا ومليئًا شغفًا - هو من عرَّفني إلى فوجيه: كان الأخير يبحث عن شخص يشاركه السكن، بينما كنتُ أجوب على جميع المؤسسات الألمانية والنمساوية بحثًا عن مكان أمكث فيه خلال الشهرين المتبقيَين لي على ضفاف البوسفور، بعد أن استنفدت كرم الـ«كولتور فوروم»[1]

(١) أي «المنتدى الثقافي»، وهو مؤسسة ثقافية نمساوية.

في قصر «يني كوي»، المقرّ البديع للسفارة النمساوية ومن ثمّ لقنصليتها العامة، هناك في الأعلى قرب قلعة «روملي حصار»، على بعد خطوتين من المنزل الذي أقام فيه ابن بلدي الشهير هامر-بورغشتال في حيّ «بويوكديري». كان هذا القصر مكانًا باهرًا لا تشوبه سوى علّة واحدة: في هذه المدينة التي تنهشها ازدحامات السير، كان بلوغه عسيرًا شبه مستحيل؛ لذا، سُررتُ أنا وحقيبتي بالعثور على غرفة للإيجار في شقة باحث فرنسي شاب مختصّ في علم الاجتماع، كانت اهتماماته تتمحور حول الدعارة خلال نهاية الدولة العثمانية وبداية الجمهورية التركية. هذا موضوعٌ كتمته بالطبع عن أمي تخوفًا من أن تتخيلني أبيت في ماخور. بعد انتقالي إلى هذه الشقة في وسط المدينة، صرت على مسافة أقرب من الأماكن التي كنت أقصدها من أجل أبحاثي الموسيقية، كـ«الجمعية الكورالية الإيطالية» السابقة التي كان مقرها على بعد بضع مئة من الأمتار. لا شك في أن فوجيه كان مهتمًا بالدعارة، إلا أن إسطنبول كانت له بمثابة منفى: ميدانه الحقيقي كان إيران، وقد التحق بـ«المعهد الفرنسي للدراسات الأناضولية» في انتظار حصوله على تأشيرة دخول طهران حيث سألتقي به مجددًا بعد سنوات عدّة: ليس هناك من مصادفات في عالم الدراسات الشّرقيّة، كانت ستقول سارة. كان يُفيد المعهد الذي تبناه من خُبراته، ويُحضّر مقالة، حدّثني عنها ليلًا نهارًا، حول «تنظيم الدعارة في إسطنبول خلال بداية الجمهورية» - فوجيه كان مهووسًا جنسيًا من صنف غريب: أزعر باريسيّ، أنيقٌ نسبيًا ومن عائلة مرموقة، إلّا أنه كان يُبدي في كلامه صراحةً فظيعة لا تمت بصلة إلى سخرية يبلغ الحذقة. كيف ولماذا كان يأمل بالحصول على تأشيرة دخول إيران، كان هذا لغزًا للجميع؛ وحين كنا نَطرح عليه السؤال، كان يكتفي بالقول: «آه آه آه، طهران مدينة مثيرة جدًّا

للاهتمام، تجدون كلّ شيء في عوالمها السفلية»، من دون أن يعي أن سبب دهشتنا لم يكن ما في وسع هذه المدينة أن تقدّمه من موارد لمواضيع دراسات كهذه، بل تعاطف الجمهورية الإسلامية المفترض مع هذا الفرع الفاحش نوعًا ما من العلوم الاجتماعية. (يا إلهي، صرت أفكر مثل أمي، «فاحش»، لم يعد أحد يستخدم هذه الكلمة الآن، سارة محقّة، أنا محتشم بإفراط، شخص تقليدي ميؤوس من أمره، لا يمكن فعل شيء حيال ذلك). على عكس ما قد نتصوره، كان يحظى باحترام استثنائي في مجاله، وينشر من حين لآخر مقالات في الصحف الفرنسية الكبرى - هو أمرٌ مُسَلٍّ أن يدعو نفسه إلى داخل أحلامي، «مختصّ بالجُماع العربي»، كان هذا اللقب سيروق له كثيرًا، حتّى لو لم تكن تربطه، على حد علمي، أي علاقة بالعالم العربي، فقط بتركيا وإيران، لكن من يدري؟ لعلّ أحلامنا أكثر دراية منّا.

ضحك بيلغر المجنون كثيرًا لأنّه نجح في «تزويجي» بشخص كهذا. كان بيلغر يعيش وقتذاك من إحدى مِنَحِه التي لا تحصى، تربطه علاقات صداقة بكلّ الشخصيات البارزة التي يمكن تخيّلها - حتّى أنه استخدم علاقته بي للتعرّف على النمساويين، فصار بسرعة كبيرة مقربًا من ديبلوماسيّي بلدي أكثر منّي بأشواط.

كنت أراسل سارة بانتظام، بطاقات بريدية تُصوِّرُ آيا صوفيا، لقطات للقرن الذهبي الذي، كما يقول عنه غريلبارتسر في مذكرات رحلاته، «لا مثيل له ربّما في العالم برمته». يصف غريلبارتسر، مسحورًا، هذه السلسلة من الصروح والقصور والقرى، قوة تأثير هذا الموقع الذي كان يذهلني أنا أيضًا ويملأني طاقة، إلى درجة ما هو منشرح، جُرْح بحريٌ، شقٌّ يفيض جمالًا؛ التجوال في إسطنبول، وأيًا كانت غاية النزهة، بمثابة تَمَزُّق في الحدود يشُعُّ منه الجمال -

فإن نظرنا إلى القسطنطنية كآخر مدينة في شرق أوروبا أو كآخر مدينة في غرب آسيا، إن اعتبرناها نقطة وصول أو نقطة انطلاق، جسرًا أو حدًّا، يبقى أن هذا الخليط هو من صنيعة الطبيعة، والمكان هنا يلقي بثقله على التاريخ كما التاريخ يلقي بثقله أيضًا على البشر. القسطنطنية في نظري، حدودُ الموسيقى الأوروبية، أبعد مكان في الشّرق وصل إليه فرانتس ليست الذي لا يكل ولا يتعب؛ وهي في نظر سارة، بداية الأراضي التي ناه فيها رحّالتُها، قادمين من هذا الاتجاه كانوا، أم من الاتجاه الآخر.

كان مذهلًا، بينما أنا في المكتبة أجول بين صفحات «مجلّة القسطنطنية - أصداء الشّرق»، أن أدرك كم كانت هذه المدينة تجذب دومًا (يجب من بين جملة أسباب أخرى، ذِكر سخاء سلطانٍ كان رغم ذلك شبه مفلس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر) كلّ ما كانت تَعُدُّه أوروبا من رسّامين وموسيقيين وأدباء ومغامرين - أن أكتشف أن جميعهم، منذ مايكل أنجلو ودافنشي، قد حلموا بالبوسفور، كان أمرًا رائعًا. ما آثار اهتمامي في إسطنبول، إن أردت الاستعانة بعبارات سارة، هو التبدلات التي تطرأ على «الذات» - زيارات ورحلات الأوروبيين إلى العاصمة العثمانية - أكثر من «الغيرية» التركية بحد ذاتها؛ ففيما عدا موظفين في المعاهد المختلفة، وبعض من أصدقاء فوجيه وبيلغر، لم أعاشر أناسًا من أهل البلد قط؛ اللغة كانت مرّة أخرى حاجزًا لا يمكن تخطيه، وكنت لسوء الحظ بعيدًا كلّ البعد من امتلاك موهبة هامر-بورغشتال الذي قال إن باستطاعته «أن يترجم من التركية أو العربية إلى الفرنسية أو الإنكليزية أو الإيطالية، وأن يتكلم التركية بالطلاقة نفسها التي يتكلم بها الألمانية»؛ لعل ما كنتُ أفتقر إليه هو يونانيات أو أرمنيات حسناوات أتنزه مِثله برفقتهن بعد ظهر كلّ يوم على ضفاف مضيق

البوسفور لكي أتقن اللغة التركية. وفي ما يتعلّق بهذه المسألة، كانت سارة تتذكر أمرًا شنيعًا سمعته خلال أول درس عربية تلقته في باريس: لقد صرّح وقتذاك العالم الكبير والمستشرق المرموق جيلبرت ديلانو بالحقيقة الآتية من أعلى منبره: «التمكّن من العربية يلزمه عشرون سنة. من الممكن خفض هذه المدة إلى النصف بواسطة معجم جيد من جلد المؤخرات». «معجم جيد من جلد المؤخرات»، هذا ما كان في حوزة هامر في ما يبدو، أو حتّى معاجم عدّة؛ فهو لا يُخفي أنه يدين بما يعرفه من اللغة اليونانية الحديثة، إلى فتيات القسطنطنية اللواتي كان يغازِلُهُن على ضفة المياه. على هذه الشاكلة كنتُ أتخيل «منهج فوجيه»؛ كان يتكلم الفارسية والتركية بطلاقة، تركية العوالم السفلية وفارسية الأسواق الشعبية اللتين تعلّمهما في بيوت دعارة إسطنبول وحدائق طهران العامة، أي في أماكن عمله. كان يتمتع بذاكرة سمعية خارقة، وفي مقدوره أن يستعيد، ليستخدمها مجددًا، محادثات بأكملها، إلا أنه لم يكن يحسن التقاط اللهجات: فجميع اللغات كانت تخرج من ثغره شبيهة بلكنة باريسية إلى حد أنكَ كنتَ تتساءل ما إذا كان يتعمّد ذلك، إذ كان مقتنعًا بتفوّق اللهجة الفرنسية على اللهجات الأجنبية. الإسطنبوليون والطهرانيون، ربّما لأنّه لم تتح لهم فرصة الاستماع إلى جان بول بلموندو يبربر بلغتهم، كانوا يفتتنون بهذا الخليط من الرُّقِي والسوقية، وليد هذه المزاوجة الشاذة بين أسوأ أماكن فحشهم وباحِثٍ أوروبي أنيق كدبلوماسي. كان بذيء اللسان باستمرار، وفي جميع اللغات، حتّى في الإنكليزية. والحقيقة أنني كنت أشعر بغيرة رهيبة من هيبته وسِعة علمه وصراحته في الكلام، كما من معرفته الجيدة بالمدينة - وربّما من انجذاب النساء إليه أيضًا. كلا، بشكل خاص من انجذاب النساء إليه: ففي شقّة الطبقة الخامسة التي كنا نتقاسمها، المتوارية في عمق

زقاق من حي «جيهانكير» والمُطلّة على مشهد شبيه بـ «الرؤية البانورامية لإسطنبول من برج غالاتا»، كان غالبًا ما يقيم سهرات يتهافت إليها عدد كبير من الفتيات المثيرات؛ حتّى أنني رحت في واحدة من هذه الأمسيات - يا للعار - أرقص على أنغام إحدى أغاني سيزين آكسو أو إبراهيم تاتليس الرائجة، لا أذكر أيهما، برفقة تركية جميلة (شعر نصف طويل، كنزة ضيّقة تُبرز ملامح الجسد، لونها الأحمر الفاقع يتجانس مع أحمر الشفاه، مسكرة زرقاء حول عينيّ حوراء من حور الجنة) جلستَ لاحقًا بجواري على الأريكة، كنا نتحدث بالإنكليزية؛ حولنا كان راقصون آخرون ممسكون بزجاجات بيرة؛ ومن خلفها، كانت أنوار ضفة البوسفور الآسيوية تمتد حتّى محطة «حيدر باشا»، فتحيط بوجهها ذي الوجنتين الناتئتين. كانت الأسئلة تافهة، ما هو عملُكَ، ماذا تفعل في إسطنبول، فشعرتُ بالارتباك كالعادة:[1]

- أنا أهتم بتاريخ الموسيقى.

- هل أنتَ موسيقي؟

(*ارتباك*) - كلا. أنا... أنا أجري دراسات حول الموسيقى. أنا... أنا عالِم موسيقي.

(*تعجُّب واهتمام*) - هذا أمرٌ رائع، على أي آلة تعزف؟

(*ارتباك حاد*) - أنا... أنا لا أعزف على أي آلة. أقوم بأبحاث فقط. أستمع وأكتب.

(*تعجّب وخيبة أمل*) - أنتَ لا تعزف؟ لكن تستطيع أن تقرأ الموسيقى؟

(*ارتياح*) - أجل، بالطبع، هذا جزء من عملي.

---

(١) الحوار الّذي يلي هو بالإنكليزية في النص الأصلي.

(*دهشة وارتياب*) - تقرأ الموسيقى لكن لا تعزفها؟

(*كذب سافر*) - أستطيع أن أعزف على آلات عدّة في الواقع، لكن على نحو رديء.

إنطلقتُ عقب ذلك بشرح مُطوّل عن أبحاثي، بعد قيامي بانعطافة تثقيفية عبر الفنون التشكيلية (ليس كلّ مؤرّخي ونقاد الفن رسامين). كان عليّ الإقرار بأنني لم أكن أهتم كثيرًا بالموسيقى «الحديثة» (لكن إن أردنا التكلم بشكل علمي ودقيق، فلا بدّ أنني اضطررت إلى أن أكذب وأختلق شغفًا بموسيقى الـ«بوب» التركية) وأفضّل عليها موسيقى القرن التاسع عشر، الغربية والشّرقيّة؛ كان اسم فرانتس ليست مألوفًا لها، ولم يكن اسم الحاج أمين أفندي يعني لها أي شيء، لا شك في أنني كنتُ ألفظه بطريقة مريعة. لا بدّ أنني رحت أتباهى وأنا أخبرها بتحرياتي (التي كنتُ أجدها مشوقة للغاية، تقطع الأنفاس) المتعلقة ببيانو فرانتس ليست، ذاك البيانو الشهير من نوع «الغراند»، ذي السبعة «أوكتاف» وثلاثة أوتار، المزود بآلية التكرار المزدوج التي ابتكرها سباستيان إيرارد، إضافة إلى جميع التحسينات، مصنوع من خشب الأكاجو، إلخ، والذي عزف عليه أمام السلطان عام ١٨٤٧.

في غضون ذلك، جلس الضيوف الآخرون، يشربون مزيدًا من البيرة، فراح فوجيه الذي كان حتّى اللحظة يولي امرأة أخرى اهتمامه، يتربص بالشابة التي أحدّثها بصعوبة، وبالإنكليزية (أمر دائمًا شاق، كيف نقول «أكاجو» على سبيل المثل؟ «ماهوجني»، كما في الألمانية؟)، عن شؤوني الصغيرة التي كنتُ أبالغ في أهميتها: بغمزة واحدة أرفَقها بكلمة تركية، أضحَكها عاليًا - كان يهزأ بي على ما أظن؛ ثم، وباللغة ذاتها أيضًا، راحا يتكلمان عن الموسيقى، أو هذا ما ظننته في الأقل، التقطتُ كلمات مثل «غنز آن روزز» و«بيكسيز»

و«نيرفانا»[1]، ثمّ ذهبا ليرقصا؛ رحتُ أتأمل البوسفور يتلألأ عبر النافذة ومؤخرة الفتاة التركية تتماوج تحت ناظري تقريبًا بينما كانت تهزّ خصرها أمام هذا الغندور المعتدّ بنفسه فوجيه - كان أجدى أن أضحك وآخذ الأمر بروح السخرية، لكن كنتُ مستاءً.

طبعًا كنتُ أجهلُ أن ثمة جرحًا، أصاب روح فوجيه سيتحول لاحقًا جرحًا عميقًا - كان عليّ الانتظار سنوات عدة، حتّى ذهابي إلى طهران، لأكتشف ما يخفيه قناع الغاوي هذا، لأبصرَ الحزن والجنون والوحشة التي كان يعاني منها هذا المتجوّل في العوالم السفلية.

بطبيعة الحال، أدين لفوجيه بأول غليون أفيون دخنتُه - لقد جلب معه هذا الولع من سفرته الأولى إلى إيران. في إسطنبول، كان تدخين الأفيون يبدو لي كأنه فعلٌ ينتمي إلى زمن بائد، نزوة مستشرق، ولهذا السبب تحديدًا، أنا الذي لم أقْرُب في حياتي أيّ نوعٍ من المخدرات ولم أمتلك أبدًا أي رذيلة، استسلمت للإغراء: كنتُ في غاية الانفعال، خائفًا حتى، لكن كان خوفًا شهوانيًا، ذلك الذي يشعر به الأطفال أمام كلّ ما هو محظور، وليس خوف الراشدين أمام الموت. في مُخيِّلتنا، كان الأفيون مرتبطًا للغاية بالشّرق الأقصى، بلوحات رخيصة لصينيين ممددين في أوكار التدخين، إلى درجة أننا كنا ننسى تقريبًا أن أصله من تركيا ومن الهند، وأنه كان يُدخَّن من طيبة الإغريقية إلى طهران ومرورا بدمشق، ما خفف من وطأة توجُّسي: فالتدخين في إسطنبول أو في طهران كان بمثابة استعادة شيء من روح المكان، المشاركة في تقاليد لا نعرف عنها إلا القليل، استحضارُ واقعٍ محلّي أزاحته الكليشيهات

(١) Guns N' Roses، Pixies وNirvana هي فرق «روك» أميركية.

الكولونيالية نحو بقعة أخرى من الأرض. ما زال استهلاك الأفيون أمرًا تقليديًا في إيران، حيث يُعَدّ المدمنون عليه بالآلاف: تستطيع أن ترى أجدادًا هزالًا وناقمين، يُومِئُون بأيديهم بعصبية، مجانين، إلى أن يدخنوا أول غليون أفيون في النهار أو يذيبوا في شايهم قليلًا من بقايا البارحة المحترقة، فيعودون وديعين هادئين من جديد، مُلتحفين بمعاطفهم السميكة، يتدفأون بنار الكانون الذي سيستخدمون جمراته لإشعال غليونهم وتسكين آلام أرواحهم وعظامهم الهرمة. أطلعني فوجيه على كلّ ذلك خلال الأسابيع التي سبقت طقس عبوري، هذا الطقس الذي كان سيقربني من تيوفيل غوتيه وبودلير، وحتى من المسكين هاينرش هاينه الذي سيجد في صبغة الأفيون، وفي المورفين بشكل خاص، علاجًا لأوجاعه، ومواساة خلال فترة احتضاره المديدة. لقد استعان فوجيه بمعارفه من بين أصحاب بيوت الدعارة وحرّاس الملاهي الليلية للحصول على بعض من الشرائح المستديرة من هذه المادة السوداء التي تُخلّف على الأصابع رائحة خاصة جدًا. عطرٌ مجهول يُذكّر بالبخور، لكن حلوٌ وكأنه «كاراميل»، ومرٌّ على نحو غريب في الوقت ذاته - طعمٌ يُطاردكم لفترة طويلة، يعاودُكم أحيانًا في جيب الأنف وفي البلعوم بعد زمن طويل؛ إن حاولتُ الآن استحضاره، سوف أشعر به وأنا أبلع ريقي، وأنا أغمض عينيّ، مثلما باستطاعة مُدخّن السجائر في ما أفترض، أن يسترجع طعم القطران المحروق الكريه، لكن المختلف جدًا، فعلى عكس ما كنت أظن قبل أن أجرّبه، الأفيون لا يحترق عند تعرضه للحرارة، بل يغلي ويذوب فيتصاعد منه بخار كثيف. لا شك في أن عملية تحضيره المعقدة هي ما حال دون تحوُّل الحشود الأوروبية مدمنة على الطريقة الإيرانيّة؛ تدخين الأفيون مهارة موروثة، «حرفة» قد يقول البعض، أكثر بطئًا وتعقيدًا بكثير من الحقن بالإبرة - في روايته «روشتوف» المستوحاة

من سيرته الذاتية، يصف بورغ فاوزر، وهو بمثابة ويليام بورروز الألماني، «هيبّي» السبعينات في إسطنبول منهمكين من الصباح حتّى المساء بحَقْنِ أنفسهم على أسِرَّة قذرة، في «البنسيونات» الكثيرة القريبة من جامع «آيا صوفيا الصغير»، بأفيون خام يذيبونه كيفما اتفق، في أي سائل يقع تحت أيديهم، عاجزين عن العثور على طريقة تُخوّلهم تدخينه بشكل فعّال.

في حالتنا نحن، كانت عملية التحضير على «الطريقة الإيرانيّة»، كما قال فوجيه؛ لاحقًا، عبر مقارنة حركات يديه بتلك التي يقوم بها الإيرانيّون، تحققت من مدى إتقانه لهذا الطقس، ما بدا لي مُحيّرًا بعض الشيء: لم يكن يبدو أنه مُدمن، أو لم يكن بالأحرى يُظهِر أيًا من العوارض المنسوبة عادةً إلى المتعاطين، البطء، الهُزال، التوتر وسرعة الغضب، صعوبة التركيز، لكن رغم ذلك، كان خبيرًا في فنّ تحضير الغليون، ومهما كانت نوعية المادة التي في حوزته، أفيون خام أو مُخمَّر، ومهما كانت المعدات التي في حوزته، وهي كانت تقتصر في حالتنا، على غليون إيراني يُسخّن رأسه المصنوع من الطين النضيج على نار هادئة في كانون صغير؛ الستائر مُسدلة بعناية، مثل ستائر القماش الحلبي الأحمر والذهبي المُسدلة الآن، ستائر أرهقت رسوماتها سنواتٌ من ضوء فيينا الباهت - في إسطنبول، كان علينا أن نحجب مشهد البوسفور كي لا يرانا الجيران، إلا أن الأخطار كانت هناك محدودة، على عكس طهران حيث كان النظام قد أعلن الحرب على المخدّرات، والحرس الثوري يواجه المهربين شرق البلاد في معارك يُحدِد الطرفان زمانها ومكانها مُسبقًا؛ أما المشككون بحقيقة هذه الحرب، فقد نظّم لهم قضاة الجمهورية الإسلامية عام ٢٠٠١، قبل يوم واحد من النوروز، رأس السنة الفارسية، وبينما كنتُ قد وصلت لتوي إلى هناك، عرضًا ذا وحشية لا توصف، بثّوا صوره عبر

الكرة الأرضية برمتها: إعدام علني لخمسة مهربين، من بينهم امرأة تبلغ الثلاثين، شُنقوا على شاحنات رافعة، عيونهم معصوبة، رُفعوا بروية في الهواء والحبال حول أعناقهم، سيقانهم ترتعش حتّى لحظة الموت، فتتدلى أجسادهم المسكينة من تلك الأذرع المعدنية العملاقة؛ كانت الفتاة التي تُدعى فاريبا ترتدي شادورًا أسود؛ وكان لباسها المُنتفِخ بسبب الريح يحيلها طيرًا مُرعبًا، غُرابًا مشؤومًا يُلقي بلعنة على المتفرجين من جناحيه، وكان شيئًا يبعث على السرور أن يتخيَّل المرء أن هذه الحشود من البهائم - رجالًا، نساءً، وأطفالًا يهتفون شعاراتهم وهم يتطلعون إلى هؤلاء البائسين يُرفَعون نحو حتفهم - ستحلّ عليها لعنة الفتاة - الغراب فتذوق أشنع أنواع العذاب. لقد طاردتني هذه المشاهد طويلًا: كان لها على الأقل فضل تذكيرنا أنه رغم كلّ سحر إيران، كُنا هناك في بلد مشؤوم، أرض الألم والموت حيث كلّ شيء، حتّى شقائق النعمان، زهور الشهداء هذه، أحمر بلون الدم. كنا نسارع إلى محاولة نسيان كلّ ذلك بواسطة الموسيقى والشعر، فعلى المرء أن يحيا، مثله مثل الإيرانيّين الذين غدوا مختصين بفن النسيان - كان الشبّان والشابات يدخنون أفيونًا يخلطونه بالتبغ، أو يتعاطون الهيروين؛ المخدّرات كانت رخيصة بشكل إستثنائي، وحتى بالعُملة المحليّة: فرغم جهود الملالي وعمليات الإعدام العلنيّة، كان تَبَطُّل الجيل الشاب هائل إلى درجة أن ما من شيء كان يستطيع أن يحول دون بحثه عن مواساةٍ للروح في المخدّرات والسهر الصاخب والعربدة، كما تقول سارة في مقدمة أطروحتها.

فوجيه كان يَدْرُس كلّ هذا اليأس بصفته باحثًا، كعالم حشرات قرر فجأة أن يُعاين الكآبة بمجهره، منغمسًا هو الآخَر في الملذات بإفراط مُذهل، كأنه التقط عدوى من موضوع بحثه، يَبريه حزنٌ

مُتعاظم، مرض سِل أصاب روحه التي كان يداويها، كما كان البروفيسور رينيه لينيك يداوي رئتيه، بكميّات هائلة من المخدّرات.

إن غليون الأفيون الأول الذي دخنته قرّبني من نوفاليس وبرليوز، من نيتشه وتْراكل - دخلت عندها إلى الحلقة المغلقة المُؤَلفة من أولئك الذين ذاقوا شراب الآلهة، الشراب الذي قدّمته هيلين الطروادية إلى تليماخوس حتّى ينسى أشجانه لبرهة من الزمن: «إلا أن هيلين، ابنة زيوس، خطرت لها فكرة أخرى، فصبّت من فورها مُخدِّرًا في النبيذ الذي كانوا يعاقرونه: إنه شراب السلوان الذي يمحو الألم والعذاب. من يشرب منه يعجز عن ذرف دمعة واحدة طوال يوم كامل، حتّى لو مات والداه، حتّى لو رأى بأم عينيه نصلًا برونزيًا يخترق جسد أخيه أو ابنه فلذة كبده. وكان هذا البلسم في حوزة ابنة زيوس منذ أن أهدته إليها بوليدامنا، زوجة ثون، في مصر، وهي بلاد خصبة، تُنتِج بوفرة قمحًا وأعشابًا طبيّة، بعضها يشفي وبعضها الآخر يميت. هناك لديهم أفضل أطباء الدنيا، جميعهم من سلالة الإله بايون»[1]، وصحيحٌ أن الأفيون يطرد جميع الأحزان، جميع الآلام، آلام الرّوح والجسد، ويداوي، موقتًا، الأوجاع الأكثر حميمية، ويشفي حتّى من الإحساس بمرور الزمن: الأفيون يبعث إحساسًا بالعوم فوق الأشياء والحياة، يفتح قوسين في الوعي، قوسين داخليّن حيث نشعُر بأننا نُلامس الأبدية، أننا قَهرنا السويداء ومحدودية الوجود. لقد انتشى تليماخوس من نوعين من السَكر، ذلك المتأتي من تأمل وجه هيلين، كما ذلك الذي سبّبه شراب السلوان وأنا نفسي، في إحدى المرات في إيران، بينما كنتُ برفقة سارة، أدخن وحدي - لم يكن لسارة أي شغف بالمخدّرات لا الخفيفة ولا القوية

(١) هذا الاقتباس من أوديسة هوميروس مُترجَمٌ عن الفرنسية.

- سُنِحت لي الفرصة بأن أشعر بلمسة جمالها فيما الدُخان الرمادي يُفرغ روحي من كلّ رغبة جسدية بامتلاكها، من كلّ خوف وقلق، من كلّ شعور بالعزلة: رأيتها على حقيقتها، كانت تُشِعُّ كالقمر - الأفيون لا يشوش الحواس، بل يجعلها موضوعية؛ يمحو الذات، وليست من المفارقات الأقل شأنًا لهذا المخدر الصوفي أنه، بينما يُضاعف من حدّة الوعي والحواس، ينتزعنا من أنفسنا ويقذف بنا داخل سكون كوني عظيم.

أنذرني فوجيه أن إحدى المواد الكثيرة التي تدخل في تكوين الأفيون تسبب التقيؤ، وأن إحساسًا قويًا بالغثيان قد يرافق أولى مرات تدخين هذا المُخدر، غير أنني لم أشعر بأي من هذين العارضَين - كان الأثر الجانبي الوحيد، فيما عدا أحلام جنسية تدور حوادثها في حريم بلاط خيالي وأسطوري، إمساكٌ نَجيع: هذه حسنة أخرى للخشخاش، بالنسبة إلى المسافر المتعرّض دائمًا لمشكلات الأمعاء المزمنة التي تُعدُّ، إضافةً إلى الديدان وأنواع الأميبا الأخرى، رفيقات سفر مُتجولي الشّرق الأزلي، حتّى لو أن هؤلاء نادرًا ما يستحضرون ذلك في ذكرياتهم.

لماذا اختفى الأفيون في يومنا هذا، من دستور الأدوية الأوروبي، لست أدري؛ لقد أضحكتُ طبيبي كثيرًا حين طلبتُ منه أن يصف لي أفيونًا - غير أنه كان يُدركُ تمامًا أنني مريضٌ رصين وعاقل، ولن أسرف بتعاطيه، إن كان باستطاعة المرء أصلًا (هذا طبعًا هو الخطر) ألا يسرف بتعاطي هذا الدواء السحري الذي يعالج جميع الأمراض، لكن فوجيه كان يؤكد لي، ليتغلّب على آخر مخاوفي، أن تدخين غليون أو غليونين في الأسبوع لا يُحوّل الشخص مدمنًا. أرى من جديد حركات يديه وهو يُعدّ الغليون الذي كان رأسه المصنوع من الطين النضيج، قد سُخّن وسط الجمر؛ كان يُقطّع العجينة السوداء

والمُتصلّبة قطعًا صغيرة يُلينها عبر تقريبها من حرارة الكانون قبل أن يستلّ الغليون - كان الخشب المصقول والمُغلّف بطوق من النحاس الأصفر يشبه نوعًا من المزامير من دون لسان أو ثقوب، لكنه مُزوَّد بفم مُذهَّب يضعه فوجيه بين شفتيه؛ ثمّ يلتقط بروية إحدى الجمرات بملقط ليضغط بها على الفوهة؛ الهواء الذي يسحبه يحيل الجمرة حمراء متقدة، فتكسو وجهه انعكاسات نحاسيّة؛ يُغمض عينيه، فيذوب الأفيون مُصدرًا فرقعة خافتة للغاية، وينفث بعد بضع ثوانٍ سحابة ضئيلة، الفائض الذي لم تفلح رئتاه في الاحتفاظ به، زفرة من اللذة؛ كان يبدو وسط الظلال التي تلفه، عازف ناي من الأيام الغابرة، وكان عبق الأفيون المُحترق (عطر توابل حلو ومُرّ في الوقت عينه) يضوع في المساء.

قلبي يخفق بقوة وأنا أنتظر دوري؛ أتساءل ما مفعول هذا المعجون الأسود؛ أنا خائف، أنا لم أدخّن أبدًا من قبل، ما عدا سيجارة حشيشة أيام المدرسة الثانوية؛ أتساءل ما إذا كنتُ سأسعل وأتقيّأ ويغمى عليّ. يتلفظّ فوجيه بإحدى عباراته، «يلعن أيري، هو ليس مُقرفًا»، يَمُدّ لي الغليون من دون أن يفلته، أسنده على يدي اليسرى وأنحني، الفم المعدني فاتر، أكتشفُ طعم الأفيون، بعيدٌ بدايةً، ثم، عندما أتنشقّ بينما فوجيه يقرّب من الفوهة جمرة مُتوهّجة أحسّ بحرارتها على خدّي، فجأة قوي، فأقوى، بالغ القوة بحيث لم أعد أشعر برئتيّ - أستغرب سلاسة هذا الدخان الذي ينساب كالماء تقريبًا، أستغرب سهولة ابتلاعه، بالرّغم من أنني، يا للخزي، لا أشعر بشيء سوى باختفاء جهازي التنفسي! إكفهرار داخلي، وكأن أحدًا قدّ سوَّد صدري بواسطة قلم رصاص. أزفر. فوجيه يراقبني، ثمة ابتسامة تجمّدت على وجهه، يبدو قلقًا - إذًا؟ أزُمُّ شفتيّ، مُتخذًا هيئة مُلهَمة، أنتظر، أنصت. أنصت إلى نفسي، أبحث في داخلي عن

إيقاعات جديدة، ذبذبات جديدة، أحاول أن أتتبع تحوّلي، أنا مُتيقظ جدًّا، أرغب في إغماض عينيّ، أرغب في الإبتسام، أبتسم، في إمكاني حتّى أن أضحك، لكنني سعيد بالابتسام لأنني أشعر بإسطنبول حولي، أسمعها من دون أن أراها، هي سعادة في غاية البساطة، سعادة تامة تلك التي تنزل عليّ الآن، هنا، لا انتظر شيئًا غير الكمال المُطلق لهذه اللحظة المُعلقة والمُتمددة، فأفترض، في هذه اللحظة، أن المفعول ها هو.

أراقب فوجيه وهو يكشط بقايا الأفيون بإبرة.

وهج الكانون يخمد؛ الجمرات تبردُ شيئًا فشيئًا وتكتسي رمادًا؛ قريبًا، سيتوجب النفخ عليها لتخليصها من هذا الجلد الميت والعثور، إن لم يكن الأوان قد فات بعد، على الشعلة التي ما زالت داخلها. أستمع إلى آلة موسيقية مُتخيَّلة، أمرٌ استعدته من يومي الذي انقضى؛ إنه بيانو فرانتس ليست؛ هو يعزف أمام السلطان. كنت سأسألُ فوجيه لو تجرأتُ: في رأيِكَ، ما الذي عزفه فرانتس ليست في قصر «جراغان» عام ١٨٤٧ أمام حاشية السلطان وجميع الأجانب ذوي الشأن الذين تعدّهم العاصمة العثمانية؟ هل كان السلطان عبدالمجيد مولعًا بالموسيقى بالقدر نفسه الذي سيولع بها شقيقه عبدالعزيز، أوّل عاشق لفاغنر في الشّرق؟ بعضٌ من «الألحان المجرية» بكل تأكيد، وبكل تأكيد «عَدْو الخيل الكروماتيكي» أيضًا، هذه المقطوعة التي كثيرًا ما عزفها في كلّ أنحاء أوروبا وصولًا إلى روسيا. وربما، كما في أماكن أخرى، بعض من «الارتجالات على لحن محلي ممزوجة بألحان مجرية». هل دخّن فرانتس ليست الأفيون؟ في أي حال، برليوز دخّنه.

يحشو فوجيه مجددًا فوهة الغليون معجونًا أسود.

أسمع بارتخاء هذا اللحن البعيد، أنظر من عُلُوٍ إلى جميع هؤلاء

الأشخاص، جميع هذه الأرواح التي ما زالت تتجول حولنا: من كان فرانتس ليست، من كان برليوز، وفاغنر، وكل من عرف هؤلاء، ألفرد دي موسيه، لامارتين، نيرفال، شبكة شاسعة من النصوص والحواشي والصور، واضحة ودقيقة، سبيلٌ لا يُبصره أحدٌ غيري، يَصِل هامر-بورغشتال بعالم كامل من الرّحالة والموسيقيين والشعراء، يَصِل بيتهوفن ببلزاك، بجيمس موريير، بهوفمانستال، بشتراوس، بمالر وبدخان إسطنبول وطهران الناعم، هل يُعقل أن يرافقني الأفيون بعد هذه السنين وإننا نستطيع استدعاء آثاره كما نستعدي الله في صلواتنا - هل كانت سارة تتراءى لي في الخشخاش، فأحلم بها مطوّلًا مثلما أفعل هذا المساء، رغبة مديدة وعميقة، رغبة تتسم بالكمال لأنها لا ترمي إلى أي إشباع، لأن ما من غاية لها؛ رغبة أبدية كقضيب منتصب إلى ما لا نهاية ومن دون هدف، هذا هو مفعول الأفيون.

هو يُرشدنا إلى الطريق في الظلمات.

لقد بلغ فرانتس ليست، هذا الشاب الوسيم، القسطنطينية آتيًا من «ياش» في رومانيا، مدينة المذابح اليهوديّة الدموية، ومرورًا بـ«غالاتس» والبحر الأسود، في أواخر شهر أيار عام ١٨٤٧. وصل بعد قيامه بجولة موسيقية طويلة: «الفيف» و«تشرنيفتسي» و«أوديسا»، كلّ ما تعدّه أوروبا الشّرقيّة من قاعات حفلات كبيرة وصغيرة، من أعيان كبار وصغار. هو نجمٌ، وحشٌ، وعبقري؛ يجعل الرجال يذرفون الدموع، يُغمى على النساء حين يبصرونه؛ من الصعب أن نُصدّق اليوم ما يرويه هو عن نجاحاته: خمسمئة طالب رافقوه على أحصنتهم إلى أول محطة لتبديل الخيول عندما غادر برلين، وعند رحيله من أوكرانيا، رمى عليه الزهور حشد من الفتيات. ما من فنان على دراية بأوروبا أكثر منه، يعرف جميع أطرافها النائية، من الشّرق إلى الغرب، من «بريست» إلى «كييف». تنتشر الإشاعات أينما يَحُلّ،

وتسبقه إلى المدينة التالية: لقد تم توقيفه، لقد تزوّج، لقد أصابه المرض؛ قدومه مُترقب في كلّ مكان، والأكثر إثارة للعجب أن خبر وصوله إلى أي مكان يزفه ظهور البيانو من نوع «إيرارد»، بيانو لا يعرف التعب مثل فرانتس ليست نفسه، يُسارع الصانع الباريسي إلى إرساله عبر البرّ أو البحر حالما يعرف وجهة أفضل مندوب لديه؛ تنشر «صحيفة القسطنطينية» إذًا، في ١١ أيار ١٨٤٧، رسالة تلقتها من باريس، من سباستيان بيار إيرارد نفسه، يُعلِن فيها الوصول الوشيك لبيانو من نوع «الغراند»، مصنوع من خشب «الأكاجو» ومُزوَّد بكل التحديثات المتاحة، تم إرساله من مارسيليا في ٥ نيسان. فرانتس ليست آتٍ إذًا! إنه آتٍ! مهما حاولت، لا أعثر إلا على القليل من التفاصيل حول إقامته في إسطنبول، عدا اسم التي كان من المفترض أن تُرافقه، ربّما.

وهذه المسكينة ماريت دوبليسيس التي ماتت... هي أوّل امرأة وقعتُ في حبها، ولستُ أدري في أي مقبرة تنهش الديدان جثّتها الآن! مُحقّة كانت حين قالت لي قبل خمسة عشر شهرًا: «لن أحيا طويلًا؛ أنا فتاة غريبة الأطوار، لن أقوى على التشبث بهذه الحياة التي لا أعرف كيف أعيشها والتي لن أتمكن من تحمّلها. خُذني، إرحل بي إلى حيث شئت؛ لن أسبب لك أي إزعاج، فأنا أنام طوال النهار، وفي المساء، دعني أذهب إلى المسرح، وافعل بي في الليالي ما تشاء». لقد قلتُ لها إنني سآخذها إلى القسطنطينية، فهي الرحلة الوحيدة التي كان جائزًا ومعقولًا أن أصطحبها. وها هي الآن ميتة...

سارة كانت تجد هذه الجملة مُذهلة: «خُذني، ارحل بي إلى حيث شئت؛ لن أسبب لك أي إزعاج، فأنا أنام طوال النهار، وفي

المساء، دعني أذهب إلى المسرح، وافعل بي في الليالي ما تشاء»، إعلان حب في غاية الجمال، ينمُّ عن يأس مُطلق، عُريٌّ كامل - على عكس فرانتس ليست، أنا أعلم في أي مقبرة هي مدفونة، مقبرة «مونمارتر» التي اصطحبتني إليها سارة. مصير هذه الشخصية الحقيقية، يضاهي مصير «غادة الكاميليا» المستوحاة منها، حتّى إن شخصية رواية دوماس الابن، باهتةٌ بعض الشيء في حال استندنا إلى هذه الجملة؛ أما اقتباس فيردي حياة ماري دوبليسيس، فهو إقتباس موسيقي بالطبع، إلا أن فيه شيئًا من المبالغة الدراماتكيّة. لقد أقيم العرض الأول لأوبرا «لاترافياتا» في البندقية عام ١٨٥٣، الأمور كانت سريعة في ذلك الزمن؛ فبعد مرور سبع سنوات على وفاة ماري دوبليسيس المعروفة باسميّ مارغريت غوتيه وفيوليتا فاليري، أضحت هذه الغانية المتواضعة، بفضل دوماس الابن وفيردي، مشهورة في جميع أنحاء أوروبا. يبوح فرانتس ليست بحزن:

لو صادف أن كنتُ في باريس خلال مرض دوبليسيس، لكنت سعيتُ إلى إنقاذها بأي ثمن، فهي ذات طَبْعٍ رائع، كما أن العادات التي نُسميها مُفسِدة (والتي ربّما هي كذلك) لم تنل من قلبها. هل تُصدّق أنني تعلّقت بها بطريقة كئيبة ومأسوية، وهو ما أعادني لاإراديًا إلى شغفي بالشعر والموسيقى. إنها الهَزّة الأخيرة والوحيدة التي شعرت بها منذ سنوات. علينا العدول عن تفسير هذه التناقضات؛ إن قلب الإنسان شيءٌ عجيب!

قلب الإنسان فعلًا شيءٌ عجيب، وتحديدًا هذا القلب الذي يعشق بسهولة ولم يكف عن إيقاع فرانتس ليست في الحب، وحتى في حب الله - وسط هذه الذكريات الأفيونية، وبينما تقرع موسيقى فرانتس ليست في أذنيّ كطبول الإعدام، هذه الموسيقى التي لطالما

شغلتني في إسطنبول، تتراءى لي أنا أيضًا «فتاة غريبة الأطوار»، هناك في ساراواك، حتّى إن لم يكن لسارة أي علاقة بماري دوبليسيس ولا بهاريت سميثون («هل ترون هذه الإنكليزية السمينة الجالسة في مُقدمة المسرح»، يُخبرنا هاينرش هاينه في إحدى مقالاته)، الممثلة التي ألهمت «السيمفونية الخياليّة». برليوز المسكين، هائم في ولعه بالممثلة التي لعبت دور «أوفيليا المسكينة»[1]: «العبقري الكبير والمسكين، مصارعًا المستحيل!»، كما كتب فرانتس ليست في إحدى رسائله.

هذه المصائر المأسوية لنساء مَنسيات كانت ستثير اهتمام سارة – لكن يا له من مشهد! برليوز الذي يتملكه جنون الحب، ينقُر على الدفوف خلال أداء «مسيرة الإعدام» في قاعة الكونسرفتوار الكبيرة. هذه الحركة الرابعة من سيمفونيته جنونٌ محض، حلمٌ يتوالى فيه الأفيون والقتل بواسطة السم، التعذيب الساخر وصرير الأسنان، هي مسيرة نحو الموت، كُتِبَت خلال ليلة عابقة بأدخنة الخشخاش، وكان برليوز، كما يُخبرنا هاينرش هاينه، ينظر إلى هاريت سميثون من خلف دفوفه، يُحدّق فيها، وفي كلّ مرّة تلتقي فيها عيونهما، يضرُب أقوى فأقوى على آلته وكأنه ممسوس. (من جانب آخر، يشير هاينه إلى أن الدفوف، أو الآلات الإيقاعية بشكل عام، تليق ببرليوز. فعلى الرغم من أن قدميه لم تَطأ الشّرق أبدًا، إلا أن برليوز كان مفتونًا، منذ الخامسة والعشرين من عمره، بديوان «الشّرقيات» لفيكتور هوغو. ثمة شرق من «درجة ثانية» إذًا، ذلك الذي كتب عنه غوته وهوغو اللذان لم يعرفا أي لغة من لغات الشّرق ولا حتّى البلدان التي تتكلم بها، بل اعتمدا على مُؤلَفات مستشرقين ورحّالة من أمثال هامر–

(١) بالإنكليزية في النص الأصلي: "poor Ophelia".

بورغشتال، وثمّة حتّى شرق من«درجة ثالثة»، شرق برليوز وفاغنر الذي يتغذّى من أعمال هي نفسها لا تستند إلى تجربة مباشرة. «الشّرق من الدرجة الثالثة»، هذه فكرة يجب العمل على تطويرها. ومن ناحية أخرى، هذا دليلٌ على أن الدف يخفي في جوفه أشياء أكثر بكثير ممّا قد نتصور). في أي حال، يبقى أن هذه الأوفيليا المسكينة هاريبت سميثون، وعلى عكس الجيوش البريطانية، قد استسلمت للآلات الإيقاعية الفرنسية وتزوجت بالفنان. هذا الزواج الذي أرغمهما عليه الفن انتهى بكارثة، فالموسيقى لا تقوى أحيانًا على فعل كلّ شيء، ويُشير هاينه بعد بضع سنوات، خلال إعادة أداء «السيمفونية الخيالية» في الكونسرفتوار، إلى أن «برليوز يجلس مجددًا خلف الأوركسترا، في ناحية الآلات الإيقاعية، كما أن الإنكليزية السمينة ما زالت في مقدم المسرح؛ تلتقي نظراتهما مجددًا، لكن برليوز لم يعد يضرب على دفوفه بكل هذه القوة».

على المرء أن يكون هاينرش هاينه لكي يُصوِّر هكذا، في عشرة أسطر، حكاية حبّ قديم؛ «هنري هاين الطيّب واللامع»، كما يدعوه تيوفيل غوتيه، هاينه الذي يسأله بلهجته الألمانيّة الظريفة والماكرة خلال حفل موسيقي لفرانتس ليست في باريس، وفي حين كان غوتيه الحشاش على وشك السفر إلى القسطنطنية: «كيف ستستطيع أن تتكلم عن الشّرق بعد زيارته؟». سؤال في وسعنا طرحه على كلّ المسافرين المقيمين في إسطنبول، إلى درجة ما يُشتت السفر المكان الذي نقصده، يبعثره ويجعله يتكاثر في الانعكاسات والتفاصيل إلى أن يُفقده واقعيته.

لا يُطلعنا فرانتس ليست إلا على القليل جدًا ممّا فعله خلال زيارته تركيا التي تَستحضرها بشكل خاطف، في أذهان المارّة، لوحة تذكارية في زقاق ينحدر نحو القصر الفرنسي في «بيوغلو». نَعلَم أن

حال نزوله من الباخرة، إستقبله أستاذ الموسيقى دونيزيتي والسفير النمساوي اللذان كان السلطان قد أوفدهما إليه؛ نَعلَمُ أنه مكث لبضعة أيام في قصر «طولمه باغجه» بصفته ضيف السلطان، حيث قدم حفلة موسيقية على البيانو الشهير من نوع «إيرارد»؛ وبعد ذلك، أمضى بعضًا من الوقت في القصر النمساوي ثمّ في القصر الفرنسي حيث حلّ ضيفًا على السفير فرنسوا-أدولف دي بوركني وقدّم حفلة آخرى على الآلة ذاتها التي كانت تتبعه إلى كلّ مكان من دون كلل؛ وأنه لم يلتقِ بالسفير إلّا خلال نهاية فترة اقامته، لأن زوجة الأخير كانت مريضة؛ ثمّ قدّم حفلة ثالثة في قصر «بيرا» حيث صادف اثنين من معارفه القدامى، رجلًا فرنسيًا وآخر بولنديًا، فقام لاحقًا برحلة إلى آسيا برفقتهما؛ ونَعلَمُ أيضًا أنه بعث برسالة شكر إلى لامارتين الذي كان على دراية عميقة بالدولة العثمانية وزوّد فرانتس ليست برسالة توصيّة إلى وزير الخارجية رشيد باشا: هذا تقريبًا كلّ ما يمكننا ذكره إستنادًا إلى المصادر الموثوقة.

أرى مجددًا نُزهاتي بين جلستيّ بحث في الأرشيف وفي الصحف القديمة؛ أرى زياراتي المختصين الذين قد يزودونني بمعلومات، مؤرخين برمين إلى حدّ ما، خائفين، كمعظم الجامعيين، من إمكان أن يتفوق عليهم شابٌ يافع بسعة علمه وأن يحثّهم على ارتكاب الأخطاء، بخاصة إن لم يكن الشاب هذا تركيًا، بل نمساويًا، بل حتّى نصف نمساوي، وإن كان موضوع بحثه يقع في حيّز من الفراغ العلمي، فجوة بين تاريخ الموسيقى التركية وتاريخ الموسيقى الأوروبية: كنت أشعر أحيانًا، ما كان يبعث على شيء من الإكتئاب، بأن موضوع أبحاثي وتأملاتي شبيه بالبوسفور - هو طبعًا مكان جميل بين ضفتين، لكنّه ليس سوى ماء في الحقيقة، كي لا نقل هواء. ومهما حاولتُ أن أطمئن نفسي مُرددًا أن عملاق رودوس وهرقل كانا

يطآن كلّ ضفة بقدم هما أيضًا، فقد كانت نظرات المختصين الساخرة ومُلاحظاتهم اللاذعة غالبًا ما تنجح في تثبيط عزيمتي.

لحسن حظي، كان هناك إسطنبول، وبيلغر، وفوجيه، والأفيون الذي فتح لنا «أبواب الإدراك»[1] - كانت نظريتي حول الوحي المفاجئ الذي حلّ على فرانتس ليست في القسطنطينية، تنبع من مجموعة المقطوعات للبيانو «تناغمات شعرية دينية»، وبشكل خاص من مقطوعة «بَرَكة الله في العزلة» التي ألفها خلال إقامته في «فورونينس» بعد وقت قصير من مغادرته إسطنبول. إن هذا «الاقتباس» الموسيقي لقصيدة لامارتين بمثابة جواب عن سؤال البيتَين الأولَين، «من أين أتت، يا إلهي، هذه السَكينة التي تغمرني؟ / من أين أتى هذا الإيمان الذي يفيض به قلبي؟»، وكنتُ مقتنعًا كلّ الاقتناع بأن هذا الوحي على علاقة باكتشاف فرانتس ليست السحر الخاص الذي يتميّز به الضوء في بلاد الشّرق، وليس، كما يشرح المؤرخون غالبًا، بذكرى حبه القديم لماري داغولت الذي أعاد «طبخه» ومن ثمّ تقديمه إلى كارولين دي ساين-فتغنشتاين.

بعد مغادرته إسطنبول، تخلّى فرانتس ليست عن حياة الموسيقي المُتسكع، وعن سنوات نجاحاته الباهرة واستهلّ من «فايمار» مساره الطويل نحو التأمل، رحلة جديدة افتتحها - وحتى لو كان قد بدأ يعمل على بعض من هذه المقطوعات قبل ذلك - بـ«التناغمات الشعرية الدّينية». ومع أن كلّ عازفي البيانو المبتدئين يرتكبون مجازر بحق مقطوعة «بَرَكة الله في العزلة»، إلا أنها تبقى ليس أجمل لحن كتبه فرانتس ليست فقط، بل المُصاحَبة الموسيقية الأكثر بساطة في تعقيدها التي ألفها أيضًا، مُصاحَبة موسيقية (وهو، بالنسبة

---

(١) عنوان كتاب لألدوس هكسلي.

إلى أذنيّ غير المتمرستَيْن وقتذاك، ما كان يُقرِّب هذا المقطوعة من نزول الوحي) ينبغي أداؤها كأنها هي الإيمان الذي يفيض به القلب، فيما اللحن يُمثل السَكينة الإلهية. هذا التأويل يبدو لي اليوم تأويلًا «غائيًا» وتبسيطيًّا بعض الشيء (إذ نادرًا ما يمكن اختزال الموسيقى بالسبب الكامن وراء تأليفها)، تأويلًا وثيق الارتباط بتجربتي الخاصة في إسطنبول - في صبيحة شديدة الزرقة، تَلسعُكَ برودتها المُنعشة برفق، عندما يُبرِز الضوء المُنحَدِر «جزر الأمراء» خلف قصر «توب كابي» وتخدش مآذن إسطنبول القديمة السماء برماحها، بأقلامها الرصاص لكي تَخُطَّ اسم الله المئة في جوف الغيوم الناصعة، ليس هناك سوى قلّة من السُيّاح والمارة في الزقاق الغريب (جدران حجرية عالية من دون نوافذ، خانات قديمة ومكتبات مُغلقة) المفضي إلى خلف مسجد سليمان الذي بناه خوجه مِعمار سِنان آغا للسلطان العثماني. أصِلُ إلى بهو الأعمدة الرخامية الملونة؛ نوارس تُحلّق بينها؛ البلاط يلمع كأنها أمطرت منذ حين. كان قد سبق لي أن دخلت مساجد عدّة من قبل، إلى آيا صوفيا وإلى الجامع الأزرق، كما أنني سأرى لاحقًا مساجد أخرى، في دمشق، في حلب، وحتى في أصفهان، لكن ما من مسجد من بين كلّ هذه المساجد كان له هذا الوقع الفوري عليّ، بعد أن تركت حذائي في دُرج خشبي وولجت قاعة الصلاة، ضيقٌ في الصدر، إحساس بالضياع، عبثًا أحاول أن أمشي فأترك نفسي أتهاوى في مكاني، على البساط الأحمر ذي الورود الزرق، علّني أستعيد كامل وعيي. أكتشفُ أنني لوحدي في الجامع، لوحدي محاطًا بالضوء، لوحدي في هذا الفضاء ذي الأبعاد المترامية والمُرْبِكة؛ حلقة القبة الهائلة تُرحبّ بي، مئات النوافذ تحتضنني - أجلس متربعًا. أنا مُتأثر إلى حدّ البكاء لكن لا أبكي، أشعر بأنني أرتفع عن الأرض وأجول

بنظري على الكتابات التي على خزفيات إزميد، أنظر إلى الزخرفات الملونة المنتشرة على الجدران والسقف، كلّ شيء يتلألأ، ثمّ يستحوذ عليّ سكون عميق، سكون مُفجِع، ذروة بالكاد ألمحها، لكن الجمال سريعًا ما يتوارى ويلفظني - أستعيد وعيي شيئًا فشيئًا؛ ما نبصره عيناي الآن رائع بالتأكيد، لكنّه لا يمت بصلة إلى الشعور الذي تملكني منذ قليل. يغمرني حزن شديد، فجأة، إحساس بالفقدان، رؤيا قاتمة عن واقع الدنيا وجميع عيوبها، جميع آلامها، حزن يضاعف من حدّته بهاء وكمال المسجد، وتحضرني جملة، وحدهُ التناسبُ بين الأشياء إلهيٌّ، أمّا ما تبقى، فمن صنيع البشر. بينما تدخل مجموعة من السيّاح إلى الجامع، أحاول الوقوف وساقيّ المتخشبتان نتيجة ساعتين من الجلوس تجعلانني أترنح وأغادر المسجد كأنني رجل مخمور، رجل حائر بين الفرح والبكاء، يهرب، لقد هربت فعلًا من المسجد أكثر ممّا خرجت منه؛ هواء إسطنبول الطلق، بخاصةً برودة رخام البهو، أعاداني أخيرًا إلى كامل رشدي، لقد نسيت حذائي، أشعر بضياع تام وأعي أنني أمضيت ساعتين بلا أي حركة تقريبًا، ساعتين لم تتركا أي أثر، تبخرتا، ما من شيء يُشير إلى انقضائهما سوى ساعة يدي: أنتبه فجأة إلى أنني وسط البهو ولا أنتعل سوى جاربيّ، لقد اختفى حذائي من الدُرج حيث كنت قد تركته، هذا ما في مقدوره أن يعيدكم توًا إلى الدنيا وآلامها - سرقتُ مشّاية ضخمة من البلاستيك الأزرق بعد بضع محاولات غير مثمرة من الجدال مع بوابٍ ذي شاربين كان يخبط ذراعيه على جسده كإشارة إلى أنه بلا حول ولا قوة، «لا حذاء، لا حذاء»[1]، لكنّه تركني أخيرًا أستولي على شبشب البحر هذا،

---

(١) بالإنكليزية في النص الأصلي.

فانتعلته ورحت أمشي كأحد الدراويش في شوارع إسطنبول والعذاب يبري روحي.

الذاكرة شيء مُحزن للغاية، فذكرى خجلي من السير في المدينة متعلًا جاربيّ وخفّي البلاستيكيَين المهترئَين، أوضح بكثير من ذكرى المشاعر التي غمرتني في مسجد سليمان، من ذكرى الساعتين اللتين اختفتا هناك، أوّل إحساس روحاني لم أختبره عبر الموسيقى - بعد بضع سنوات، وأنا أروي لسارة هذه القصة التي صارت تُطلِق عليها تسمية «يقظة الشبشب الرّوحيّة»، تذكرّتُ هذين البيتن من رباعيات الخيّام:

إذا ما أَتَينَا خَاشِعِينَ لِمَسْجِدٍ
فلمْ نَأتِ نَقْضِي لِلصَّلاةِ فُرُوضَها
ولَكِنْ سَرَقْنا مِنْهُ سَجَّادَةً ومُذْ
عَرَاها البِلَى جِئْنا لِكَي نَسْتَعِيضَها

لكن على عكس عمر الخيام، أنا لم أجرؤ أبدًا على العودة إلى مسجد سليمان، في آخر زيارة لي إلى إسطنبول، بقيتُ في الحديقة كي أرى قبر هذا المعماري سِنان الذي كان، ككتلة قليلة من البشر، وسيطًا بيننا وبين الله؛ دعيتُ له دعاءً سريعًا وفكرّت مُجددًا في الخفيّن القذرين اللذين ورثتهما ذلك اليوم ثمّ رميتهما أو أضعتهما مذّاك من دون التحقق - فأنا شخص ضعيف الإيمان - ما إذا كانا يمتلكان قوى سحرية.

مُتلازمة ستندال أم تجربة صوفية حقيقية، لست أدري، إلا أنني كنت أتخيّل أن هذا الغجري الرائع فرانتس ليست قد عثر هو الآخر على شرارة أو قوة ما في هذا المكان، في هذه المناظر الطبيعية وهذه

الصروح؛ أن شيئًا من ضوء الشّرق الذي كان يحمله في داخله، تأجّج خلال إقامته في القسطنطينية. لا شك في أنه حدسٌ مثير للاهتمام على المستوى الشخصي، لكنّه من منظور علمي، إن أخذنا في الاعتبار ندرة كتابات فرانتس لسيت حول رحلته إلى البوسفور، طموحٌ جامحٌ وواهم.

ما نجحتُ في القيام به في المقابل، هو وصف معقول إلى حد ما، لأول فرقة موسيقية عثمانية، الأوركسترا الخاصة للسلطان عبدالعزيز الأول التي كان أعضاؤها يعزفون جالسين أرضًا على بُسط القصر؛ نَعْلَم أن السلطان كانت تزعجه العادات «الشّرقيّة» لعازفي الكمان خلال أدائهم مقطوعات ألمانية أو إيطالية وأنه شكّل جوقة لحفلات أوبرا خاصة، وبشكل أساسي لأداء أوبرا «زواج فيغارو»: كان يستشيط غضبًا لأن أعضاء الجوقة كانوا يجدون صعوبة كبيرة في الغناء بشكل غير مُتزامن، ولأن ثنائيات «زواج فيغارو» وثلاثياتها ورباعياتها وثمانياتها كانت تتحول ضوضاء تنتزع دموع عجزٍ من هذا السلطان المولع بالموسيقى، ذلك بالرّغم من جهود المَخْصِيِّين ذوي الأصوات الملائكية ونصائح أستاذ الموسيقى الإيطالي الحكيمة. لكن يبقى أن إسطنبول قد أعطت العالم مؤلفًا موسيقيًا كبيرًا ومَنسيًا ولد عام ١٨٣٠. إنه أوغست فون أدلبرغ أبراموفيتش الذي كنتُ أعدتُ رسم سيرة حياته بتأنٍّ: بعد طفولة على ضفاف البوسفور، ذاع صيته من خلال أوبرا «قومية» عنوانها «زريني»، حاول من خلالها برهنة أن أصول الموسيقى المجرية ليست غجريّة، مُناقضًا فرضيّة فرانتس لِيست - أمرٌ مدهش حقًا أن يتحول مشرقيٌ على وجه التحديد، ممجدًا بالقومية المجرية، فيتغنى بها عبر بطلها ميكلوس زريني، قاهر الأتراك؛ لا شك في أن هذا التناقض الداخلي والعميق، هو ما سيدفعه لاحقًا نحو الجنون، جنون حاد للغاية إلى

درجة أنه سيوصله إلى الإقامة الجبرية في مستشفى للأمراض العقلية ومن ثمّ إلى الموت وهو في الثالثة والأربعين من عمره. أدلبرغ، أول موسيقي أوروبي ذو شأن ولد في الدولة العثمانية، أنهى حياته معتوهًا، متهاويًا في الغَيْريّة؛ فكأن الإختلاط، ورغم كلّ الجسور والروابط التي بناها الزمن، بات مستحيلًا في وجه المرض القومي الذي اجتاح شيئًا فشيئًا القرن التاسع عشر ودمّر رويدًا رويدًا الممرات الهشة التي كانت شُيّدت سابقًا، فلم يُبْقِ إلا على علاقات السيطرة والهيمنة.

كانت نظّاراتي تحت كومة الكتب والمجلات، بالطبع؛ غير معقول كم أنا شارد الذهن. لكن من ناحية أخرى، لستُ بحاجة إلى الرؤيّة بوضوح حتّى أتأمل الحطام المكدّس في غرفة نومي (حطام من إسطنبول، من دمشق، من طهران، حطام حياتي)، فأنا حفظت هذه الأغراض عن ظهر قلب. الصور والرسومات الاستشراقية المُصفرّة. أعمال فرناندو بيسوا الشعرية على مِقْرإ من الخشب المنحوت كان يُفترض أن يَحمل مصحفًا. الطربوش الذي اقتنيته في إسطنبول، العباءة الصوفية الثقيلة التي ابتعتها من سوق دمشق، العود الذي اشتريته في حلب برفقة نديم. أما هذه المجلدات البيض، فهي مذكرات جريلبارتسر - هذا ما أضحكهم جميعًا في إسطنبول، أن يتجوّل نمساويٌّ حاملًا معه كُتب جريلبارتسر. مسحوق غسيل، لا بأس، لكن جريلبارتسر! الألمان حسودون، هذا كلّ ما في الأمر. أعلم ما هو مصدر هذه الخصومة: فالألمان ليس في مقدورهم تحمّل فكرة (هذا ليس من اختراعي، هوغو فون هوفمانستال هو من يقول ذلك في مقالته الشهيرة «نحن النمساويون وألمانيا») أن بيتهوفن رحل إلى فيينا ولم يرغب أبدًا بالعودة إلى مدينته بون. هوفمانستال، أعظم كاتب نصوص للأوبرا على مرّ العصور، قد ألّف حوارًا مسرحيًا غريبًا

بين المستشرق الأبدي هامر-بورغشتال وبلزاك الذي لا يكلّ ولا يتعب، حوارًا تقتبسه سارة بكثافة في مقالتها حول بلزاك والشّرق؛ أعترف أنني لم أعد أذكر جيدًا ما هو تحديدًا موضوع مقالتها هذه، لقد عثرتُ عليها البارحة. إنها هنا، آه، ثمة قطعة ورق صغيرة محفوظة في داخلها، كلمة، رسالة قديمة كُتِبَت على صفحة ممزقة ذات حواشٍ حمر وسطورٍ زرق، ورقة انتُزِعت من دفتر مدرسي:

عزيزي الغالي فرانتس

ها هي إذًا المقالة التي شغلتني خلال هذه الأشهر الأخيرة. لقد ابتعدتُ قليلًا من مسوخي العزيزة ومن الفظاعات الأخرى، كما تُحب أن تسميها، لكنّه أمر موقت فقط. لقد تَبيّن أن ندوة «هاينفلد» كانت مثمرة، يمكنك الحكم على ذلك بنفسك... وليس على الصعيد الجامعي فقط!

لن أستطيع أبدًا أن أشكرك بشكل كافٍ على صورة القصر وعلى ترجماتك.

افترض أنك على وشك مغادرة إسطنبول؛ آمل بأنك وجدت إقامتك فيها مفيدة. شكرًا جزيلًا على «الخدمة» وعلى الصور! إنها رائعة! لقد سُرّت بها أمي كثيرًا. فعلًا أنت محظوظ للغاية، يا له من حلم، أن يكتشف المرء إسطنبول... هل ستعود إلى فيينا أم إلى توبنغن؟ لا تنس أن تتصل بي المرّة المقبلة التي تأتي بها إلى باريس.

على أمل اللقاء القريب، أُقَبِلُك،

سارة

ملاحظة: أودّ معرفة رأيك حول هذه المقالة التي فيها الكثير من «طابع فيينا» - ستعجبك على ما آمل!

أمرٌ لطيف أن أعثر بشكل مباغت على هذه الكتابة العزيزة على قلبي؛ الكلمات مرصوصة بعض الشيء وأجد صعوبة ما في قراءتها، لكن الخطّ أنيق وحنون - اليوم، مع طغيان أجهزة الكمبيوتر على حياتنا، صرنا نادرًا ما نرى خطّ معاصرينا، لعلّ خطّ اليد سيصبح نوعًا من العُري، نوعًا من التعبير الحميمي نحجبه عن أعين الجميع ما عدا الحبيب وكاتب العدل وموظف البنك.

ها إنني لم أعد أشعر بالنعاس. النوم لا يرغب فيّ فعلًا، هو يهجرني بسرعة، في منتصف الليل تقريبًا، وبعد أن يكون النعاس قد عذّبني طوال السهرة. هو وحش من الأنانية، يتصرف دائمًا على هواه. إن الدكتور كراوس طبيبٌ رديء، يجب أن أستبدله بآخر. أن أقصيه. أستطيع أن أدلل نفسي فأقصي طبيبي، أطرده، فالطبيب الذي لا ينفك يحدّثكم عن الراحة عند كلّ زيارة، إلا أنه يعجز عن جعلكم تنامون، لا يستحق لقب طبيب. لكن عليّ أن أقرّ، دفاعًا عنه، بأنني لم أبتلع أبدًا هذه القاذورات التي يصفها لي. غير أن طبيبًا لا يعلم أنكم لن تتناولوا القاذورات التي يصفها لكم ليس بطبيب جيد، لذا يجب استبداله بآخر. لكن كراوس يبدو رجلًا ذكيًا، أعلم أنه يحب الموسيقى، كلا، أنا أبالغ، أعلم أنه يرتاد الحفلات الموسيقيّة، هذا ليس دليلًا على شيء. قال لي، ليس أبعد من البارحة، «لقد ذهبتُ إلى الموزيكفرآين[1] للاستماع إلى فرانتس ليست»، فأجبته أنه محظوظ للغاية، أن فرانتس ليست لم يعزف في فيينا منذ زمن طويل. بالطبع راح يقهقه، قائلًا «آه يا دكتور ريتر، أنت تقتلني من الضحك»! جملة فعلًا غريبة من فم طبيب. لم أسامحه بعد على قهقهته عندما طلبتُ منه أن يصف لي بعضًا من الأفيون. «هه هه هه، بإمكاني

---

(١) صالة موسيقى شهيرة في فيينا.

أن أصفه لك، لكن عليك حينئذ أن تجد صيدلية من القرن التاسع عشر». أعلم أنه يكذب. لقد تحقّقتُ من ذلك في الجريدة الرسمية: للطبيب النمساوي الحق بأن يصف يوميًا كميّة أفيون تصل إلى غرامين، وكمية صبغة أفيون تصل إلى ٢٠ غرامًا، ما يعني أن الحصول على هذا المادة ممكنٌ. لكن ما لا يُعقل هو أن بيطريًا من الجنسيّة ذاتها، يستطيع أن يصف ١٥ غرامًا من الأفيون و١٥٠ غرامًا من صبغة الأفيون، ما يجعلُكَ تتمنى لو أنّكَ كلب مريض. ربّما أستطيع توسّل كلب غروبر أن يبيعني قليلًا من أدويته من دون علم مالكه، هذا ما يجعل حيوانه ذا فائدة ما.

لماذا أهجس بهذه المسألة اليوم، فالمخدّرات لم تستهوني أبدًا، كما أنني لم أدخن سوى ستة غلايين أفيون في حياتي - منذ سنوات عدّة. لا شك بسبب نص بلزاك الذي تقتبسه سارة في هذه المقالة المُصفرّة، ذات الكَبْسات الصدئة، والتي يلتصق غبارها على الأنامل:

كانوا يسألون الأفيون أن يريهم قباب القسطنطينية الذهبية، أن يلقي بهم على مضاجع البَلاط، وسط حريم السلطان محمود الثاني: وهناك، كانوا يخشون وهم منتشون من اللذة، إما برودة نصل الخنجر الذي سيغور في أحشائهم، أو صفير خيط الحرير الذي سيَحُزّ أعناقهم؛ وفي ذروة شهوات الحب، كانوا يستشعرون الخازوق الذي سيخترق أجسادهم... كان الأفيون يضع الدنيا كلها في متناول أيديهم!...

ومقابل ثلاثة فرنكات وخمسة وعشرين قرشًا، كانوا ينتقلون بلمح البصر إلى قادش أو إشبيلية، يتسلقون الجدران ويتمددون عليها تحت نافدة، فيتأملون عينيْن يتطاير منهما اللهب - أندلسية تحجبها ستارة من الحرير الأحمر المتلألئ في نور الشمس، فيضفي انعكاس الستارة على

هذه المرأة توهُّجَ وشاعريةَ الأشكالِ الفرائبية التي نبصرها في أحلامنا الفتيّة... ثمّ على حين غرّة، حين يلتفتون إلى الخلف، يجدون أنفسهم أمام الوجه العبوس والمرعب لإسبانيٍّ يحمل بندقية مُصوبة نحوهم!...

أحيانًا، يختبرون شفرة المقصلة ويستيقظون من أعماق القبور، في منطقة «كلامار»، لينغمسوا في عذوبة الحياة العائلية: موقد، سهرة شتوية، زوجة شابة، أطفال وديعون، نضرون، يركعون لتلاوة صلواتهن تحت إشراف خادمة عجوز طيبة... كلّ هذا مقابل ثلاثة فرنكات من الأفيون. أجل، مقابل ثلاثة فرنكات من الأفيون، كانوا يعيدون إحياء أعظم إنجازات اليونان وآسيا وروما!... يمتلكون الحيوانات المنقرضة التي تأسَف كوفييه[1] على ضياعها وعثر هنا وهناك على بعض من هياكلها المتحجّرة. يعيدون بناء إسطبلات سليمان، ومعبد أورشليم، وعجائب بابل والقرون الوسطى مع مبارزاتها وفرسانها وقصورها وأديرتها!...

مقابل ثلاثة فرنكات من الأفيون! بلزاك يَسْخَر بالتأكيد، لكن في أي حال، ماذا تساوي ثلاثة فرنكات بالشلن؟ كلاّ، عذرًا، كانوا يستخدمون الكرونة حينذاك. لطالما كنت سيئًا في حساب أسعار صرف العملات. يجب الاعتراف لسارة بأنها تمتلك موهبة العثور على القصص المنسية الأكثر إثارة للعجب. بلزاك الذي لم يُعنَ مبدئيًا سوى بالفرنسيين وعاداتهم، قد كتب نصًّا عن الأفيون هو علاوة على ذلك، أحد أول نصوصه المنشورة! بلزاك، أوّل روائي فرنسي أدْرَجَ في إحدى رواياته نصًّا بالعربية! بلزاك المولود في مدينة «تور»، والذي صار صديقًا للمستشرق النمساوي الكبير هامر-بورغشتال لدرجة أنه أهداه أحد كتبه، «حُجرة التحف»! هذا موضوع لمقالة كان

---

(١) جورج كوفيه (١٧٦٩ - ١٨٣٢) هو عالم أحياء فرنسي شهير.

يمكن أن تُثير ضجّة كبيرة - لكن ما من شيء يثير ضجّة بين الأكاديميين، في الأقل في مجال العلوم الإنسانية؛ فالمقالات بمثابة ثمارٍ منسية أو ضائعة بالكاد يقضمها أحد، أنا أعلم عما أتكلّم. في طبعة عام ١٨٣٧ من رواية «الجِلد المسحور» لبلزاك، كان يمكن القارئ، بحسب سارة، أن يجد ما يأتي:

LA PEAU DE CHAGRIN. 39

Il apporta la lampe près du talisman que le jeune homme tenait à l'envers, et lui fit apercevoir des caractères incrustés dans le tissu cellulaire de cette peau merveilleuse, comme s'ils eussent été produits par l'animal auquel elle avait jadis appartenu.

— J'avoue, s'écria l'inconnu, que je ne devine guère le procédé dont on se sera servi pour graver si profondément ces lettres sur la peau d'un onagre.

Et, se retournant avec vivacité vers les tables chargées de curiosités, ses yeux parurent y chercher quelque chose.

— Que voulez-vous? demanda le vieillard.

— Un instrument pour trancher le chagrin, afin de voir si les lettres y sont empreintes ou incrustées.

Le vieillard présenta son stylet à l'inconnu, qui le prit et tenta d'entamer la peau à l'endroit où les paroles se trouvaient écrites; mais quand il eut enlevé une légère couche de cuir, les lettres y reparurent si nettes et tellement conformes à celles qui étaient imprimées sur la surface, que, pendant un moment, il crut n'en avoir rien ôté.

— L'industrie du Levant a des secrets qui lui sont réellement particuliers, dit-il en regardant la sentence orientale avec une sorte d'inquiétude.

— Oui, répondit le vieillard, il vaut mieux s'en prendre aux hommes qu'à Dieu!

Les paroles mystérieuses étaient disposées de la manière suivante.

40 LA PEAU DE CHAGRIN.

لو ملكتني ملكت آلكلّ
ولكن عمرك ملكي
واراد الله هكذا
اطلب وستنال مطالبك
ولكن قس مطالبك على عمرك
وهي هاهنا
فدكلّ مرامك ستنزل ايامك
أتريد في
الله مجيبك
آمين

qui voulait dire en français :

SI TU ME POSSÈDES, TU POSSÉDERAS TOUT.
MAIS TA VIE M'APPARTIENDRA. DIEU L'A
VOULU AINSI. DÉSIRE, ET TES DÉSIRS
SERONT ACCOMPLIS. MAIS RÈGLE
TES SOUHAITS SUR TA VIE.
ELLE EST LA. A CHAQUE
VOULOIR JE DÉCROITRAI
COMME TES JOURS.
ME VEUX-TU ?
PRENDS. DIEU
T'EXAUCERA.
SOIT !

بينما في الطبعة الأصلية التي تعود إلى عام ١٨٣١، نجد النص الآتي فقط:

116 LA PEAU DE CHAGRIN.

— Que voulez-vous?... demanda le vieillard.

— Un instrument pour trancher le chagrin afin de voir si les lettres y sont empreintes ou incrustées...

Le vieillard lui présenta le stylet. Il le prit et tenta d'entamer la peau à l'endroit où les paroles se trouvaient écrites; mais quand il eut enlevé une légère couche du cuir, les lettres y reparurent si nettes et si conformes à celles imprimées sur la surface, qu'il crut, pendant un moment, n'en avoir rien ôté.

— L'industrie du Levant a des secrets qui lui sont réellement particuliers! dit-il en regardant la sentence talismanique avec une sorte d'inquiétude.

— Oui!... répondit le vieillard, il vaut mieux s'en prendre aux hommes qu'à Dieu!

Les paroles mystérieuses étaient disposées de la manière suivante :

LA PEAU DE CHAGRIN. 117

SI TU ME POSSÈDES TU POSSÉDERAS TOUT.
MAIS TA VIE M'APPARTIENDRA. DIEU L'A
VOULU AINSI. DÉSIRE, ET TES DÉSIRS
SERONT ACCOMPLIS. MAIS RÈGLE
TES SOUHAITS SUR TA VIE.
ELLE EST LA. A CHAQUE
VOULOIR JE DÉCROITRAI
COMME TES JOURS.
ME VEUX - TU?
PRENDS. DIEU
T'EXAUCERA.
— SOIT!

— Ah! vous lisez couramment le sanscrit?... dit le vieillard. Vous avez été peut-être au Bengale, en Perse?...

— Non, Monsieur, répondit le jeune homme en tâtant avec une curiosité digitale cette peau symbolique, assez semblable à une feuille de métal par son peu de flexibilité.

Le vieux marchand remit la lampe sur la

مُلخَّص:

دراسات كثيرة تطرقت إلى العلاقات العديدة التي ربطت، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، بين الكُتّاب والفنانين الأوروبيين، وبين الشّرق. نحن نعرف بدرجة من الدقة، ما الشكل الذي اتخذته هذه العلاقة في حالة غوته أو فيكتور هوغو على سبيل المثل. لكن، يبقى أن الصلة الأكثر إثارة للدهشة بين الاستشراق العلمي والاستشراق الأدبي، هي تلك التي نشأت بين أونوريه دي بلزاك والمستشرق النمساوي جوزيف فون هامر-بورغشتال (١٧٧٤ - ١٨٥٦)، والتي لا تقتصر أهميتها على أنها أدّت إلى إدراج أول نص بالعربية في كتاب موجّه إلى الجمهور الفرنسي

العام، إذ هي تفسّر أيضًا، بشكل قاطع، المعنى الذي لا يزال غامضًا حتّى يومنا، للحوار بين هذين الرّجلين في فيينا عام ١٨٤٢ (كذا) الذي تخيّله وكتبه هوغو فون هوفمانستال: «حول الشخصيات الروائية والمسرحية» (١٩٠٢). نحن نَشهد هنا على ولادة شبكة من العلاقات الفنية ستمتد من المستشرق هامر-بورغشتال لتشمل مجمل أوروبا الغربية، من غوته وصولًا إلى هوفمانستال، ومرورًا بهوغو وروكرت وبلزاك نفسه.

إنه مُلخّص ممتاز، كنتُ نسيت تمامًا هذه المقالة، فيها الكثير من «طابع فيينا» بالفعل، كما تقول هي - كانت طلبت مني أن أعثر لها على رسمِ قصر «هاينفلد» الذي أرسله هامر إلى بلزاك بعد فترة وجيزة من زيارة الأخير ذلك المكان. لقد أضافت سارة حجرًا فرنسيًا إلى النظرية التي دافع عنها هوفمانستال، النظرية القائلة إن النمسا أرضٌ للتلاقي، أرضٌ حدودية غنيّة بالتواصل وأخلاط البشر أكثر بكثير من ألمانيا التي تحاول، على العكس، استئصال «الآخر» من ثقافتها، لكي تغوص في أعماق «الذات» بحسب مصطلحات سارة، وحتى لو أدى السعي الألماني هذا إلى أسوإ أنواع العنف. هذه الفكرة كانت تستحق التمحيص - لا بد أن مقالتها وصلتني وأنا في إسطنبول إذًا، ففي رسالتها القصيرة، تسألني ما إذا كنت سأعود «إلى فيينا أم إلى توبنغن»، وتشكرني على الصور التي كانت طلبتها مني، لكن أنا من كان يجب أن يشكرها، إذ هي أتاحت لي فرصة زيارة حيّ رائع في إسطنبول لم أكن لأقصده أبدًا لولا ذلك، حيٌّ بعيد من السيّاح ومن الصورة النمطية للعاصمة العثمانية، حيّ «هاسكوي» المُتعذر بلوغه في عمق القرن الذهبي - لعلّني إذا بحثتُ جيدًا، أعثر على الرسالة التي تطلب فيها مني أن أذهب لألتقط لها صورًا (الإنترنت في يومنا، يُحيل نزهات كهذه مَضيعةً للوقت) لـ «ثانوية الاتحاد الإسرائيلي العالمي»

حيث تَلقّى جدّ والدتها تعليمه في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وكان ثمة شيءٌ مؤثر للغاية في الذهاب، من دونها، لاكتشاف هذه الأمكنة التي تنتسب إليها، لكن لم ترَها قط، لا هي ولا والدتها. كيف حدث أن يهوديًا من تركيا وجد نفسه في الجزائر الفرنسية قبل الحرب العالمية الأولى، ليس لدي أدنى فكرة، وسارة هي الأخرى، ليست متأكّدة من السبب - لغز من ألغاز القرن العشرين الكثيرة التي غالبًا ما تُخفي العنف والألم في طياتها.

كان المطر ينهمر على حيّ هاسكوي، ذاك المطر الإسطنبولي الذي يغزل في الرياح وفي وسعه في ثانيّة واحدة، مع أنه ليس إلا رذاذًا دقيقًا، أن يُبللكم حتّى العظم عند منعطف شارع صغير؛ دسست كاميرتي بعناية داخل معطفي، كان معي فيلمان فوتوغرافيان من نوع 400 ASA، يحتوي كلّ منهما على ست وثلاثين صورة، هذه المفردات أضحت اليوم أثرية - هل لا يزال «النيغاتيف» في العلبة حيث أحتفظ بصوري؟ على الأرجح. كانت معي أيضًا خريطة للمدينة كنتُ أعلم، مُستندًا إلى خبرتي، أن فيها نواقص كثيرة في ما يخص أسماء الشوارع، ومظلة ذات مسكة خشب. مجرد بلوغ «هاسكوي» كان مُنهكًا: كان عليّ الالتفاف عبر الجنوب من طريق «شيشلي»، أو أن أسير على طول القرن الذهبي من طريق «كاسيمباشا»، ثلاثة أرباع الساعة مشيًا من«جيهانكير» الواقعة على منحدرات «بيوغلو». رحت ألعن سارة حين تجاوزتني سيارة بأقصى سرعتها، فأعادت تلوين أسفل بنطالي بالوحل وكادت ترجئ لأجل غير مُسمى هذه الرحلة الاستكشافية التي لم تكن تُبشّر بأي خير؛ كنت ساخطًا، لقد تلطخ معطفي وتبللت قدماي بعد عشر دقائق فقط من مغادرتي المنزل حيث فوجيه، متأملًا الغيوم تُلبِّد البوسفور وفي يده كأس من الشاي محاولًا أن يصحوَ من سكرة العرق الذي شربه البارحة، كان قد حذّرني

بلطف: هذا ليس نهارًا تَدَعُ فيه مستشرقًا يتجوّل في الخارج. أخيرًا، عقدت عزمي على أن أستقل سيارة أجرة، ما كنتُ أرغب في تفاديه، طبعًا ليس بخلًا، لكن لأنني ببساطة، كنتُ أجهل كيف أشرح للسائق إلى أين أريد أن أذهب: إكتفيت بـ «هاسكوي من فضلك» بالتركيّة، وبعد نصف ساعة من الزحمة، وجدت نفسي في القرن الذهبي بمحاذاة البحر، قبالة مرفإ صغير وساحر؛ أما خلفي، فكانت ثمّة إحدى تلك التلال الملونة ذات المنحدرات الحادّة التي تشتهر بها إسطنبول، كما شارع شديد الانحدار اكتسى زفته بطبقة دقيقة من مياه الأمطار، وجدولٌ شفاف ينساب بنعومة لملاقاة البحر - مشهدٌ مائيّ غريب، ذكّرني بلهونا على ضفاف سيول جبال النمسا؛ في هذا الشارع الصغير، رحت أقفز من جهة إلى أخرى، بحسب تعرجات النهر المديني، لا أدري تمامًا إلى أين أتجه؛ وكانت مُتعة اللعب واللهو تُعوّض إلى حد كبير، عن انزعاجي من تبلل حذائي. لا شكّ في أنّ المارّة راحوا يتخيّلون أن هذا السائح المعتوه والمصاب بهوس مائي، يظن نفسه سمكة سلمون تسبح في حيّهم. بعد بضع مئة من الأمتار ومحاولة فاشلة لفتح خريطتي تحت المظلة، إقترب مني رجلٌ مسنٌّ لحيته بيضاء قصيرة، تأملني من رأسي إلى أخمص قدميّ، ثمّ سألني بالإنكليزية :

- هل أنتَ يهودي؟

سؤالٌ طبعًا لم أفهمه، فأجبته، بالإنكليزية أيضًا: «ماذا؟» أو «كيف؟»، قبل أن يُفسّرَ لي، مُبتسمًا:

- أستطيع أن آخذك في جولة سياحية يهودية.

كان الرّجل كنبيّ أتى لينقذني من المياه - اسمه إيليا فيرانو، وكان أحد أعمدة جالية «هاسكوي» اليهوديّة، رآني تائهًا فتكهّن (إذ إن أعداد السيّاح في هذه الناحية من المدينة ليست بغفيرة، كما قال) أنني

لا بدّ أبحث عن شيء له علاقة بالتاريخ اليهوديّ للحيّ الذي طاف بنا فيه، أنا وكاميرتي، خلال بقية النهار. كان السيّد فيرانو يتكلم فرنسيّة ممتازة تعلمها في مدرسة ثنائية اللغة في إسطنبول، وكانت لغته الأم التي لم أسمع بها من قبل، هي الـ«لادينو»، أي الإسبانية اليهوديّة: فاليهود الذين طردوا من إسبانيا ثمّ استقروا في الدولة العثمانية، جلبوا معهم لغتهم، فتطورت إسبانيّة عصر النهضة هذه خلال عيشهم في المنفى. يهود إسطنبول كانوا، بالترتيب حسب زمن قدومهم إلى العاصمة، إما بيزنطيين، أو سفارديين، أو أشكناز، أو قرائين (القراؤون الغامضون هم آخر الوافدين، فغالبيتهم قد استقرت هنا بعد حرب القرم)، وكان شيئًا أشبه بمعجزة الاستماع إلى إيليا فيرانو يروي حكايات عن أيام عزّ هذا العيش المختلط وهو يجول بي في معالم الحيّ: كنيسُ القرائين كان المبنى الأكثر إثارة للعجب؛ كان شِبْه مُحصَّن، تُحيطه أسوار من دون نوافذ، وتجاوره بيوت صغيرة من الحجر والخشب، بعضها مأهول والآخر على وشك الانهيار - ابتسم إيليا فيرانو من سذاجتي حين سألته ما إذا كان سكان هذه البيوت من القرائين: لقد اختفوا منذ زمن طويل.

عائلات إسطنبول اليهوديّة بمعظمها عادت واستقرّت في أماكن أخرى، في أحياء أكثر عصرية، في «شيشلي» أو على الطرف الآخر من البوسفور، هذا إن لم تهاجر إلى إسرائيل أو إلى الولايات المتحدة. كان إيليا فيرانو يشرح ذلك ببساطة شديدة دون أيّ حنين، بالطريقة نفسها التي أطلعني بها على الفوارق اللاهوتية والشعائرية بين التيارات اليهودية المختلفة وهو يسير بخُطًى وئيدة في الشوارع الشديدة الانحدار، محاولًا مراعاة جهلي؛ سألني عن كنيّة الجدّ الذي أقتفي أثره: مؤسف أنّكَ لا تعرفها، قال لي، ربّما لا يزال بعض أقربائه في الجوار.

كان السيّد فيرانو يبدو في الخامسة والستين من عمره تقريبًا؛ طويل القامة، قويّ البنية وأنيق إلى حدّ ما؛ ببذلته، ولحيته القصيرة، وشعره المصفف إلى الخلف بواسطة «الجل»، كان يُشبه فتًى شابًا ومغرومًا في طريقه لاصطحاب صبيّة من منزل أهلها إلى حفلة المدرسة الراقصة، لكن أشيب بعض الشيء بطبيعة الحال. كان يسهب في الكلام، مسرورًا، كما قال لي، بأنني أفهم الفرنسية: فمعظم من يأخذهم في جولاتٍ سياحية يهودية، أميركيون أو إسرائيليون، ونادرًا ما تتاح له فرصة التكلم بهذه اللغة الجميلة.

كنيس «ميور»، المعْبد القديم لليهود الذين طردوا من «ميورقة»، كان تحوّل إلى ورشة صغيرة لصيانة السيارات؛ وكانت قبّته الخشب وأعمدته لا تزال قائمة، وتمكن رؤية الكتابات العبريّة على جدرانه؛ أما الأقسام المُلحقة بالمبنى، فصارت مستودعات.

أنهَيْتُ فيلمي الفوتوغرافي الأول، ولم نصل بعد إلى «ثانوية الاتحاد الإسرائيلي العالمي»، المطر قد توقف، وكنتُ على عكس مضيفي، أشعر بكآبة طفيفة، حزن غامض لم أدرك مصدره - كلّ الأمكنة موصدة، تبدو مهجورة؛ الكنيس الوحيد الذي حافظ على وظيفته، كنيسٌ أعمدته من الرخام البيزنطي، لم يكن يُستخدم إلا فيما ندر. أما المقبرة الكبيرة التي اجتاحها العُشب، فقد قُضم ربع مساحتها لإنشاء طريق سريع. الضريح الوحيد ذو شأن - ضريح عائلة مرموقة للغاية، شرح لي فيرانو، إلى حدّ أنها كانت تملك قصرًا في القرن الذهبي، صار اليوم مقرًا لإحدى المؤسسات العسكرية - كان يشبه معبدًا رومانيًا قديمًا ومَنسيًا، لا يُزيّن جدرانه إلا أحمر وأزرق كتابات الـ«غرافيتي»؛ معبدٌ للأموات على رأس التلّة التي تُشرف على آخر القرن الذهبي، حيث لا يعود الأخير مصبًا، بل يتحول مجددًا مجرّدَ نهر، وسط السيارات ومداخن المصانع والمجمّعات السكنية

الكبيرة. شواهد المقبرة كانت تبدو مرمية هنا وهناك على منحدر التلّة (ممدّدة على الأرض كما تنصّ الأعراف، فَسَّر لي دليلي السياحي)، مُحطَّمة أحيانًا، وتتعذر في أكثر الأحيان، قراءة الكتابات المنقوشة عليها - بالرّغم من ذلك، أخذ يقرأ لي أسماء العائلات: الحروف العبرية أكثر مقاومة لمرور الزمن من الحروف اللاتينية، قال، ووجدت هذه النظريّة صعبة الفهم، لكن في واقع الحال، كان يستطيع التلفّظ بأسماء هؤلاء الراحلين ويعثر لهم أحيانًا على أحفادٍ أو صلات قربى من دون أي انفعال؛ هو غالبًا ما يصعد إلى هنا، قال لي؛ لم يعد هناك ماعز منذ إنشاء الطريق السريع، لا ماعز يعني بعراً أقلّ، لكن العشب ينتشر بسرعة في هذه الحالة، قال لي. يدايَ في جيبيّ ومتنزهًا بين القبور، صرتُ أبحث عن شيء أقوله؛ كانت ثمة كتابات «غرافيتي» هنا وهناك، فسألته: «معاداة السامية؟»، كلا كلا، أجابني، «عشق وغرام»، ماذا تقصد بعشق وغرام، نعم، شابٌ كتب اسم حبيبته، «هُلْيَا، حبيبتي مدى العمر»، أو شيءٌ من هذا القبيل، فأدركتُ أن ما من شيء لتدنيسه في هذه الأنحاء لم يسبق للمدينة وللزمن أن دنّساه، وأن قريبًا لا شك، سيتم نقل القبور، وجثثها، وشواهدها، وتكديسها في مكان آخر لفسح المجال للجرافات والحفارات؛ فكّرت بسارة، لم ألتقط صورًا للمقبرة، لم أجرؤ على إشهار كاميرتي، مع أن سارة لاعلاقة لها بكل هذا، مع أنه ليس لأحد أي علاقة بهذه الكارثة التي هي كارثتنا جميعًا، وطلبتُ من إيليا فيرانو أن يدلّني على مكان مدرسة «الاتحاد الإسرائيلي» بينما راحت شمسٌ بهيّة تنعكس على «مياه أوروبا العذبة»[1] وتنير إسطنبول حتّى البوسفور.

---

(١) تسمية تُطلق على مجرى نهر يصُبّ في القرن الذهبي.

كانت الواجهة الـ«نيوكلاسيكسة» للثانوية رمادية داكنة، تتخللها أعمدة نصفية بيض. ولم يكن ثمة كتابات منقوشة على القوصرة المثلثة. لم تعد مدرسة منذ زمن طويل، شرح لي إيليا فيرانو؛ هي اليوم دار عجزة - إلتقطتُ بعناية صورًا للمدخل والباحة؛ نزلاء طاعنين في السن كانوا يستنشقون الهواء الطلق جالسين على مقعد طويل تحت شُرفة؛ صرت أفكر، وبينما السيّد فيرانو يتجه نحوهم لإلقاء التحية، أنهم لا شك بدأوا حياتهم بين هذه الجدران، أنهم درسوا العبرية والتركية والفرنسية هنا، أنهم مارسوا ألعابهم في هذه الباحة، أنهم، في هذا المكان، وقعوا في الحبّ ونقلوا القصائد وتعاركوا لتفاهات وأنهم اليوم وبعد إغلاق الدائرة، وفي هذا المبنى ذاته، المُتقشّف بعض الشيء وذي البلاط النظيف للغاية، يختتمون بهدوء ما تبقى لهم من أيام وهم يتطلعون عبر النوافذ، من على رأس تلّتهم، إلى إسطنبول وهي تتقدم بخطًى كبيرة نحو الحداثة.

الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثامنة والخمسين ليلًا

ما عدا الرسالة القصيرة التي عثرتُ عليها بين صفحات المقالة عن بلزاك، لا أذكر أن سارة حدّثتني مُجددًا عن تلك الصور الفوتوغرافية لإسطنبول التي انتزعتُها من براثن المطر والنسيان - عُدت إلى «جيهانكير» حزينًا، كنت أرغب في أن أقول لبيلغر (كان يشرب الشاي في شقتنا حين وَصلْت) أن علم الآثار من أكثر النشاطات الإنسانية كآبة، وأنني لا أجد أي شاعرية في الحُطام، ولا أي مُتعة في نبش الزوال.

ومن ناحية أخرى، ما زلتُ لا أعلم إلا القليل جدًّا عن عائلة سارة، باستثناء أن والدتها أمضت طفولتها في مدينة الجزائر ثمّ غادرتها إبّان الاستقلال لتستقرّ في باريس؛ لست أدري إن رافقهم جدّ والدتها في هذه الرحلة. ولدت سارة بعد بضع سنوات في «سان كلو»، وترعرعت في «باسي»، في هذا الحيّ السادس عشر الذي كانت تصفه كمكان يحلو العيش فيه، وسط الحدائق العامة والزوايا القديمة ومحال الـ«باتيسري» والجادات الفخمة - يا للمصادفة الغريبة، أن كلًّا منّا أمضى جزءًا من طفولته بجوار منزلٍ لبلزاك: هي في شارع «رينوارد»، حيث سَكَن الرّجل العظيم لفترة طويلة، وأنا على بعد بضعة كيلومترات من «ساشيه»، قصر صغير في إقليم «تورين» الفرنسي حيث غالبًا ما مكث مؤلف «الكوميديا الإنسانية».

كانت نُزهة شبه إلزامية - خلال كلّ عطلة صيف نمضيها عند جدّتي - تلك التي كنا نقوم بها لزيارة السيّد بلزاك؛ ميزةُ هذا القصر تردّد الناس عليه أقل من تردّدهم على القصور المجاورة (قصر «لانجيه» أو قصر «أزاي لو ريدو»)، وأنه «زاخرٌ بالثقافة»، حسب تعبير أمي - أتخيّل أن جدّتي كانت ستُسَرّ لمعرفة أن هذا البلزاك الذي كانت تعتبره نسيبًا لها نوعًا ما (فكلاهما تلقى تعليمه في مدرسة «تور»)، قد أتى مثلها إلى فيينا هو الآخر؛ لقد قامت بزيارتنا مرة أو مرتين، لكن كبلزاك، لم تكن تحب السفر، وكانت تتذمر من أنها لا تستطيع أن تترك حديقتها لوقت أطول، كبلزاك الذي لم يكن يقوى على ترك شخصيات رواياته.

زار بلزاك فيينا حيث اجتمع مجددًا بحب حياته مدام هانسكا في أيار ١٨٣٥. كتب هامر-بورغشتال: «في ٢٤ آذار ١٨٣٥، بينما كنتُ عائدًا من سهرة جمعت أناسًا طيبين في منزل الكونتيسة رزيفوسكا [اسم عائلة إفلينا هانسكا قبل الزواج]، وجدتُ رسالة من النقيب هول [النقيب هول هو باسيل هول (١٧٨٨-١٨٤٤)، الضابط في البحرية، صديق والتر سكوت ومؤلف عدد من كتب الرحلات، وبشكل خاص كتاب «قصر هاينفلد: شتاء في ستيريا السفلى» الذي استوحى منه شيريدان لي فانو روايته «كارميلا»]، يُطلعني فيها على خطورة الحالة الصحية لصديقتي البارونة بورغشتال التي تُحتضر».

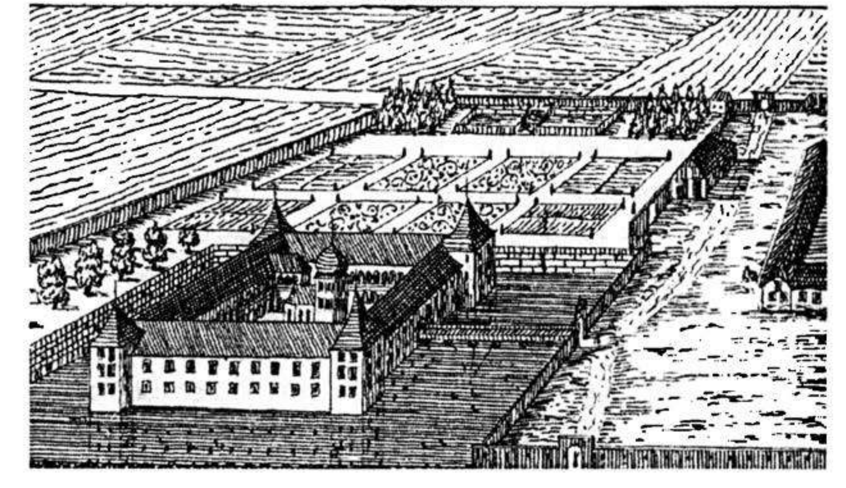
نحن نعلمُ إذًا أن هذا المستشرق الكبير تعرّف إلى كتابات بلزاك من خلال مدام هانسكا، وأنه كان يتردّد على الكونتيسة وأصدقائها منذ بعض الوقت. لم يعلم جوزيف فون هامر بقدوم بلزاك إلى فيينا لإمضاء بضعة أسابيع، سوى بعد عودته من «ستيريا» في شهر نيسان، عقب وفاة البارونة بورغشتال. شرعا يتبادلان الزيارات وكان كلّ منهما يثمّن رفقة الآخر. يتيح لنا هامر تقدير حجم الشُهرة

الأوروبية التي كان الكاتب الفرنسي يتمتع بها: يروي أنه عندما وصل في أحد الأيام إلى مكان إقامة بلزاك في فيينا، قيل له أن الأخير ليس في المنزل، وأنه ذهب إلى قصر الأمير مترنيش، فقرر هامر أن يلاقيه هناك، إذ كان عليه هو أيضًا أن يزور مترنيش. في القصر، كانت غرفة الانتظار تعجّ بالقادمين، فشرح له الحاجب أن جميع هؤلاء السادة ينتظرون دورهم فيما الأمير أوصد بابه ليختلي ببلزاك منذ أكثر من ساعتين، وقد أعطى تعليمات صارمة بعدم إزعاجه.

أمرٌ لا يُعقل أن يستحوذ على مترنيش نفسه شغفٌ بهذا الرّجل الغارق في الديون، والذي كان يعيش في باريس تحت أسماء مستعارة، ويجول في كلّ أنحاء أوروبا مُطاردًا المرأة التي يعشق في أوقات فراغه بين كتابته لروايتين. عمَّ تحدّثا طوال ساعتين يا ترى؟ عن السياسة الأوروبية؟ عن آراء بلزاك حول حكومة لويس فيليب؟ عن رواية «الجِلد المسحور»؟ مقالة سارة تُسلط الضوء على دور مدام هانسكا كوسيط بين بلزاك والشّرق؛ وإن كان هامر أهدى أخيرًا إلى بلزاك، الترجمة العربية للنص الذي يُزّين رواية «الجِلد المسحور»، فقد حصل ذلك عبر الكونتيسة رزيفوسكا. كما أن الفضل يعود لها أيضًا في ما يخص المقابلة مع مترنيش. أتخيّلُ بلزاك في قصر «ساشيه»، مُنزويًا مع أوراقه وريشته وإبريق القهوة، لا يخرج من سجنه إلا فيما ندر، وفقط للتنزه في الحديقة وتحريك ساقيه؛ كان بحسب تعبيره، محارًا متقوقعًا داخل صدفته؛ يسير نزولًا حتّى ضفة النهر، يلتقط بضع حبّات كستناء سقطت أرضًا، فيرميها في الماء ليلهو قليلًا قبل أن يعود أدراجه ليغوص مجددًا في رواية «الأب غوريو» التي كان يعمل عليها؛ هل هذا الشخص هو نفسه العاشق الهائم في فيينا الذي لطالما صدّته إفلينا هانسكا المُحتشمة، صدّته

طوال خمسة عشر عامًا، هذا ما يقول الكثير عن مدى صبر بلزاك وصلابة شخصيته. إنتهى به المطاف إلى الزواج بها عام ١٨٤٨، أمرٌ مُطمئن؛ قبل وفاته بوقت قصير جدًّا في عام ١٨٥٠، أمرٌ أقل طمأنة. لعلّها قوّة رغباته ما كان يحول إلى حدّ ما، دون تهاوي هذا الرّجل المُترنّح، إذ يبدو لنا أن بلزاك كان يُنهِك نفسه في العمل والكتابة لأنّه كان دائم التَّرنُح، لأن حياته (خارج جُمَلِه، حيث هو بمثابة الله) كانت تنساب من بين أصابعه، لأنّه كان يتدحرج من دائنٍ إلى آخر، من حبٍّ مستحيل إلى شهوة لا يمكن إشباعها ولأن الكُتب وحدها هي عالمٌ على مقاسه، هو الذي كان عمل في مجال الطباعة قبل أن يصير كاتبًا. ثلاثة آلاف صفحة من الرسائل، هذا هو النصب الذي شيّده لحبّه؛ كان غالبًا ما يُحدِّثُ إفلينا عن فيينا، عن رحلته المقبلة إلى فيينا حيث يرغب في زيارة «فاغرام» و«أسلينغ» لرؤية مواقع ساحات المعارك، إذ كان يُخطط لكتابة قصة حرب، قصة حرب رائعة، تدور جميع حوادثها خلال يوم دموي واحد في صميم المعركة، من دون الخروج منها أبدًا؛ كسارة في «سان غوتار»، أرى بلزاك يذرع موقع معركة «أسبرن» جيئةً وذهابًا، مدوِّنًا ملاحظات، مُتخيّلًا تحركات الوحدات العسكرية على التلال، والمكان حيث أصيب المارشال لان بجروح قاتلة، مُستشرفًا المشهد العام والأشجار البعيدة وشكل التلال، جميعها أمور لن يكتب عنها أبدًا رغم مكوثه فترة طويلة في فيينا، إذ ربّما كان المشروع هذا مجرد ذريعة: فسيكون لاحقًا منهمكًا جدًّا في صراعه مع «الكوميديا الإنسانية» حتّى يجد متسعًا من الوقت لتجسيد هذه الفكرة - كسارة التي على حد علمي، لم تكتب تصوُّرها التفصيلي عن معركة «موغرسدورف»، تصوُّر تختلط فيه كلّ الروايات، التركية والمسيحية، مُصاحَبةً بموسيقى بال إسترهازي، هذا إن كان ثمّة مشروع كهذا أصلًا.

آه، لقد أوردَت سارة رسمَ قصر «هاينفلد» داخل مقالتها، الرسم نفسه الذي أرسله هامر إلى بلزاك بعد عودة الأخير إلى باريس، لقد جلت على جميع باعة الأثريات في فيينا حتّى أسدي لها هذه الخدمة - هامر كان يُرسل إلى أصدقائه رسومات عن قصره كما نُرسل، في يومنا هذا، صورًا فوتوغرافية، هامر، هذا الرّجل الطيّب الذي قال عنه بلزاك أنه «صبور مثل عنزة وهي تختنق» وأهداه روايته «حُجرة التُحَف» ليشكره على كلّ المعلومات التي زوده بها عن الشّرق. أعتقد أنني جلت في فيينا على باعة الأثريات باللهفة ذاتها التي كان بلزاك يُطارد بها إفلينا هانسكا، إلى أن وضعتُ يدي أخيرًا على هذا الرسم الذي أوردته سارة وسط اقتباسات من رسائل بلزاك المتعلقة برحلته إلى فيينا:



٢٨ نيسان ١٨٣٤: *لو كنتُ غنيًا، لأرسلتُ لكِ لوحة «نساء جزائريات» لديلاكروا التي أرى أنها ممتازة.*

٩ آذار ١٨٣٤: *من الآن وحتى رحيلي إلى فيينا، لا شيء إلا العمل والعزلة.*

١١ آب ١٨٣٤: *آه، أن يقضي المرء الشتاء في فيينا! سوف أذهب إلى هناك، بكل تأكيد!*

٢٥ آب ١٨٣٤: *أنا بأمس الحاجة إلى رؤية فيينا. عليّ مُعاينة موقعَيّ «فاغرام» و«أسلينغ» قبل شهر حزيران المقبل. وأحتاج خصوصًا إلى رسومات تُصوّر زيّ الجيش الألماني؛ سأذهب للبحث عنها. قولي لي فقط إن كانت رسومات كهذه موجودة.*

١٨ تشرين الأول ١٨٣٤: *أجل، لقد استنشقتُ بعضًا من عبير «تورين» الخريفي؛ لقد تحولتُ نبتة، مَحَارًا، وحين رأيت السماء في منتهى البهاء، فكّرت في أنه فأل خير، وأن يمامة تحمل غصن زيتون بمنقارها سوف تأتي من فيينا.*

مسكين بلزاك، علامَ حصل في فيينا؟ بضع قبلات ووعود، استنادًا إلى الرسائل التي تقتبسها سارة بكثافة - وأنا الذي دائمًا ما كنتُ أبتهج عند قدومها إلى عاصمتي، إلى درجة أنني كنت أشتري ثيابًا جديدة وأقصد الحلّاق، علام حصلتُ؟ مقالة جديدة بالكاد أجرؤ على فكّ حروفها - الحياة تربط عُقَدًا، هي تربط عُقَدًا نادرًا ما تشبه تلك التي حول ثوب القديس فرنسيس الأسيزي؛ يلتقي بعضنا ببعض مصادفة، يلحق بعضنا بعضًا، لسنوات، في الظلام، وحين نظن أخيرًا أننا أمسكنا بيدي من نُحِب، يسلبنا الموت كلّ شيء.

سارة لا تذكر جين ديغبي في مقالتها عن بلزاك والشّرق، غير أن هذه المرأة هي إحدى الصلات غير المباشرة بين الروائي الفرنسي وسورية؛ جين ديغبي الفاتنة والرهيبة التي بجسدها ووجهها وعينيها المصنوعة من نسيج الأحلام، حطّمت قلوبًا كثيرة في أوروبا كما في الشّرق خلال القرن التاسع عشر - عاشت حياةً مدهشة إلى أقصى الحدود، حياة «مُغامِرةٍ» كبيرة، بكل ما للكلمة من معنى. إنكليزية مثيرة للفضائح، تطلقت في سن العشرين ونفتها إنكلترا الفكتورية

بسبب «فجورها»، ثم، تباعًا، عشيقة نبيل نمساوي، زوجة أحد بارونات بافاريا، خليلة الملك لودفيغ الأول البافاري، زوجة نبيل يوناني من جزيرة «كورفو» يُدعى - يا له من اسم سحري - سبيريدون تيوتوكي، اختطفها منه (لكن ليس رغمًا عنها) قرصانٌ ألباني، لقد انتهى المطاف بالليدي جين إيلينبورو، المولودة بالكنية العائلية ديغبي، إلى العثور على الاستقرار العاطفي في الصحراء، بين دمشق وتدمر، في أحضان الشيخ مجول المصرب، قائد قبيلة عنزة الذي يصغرها بعشرين عامًا والذي تزوجت به بعد تجاوزها سنّ الخمسين. أمضت آخر عشرين عامًا من حياتها في سورية، في حالة من السّعادة القصوى، أو تقريبًا - عاشت ويلات الحرب خلال مجازر عام ١٨٦٠، حيث أنقذها تدخّل عبد القادر الجزائري الذي كان وقتذاك في منفاه الدمشقي ووفّر الحماية لكثير من المسيحيين السوريين والأوروبيين. إلا أن أشنع حادثة في حياتها وقعت قبل ذلك بكثير، في «باني دي لوكا» بإيطاليا، عند سفح جبال «الأبينيني». في ذلك المساء، كان ابنها ليونيداس البالغ ست سنوات، وهو الوحيد من بين أولادها الذي كانت تحبه بجنون، يريد أن يلحق بأمه التي كان يراها في الأسفل، أمام مدخل الفندق، من على شرفة غرفته - انحنى إلى الأمام فسقط وتهشّم على أرض الباحة عند قدميّ والدته، ولقي حتفه على الفور.

لعلّ هذه الحادثة الرهيبة ما حال دون عثور جين على السّعادة إلا في أبعد أصقاع الأرض، في صحراء النسْيَان والعشق - حياتها، كحياة سارة، مسيرة طويلة نحو الشّرق، سلسلةٌ من المحطات اقتادتها بشكل حتمي أبعد فأبعد نحو الشّرق، بحثًا عن شيء لا تدري ما هو. لقد التقى بلزاك بهذه المرأة المنقطعة النظير وهي في بداية رحلتها الطويلة والهائلة، في باريس أولًا عام ١٨٣٥، حين كانت «الليدي ألّ»

تخون بارونها البافاري فون فنينغن مع تيوتوكي؛ بلزاك يُخبِر مدام هانسكا بأن «الليدي ألّ» هربت مجددًا، برفقة يوناني، وأن الزوج أتى وتبارز مع اليوناني، فتركه شبه ميت وأعاد معه زوجته قبل أن يرسل طبيبًا إلى عشيقها - «يا لها من امرأة استثنائية»! كتب بلزاك.
ثم، بعد بضع سنوات، وبينما هو عائد من فيينا، توقف في قصر «فاينهايم» لزيارة جين؛ في رسائله، حدَّث مدام هانسكا عن الأيام التي أمضاها هناك، ومن المحتمل جدًّا أنه، عندما كتبَ «ها هو اتهام آخر من الاتهامات التي تُضحكني»، كان يكذب حتّى لا تُصاب إفلينا بنوبة من نوبات الغيرة والسخط التي نَعلَم أنها غالبًا ما كانت تعتريها. أتساءل ما إذا كان بلزاك وقع فعلًا في شباك هذه المُغامِرة المثيرة للفضائح وذات العينين الزرقاوين، هو أمرٌ ممكن؛ فنحن نَعلَمُ أنه استلهم منها جزئيًا شخصية الليدي أرابيل دادلي في روايته «الزنبقة في الوادي»، تلك العاشقة الشهوانية ومحطمة القلوب. لقد قرأتُ هذه الرواية وأنا على بعد بضعة أميال من قصر «ساشيه»، وسط مناظر «تورين» الطبيعية حيث ركبت الليدي دادلي الخيل برفقة ذاك الأبله فيليكس دي فاندنيس؛ لقد ذرفتُ الدموع على المسكنة هنريتا التي ماتت من شدة الأسى - كنتُ أيضًا أحسد فيليكس بعض الشيء على الملذات الشهوانية التي أنعمَتْها عليه أرابيل الجامحة. لقد أقامَ بلزاك، منذ ذلك الزمن المُبكر، تناقضًا بين متع الشّرق الحسيّة وعفّة الغرب الباهت؛ ويبدو أنه استشرف، عبر لوحات ديلاكروا التي سحرته للغاية، ومن خلال المُخيّلة الاستشراقية وهي ما زالت في طور التكوين، مصير جين ديغبي اللاحق كأنه نبيٌّ أو عرّاف ما: «شهواتها تعصف كزوابع الصحراء، الصحراء الشاسعة والمُتقدة التي ترتسم في عينيها، الصحراء التي لا تتعكر زرقة سمائها أبدًا، وذات الليالي الباردة والمُنعشة والمُرصعة بالنجوم»، كتبَ عن الليدي دادلي

قبل أن يعقد بمقارنة مُطولة بين الغرب والشّرق، حيث الليدي دادلي كالشّرق «الذي تَتَقَطّر روحه فتتحول بُخارًا مُضيئًا يَلفُّ العِباد»، وفي بيت جدّتي، جالسًا على ذلك الكرسي ذي القماش المُطرّز، قرب النافذة التي يخترق ستائرها المُخرّمة والبيض، ضوءٌ سبق لوهجه أن خَفُت بسبب شجرات السنديان النحيلة التي عند طرف الغابة، كنتُ أتخيل نفسي على صهوة الحصان برفقة هذه الديانا إلهة الصيد البريطانية وأتمنى في الوقت عينه (كنت آنذاك في آخر أيام طفولتي) بأن يتزوج فيليكس أخيرًا بهنريتا التي سَئِمَتْ الانتظار، مُتردّدًا أنا أيضًا بين غبطة الرّوح وملذات الجسد.

بلزاك وهانسكا، قيس وليلى، جين ديغبي والشيخ مجول، هذه لائحة رائعة يجب العمل على توسيعها، كِتاب، لِمَ لا، أستطيع أن أؤَلّفَ كتابًا، يمكنني من الآن تَخيُّل غلافه:

حول أشكال الجنون المختلفة في الشّرق
المجلّد الأول
المستشرقون العاشقون

سأعثر هنا على مادة وفيرة، عند مجانين العُشق من جميع الأصناف، السعداء كما التُعساء، الصوفيين كما الإباحيين، النساء كما الرجال، لكن فقط لو كنتُ أجيد شيئًا غير اجترار القصص القديمة جالسًا في سريري، لو كنتُ أمتلكُ طاقة بلزاك أو فرانتس ليست، لو كنت أنعم بصحة جيدة خاصة - لست أدري ما الذي سيحصل لي في الأيام المُقبلة، عليّ أن أسلّم أمري للطب، أيّ للأسوإ، لا أتخيل نفسي أبدًا في المُستشفى، ماذا سأفعل هناك خلال ليالي الأرق؟ في كتابه «أشياء رأيتها»، يصفُ فيكتور هوغو المفتون بالشّرق، احتضار بلزاك، فيقول أن السيّد بلزاك كان في سريره، رأسه

على كومة مُرتفعة من الوسائد، جُلِبَ بعض منها من الكنبة ذات القماش الدمشقي الأحمر التي في الغرفة. كان وجهه بنفسجيًا، أسود تقريبًا، يميل إلى جهة اليمين، لحيته غير مشذبة، شعره رماديًا قصيرًا، وعيناه جامدتَين ومفتوحتَين على وسعهما. رائحة لا تُحتمل كانت تنبعث من السرير. رفع هوغو الغطاء وأمسك بيد بلزاك. كانت تتعرق غزيرًا. ضغط عليها. لم يستجب بلزاك. كان ثمة ممرضة عجوز وخادم يقف كلّ منها بجانب أحد طرفيّ السرير. هناك شمعة مُشتعلة على الطاولة خلف رأس السرير، وأخرى على منضدة بالقرب من الباب، ومزهرية فضيّة على طاولة صغيرة بمحاذاة السرير. كان الرّجل والمرأة صامتَين مذعورَين، ينصتان إلى حشرجة المريض المُرتفعة، لقد عادت مدام هانسكا إلى منزلها، لا شك لأنها لم تحتمل سماع حشرجة زوجها ورؤيته يُحتضر: يروي هوغو فظائع كثيرة ومتنوعة حوّل الخرّاج في ساق بلزاك، الذي كان انفجر قبل بضعة أيام.

يا لها من لعنة أن تَمتلك جسدًا، لماذا لم يعطوا بلزاك أفيونًا أو مورفينًا كما فعلوا مع هاينرش هاينه، جسد هاينه المُعذَّب هو الآخر، هاينه الذي كان مُقتنعًا أنه يُحتضر ببطء من داء الزهري في حين يميل أطباء اليوم إلى الاعتقاد بأنه كان يعاني من التصلُّب المُتعدد على الأغلب، مرضٌ تَنكُّسي طويل الأمد على أي حال، سمّره في السرير لسنوات، يا إلهي، ثمّة مقالة علمية تُفصّل جُرعات المورفين التي كان يتناولها هاينه، يُساعده في ذلك صيدليٌ عطوفٌ كان قد أتاح له الاستفادة من المورفين، هذا الابتكار الجديد الذي هو عصارة العصارة التي تُستخرج من الخشخاش الإلهي - في الأقل أن في القرن الحادي والعشرين، لا يُرفض هذا النوع من العناية لمريضٍ يُحتضر، فقط يحاولون إبعاده من الأحياء. لم أعد أذكر أي كاتب

فرنسي يعاتبنا على بقائنا أحياء في حين أن بيتهوفن قد لقيَ حتفه، ما أغاظني بشكل يفوق الوصف، كان عنوان كتابه «كيف يُعقل أن بيتهوفن قد لقيَ حتفه بينما الكثير من الأغبياء ما زالوا أحياءً يُرزقون»، أو شيء من هذا القبيل، هو يُقسِّم البشرية إلى فئتين إذًا، الحَمْقَى من جهة، والذين يشبهون بيتهوفن من جهة ثانية، أنا مُتأكّد من أن هذا المُؤلِف يعدُّ نفسه بكلّ فخر واعتزاز، من بين أشباه بيتهوفن، هؤلاء الذين سيكفّر مجدهم الأبدي عن مساوئهم ورذائلهم الدنيويّة، وأنه يتمنى لنا جميعًا الموت، انتقامًا لرحيل مُعلّم مدينة «بون» عن الدنيا: في تلك المكتبة الباريسية، سارة التي غالبًا ما تفتقر إلى الفطرة السليمة، وجدت هذا العنوان مُسليًا نوعًا ما - لامتني مرّة أخرى على جدّيتي، على تصلّبي في مواقفي، كأنها لم تكن متصلّبة هي أيضًا. كانت المكتبة في ساحة «كليشي»، قصدناها في اختتام تلك النزهة التي زرنا خلالها منزل صادق هدايت في شارع «شامبيونيه»، ثمّ ضريحي هاينرش هاينه وبرليوز، قبل أن نتناول العشاء في مطعم لطيفٍ، ألماني الاسم على ما أظن. لا شك في أن غضبي تجاه الكِتاب (اسمُ عائلةِ المؤلفِ ألمانيٌّ أيضًا على ما أعتقد، مصادفة إضافية) كان ينمّ عن رغبة في لفت النظر إليّ، في الاستحواذ على انتباه سارة على حساب هذا الكاتب، وفي التألّق عبر إشهار سعة معرفتي ببيتهوفن - في تلك الفترة، كانت سارة مُنهمكة بأطروحتها، لا يعنيها شيء ما عدا صادق هدايت وآنا ماري شفارتسنباخ. كانت قد هزلت كثيرًا، تعمل أربع عشرة ساعة، أو حتّى ست عشرة ساعة في اليوم، نادرًا ما تغادر منزلها، وتتخبط وسط المراجع والنصوص كضفدع بشري في الماء، من دون تناول أي طعام تقريبًا؛ لكنّها كانت تبدو سعيدة رغم كلّ شيء. كنتُ لم أرَها منذ شهور بعد حادثة حلب، حادثة غرفة فندق «بارون»، إذ كان

الإحساس بالعار يخنقني. كان أمرًا في غاية الأنانية أن أزعجها بغيرتي وهي منغمسة في كتابة أطروحتها، يا لي من أحمق مُدَّعٍ! كنت أتباهى بنفسي كالطاووس، فيما كان عليّ بدلًا من ذلك، أن أهتمّ بها، أن أقف عند كلّ رغباتها وأتجنب إطلاق خطاباتي الرنانة عن بيتهوفن التي لاحظتُ، مع الوقت، أنها لا تزيد من شعبيتي عند النساء بشكل استثنائي. ربّما ما كان يضايقني فعلًا في هذا العنوان، «كيف يُعقل أن بيتهوفن لقيَ حتفه بينما الكثير من الأغبياء ما زالوا أحياءً يُرزقون»، هو أن صاحبه قد وجد طريقةً لجعل نفسه مُضحكًا وظريفًا وهو يتحدّث عن بيتهوفن، أمرٌ عبثًا سعتْ إليه أجيال عدّة من علماء الموسيقى، من بينها جيلي أنا.

يروي المُستشرق جوزيف فون هامر-بورغشتال أنه كان يلتقي ببيتهوفن من طريق الدكتور غلوسيه. يا له من خليط بشر عجيب ورائع في تلك العواصم الأوروبية خلال بداية القرن التاسع عشر، حيث المستشرقون يعاشرون الأمراء، والكتاب الكبار من أمثال بلزاك، والموسيقيين العباقرة. في مُذكراته طرفة مُرعبة تعود إلى عام ١٨١٥: يَحْضُر هامر حفلة موسيقية لبيتهوفن في أحد هذه الصالونات الرائعة التي تتميز بها فيينا؛ في وسع المرء أن يتخيل بسهولة عربات الحناطير، الخدم، مئات الشموع، الثريات ذات البلّورات الزجاجية؛ الجو بارد، إنه الشتاء، شتاء مؤتمر فيينا، وقد تمّت تدفِئة منزل الكونتيسة تيريزا أبوني، مُضيفة هذه السهرة، إلى أقصى حدّ - هي بالكاد تبلغ الثلاثين من العمر، ولا تعلم أنها، بعد بضع سنوات، ستسحر جميع شخصيات باريس البارزة؛ سيستقبل أنطوان وتيريزا أبوني في سفاراتهم بضاحية «سان جيرمان»، كلّ ما تعدّه العاصمة الفرنسية من كتاب وفنانين وموسيقيين مهمّين. سيصبح هذان الزوجان الأرستقراطيان صديقيّ شوبان وفرانتس ليست وجورج ساند المثيرة

للفضائح؛ سيستضيفون بلزاك وهوغو ولامارتين وجميع مشاغبي جيل الـ ١٨٣٠. لكن الكونتيسة تستضيف بيتهوفن هذا المساء؛ بيتهوفن الذي لم يزر أحدًا من عليّة القوم منذ شهور - كالحيوانات المُفترسة، لا شكّ في أنه الجوع ما أخرجه من عرينه، فهو بحاجة إلى المال، إلى المال وإلى العشق. يُقَدِّم إذًا حفلة موسيقية لهذه الكونتيسة ومجموعة أصدقائها الهائلة، من بينهم هامر. كانت علاقات هذا الديبلوماسي المُستشرق بالسلطات على أحسن ما يرام خلال فترة انعقاد ذلك المؤتمر حيث تَقرَّب من مترنيش؛ كان يتردّد على تاليران الذي لم يكن معلومًا إن كان ضبعًا خبيثًا أم نِسرًا مُتشامخًا - هو في أي حال، وحش جارح. إن أوروبا تحتفل بالسلام، باستعادة التوازن بين القوى السياسية، وتحتفل على وجه الخصوص بنهاية نابليون الذي يستشيط غضبًا في جزيرة «إلبا»؛ ستمرُ «المئة يوم» التي كان الإمبراطور قد عاد خلالها إلى فرنسا، كرعشة خوف عابرة. نابليون هو من اختَرَع الاستشراق، هو الذي جرّ العِلْم إلى مصر خلف جيوشه وأدخل أوروبا للمرّة الأولى إلى أصقاع الشّرق التي ما بعد البلقان. لقد سار العِلْم على خطى العسكر والتجّار، فتغلغل في مصر والهند والصين؛ أخذت النصوص المترجمة عن العربية والفارسية، تجتاح أوروبا، غوته الشامخ كسنديانة من أطلق هذا السباق؛ فقبل فترة طويلة من ديوان «الشّرقيات» لفيكتور هوغو، وفي الوقت عينه الذي اخترع فيه شاتوبريان أدب الرحلات عبر كتابِه «الطريق من باريس إلى القدس»، وبينما يعزف بيتهوفن في هذا المساء للكونتيسة الإيطالية المتزوجة من مجري، أمام شخصيات فيينا الأكثر أناقة، كان غوته يضع اللمسات الأخيرة على «الديوان الغربي الشّرقي» المستوحى مباشرة من ترجمة أشعار حافظ الشيرازي التي نشرها هامر-بورغشتال (هامر طبعًا هنا، فبعد أن يأخذ الخادم معطفه،

ينحني متظاهرًا بملامسة قفازي تيريزا أبوني بشفتيه وهو يبتسم، إذ هو يعرفها جيّدًا، فزوجها هو الآخر ديبلوماسي مُقرّب من مترنيش) عام ١٨١٢، حين كان هذا التنين نابليون، هذا المُتوسطيّ الكريه، يظنّ أنه يستطيع مواجهة الروس وشتائهم المُرَوّع على بعد ثلاثة آلاف فرسخ من فرنسا. في ذلك المساء، وفيما نابليون يخبط الأرض بقدميه منتظرًا وصول السفن إلى جزيرة «إلبا»، اجتمع بيتهوفن وحافظ الشيرازي وغوته، وشوبرت إذًا، الذي سيُلحّن قصائدَ من «الديوان الغربي الشّرقي»، وشومان وشتراوس وشونبرغ، فهم أيضًا سيستخدمون هذه القصائد التي كتبها غوته العظيم، وإلى جانب الكونتيسة أبوني هناك شوبان الجامح الذي سيهديها مقطوعتين من «اللَّيْلِيّات»؛ وبالقرب من هامر، هناك روكرت ومَوْلانا جلال الدّين الرومي؛ أما بيتهوفن، مُعلّمُهم جميعًا، فقد جلس لتوه خلف البيانو.

نَتَخَيَّل أن تاليران، حين شعر بدفء مفاجئ نتيجة حرارة المواقد الخزفية، غفا حتّى قبل أن تُلامس أنامل المُلحّن لوحة المفاتيح؛ لقد كان تاليران شديد الانهماك خلال كلّ هذه الليلة، لكن ليس بالموسيقى، بل بلعب الورق: لعبة الفرعون التي صاحبتها مُعاقرة النبيذ، الكثير من النبيذ، وها هي عيناه تُغمِضان. من بين الأساقِفة الذين خلعوا ثوب الكهنوت، هو أكثرهم أناقة وفرادة أيضًا: لقد خدم الله والكنيسة ولويس السادس عشر، خدم المؤتمر الوطني الفرنسي وحكومة المديرين، خدم نابليون ولويس الثامن عشر، وسيخدم لاحقًا لويس فيليب ويصبح رجل الدولة الذي سيعتبره الفرنسيون أنموذجهم، هم الذين يعتقدون بصدق، أن على المسؤولين الرسميين أن يكونوا، مثل تاليران، صُرُوحًا وكنائس لا يُمكن زعزعتها، تصمد في وجه جميع العواصف مُجسّدةً مبدأ «استمرارية الدولة» الشهير، أي جُبْنَ وتخاذل أولئك الذين يُطَوِعون مبادئهم لتماشي السلطة الحالية أيًا تكن

- سيعرب تاليران عن تقديره لحملة نابليون على مصر ولكل ما جلبه دومينيك فيفان دينون وعُلماؤه من معارف عن مصر القديمة، عبر التوصية بأن يتم تحنيطه كالمومياء، «على الطريقة المصرية»، مُتَّبِعًا في ذلك الموضة الفرعونية التي اجتاحت باريس، وواضعًا شيئًا من الدّرق في داخل تابوته، هو الأمير الذي لطالما حلم بتحويل مَخدعه حرملك.

أما جوزيف هامر، فليس على وشك أن يغفو؛ هو يعشق الموسيقى ويحبّ سهرات المجتمع الراقي ومُخالطة عُليّة القوم - لقد تجاوز الأربعين بقليل، ويمتلك سنوات من الخبرة في بلاد الشام، يتكلم ست لغات بطلاقة، وقد عاشر الأتراك والإنكليز والفرنسيين ويستسيغ، وإن بطرائق مُختلفة، هذه الشعوب الثلاثة التي أُتيحت له فرصة معاينة ميّزاتها من قرب. إنه نمساوي ابن مسؤول حكومي في الريف، لا يعوزه إلا قصر ولقب نبالة ليحقق هذا المصير الذي يَعلم أن القدر يُخبئه له - سيكون عليه الانتظار عشرين سنة إضافية وضربة حظ ليرث قصر «هاينفلد» ولقب بارون الذي يرافقه، فيصبح فون هامر-بورغشتال.

حيًّا بيتهوفن الحضور. إن هذه السنوات عصيبة عليه، لقد خسر لتوه شقيقه وانطلق في دعوى قضائية طويلة للحصول على حقّ حضانة ابن شقيقه؛ تفاقُم الصمم يعزله أكثر فأكثر. هو مضطر لاستخدام أبواق الأذن النحاسية الضخمة ذات الأشكال الغريبة التي تمكن رؤيتها في «بون» خلف إحدى واجهات العرض الزجاجية في «بيت بيتهوفن»، والتي تمنحه هيئة قنطور[1]. هو مغروم، لكنّه يحدسُ

(١) مخلوق أسطوري في الميثولوجيا الإغريقية له جسد حصان وجذع ورأس إنسان.

أن غرامه، إما بسبب مرضه، وإما نتيجة النسب النبيل للشابة التي يعشق، لن يؤدي إلى شيء سوى إلى الموسيقى؛ كهاريت في قصة برليوز، حبيبته هنا، في هذه الصالة؛ يشرع بيتهوفن يعزف السوناتا السابعة والعشرين التي ألفها قبل بضعة أشهر، بحماسة وشغف باديَين.

ارتجاف خفيف يتملّك الحضور؛ ثمة تهامس لا يسمعه بيتهوفن: يروي هامر أن البيانو، ربّما بسبب التدفئة، اختلّ دوزانه فراح يُصدر صوتًا مريعًا - أنامل بيتهوفن تعزف بشكل ممتاز؛ هو يسمع الموسيقى، داخليًا، كما ينبغي لها أن تكون؛ لكنّها كارثة سمعيّة للجمهور، وإن حصل وتطلّع بيتهوفن إلى حبيبته من وقت إلى آخر، لا بد له من أن يلحظ شيئًا فشيئًا، أن وجوه الحضور قد اجتاحتها علامات الضيق وحتى الإحراج لرؤية إذلال كهذا يلحق بهذا الرّجل العظيم. لحسن الحظ أن الكونتيسة أبوني سيدةٌ ذات لباقة منقطعة النظير: راحت تُصفّق بكل ما أوتيت من قوة وأعطت خلسةً إشارة إلى أن من الضروري اختصار الجلسة، ويمكننا أن نتخيّل الحزن الذي سيتملّك بيتهوفن حين يعي المهزلة المريعة التي وقع ضحيتها - ستكون هذه آخر حفلة موسيقية في حياته، يُخبِرُنا هامر. أُحِبُ أن أتخيّل أنه عندما ألّف بعد بضعة أسابيع، مجموعة أغاني «الليد» المُعنونة «إلى الحبيبة البعيدة»، كان بيتهوفن يُفكر حينذاك في تلك المسافة التي يخلقها الصمم، مسافة عَزَلته عن سائر البشر بشكل أكثر حتمي من المنفى، وحتى لو أننا لا نزال نجهل، برغم دراسات المختصين الشغوفين، هويّة هذه المرأة، فباستطاعتنا أن نستشعر في مقطوعة «الليد» الأخيرة «خذي إذًا هذي الأغاني»، كامل حزن الفنان الذي صار عاجزًا عن إنشاد أو عزف الألحان التي يكتبها لحبيبته.

كنتُ لسنوات عدّة، أجمع التأديات المتوافرة لمقطوعات سوناتا

بيتهوفن للبيانو كلّها، التأديات الجيدّة كما السيئة، الاعتيادية كما المفاجئة، عشرات من أسطوانات الـ«فينيل» والـ«سي دي»، والأشرطة المغناطسية، وفي كلّ مرة أسمع فيها الحركة الثانية من السوناتا السابعة والعشرين، ورغم أنها فرحة ولطيفة على الأذن، لا أقوى على منع نفسي من التفكير في الإحراج والعار اللذين يُرافقان إعلان حُبٍ لا يلقى الجواب المُبتغى، وسوف أحمّر خجلًا الآن وأنا جالسٌ في سريري والضوء مُشعل، إن فكرّت مجددًا في هذا الأمر، نحن نعزِف لحننا بمفردنا من دون أن نعي أن البيانو غير مُدَوْزن، مفتونين بمشاعرنا: يسمع الآخرون إلى أي درجة يصل إليها نشازنا، ويُبدون في أحسن الأحوال، شفقة حقيقيّة، أما في أسوإها، فينتابهم إحساس مريع بالانزعاج لإضطرارهم لمشاهدة الإذلال الذي نتعرض له مُلطّخًا إياهم، فيما هم لم يطلبوا رؤية أي شيء في أغلب الأحيان - سارة لم تطلب رؤية أي شيء ذلك المساء في فندق «بارون»، في الواقع بلى، ربما، ما أدراني، أعترف بأنني لم أعد أدري أي شيء اليوم، بعد مرور كلّ هذا الوقت، بعد طهران، بعد السنوات التي مضت وبعد ذلك المساء، وبينما أغور في المرض مثل بيتهوفن، وفيما أضحت سارة، رغم مقالة هذا الصباح الغامضة، أبعد من أي وقت مضى، «الحبيبة البعيدة»، لحسن الحظّ أنني لا أنظم الأشعار ولم أعد أؤلف الموسيقى منذ فترة طويلة.

إن زيارتي الأخيرة لـ«بيت بيتهوفن» في «بون» بهدف المشاركة في مؤتمر حول تجلّيات الشّرق في «أطلال أثينا»، تعود إلى بضع سنوات؛ زيارة موصومة بالذل والعار أيضًا، ذلّ وعارٌ لحقا ببيلغر المسكين والمجنون - أراه مجددًا، واقفًا في الصف الأول واللعاب يسيل من فمه، يُكيل النقد العنيف على أوغست فون كوتسيبو (مُؤلِف الكُتيِّب الموسيقي لـ«أطلال أثينا» الذي لم يطلب هو الآخر شيئًا من

أحد ولا شك في أن مجده الوحيد يتمثّل بتلقيه طعنة خنجر قاتلة) ثمّ يخلط جميع الأمور ببعضها بعضًا، علم الآثار بالعنصرية ضد المسلمين، وذلك لأن في الحركة الرابعة المعنونة «جوقة الدراويش» التي كنتُ تكلمتُ عنها للنو، يَرِدُ ذكر الرسول والكعبة، ولهذا السبب تحديدًا راح بيلغر يصرخ، لم تعد هذه المقطوعة تُعزَفُ بتاتًا في يومنا هذا، صرنا نحترم «القاعدة» بإفراط، عالمنا مُهدد، لم يعد أحد يهتم بعلم الآثار اليونانية والرومانية، نحن نهتم بـ«القاعدة» فقط وبيتهوفن كان أيقن تمامًا أنه علينا أن نُقرّب من خلال الموسيقى، بين الطرفين، بين الشّرق والغرب، لكي نُبعد نهاية العالم التي تدنو أكثر فأكثر وأنتَ يا فرانتس (عندها، التفتت إليّ السيدة المسؤولة عن المتحف والدهشة بادية عليها، فأجبتها بنظرة شك واستياء جبانة تعني «أجهل تمامًا من هو هذا الشخص المُتعصّب») تعلم ذلك لكنك لا تقوله، تعلم أن الفنّ مهدد، وأن أحد مؤشرات نهاية العالم هو كلّ هؤلاء الناس الذين يلجأون إلى الإسلام، إلى الهندوسية والبوذية، تكفي قراءة هرمان هسه لإدراك ذلك، علم الآثار هو علم يُعنى بالأرض والكل يتناسونه، مثلما يتناسون أن بيتهوفن هو النبيّ الألماني الوحيد - تملّكتني حاجة مباغتة ومريعة للتَّبَوُّل؛ فجأة، لم أعد أسمع هذيان بيلغر الواقف وسط الحضور، لم أعد أنصت سوى إلى جسدي ومثانتي، كنت أشعر بأنها ستنفجر، صرت أقول لنفسي «لقد شربتُ شايًا، لقد شربتُ الكثير الكثير من الشاي»، لن أستطيع أن أصمد، لدي حاجة مُروّعة للتبول سوف أبلل سروالي وجاربيّ إنه أمرٌ شنيع، أمام الجميع، لن أقوى على الصمود أكثر من ذلك، لا بدّ أن لوني قد شحب على مرأى من الجميع وبينما بيلغر كان لا يزال يتلعثم بإكالة اللعنات التي لم أكن اسمعها بوضوح، نهضتُ ورحت أركض وأنا أتلوّى، يدِي بين ساقيّ، لأختبئ في المرحاض، بينما

اندلع خلفي دويٌّ من التصفيق، تحيّةً لخروجي، كان بمثابة إدانة للخطيب المخبول. لم أرَ بيلغر عندما عدت؛ لقد غادر عقب اختفائي بوقت قصير، أطلعتني سيّدة «بيت بيتهوفن» الطيّبة، لكن ليس من دون أن ينعتني بالجبان والخائن، وعليّ أن أقر بأنه لم يكن مخطئًا في ذلك.

أحزنتني هذه الحادثة كثيرًا؛ فبالرّغم من أنني كنت أتطلع بلهفة لرؤية ما تتضمنه مجموعة «بودمر» مرّة أخرى وبالتفصيل، بالكاد أمضيت عشر دقائق في صالات العرض؛ أمينة المتحف التي كانت ترافقني، انتبهَتْ إلى مزاجي الكئيب، فسعت إلى طمأنتي، هل تعلم، ثمّة مجانين في كلّ مكان، وحتى لو كانت نيتها حسنة وجديرة بالثناء، فإن فكرة انتشار الممسوسين مثل بيلغر «في كلّ مكان» أحبطتني بالكامل. هل هي رحلاته الكثيرة جدًّا إلى الشّرق ما وَسَّعَ صدعًا في الرّوح كان يُعاني منه سابقًا، هل التقط هناك مرضًا روحانيًا، أم أن لا دخل لتركيا وسورية في كلّ ذلك، إذ إنه كان سيصير مجنونًا بالقدر عينه حتّى لو لم يُغادر «بون» مطلقًا، لا أحد يدري - هو زبون مثالي لجارِكَ، كانت ستقول سارة، في إشارة إلى فرويد، وأعترفُ أنني أجهل تمامًا ما إذا كان هذا النوع من هذيان الاضطهاد على طريقة بيلغر يتخطى مَقدرة التحليل النفسي العلاجية، وما إذا لم يكن بالأحرى من اختصاص عمليات ثَقب الجمجمة، على الرغم من كلّ المودة التي أكنّها للدكتور سيغموند ولرفاقه في السوء. «إنكَ تبدي مقاومة»، كانت ستقول سارة؛ كانت شرحت لي مفهوم «المقاومة» المُذهل كما يُعَرّفُه التحليل النفسي، لم أعد أذكر في أي مناسبة، فأثارت بساطةُ الحجة سخطي، كلّ ما يناقض نظرية التحليل النفسي يقع ضمن نطاق «المقاومة»، أي هو ما يرتكبه المرضى الذين يرفضون أن يشفوا، الذين يرفضون أن يُبصروا نور الخلاص في

كلمات الدكتور الحكيم. هذه حالتي أنا بالتأكيد، وحين أفكّر الآن في الأمر، أعي أنني أقاوم، منذ سنوات وأنا أقاوم، لم أدخل أبدًا إلى شقة مدمن الكوكايين المختص بحياة الرُضَّع الجنسية، حتّى أنني لم أرافق سارة عندما ذهبَت، هي، إلى هناك، سأفعل ما تشائين، قلت لها، أنا مُستعدّ للتفرج على النساء المُقطّعات المعروضات في متحف علم التشريح، لكنني لن أزور شقة هذا الدجال، وهل تعلمين أن ما من شيء قد تغيّر، أن النَصب والاحتيال مستمران: يجعلونكِ تدفعين ثروة لرؤية منزل فارغ بالكامل، إذ إن جميع ممتلكات المشعوذ، أريكته الشهيرة، بساطه، كرته البلورية ولوحاته التي تُصوّر نساء عاريات هي الآن في لندن. ذلك كان، بشكل فاضح، سوء نية منّي، طريقة أخرى لأتذاكى، ليس لدي شيء ضد فرويد بالطبع، وهي كالعادة، تكهنَتْ بذلك. لعلّ فرويد ينجح في جعلي أغفو بواسطة بندوله الذي يستخدمه للتنويم المغناطيسي، ها قد مرّت ساعة وأنا جالس في سريري والضوء مُشعَل ونظّارتي على أنفي ممسكًا بمقالة سارة ومحدقًا ببله في رفوف مكتبتي - «إنه زمن في غاية الرداءة لدرجة أنني اعتزمتُ على مخاطبة نفسي»، يقول ذاك الكاتب الإسباني، غومير دي لاسيرنا؛ أتفهّمُه.

يحدث لي أنا أيضًا أن أخاطب نفسي.

حتّى أن أغني لنفسي، أحيانًا.

لا صوت يطلع من شقة غروبر. لا بد أنه نائم، سوف ينهض من فراشه لقضاء حاجته في الساعة الرابعة تقريبًا، مثانته لا ترحمه أبدًا، مثل مثانتي وقت حادثة «بون»، يا له من عارٍ عندما أفكّر مجددًا في الأمر! ظنّ الجميع أنني غادرت الصالة ساخطًا من أقوال بيلغر، كان عليّ أن أصرخ له «تَذَكّر دمشق! تَذَكّر صحراء تدمر!». ربّما كان سيستفيق فجأة من هذيانه، كمريض من مرضى فرويد عندما يكتشف

على حين غِرّة، وسط جلسة علاج، أنه خَلط بين «فرفورة» أبيه و«فرفورة» حصان، فيشعر بغتة، نتيجة هذا الاكتشاف، أن ثقلًا كبيرًا قد أزيح عن صدره - قصّة «هانز الصغير» فعلًا غير معقولة، لقد نسيتُ اسمه الحقيقي، لكنني أعلم أن هذا الرّجل صار لاحقًا مُخرج أوبرا وأنه ناضل طوال حياته ليجعل من الأوبرا فنًّا شعبيًا، ما الذي حصل لرُهابه من الأحصنة، هل نجح الدكتور فرويد في شفائه من هذا العُصاب، لست أدري، لكنني آملُ في أي حال بأنه توقف عن استخدام عبارة «فرفورة». لماذا اختار الأوبرا؟ لا شك لأن المرء يصادف في هذا المجال «فرفورات» أقل بكثير من التي قد يصادفها... لنقُل في السينما - والقليل القليل من الأحصنة. كنتُ رفضتُ مرافقة سارة إلى منزل فرويد، حرِدتُ كطفل واستنكفتُ عن ذلك (أو أبديتُ مقاومة، حسب أيٍّ من المُصطلحَيْن نراه أكثر ملاءمة). عادت من هناك مسرورة ومُفعمة بالحيوية، وقد احمرّت وجنتاها من البرد (كانت ريح جليدية مُنعشة هبّت على فيينا في ذلك اليوم)، كنتُ أنتظرها في مقهى «ماكسيميليان» عند زاوية ساحة كنيسة «فوتيف»، أقرأ صحيفة «دير شتاندارت» محاولًا التواري خلفها، وهي بالكاد تكفي لتحجبكم عن أنظار الطلاب والزملاء الذين يرتادون هذا المكان، لكنّها كانت تُصدر وقتذاك سلسلة «دي في دي» من «مئة فيلم نمساوي»، فكانت تستحق الثناء على هذه المبادرة، على هذا الاحتفاء بـ«السينما النمساوية»؛ طبعًا أحد الأوائل في السلسلة كان فيلم «معلّمة البيانو»، ذاك الفيلم المُرعِب والمقتبس عن رواية تلك الكاتبة التي ليست أقلّ إثارة للرُعب، ألفريدة يلينيك، وكنتُ أفكرُ في هذه الأمور الكئيبة بعض الشيء، مُختبئًا خلف صحيفتي، حين عادت سارة من زيارتها منزل السيّد فرويد متورّدة ومبتهجة: اختلط على الفور كلّ شيء في ذهني، هانز الصغير،

رهاب الخلاء الذي تعاني منه ألفريدة يلينيك ورغبتها في قطع جميع «الفرفورات»، «فرفورات» الرجال كما «فرفورات» الأحصنة.

كانت سارة قد قامت باكتشاف مهم، وكان التأثّر باديًا عليها؛ أزاحت الصحيفة وأمسكتْ بيدي، فشعرت ببرودة أصابعها الجليدية.

سارة: (بانفعال وبنبرة طفولية) هل تعلم ماذا اكتشفت؟ أمرٌ لا يُصدّق! هل تستطيع أن تحزر ما اسم الجارة التي تسكن فوق منزل فرويد؟

فرانتس: (بارتباك) ماذا؟ عن أيّ جارة لفرويد تتحدثين؟

سارة: (بشيء من التوتر) على صندوق البريد. شقة فرويد في الطبقة الأولى. وهناك أناس يسكنون في البناية.

فرانتس: (روح الدعابة الخاصة بفيينّا) عليهم إذًا تحمُّل صراخ المصابين بالهستيريا، لا بد من أن ذلك أشدّ وطأة من كلب جاري.

سارة: (تبتسم بصبر) لا لا، لست أمزح، هل تعلم ما اسم السيدة التي تسكن في الشقة التي فوق منزل فرويد؟

فرانتس: (بلامبالاة وبشيء من التكبّر) ليس لدي أدنى فكرة.

سارة: (كأنها أحرزت نصرًا) اسمها هانّا كافكا.

فرانتس: (بضجر) كافكا؟

سارة: (تبتسم مُنتشية) أقسمُ لك. إنها مصادفة رائعة. لها علاقة بالكارما. إن الأمور كلّها متّصل بعضها ببعض.

فرانتس: (بمبالغة وقِحة) ردّ فعلكِ هذا فرنسيّ بامتياز. كافكا اسم عائلة شائع جدًّا في فيينا. السمكري الذي يأتي إلى منزلي يُدعى كافكا.

سارة: (بسخط وغيظ) لكن عليك في الأقل أن تُقرَّ أنه أمرٌ عجيب استثنائي!

فرانتس: (بتخاذل) إنني أمازحكِ. بالطبع هو عجيبٌ واستثنائي. ربّما هي ابنة عم بعيدة لفرانتس، من يدري؟

سارة: (جمالها يشعُّ كالشمس) أليس كذلك؟ إنه فعلًا... اكتشاف رائع!

كان كافكا هاجسًا من هواجسها، إحدى «شخصياتها» المفضلة، وأن تلتقي به هكذا، فوق شقة فرويد في فيينا، أفرحها للغاية. هي تعشق قراءة الدنيا كأنها سلسلة من المصادفات واللقاءات الطارئة التي تُعطي المجموع معنى وترسم دورة «السامسارا»[1] وتحيك خيوط القدر التي تمتد عبر الظواهر العرضية وتربط بينها؛ بالطبع لم يَغِب عن بالها أن تشير إلى أنني أدعى فرانتس مثل كافكا: كان عليّ أن أشرح لها أن الاسم هذا هو اسم جدي والد أبي، أنه كان يدعى فرانتس جوزيف لأنّه ولد يوم وفاة الإمبراطور الذي حمل الاسم ذاته، في ٢١ تشرين الثاني ١٩١٦؛ لقد رأف بي والداي بما فيه الكفاية كي لا يلحقا بي مهزلة حمل اسم كجوزيف، ما أضحك سارة كثيرًا - هل تتخيّل، كان يجب أن تُدعى فرنسوا-جوزيف! (لقد خاطبتني بهذا الاسم في رسائلها مرّات عدّة. لحسن الحظ أن والدتي لم تدرك أبدًا أن ثمة أناس يهزأون من ذوقها في الاسماء، ذلك كان سيحزنها كثيرًا). لأسباب أجهلها، استطاع أخي تجنّب اسم ماكسيميليان، فدُعِيَ بيتر. منذ وصولها إلى فيينا عام ١٩٦٣،كانت أمي تشعر دائمًا أنها أميرة فرنسية انتشلها من قريتها النائية نبيل من نبلاء آل هابسبورغ واصطحبها معه إلى عاصمته البرّاقة - لقد حافظتْ

---

(١) «السامسارا» مصطلح باللغة السنسكريتية يشير في البوذية إلى مفهوم دورة الحيوات المُتعاقبة التي ينتج منها العذاب والموت.

على لكنة فرنسية قوية، كتلك التي نسمعها في الأفلام التي تصوّر حقبات من الماضي، وكنتُ أشعر في صغري بخجل رهيب من طريقة لفظها، من هذا التشديد على الجُمَل، وعلى كلّ كلمة في كلّ جملة، عبر وضع النبر على المقاطع اللفظية الأخيرة، مُزيّنةً كلّ ذلك ببعض الصوائت الأنفيّة؛ النمساويون يجدون هذه اللكنة «ساحرة» بطبيعة الحال. أما السوريون الذين يقطنون خارج المُدن الكُبرى، فكان سماعهم أجنبيًا في مقدوره أن يتلفّظ حتّى لو ببضع كلمات عربية، يثير دهشتهم إلى حدّ أنهم كانوا يفتحون عيونهم على اتساعها ويبذلون ألف جهد وجهد لمحاولة سبر أسرار نطق الفرنجة الغرائبي؛ سارة تجيد العربية والفارسية أكثر بكثير من الألمانية، ولطالما انزعجتُ من سماعها تتكلم بلغتنا، ربّما - يا للفكرة الشنيعة - لأن لكنتها تُذكرُني بلكنة والدتي. دعونا لا ننزلق إلى تأملات كهذه، لنترك هذه الأمور إلى الدكتور المُبجّل، الجار الذي يسكن في الشقة التي تحت منزل السيدة كافكا. أخبرتني سارة أن كافكا يُعتبر بطلًا وطنيًا في براغ، مثله مثل موتزارت أو بيتهوفن أو شوبرت في فيينا؛ لقد أقيم له متحف وتماثيل، كما أن هناك ساحة سُمّيت باسمه؛ إن مكتب السياحة الرسمي يُنظّم جولات سياحية تتمحور حول كافكا، ويستطيع المرء أن يشتري لُعَب المغناطيس التي تحمل صورة الكاتب لتعليقها على براده العملاق في أوكلاهوما سيتي عند عودته إلى دياره - لا نعلم لماذا وقع الأميركيون في غرام براغ وكافكا؛ هم يتسكعون هناك بأعداد كبيرة وضمن شلل، يمضون أشهرًا في العاصمة التشيكية، هذا إن لم يمكثوا هناك لسنوات، خصوصًا أولئك الطامحين بأن يصيروا كُتابًا وقد تخرّجوا لتوهم في أحد برامج «الكتابة الإبداعية» التي تُقدّمها الجامعات؛ هم يأتون إلى براغ كما كان أسلافهم يذهبون في ما مضى إلى باريس، بحثًا عن الإلهام؛

يكتبون على مدوناتهم الإلكترونية ويملأون دفاترًا ورقية أو صفحات إفتراضية في المقاهي، يشربون الكثير من البيرة وأنا متأكد أنه بإمكاننا العثور على بعض منهم قابعين في المكان ذاته بعد مرور عشرة أعوام، لا يزالون يضعون اللمسة الأخيرة على روايتهم أو مجموعتهم القصصية الأولى التي من المفترض أن تدفعهم نحو المجد - لحسن حظنا، نحن أهل فيينا، أن لدينا في الأغلب أميركيين مُسنين، أزواج محترمين يفيدون من العدد المفرط للفنادق الفخمة، يقفون في الطابور لزيارة قصر «هوفبورغ»، يأكلون «تارت زاخا»[1]، يحضرون حفلة موسيقية، حيث يؤدي العازفون ألحان موتزارت وهم يعتمرون باروكات ذلك العصر وأزياءه، ثمّ يعودون إلى فندقهم في المساء سيرًا على الأقدام، شابكين الأذرع، يتملكهم إحساس بأنهم يجتازون القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فيما يدغدغهم بنعومة، خوفٌ من الظهور المُفاجئ لقاطع طرق من أحد هذه الأزقة الباروكيّة المُقفرة التي يلفها الصمت لكي ينهبهم، يمكثون يومين أو ثلاثة أيام أو اربعة ومن ثمّ يرحلون إلى باريس أو البندقية أو روما أو لندن قبل أن يعودوا إلى فيلاتهم في دالاس ويبهرون معارفهم بالصور التي التقطوها والتذكارات التي ابتاعوها. منذ شاتوبريان، أضحى هدفُ السفر سردَ الحكايات؛ نلتقط الصور لإعانة الذاكرة ومشاركة الآخرين ما رأيناه؛ نشرح أن «الغرف في أوروبا صغيرة جدًا» وأن «غرفة الفندق الباريسي بأكملها أصغر من غرفة المرحاض في بيتنا»، ما يثير رعشة المستمعين - وبريقًا من الحسد في عيونهم، «البندقية منحطّة بشكل رائع، فظاظة الفرنسيين لا تعقل، ثمّة نبيذ في

(١) «تارت زاخا»، أو "Sachertorte" بالألمانية، هي كعكة شوكولاته نمساوية شهيرة.

كلّ سوبر ماركت أوروبا ودكاكينها، في كلّ مكان»، ونشعر بالرضا ونلقى حتفنا بعد أن نكون قد رأينا بلدان هذا العالم. ستندال المسكين، لم يدرك ما الذي كان يفعله عندما نشر «مذكرات سائح»، إن ما ابتكره تعدّى مجرد ابتداع كلمة «سائح»، «بفضل الله، لا تسعى هذه الرحلة إلى أي هدف علمي أو إحصائي»، كتبَ في عمله هذا من دون أن يعي أنه كان يدفع بأجيال من المسافرين نحو التفاهات، بمعونة الله علاوة على ذلك. طريفٌ أن يقترن شخصُ ستندال ليس بكلمة «سائح» فقط، بل بالمُتلازمة التي تصيب المسافرين وتحمل اسمه أيضًا؛ يُقال إن في مستشفى فلورنسا قسمًا للطب النفسي يختصّ بالأجانب الذين يُغمى عليهم من شدّة التأثّر بروعة متحف «أوفيزي» أو جسر «بونة فكيو»، عددهم السنوي حوالى المئة، ولم أعد أذكر من أخبرني أن في القدس كان ثمة مستشفى مُخصص للمُصابين بالهذيان الصوفي، وأن مجرد «رؤية» مدينة القدس قد تتسبب في حمى ودوار، وفي ظهور العذراء والمسيح وجميع الأنبياء وسط الانتفاضات واليهود الأرثوذكس الذين يهاجمون النساء اللواتي يرتدين تنانير «الميني جوب» أو الفساتين «الديكولتيه» مثلما يهاجم زملاؤهم العرب، العساكرَ بالحجارة، على الطريقة «القديمة جدًا»، وسط كلّ ما يَعُدُّه هذا الكوكب من باحثين وعلماء دين منكبّين على دراسة نصوص جليلة ومُقدّسة، كتب التوراة والأناجيل وحتى المصاحف، المكتوبة بجميع اللغات القديمة والحديثة، باحثين وعلماء من جميع الانتماءات، البروتستانت الألمان والهولنديين والبريطانيين والأميركيين، البابويين الفرنسيين والإسبان والإيطاليين وحتى النمساويين والكروات والتشيكيين ناهيك بالكنائس المشرقية التي لا تُعدّ ولا تُحصى، اليونانية والأرمنية والروسية والإثيوبية والمصرية والسريانية، ولكل واحدة منها نسختها

البابوية، كلّ ذلك مضاف إلى الأصناف اللامتناهية من اليهوديّة الإصلاحية أو غير الإصلاحية، الحاخامية أو غير الحاخامية، والانشقاقات ما بين المسلمين الذين لا شك في أنهم يعتبرون القدس أقل أهمية من مكة، إلا أنها تبقى بالنسبة إليهم، مكانًا في غاية القداسة، وإن لم يتعدَّ سبب ذلك كونهم لا يشاؤون ترك المدينة للطوائف الأخرى: جميع هؤلاء الفقهاء والباحثون المخضرمون كانوا ينضوون تحت راية مدارس وتفسيرات لاهوتية ومجلّات علمية مختلفة لا تقلُّ عددًا عنهم، وكانت القدس تفيض بالمترجمين والحجاج ومفسرّي النصوص الدّينية والرؤيويين المتنبئين، وسط الأسواق واستعراض البضائع وكل ما هبّ ودب من باعة الشالات والأيقونات وزيوت الميرون وزيوت الأكل والصلبان المصنوعة من خشب الزيتون والمجوهرات المقدسة إلى حد ما وصور القدّيسين وأخرى لمشاهير وكان النشيد الذي يطلع نحو السماءِ دائمةَ الصفاء نشازًا شنيعًا يختلط فيه الدّيني بالدنيوي. إن أقدام حشود القدس وتنوّع أحذيتها مشهد منقطع النظير: الصنادل التي تشبه تلك التي كان ينتعلها يسوع المسيح - مع أو من دون جوارب - الصنادل العالية من الطراز الروماني القديم، الجزمات الجلدية، المشايات، صندل الإصبع، «الموكاسان» ذو الكعب الممسوح؛ كان يمكن الحجاج والعساكر والباعة المتجولين، تمييز بعضهم من بعض من دون رفع أنظارهم عن الأرض القذرة للقدس القديمة، حيث تستطيع أيضًا أن ترى أقدامًا حافية وأخرى اسودّت من الوسخ، أتت في أقل تقدير، من مطار بن غوريون، لكن من مسافة أبعد أحيانًا، متورمةً، مُضمّدةً، مُدمّاة، كثيفة الشعر أو مرداء، ذكورية أو نسائية - يستطيع المرء أن يمضي أيامًا في القدس من دون أن يفعل شيئًا إلا مراقبة أقدام المارّة، رأسه وعيناه إلى الأسفل دليلَ تواضعٍ وانبهار.

ستندال، مع غيبوبته الفلورنسيّة، سيبدو شخصًا مبتدئًا أمام النشوة الصوفية التي يختبرها سيّاح القدس. ما الذي كان سيقوله الدكتور فرويد عن هذه الاضطرابات يا ترى؟ عليّ أن أسأل سارة، المختصّة بـ«الشعور الأوقيانوسي» وبفقدان الإحساس بالذات في جميع أشكاله - كيف أفسر مشاعري الروحانية، على سبيل المثل هذه القوة التي تدفعني إلى البكاء عندما أحضر حفلة موسيقية، أو بعض اللحظات المؤثرة جدًا والوجيزة للغاية، حين أشعر بأن روحي تلامس جوهر الفن الذي يعجز الكلام عن وصفه، ومن ثمّ يتملكها الندم والأسى بعد تلاشي هذا الإحساس المُسبق بالفردوس الذي ذاقت طعمه للتو؟ وكيف أشرح حالات انعدام الوعي التي أصِبتُ بها في بعض الأمكنة المشحونة بطاقة روحانية، مثل مسجد سليمان أو التكية المولوية في دمشق؟ هذه كلها ألغاز سأصطحبها معي إلى حياتي المقبلة، كانت ستقول سارة - أرغب الآن في أن أنهض لأجلب مقالتها المروّعة عن ساراواك، فأعيد قراءتها وأتحقق ما إذا كانت تحتوي، ما وراء الرعب، على تلميحات مواربة إلى قِصّتنا، إلى الله، إلى السُمُوّ. إلى العشق. إلى هذه العلاقة بين العاشق والمعشوق. لعلّ نصّ سارة الأكثر صوفية، هو تلك المقالة البسيطة والمُلهِمة، «الاستشراق هو إنسانويّة»، المُكرَّسة لإغناتس غولدتسيهر وغرشوم شوليم، والتي نُشِرَت تحديدًا في مجلّة «الجامعة العبرية في القدس»؛ لا بد أنني أمتلك نسخة عنها، هنا، في مكان ما، هل أنهض، النهوض يعني العدول عن النوم حتّى طلوع الفجر، أنا أعرف نفسي جيدًا.

يمكنني أن أحاول أن أغفو من جديد، أضع نظارتي والكُتيِّب عن بلزاك جانبًا، آه، أصابعي قد خلّفت آثارًا على الغلاف المُصْفرّ، يَغيبُ عن بالنا أن العرق مادة حمضية تُبقِّع الورق؛ لعلّ الحُمى هي سبب

تعرُّق أصابعي، يداي رطبتان بالفعل، إلا أن جهاز التدفئة مُطفأ، وأنا لا أشعر بأي نوع من الحرّ، ثمة بضع قطرات من العرق على جبيني أيضًا، مِثل الدم - الصيادون يطلقون على دم الطريدة تسمية «العرق»، ليس ثمّة دم في الصيد كما يمارسه النمساويون، بل «عرق»، في المرّة الوحيدة التي رافقت فيها عمّي إلى الصيد، رأيت أيْلًا وقد أصيب في جذعه، كانت الكلاب تنبح على الحيوان من دون أن تقترب منه، وكان الأيْل يرتجف وينبش التراب بحوافره، وكما في حكاية خرافية للأخوَين غريم، زرع أحد الصيادين سكينًا في صدره، إلا أننا لم نكن في قصة للأخوين غريمه بل كان الصيّاد رجلًا سمينًا جلفًا، يعتمر قبعة مُسطّحة، قلت لعمّي بصوت خافت «ربما كانت تمكن معالجة هذا الحيوان المسكين»، وهو ردُّ فعلٍ ساذج سبّب لي صفعة لا بأس بها على مؤخر رأسي. كانت الكلاب تلعق الأوراق الميتة. «إنها تستحوذ على ما تيسر لها من الدم»، علّقتُ مشمئزًا؛ رمقني عمّي بنظرة غاضبة وزمجر «هذا ليس دمًا. لا يوجد دم. هذا عرق». لم تكن هذه الكلاب لتدنو من الأيْل الذي كان يُحتضر، إذ كانت مُدرّبة على أتم وجه؛ اكتفت بالقطرات المتساقطة التي راحت تلعقها خلسةً، بهذه الآثار التي كانت قد اقتفتها جيّدًا، بـ «العرق» الذي فقده الحيوان المسكين وهو يعدو نحو حتفه. بالكاد أمسكتُ نفسي عن التقيؤ؛ كان رأس الأيْل الميت يتأرجح يمينًا وشمالًا بينما الصيادون يحملونه نحو السيارة، كنت لا أحيد بنظري عن الأرض، مُحدّقًا بالأغصان الصغيرة وحبات الكستناء والبلوط حتّى لا أدوس على هذا «العرق» الذي أتخيله يسيل قطرة قطرة من قلب الحيوان الذي اخترقه السكين وذاك اليوم في مختبر التحاليل الطبية، حين وضعتْ الممرضة الحزام المطاط حول عضلة ذراعي، أشحتُ بنظري وأنا أقول بصوت مرتفع «هذا ليس دمًا. لا يوجد دم. هذا عرق»، لا بد من أن المرأة الشابة

ظنّت أنني مجنون، هذا أكيد، وفي تلك اللحظة بالذات، راح هاتفي المحمول يرن، حين كانت ستغرز أداتها في شرياني، كان هاتفي داخل سترتي التي تركتها قرب المكتب، لحن «كجنود صغار، أتينا برفقة الحرس»، راح يصدح بنغمة إلكترونية شنيعة في أرجاء العيادة؛ هذا الجهاز الذي لا يرن أبدًا، اختار هذه اللحظة بالذات لكي يشرع بزعيق أوبرا «كارمن» وفي حين كانت هذه السيّدة تستعدّ لسحب «عَرَقي». كان الهاتف على بعد خمسة أمتار مني، كنتُ مربوطًا بحزام مطاط، وكانت الإبرة على وشك أن تخترق ذراعي، لم أمُر أبدًا بظرف أحرجني إلى هذه الدرجة - تردّدتْ الممرضة وبقيت الحقنة مرفوعة في الهواء؛ الجنود الصغار الآتون برفقة الحرس كانوا لا يزالون في طريقهم، لقد صار بيزيه متواطئًا في إذلالي، سألتني الممرضة إن كنت أريد الإجابة على الاتصال، هززت برأسي رافضًا، غرزتْ الإبرة قبل أن أتمكن من إزاحة نظري؛ رأيتُ المعدن يخترق الشريان النافر والأزرق وأحسست بالحزام المطاط يفرقع، بدا لي الدم في الوعاء كأنه يغلي، «أتينا برفقة الحرس»، لِكَم من الوقت باستطاعة هاتف أن يرنّ، كان «عرقي» أسود مثل حبر هذه الأقلام الحمر الشفافة التي أستخدمُ لتصليح فروض الطلاب، «كجنود صغار»، لم يكن من شأن كلّ ذلك أن ينتهي أبدًا، الحياة طويلة أحيانًا، يقول ت. س. إليوت، الحياة طويلة جدًّا، «أتينا برفقة الحرس»، أبعدَتْ الممرضة أنبوب الاختبار البلاستيكي، خرس الهاتف أخيرًا وأعادت هي، من دون أي رحمة، وضع أنبوب ثانٍ محلّ الأول، تاركةً القنيّة متدلية من ذراعي لبضع ثوانٍ.

هذا ليس دمًا. لا يوجد دم. هذا «عرق».

لحسن حظي أنني لا أنزف الآن، غير أن هذه الحُمى، هذا التعرّق الليلي، أمرٌ مُقلِق.

كافكا، من ناحيته، كان يبصق الدم، لا بد أن ذلك كان أكثر إزعاجًا، تلك البقع الحمر في منديله، يا له من أمر شنيع! في عام ١٩٠٠، كان واحد على أربعة من سكان فينا يموت من داء السلّ في ما يبدو، هل هو المرض هذا ما أحال كافكا في منتهى الشعبية الآن، وهل هو سبب «سوء الفهم» المتعلّق بشخصيته، ربما. في إحدى رسائله الأخيرة - هذه الرسائل المُرعبة - كتب كافكا لماكس برود، من مصحّة «كيرلينغ» في مدينة كلوسترنبروغ الواقعة على ضفاف الدانوب: «بكيتُ هذه الليلة مراتٍ عدّة من دون سبب، لقد توفي جاري هذه الليلة»، وبعد يومين، توفي كافكا أيضًا.

شوبان، كافكا، هذا الداء اللعين الذي، رغم كلّ شيء، أعطانا رواية «الجبل السحري»، يجب ألا ننسى ذلك - ليس هناك من مصادفات، كان توماس مان العظيم جار برونو فالتر في ميونخ، وكان أولادهما يلعبون معًا، كما يروي إبنه كلاوس مان في مذكراته، يا لها من عائلة تلك التي يُشكلها الرجال العظماء. سارة قد لَحَظَتْ طبعًا هذه الروابط التي تجمع بين «شخصياتها»: في أطروحتها، يرد ذكر كافكا في سياق مناقشتها لقصّتين من قصصه القصيرة، «في مستوطنة العقاب» و«بنات آوى والعرب»؛ ترى سارة أن «آليّة الإزاحة» الكافكاوية وثيقة الصلة بهويّة كافكا الحدوديّة، بانتقاده الإمبراطورية النمساوية الموشكة على الزوال، وفي ما يتخطى ذلك، بضروة قبول الغيريّة كجزء لا يتجزأ من الذات، كتناقض مُثمِر. ومن جهة أخرى، فإن العلاقات التي تربط بين الظلم الاستعماري والمعارف «الاستشراقية» (هنا تكمن كلّ فرادة أطروحتها)، هي من النمط نفسه كتلك التي تربط بين بنات آوى والعرب في قصة كافكا؛ ربّما هما أمران ملتصقان لا يمكن فصل واحدهما عن الآخر، إلا أنه لا يجوز، تحت أي ظرف من الظروف، تحميل مسؤولية العنف

الاستعماري لهذه المعارف. بالنسبة إلى سارة، إن اعتبار كافكا كرومانسي واهن وكئيب، تائه في دهاليز بيروقراطية ستالينة، هو هراء مطلق - هو تناسٍ للضحك والسخرية والبهجة المتأتية من تبصّره. بعد أن صار سلعة للسيّاح، لم يعد كافكا المسكين سوى قناع لسطوة الرأسمالية وهيمنتها، وكانت هذه الحقيقة تحزنها إلى درجة أنها رفضت، حين ظهر علينا كافكا في مقهى «ماكسيميليان» الكائن عند زاوية ساحة كنيسة «فوتيف» بفضل جارة الدكتور فريد، أن نذهب معًا إلى «كلوسترنبورغ» لرؤية ما تبقى من المصحة حيث توفي هذا المصاب بالسلّ عام ١٩٢٤. لم تكن فكرة ركوب القطار تروق لي، فلم ألحّ على الأمر، بالرّغم من أنني كنت مستعدًا، من أجل إسعادها، لأن أدع رياح هذه الضاحية الجليلة تجمّد مؤخرتي.

هذا ليس دمًا. لا يوجد دم. هذا «عرق».

ربما كان عليّ أن أصرّ على الأمر، إذ اتضح أن الخيار البديل على القدر نفسه من الإزعاج إن لم يكن أكثر إزعاجًا؛ كنتُ أعلم أن الفظاعات تستهوي سارة، حتّى لو أن هذا الاهتمام بالموت وأجساد الأموات لم يكن يتبدّى بالقدر عينه من الحدة مقارنة باليوم. كان قد توجّب عليّ سابقًا تحمّل زيارة معرض النماذج التشريحية المشؤوم وها هي الآن تصطحبني نحو الطرف الآخر من القناة في «ليوبولدشتات»، إلى متحف «يذكره كلاوديو ماغريس في كتابه 'الدانوب'»، لطالما أثار حشريتها - متحف الجريمة، لا أكثر ولا أقل، الذي كنتُ أعرفه بالاسم، لكن لم تطأه قدماي أبدًا من قبل: المتحف الرسمي لشرطة فيينا، الرعب والمسوخ دائمًا، الكثير الكثير من الجماجم المسحوقة وصور الجثث المشوهة، لماذا تثير أحشاء مدينتي اهتمام سارة إلى هذا الحدّ فيما في إمكاني أن أريها، بدلًا من ذلك، العديد من الأمور الرائعة، شقة موتزارت، قصر «بيلفيدير»،

لوحات ليوبولد كارل مولر المُلقّب بـ «المصري» أو «مولر الشّرقي»، وهو، إلى جانب رودولف إرنست وفيكتور كرامر، أحد أفضل الرسامين النمساويين المستشرقين، وكثير من الأمور التي تخصّني أنا، الحيّ حيث أمضيت طفولتي، مدرستي الثانوية، متجر الساعات الذي كان يملكه جدّي، إلخ. أيّ أماكن زار بلزاك في فيينا يا ترى، إضافة إلى ساحات المعارك والمكتبات حيث كان يبحث عن رسومات للبزات العسكرية الألمانية، نحن نعلم أنه استعار خادم هامر ليرافقه في نزهاته، لكننا لا نعلم شيئًا، أو بالكاد، عن انطباعاته؛ عليّ أن أقرأ في يوم من الأيام، جميع «الرسائل إلى الغريبة» التي كتبها، أخيرًا قصة حب ذات نهاية سعيدة، أكثر من خمسة عشر عامًا من الصبر، خمسة عشر عامًا من الصبر.

سوف أحتاج إلى بعضٍ منه وأنا مستلقٍ على ظهري في الظلام، سوف أحتاج إلى بعضٍ من الصبر. لأتنفس بهدوء، مستلقيًا على ظهري في سكون منتصف الليل العميق. دعونا لا نفكر في عتبة تلك الغرفة التي في فندق «بارون» بحلب، دعونا لا نفكر في سورية، ولا في الحميميّة التي تنشأ بين الذين يسافرون معًا، ولا في جسد سارة المستلقية بمحاذاة الجانب الآخر من الجدار الذي يفصل بيننا، في غرفتها بفندق «بارون» بحلب، حُجرة ضخمة في الطبقة الأولى، لها شرفة تطلّ على شارع «بارون» الذي كان يُدعى شارع الجنرال غورو سابقًا، شارع صاخب على بعد خطوتين من باب الفرج، ومن حلب القديمة التي تصله بها أزقة متسخة بزيت السيارات ودم الخواريف، تعجّ بمصلّحي السيارات وأصحاب المطاعم والباعة المتجولين وباعة عصير الفاكهة؛ منذ الفجر، كانت ضوضاء حلب تتسلل عبر النوافذ، مصحوبة بروائح الفحم والماشية ووقود الديزل. لمن وصل لتوه من دمشق، كانت حلب تبدو غريبة ومدهشة؛ أكثر كوزموبوليتية ربّما،

وأكثر شبهًا بإسطنبول، عربية، تركية، أرمنية وكردية، على بعد مئة كيلومتر من أنطاقية (موطن القديسين والصليبيين)، وبين مجريَيّ نهر العاصي ونهر الفرات. كانت حلب مدينة من الحجر، ذات أسواق لامتناهية، أشبه بالمتاهات، تفضي إلى هضبة تعلوها قلعة منيعة؛ وكانت مدينة حديثة أيضًا، أقيمت حدائقها ومتنزهاتها حول محطة القطار، وهي الفرع الجنوبي من «سكة حديد بغداد» التي كانت تصل حلب بفيينّا من طريق إسطنبول ومدينة «قونية» التركية منذ كانون الثاني ١٩١٣، فكانت الرحلة آنذاك تستغرق أسبوعًا واحدًا؛ كان جميع المسافرين المقبلين بالقطار، ينزلون في فندق «بارون»، وهو النظير الحلبي لقصر «بيرا» الإسطنبولي - وقت أقمنا فيه للمرّة الأولى عام ١٩٩٦، كان الأرمني الذي يدير الفندق حفيد المُؤسِس، وهو لم يكن قد التقى بالنزلاء المرموقين الذين أذاعوا صيت المكان: إن لورنس العرب وأغاثا كريستي والملك فيصل مكثوا في هذه العمارة الصغيرة ذات النوافذ المقوسة على الطريقة العثمانية، ذات السلالم الهائلة والسجاد العتيق المهترئ والغرف التي فقدت بريقها وحيث تَرى، منسية ومتروكة لأمرها، الهواتف القديمة المزودة ببكرة والتي لم يعد لها أي استخدام، وأحواض الاستحمام المعدنية ذات القوائم على شكل أقدام أسود والتي، ما إن تُفْتَح الحنفيّة، حتّى تجلجل أنابيبها كمدفع رشاش من العيار الثقيل، ذلك وسط ورق الجدران الباهت وأغطية السرير المُبقعة بالصدإ. سحر الإنحطاط، علّقت سارة؛ كانت مسرورة للقاء طيف آنا ماري شفارتسنباخ مجددًا، تلك السويسرية الهائمة التي حاولت أن تداوي حزنها العميق في هذه الأصقاع خلال شتاء ١٩٣٣ - ١٩٣٤؛ كان ما تبقّى من جمهورية فايمار انهار بشكل كامل، شعار «شعب واحد، رايش واحد، قائد واحد» كان يلعلع في جميع أنحاء ألمانيا، وكانت آنا ماري الفتية تسافر بولع، هربًا من

الكآبة التي اجتاحت أوروبا وحتّى زيورخ. وفي ٦ كانون الأول ١٩٣٣، رست السفينة التي تقلّها في حلب، فنزلت آنا ماري في فندق «بارون»؛ وقد تملّكت سارة غبطة عارمة حين عثرت، وسط صفحة مُصفرّة يكسوها الغبار، على الخطّ الدقيق للمسافرة التي ملأت استمارة الوصول بالفرنسية - كانت تُلوِّح بالسجّل في الردهة تحت أنظار المدير والعاملين المتبسّمين الذين اعتادوا أن تلفظ أرشيفات فندقهم الاسماء الشهيرة كما تنفث عربة قطار دخانها؛ لم يكن المدير يعلم من هي هذه السويسرية المتوفاة التي جعلته يستحقّ كلّ هذه المودة، إلا أن فرحه بهذا الإكتشاف الذي أثار كلّ هذه الغبطة، كان يبدو في منتهى الصدق (ما من أحد كان يستطيع البقاء لا مباليًا أمام مفاتن سارة) لدرجة أنه انضم إلينا إلى بار الفندق للاحتفال في هذه المناسبة: على يسار مكتب الاستقبال، كانت ثمة حجرة صغيرة تزدحم فيها مقاعد قديمة وأثاث من الخشب الداكن، في أحد أطرافها بارٌ ذو حافّة نحاسيّة مزودٌ بكراسٍ بلا ظهر مكسوة بالجلد، وكانت الحجرة هذه من طراز بريطاني تعادل قباحته قباحة الصالونات الاستشراقية التي تعود إلى حقبة الإمبراطورية الفرنسية الثانية؛ وفي الجدار خلف البار، كانت ثمة كوة غير نافذةٍ على شكل قنطرة، مزودة برفوف داكنة تعجّ بأغراض ترويجية لمشروبات روحية من الأعوام ١٩٥٠ - ١٩٦٠، زجاجات «جوني ووكر» خزفية، تماثيل قطط صغيرة من المادة نفسها، عبوات «يغرمايستر» قديمة، ومن على طرفيّ هذا المتحف الباهت الذي يتأكّله الغبار، كان يتدلى، من دون أن يفقه المرء سبب ذلك، حزامان لوضع الرصاص، فارغَين كما لو أنهما قد استخدما للتو لصيد الطيور والأقزام والخزفية التي على الرفوف. مساءً ومنذ الغروب، كان البار يمتلئ ليس بنزلاء الفندق وحسب، بل بالسيّاح الذين يمكثون في أماكن أخرى أيضًا، ويأتون

لينعموا بجوّ الحنين وهم يشربون البيرة أو كأس عرق، فيشكّل عطر اليانسون الذي يطلع منه، ممزوجًا بروائح الفول السوداني والسجائر، اللمسة الشّرقيّة الوحيدة في المشهد العام. كانت الطاولات المستديرة تزدحم بالمرشدين السياحيين وكاميرات التصوير، وكان في إمكان المرء أن يلتقط في محادثات الزّبن، أسماء لورنس العرب وأغاثا كريستي وشارل ديغول - أرى سارة مجددًا تجلس على أحد مقاعد البار والسواد يلفُّ ساقيها اللتين وضعتهما واحدة فوق الأخرى، إنها تُحدّق في الفراغ، فأدرك أنها تفكر في آنا ماري، الصحافية وعالمة الآثار السويسرية: تتخيلُها في هذا المكان عينه قبل ستين عامًا، تعاقر عرقاً بعد أن أنعشها الاستحمام وأزال عنها غبار الطريق؛ لقد وصلت لتوها من موقع تنقيب عن الآثار بين أنطاقية واسكندرونة. في ساعة متأخرة من الليل، تشرع في كتابة رسالة إلى كلاوس مان كنتُ عاونتُ سارة على ترجمتها؛ رسالة مطبوع في أعلاها اسم هذا الفندق حيث كان صفير الحنين والانحطاط لا يزال مسموعًا، مثلما نسمع اليوم صفير القذائف والموت - أتخيّلُ مصاريع النوافذ مُغلقةً مُغربلةً بالرصاص فيما الجنود يجوبون الشارع مسرعين والمدنيون يختبئون قدر الإمكان من القناصة والجلادين؛ أتخيّلُ باب الفرج وقد صارت خرابًا، والحطام قد انتشر في الساحة؛ والأسواق التي احترقت، خاناتها البديعة انهارت جزئيًا وتفحّمت؛ وجامع حلب الكبير من دون المئذنة التي تناثرت حجارتها في الباحة ذات الأرضية الرخامية المُكسَّرة، والرائحة، رائحة الحماقة والحزن التي تعبق في كلّ مكان. كان من المستحيل يومذاك، في بار فندق «بارون»، توقّع اندلاع الحرب الأهلية التي ستلتهم سورية، حتّى لو أن عنف الدكتاتورية كان متفشيًا لا يُخفى على أحد، علاماته طاغية للغاية إلى حدّ أننا كنا نُفضّل نسيانها، إذ ما من شك في أن الأجانب كانوا

ينعمون بالرفاهية في ظل الأنظمة البوليسية، بسلام ناعمٍ وساكن يمتدّ من درعا إلى القامشلي، من كسب إلى القنيطرة، سلام تتسلل منه همسات كراهية مكبوتة ووشوشات مصائر ترزح تحت نير يتكيّف معه العلماء الأجانب بكل طيبة خاطر، علماء الآثار واللغويون والمؤرخون، مختصّو الجغرافيا والعلوم السياسية، جميعهم كانوا يفيدون من الهدوء الذي تفرضه يد من حديد على دمشق وحلب، وأنا وسارة، حين كنا نقرأ رسائل هذا الملاك الحزين آنا ماري شفارتسنباخ جالسَين إلى بار فندق «بارون»، وبينما كنا نأكل بذر اليقطين الأبيض، وحبات الفستق الحلبي الرفيعة والطويلة، ذات القشرة البنية الشاحبة، كنا نفيد أيضًا من هدوء سورية حافظ الأسد قائد الأمة وحامي الوطن - منذ متى كنا في دمشق؟ لا بد أنني أتيت في بداية الخريف؛ كانت سارة هناك منذ بضعة أسابيع، وقد استقبلتني بحفاوة، حتّى أنها استضافتني لليلتين في شقتها الصغيرة في حيّ الشعلان عند وصولي. كان مطار دمشق مكانًا بغيضًا يعج برجال مريبين ذي شوارب، يرتدون سراويل مرفوعة حتّى مستوى السرة، كنا نعلمُ سريعًا جدًّا أنهم أزلام النظام، رجال المخابرات المرهوبة الجانب، أعضاء لا يعدون ولا يحصون في شرطة سرية منتشرة في كلّ مكان: كان أصحاب القمصان ذات الياقات العريضة هؤلاء، يقودون سيارات «بيجو ٥٠٤» من الأنموذج العائلي أو عربات «رينج روفر»، جميعها مزينة بصور الرئيس الأسد وسائر أفراد عائلته لدرجة أنه كانت ثمة نكتة شائعة التداول وقتذاك، مفادها أن أفضل جاسوس سوري في تل أبيب قد وقع أخيرًا، بعد سنوات، في قبضة الإسرائيليين، إذ كان ألصق على زجاج سيارته الخلفي صورة لنتانياهو وأولاده - كانت هذه الحكاية تجعلنا نموت من الضحك، نحن مستشرقي دمشق الذين كنا نمثُّل جميع الاختصاصات، التاريخ

واللسانيات والإثنولوجيا والعلوم السياسية وتاريخ الفن وعلم الآثار وحتى علم الموسيقى. كان يمكن المرء أن يعثر في سورية على أي صنف من أصناف الباحثين، من السويديّات المختصات في أدب المرأة العربي إلى مُفسري ابن سينا الكتلان، وكانوا بمعظمهم مرتبطين بطريقة أو بأخرى بأحد مراكز البحوث الغربية المتمركزة في دمشق. كانت سارة حصلت على منحة لبضعة أشهر من «المعهد الفرنسي للدراسات العربية»، تلك المؤسسة الضخمة التي تضمّ العشرات من الأوروبيين من جنسيات مختلفة: فرنسيين بالطبع، لكن إسبانًا وإيطاليين وبريطانيين وألمانًا أيضًا، وحين لم تكن هذه الجماعة منهمكة بأطروحات الدكتوراه أو سواها من الأبحاث، كانت تُكرس وقتها لدراسة اللغة. كان جميعهم يتلقون تعليمهم وفقًا لأعرق التقاليد الاستشراقية: كان علماء وديبلوماسيو وجواسيس الغد يجلسون جنبًا إلى جنب وينكبون معًا على ملذات الصرف والنحو والبلاغة العربية. وكان بينهم قسّ كاثوليكي ترك رعيته ليكرس نفسه للدراسة، وهو بمثابة نسخة حديثة عن مُبشّري الأيام الغابرة - في الإجمال، كان هنالك حوالى خمسون طالبًا وعشرون باحثًا يفيدون من تجهيزات هذا المعهد، خصوصًا من مكتبته الضخمة التي أُسِّسَت خلال حقبة الانتداب الفرنسي على سورية، والتي كان طيفا روبير مونتان وهنري لاوست لا يزالان يحومان فوقها. أن تجد سارة نفسها وسط جميع هؤلاء المستشرقين، وأن تتاح لها فرصة مراقبتهم، أسعدها جدًا؛ كان يتهيأ لي أحيانًا أنها تصف حديقة حيوانات يقبع سائر قاطنيها خلف قضبان الأقفاص، فيستحوذ على كثير منهم جنون الاضطهاد، يفقدون عقولهم وتنتابهم مشاعر كراهية رهيبة تجاه بعضهم بعضًا، وتصيبهم شتى أنواع الاضطرابات، الأكزيما والهذيان الصوفي والوسواس القهري كما العجز التام عن مزاولة نشاطهم

البحثي، ما يدفع بهم إلى العمل والمزيد من العمل، إلى تلميع مكاتبهم بواسطة أكواعهم لساعات وساعات من دون القدرة على إنتاج أي شيء إطلاقًا، ما عدا البخار المتصاعد من أذهانهم الذي يتسرب عبر نوافذ المعهد الجليل ليختلط بالهواء الدمشقي. بعضهم كان يجوب المكتبة في الليالي كالأشباح؛ كانوا يتجوّلون لساعات بين الرفوف، على أمل أن يسيل الحبر أخيرًا من الكُتُب، لعلهم يتشربون منه العلم والمعرفة، وينتهي بهم المطاف، عند بزوغ الفجر، متقوقعين في إحدى الزوايا وفي حالة من اليأس والانهيار التامَّيْن، إلى أن يهزّهم بيده أحد أمناء المكتبة عند بدء ساعات العمل. ثمة آخرون كانوا يقومون بأفعال أكثر تخريبًا؛ أخبرتني سارة عن باحث يافع من رومانيا، كان يمضي وقته في تخبئة مواد عذائية قابلة للتلف (ليمونة في الأغلب، لكن في بعض الأحيان، بطيخة بأكملها أيضًا) خلف صفٌ من الكتب المنسية أو التي يصعب الوصول إليها، ذلك لمعرفة ما إذا كان باستطاعة موظفي المكتبة تحديد مكان الشيء المُتعفّن من خلال رائحته، ما أثار ردّ فعل حازم من طرف المسؤولين الذين عمموا، بملصقات، قرار منع «إدخال المواد العضوية تحت طائلة الطرد النهائي».

كان أمين المكتبة، هذا الرّجل اللطيف الودود، وذو وجه مُغامر لفحته الشمس، باحثًا مختصًا بالأشعار التي استخدمها البحارة العرب لإعانة ذاكرتهم خلال الملاحة، وكان غالبًا ما يحلم برحلات بَحْرية إلى اليمن أو إلى جزر «زنجبار» على متن مركب شراعي محمّل بالقات والبخور، تحت سماء المحيط الهندي المرصعة بالنجوم، حلمٌ كان يُحِبّ أن يرويه على جميع القُرّاء الذين يتردّدون على مكتبة المعهد، أكانوا يعرفون شيئًا عن الملاحة أم لا: كان يَصِفُ العواصف التي واجهها، غرق السفن التي نجا منها، قصصٌ كانت

تبدو إكزوتيكية ومُدهِشة في دمشق حيث الأخبار المُتناقلة تقليديًا في الأزمنة القديمة، كانت أخبارًا عن جِمَالِ القوافل والقرصنة المحض برية التي يمارسها بدو الصحراء.

كان مُديرو المعاهد أساتذة جامعيين، تعوزهم بشكل عام الخبرة لترأس هيكليات مهيبة إلى هذا الحد؛ كانوا غالبًا ما يكتفون بالتمترس خلف أبواب مكاتبهم، فيغوصون في الأعمال الكاملة للجاحظ أو ابن تيمية، على أمل أن يَمُرّ الوقت هكذا، تاركين لمعاونيهم، مهمة تنظيم الإنتاج في مصنع المعرفة.

بالنسبة إلى السوريين، كان هؤلاء الجهابذة اليافعون الذين يلهون في عاصمتهم، مُضحكين بعض الشيء، وعلى عكس إيران حيث تُدَقِق العين الساهرة للجمهورية الإسلامية في كلّ نشاطاتهم، كان نظام حافظ الأسد يترك هؤلاء الباحثين، بمن فيهم علماء الآثار، يسرحون على هواهم. وكان للألمان في دمشق معهدٌ لعلم الآثار، حيث شغل بيلغر منصبًا مرموقًا (لقد مكثتُ وقتذاك في منزله، فشقة سارة كانت، لسوء حظي، صغيرة جدًا)، وفي بيروت، «المعهد الألماني للأبحاث الشّرقيّة» التابع لـ«الجمعية الشّرقيّة الألمانية» الجليلة التي ترْأسُها الباحثة في علوم القرآن أنغيليكا نويفرت الجليلة هي أيضًا. كان بيلغر عثر في دمشق على رفيق من أيام «بون»: شتيفان فيبر المختصّ بالفن والعمران العثمانيّين، والذي لم التَقِه مجددًا منذ زمن طويل؛ هل ما زال يرأس قسم الفنون الإسلامية في متحف «بيرغامون» ببيرلين يا ترى؟ كان فيبر قد استأجر بيتًا من الطراز العربي في قلب الجزء القديم من المدينة، في زقاق من الحيّ المسيحي المحاذي لباب توما؛ وكان هذا المنزل الدمشقي التقليدي المزود بإيوان، وباحة كبيرة، ونافورة ماء من الحجر الأسود والأبيض، وممشى داخلي في الطبقة الأولى، يثير حسد سائر جماعة

المستشرقين. مثلها مثل الجميع، كانت سارة تعشق شتيفان فيبر هذا الذي يتكلم بعربية ممتازة، والتي كانت معرفته بالهندسة العثمانية مُدهشة للغاية - جلبت له هاتان الميزتان غيرة وعدواة بيلغر الذي لم يكن أبدًا يحتمل أي نوع من المنافسة في مجالي الكفاءة والمقدرة على الإبهار. شقة بيلغر كانت على صورته: مُبهرجة وتنم عن بذخ مفرط. كانت تقع في «الجسر الأبيض»، وكان هذا الحيّ المُترَف عند بداية منحدرات جبل قاسيون، والقريب جدًّا من القصر الرئاسي ومنازل كبار شخصيات النظام، قد سُمّيَ نسبة إلى جسر يمتد فوق أحد أذرع نهر بردى يُستخدم عمومًا للتخلص من النفايات المنزلية أكثر من استخدامه لركوب زوارق التجديف، غير أن ضِفّتَيه الضيّقتين والمزروعتَيْن أشجارًا كانتا ستصلحان للتنزه لو أنهما زُوِّدتا برَصيفَيْن جديرَيْن بهذا الاسم. التصميم الداخلي لـ«قصر بيلغر» كان يتبع بشكل كامل الموضة السعودية أو الكويتية: كلّ شيء، من مقابض الأبواب إلى الحنفيات، مَطليٌ بلون ذهبي؛ السقوف ترزح تحت ثقل الزخرفات من طراز «الروكوكو»؛ الأرائك مكسوة بأقمشة سود وذهب. كانت غرف النوم مُجهزة بمنبهات على شكل المسجد النبوي تزعق بصوت الأذان عند الفجر في حال نَسَيْتَ أن تفصلها عن الكهرباء. كان ثمة صالونان، وصالة طعام تتوسطها طاولة (هي الأخرى سوداء وذهبية، تكسو أرجلها البرّاقة زخرفات على شكل ورق النخيل) تتسع لعشرين ضيفًا، وخمس غرف نوم. وإن حدث وأخطأ المرء فأشعل مفتاح إنارة بدلًا من آخر خلال الليل، كانت عشرات من مصابيح الـ«نيون» على شكل أنابيب، ترسل أضواءها الخضر الباهتة في كلّ أرجاء الشقة وتملأ الجدران بأسماء الله التسعة والتسعين، معجزة كانت تخيفني كثيرًا لكنّها تحمل بيلغر على الابتهاج: «ما من شيء أجمل من رؤية التكنولوجيا في خدمة

الكيتش». كانت الشرفتان الواسعتان تطلّان على مشهد بديع للمدينة ولغوطة دمشق، وكان تناول طعام الإفطار أو العشاء على إحدى هاتين الشُرفَتَيْن، عندما يهبُّ نسيمٌ مُنعش، متعة خالصة. وإلى جانب الشقة والسيارة، كان عتاد بيلغر يتضمّن طبّاخًا ورجلًا متعدد المهام؛ الطبّاخ يأتي ثلاث مرات في الأسبوع لتحضير طعامٍ لحفلات العشاء والسهرات التي يقيمها الأمير بيلغر على شرف ضيوفه؛ أما حسن، الرّجل المتعدد الوظيفة (عشرون سنة، مُضحك بعض الشيء، نشيط وخفيف الظل، من أكراد القامشلي حيث عثر عليه بيلغر في أحد مواقع التنقيب عن الآثار)، فينام في غرفة صغيرة خلف المطبخ ويقوم بالأعمال المنزلية، التبضّع، التنظيف، الغسيل؛ وبما أن سيّده (أجد صعوبة في قول: «ربّ عمله») غالبًا ما يغيب عن المنزل، كان حسن يملك كثيرًا من وقت الفراغ؛ كان يدرس اللغة الألمانية في «معهد غوته»، وعلم الآثار في جامعة دمشق، وقد شرح لي أن بيلغر الذي يجلّه حسن وكأنه نصف إله، عرض عليه هذه الوظيفة في منزله ليتيح له متابعة علمه في العاصمة. وخلال فصل الصيف، موسم التنقيب في المواقع الأثرية الكبيرة، كان هذا الطالب الودود والخادم المتعدد الوظيفة يعود إلى مزاولة مهنته كحفّار، فيرافق مُعَلمه إلى مواقع الجزيرة الفراتية حيث كان ينكبّ على الرفش بطبيعة الحال، لكنّه كان يشارك في فرز الخزفيات وفي رسمها أيضًا، مهمةٌ تسِرُّه للغاية، أتقنها كامل الإتقان: من أوّل نظرة، وعبر مُعاينة الكِسَر الدقيقة للغاية، كان يُمَيِّز الفخار الروماني، والفخار الذي لا قيمة له، والخزف الإسلامي المُزجج. ودائمًا ما كان بيلغر يصطحبه معه في جولاته للبحث عن مواقع تنقيب جديدة على تلال عذراء، فيثير هذا التقارب بينهما النميمة - أذكر تبادل غمزات مليئة بالإيحاءات البذيئة حين كان يرد ذكرهما، أذكر عبارات على شاكلة «بيلغر وتلميذه» أو حتّى «بيلغر

العظيم وغلامه»، وذلك على الأرجح لأن حسن كان، بشكل موضوعي، يافعًا ووسيمًا جدًا، ولأن الاستشراق على صلة أكيدة ليس بالمثلية فقط، بل أيضًا، على نطاق أوسع، بالسيطرة الجنسية التي يمارسها الأقوياء على الضعفاء، أو الأغنياء على الفقراء. يبدو لي اليوم أن بيلغر، على عكس آخرين، لم يكن معنيًا بامتلاك جسد حسن وبالتمتع به؛ فما كان يثير اهتمامه، صورةُ الباشا الثري وفاعل الخير الكلي القدرة التي يعكسها له سخاؤه - خلال الأشهر الثلاثة التي أمضيتُها في شقته بدمشق، لم أشهد أبدًا أي نوعٍ من الحميمية الجسدية بينهما؛ وكنتُ كلما سُنحَت لي الفرصة، أُكَذِّب الإشاعات التي تسري حولهما. بيلغر كان يريد أن يتماثل مع علماء آثار الأيام الغابرة، مع شليمان وأوبنهايم وديولافوا؛ ما من أحد أيقن وقتذاك، أو كان في مقدوره ذلك، إلى أي حد آلت هذه الأحلام إلى شكل من أشكال الجنون، جنونٌ طفيف بالطبع، مقارنةً بما وصلت إليه حالته لاحقًا، بيلغر أمير علماء الآثار كان مجنونًا وديعًا وها إنه اليوم مجنونٌ معتوه. الآن، عند التفكير بالأمر، أعتقد أن مصيره كان حُسِم منذ دمشق، منذ أن تملّكه هوس الإسراف والكَرَم والترف: أعلَمُ أنه على الرغم من راتبه الخيالي، عاد إلى «بون» غارقًا في الديون، وكان يفتخر بذلك، يفتخر بأنه، على حد قوله، تخلّص من كلّ شيء، بذّر جميع أمواله على السهرات الباذخة، على رواتب رفاقه في السوء، على صنادل شرقية عجيبة وغريبة، على السجاد العربي وحتى على آثار مُهرَّبة، عملات قديمة، هيلينية وبيزنطية بشكل خاص، كان يشتريها من باعة أثريات في حلب على العموم. مثل شليمان، كان يُري ضيوفه كنوزه، لكنّه لم يكن يسرقها من مواقع التنقيب - كان، حسب قوله، يكتفي «باستعادة» هذه الأغراض المتداولة في السوق «كي لا تضيع إلى الأبد». كان يقوم بواجب الضيافة على أتم وجه،

فينطلق في شروحات حول هذه العملات، يروي لزُوّاره سِيَر الأباطرة الذين أمروا بصَكّها من أمثال فوقاس وكومنينوس، يُعطي أسماء مصادرها المُحتملة، وهي في أغلب الأحيان إحدى «المُدن المَنسية» الكائنة في شمال سورية؛ وكان حسن هو المسؤول عن حفظ هذه الروائع البرّاقة والاعتناء بها؛ كان يُلمّعُها ويصفّها بتناسق على وحدات العرض المكسوة بالجوخ الأسود، من دون أن يعي الأخطار التي يُعرِّض نفسه لها: إن أسوأ ما كان يمكن أن يلحق ببيلغر هو الفضيحة، أو الطرد ومصادرة ألعابه الباهظة الثمن هذه، لكن حسن كان، في حال تم إلقاء القبض عليه، سيُوَدِّع دراسته، أو حتّى إحدى عينيه، وبضعة من أصابعه، وبراءته.

كان في خطابات بيلغر شيءٌ قبيح وفاحش، إذ يبدو حينئذٍ كأنه ناشط بيئي يشرح، بإيماءات مهيبة، لماذا وكيف تجب المحافظة على الحياة البريّة، بينما هو مُلتحف بمعطف من فرو الثعلب أو القاقم. ثمة سهرة سكر مخزية للغاية، أحس خلالها جميع الحاضرين (باحثين وديبلوماسيين يافعين) بحرج مُرعِب وسط الأرائك السود وأضواء الـ«نيون» الخضر، حين راح بيلغر المنتصب وسط ضيوفه المُتحلّقين حوله في نصف دائرة، يتلو، وقد ثَقُل لسانه من الكحول، وصاياه العشر المتعلقة بعلم الآثار، وهي بمثابة أسباب موضوعية تمامًا تجعل منه أكثر الباحثين الأجانب كفاءة في سورية، وتشرح كيف أن العلم سيحقق «قفزة كبيرة» بفضله هو - حسن الجالس أرضًا عند قدميه، كان يرمقه بنظرات إعجاب؛ وكانت كأس الويسكي الفارغة في يد بيلغر، تهتزّ نتيجة حماسته، فتندلق منها بين الحين والآخر، بضع قطرات من ماء مكعبات الثلج الذائبة، على الشعر البنيّ للشاب السوري، معمودية وثنية مريعة لم يكن يلحظها حسن التائه في تأمّل وجه مُعلّمه، موليًا كامل تركيزه لفهم إنكليزية بيلغر المُنمّقة إلى حدّ

الغطرسة. لقد رويت هذا المشهد التوراتي لسارة التي لم تكن حاضرة خلاله، فلم تصدقني؛ على عادتها، ظنَّتْ أنني أبالغ، ووجدتُ صعوبة كبيرة لإقناعها بأن القصة هذه حدثت بالفعل.

يبقى أننا نُدين لبيلغر برحلات رائعة إلى الصحراء، بخاصة بليلة قضيناها في خيمة بدويين بين تدمر والرصافة، ليلة سماؤها صافية للغاية ونجومها كثيرة كثيرة لدرجة أنها كانت تصل إلى مستوى الأرض، أدنى ممّا يمكن العينين إبصاره، ليلة أتخيّلُ أن البحارين وحدهم يختبرون مثلها خلال فصل الصيف، عندما يكون البحر هادئًا كبادية الشام. لقد سُرَّت سارة كثيرًا بهذه الفرصة التي أتيحت لها بأن تختبر، مع تعديلات طفيفة فقط، المغامرات التي عاشتها آنا ماري شفارتسنباخ أو مارغا داندوران في بلاد الشام قبل ستين عامًا؛ سارة كانت هنا لهذا السبب تحديدًا؛ وقد أسرّت لي في بار فندق «بارون» الحلبي، بأنها أحسّتْ بما كتبته آنا ماري إلى كلاوس مان في ٦ كانون الأول ١٩٣٣، عندما كانت السويسريّة المُغامِرة في هذا المكان ذاته:

غالبًا ما ينتابني خلال هذه الرحلة الغريبة، ربّما بسبب التعب، أو حين أشرب كثيرًا من الكحول، إحساسٌ بأن كلّ شيء صار ضبابيًا: لا يبقى شيء من البارحة؛ كلّ الوجوه تختفي. إنه فزع رهيب، لكنّه نوع من الحزن أيضًا.

ثم تستحضر آنا ماري في رسالتها، إيريكا مان «القاسية» التي تقف وسط هذا الخراب الأليم؛ هي تعتقد أن شقيق إيريكا على دراية بالدور الذي تلعبه الأخيرة في هذا الأسى - لا خيار أمام آنا ماري إلا مواصلة السفر، فما من مكان لتذهب إليه في أوروبا. عائلة مان هي الأخرى ستجد نفسها مضطرة إلى أخذ طريق المنفى الذي سيوصلها إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤١، ولا شك في أن آنا ماري

شفارتسنباخ، لو استطاعت أن تعقد عزيمتها على التخلي عن وهمها السويسري وعلى الهرب من سلطة والدتها، لما كانت ستتعرض لهذا الحادث الأحمق على الدراجة الهوائية الذي كلّفها حياتها عام ١٩٤٢ وجمّد صورتها في فتوة أبدية وهي في الرابعة والثلاثين من عمرها - كانت في الخامسة والعشرين خلال هذه الرحلة الأولى إلى الشّرق الأوسط، في عمر سارة تقريبًا. ذلك المساء الأول في حلب، وبعد تسلُّمِنا غرفتيْنا ثمّ احتفالنا باكتشاف استمارة وصول آنا ماري في سجلات الفندق، ذهبنا لتناول طعام العشاء في حي الجديدة المسيحي الكائن في المدينة القديمة، حيث كان يُعاد ترميم البيوت الأثرية شيئًا فشيئًا لتحويلها فنادق ومطاعم فاخرة - أقدمها وأشهرها، وهو يقع في بداية زقاق ضيّق يفضي إلى ساحة صغيرة، كان اسمه «السيسي هاوس»، ما أضحك سارة كثيرًا، قالت لي «أيها المسكين، إن فيننا وفرانتس جوزيف[1] يُلاحقانك، ليس باستطاعتك أن تفعل شيئًا حيال ذلك»، وأصرّت على أن نتناول العشاء في هذا المطعم: عليّ الاعتراف بأنه على الرّغم من أنني لست شخصًا يمكن نعته بالمنغمس في حياة الترف والملذات، فإن الجوّ، والطعام، والنبيذ اللبناني الممتاز (وتحديدًا برفقة سارة التي كانت باحة المطعم الداخلية من الطراز العثماني، والحجر، والأقمشة، والمشربية الخشب، تُضفي رونقًا خاصًا على جمالها) قد رسّخت هذه الأمسية في ذاكرتي؛ كنا بمثابة أمير وأميرة أوروبيَّيْن يستضيفهما الشّرق، يحتفي بهما ويدللهما، وكان كلّ ذلك يتطابق مع الصورة التي رسمناها في شبابنا عن أسطورة الشّرق، كأننا عثرنا أخيرًا على أراضي ألف ليلة وليلة

(١) إليزابيت إمبراطورة النمسا (١٨٣٧-١٨٩٨)، المُلقبة بـ«سيسي»، كانت زوجة الإمبراطور فرانتس جوزيف.

الضائعة التي عادت لتظهر من أجلنا فقط: ما من أجنبي خلال بداية الربيع هذا، ليفسد علينا هذا الإحساس بالحصرية؛ إقتصر الزبن الآخرون على عائلة حلبيّة ثرية تحتفل بعيد ميلاد جَدٌّ جليل، كانت نساؤها اللواتي يرتدين الحُلي وقمصانًا من القماش الأبيض المُخرَّم تحت سترات مُتقشّفة من الصوف الأسود، يبتسمن لسارة باستمرار.

بدا لنا الحُمّص والمُتبّل والمشاوي، أطيب من المأكولات ذاتها في دمشق، كأنها صارت أسمى وتحوّلت إلى شيء مختلفًا تمامًا؛ كان السجق وحشيًّا أكثر، البسترما عَبِقًا أكثر، ونبيذ البقاع مُسكرًا أكثر من العادة.

عدنا إلى الفندق عبر الطريق الأطول، كانت العتمة تلف الأزقة والبازارات المُغلقة - الحرب تنهش اليوم هذه الأمكنة التي تحترق أو قد احترقت، تشوّهت مصاريع المحال الحديد من حرارة النيران، إجتاحت الأبنيةُ المنهارة ساحةَ كنيسة «مار الياس» ذات البرجَيْن من القرميد الأحمر، تلك الكنيسة المارونية المُدهشة التي دمَّرتها الانفجارات: هل ستستعيد حلب بهاءها في يوم من الأيام، ربما، لا أحد يعلم، لكنّ سفرتنا تلك صارت الآن حُلمًا مُزدوجًا، ضائعة في الزمن، ضائعة تحت الأنقاض. حلمٌ برفقة آنا ماري شفارتسنباخ ولورنس العرب وجميع نزلاء فندق «بارون»، الأموات المشهورون والمنسيون الذين كنا ننضم إليهم في البار، على الكراسي المستديرة، المكسوة بالجلد والبلا ظهر، أمام منافض طبعت عليها علامات تجارية، وحزامي الصيد الغريبَين؛ حلمٌ تتذبذب فيه الألحان الحلبية، والأناشيد، وموسيقى العود والقانون - أجدى لي أن أفكر في شيء آخر، أن أغيّر وضعيّتي في السرير، أن أغفو لكي أمحوَ كلّ شيء، حلب وفندق «بارون» والقذائف وسارة؛ سأحاول عوضًا عن ذلك، عبر نقل رأسي إلى الطرف الآخر من الوسادة، أن أنضم إلى سارة في

ساراواك، ذاك المكان الغامض والتائه بين أدغال جزيرة «بورنيو» وقراصنة بحر الصين الجنوبي.

وحده الله يعلم عبر أي تداعٍ للأفكار تسلل هذا اللحن الآن إلى رأسي: حتّى عندما أغلق عينيّ محاولًا التنفس بعمق، لا يكفّ دماغي عن العمل، فتروح علبتي الموسيقية الداخليّة تلعب لحنها رغمًا عني، هل هذا أحد مؤشرات الجنون، لست أدري، أنا لا أسمع أصوات بشر، أسمع فرق أوركسترا وآلات عود وأناشيد؛ هي تزدحم في أذنيّ وفي ذاكرتي، تندلع لوحدها، متى تشاء، كأن خمود هيجان ما يليه فورًا اندلاعُ آخر كان مضغوطًا تحت الأول، فيجتاح بدوره وعيي - أعلم أن اللحن هذا مقطع من سيمفونية «الصحراء» لفيليسيان دافيد، أو هكذا أعتقد، إنه فيليسيان دافيد على الأرجح، أوّل موسيقي أوروبي كبير كان مستشرقًا، لقد نُسِيَ مثل جميع من كرّسوا أنفسهم بالكامل للروابط التي تجمع بين الشّرق والغرب، ولم يكترثوا بتاتًا لمعارك وزارات الحرب والمستعمرات، نادرًا ما يتم أداء موسيقاه أو تسجيلها في يومنا هذا، بالرّغم من أن مُلحني عصره كانوا يعشقونه ويعتبرون أنه «كسر شيئًا ما»، أنه خلق «دويًا جديدًا، نوعيّة صوت جديدة»، فيليسيان دافيد المولود في جنوب فرنسا، في «فوكلوز» أو «روسيليون»، والذي توفيَ (أنا مُتأكد من ذلك، إنه أمرٌ غبيٌ كفاية حتّى لا أنساه) في «سان جيرمان آن له»، بلدة شنيعة على مقربة من باريس، يرتبط تاريخها بقصر ذي طابع فرنسي للغاية، مُكتظ حتّى أعمدة نوافذه بالصوان المقصوص، فيليسيان دافيد هو الآخر مات من السلّ، كان أشبه بقديس، إذ إن سائر الـ«سان سيمونيين»[1]

(١) معتنقو الأيديولوجية المنسوبة إلى الفيلسوف الفرنسي كلود هنري دي سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥).

كانوا قديسين، مجانين، مجانين وقديسين، مثل إسماعيل أوربان، أول فرنسيّ جزائري، أو أول جزائري من فرنسا، الذي حان الأوان ليتذكره الفرنسيون، هو أول رجل، أول مستشرق عمل لإقامة «جزائر للجزائريين» منذ ستينات القرن التاسع عشر، فوقف في وجه المالطيين والصقليين والإسبان وأهل مرسيليا الذين شكّلوا نواة حركة الاستيطان الزاحفة على الدروب التي شقتها الجزمات العسكرية: كان نابليون الثالث يأخذ بآراء إسماعيل أوربان، فكان يمكن مصير العالم العربي أن يكون مُختلفًا عما هو عليه الآن، إلا أن الساسة الفرنسيين جبناء ماكرون يستهويهم خصوصًا تأمل «فرفوراتهم» في المرآة، وتوفيَ إسماعيل أوربان، صديق عبدالقادر الجزائري، ولم يعد في الإمكان فعل شيء، لقد استولى الغباء على السياسات الفرنسية والبريطانية التي غاصت عميقًا في مستنقع الظلم والعنف والتخاذل.

وفي الأثناء، كان هناك فيليسيان دافيد وديلاكروا ونيرفال، جميع الذين زاروا واجهة الشّرق، من «الجزيرة الخضراء» إلى إسطنبول، أو فنائه الخلفي، من الهند إلى كوشين-الصين[١]؛ وفي الأثناء، كان الشّرق هذا قد أحدث ثورة في الفن والأدب والموسيقى، خصوصًا في الموسيقى: فبعد فيليسيان دافيد، لا شيء سيبقى كما من ذي قبل؛ هذه مجرد تمنيات، أنتَ تُبالغ، قد تقول سارة، لكنني والله قد برهنتُ كلّ ذلك، كتبتُ عن كلّ ذلك، أبَنْتُ أن الثورة التي حدثت في الموسيقى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين تُدِين بكل شيء إلى الشّرق، أن الأمر لم يقتصر على بعض من «الأساليب الإكزوتيكية» كما كان يُعتقد سابقًا، أن الإكزوتيكية كان لها معنى، أنها أدخلت

---

(١) فيتنام الحالية.

عناصر خارجية، شيئًا من الغَيْريّة، أنه كان ثمة تيار واسع يضم، من بين آخرين، موتزارت وبيتهوفن وشوبرت وفرانتس ليست وبرليوز وبيزيه وريمسكي كورساكوف وديبوسي وبارتوك وهندميث وشونبرغ وشيمانوفسكي، مئات من المؤلفين من كلّ أنحاء أوروبا، لقد هبّت رياح الغيريّة على كلّ أوروبا، فأخذ هؤلاء العظماء يستخدمون ما يأتيهم من «الآخر» لتغيير «الذات»، لتهجينها، فالعبقرية تصبو إلى الهجنة، إلى استخدام أساليب «الآخر» لزعزعة استبداد التناغم وأناشيد الكنائس، لماذا أثير سخطي بنفسي الآن ورأسي على الوسادة، لا شك لأنني باحث أكاديمي مسكين كتبَ أطروحة لم تلقَ أي نجاح ولم يكن لها أثر على أحد. لم يعد أحد، في يومنا هذا، يهتم بفيليسيان دافيد الذي ذاع صيته بشكل منقطع النظير في ٨ كانون الأول ١٨٤٤ بعد العرض الأول لـ«الصحراء» في الكونسرفتوار بباريس، هذه القصيدة-السيمفونية من ثلاثة أجزاء التي يؤديها ساردٌ، و«تينور» منفرد، وجوقة من الرجال، وأوركسترا، والتي استلهمها المُلحِّن من ذكريات رحلته إلى الشّرق حيث جال بين القاهرة وبيروت؛ هناك في الصالة برليوز وتيوفيل غوتيه وجميع الـ«سان سيمونيّون»، من ضمنهم برتلمي أنفانتان، زعيم الديانة الجديدة الذي ذهب إلى مصر بحثًا عن زوجة لتخصيبها، عن مسيحٍ امرأة، لكي يُصلح بهذه الطريقة بين الشّرق والغرب، لكي يجمع بينهما في جسد واحد، وسوف يقدّم أنفانتان مُخططًا لشقّ قناة السويس وآخَر لإنشاء خطّ السكة الحديد في ليون، سوف يسعى إلى إثارة اهتمام النمسا ومترنيش العجوز بمشاريعه الشّرقيّة، لكن من دون جدوى، إذ إن رجل الدولة هذا لم يستقبله، متأثرًا بمؤامرة كاثوليكية وبرغم نصائح هامر-بورغشتال الذي رأى في هذه المشاريع فكرة عبقرية لإدخال الإمبراطورية النمساوية إلى الشّرق. إن برتلمي أنفانتان، هذا الفاسق

الصوفي الكبير، المعلّم الرّوحيّ الأول على الطريقة الحديثة والمُقاول النابغة، جالسٌ في الصالة إلى جانب برليوز الذي لا يُخفي ميوله للجوانب الاجتماعية من العقيدة الـ«سان سيمونية».

الصحراء تغزو باريس - «ثمة إجماع على أن هذه هي أروع عاصفة نسمعها في الموسيقى، فما من مؤلف ذهب أبعد من ذلك»، كتب تيوفيل غوتيه في صحيفة «لا بريس»، واصفًا الإعصار الذي انقضّ على القافلة في الصحراء؛ وفي هذه السيمفونية، كانت أوّل رقصةٍ للمحظيات الشّرقيات - نعلم مدى الرواج الذي سيلاقيه لاحقًا هذا الموضوع الإيروسيّ في الموسيقى والفن والأدب - وأوّل أذان يصدح في باريس: «إن ما نسمعه في هذه الساعة المُبكرة هو صوت المؤذن»، كتب برليوز في صحيفة «لي ديبا» في ١٥ كانون الأول، «لم يلجأ دافيد إلى أي نوع من المحاكاة، بل اكتفى بإعادة تنظيم العناصر الأصلية فقط: لقد محا ذاته تمامًا كي يُسمعنا نشيد المؤذن في غُربه الغريب، وباللغة العربية. تنتهي الجملة الأخيرة من هذه الصرخة بسُلّمٍ موسيقي مكوّن من مسافات أصغر من أنصاف الأبعاد، جملة فاجأتْ الجمهور كثيرًا، بالرّغم من أن السيّد بيفور أبدى براعة كبيرة في أدائه إياها. السيّد بيفور كونترالتو[١] حقيقي، كونترالتو نسائي (هو أب لثلاثة أطفال)، وقد أربك صوته الغريب المستمعين بعض الشيء، أو بالأحرى دلّهم على الطريق الصحيح عبر استثارة خيالات على علاقة بحريم الملوك والسلاطين، إلخ. وبعد نداء المؤذن، تستأنف القافلة مسيرها، تبتعد وتختفي. وتبقى الصحراء وحدها». الصحراء دائمًا تبقى وحدها، وقد لاقت هذه القصيدة-السيمفونية نجاحًا هائلًا حدّ أن دافيد قام بعرضها في أوروبا كلها،

(١) نوع من الأصوات الغنائية.

بخاصةً في ألمانيا والنمسا حيث كان الـ«سان سيمونيّون» يحاولون توسيع نفوذهم، مجددًا من دون جدوى؛ سيلتقي فيليسيان دافيد بمندلسون في السنة التالية، وسيقود في كانون الأول من العام ذاته، أربع حفلات موسيقية، في فرانكفورت، في بوستدام أمام البلاط البروسي، في ميونخ وفي فيينا، نجاحٌ باهرٌ أيضًا، سيشهد عليه، بالطبع، هامر-بورغشتال الذي سيشعر عندذاك، وفق ما قال، بشيء من الحنين إلى هذا الشّرق الذي أضحى الآن بعيدًا كلّ البعد منه.

نستطيع طبعًا أن نلوم دافيد على عدم دقّته في تدوين الإيقاعات العربية، لكن لوم كهذا بمثابة تغافُل عن أن المؤلفين العثمانيين أنفسهم وجدوا صعوبات في نقل إيقاعاتهم إلى نظام التدوين «الغربي»؛ هُم، مثل دافيد، يميلون إلى تبسيطها، وسينبغي انتظار بيلا بارتوك ورحلته إلى تركيا ليصبح هذا التدوين أكثر دقة، حتّى لو أن فرانسيسكو سلفادور دانيال العظيم، تلميذ فيليسيان دافيد، أستاذ الكمان في مدينة الجزائر، وأول عالمِ موسيقى إثنية كبير، كان في الأثناء، قد ترك لنا «ألبوم أغاني عربية وأمازيغية وقبائلية» رائع: سيعيد ريمسكي كورساكوف استخدام هذه الألحان التي أهداه إياها بورودين، في عدة من أعماله السيمفونية. إن فرانسيسكو سلفادور دانيال، هذا الإشتراكي الذي لعب دورًا في «كومونة»[1] باريس، وصديق غوستاف كوربيه وجول فاليس، ومدير الكونسرفتوار وقت الحكومة الثورية، سيُعدم برصاص الجيش النظامي، إذ أُلْقِيَ القبض عليه حاملًا السلاح على أحد المتاريس، بعد أن كان قد استَبدَل كمانه ببندقية - ما من قبر لفرانسيسكو سلفادور دانيال في هذه الدنيا،

(١) «كومونة» باريس اسم يُشير إلى انتفاضة شعبيّة كما إلى الحكومة الثوريّة التي نتجت من هذه الانتفاضة وأدارت باريس لمدة شهرين خلال عام ١٩٧١

لقد مات في الأربعين من عمره ونُسِيَ بالكامل مذّاك، في فرنسا وإسبانيا والجزائر، ما من ضريح له سوى أثر ألحانه في أعمال ماسينيه وديليب وريمسكي، أعمالٌ لا شك أكثر اكتمالًا، لكنّها ما كانت لتوجد لولا المادة الأولية التي زودهم بها فرانسيسكو سلفادور. متى سيُنتَشَل هؤلاء الأشخاص من هوّة النسيان يا ترى؟ متى سيُعطون حقّهم؟ جميع من كرسوا حياتهم، يدفعهم ولعهم بالموسيقى، لدراسة الآلات والإيقاعات والمقامات العربية أو التركية أو الفارسية؟ أطروحتي ومقالاتي: مقبرة لفيليسيان دافيد، مقبرة لفرانسيسكو سلفادور دانيال، مقبرة مظلمة للغاية، حيث لن يُزعج شيءٌ سباتَهم الأبدي.

الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والخمسين ليلًا

أفضّل أن أكون في سريري مغمضًا عينيّ في العتمة ممددًا على ظهري ورقبتي تلامس وسادة طريّة ناعمة على أن أكون في الصحراء، حتّى لو برفقة فيليسيان دافيد. حتّى لو برفقة سارة، فالصحراء مكان غير مريح بتاتًا، وأنا لا أتحدث هنا عن الصحراء الرملية حيث يبتلع المرء حبيبات الرّمل طوال النهار، طوال الليل، إنها تتسلّل إلى داخل كلّ فتحة من فتحات الجسم، إلى داخل الأذنين والمنخرَيْن وحتى إلى داخل السّرة، بل عن الصحراء الحجرية على الطريقة السورية، صحراء الحصى والوعر والجبال الصخر والركام، تتخللها، هنا وهناك، واحات حيث لا ندري من أين تنبثق التربة الحمراء، فتكتسي البادية عندئذٍ بالحقول، بقمح الشتاء والنخيل. وتجدر الإشارة إلى أن استخدام كلمة «الصحراء» في سورية غير دقيق بتاتًا، إذ ثمة أناسٌ حتّى في المناطق النائية وأكثرها عزلة، بدو أو جنود، وكان يكفي أن تتوقف امرأة للتبوّل خلف تلّ صغير على قارعة الطريق حتّى يظهر بدويٌّ من العدم ويروح، بسأم ولامبالاة، يتفرج على المؤخرة الحليبية لهذه المسافرة الأوروبية، وهو ما حصل لسارة التي رأيناها تركض باتجاه السيارة بملابسها المهلهلة، ممسكة سروالها بإحدى يديها كأنها رأت لتوها غولًا. في بادئ الأمر، ظننتُ أنا وبيلغر أن ضبعًا، أو ثعبانًا أو عقربًا، قد انقضّ على مؤخرتها، لكن بعد زوال

خوفها، شرحتْ لنا وهي تقهقه عاليًا أنها لمحت كوفيّة حمراء وبيضاء خلف حجر، ثمّ أبصرت أن تحت الكوفية، ثمّة بدويًا شديد السمرة، يقف مكتوف اليدين، من دون أي تعبير على وجهه، يراقب بصمت ما كان على الأرجح يبدو له، هو الآخر، ظهورًا غريبًا، امرأة مجهولة تجلس القرفصاء في صحرائه. فعلًا شخصيةُ رسوم متحركة، قالت سارة ضاحكةً وهي ترفع سروالها الداخلي في المقعد الخلفي، لقد تملّكني ذعر رهيب، فأضاف بيلغر بشيء من التباهي: «إن هذه المنطقة مأهولة منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد، وها قد رأيتِ لتوّكِ الدليل على ذلك».

لكن، كنا لا نبصر حولنا سوى كيلومترات من الغبار تحت سماء حلبية - كنا بين تدمر ودير الزور، على الطريق الممتد إلى ما لا نهاية والذي يصل أشهر مدينة أثرية في سورية بنهر الفُرات المُحَصّن بالقصب المُنتشر بكثافة على ضفافه؛ وكنا في رحلتنا الاستكشافية هذه، نسير على خطى آنا ماري شفارتسنباخ ومارغا داندوران، ملكة تدمر المُريبة التي أدارت «فندق زنوبيا» وقت الانتداب الفرنسي على سورية، ذاك الفندق المحاذي لآثار مدينة القوافل التجارية، على مقربة من الأعمدة المُحطَّمة والمعابد التي، عند الغروب، يصطبغ حجرها الأملس باللون الأحمر. تدمر التي يُشرِف عليها جبل صخري تُتَوِجه قلعة عربية قديمة تعود إلى القرن السادس عشر، قلعة فخر الدّين المعني. كان المشهد المُطل على الموقع الأثري وواحة النخيل والأبراج الجنائزية يقطع الأنفاس حدّ أننا قررنا، نحن وزمرة من المستشرقين اليافعين من دمشق، أن نخيّم هناك. كجنود أو مستوطنين أو علماء آثار من الأزمنة الغابرة، ومن دون أن نعبأ بالقوانين ولا بسبل الراحة، إعتزمنا (وقد دفعنا إلى ذلك بيلغر وسارة: فكلاهما، لأسباب مختلفة تمامًا، كانا مُتحمسَيْن جدًّا لهذه الرحة الاستكشافية)

أن نمضي ليلتنا داخل الحصن القديم أو في باحته الخارجية، ومهما يكن رأي الحرّاس في ذلك. إن هذا القصر المُتراص والمُنكمش على نفسه مثل كتلة من الـ«ليغو» الداكنة، لا تتخلله أي كوّة ما عدا مزاغل رماية لا تُرى من بعيد، ويبدو غير متوازن تمامًا على رأس المُنحدر الوعر. وإن نظرنا إليه من الموقع الأثري في الأسفل، لظننا أنه مائل ويهدد، في حال هبوب عاصفة أعتى من المعتاد، بالانزلاق على الحصى ليصل أخيرًا، كولد على مزلاجه، إلى المدينة - لكن كلما دَنَوْنا منه أكثر، راحت الدرب تلتفّ أكثر فأكثر كشريط حول الجبل، وصار البناء هذا يتخّذ أكثر، في عيون المسافرين، مقاييسه الفعلية: قلعةٌ شامخة بحجمها، يحميها من جهة الشّرق خندق عميق؛ حصن مهيب ذو زوايا ناتئة مميتة، لا ترغبْ بتاتًا في أن تكون جنديًا أوكِلت إليه مَهمّة الاستيلاء عليه. كان فخر الدّين الثاني، أمير لبنان الدرزي، على دراية واسعة بالعمارة الحربية - كان هذا الشيء يبدو منيعًا لا يمكن اقتحامه إلا بواسطة الجوع والعطش: يتخيّل المرء حرّاس القلعة على رأس جبلهم، محاصرين، يائسين، وقد فقدوا كلّ أمل بربّهم، يتأملون نضارة الواحة التي يرسم نخيلُها بحيرةً خضراء خلف آثار المدينة القديمة.

المشهد كان سحريًا - كان ضوء الشمس عند الشروق والغروب، يُلهبُ، وحدًا تلو الآخر، معبد بعل شمين، معسكر ديوقلسيان، الأغورا، المصلبة، وجدار المسرح الروماني، ومن السهل تَخَيُّل ذهول بريطانيي القرن الثامن عشر الذين اكتشفوا الواحة وأعادوا معهم أولى الرسومات التي تصوِّر تدمر، عروس الصحراء: ستُنْسخ فورًا هذه الصوَر وتُطبع في لندن، وستجتاح كلّ أنحاء أوروبا. حتّى أن بيلغر أخبرنا بأن هذه الرسومات هي أنموذج الكثير من الواجهات والأعمدة الـ«نيوكلاسيكية» المنتشرة وقتذاك في العمارة

الأوروبية: عواصمنا تدين بالكثير إلى تيجان الأعمدة التدمرية، وثمة شيءٌ من صحراء سورية يعيش متواريًا في لندن، في باريس أو في فيينا. أتخيّلُ أن اللصوص يمرحون اليوم كثيرًا وهم يفككون النقوش عن القبور ويستولون على التماثيل لبيعها إلى جامعي التُحف الهواة ولا شك في أن بيلغر كان هو الآخر، لولا جنونه، سيشتري بعضًا من هذا الفُتات المُختَلَس من الصحراء - وسط الكارثة السورية، حلّت القذائف والحفارات محلّ فرشاة عالم الآثار؛ يُحكى أن لوحات فسيفسائية تُنتَزَع بواسطة آلات ثقب الصخور، أن ثمّة تنقيبًا بالجرافات في «المُدن المَنسية» أو في مواقع الفرات الأثرية، وأن ما يُعثَر عليه يُعاد بيعه في تركيا أو لبنان: إن بقايا الأزمنة الغابر ثروة مدفونه تحت التراب، مورد طبيعي مثل البترول، وقد استُثمِرت دائمًا. في إيران، في المنطقة الجبلية المتاخمة لمدينة شيراز، عرض علينا شاب أضاع طريقه نوعًا ما، أن يبيعنا مومياء مصدرها محافظة لورستان، مومياء كاملة مع حليّها النحاس وقفصها الصدري وذراعيها - إستغرق الأمر بعض الوقت لنفهم ما كان يَعرِضُه علينا إلى درجة ما كان وقع كلمة «مومياء» شاذًا على الأذن في تلك القرية الجبلية، ما الذي تريد منا أن نفعله بمومياء، أجبتُه، «هي جميلة ومفيدة، ويمكنكَ بيعها إن كنتَ بحاجة إلى المال»: اقترح علينا الغلام (لم يكن قد تجاوز العشرين عامًا على الأغلب) أن يُسلمنا المومياء في تركيا، وبينما راح الحديث يطول ويطول، وجدتْ سارة طريقة ذكية لتخليصنا من هذا الشاب المُزعج : نحن نرى أن الآثار الإيرانيّة يجب أن تبقى في إيران، إيران بلد عظيم وهو بحاجة إلى كلّ آثاره، نحن لا نرغب في القيام بأي عمل قد يُضرّ بإيران، وقد نجح الماء البارد والوطني هذا الذي سكبته سارة على رأس عالم الآثار الهاوي، في إخماد حماسته وحمله على الإذعان حتّى لو لم يكن في

صميمه شديد الاقتناع بهذه الفورة الوطنية التي يُبديها أجنبيان. وبينما كنتُ أراقب الشاب يغادر الحديقة العامة حيث كان قد فاتحنا بعرضه، رحتُ للحظة، أتخيلُ المومياء، هذه الجثة الجليلة، تجتاز سلسلة «زاغروس» وجبال كردستان على ظهر حمار لتصل إلى تركيا ثمّ إلى أوروبا أو الولايات المتحدة: مسافرةٌ غير شرعية عمرها ألفا عام تسلك الطريق الخطر نفسه التي سارت عليها جيوش الإسكندر والعراقيون الهاربون من النظام.

على حد علمي أن ناهبي قبور سورية لا يعرضون مومياءات للبيع، بل حيوانات برونزية، أختامًا أسطوانية، مصابيح زيتية بيزنطية، صلبانًا، عملات قديمة، أصنامًا، منحوتات بارزة وحتى تيجانَ أعمدة - في تدمر، كان ثمّة الكثير من الأحجار القديمة لدرجة أن أثاث حديقة «فندق زنوبيا» كان مُكوَّنًا منها بشكل كامل: تيجان أعمدة للطاولات، أعمدة للمقاعد الطويلة، أحجار جدران لأحواض الزهور، كانت هذه الباحة تستعير ما تشتهيه من المواقع الأثرية المتاخمة لها. لقد بنى هذا الفندق ذا الطبقة الواحدة معماريٌ منسي، فرناندو دي أراندا، نجل الموسيقار الإسباني فرناندو دي أراندا الذي عمل في بلاط السلطان عبدالحميد الثاني وخَلَفَ دونيزيتي وأضحى قائد الأوركسترا الوطنية والفرق الموسيقية العسكرية: كان ثمة شيء من الوطن في تدمر إذًا، إذ كانت أصداء موسيقى العاصمة العثمانية تصلني عبر الصحراء. إن المسيرة المهنية لفرناندو دي أراندا الابن كانت كلها في سورية حيث توفي في الستينات من القرن العشرين. مُتَّبِعًا ما يمكن نعته بأسلوب «الفن الجديد مع لمسة استشراقية»، شيّد دي أراندا مباني عدة مهمة في دمشق، من ضمنها محطة الحجاز، ومبنى الجامعة، وعدد من البيوت الفخمة كما «فندق زنوبيا» في تدمر الذي كان يدعى وقتذاك فندق «كتانة» على اسم شركة الاستثمار التي

أوْكَلت إنجازه إلى النجم الصاعد في مجال العمارة الحديثة في سورية استباقًا لافتتاح المنطقة للمسافرين - توقّفَ العمل قبل الانتهاء من المبنى الذي تُرِكَ عندئذٍ في عهدة الحامية الفرنسية في تدمر (جنود، طيارون، ضباط صغار لا مستقبل لهم) التي كانت تُشرف على شؤون البدو وعلى المنطقة الصحراوية المترامية الأطراف المُمتَدّة حتّى العراق والأردن حيث كان البريطانيون يعيثون فسادًا. لقد اقتُطِع جناح كامل من هذا المبنى المتواضع الحجم أصلًا، ما جعله يبدو غريبًا بعض الشيء: هكذا، لم تعد القوصرة المزخرفة التي تعلو، هي وعمودها، الباب الأمامي، تسود على تناغم جليل، بل على بداية تجويف أقيمت فيه الباحة، وكان اختلال التوازن هذا يمنح العمارة هيئة رجل أعرج، فيتملككم شعور بالعطف أو بالاحتقار، حسب أيٍّ من الإحساسَيْن تستثيره فيكم هذه العاهة الجسدية. عطف أو احتقار يُضاعفهما داخلُ الفندق حيث كراسي القش الغريبة في الردهة، والغرف الضيّقة والخانقة التي أعيد تجديدها لاحقًا، لكن التي كانت جدرانها تعرض وقتذاك بتباهٍ، مُلصقات مُصفَرّة لوزارة السياحة السورية، إضافة إلى لوحات يتأكّلها الغبار، تُصور حياة البدو. كنتُ أنا وسارة، أمْيَل إلى العطف، هي بسبب آنا ماري شفارتسنباخ ومارغا داندوران، وأنا نتيجة سروري برؤية الهِبات غير المُتوقعة هذه التي قدّمها أستاذ الموسيقى العثماني إلى الصحراء السورية من طريق إبنه.

كان موقع «فندق زنوبيا» استثنائيًا: فمن جهة المدينة الأثرية، كنا نستطيع رؤية معبد بعل شمين الذي يبعد بالكاد عشرات من الأمتار، وإن حالفنا الحظ ونزلنا في إحدى الغرف الأماميّة، كنا ننام عندها وسط الآثارات إذا جاز التعبير، رؤوسنا تلامس النجوم، أحلامنا تغور في عمق الزمن، تُهدهدنا محادثات بعل، إله الشمس والندى،

مع عشتار، الإلهة التي تمتطي أسدًا. على هذا المكان كان يسود تموز، أدونيس الإغريق الذي كتب عنه بدر شاكر السياب أشعارًا؛ وكنتَ ستتوقّع أن تكتسي الواحة بشقائق النعمان الحمر المنبثقة من دم هذا الرّجل الذي كان جرمه الوحيد، إثارة ولع إلهات به.

لم يكن النزول في الفندق مطروحًا في ذلك اليوم، إذ كانت استحوذت علينا هذه الفكرة الغريبة بأن ننام في قلعة فخر الدّين للتمتع بجمال المدينة عند غروب الشمس وشروقها. طبعًا كنا لا نملك أيًا من معدات التخييم؛ كنتُ أنا وبيلغر كدَّسنا في سيارته الرباعية الدفع، خمس أو ست بطانيات لتحلّ محلّ الأفرشة وأكياس النوم، إضافة إلى وسادات وصحون وأدوات مائدة وكؤوس وزجاجات نبيذ لبناني وعرق وحتى منقل الشوي الصغير الذي كان على شرفة منزله. مَنْ شارك في رحلة التخييم هذه غير سارة وبيلغر؟ أتذكَّرُ مؤرخة فرنسية بشوشًا ذات شعر بني طويل، ورفيقها البشوش والبنيّ الشعر هو الآخر - لقد صار الآن صحافيًا في ما أعتقد، يعمل مع عدد من الوسائل الإعلامية الفرنسية ويجول في كلّ أنحاء الشّرق الأوسط: كان يحلم وقتذاك بمنصب رفيع في جامعة أميركية، وأظن أن سارة ما زالت على اتصال بهذين العشيقَين الودودَين اللذين يجمعان بين الوسامة والذكاء. إنه أمر حقًا غريب، وبالرّغم من كلّ شيء، أنني لم أحتفظ بأيٍّ من أصدقاء دمشق ما عدا سارة وبيلغر المجنون، لا الأصدقاء السوريين ولا المستشرقين، أعي الآن إلى أي حد كنتُ مُتطلّبًا، مُدّعيًا، لا أطاق، لحس الحظ أنني تحسنتُ كثيرًا مذّاك، لكن من دون أن يُتَرجَم ذلك، في ما يخصّ بناء صداقات جديدة، بحياة اجتماعية جامحة، عليّ الإقرار بذلك. لو أن بيلغر لم يصبح معتوهًا، لو أن سارة لم تكن بعيدة المنال، لشكّلا بالتأكيد صلة وصل مع هذا الماضي الذي يطرق بابي وسط الليل،

ترى ما كان اسما المؤرخَين العشيقَين، جان ربما، كلا، كانت تُدعى جولي وهو فرنسوا - ماري، أرى مجددًا وجهه النحيف، لحيته الداكنة، كان تناسق سمات وجهه لغزٌ حقيقي، إذ كانت روح دعابته ونظراته الماكرة تخفف من قساوة مجمل هيئته، الذاكرة هي الشيء الوحيد الذي لا أفتقر إليه ولا يتهاوى مثل تهاوي بقية جسمي - كنا ابتعنا لحمًا قبل الظهر من أحد لحامي مدينة تدمر الحديثة؛ كانت دماء خروفٍ ذُبِح قبل وقت قصير، تُبَقِّع الرصيف أمام الواجهة الزجاجية حيث تتدلى، من على خطّافات حديد، رئتا الحيوان، قصبته، قلبه؛ لم يكن في وسع أحد في سورية تناسي أن اللحم الطري الذي يُشْوَى على الأسياخ، مصدره أحد الثدييات الثاغية، المكسوة بالصوف، والمنحورة التي تُزَيِّن أحشاؤها واجهات بعضٍ من محال كلّ حيّ.

الله هو عَدوّ الخراف اللدود؛ لأي سبب رهيب يا ترى، يتساءل المرء، قرر الله لحظة التضحية استبدال ابن النبي ابراهيم بكبش بدلًا من استبداله بنملة أو بوَردة، فحكم على الخراف بمجازر فظيعة حتّى يوم القيامة. بالطبع كانت سارة (مصادفة توراتية ظريفة) هي من كُلّف المشتريات، ليس لأن منظر الدم والأحشاء الساخنة لم يكن يزعجها فقط، بل خصوصًا لأن معرفتها باللهجة المحلية، وجمالها الساحر، كانا يكفلان حصولها على بضائع ذي نوعية جيدة، وبسعر أكثر من معقول حين ندعها تدفع هي المال: لم يكن نادرًا أن يحاول أصحاب المحال المبهورون بتوهّج هذا الملاك ذي البسمة القرمزية والشعر الكستنائي المائل إلى الحمرة، استبقاءه لأطول وقت ممكن في متجرهم، خاصةً عبر رفضهم قبض ثمن السلع. كانت مدينة تدمر الحديثة، الواقعة في الجزء الشمالي من الواحة، مستطيلًا من البيوت الاسمنتية المُنخفضة، يحدُّه من جهتيّ

الشمال والشمال الشّرقي مطار وسجن شنيع مُرعب، الأشهر في كلّ سورية، سجنٌ أسود، أحمر كالدم، هما اللونان اللذان يرفعهما العلم السوري نذير شؤم، لونان بذلت عائلة الأسد كلّ ما في وسعها لتصبغ بهما أصقاع البلاد كلها: فالتعذيب يمارس بشكل يومي في زنازين النظام، حيث تُستخدم أشنع الأساليب القروسطية بطريقة ممنهجة، أمرٌ روتيني هدفه الوحيد نشر الذعر العام؛ نثر الخوف كأنه سماد، على التربة السورية كلّها.

ما كان يثير اهتمام سارة في تدمر أكثر من جمال الأطلال المُبهِر ووحشية نظام الأسد، هو الأثر الذي خلّفته كلّ من آنا ماري شفارتسنباخ ومُضيفَتُها الغريبة مارغا داندوران، صاحبة «فندق زنوبيا» في بداية الثلاثينات - متحلّقين حول النار أمام قلعة فخر الدّين، أمضينا شطرًا طويلًا من الليل نروي الحكايات بالتناوب، مجلس حقيقي، مقامة[1]، وهو نوع رفيع من الأدب العربي حيث تتعاقب الشخصيات على الكلام، فتشرع كلّ واحدة بالحديث عن موضوع مُعيّن: لقد كتبنا إذًا، في تلك الليلة، مقامة تدمرية[2].

كان حارس القلعة رجلًا عجوزًا ونحيفًا، يعتمر كوفية ويحمل بندقية صيد؛ وكانت مهمته تقتصر على غلق السياج المؤدي إلى داخل الحصن بواسطة جنزير وقفل مهيبين - لقد تفاجأ كثيرًا حين رأى هذا الوفد الذي كنا نُشكله. تركْنا المستعربين يتفاوضون معه ورحنا، بيلغر وفرنسوا - ماري وأنا، نُراقب سَيْر المُناقشات من بعيد: كان الحارس متعنتًا، يجب إقفال السياج عند الغروب وفتحه عند الفجر، تلك كانت مهمتُه وكان ينوي القيام بها على أتمّ وجه،

(١) بالعربية في النص الأصلي.
(٢) بالعربية في النص الأصلي.

حتّى إن لم يلائم ذلك السيّاح؛ تبخّر إذًا مشروعنا ورحنا نتساءل كيف استطعنا ولو للحظة، تخيُّل أن الأمور ستكون مغايرة - بسبب عجرفتنا الكولونيالية على الأرجح. لكن ما من شيء ثبّط عزيمة سارة، فواصلت مُرافعتها أمام هذا التدمري الذي كان يلعب بحزام بندقيته بحركة آليّة وهو يرمُقنا بين الحين والآخر، بنظرات مُرتابة: كان لا بد أن يتساءل لماذا تركناه يُجادل هذه المرأة فيما نحن، رجالٌ ثلاثة، نقف هنا، على بعد متَرين، نُراقب الجدال بهدوء تام. اقتربت جولي وأطلعتنا على تقدم المفاوضات؛ من واجب الحارس القيام بمهمته، قفل السياج وفتحه. لكن من ناحية أخرى، يمكننا أن نبقى داخل القلعة، أي محبوسين حتّى الفجر، فذلك لا يعرقل مهمته. كانت سارة قد قبلت بهذه الشروط الأوليّة - وكانت علاوة على ذلك، تحاول الحصول على مفتاح القفل، ما سيتيح لنا في حال أي طارئ، مغادرة هذا الحصن الشامخ من دون الاضطرار إلى انتظار تحريرنا من الأسر إلى حين بزوغ الشمس كما في الحكايات الخرافية. عليّ الاعتراف بأن فكرة البقاء محبوسًا في قلعة منيعة، على بعد بضعة كيلومترات من أفظع سجن في سورية، اصابتني بشيء من القشعريرة - البناء، مجرد كومة من الحجارة، كان يفتقر إلى كلّ وسائل الراحة، غرف فارغة حول باحة داخلية صغيرة تراكمت فيها الحصى، أدراج من دون درابزين مؤدية إلى الأسطح المحصنّة بجدران تتخللها فتحات، وحيث الخفافيش تُحلّق بشكل دائري. لحسن الحظ أن صبر الحارس كان قد نفد؛ فبعد أن عرض علينا للمرّة الأخيرة الدخول، وبما أننا كنا لا نزال متردّدين في حبس أنفسنا طوعًا (هل في حوزتنا كلّ ما قد نحتاج إليه؟ أعواد ثقاب، ورق صُحُف، ماء؟)، انتهى به الأمر إلى قفل السياج من دون تأخير، في عجلة للعودة إلى منزله؛ طرحتْ عليه سارة سؤالًا

أخيرًا، وبدا أنه ردّ عليها بالإيجاب قبل أن يدير لنا ظهره لينحدر نحو وادي القبور.

- لقد سمح لنا بشكل رسمي أن نمكث هنا.

«هنا» كانت تعني الفناء الصغير بين قوس البوابة والموضع السابق للجسر المتحرك. الشمس توارت خلف تلّتنا، أشعتها الأخيرة تصبغ صفوف الأعمدة بالذهب، ناثرةً على زخرفاتها التي على شكل ورق النخيل، ألوان قوس القزح؛ النسيم يحمل عطر الأحجار الساخنة، تُخالطه في بعض الأحيان، رائحة المطاط والنفايات المنزلية المحترقة؛ في الأسفل، ثمة رجل بالغ الصغر يُنزّه جملًا على المضمار البيضاوي وسط مدرّج كبير من الغبار حيث تُنظّم سباقات الجمال التي يتهافت إليها بدو المنطقة بأسرها، سكّان الصحراء الذين أولعت بهم مارغا داندوران.

كان مخيّمنا أكثر تقشفًا بكثير من مخيّمات رحّالة الأزمنة السابقة: يُحكى أن الليدي هستر ستانهوب، ملكة تدمر الأولى والمغامرة الإنكليزية الأنوفة ذات العفّة الفولاذ التي امتص الشّرق ثروتها وعافيتها إلى أن توفيت عام ١٨٣٩ في قرية من قرى جبل لبنان، كانت تحتاج إلى سبعة جمال لنقل عتادها، وأن الخيمة التي استقبلت داخلها أمراء المنطقة كانت أبهى خيمة في كلّ سورية وأكثرها بذخًا بأشواط: وتضيف الأسطورة أن ابنة أخت ويليام بيت هذه قد جلبت معها، إضافة إلى وعاء التبوّل، الغرض الوحيد الذي لا غنى عنه في الصحراء، كما كانت تقول، حفل عشاء مَلَكيّ بأسره، فراحت الأواني والأطعمة الفاخرة تطلع من داخل الصناديق أمام أعين الضيوف المشدوهين؛ لقد بُهِر جميع شيوخ المنطقة وأمراؤها بالليدي هستر ستانهوب، تقول الحكاية. أما وجبة طعامنا نحن، فكانت تتألف من لحم الخروف المشوي حصرًا، ما من صلصات

إنكليزية أو عصافير، فقط بضعة من أسياخ اللحم، الأولى محروقة، والتالية نيئة، حسب تقلبات مزاج نار منقل[1] بيلغر. لحم ملفوف في هذه الأرغف العربية الطيّبة، هذه الفطائر من القمح التي تُخبز على قبة معدنية وتُستخدَم، في الشّرق الأوسط، كخبز وصحن وشوكة في الوقت عينه. لا بد أنه كانت تمكن رؤية نار منقلنا، كأنها منارة، من مسافة كيلومترات، وكنّا نترقّب وصول عناصر الشرطة السورية لطردنا من المكان، لكن الإله أشمون كان يسهر على المستشرقين، فلم يزعجنا أحد قبل الفجر، ما عدا الهواء الجليدي: كان البرد لا يُحتمل.

متلاصقين حول المنقل الصغير التي كانت حرارته وهمية كحرارة ملايين النجوم المحيطة بنا، مُلتحفين بالبطانيات من الصوف الأزرق السماوي التي جلبها بيلغر، وكلٌّ منا ممسك بكأسه، رحنا ننصت إلى سارة تسرد القصص؛ كان التجويف الصخري الصغير يرجع صدى صوتها مُضخمًا بعض الشيء، مضفيًا عليه بعضًا من العمق - حتّى بيلغر نفسه الذي لم يكن يفهم سوى القليل من الفرنسية، وضع حدًا لخِطَبِه حتّى يستمع إليها تروي مغامرات الليدي ستانهوب التي كانت سبقتنا إلى هذه الصخرة الشاهقة، هذه المرأة التي عاشت حياة استثنائية، كما راحت سارة تقول، ويمكنني فهم شغفها بهذه السيّدة التي كانت دوافعها غامضة مثل الصحراء نفسها؛ فما الذي دفع هذه الأرستقراطية الثرية والنافذة، ابنة أخت أحد ألمع ساسة ذلك العصر، إلى ترك كلّ شيء لكي تستقرّ في بلاد الشام حيث حكمت، وسط الدروز والمسيحيين، على مقاطعة صغيرة في منطقة الشوف كأنها تدير شؤون مزرعة في منطقة «سُرِي» البريطانية؟ أخبرتنا سارة

(١) بالعربية في النص الأصلي.

طرفة حول الطريقة التي كانت تدير بها شؤون القرويين الذين تحت سلطتها: «كان رعاياها يكنون لها احترامًا كبيرًا، بالرّغم من أن أحكامها لم تكن دائمًا صائبة. كانت تُدركُ مدى الأهمية التي يُعلّقها العرب على مسألة شرف النساء، فتُنزِل أقسى العقوبات في حال أي خرق للعفّة الصارمة التي كانت تُلْزِم بها خدّامها وأعوانها. وفي يوم من الأيام، أتاها ترجمانها الذي كان سكرتيرها أيضًا (ابن رجل إنكليزي وامرأة سورية كانت الليدي هستر تَعزّه كثيرًا)، وقال لها إن أحد أعوانها، وكان يُدعى ميشال توتونجي، قد أغوى شابة سورية من القرية، وإنه رآهما يجلسان جنبًا إلى جنب تحت أرزة. زَعَم توتونجي أن ذلك ليس صحيحًا. فاستدعت الليدي هستر جميع أهل القرية الذين مثلوا أمامها في حديقة القصر. جلست على وسائدها، بين ترجمانها إلى اليمين، وتوتونجي إلى اليسار، كلّ منهما يكتسي بمعطفه كما نلتحف نحن بهذه البطانيات، وشيءٌ من الخشوع باديًا عليهما. كان القرويون ينحلقون حولهم. 'يا توتونجي، قالت وهي تُبعِد من شفتَيها الأنبوب العاجي الطويل لهذه النارجيلة التي نراها تُدخنها على جميع الرسومات التي تُصوِّرها، أنتَ مُتهَم بإقامة علاقة غير شرعية مع فطّوم عيشة، الفتاة السورية الماثلة أمامي. أنتَ تنكر ذلك. وأنتم جميعًا، تابعتْ مُوجِّهة حديثها إلى أهل القرية، إن كنتم تعلمون شيئًا، فبوحوا به. أريد إنزالَ قصاصٍ عادلٍ. تكلّموا'. أجاب جميع القرويين أنهم لم يسمعوا أبدًا بهذه الحادثة. التفتت الليدي هستر حينذاك نحو سكرتيرها الذي كان يترقب صدور الحكم شابكًا يديه على صدره، فقالت له: 'أنتَ تتهم هذا الشاب الذي شرع لتوه يشق دربه في الحياة، ولا يملك شيئًا إلا صيته، بارتكاب عمل شنيع. استدعِ شهودَك: أين هم؟ - ليس لديّ شهود، أجاب بتواضع، لكنني رأيته بأم عينيّ. - لا قيمة لكلمتك أمام شهادات

جميع أهل القرية والسمعة الحسنة التي يتمتع بها هذا الشاب'؛ ثمّ التفتت نحو المُتَّهم ميشال توتونجي وخاطبته بنبرة قاضٍ صارم: 'إن كانت عيناكَ وشفتاكَ قد ارتكبت هذا الجرم، إن كنتَ قد نظرتَ إلى هذه المرأة وأغويتها وقبّلتها، فإن القصاص سيلحق بعينيك وشفتيك. اقبضوا عليه! وأنتَ أيها الحلّاق، احلق له حاجبه الأيسر وشاربه الأيمن'. 'سمعًا وطاعة'[١]، قال الحرس والحلاق، كما في الحكايات، ونُفِّذت الأوامر على الفور. وبعد أربع سنوات، تلقت الليدي ستانهوب التي كانت هنّأت نفسها على هذا العقاب الرحيم، رسالة مُتهكمة من توتونجي أطلعها فيها أن قصة الإغواء حدثت فعلًا، وأن شاربه وحاجبه على أحسن ما يرام».

إن المحاكاة الاستشراقية الساخرة هذه، لمحاكمة على طريقة هارون الرشيد، كانت تبهر سارة؛ طرفة حقيقية كانت أم مُخترعة (ونظرًا إلى السلوك الذي عُرِفَت به الليدي هستر، فمن المحتمل أنها حقيقية) كان أمرًا أقل أهمية من قدرة هذه القصة على إبراز مدى تَشرُّب السيدة الإنكليزية العادات المُفترضَة لدروز جبل لبنان ومسيحييه الذين أقامت بينهم، وكيف أن أسطورتها قد أذاعت عنها تصرّفات كهذه؛ أخذت سارة تصف لنا بشغف، الرسمة حيث نرى الليدي هستر، وقد تقدم بها العمر قليلًا، تجلس في وضعية جليلة، مَلكية ومُتصلّبة، وضعية نبي أو قاضٍ، وتمسك بأنبوب نارجيلتها الطويل، بعيدة كلّ البعد من صُوَر نساء الحرملك المتراخيات الواهنات؛ وراحت سارة تخبرنا برفضها ارتداء الحجاب وباختيارها ملبسًا يتماشى مع «الموضة التركية»، لكنّه كان ملبس رجل أيضًا. حكت لنا عن لامارتين وعن ولعه بالليدي هستر، لامارتين الشاعر

(١) بالعربية في النص الأصلي.

الخطيب، صديق فرانتس ليست وهامر-بورغشتال (لقد وضع كلّ من لامارتين وهامر-بورغشتال مؤلفًا عن تاريخ الدولة العثمانية)؛ كان الفرنسيون يرونه شاعرًا منقطع النظير، لكن كاتب نثرٍ فذًا أيضًا - مثل نيرفال، لكن بدرجة أقل، أظهر لامارتين مدى عبقريته خلال رحلته إلى الشّرق، خرج هناك من قوقعته الباريسية فصارت جُمَله رحيبة مُشرَّعة على الدنيا؛ هناك، أمام سحر هذه البلاد الغامضة وجمالها، تحرر السياسي من إيماءاته المتكلّفة، والشاعر من غنائيته المتباكية. ربما، ويا له من أمر مُحزِن! كان عليه أن يخسر ابنته جوليا التي توفيت في بيروت بمرض السل، لكي تفتح بلاد الشام عينيه على معنى الألم والموت؛ مثلما آخرون هم في حاجة إلى الوحي الإلهي، ربّما كان هو في حاجة إلى أن يُصاب بأفظع الجراح، بالعذاب الأقصى، حتّى تَرسم عيناه المثقلتان بالدموع، من دون شراب السلوان الذي قدّمته هيلين الطروادية إلى تليماخوس، لوحةً رائعة وحالكة تُصوِّر مشرقًا أصليًّا قديمًا: ينبوع سحري ما إن يُكتَشَف حتّى يشرع يلفظ الموت من أعماقه. لقد قدِم لامارتين إلى الشّرق لرؤية خورس كنيسة اتضح أنه مسدود بجدار، أتى لزيارة معبد مُقفلٍ بإحكام؛ كان يقف أمام المذبح، من دون أن يعي أن أشعة الغروب تغمر جناح الكنيسة الذي خلفه. لقد سحرته الليدي ستانهوب لأن حياتها تقع ما وراء تساؤلاته؛ هي تعيش في النجوم، قالت سارة؛ هي تقرأ أقدار الرجال في حركة الأجرام السماوية - ما إن وصل لامارتين حتّى اقترحت عليه أن تكشُف له ما يخبئه له المستقبل؛ ولاحقًا، أخذت «سيرس[1] الصحراء» هذه، كما دعاها الشاعر، تشرح له بين نارجيلتين مُعطَّرتَين، معتقداتها الدّينية الغريبة. وأخبرته

(١) ساحرة في الميثولوجيا الإغريقية.

بأن الشّرق هو موطنه الحقيقي، أرض أجداده، وأنه سيعود إليه مرة ثانية، لقد تكهّنت ذلك من شكل قدميه: «أُنْظُرْ، قالت له، إن الجزء الأعلى من القدم مرتفع جدًا، ثمة بين الكعب والأصابع، حين تُلامس قدمُك الأرض، متسعًا من المكان لكي تمرّ المياه من دون أن تُبللك - هذه قدم رجل عربي، قدم شرقية؛ أنتَ ابن هذه المناخات، ونحن نقترب من اليوم الذي سيعود فيه كلّ امرئ إلى أرض أجداده. سوف نلتقي من جديد».

أضحكتنا حكاية الأقدام هذه كثيرًا؛ لم يقوَ فرنسوا - ماري على منع نفسه من خلع حذائه ليتحقق ممّا إذا كان مُقدَّرًا له الرجوع إلى الشّرق - للأسف الشديد، كانت قدمه، كما قال: «قدم شخص من بوردو»، وسوف يعود إذًا، في نهاية الزمان، ليس إلى الصحراء، بل إلى منزل ريفي في منطقة «إنتر-دو-مير»، بالقرب من قصر ميشيل دي مونتين، مصيرٌ قد يُحسد عليه أيضًا.

إن قدمي سارة مقوستان تمامًا، يمكن جدولًا أن ينساب من تحتهما بسهولة؛ كانت تروي لنا القصص في الليل، وكانت هي الأخرى، في نظرنا، ساحرة من ساحرات الصحراء، حكاياتها كتعاويذ تأسر حجارة البادية ونجوم سمائها - لم تنحُ جميع المغامِرات اللواتي قدمن إلى الشّرق، إلى التصوُّف الذي استحوذ شيئًا فشيئًا على الليدي ستانهوب، ناسكة جبل لبنان هذه، لم يتَّبِعْن مسارها نحو التخلي التدرجي عن الأملاك والثروة والملابس الأوروبية، لم يشيدن ديرًا على مراحل مثلما فعلت هي، هذا الدير الذي كان رمزًا لغرورها أو لتواضعها؛ إن الرحالة النساء لم يختبرن جميعهن الإلهام المأساوي الذي نزل على الليدي هستر أو على إيزابيل إيبرهارت في الصحراء؛ أنهت سارة حكايتها، فأخذ فرنسوا - ماري الكلمة، بالرّغم من أن بيلغر قاطعه لا ليملأ كؤوسنا فقط، بل

خصوصًا ليروي هو الآخر قصة، جزء من مغامَرات ألويس موزيل المُلقّب بلورنس مورافيا أو ألويس العرب، هذا المستشرق التشيكي الذي يجهله الفرنسيون، والذي عمل جاسوسًا لمصلحة النمسا - ذلك كان محاولة من بيلغر ليصبح مجددًا مركز الاهتمام: محاولة كارثية، كانت ستجعل كثرًا يغطون في النوم، إلى درجة ما كانت فرنسيته عصية على الفهم؛ فبسبب عنجهيته أو ثقته المفرطة في نفسه، كان يأبى التكلم بالإنكليزية. لحسن الحظ أنه حين بدأتُ أشعر بالحرج نيابة عنه وعن ألويس موزيل، قاطعه فرنسوا - ماري ببراعة: استند هذا الباحث المختصّ بتاريخ الانتداب الفرنسي في بلاد الشام، على الليدي هستر ولورنس مورافيا ليُعيد الحديث، بشكل ديبلوماسي، إلى تدمر. كان يرى أن مصير مارغريت داندوران، المسماة مارغا، هو على النقيض من مصائر ستانهوب وإيبرهارت وشفارتسنباخ، أنه نظيرها الأسود، نسختها الظلاميّة. كانت لهجة فرنسوا - ماري، والنبيذ اللبناني الذي فتحه بيلغر، يشعراننا بالدفء، وكانت الخصلات المجعدة، الحمر والطويلة، للمرأة الجالسة إلى جانبي، تتوهج مع وميض الجمرات الأخيرة، فتتلاعب الظلال على وجهها مضفية عليه شيئًا من الوقار. بحسب فرنسوا - ماري، فإن قصة حياة مارغا داندوران هي قصة فشل مأساوي - ولدت هذه المغامِرة الفاتنة في أواخر القرن التاسع عشر لعائلة مرموقة من مدينة بايون الفرنسية (بطبيعة الحال، شدّد المؤرخ الغاسكوني[١] على هذا التفصيل الأخير؛ كان عاد وانتعل حذاءه ليقي قدميه البرد)، وتزوجت عن عمر يافع بأحد أقاربها، شاب ينتمي إلى طبقة النبلاء السُفلى كان

---

(١) غاسكوني: أي من غاسكونيا، وهي منطقة في جنوب غربي فرنسا، كانت إمارة مستقلة حتّى عام ١٠٦٣.

ينتظره مستقبل باهر، إلا أنه بدا ضعيف الشخصية والإرادة نوعًا ما، لا شغف لديه سوى الخيل. أما مارغا، فكانت على العكس من ذلك، تتسم بطاقة وحيوية وسعة حيلة استثنائية. بعد محاولة وجيزة لتربية الخيل في الأرجنتين ما قبل الحرب العالمية الثانية، وصل الزوجان إلى مرفإ الإسكندرية في تشرين الثاني من عام ١٩٢٥ واستقرا في القاهرة، مقابل مقهى «غروبي» في ميدان سليمان باشا، أي في قلب المدينة «الأوروبية». كانت مارغا تنوي افتتاح صالون تجميل ومتجر لؤلؤ صناعي. بدأت سريعًا تعاشر علية القوم في القاهرة، لا سيما الأرستقراطيين البريطانيين الذين يتردّدون على نادي الزمالك. إن لقب «كونتيسة» الذي أضيف إلى اسم عائلتها يعود إلى تلك الفترة: فقد أصبحت نبيلة نتيجة العدوى، إذا جاز التعبير. وبعد سنتين، قرّرت أن تُرافق صديقة إنكليزية في رحلة إلى فلسطين وسورية، سيكون دليلهما خلالها الميجور سنكلير، المسؤول عن استخبارات القوات المسلحة في حيفا. وبصحبة هذا الأخير، وصلت مارغا للمرّة الأولى إلى تدمر، ذلك بعد رحلة شاقة من دمشق حيث فضَّلت الصديقة البريطانية المرهقة والتي تتأكّلها الغيرة، أن تنتظرهما. بسبب العلاقة المتوترة وقتذاك، في بلاد الشام، بين فرنسا وبريطانيا، إضافة إلى الثورة السورية التي كانت قُمِعت بشكل دموي، كان عناصر الجيش الفرنسي يرتابون بعض الشيء من نشاطات الغرباء على الأراضي الواقعة تحت وصايتهم - راحت حامية تدمر تراقب إذاً عن كثب هذين المسافرَين اللذين نزلا في الفندق الذي بناه فرناندو دي أراندا. من المرجح أن هناك، صار سنكلير ومارغا عشيقَيْن؛ في أي حال، فإن علاقتهما شكلت مادة دسمة لتقارير الضباط الفرنسيين المتبطلين، تقارير وصلت إلى الكولونيل كاترو الذي كان وقتذاك مسؤولًا عن الاستخبارات في بيروت.

لقد بدأت المغامرات التدمرية للكونتيسة الأنيقة مارغا داندوران، بتهمة تجسس سممت باكرًا علاقاتها مع السلطات الفرنسية في بلاد الشام - إن سمعتها كجاسوسة ستعود لتطفو على السطح طوال حياتها، في كلّ مرة تلتفت إليها الإدارة الفرنسية أو الصحافة.

توفي سنكلير بعد بضعة أشهر - انتحر بسبب الحب، تقول الإشاعات. وفي الأثناء، استقرت مارغا مع زوجها في تدمر. كانت وقعت في الحب - غير أنها لم تعشق ضابطًا بريطانيًا هذه المرة، بل أولعت بالموقع الأثري، بالبدو، بالصحراء؛ اشترت بضع أراضٍ حيث كانت تعتزم تربيّة الخيل كما في الأرجنتين. تصف في مذكراتها، رحلات صيد الغزلان برفقة البدو، الليالي التي أمضتها تحت الخِيَم، مودّتها لشيخ القبيلة وكأنه والدٌ لها. سريعًا، أقلع الزوجان داندوران عن الزراعة، إذ عَهدت إليهما سلطات الانتداب إدراة «فندق تدمر» (الفندق الوحيد في المدينة وقتذاك) الذي كان مالكه توفي من دون وريث. حتّى أنه سيُسمح لمارغا (في ما يبدو، أضاف فرنسوا - ماري؛ ثمة غالبًا، كما في حال أي شهادة أخرى، فرق طفيف بين ما ترويه هذه المغامِرة، وما تقوله المصادر الأخرى) أن تشتري الفندق بعد فترة قصيرة: ستقرر تسميته «فندق زنوبيا»، تحيّة للملكة التي عاشت في القرن الثالث بعد الميلاد، وهزمها الإمبراطور أوريليان. كان سيّاح تلك الفترة كلهم يمكثون إذًا عند الزوجَين داندوران؛ أخذت مارغا تدير شؤون الفندق بينما راح زوجها يُرفه عن نفسه بالوسائل المُتاحة، فيركب الخيل أو يتردّد على ضباط حامية تدمر المسؤولين عن المطار كما عن وحدة عسكرية صغيرة، إحدى بقايا جيش الشّرق الفرنسي الذي هلك قسمه الأكبر خلال الحرب العالمية الأولى والثورة السورية.

وبعد خمس سنوات، أخذت مارغا داندوران تشعر بالضجر.

لقد كبر أولادها، وأيقنت ملكة تدمر أن مملكتها مجرد كومة من الحصى والغبار، مملكة لا شك رومنسية، لكنّها لا تعِد بأي مغامرة أو مجد. عندذاك، إستحوذت عليها فكرة مجنونة، استلهمتها من الشخصيات النسائية التي تسكن مخيّلتها: الليدي ستانهوب، العاشقة جين ديغبي، الليدي آن بلانت حفيدة اللورد بايرون، وغيرترود بيل التي كانت لقيت حتفها منذ بضع سنوات، والتي علمت مارغا بقصتها العجيبة من سنكلير ومن أصدقائها البريطانيين. هي تحلم بالذهاب إلى أبعد ممّا ذهبت إليه هؤلاء النساء اللواتي تقتدي بهنّ، تحلم بأن تكون أول امرأة أوروبية تحجّ إلى مكة، ثمّ بأن تقطع الحجاز ونجد لكي تصل إلى الخليج العربي وتصطاد هناك (أو بكل بساطة تشتري) اللؤلؤ. وفي بداية عام ١٩٣٣، عثرت مارغا على وسيلة لتنفيذ مشروعها: عَقْدُ زواج صُوَري مع سليمان دقماري، وهو جندي في الحامية الفرنسية أصله من عنيزة في نجد، ينتمي إلى قبيلة مطير ويرغب في العودة إلى موطنه، لكن تعوزه الوسائل المالية لذلك. هو رجل بسيط، أميّ، لم يغادر الصحراء بتاتًا. مقابل مبلغ كبير من المال يُدفع له عند العودة، قَبِل بمرافقة الكونتيسة إلى شبه الجزيرة العربية، إلى مكة والمدينة المنورة، ثمّ إلى الساحل البحرَيْني، وبإعادتها أخيرًا إلى سورية. قبل رحيلهما، جعلته طبعًا يُقسم أمام شهود أنه لن يسعى إلى تنفيذ زواجهما، وأنه سيطيعها في كلّ شيء. في تلك الفترة (شعرتُ وقتذاك أن فرنسوا - ماري الممتلئ حماسة، لم يكن يسرد لنا كلّ هذه التفاصيل الدقيقة إلا ليستمتع باستعراض سعة معلوماته التاريخية)، كان عبدالعزيز بن سعود وحّد لتوه الحجاز ونجد، ذلك بعد أن هزم الهاشميين وطردهم من أراضيه - لم يتبقَّ لبني هاشم سوى العراق والأردن، حيث يدعمهم البريطانيون. إن المملكة العربية السعودية قد أبصرت النور في الوقت ذاته الذي قررت

مارغا داندوران أن تحجّ إلى مكة. كانت تلك البلاد تتسم بهوية بدويّة، وهابيّة في الأغلب، مُتزمتة ومُتشددة. كان دخول غير المسلمين إلى المملكة ممنوعًا؛ طبعًا كان عبدالعزيز بن سعود يرتاب من تدخّلات البريطانيين أو الفرنسيين المحتملة في شؤون بلاده الحديثة العهد. وكانت جميع البعثات الديبلوماسية منفية في جدة، مرفأ مكة على البحر الأحمر، وهي بمثابة تجويف بين صخرتين، يفتقر إلى المياه العذبة وموبوء بأسماك القرش والصراصير، وحيث يستطيع المرء أن يختار بين الموت من العطش أو من ضربة شمس أو من الضجر – ما عدا خلال فترة الحجّ: كبوابةٍ شبه الجزيرة العربية لمسلمي الشّرق الأقصى وإيران وأفريقيا، تشكل هذه المدينة معبرًا لعشرات السفن التي تنقل آلاف الحجاج، مع كلّ ما ينطوي عليه ذلك من أخطار أمنية وصحية وأخلاقية. في هذا المكان، رست السفينة التي تحمل على متنها مارغا داندوران و«الزوج – جواز السفر» كما كانت تدعوه، في بداية فترة الحجّ وبعد اعتناقها الإسلام بشكل رسمي ومن ثمّ زواجها في فلسطين. اسمها الآن زينب (تحيّة أخرى لزنوبيا ملكة تدمر). سارت الأمور من سيئ إلى أسوإ بلمح البصر: أطلعها الطبيب المسؤول عن شؤون الهجرة أنه وفقًا لقوانين الحجاز، لا يمكن شخصًا أن يؤدي فريضة الحج إلا بعد انقضاء سنتَين على اعتناقه الإسلام. أُرسِل إذًا سليمان البدوي إلى مكة ليستجدي إذنًا استثنائيًا من الملك عبدالعزيز. كان يستحيل على مارغا – زينب أن ترافقه، وبداعي الحشمة، لم تكن تستطيع بمفردها النزول في فندق – وُضِعت إذًا في عهدة حاكم جدة، فمكثت في سكن حريمه حيث ستبقى معزولة عن العالم الخارجي لبضعة أيام وستتعرض لشتى أنواع الإذلال، غير أنها ستنجح في كسب مودة زوجات الحاكم وبناته. وما دونته في مذكراتها عن تلك الإقامة، قال

فرنسوا - ماري، يُشكل شهادة مثيرة للاهتمام عن الحياة داخل سكن للحريم في مدينة صغيرة، إحدى الشهادات النادرة التي نملكها عن تلك المنطقة وتلك الحقبة. أخيرًا، عاد سليمان من مكة من دون استحصاله على إذنٍ استثنائي لزوجته؛ كان عليه إذًا أن يأخذها إلى بيت عائلته على مقربة من عنيزة. في الأثناء، كانت زينب تحوّلت مجددًا إلى مارغا وباتت على صلة بالقنصل الفرنسي جاك روجيه ميغريه (لقد مثّل الدولة الفرنسية في جدة حتّى عام ١٩٤٥ : مدة طويلة جدًّا، سبعة عشر عامًا لم يشتكِ خلالها بشكل مُفرط، وآمل، قال فرنسوا - ماري، أنه مُنح على الأقل وسام فارس أو «كومندور» أو من رتبة أخرى مكافأةً له على هذا التفاني المديد) الذي عرَّفت ابنه اللذة الجنسية : فبالنسبة إلى هذا الشاب اليافع جدًّا، كان وصول مارغا الحسناء إلى مملكة الوهابيين المُتشددين، بمثابة شعاع شمس ذهبي - بالرّغم من فارق العمر بينهما، أخذها خلسة للسباحة خارج المدينة؛ كما أنه صار يُنزِّه زينب، المتوارية خلف حجابها الأسود الطويل، في أزقة جدة. وقد وصلت مارغا بالاستفزاز إلى حد إدخال عشيقها الشاب خفيةً إلى غرفة الفندق التي استطاع القنصل، بواسطة نفوذه (ورغم أن مارغا لم تعد فرنسية في عين القانون)، من أن يستحصلها لكي يُخرجها من مسكن الحريم. أصرّ سليمان على متابعة رحلة لم تعد الكونتيسة ترغب استكمالها بتاتًا : هي تخشى من أن يجعل منها أسيرته، هناك، بعيدًا في الصحراء، حيث لا نفوذ لميغريه لتخليصها من أي مأزق.

وفي ليلة من الليالي، سَمِعَتْ طرقًا على باب الغرفة : الشرطة الملكية. خبأت عشيقها تحت السرير كأنها تلعب دورًا في مسرحية كوميدية، لظنها أن الأمر يتعلق بالإخلال بالآداب - لكن المسألة كانت أخطر من ذلك : إن «الزوج-جواز السفر» قد لقي حتفه. لقد

مات سليمان مسمومًا بعد اتهامه زوجته زينب بأنها أعطته دواءً قاتلًا للتخلّص منه. رُميت مارغا داندوران في السجن، في زنزانة مُريعة يحتشد فيها كلّ ما هو مثير للاشمئزاز في جدة: الحرّ والرطوبة والصراصير الطائرة والبراغيث والوسخ والبراز.

سوف تمضي هناك شهرَين.

قد يتم إعدامها بتهمة القتل والزنى.

مصيرها بين يدي قاضي مكة الشرعي.

يَعتقد القنصل ميغريه أنها ستلقى حتفها قريبًا.

في ٣٠ أيار، تنشر الصحيفة البيروتية «لوريون لوجور» نبأ موتها شنقًا.

يصمت فرنسوا - ماري للحظات - لا أقوى على منع نفسي من إلقاء نظرة على «فندق زنوبيا» الذي يتراءى لنا في الأسفل ككتلة داكنة، ثمّ على وجه سارة التي تبتسم من هذه المراوغة التي يمارسها علينا الحكواتي. وبالفعل، إن مارغا داندوران لم تمُت مشنوقة في الحجاز، لكن بعد عشرين عامًا، حين اغتيلت بأشنع الطرق على متن مركبها الشراعي في طنجة بينما كانت تستعدّ للانخراط في تهريب الذهب من المنطقة الدولية. سليمان دقماري ليس سوى الجثة الثانية التي رُمِيَت على طريقها الموصومة بالموت والدم. الجثة الأخيرة ستكون جثتها التي تُرِكت للبحر مربوطة بمُكعَّب إسمنتي في خليج ملاباطا.

يتابع فرنسوا - ماري الحكاية؛ يشرح أن ثمة من رأى مارغا وهي تعطي زوجها، خلال لقائهما الأخير صبيحة وفاته، حبّة بيضاء. زعمتْ هي أنها حبة «كالمين»، وهو دواء غير مؤذ كانت تتناوله باستمرار: وقد عُثِر داخل حقائبها على ما يقارب عشر علب من هذا

الدواء الذي يحتوي بشكل أساسي على مادتيّ الـ«كينين» والـ«كودين». أرسِلت عينة إلى القاهرة ليتم تحليلها. وفي غضون ذلك، راحت الصحافة العربية تروي مغامرات مارغا من دون علم هذه الأخيرة، فتنعتها بالجاسوسة الفرنسية البريطانية، بـ«ماتا هاري»[1] الصحراء، بسجينة زنازين عبد العزيز؛ كانت تُعدَم، فتقوم من الموت في اليوم التالي، وراح الناس يتخيّلون مؤامرة مفادها أن أجهزة مخابرات الملك قامت بتصفية البدوي المسكين لإرغام مارغا على الرحيل.

أخيرًا، وبما أن جثّة سليمان دقماري لم تخضع للتشريح الجنائي التزامًا بالقوانين الدّينية الصارمة للملكة، وأن نتائج تحليل عينة الـ«كالمين» في القاهرة أظهرت أن الدواء لا يحتوي على أي مادة سامة، أُفرِج عنها لعدم توافر الأدلة بعد شهرين من الاعتقال.

أخذ فرنسوا - ماري يتطلع إلى الحضور وقد ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهه؛ شعرنا بأنه يريد إضافة شيء. رحتُ أفكرُ بالـ«كالمين»، إذ أيقظ الاسم هذا شيئًا ما في داخلي: تذكرتُ تلك العُلَب المعدنية الزرق التي كانت تُزَيِّن حمّام جدّتي في «سان-بونوا-لافوريه»، والتي كُتِب عليها «توعك، إرهاق، حمى، أرق، أوجاع»؛ تذكرتُ أن مختبرات «ميتاديه» هي التي كانت تُصنِّع هذا الدواء الذي يشفي جميع الأمراض، وأن بول ميتاديه المولع ببلزاك هو من حوّل قصر «ساشيه»، في إقليم «تورين» الفرنسي، متحفًا للكاتب. كلّ شيء مترابط. ثمة لبلزاك، إضافة إلى قصّته مع جين ديغبي («الليدي آلّ»)، صلة أخرى بتدمر. لا شك في أن مارغا داندوران كانت تجهل، حين وصلتها كهديّة عبر البريد، بعد نشرها روايتها عن الحوادث في

---

(١) ماتا هاري (١٨٧٦-١٩١٧) جاسوسة وراقصة ومحظية هولندية شهيرة.

صحيفة «الانترانزيجان»، مئة حبة «كالمين» أرسلها المختبَر لشكرها على هذه الدعاية المجانية... لا شك في أنها كانت تجهل حينذاك أن ثروة شركة الأدوية التي ساهمت هي في مضاعفتها، ستتيح تكريم هذا الكاتب الكبير في القصر الذي كان يستسيغه كثيرًا. لم يكن بول ميناديه ليرسل هذه الأقراص الترويجيّة بتاتًا لو علِم أن حبةً خُتِم عليها «مختبرات ميناديه - تور»، هي بالفعل ما سمم المحارب من قبيلة مطير سليمان دقماري؛ فرنسوا - ماري كان حصل على هذه المعلومة من المذكرات غير المنشورة لجاك داندوران، ابن الكونتيسة الأصغر. يروي جاك داندوران كيف أن والدته، قبل مغادرتها بيروت للذهاب إلى مكة، أطلعته على الشكوك التي تساورها في ما يتعلق بشخص سليمان الذي يُشكّل، بالنسبة إليها، «الحلقة الضعيفة» الوحيدة في رحلتها؛ سليمان، شهوة سليمان، فحولة سليمان، هذه هي العقبات الكبرى التي ستواجهها. ستكون تحت رحمته، في مكة وفي نجد؛ وسيكون للزوج-جواز السفر هذا، الحق بأن يفعل بها ما يشاء، وحتى أن يضع حدًا لحياتها (أو هكذا تخيّلتْ على الأقل): كان منطقيًا إذًا، أن تمتلك هي الأخرى، وسيلةً تُمكنها من قتله في حال اضطرت إلى ذلك. لذا، طلبتْ من ابنها أن يحصل لها على سم من بيروت، تحت ذريعة قتل كلب كبير، كلب كبير جدًا، بسرعة ومن دون أي ألم. ثمّ احتفظت بهذه المادة داخل قرص من أقراص الـ«كالمين» كانت أفرغته من محتواه الأصلي.

لا أحد يعلم أي شيء آخر.

كان فرنسوا - ماري ينظر إلينا، مسرورًا من الأثر الذي تركه على مستمعيه. ثمّ أخذت سارة الكلام؛ كانت قامت من مكانها لتدفئة يديها بحرارة الجمرات الموشكة على الانطفاء.

- ثمة مُصادفة مُسلية: لقد مرّت آنا ماري شفارتسنباخ عبر تدمر

خلال رحلتها الثانية إلى الشّرق، من بيروت إلى طهران، بصحبة زوجها كلود كلاراك الذي يعمل في السفارة الفرنسية في إيران. روَت وقائع إقامتها في «فندق زنوبيا» ولقائها بمارغا داندوران، في قصة قصيرة عنوانها «بني زينب». هي تعتقد أنه أمرٌ محتمل جدًّا أن تكون مارغا سممت فعلًا زوجها... أو في الأقل، أن شخصيتها تُمكّنُها من ذلك. هي ليست شخصيةُ مجرمةٍ، بل شخصية امرأة مستعدة لأن تهدم بإرادتها الفولاذ، جميع العقبات التي قد تحول بينها وبين الهدف الذي رسمته لنفسها.

كان يبدو أن جولي وفرنسوا - ماري موافقان.

- حياتها حياةٌ موصومة بالعنف تمامًا، حياتها استعارةٌ عن العنف الاستعماري، عِبْرة وأمثولة. بعد وقت قصير من عودتها إلى تدمر، وما إن انتهت مشكلاتها مع القضاء، حتّى اغتيل زوجها بيار داندوران بطريقة وحشية، طعنًا بالسكين. رأت السلطات في الجريمة عملية ثأر نفذتها عائلة سليمان، مع أن مارغا وابنها ساورتهما شكوك حول وجود مؤامرة يقودها ضباط فرنسيون، وأبلغا عنها. عادت إلى فرنسا قبل اندلاع الحرب؛ أمضت فترة الاحتلال النازي متنقلة بين باريس ونيس واعتاشت من أعمال غير شرعية متنوعة كالإتجار بالحُلي والأفيون؛ وفي عام ١٩٤٥، أقدم ابنها البكر على الانتحار. ثمّ في عام ١٩٤٦، تم توقيفها واحتجازها على ذمة التحقيق بتهمة قتل ابنها بالمعمودية بالسم، وهو كان ضابط مخابرات في المقاومة الفرنسية. عندذاك، أفلتت الصحافة من عقالها ونسبت إليها ما لا يقل عن خمس عشرة جريمة قتل، كما اتهمتها بجرائم تجسس وبالتعاون مع عصابة «بوني ولافون»، السفاحَيْن الباريسيَّيْن اللذين ترأسا جهاز «الغيستابو» في فرنسا، وبأمور شنيعة أخرى لا تعد ولا تحصى. إن مضمون هذا الكم من المقالات هو أبلغ تعبير عما كان يَسكُن

المُخيِّلة الفرنسية وقت التحرير: الهوامات الاستعمارية، الهوس بالجواسيس، طيف ماتا هاري وجرائم الدكتور مارسيل بتيو، الطبيب صاحب الثلاث والستين جثة الذي كان أعدم لتوه بالمقصلة. أُفرِج عنها أخيرًا بعد بضعة أيام لعدم توافر الأدلة. وفي ما يخص هذه المسألة أيضًا، اعترفت لابنها قبل وفاتها بوقت قصير، وبشيء من الغموض، أنها كانت مذنبة - هذا تقريبًا كلّ ما نعلمه عن المصير الحالك لملكة تدمر.

أشارت سارة إلى أي حد كان هذا الربط بين الجنس والشّرق والعنف، يلقى تجاوبًا كبيرًا من الرأي العام، ذلك حتّى يومنا هذا؛ ثمة رواية رخيصة لم تنجح في أن تكون مثيرة، تسرد مغامرات الكونتيسة داندوران، عنوانها «مارغا، كونتيسة تدمر». بحسب سارة، إن مؤلف هذا الكتاب لم يحترم الوقائع التاريخية ولم يكترث بتاتًا بمدى واقعية الحوادث المروية، إذ كان همه الوحيد التشديد على جميع الكليشيهات «الشّرقيّة»: العربدة والمخدّرات، التجسس والتوحّش. وفقًا لسارة، إن ما يجعل من مارغا شخصية مثيرة للاهتمام إلى هذا الحدّ، هو ولعها بالحرية - حرية قصوى لا تحدّها حتّى حياة الآخرين. إن عشق مارغا داندوران للبدو والصحراء والشّرق، هو عشق لهذه الحرية، حرية ربّما خياليّة، مُضخَّمة بالتأكيد، ظنَّت أنها ستتيح لها تحقيق ذاتها؛ هي لم تمتلك ما يتطلّبه سعيٌ كهذا وراء أحلام مهولة، أو بالأحرى بَلَى، إذ أظهرت في سعيها عنادًا منقطع النظير إلى حدّ تحلُّل هذه الحرية البديعة وتحولها غرورًا إجراميًا كان سبب هلاكها في نهاية المطاف. وإن ما يرقى إلى مصاف المعجزة، هو عدم مصادفتها سيف الجلاد، أو خنجر الثأر، في وقت أبكر، فتابعت مسيرتها الجامحة مستهزئة، لسنوات، بالقوانين وبالقدر.

قام بيلغر هو الآخر من مكانه ليتدفأ قليلًا - الهواء جليدي وصافٍ أكثر فأكثر؛ في أسفل تلّتِنا، تنطفئ أنوار المدينة شيئًا فشيئًا، لا بد أنه منتصف الليل تقريبًا. كانت أضواء «فندق زنوبيا» لا تزال مُشعَلة، فرحت أتساءل ما إذا كان الموظفون الحاليون يتذكرون هذه الكونتيسة الزائفة والقاتلة الحقيقية، ما إذا كانوا يتذكرون زوجها الذي مات وسط هذه الصحراء الرمادية التي لم تكن في الليالي الباردة، مكانًا لطيفًا، ولا تتسمّ حتّى (لم أكن لأعترف بهذه الفكرة لرفاقي أبدًا) بهذا الجمال الساحر الذي يعزوه إليها البعض.

ما زال التسامح الذي تبديه سارة تجاه المجرمات والخائنات والقاتلات بواسطة السم، يُشكّل لغزًا بالنسبة إليّ؛ افتتانها هذا بأشنع ما تخفيه روح الإنسان، يُذكرني نوعًا ما بشغف فوجيه بالعوالم السفلية للمدن - على حد علمي، سارة لم تكن أبدًا جاسوسة ولم تقتل أحدًا، والحمدلله على ذلك، إلا أن الرعب والمسوخ والجريمة والأحشاء، دائمًا ما أثارت اهتمامها: هنا في فينا، بعد أن تركْتُ صحيفة «دير شتاندارت» ذات اللون الشبيه بلون مؤخرات القرود، لون يتناسق تمامًا مع البشرة الزهرية للقرّاء في مقهى «ماكسيميليان» هذا المحاذي لساحة كنيسة «فوتيف»، وبعد أن كانت رفضَتْ الذهاب إلى المصحة حيث مات كافكا، أرغمتني (وأنا أتأفف وأتذمر بكل ما أوتيتُ من قوة، يا لي من أبله! ويا لها من طريقة خرقاء لجعل نفسي محبوبًا! في بعض الأحيان، أقوم، أو بالأحرى نقوم بعكس ما تمليه علينا قلوبنا تمامًا) على زيارة متحف الجريمة: في قبو وطبقة أرضية من منزل جميل في «اليوبولدشتات» يعود إلى القرن الثامن عشر، قمنا إذًا بزيارة متحف شرطة فيينا، متحف رسمي كأنه مختوم باسم المدينة، متحف القتلة والمقتولين، حيث الجماجم المُهَشمة أو التي اخترقها الرصاص، أسلحة

الجرائم، الأدلة، الصوَر الفوتوغرافية، صوَر مريعة لأجساد مُشوَّهة ومبتورة، لجثث تم تقطيعها بهدف إخفائها داخل سلال من القش ثمّ رميها في القمامة. كانت سارة تتأمل في كلّ هذه الفظائع باهتمام وهدوء، الهدوء ذاته، رحتُ أتخيَّل وقتذاك، الذي قد يبديه شرلوك هولمز، أو هركيول بوارو بطل روايات أغاثا كريستي التي كان يمكن المرء مصادفتها في جميع أنحاء الشّرق، من إسطنبول إلى تدمر وصولًا إلى حلب - كان زوجها عالم آثار، وعلماء الآثار هم أول الطفيليات التي تهافتت إلى الشّرق، منذ فيفان دينون وحملة نابليون على مصر: إن تزاوج الافتتان الرومنطيقي بالآثار مع تجديد علوم التاريخ، دفع بالعشرات من علماء الآثار نحو الشّرق، مهد الحضارات والأديان وبشكل ثانوي، مُنْتِج تحف يمكن تحويلها حُظوة اجتماعية أو مالًا؛ اجتاحت عندها الموضة الفرعونية، ثمّ النبطية والآشورية والبابلية والفارسية، المتاحف ومحال الأثريات التي صارت تعجّ بشتى أنواع الحُطام، كما كانت حال التحف الرومانية في عصر النهضة - إن أسلاف بيلغر كانوا يجوبون الدولة العثمانية من بيثينيا وصولًا إلى عيلام، مصطحبين معهم نساءهم في أغلب الأحيان، هؤلاء النساء اللواتي، مثل جين ديولافوا أو أغاثا كريستي، أصبحن كاتبات، هذا إن لم يَسرن على خطى غيرترود بيل أو آنا ماري شفارتسنباخ، لينغمسن أيضًا في ملذّات علم الآثار. كان علم الآثار وقتذاك، إضافة إلى التصوّف، من أجدى السُّبُل لاستكشاف الشّرق الأدنى والأوسط وكان بيلغر موافقًا على هذا الرأي، في تلك الليلة في تدمر، حين تفضّل علينا بانضمامه إلى مقامتنا التدمرية ودفء النبيذ اللبناني يسري في عروقه، فشرع يتكلم بالإنكليزية هذه المرة، مستعينًا بفصاحة بريطانية جلبها من إقامته في أوكسفورد التي خرّجت جامعتها كثيرًا من المستشرقين المرموقين -

بقي واقفًا والعتمة تحجب كامل وجهه المستدير، فلم نكن نُبصر منه إلا شعره الأشقر القصير الذي بدا كأنه هالة من الذهب. ممسكًا كعادته بزجاجة النبيذ، أخذ يخبرنا عن علماء الآثار وعلماء النبات الذين ساهموا في استكشاف جزيرة العرب الغامضة: بالرّغم من كونه شخصًا مدينيًا للغاية، كان بيلغر هو الآخر حلم بالصحراء، وليس فقط خلال متابعته مُسلسل «كارا بن نمسي» على التلفزيون؛ فقبل أن يصبح مختصًا بالحقبة الهيلينية، كان حاول أن «يخترق»، من دون نجاح، مجال علم الآثار الذي يُعنى بدراسة تاريخ العرب قبل الإسلام؛ لم يكن إذًا يُخفى عليه شيء من مغامرات وبطولات مستكشفي شبه الجزيرة العربية. بدأ بالتقليل من أهمية شخصياتٍ مثل مارغا داندوران التي لم يكن قد سمع بها من قبل: ففيما يخص العنف والجنون وغرابة الأطوار، إن أخبارَ الرحالة الذين قدموا إلى النجد أو الحجاز أو جبل شمّر أخبارٌ أكثر استثنائية وإثارة للعجب بأشواط - حتّى أن مذكراتهم، أضاف بتبجج، تحف أدبيّة بكل ما للكلمة من معنى. ثمّ أخذ يروي قصة مُعقَّدة عن استكشاف جزيرة العرب لا أذكر منها إلا القليل جدًا، فيما عدا أسماء السويسري بوركهارت والإنكليزيَين داوتي وبالغريف والفرنسي هوبر والألماني أويتنغ - من دون أن ننسى الذين لا مفر من ذكرهم عند الحديث عن الصحراء: ريتشارد فرانسيس برتون، الرّجل الذي عاش ألف حياة، والزوجان بلانت المولعان بالأحصنة واللذان جابا رمال الصحاري بحثًا عن أجمل الخيول، فشرعا لاحقًا بتربية تلك السلالة النبيلة، الحصان العربي الأصيل، في مزرعتهم في مقاطعة الساسكس - من بين هذا الكمّ من الرحّالة، كانت آن بلانت أكثر من يروق لي، ذلك لأنها كانت عازفة كمان وتمتلك آلة من طراز «ستراديفاريوس». كمان من طراز «ستراديفاريوس» في الصحراء.

ربما عليّ أن أضيف تذييلًا لكتابي، أو حتى مُلحقًا

حول أشكال الجنون المختلفة في الشّرق
مُلحق
قافلة المُتنكرين

... يشرح أسباب ولع زملائي من الأيام الغابرة بالتنكر وبالأزياء المحليّة - إن كثرة من هؤلاء المستكشفين، سياسيين أو علماء، ظنوا أنهم مضطرون للتنكّر، لدواعي الراحة كما ليذوبوا بين السكان المحليين ولا يلحظهم أحد: ريتشارد فرانسيس برتون تنكّر كواحد من حجاج قافلة مُتجهة إلى مكة؛ المستشرق المجري اللطيف أرمينيوس فمبيري، صديق الكونت دي غوبينو، كمتصوف مُتشرّد (رأس حليق وعباءة أوزبكستانية) ليستكشف بلاد ما وراء النهر انطلاقًا من طهران؛ آرثر كونولي، أول من مارس «اللعبة الكبرى»[1]، كتاجر إيراني (ستُكتشف هويته الحقيقية في بخارى حيث سيُقطع رأسه)؛ يوليوس أويتنغ كبدوي، لورنس العرب (الذي كان قد تعمّق في قراءة كبلينغ) كمحارب من قبيلة الحويطات - جميعهم يتحدثون عن المتعة الطفولية نوعًا ما (إن كان المرء يهوى الأخطار)، المتأتية من انتحال شخصية أخرى؛ غير أن من تفوّق في ذلك هم مستكشفو جنوب الصحراء الكبرى والساحل الأفريقي، مثل رينيه كاييه فاتح تمبكتو الذي تنكّر كمصري، وبشكل خاص ميشيل فيوشانج، هذا الشاب الذي عشق الصحراء وكان يجهل عنها كلّ شيء تقريبًا، والذي تنكّر أولًا كامرأة ثمّ ككيس من الملح حتّى يُبصر

---

(١) «اللعبة الكبرى» مصطلح يشير إلى تنافس سياسي وديبلوماسي بين بريطانيا وروسيا في القرن التاسع عشر للسيطرة على آسيا الوسطى.

لربع ساعة مدينة السمارة الأسطورية التي وجدها خِربة وقد هجرها سكانها منذ زمن طويل، قبل أن يعود مجددًا إلى داخل كيسه القماشي، مريضًا، متأرجحًا لأيام على وقع خطوات الجمل، لا يصله أي نور وتشوِيه حرارة فرن: توفي أخيرًا في أغادير من الإرهاق والإسهال وهو فقط في السادسة والعشرين. إن سارة تُفضِّل بساطة من يتّسِمون بصدق أكبر أو بجنون أخف وطأة (ولو أن مصير بعضهم كان، لسوء الحظ، مأساويًا بالدرجة نفسها)، مثل إيزابيل إيبرهارت المولعة بالجزائر وبالمذاهب الصوفية - ومع أن إيزابيل هذه كانت ترتدي زيّ فارس عربي وتطلق على نفسها اسم «سي محمود»، إلا أن شغفها بالإسلام وإيمانها به كانا عميقَيْن جدًا؛ لقيت حتفها بشكل مأساوي، إذ ماتت غرقًا خلال فيضان مباغت في عين الصفراء، في هذا الجنوب الوهراني الذي كانت تعشقه للغاية. وكانت سارة غالبًا ما تعيد رواية قصة إيزابيل مع الجنرال ليوتي: كيف أن الأخير، بالرّغم من أنه لم يكن يستسيغ عادةً غرابة الأطوار، أولع بها إلى حد أنه أمضى أيامًا في حالة يأس قصوى، يبحث في بادئ الأمر عن جثّتها، ثمّ عن دفاتر يومياتها - وقد عَثر أخيرًا على الدفاتر تحت ركام كوخ إيزابيل، فقام الجنود بانتشال المخطوطة الكاملة لكتاب «الجنوب الوهراني»، بصبر جامع طوابع ينتزع طابعًا بملقطه الصغير.

إن المسألة الفعلية التي أراد بيلغر أن يتطرق إليها في تلك الليلة التدمرية، هو الذي لم يكن يكترث بتاتًا بالتصوُّف ولا بالتنكر، ما عدا النوادر المُسلّية حول شتى أصناف مُلفقي الروايات العجيبة الذين يؤمّون هذه البلاد (وأكثر هذه الطُرَف إثارة للضحك هي طبعًا مغامرات الفرنسي شارل هوبر والألماني يوليوس أويتنغ: مغامرات لورل وهاردي في بلاد العرب)، كانت مسألة العلاقة بين علم الآثار والتجسس، بين العلوم العسكرية والعلم الحقيقي. كيف لنا اليوم أن

نُطمئِن السوريين حول نشاطاتنا - راح بيلغر يَصرُخ - إن كان أشهر أسلافنا قد لعبوا أدوارًا سياسيًا، بشكل سرّي أو علني، في الشّرق الأوسط؟ كانت هذه الحقيقة تُصيبه بالقنوط، حقيقية أن جميع علماء الآثار المرموقين قد لطّخوا أيديهم، في وقت ما، في شؤون سياسية من المستوى الرفيع. لقد توجّب علينا طمأنته: لحسن الحظ أو لسوئه، لم يكن علماء الآثار وحدهم من يَسَّرَ للجيوش مهمتها، بل على العكس تمامًا، إذ إن معظم فروع العلم تقريبًا (علماء اللسانيات، الباحثين في علوم الأديان، المؤرخين، علماء الجغرافيا، الباحثين في الأدب، علماء الأنثروبولوجيا)، كانت أقامت علاقات مع حكومات دولها خلال أزمنة الحرب. طبعًا لم يحمل الجميع السلاح كما حمله لورنس العرب أو ابن بلدي ألويس موزيل - لورنس مورافيا، إلا أن كثرًا (من ضمنهم نساء مثل غيرترود بيل، أضافت سارة) وضعوا معارفهم بين الحين والآخر، في خدمة الدولة الأوروبية التي ينتمون إليها. لقد أقدم البعض على ذلك بسبب قناعات وطنية، والبعض الآخر طمعًا بالمال أو بمنصب أكاديمي؛ وآخرون رغمًا عنهم - إذ إن الجنود قد استخدموا أعمالهم وكتبهم ومذكرات رحلاتهم الاستكشافية وأفادوا منها. كان لا يُخفى على أحد أن الخرائط لا تُستعمل إلا لشنّ الحروب، راح فرنسوا - ماري يقول، وتلك هي حال أدب الرحلات أيضًا. فمنذ أن لجأ بونابرت إلى رجال العلم عام ١٧٩٨، لكتابة المنشور الذي وجهه إلى الشعب المصري، كما لتصوير نفسه كمحرر هذا الشعب، صار العلماء والفنانون منخرطين، سواء راق لهم ذلك أم لم يرق، في القضايا السياسية والاقتصادية لتلك الحقبة. لا يمكن مع ذلك إدانة كلّ زمرة المستشرقين هذه دفعة واحدة، قالت سارة؛ فذلك بمثابة لوم الكيمياء على اختراع البارود، أو تحميل الفيزياء مسؤولية استحداث علم القذائف: تجب إعادة

الأمور إلى نصابها، معاينة كلّ حالة فردية على حدة، والامتناع عن فبركة هذا الخطاب التعميمي الذي يتحوّل بدوره إلى بنيان عقائدي، إلى أيديولوجيا لا غاية لها سوى تبرير نفسها.

صارت المناظرة صاخبة؛ كانت سارة رمت باسمه هو، الذئب الكبير الذي ظهر فجأة وسط النعاج في هذه الصحراء الجليدية: إدوارد سعيد. كان ذلك بمثابة مناجاة الشيطان في دير راهبات كرمليّات؛ بيلغر الذي أجزعه إمكان إشراكه في أي ضرب من ضروب الاستشراق، شرع في نقد ذاتي مُحْرَج، متبرئًا من كلّ شيء، من أعزّ الأمور على قلبه؛ أما فرنسوا - ماري وجولي، فكانا أكثر اعتدالًا، إذ أقرّا أن إدوارد سعيد طرح تساؤلًا يستثير العواطف، لكنّه تساؤل في محله عن العلاقة بين المعرفة والسلطة في بلاد الشّرق - لم يكن لديّ رأي حول الموضع، وما زلت في الحال نفسه على ما أعتقد؛ كان إدوارد سعيد عازف بيانو ممتاز، كتبَ عن الموسيقى وأسس مع دانيال بارينبويم «أوركسترا الديوان الغربي الشّرقي» الذي تديره مؤسسة مقرها في الأندلس، حيث يُعنى الناس بالجمال في جوّ من المشاركة والتنوع.

راحت أصواتنا تتقهقر بفعل النبيذ والبرد والتعب؛ كُنا بسطنا بطانياتنا على أرض الباحة الصخرية. جولي وفرنسوا - ماري على طرف، أنا وسارة على الطرف آخر - أما بيلغر وزجاجته، ففضّلا (وكانا في ذلك أكثر حنكة منّا) اللجوء إلى السيارة المركونة على بعد بضعة أمتار في الأسفل؛ وجدناهما فجرًا، بيلغر يجلس في مقعد السائق، وجهه مسحوق على النافذة التي تكثّف عليها بخار الماء، وزجاجة النبيذ فارغة ومحشورة في المِقوَد، عنقها موّجه كإصبع اتهام، نحو عالم الآثار النائم.

غطاءان تحتنا، وغطاءان فوقنا: ها هو سريرنا التدمري؛ كانت

سارة مُتكوِّرة على نفسها، ظهرها يكاد يُلامس بطني. سألتني بلطف إن كان ذلك يُضايقني: حاولت أن أخفيَ حماستي، بالطبع لا، إطلاقًا، يا لها من حياة مُباركة، حياة البدو هذه، رحت أفكر - كان شعرها يعبق برائحة العنبر ونار الحطب؛ لم أكن أجرؤ على القيام بأي حركة، خشية أن أزعج تنفسها الذي راحت وتيرته تستحوذ عليّ؛ صرتُ أحاول أن أستنشق مثلها، ببطء شديد؛ كانت تقويسة ظهرها الطويلة بالقرب من صدري، تشطبها بالعرض حمالة الصدر التي كنت أشعُر بمشبكها المعدني على ذراعِي المثنية؛ وكانت ساقاها باردتَيْن، فشبكتهما بعض الشيء في ساقَي أنا - نايلون جواربها الذي يُلامس بطنيّ، كان ناعمًا ومُكهربًا في الوقت عينه. ركبتاي في تجويفيّ ركبتَيْها، كان عليّ ألا أفكر كثيرًا في هذا التلاصق، أمرٌ طبعًا مستحيل، إذ كانت رغبة هائلة، رغم نجاحي في مقاومتها، تنهشني بصمت. كانت حميمية هذه الوضعية تتسم في الوقت ذاته، وعلى صورة الشّرق نفسه، بالعفة والشهوانية، وقبل أن أدفن جفنَيّ لبضع ساعات في تجاعيد شعرها، ألقيتُ نظرة أخيرة نحو الفضاء الشاسع الذي ما وراء صوف البطانيات الأزرق، تطلعّت نحو سماء تدمر، فشكرتها على أنها ليست مضيافة بتاتًا.

كان استيقاظنا هزليًا، على صوت السيّاح الأوائل الذين وصلوا قبل بزوغ الفجر بلحظات - كانوا من منطقة «شفابن» الألمانية، وكانت لهجتهم الرخيمة في غير محلها هنا في تدمر. قبل أن أزيح الغطاء الذي كنا نرتجف تحته محتضنًا واحدنا الآخر كأننا نستعدّ لملاقاة حتفنا، كنتُ أحلمُ في أنني أستيقظ في نُزل قرب شتوتغارت: فتحتُ عينَيّ لا أدري أين أنا، فأبصرتُ مجموعة من أحذية تسلُّق الجبال والجوارب السميكة والسيقان، بعضها كثيف الشعر وأخرى شعرها ضئيل، تعلوها سراويل «شورت» رمليّة اللون. أعتقدُ أن

الحرج الذي أصاب زمرة القوم الطيبين هؤلاء كان يوازي حرجنا نحن؛ كانوا يريدون التمتع بمنظر الشمس وهي تُشرق خلف الآثار، فوجدوا أنفسهم على حين غرة وسط مُخيّم مُستشرقين. تملّكني خجل رهيب؛ أعدت من فوري تغطية رأسينا بالبطانية، بشكل لا إرادي وأحمق، ما كان مثيرًا للسخرية بشكل مُضاعَف. كانت سارة استيقظت هي الأخرى، وكانت تقهقه؛ تَوَقّفْ، همست لي، سيظنوننا عاريَيْن تحت هذه الأغطية - الأرجح أن الألمان كانوا يستطيعون رؤية حركة جسدَيْنا تحت اللحف كما سماع وشوشاتنا؛ لن أخرج أبدًا من هنا، همستُ لها. والخروج كانت عبارة نسبية، إذ كنا حقيقة في الخارج، لكن تمامًا مثل الأطفال حين يختبئون في مغارة خياليّة، داخل بطانياتهم، كان غير وارد على الإطلاق أن أعود إلى العالم الخارجي قبل رحيل هؤلاء الغزاة. أما سارة، فكانت تلعب اللعبة هذه على أصولها وهي تضحك: فتحتْ مجرى هواء حتّى لا نختنق بالكامل؛ ثمّ راحتْ عبر طيّة، تتجسس على تموضع جنود العدّو حولنا، الذين كانوا لا ينوون مغادرة الباحة في ما يبدو. كنتُ أتنشّق نَفَسها، رائحة جسدها الصباحية. كانت مُلتصقة بي، ممدة على بطنها - تجرّأتُ وأحطتُ كتفيها بذراعِي، بحركة، رحتُ أفكر، يمكنها أن تبدو أخويّة. التفتتْ نحوي وابتسمتْ؛ أخذتُ أتضرع لأفروديت وعشتار، أطلب منهما أن يحوّلا ملاذنا القماشي صخرًا، أن يجعلانا غير مرئيَيْن ويتركانا نمكثُ هنا إلى أبد الآبدين، في خُلوة السّعادة هذه التي شيّدتُها من غير قصد، بفضل هؤلاء الفرسان الصليبيين من شفابن الذين أرسلهم إله عطوف: كانت تنظر إليّ مُبتسمة ساكنة، بلا حركة، شفتاها على بعد بضعة سنتيمترات من شفتيّ. كان حلقي جافًا، أشحتُ بنظري، تذمرتُ مُتفوّهًا بترهة ما وفي اللحظة عينها تقريبًا، سمعنا صوت فرنسوا - ماري يُلعلع: «صباح الخير سيداتي

سادتي، أهلًا بكم في قلعة فخر الدّين»[1]؛ ألقينا نظرة خاطفة إلى خارج خيمتنا المُرتَجلة فانفجرنا ضاحكَيْن عندما رأينا فرنسوا - ماري خارج كيس نومه، أشعث الشعر، لا يرتدي إلا سروالًا داخليًا أسود كشعر صدره، ليؤهّل بزوار ساعة السحَر - نجح هذا الجِنّيُّ في جعلهم يهربون على الفور تقريبًا، لكنني لم أقُم بأي حركة لإزاحة الغطاء الذي كان يحجبنا، ولا سارة؛ بقيَتْ في مكانها، في غاية القرب مني. كان نور الفجر يُرقِّط داخلَ كهفنا ببقع فاتحة. أدرتُ بجسمي نحو الجهة الأخرى من دون أن أدري لماذا؛ تكوَّرتُ على نفسي، كنتُ أشعر بالبرد، التصقَتْ بي واحتضنتني، كنتُ أحسُّ بزفيرها على عنقي، بنهديها على ظهري، بقلبها ينبض مع قلبي، فتظاهرتُ بأنني غفوتُ من جديد، يدي في يدها، فيما شمس بعل تعلو رويدًا رويدًا في السماء، لتُدفِئ ما لم يعد في حاجة إلى مزيد من الدفء.

إن ليلتنا الأولى معًا في السرير نفسه (هي ستقولُ لاحقًا إن الحديث عن «السرير» نفسه فيه شيءٌ من المبالغة) تركت فيّ ذِكرى لا تُمحى، كما سببت لي ألمًا في كلّ عظامي ونزلة برد لعينة: أمضيتُ ما تبقى من رحلتنا الاستكشافية وأنفي يسيل، أحمرّ خجلًا من هذه الإفرازات مع أنها كانت طفيفة وفي منتهى العاديّة، وكأن أنفي كشف على الملإ، بشكل رمزي، ما لم ينفك لاوعيي عن التخطيط له في السّر طوال الليل.

أخيرًا، نجح السيّاح في طردنا، أو أقلّه في إرغامنا على النهوض والشروع بإزالة مُخيّمنا، إذ كنا خسرنا المعركة حتّى قبل اندلاعها - استطعنا عبر حرق أغصان صغيرة ويابسة بتأن وصبر، أن نغلي بعضًا

---

(١) بالإنكليزية في النص الأصلي.

من الماء لتحضير قهوة تركية؛ أرى نفسي من جديد، جالسًا على الصخرة، أتأمل واحة النخيل هناك في البعيد، خلف المعابد، ممسكًا بفنجان. اتّضحَ لي المعنى الغامض حتّى ذاك الحين، لبيتَي بدر شاكر السياب، «عيناك غابتا نخيل ساعة السحر/ أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر» اللذين يستهلّ بهما «أنشودة المطر»؛ استحضاري شاعر البصرة المسكين الذي تاه في أغوار الأسى والمرض، أسعد سارة. تلك الليلة، ذلك الصباح، تلك البطانية. . . خلقت بيننا حميميّة، لقد روّض جسدُ أحدنا جسدَ الآخر، صارا لا يرغبان في الافتراق - كانا يواصلان الالتصاق واحدهما بالآخر، احتضان واحدهما الآخر بألفة لم يعد يبررها البرد.

أفي تلك اللحظة تحديدًا، أتتني فكرة تلحين هذه القصيدة؟ على الأرجح. هل نعومة تلك الليلة الجليديّة التي أمضيتها في الصحراء، وعينا سارة، وصباح تدمر، والأساطير التي تطفو فوق الآثار، هي ما وَلَّد هذا المشروع؟ إنه في الأقل، ما أحِبّ أن أتخيّله - ربّما كان القدر يمارس إحدى ألاعيبه عليّ، فصار دوري أنا أن أكون وحيدًا، مريضًا وكئيبًا في فيينا النائمة، كالعراقي السيّاب الذي أثرّ فيّ كثيرًا مصيرُه وأنا في دمشق. يجب ألا أفكّر في المستقبل المُرعب الذي تتنبأه لي كُتُب الطب كأنها عرّافات، لمن أبوح بمخاوفي، لمن أفصح عن رعبي من الانحلال، من التعفّن كالسيّاب، رعبي من أن تسيح شيئًا فشيئًا عضلاتي ويسيح دماغي، رعبي من أن أخسر كلّ شيء، من أن أرغَم على التخلّص من كلّ شيء، جسدي وعقلي، قطعة قطعة، نتفة نتفة، وتشنّجًا بعد تشنّجٍ، حتّى أصبح عاجزًا عن تذكرّ أي شيء، عاجزًا عن الكلام والحركة، هل بدأ هذا المسار فعلًا، إنه أكثر ما يروعني، هل أضحيتُ الآن أقلّ ممّا كُنتُه البارحة من دون أن أشعر بهذا التقهقر الذي يصيبني - بالتأكيد أشعُرُ به في عضلاتي، في

يديَّ المنقبضتَين، في تشنّجاتي وأوجاعي وحالات الإرهاق الحاد التي بمقدورها أن تسمرني في السرير، أو في الأرق ونوبات النشاط المفرط واستحالة التوقف عن التفكير أو عن التكلم وحدي. لا أريد أن أغوص في أسماء هذه الأمراض، يهوى الأطباء وعلماء الفلك إطلاق أسمائهم على اكتشافاتهم، أما علماء النبات، فيستخدمون أسماء زوجاتهم - يمكن أن نتفهّم إلى حد ما، شغف البعض بربط أسمائهم بأجرام سماوية، لكن لماذا أعار هؤلاء الأطباء الكبار أسماءهم إلى آفاتٍ مُرعبة لا سبيل إلى علاجها، أسماؤهم اليوم مرادفٌ للفشل، للعجز والفشل، أسماء مثل شاركو وكروتزفيلد وبيك وهنتنغتون، جميعهم أطباء أضحوا (عبر مَجازٍ غريب، حيث يحلّ الشافي محلّ الداء الذي لا شفاء منه) المرض نفسه وإن كان سيتم التثبُّت قريبًا من اسم مرضي (الطبيب شخصٌ مهووسٌ بالتشخيص؛ هو يضع معنى لعوارضٍ مبعثَرة عبر حشرها داخل كيانٍ واحد مُحدَّد: الدكتور كراوس سيتنفس الصعداء حين سيتيقن من أنني مُصاب بداء مميت، أي بمتلازمة معروفة، لها اسم واضح كأن آدم نفسه أطلقه عليها)، فذلك بعد شهور من الفحوصات، من التجوال من قسم إلى قسم، من مستشفى إلى مستشفى - أرسلني كراوس قبل سنتَين لاستشارة مختصّ بالأمراض المعدية والاستوائية، إذ كان مقتنعًا بأنني جلبت معي جرثومة من إحدى سفراتي، ومع أنني أخذت أشرح له بإسهاب، أن إيران لا تعجّ بالبكتيريا المُتوحّشة ولا بالطلائعيات العجيبة (وأنني لم أغادر أوروبا منذ سنوات)، كواحدٍ من سكان فيينا الأصِيلين الذين يعتبرون أن ما وراء الدانوب بداية العالم البرّي الشاسع، اتَّخذ هيئة المُحنّك الفهيم، تلك الهيئة المنتشرة للغاية بين العلماء كأنها قناع يرتدونه في كلّ مرّة يسعون فيها لإخفاء جهلهم، وأنعم عليّ بعبارة «لا أحد يعلم»، جملة أراد غروره الطبّي أن يضفي

عليها المعنى الآتي: «أنا أعلم بما أنتَ مُصاب به، فلدي أفكارٌ لا أبوح لك بها». وجدتُ نفسي إذًا أمام مختصّ بالأمراض المعدية الأجنبية، أنا وعوارضي المسكينة (صداع نصفي، أرق، تشنجات، آلام شديدة في الذراع الأيسر)، وما ضاعف استيائي من الانتظار في رواق مستشفى، أن سارة كانت في فيينا وقتذاك، وأنه كان علينا القيام بزيارات سياحية مُلحّة ومُريعة. قلت لها إن لديّ موعدًا في المركز الطبي، لكنني لم أبُح لها بالسبب: كنتُ أخشى كثيرًا أن تتخيّل أنني قد أنقل لها عدوى ما، فتصير تقلق على صحّتها وتتجنبني - لعله حان الوقت لإطلاعها على مشكلاتي، أنا لم أجرؤ بعد على ذلك، لكن إن أحالني المرض في الغد القريب، حيوانًا شهوانيًا وفاحشًا لا ينفك اللعاب يسيل من فمه، أو يَرَقةً مُتيبِّسة لا تُبارح كُرسيها المثقوب[1]، لن أستطيع حينئذٍ أن أقول لها أي شيء، سيكون قد فات الأوان. (مهما يكن من أمر، كيف لي أن أشرح لها أي شيء وهي، في ما يبدو، تائهة في ساراواك، أي رسالة يمكن أن أكتبها لها، ولمَ الكتابة لها هي تحديدًا؟ فماذا تُمثّل بالنسبة إليّ، أو بالأحرى - أمرٌ يكتنفُه مزيدٌ من الغموض - ماذا أمثّل أنا بالنسبة إليها؟). أنا لا أملك أيضًا الشجاعة لأفاتح أمي بهذا الموضوع، إذ كيف تقولُ لأمٍّ ناهزت الخامسة والسبعين من عمرها، أنها ستضطر لمسح مؤخرة ابنها، ولإطعامه بالملعقة، إلى أن ينطفئ، وبينما جسمه قد ذبل وانكمش إلى حد أنه صار في مقدوره أن يعود إلى رحمها، هذه فظاعة لا يمكنني اقترافها، لا سمح الله، إنني حتّى أفضّل أن أفطس وحيدًا، لا أحد إلى جانبي سوى كراوس. وكراوس ليس رجلًا سيئًا؛ أجل، أنا أكرهه، لكنّه حليفي الوحيد، على عكس أطباء

(١) الكرسي المثقوب يستخدم للتبول والتبرز.

المستشفى، أولئك القرود الملاعين الذين لا يمكن التنبؤ بما سيفعلون أو يقولون. كان المختصّ بالأمراض الاستوائية، يرتدي معطفًا أبيض مفتوحًا على سروال من القماش الأزرق؛ كان بدينًا بعض الشيء، وجهه سمينًا مستديرًا ولهجته برلينيّة. يا له من أمر مُضحك! رحتُ أفكر، أكيدٌ أن مختصًا بالأمراض المعدية الإكزوتيكية سيكون ألمانيًا، فلطالما كانت إمبراطوريتُنا نحن النمساويين، إمبراطوريةً أوروبية، لم يكن لدينا جزر ساموا ولا محميّة توغولاند لدراسة الحمى الوبائية. لقد طرحتْ عليّ سارة السؤال، كيف كان الموعد، هل كلّ شيء على ما يرام؟ أجبتها أن كلّ شيء على ما يرام، وأن الطبيب يُشبه الكاتب الألماني غوتفريد بن، فانفجرت ضحكًا على الفور، كيف هذا؟ هو يُشبه غوتفريد بن، لكن لا شيء يُمِيِّز مظهر غوتفريد بن، هو يشبه الجميع ولا يُشبه أحدًا - بالضبط، لا شيء يُمِيِّز غوتفريد بن، لذا فإن هذا الدكتور هو صورة طبق الأصل عنه. طوال هذه الاستشارة، كنتُ أتخيّلُ نفسي كأنني في محجر صحي على الجبهة البلجيكية عام ١٩١٤، أو في عيادة مريعة للأمراض الجنسية في جمهورية فايمار، وكان غوتفريد بن يُعاين بشرتي بحثًا عن آثار أمراض طفيلية أو عن «وحده الله يعلم ماذا أيضًا»، مُقتنعًا بأن الشرَّ مُتأصّلٌ في بني البشر. في أي حال، لم أجرِ الفحوصات المشينة التي طلبها مني الدكتور بن، فالتغوط في علبة بلاستيك أمرٌ لم أكن أقوى بتاتًا على القيام به، ما لم أعترف به لسارة، بكلّ تأكيد - لكن دفاعًا عن نفسي، عليّ الإضافة أن معاينة المرء وفحصه من قبل مؤلف كتابيّ «المشرحة» و«اللحم» ليس بأمر يريح البال. ولتجنّب الحديث مع سارة حول هذا الموضوع، انطلقتُ مُربكًا، في مقارنة بين غوتفريد بن وجورج تراكل اللذين ينبغي، في الوقت عينه، المقاربة بينهما ووضعهما على طرفيّ نقيض؛ تراكل،

هذا الكتوم الرقيق، والذي تنثر أشعاره غشاءً ضبابيًا على الواقع، فتضفي عليه شيئًا من السحر؛ تراكل، هذا الرّجل المُرهف من مدينة سالزبورغ، الذي تَحْجِب غنائيتُه أناه، تواريها في عمق غابة من الرموز المعقّدة؛ تراكل المشؤوم، مُدمن المخدّرات، المولع إلى حد الجنون بشقيقته وبعصارة الخشخاش، والذي تفيض كتاباته بصور القمر والدم، دم الأضاحي، دم الحيض، دم فض البكارة، نهرٌ جوفي يجري حتّى المقابر الجماعية لمعركة غروديك في عام ١٩١٤، حتّى أولى ضحايا معارك غاليسيا - تراكل الذي ربّما وفاته المُبكرة للغاية ما أنقذه من اتخاذ خيارات ومواقف سياسية شنيعة كتلك التي اتخذها غوتفريد بن، سارة هي من أصدرت هذا الحُكم المُريع، أن يموت المرء شابًا قد يقيه أحيانًا من أخطاء سن النضج المرعبة؛ تخيَّلْ لو أن غوتفريد بن مات عام ١٩٣١، قالتْ، هل ستكون نظرتُكَ إليه هي هي لو أنه لم يكتب «الدولة الجديدة والمثقفون»، لو أنه لم يتلفّظ بعباراته المشينة بحق الكُتّاب المناهضين للفاشية؟

كنتُ أرى مُغالطةً في هذه الحجة؛ إذ كُثرٌ هم من لم يلقوا حتفهم عام ١٩٣١ من دون أن يُمجّدوا مع ذلك، بـ«انتصار الدُوَل الاستبدادية الجديدة» كما فعل غوتفريد بن؛ بحسب بن، الجسد ليس مَسْكَن الروح، هو مجرد أداة بائسة ينبغي العمل على تطويرها، بواسطة علم الوراثة، لتحسين النسل البشري ومضاعفة قدرات الإنسان. وأن يُرَوَّع الأطباء لاحقًا من عواقب نظرياتهم، لا يُبرّئهم. أن يبتعد بن أخيرًا من النازيين، بعد وقت قصير من وصولهم إلى السلطة، لا يُبرِّئه. بن وأمثاله شركاء في صناعة الوهم النازي. وإن رعبهم اللاحق من المسخ الذي خلقوه، لا يعذرهم بتاتًا.

ها هي دقات قلبي تتسارع من جديد، وها هو هذا الإحساس بالاختناق يتملّكني مرة أخرى. صور الموت، العظام المُهشّمة في

سويداء تراكل، القمر، الظلّ الخريفي لشجرة المران، حيث تتنهد أرواح المذبوحين، سبات وموت، نسور مشؤومة - «انظري يا شقيقتي، أنتِ التي يعصِف بك الأسى، انظري إلى القارب يغور تحت النجوم، متجهًا نحو الليل الأخرس» - التأوهات الوحشية الطالعة من أفواه مُحطّمة. ليتني أعود إلى الصحراء، أو إلى أشعار السيّاب، ذاك العراقي ذو الوجه الدميم والأذنَين العملاقتَين الناتئتَين، الذي مات فقيرًا وحيدًا متألمًا في الكويت، حيث كان يصرخ عاليًا للخليج العربي: «يا خليج يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والرّدى»، فلا يجيبه إلا الصدى الذي يحمله نسيم الشّرق على جناحيه، «يا واهب المحار والرّدى»، هو ذا الاحتضار، هو ذا الصمت الذي لا تكسره إلا كلماتي الهامسة، أنا أغرق في تنفُّسي، في ذعري، أنا سمكة لفظها البحر. لِأُخرج رأسي بسرعة من الوسادة، من مستنقع الجزع هذا، لأشعل اللمبة، لأتنفس في الضوء.

ما زلت أتنفس في الضوء.

كتبي جميعها أمامي، تحدّق بي، أفقٌ هادئ، جدار سجن. آلة العود التي اقتنيتها من حلب، حيوانٌ كرشه كبير وساقه قصيرة ورفيعة، غزال أعرج، كتلك الغزلان التي كان يصطادها الأمراء الأمويون أو مارغا داندوران في البادية السورية. يُشبه هذا العودُ رسمة فرديناند ماكس بردت «الغزالان»، حيث نرى شابة سوداء العينين، ترتدي سروالًا فضفاضًا، وتُطعِم الحيوان البديع من يدها.

أنا ظمآن. كم من الوقت تبقى لي من حياتي؟ ما الذي فوّته على نفسي لأجدني الآن وحيدًا في هذا الليل، مستيقظًا، دقات قلبي متسارعة، عضلاتي ترتجف، حريق في عينيّ، أستطيع أن أنهض، أن أضع سماعة الرأس وأستمع إلى الموسيقى، أن أعثر على مواساة في الموسيقى، في عود نديم مثلًا، أو في رباعيّةٍ لبيتهوفن، إحدى

الرباعيات الأخيرة التي ألّفها - كم الساعة الآن في ساراواك! لو تجرّأتُ وقبّلتُ سارة ذاك الصباح في تدمر بدل أن أُعَدِّل وضعيّة نومي كجبان، ربّما لكان كلّ شيء مختلفًا اليوم؛ ففي بعض الأحيان، إن قُبلةٌ واحدة كفيلةٌ بتغيير مجرى حياة بأكملها: يستجيب القدر وينحني، ينحرف عن مساره الأصلي. حتّى في ذلك الوقت المُبكر، عندما عدتُ إلى توبنغن بعد ندوة «هاينفلد»، والتقيتُ بتلك التي كانت حبيبتي آنذاك (هل حقّقَتْ سيغريد حلمها وصارت مترجمة لامعة، ليس لديّ أدنى فكرة)، أدركتُ إلى أي حدّ كانت علاقتي بها، بالرّغم من عمقها وحميميتها، باهتةً مقارنة بما لمحته وأنا قرب سارة: أمضيتُ الأشهر التالية أفكر بها وأكتبُ لها بانتظام، لكن بالسر، كأنني كنتُ على يقين من أن في هذه الرسائل، ورغم براءة محتواها، قوّة جبارة تفعل فعلها وتهدد علاقتي بسيغريد. وإن كانت حياتي العاطفية (لأواجِه الحقائق) قد باءت بفشل ذريع، فلا شك لأنني احتفظت دائمًا، بشكل واعٍ أو غير واعٍ، بمكان لسارة، ولأن هذا الانتظار قد حال، حتّى اليوم هذا، دون انخراطي كاملًا في قصة حب أخرى. هي المذنبة، فمن المعروف جيدًا أن رياح تنورةٍ كفيلةٌ بجرف رجل أكثر من إعصار؛ لو أنها لم تثابر في إبقائها على هذا الالتباس، لو أنها كانت أكثر وضوحًا، لما كنتُ الآن هنا، جالسًا في قلب الليل مُحدِّقًا برفوف مكتبتي ويدِي لا تزال على المفتاح البلاستيك (غرضٌ ذو ملمس ناعم) لمصباح السرير. سيأتي يومٌ لن أقوى فيه حتّى على القيام بهذه الحركة بالرّغم من بساطتها: أن أضغط على مفتاح الضوء، إذ ستكون أصابعي متصلّبة متخشّبة إلى درجة أنني سأعاني كثيرًا لإضفاء بعض من النور على عتمتي.

عليّ أن أنهض لأشرب لكن إن غادرتُ سريري فلن أغفوَ مجددًا قبل الفجر، ينبغي دائمًا إبقاء زجاجة ماء في متناول اليد، قِربة من

الجلد، كما في الصحراء، قِربة تضفي على السوائل عطرها الخاص، رائحة الماعز والقطران: النفط والحيوان، هذا هو طعم شبه الجزيرة العربية - كان ليوبولد فايس سيوافق على ذلك، هو الذي أمضى أشهرًا على ظهور الجمال بين المدينة المنورة والرياض أو بين الطائف وحائل في الثلاثينيات من القرن المنصرم، ليوبولد فايس الذي غيّر اسمه إلى محمد أسد بعد أن اعتنق الإسلام، ألْمَعُ مراسلٍ من الشّرق الأوسط في ذاك الزمن، كتَب لـ«صحيفة فرانكفورت» كما لمعظم الصحف المهمّة الصادرة في جمهورية فايمار، ليوبولد فايس اليهوديّ المولود في غاليسيا، والذي تلقّى تعليمه في فيينا ليس ببعيد من هنا: هذا هو الرّجل، أو بالأحرى الكِتاب، المسؤول عن رحيلي إلى دمشق بعد إقامتي في إسطنبول. أرى نفسي مجددًا، في تلك الأسابيع الأخيرة التي أمضيتها في توبنغن، وفيما سيغريد كانت تسير على دربٍ راح، مع الأيام، يبتعد أكثر فأكثر من دربي أنا، بُعْدًا كانت رحلتي إلى تركيا قد ضاعفته، أرى نفسي - بين كتابة رسالتَيْن إلى سارة، إلى هذه النجمة التي لا يمكن بلوغها - وأنا أكتشفُ مبهورًا، مذكرات محمد أسد: «الطريق إلى مكة»، هذا العمل المدهش الذي كنتُ أقرأه كأنني أقرأ القرآن، جالسًا على مقعد خشبي، تحت شجرة صفصاف، مقابل نهر الـ«نيكار»، مُفكِّرًا: «إن كان الله في حاجة إلى وسطاء، فليوبولد فايس هو إذًا قدّيس»، لدرجة ما عثرتُ في شهادته هذه، على وصف دقيق للقلق الذي كان يستحوذ عليّ منذ إسطنبول - أذكر بدقّة جُملًا اعتصر لها قلبي وجعلتني أذرف الدموع: «يختلف النشيد المهيب هذا عن جميع أناشيد البشريّة الأخرى. وبينما راح قلبي يشب ولِعًا بهذه المدينة وبأصواتها، بدأتُ أشعُر بأن لجميع نزهاتي هدفًا واحدًا لا ثاني له: محاولة فهم معنى هذا النداء...» معنى هذا الأذان، هذه الـ«الله

أكبر» التي تَصدُح بها كلّ مآذن العالم منذ زمن الرسول، معنى هذا اللحن الفريد من نوعه الذي زعزع كياني أنا أيضًا حينما سمعته للمرّة الأولى في إسطنبول، بالرّغم من أن الأذانَ في تلك المدينة تحديدًا، أذانٌ محتشم يطغى عليه صخب الحداثة. جالسًا على مقعدي الخشب في توبنغن، ورغم أن المشاهد الطبيعيّة المحيطة بي كانت أبعد ما تكون عن تلك التي في الجزيرة العربية، لم أكن أقوى على إزاحة عينيّ عن هذه الجُملة: «محاولة فهم معنى هذا النداء»، كأنها تجسيد للكلمة الإلهية؛ وكان صوت المؤذّن يجلجل حينذاك في أذنيّ، صوتٌ واضحٌ إلى أقصى الحدود، النشيد ذاته الذي سحر فيليسيان دافيد أو ابن بلدي ليوبولد فايس إلى حدّ أنه قلب رأسًا على عقب حياة كلّ منهما - أنا أيضًا كنتُ أريد أن أحاول فهم معنى هذه الصرخة، أن ألحق بها، ممتلئًا بذكرى ما اختبرته في مسجد سليمان؛ كان عليّ أن أرحل، أن أكتشف ما يتوارى خلف هذا الحجاب، أن أعثر على منبع هذا النشيد. يمكن القول أن حياتي الرّوحيّة خرابٌ مماثل لخراب حياتي العاطفية. أجد نفسي اليوم ضائعًا حائرًا من أمري كما من ذي قبل، لا يواسيني أي إيمان - لا شك في أنني لست من بين من قدَّر لهم الله الخلاص؛ ربّما كانت تعوزني إرادة الناسك، أو مُخيِّلة الصوفي الخلّاقة؛ ربّما الموسيقى هي، في نهاية المطاف، ولعي الوحيد. لقد تَبَدَّت لي الصحراء مجرد كومة من الحصى؛ وبقيت المساجد، في نظري، خاوية مثل الكنائس؛ ومع أنني أبصرت الجمال المُتواري في حياة القديسين والشعراء، وفي كتاباتهم، إلا أن هذه الأشياء كلها ظلّت تتلألأ من البعيد البعيد، لا يصلني قط شُعاع جوهرها الذي تكلم عنه ابن سينا - إنني محكوم بماديّة إرنست بلوخ الطوباوية، والتي هي، في حالتي أنا، نوع من الإذعان، «مفارقة توبنغن». ففي توبنغن، لمحت مسارات ثلاثة كان

يمكنني اتخاذها: الدّين، مثل ليوبولد فايس المعروف بمحمد أسد؛ الطوباوية، مثل في كتابَي «روح اليوتوبيا» و«مبدأ الأمل» لبلوخ؛ أو جنون وانزواء هولدرلين الذي كان برجه - الصومعة يُلقي بظلاله المريبة، من بين أشجار الصفصاف وقوارب نهر الـ«نيكار»، على المدينة بأكملها. لماذا، بحق السماء، اخترتُ الإفادة من السخاء النسبي الذي أبدته «المجموعة الأوروبية» تجاه الطلّاب، فذهبتُ إلى توبنغن لا إلى باريس أو روما أو برشلونة مثل جميع رفاقي، لم أعد أذكر بالضبط سبب ذلك؛ لا بد أن إمكانية التقرُّب من شِعر هولدرلين، واستشراقِ إينو ليتمان، وفلسفة الموسيقى لإرنست بلوخ، بدت لي برنامجًا جذابًا. كنت قد التهمت ألوف الصفحات التي تحتويها ترجمة ليتمان لألف ليلة وليلة وشرعت أتعلّم العربية على أيدي تلامذته. كان غريبًا تَخيُّل أن توبنغن وحتى ستراسبورغ (حيث ألقى ثيودور نولدكه ويوليوس أويتنغ محاضراتهما) كانتا، منذ مئة سنة، المدينتَيْن الأكثر شرقيَّتَيْن في الإمبراطورية الألمانية، ذلك إلى أن زعزعت الحرب العالمية الأولى مجالات العلوم والأبحاث كلها.
في هذا الحيّز الشاسع من الدراسات الاستشراقية، كان إينو ليتمان يُعدُّ من بين أهمّ الباحثين الألمان؛ هو، على سبيل المثل، من قام بتحرير وإصدار مذكرات رحلات يوليوس أويتنغ الشهير الذي سحرتنا مغامراته مرويةً، في تدمر، على لسان بيلغر؛ لقد جاب ليتمان، هذا الباحث في مجال اللغات الساميّة، جميع أنحاء جنوب سورية منذ عام ١٩٠٠ بحثًا عن كتابات منقوشة نبطية؛ في إحدى رسائله إلى المختصّ بالحضارات الشّرقيّة القديمة إدوارد ماير، يصف ليتمان حملة تنقيب عن الآثار في حوران خلال فصل الشتاء - يروي لنا لقاءه، في خضمّ صراعه مع البرد والرياح والعواصف الثلجية، ببدويٍّ يدعو نفسه كلب الله: بالنسبة إلى ليتمان، كان هذا اللقب الخنوع

للغاية بمثابة هبوط اليقين عليه. فكما حدس ليوبولد فايس، إن تواضع الحياة البدوية إحدى أقوى الصُّوَر التي يبثها الإسلام: التخلي المطلق عن أبهة الدنيا، الزهد وسط عراء الصحراء - هو هذا النقاء، هي هذه العزلة ما جذبني أنا أيضًا. كنت أتوق إلى لقاء هذا الإله الحاضر للغاية، الطبيعي للغاية لدرجة أن عباده الخاشعين يدعون أنفسهم كلاب الله وهم في فقر مدقع. كانت ثمة رؤيتان متناقضتان إلى حد ما في ذهني: من جهة، عالم ألف ليلة وليلة، هذا العالم المدِينِي والغرائبي، المشحون بالشهوة، ومن جهة ثانية، عالم «الطريق إلى مكة»، عالم الخواء والتجاوز والقداسة؛ كانت إسطنبول بمثابة اكتشاف نسخة معاصرة عن الأول - وكنتُ آمل ليس أن أعثر في سورية، في شوارع دمشق وحلب ذات الأسماء الساحرة، على طراوة أحلام ألف ليلة وليلة الشهوانية فقط، بل أن ألمح أيضًا، في الصحراء هذه المرة، ذاك النور الذي تكلم عنه ابن سينا، الشعاع المنبعث من الكلّ الأكبر. فمقترنًا بقراءاتي لأعمال محمد أسد، كان انغماسي في إرنست بلوخ ومؤلَّفه «آثار»، كما في نَصِّه الوجيز عن ابن سينا، قد بثّ في ذهني (لسوء حظ المسكينة سيغريد التي صرتُ أقرأ لها بصوت عالٍ، مقاطع طويلة طويلة من هذه الكُتُب) فوضى خلّاقة لكن مُشَوِّشة، حيث أخذ الفيلسوف الماديّ الطوباويّ بيد المُتَصوِّف المسلم، وصالح بين هيغل وابن عربي، كلّ ذلك من خلال الموسيقى: فمتربعًا لساعات طوال، مقابل سريرنا، على كرسيٍّ واسع ومخلَّع كان بمثابة صومعتي، واضعًا سماعات الرأس ومن دون أن أدع مجيء سيغريد وذهابها (ساقان بيضاوان، بطن مشدود، نهدان مرتفعان وصَلِبان) يشتتان تركيزي، كنتُ أتوه برفقة المُفكرِين: رينيه غينون مثلًا الذي تحوَّل في القاهرة إلى عبدالواحد يحيى، وأمضى ثلاثين عامًا يتبع بوصلة التقاليد التي لا تخطئ، من الصين وصولًا

إلى الإسلام، مرورًا بالهندوسية والبوذية والمسيحية، ذلك من دون أن يغادر مصر، والذي سحرتني كتابته عن طقوس العبور وعن انتقال الحقيقة. تلك لم تكن حالتي أنا وحدي، إذ إن عددًا من رفاقي، خصوصًا الفرنسيين منهم، كان قرأ مؤلفات غينون، فدفعت هذه القراءات بالكثير منهم إلى الانطلاق في سعيهم وراء الشرارة الصوفية، فاتّجه بعضهم نحو المسلمين السنّة أو الشيعة، والبعض الآخر نحو المسيحيين الأرثوذكس والكنائس المشرقية، وآخرون أيضًا، مثل سارة، نحو البوذيين. وعليّ الاعتراف بأنه في حالتي أنا، لم تقم كُتُب غينون سوى بمضاعفة تَشوُّش ذهني.

لحسن الحظ أن الواقع يعيد تصويب أفكارنا؛ لقد بدا لي أن شكليّة مفرطة وعقيمة كانت تسود جميع المذاهب في سورية، وسريعًا ما انطفأت حماستي الروحانية أمام مرأى بهلوانيات زملائي وهم يتدحرجون على الأرض فيما يسيل لعابهم خلال حلقات ذكر صوفية راحوا يرتادونها مرتَيْن في الأسبوع كما يرتاد المرء نادٍ رياضي، نادٍ حيث النشوة الصوفية تأتي سريعًا جدًّا لتكون صادقة: لا شك في أن ترداد «لا إله إلا اللّه» إلى ما لا نهاية وأنتَ تهزّ برأسك برفقة الدراويش، سيوَلِّد حالات ذهنية غريبة وعجيبة، إلا أن ذلك يقوم على وهم نفسي أكثر منه على معجزة الإيمان، أو هو على الأقل، بعيدًا كلّ البعد من معجزة الإيمان كما وصفها ابن بلدي ليوبولد فايس بكثير من التعقّل والرزانة. أن أشارك سيغريد تساؤلاتي لم يكن سهلًا: كانت أفكاري مُبهمة للغاية إلى درجة أنها لم تكن تفهم منها شيئًا، أمرٌ ليس مُستغرَبًا؛ فعالمها هي، عالم اللغات السلافية، كان بعيدًا جدًّا من عالمي. كنا طبعًا نلتقي حول الموسيقى الروسية أو البولندية، حول ريمسكي كورساكوف وبورودين وسيمانوفسكي، لكن من ناحيتي، كنتُ مولعًا بكل ما هو شرقي فيهم، بسيمفونية «شهرزاد»

ومقطوعة «نشيد المُؤذّن العاشق»، وليس بضفاف نهر «فيستولا» أو الفولغا - إن اكتشافي لـ«نشيد المُؤذن العاشق» الذي ألّفه كارول سيمانوفسكي، اكتشافي الـ«الله أكبر» التي تتردّد وسط أبيات الشعر البولندية، لهذا الحب المتفلّت من عقاله («هل أكون هذا المجنون الذي يُغنّي، لو لم أكن أعشقكِ؟ وصلواتي المحمومة التي أناجي بها الله، أليست لأقول لكِ إنني أحبك») الذي تبثّه الأصوات الأوبراليّة، بدا لي تنويعة جميلة على لحن شرقي: لقد تأثّر سيمانوفسكي كثيرًا برحلته إلى الجزائر وتونس عام ١٩١٤، تأثّر بالسهرات الرمضانية، بل أولع بها ولعًا يُمكننا تلمُّسه في «نشيد المُؤذن العاشق»، رغم أن الصبغة العربية لهذا النشيد، خافتة جدًا: فسيمانوفسكي كان يكتفي بإعادة استخدام الدرجات الفاصلة التي تتميّز بها المقطوعات التي «تُقلّد» الموسيقى العربية، من دون أن يكترث بأرباع الأبعاد التي أدخلها فيليسيان دافيد؛ إذ إن سيمانوفسكي، في استحضاره الموسيقى العربية، لم يكن بحاجة إلى التخلّي عن التناغم أو إلى كسره. إلا أنه كان قد سمع أرباع الأبعاد هذه؛ وسوف يستخدمها في عمله المعنون «أساطير»؛ قناعتي هي أن هذه المقطوعات التي قلبت رأسًا على عقب «ريبرتوار» القرن العشرين لآلة الكمان، تمدّ جذورها في الموسيقى العربية. لكنّها موسيقى عربية تم هضمها، فلم تعد عنصرًا غريبًا أو خارجيًا يُستحضَر لإضفاء طابع إكزوتيكي، بل أضحت إمكانية فعلية للتجديد: قوّة للتحديث وللتطوير، لا لإطلاق ثورة، كما أكّد هو نفسه. لم أعد أذكر ما إذا كنتُ، وقت إقامتي في توبنغن، سمعتُ بعد مقطوعاته التي لحّن فيها أشعارًا لحافظ الشيرازي، وتحفته «نشيد الليل» حيث استخدم قصائدَ للرومي - لا أظّن ذلك.

كان صعبًا أن أشارك سيغريد أهوائي الجديدة؛ بالنسبة إليها، كارول سيمانوفسكي تجسيدٌ لأحد جوانب الرّوح البولندية، ولم تكن

ترى فيه أي شيء شرقي؛ كانت تُفضّل مقطوعات الـ«مازوركا» على «نشيد المُؤذن»، تفضّل رقصات جبال «تاترا»[1] على رقصات جبال الأطلس. كانت نظرتها هي الأخرى للأمور، مُبرَّرة تمامًا.

ربما متحرِّرَيْن من انسجام الروح، أطلقَ جسدانا العنان لنفسيهما: لم أكن أنهض عن مقعدي الدوغمائي سوى لأَثِب على السرير وألاقي الصدر والساقَيْن والشفتَيْن التي عليه. إن صُوَر عُري سيغريد لا تزال تثيرني إلى اليوم، صُوَر لم تفقد شيئًا من قوّتها، نحافتها البيضاء وهي ممددة على بطنها، ساقاها منفرجتان قليلًا، وحده خطٌّ زهريّ، مُحاط بالقرمزي والأشقر، يطلع من الشرشف الفاتح، أرى الآن بوضوح تام مؤخرتها الصلبة، هضبتَيْن صغيرَتَيْن تتصلان بالوركَيْن، وسلسلةَ فقرات الظهر التي تنتهي عند الطية حيث تلتقي صفحات كتاب الفخذَين المفتوح، وحيث الجلد الذي لا يتعرّض أبدًا لأشعة الشمس هو «سوربيه»[2] ينزلق بنعومة تحت اللسان بينما تتريث يداي في نزولهما منحدر بطّة الرّجل الأملس قبل أن تشرعا باللهو بين الأخدودَيْن المتوازيَيْن داخل تجويفة الركبة، هذا يجعلني أرغب في إطفاء الضوء، في استحضار هذه الرُؤَى بوضوح تحت لحافي، في استعادة غيوم توبنغن في مُخيّلتي، غيومًا كانت مؤاتية للغاية لاستكشاف الأنوثة منذ أكثر عشرين سنة: إن مجرد فكرة إضطراري إلى أن أتعوَّد اليوم على حضور جسد آخر، فكرة أن يضطر أحد ما إلى أن يتعوَّد جسدي، تُرهقني مسبقًا - تُشعرني بكسل هائل، بوهن يكاد يكون يأسًا؛ ستكون عليّ ممارسة الإغواء، نسيان الخزي الذي أشعر به من جسدي القبيح والهزيل، الموصوم بآثار المرض

---

(١) سلسلة جبال تمتد بين سلوفاكيا وبولندا.

(٢) نوع من المثلجات تُحضَّر من الفواكه ولا تحتوي على كريمة أو حليب.

والجزع، نسيان إذلال التعرّي أمام شخص آخر، نسيان العار والعمر المتقدم الذي يحيل المرء بطيئًا وبليدًا، هذا يبدو لي مستحيلًا، أن أنسى، إلا وأنا مع سارة بالطبع، سارة التي يدعو اسمُها نفسَه إلى ثنايا أفكاري الأكثر تواريًا، اسمها، وجهها، ثغرها، صدرها، يداها وعليّ أن أغفوَ الآن وأنا مشحون بكل هذه الإثارة، ومع كلّ هذه الزوابع النسائية التي تحوم فوقي، مع كلّ ملائكة الفسق والجمال هذه - كم مضى على ذلك العشاء مع كاتارينا فوكس، بالكاد أسبوعين، طبعًا لم أعاود الاتصال بها، ولم أصادفها في الجامعة مذّاك، سوف تظّن أنني أتفاداها، وهو صحيح، أنا أتفاداها، بالرّغم من سحر حديثها، بالرّغم من سحرها هي، لن أعاود الاتصال بها، لأكن صريحًا مع نفسي، كلما كان العشاء يقترب أكثر فأكثر من ختامه، كان خوفي ممّا يمكن أن تصل إليه الأمور يتضاعف، ذلك مع أنني بذلت كلّ الجهد للاعتناء بهندامي، ربطت حول قميصي الأبيض ذلك الوشاح الحريري والنبيذي اللون الذي يعطيني هيئة فنان في منتهى الأناقة، مشّطت شعري، رششت الكولونيا، كنتُ آمل إذًا بأن يوصل هذا العشاء إلى شيء ما، لا شك في ذلك، كنتُ آمل بأن أضاجع كاتارينا فوكس غير أنني كنتُ أنظر إلى الشمعة تذوب شيئًا فشيئًا كأنها تُنذِر بوقوع كارثة، كاتارينا فوكس زميلة ممتازة، زميلة قيّمة، تناول العشاء معها كان أفضل بكثير من اللهو مع الطالبات كما يفعل البعض. عمر كاتارينا فوكس قريبٌ عمري، وضعها الاجتماعي والمهني شبيه بوضعي، هي من فيينا، ظريفة، مُثقّفة، تتناول طعامها بطريقة لائقة ولا تثير الفضائح في العلن. كاتارينا فوكس باحثة مختصّة بالعلاقة بين الموسيقى والسينما، يمكنها أن تتكلم لساعات عن «سيمفونية اللصوص» وعن أفلام روبرت فينه. لكاتارينا فوكس وجهٌ لطيف، وجنتاها حمراوان، عيناها فاتحتا اللون، نظّارتها غير

مُزعِجة بتاتًا، شعرها كستنائي، يداها طويلتان وهي تعتني بأظافرها. كاتارينا فوكس تلبس خاتميّن مزيّنين بالألماس - ما الذي أصابني لكي أخطط لعشاء معها، لكي أحلم حتّى بمضاجعتها، لا بد أنها العزلة والكآبة، يا لحالتي البائسة! في ذلك المطعم الإيطالي الأنيق، طرحَت عليّ كاتارينا فوكس أسئلة عن سورية، عن إيران، كانت الشمعة تذوي وتلقي ظلًا برتقاليًا على شرشف المائدة الأبيض، وكان ثمة خصيتان من الشمع تتدليان من الشمعدان الرمادي: لم أشاهد أبدًا فيلم «سيمفونية اللصوص» - عليك أن تشاهده، كانت تقول، أنا متأكدة أنكَ ستعشقه، وكنتُ أتخيّلني أخلع ملابسي أمام كاتارينا فوكس، آه أنا متأكد أنه تحفة! وأتخيّلها تتعرى أمامي لتصير مرتدية فقط ثيابها الداخلية من «الدنتيل» الأحمر التي كنتُ أبصر منها طرف حمالة الصدر، أستطيع أن أعيركَ إياه إن أردتَ، لدي نسخة «دي في دي» منه، كان ثدياها مثيرَين للاهتمام وذوا حجم مُحْتَرم، يقدمون «تيراميسو» ممتازًا هنا، أما أنا، فأي كيلوت كنتُ أرتدي؟ الكيلوت الزهري ذا المربعات، الذي لا ينفك يهبط بسبب ارتخاء حزامه المطاطي الذي عفّى عليه الزمن؟ يا لنا من مساكين! يا لنا من مساكين! ويا لوضاعة أجسادنا! ليس واردًا أبدًا أن أتعرّى اليوم أمام أيٍّ كان، وبالتأكيد ليس مع هذه الخرقة البائسة والمتدلية بين فخذيّ، آه، أجل، الـ«تيراميسو»، إنه - ما هي العبارة - إنه رخو بعض الشيء، أجل، هذه هي الكلمة المناسبة، أجد الـ«تيراميسو» عمومًا رخوًا أكثر من اللزوم، لا شكرًا.

هل طلبَتْ حلوى في نهاية المطاف؟ كان عليّ أن أهرب من عجزي، من افتقاري إلى الشجاعة، من خوفي من الحميمية، أن أهرب وأنسى، يا له من إذلال ألحقتُه بكاتارينا فوكس! لا بد من أنها تكرهني الآن، أضف إلى ذلك أنني منعتها من دون قصد من تذوّق

الـ«تيراميسو» الرخو أكثر من اللزوم - على المرء أن يكون إيطاليًا ليخطر في باله تمييع قطع البسكويت الطويلة هذه بواسطة القهوة، الجميع يعلم أنه من المستحيل غمسها في أي شيء كان. هي تبدو قاسية لكن ما إن تبتلّ حتّى تروح تتدلى بشكل مثير للشفقة، تتدلى ثمّ تسقط في الفنجان. يا لها من فكرة غريبة أن يسعى المرء إلى صنع ما هو رخو! أكيد أن كاتارينا فوكس تحقد عليّ، هي لم تكن ترغب بتاتًا في مضاجعتي، تحقد عليّ لأنني اختفيتُ فجأة ما إن خرجنا من المطعم كأنني في عجلة من أمري للتخلص منها، كأن صحبتها قد أضجرتني بشكل رهيب، إلى اللقاء إلى اللقاء، مرّت سيارة أجرة، استقللتها إلى اللقاء، يا لها من إهانة! أعتقد أن سارة ستقهقه كثيرًا إن أخبرتها بهذه القصة، لن أجرؤ أبدًا على إخبارها بها، قصة الرّجل الذي يهرب خلسة لأنّه يخشى أنه ربّما قد ارتدى صباحًا كلسونه الزهر والأبيض ذا الحزام المطاطي المتراخي.

لطالما وجدَتْني سارة شخصًا مُضحكًا. في البداية، كان أمرًا مزعجًا بعض الشيء أن تشرع هي تضحك ما إن أسرّ لها بخواطري. لو تجرّأتُ وقبّلتها تحت تلك الخيمة التدمرية المرتَجلة بدلًا من أن أغيّر وضعيّة نومي مذعورًا، لاختلف كلّ شيء، لاختلف كلّ شيء، أو ربّما لا، فما كنا على أي حال لنتفادى كارثة فندق «بارون» أو كارثة طهران، إن الشّرق وأهواءه تدفع بي إلى القيام بأمور غريبة، غريبة ومُضحكة، لقد أضحينا اليوم أنا وسارة، زوجَين من العجائز. لا يزال الحلم الذي أبصرته منذ قليل يطفو في الجوّ، سارة مستلقية بتراخٍ في ذاك السرداب الغامض. ساراواك، ساراواك. هي من يجب أن أوليه كامل اهتمامي، يا لي من عجوز أناني، عجوز جبان، هي أيضًا تتألم. هذه المقالة التي وصلتني صباحًا بمثابة زجاجة مرمية في البحر، هي رسالة رهيبة مليئة بالجزع. أعي أن ثمة اسم سارة في

ساراواك. مصادفة أخرى. إشارة من القدر، من الكارما، كانت ستقول. لا شك في أن من يهذي هو أنا. إن هوسها بالموت وبالشذوذ، بالجريمة والتعذيب والانتحار وأكل لحوم البشر والمحرمات، لا يعدو كونه مجرد فضول علمي. مثل اهتمام فوجيه بالدعارة والعوالم السفلية. مثل اهتمامي بالموسيقى الإيرانيّة أو بأعمال الأوبرا الاستشراقية. بأي مرض من أمراض اليأس أُصِبنا يا ترى؟ سارة برغم اعتناقها البوذية، برغم سنوات التأمل والحكمة والترحال. يبدو أن كراوس كان مُحقًا عندما أرسلني إلى مختصّ في أمراض إكزوتيكية، فوحده الله يعلم أي نوع من أنواع العفونة أصابت روحي في تلك الأراضي البعيدة. مثل الصليبيين، هؤلاء المستشرقين الأوائل الذين كانوا يعودون إلى قُراهم الأوروبية الحالكة مُحمَّلين بالذهب والبكتيريا والشجن، مُدركين تمامًا أنهم، بإسم المسيح، دمّروا أبهى عجائب وقعت عليها أبصارهم في حياتهم. لقد نهبوا كنائس القسطنطنية وأحرقوا القدس وأنطاكيا. أيّ حقيقة أحرقتنا نحن؟ أي جمال لمحناه قبل أن يتوارى عنّا؟ أي ألم برانا سرًّا مثلما برى لامارتين في لبنان، ألم رؤية الأصل أم رؤية النهاية، لست أدري، لم يكن هناك من جواب في الصحراء، أقله ليس لي، «طريقي إلى مكة» كان من نوع آخر - فعلى عكس محمد أسد المعروف بليوبولد فايس، رأيتُ أن البادية السورية، شهوانية أكثر منها روحانية: بعد ليلتنا التدمرية، خرجنا من تحت البطانيات وافترقنا عن جولي وفرنسوا - ماري لنتابع رحلتنا الاستكشافية برفقة بيلغر المجنون نحو الشمال الشّرقي ونهر الفرات، مرورًا بقصر أموي قديم تائه في الزمن وبين الحصى، وبمدينة أشباح بيزنطيّة: مدينة الرصافة ذات الأسوار العالية، والتي ربّما أضحت الآن مقرَّ أمير المؤمنين الجديد، ظِلّ الله على الأرض، خليفة سفّاحي ولصوص «الدولة الإسلامية في العراق

والشام» حفظه الله ورعاه، إذ ليس سهلًا أن تكون خليفة في يومنا هذا، وبشكل خاص خليفة على رأس زمرة من المسعورين، توحّشهم يوازي توحّش مرتزقة كارلوس الخامس الذين نهبوا روما وأحرقوها. قد يحرقون مكة والمدينة المنورة وينهبونهما في يوم من الأيام، من يدري، فيرفعون هناك أعلامهم الشبيهة برايات الثورة العباسية في القرن الثامن الميلادي، هذا من شأنه أن يزعزع التوازن الجيوسياسي في المنطقة، أن يُقطّع أوصال مملكة عبدالعزيز آل سعود صديق ليوبولد فايس، تحت ضربات سيوف هؤلاء الملتحين المولعين بنحر أعناق الكفّار. لكنتُ أحببتُ، لو أنني أمتلك الطاقة اللازمة، أن أكتب مقالة طويلة عن جوليان جلال الدّين فايس، الذي يتشارك مع ليوبولد باسم العائلة كما باعتناقه الإسلام، والذي توفي لتوه نتيجة إصابته بالسرطان، سرطان تزامن تمامًا مع تدمير حلب وسورية لدرجة أنه في مقدورنا أن نتساءل هل ثمة صلة بين هذين الحدثَيْن - كان فايس يحيا بين عوالم مختلفة؛ وقد أصبح أعظم عازف قانون في الشّرق كما في الغرب، كما أنه كان عالمًا كبيرًا أيضًا. إن فرقة «الكِندي» الموسيقية التي أسسها رافقت أهمّ منشدي العالم العربي كصبري مدلل، حمزة شكور أو لطفي بوشناق. قدّمتني سارة إليه في حلب، كانت تعرفه من طريق نديم الذي كان يعزف معه في بعض من الأحيان - كان يسكن قصرًا مملوكيًّا تائهًا في دهاليز المدينة القديمة، على بعد خطوتَيْن من أكوام الصابون ورؤوس الخراف التي في الأسواق الشعبية، قصرًا ذا واجهة متقشّفة خلفها باحة ساحرة؛ كانت الغرف الشتوية تعجّ بالآلات الموسيقية، العود والقانون والناي كما الآلات الإيقاعية. على الفور، شعرت بالنفور من هذا الرّجل الأشقر والوسيم - لم يرق لي ادعاءه ولا سعة علمه ولا تصرّفه كسلطان من بلاد الشّرق، ولا، بشكل خاص، انبهار نديم وساره الطفولي به، وقد

أعماني طويلًا هذا الحسد عن جمال وروعة أعماله التي تنضوي تحت راية التلاقي والتبادل، ومُساءَلة التقاليد، وسبل انتقال الموسيقى الفنية، لا سيما الدّينية منها. ربّما كان ضروريًا أن أمكث في إيران وأعمل على أبحاث مع دورينغ، لكي يتضح لي تمامًا معنى هذه التساؤلات. ينبغي الكتابة عن التحيّة التي وجهها فايس وفرقة «الكِندي» إلى أسامة بن منقذ، أمير شيزر، هذه المدينة التي هي بمثابة حصن على ضفة نهر العاصي في سورية، أسامة بن منقذ الفارس والمحارب وصياد الأسود والشاعر الذي، خلال حياته المديدة المُتزامنة مع جُلّ القرن الثاني عشر الميلادي، لعب دورًا معتَبرًا في الحروب الصليبية وكان شاهدًا على إقامة ممالك الإفرنج في بلاد الشام. أتخيَّلُ هذا الأمير المولع بالرماح والصقور، بالأقواس والسهام والخَيْل، بالشعر والمُنشدين... أتخيَّلُه في مواجهة أسلحة الإفرنج الغليظة، في مواجهة التقشّف العنيف لهؤلاء الأعداء الذين قدموا من البعيد البعيد إلى درجة أن ترويضهم، وصقل بعض الشيء قشرة البربرية التي تكسو دروعهم، استلزما كثيرًا من الوقت والمعارك - لقد انتهى الأمر بالإفرنج إلى تعلّم العربية، إلى تذوُّق المشمش والياسمين، وأخذوا يبدون نوعًا من الاحترام تجاه هذه البلاد التي حرّروها لتوهم من الكفّار؛ بعد حياة أمضاها في الحروب وصيد الأسود، عرف الأمير الشيزري المنفى - وفي هذا المنفى، في قلعة «حصن كيفا» على ضفاف نهر دجلة، بعيدًا من المعارك، وفيما عمره يناهز التسعين عامًا، خطّ مؤلفاته المتنوِّعة بقدر ما هي رائعة، كـ«أخبار النساء» و«كتاب العصا» الذي خصصه للعصي العجائبية، من عصا النبي موسى وصولًا إلى العصا الذي كان الأمير أسامة يستخدمه في شيخوخته، والذي، بحسب قوله، يتخذ، حين ينثني تحت ثقله، شكل قوس فتوّته الجامحة؛ و«كتاب النوم والأحلام»، و«كتاب

الاعتبار» الذي يشكّل في الوقت عينه، بحثًا تاريخيًا ومؤلفًا عن الصيد ومرجعًا أدبيًا. وقد وجد أسامة بن منقذ الوقت الكافي ليجمع قصائده في ديوان، قصائد لحّنَت منها فرقة «الكِندي» مقتطفات.

لقد احترق قصر جلال الدّين فايس في حلب، هو نفسه قد مات، مات ربّما لأنّه رأى ما بناه (عالم من النشوة المشتركة، من إمكانات العبور، من التبادل والغيريّة) تلتهمه نيران الحرب؛ لقد لحق بأسامة على ضفاف نهر آخر، اجتمع بهذا الفارس العظيم الذي كتب عن الحرب:

لا شكّ في أن البأسَ سيفٌ أصلبُ من الدروع كلّها/
لكنه لا يحمي الليثَ من السهم/
ولا يقي المهزومَ من الخزي[١]

أتساءل عمّا كان سيكون رأي أسامة بن منقذ الباسل، بهذه الصُوَر الهزليّة لجهاديي اليوم، وهم يحرقون آلاتٍ موسيقية لأنها «لا تمت إلى الإسلام بصلة»: آلات قديمة لا شك في أنها تعود إلى فرق موسيقية عسكرية ليبيّة، طبول، طبول وأبواق دُلق عليها الوقود ثمّ اشتعلت أمام زمرة وقورة من الملتحين، مسرورين للغاية كأنهم يحرقون الشيطان نفسه. هي الطبول والأبواق ذاتها التي نقلها الإفرنج، مع بعض التعديلات الطفيفة، عن الموسيقى العسكرية العثمانية قبل قرون عدّة، الطبول والأبواق ذاتها التي أرعبت الأوروبيين وأصابتهم بالهلع، لأنها كانت تُنذِر باقتراب الانكشاريين الأتراك الذين لا يقهرون، ترافقهم فرق المهترخانة، وما من صورة تُعبّر عن المعركة المريعة التي يشنّها الجهاديون على تاريخ الحضارة

---

(١) تُرجِمت هذه الأبيات عن الفرنسية لعدم العثور على أصلها العربي.

الإسلامية نفسها، أكثر من مشهد هؤلاء البائسين، في لباسهم الحربي، على قطعة أرضهم الصحراوية الصغيرة، وهم يصبون نار غضبهم على آلات موسيقية عسكرية حزينة يجهلون مصدرها.

لم يكن هناك أي محارب قروسطي أو ناحر أعناق رثّ الثياب، على الدرب الجميلة والمُعبّدة الممتدة بين تدمر والرصافة، فقط حاجز صغير على طرف الطريق النائي، حيث مجندان سوريان في زيّهما الشتوي البني الداكن بالرّغم من القيظ، يتناعسان تحت سقف بائس من الصفيح، كانت مهمتهما فتح السلسلة المعدنية التي تسد الطريق، سلسلة لم يبصرها بيلغر إلا في اللحظة الأخيرة، ما اضطره لأن يدوس بكامل قوته الفرامل إلى درجة أن مطاط إطارات سيارته ذات الدفع الرباعي راح يئزّ على الإسفلت الحامي: من يتوقع أن يجد حاجزًا وسط الصحراء؟ كان المجندان يتصببان عرقًا، برأسَين حليقَين، وسترتين رديئتَي القَصّة، بلون براز الجمال، ومكسوتيْن بالغبار - فتحا أعينهما على اتساعها، أمسكا سلاحيْهما، اقتربا من الـ«رنج روفر» البيضاء، تطلّعا في الأجانب الثلاثة الذين في داخلها، أبديا شيئًا من التردّد، هَمّا بطرح سؤال لكنهما لم يتجرآ على ذلك في نهاية المطاف؛ أزاح أحدهما السلسلة وأومأ لنا الثاني بيده، فضغط بيلغر على دواسة الوقود.

تنفست سارة الصعداء؛ كان بيلغر أصابه خرس تام لبضع ثوان على الأقل.

السائق: (بتبجح) كنتُ سأصطدم بهذه السلسلة اللعينة وأنا أسير بسرعة مئة وعشرين كيلومترًا في الساعة.

الراكب: (في المقعد الأمامي؛ مذعور، لكن باحترام) هل يمكنك أن تحاول أن تسير أبطأ، وأن تنتبه أكثر.

الراكبة: (في المقعد الخلفي؛ بالفرنسية وبشيء من الجزع) هل تعتقدان أن سلاحيهما كانا ملقَمين؟

السائق: (غير مُصدِّق) حاجز لعين وسط الصحراء، هذا ليس أمرًا شائعًا.

الراكبة: (بالفرنسية أيضًا، وبقلق فيه شيء من الفضول العلمي) فرانتس، كان ثمة لافتة، لكن لم يتسنَّ لي الوقت لقراءتها.

الراكب: (باللغة ذاتها) لم أنتبه، آسف.

السائق: (واثقًا من نفسه، وبالألمانية) لا بد من أن ثمة قاعدة عسكرية بالقرب.

الراكب: (بلامبالاة) أجل، كما أنني أرى دبابة هناك، إلى جهة اليمين.

الراكبة: (بالإنكليزية وبقلق، مخاطبةً السائق)، هناك رجلان مع مدفع رشاش في الحفرة، أبطِئْ، أبطِئْ!

السائق: (بسوقية وعصبية مفاجئة) ماذا يفعل أولا . . . القح. . . هؤلاء على طريقي؟

الراكب: (ببلادة) أعتقد أنها كتيبة من المشاة تقوم بتدريبات عسكرية.

الراكبة: (بقلق متزايد، وبالفرنسية من جديد) لكن أُنْظرْ، يا إلهي، أُنظرْ، مدافع على التلّة، هناك! ورشاشات أخرى إلى اليسار! عُدْ أدراجك، عُدْ!

السائق: (واثقًا جدًّا في نفسه على الطريقة الألمانية، ومخاطبًا الراكب) إن كانوا قد سمحوا لنا بالمرور، فهذا يعني أن من حقّنا أن نَمُرّ. سوف أخفف سرعتي قليلًا فقط.

الراكب: (أقل ثقة في نفسه، وبالفرنسية) آه. . . أجل، لكن يجب أن نأخذ حذرنا.

الراكبة: (مستاءة) هذا شيء جنوني، أُنظرْ إلى كلّ الجنود الذين يركضون هناك إلى اليسار. وهذه الغيوم من الغبار، هل هي الريح ربما؟

الراكب: (بقلق مُفاجئ) أظُن أنها بالأحرى عربات عسكرية تسير بسرعة في الصحراء. دبابات في ما يبدو. (مخاطبًا السائق) أمتأكد أنتَ أننا على الطريق الصحيح؟ بحسب بوصلتك، نحن نتجه نحو الشمال الغربي أكثر من اتجاهنا نحو الشمال. نسير باتجاه حمص.

السائق: (بانزعاج) سبق لي أن سلكتُ هذا الطريق مئات المرات. فإذا لم يشقّوا طريقًا آخر، هذا هو الطريق الصحيح.

الراكب: (مفتعلًا السذاجة) صحيحٌ يبدو حديثًا للغاية، هذا الطريق.

الراكبة: (مسددة ضربة ثانية) الإسفلت أملس للغاية...

السائق: (بغضب حقيقي) حسنًا أيها الجبانان، سوف أعود أدراجي. يا لكما من مدلّلَيْن!

عاد بيلغر أدراجه أخيرًا؛ كان يستشيط غضبًا، لأنّه ضلّ طريقه، ولأن جيشًا يقوم بتدريباته اعترضه لاحقًا - عند وصولنا إلى الحاجز للمرّة الثانية، فتح المجندان المكسوان بالغبار، السلسلة المعدنية الثقيلة بالبلادة ذاتها؛ أتيح لي ولسارة الوقت، لفكّ رموز الكتابة الرديئة على اللوحة الخشب: «منطقة عسكرية - خطر - ممنوع الدخول». غريبٌ التفكير في أن هذه الدبابات والمدافع الرشاشة التي رأيناها في التدريبات صارت اليوم تستخدم لقمع التمرد، لهدم مُدن بأكملها وإبادة سكّانها. لطالما كنا نهزأ بالجنود السوريين ذوي الملابس الرثّة، وهم يحتمون من الشمس داخل عرباتهم الـ«جيب»

السوفياتيّة المُعطلّة على طرف الطريق، تاركين غطاء المحرّك مفتوحًا في انتظار وصول سيارة السحب. كأن هذا الجيش لم يكن يملك في نظرنا، أي قدرة تدميريّة، أي قوة حربيّة؛ كان نظام الأسد ودباباته تبدو لنا كألعاب من الورق المقوّى، كدمى أو تماثيل فُرّغت من معناها ووضعت على أسوار المدن والقرى؛ لم نكن نُبصر شيئًا أبعد من هذا التهلهل الظاهري، لم نكن نرى خلف الملصقات، لا الخوف ولا الموت ولا التعذيب، ولم نكن نُصدِّق أن ثمّة قوّة تدميريّة عنيفة إلى أقصى الحدود، وراء هذا الانتشار الكثيف للجنود، مهما كانت ملابسهم باليّة.

لقد تألّق بيلغر في ذلك اليوم: مُستاءً للغاية من خطئِه، بقيَ حاردًا خلال جزء كبير من النهار، وبعد أن عدنا مجددًا إلى نقطة انطلاقنا تقريبًا، على بعد بضعة كيلومترات من تدمر، وجدنا فعلًا مفترقًا كنا قد فوّتناه، وطريقًا حالته لسيت جيدة كالآخر (ما يفسّر أننا لم نسلكه أوّل مرة) يغور نحو الشمال عبر هضاب من الحصى، فأصرّ بيلغر على التكفير عن ذنبه وأخذنا لاستكشاف مكانٍ ساحر، قصر الحير الشهير، هذا القصر الأموي القديم الذي يعود إلى القرن السابع الميلادي، قصر للملذات والاستجمام كان خلفاء دمشق يقصدونه لصيد الغزلان، للاستماع إلى الموسيقى، لمعاقرة الخمر، ليشربوا مع ضيوفهم هذا النبيذ المُكثَّف للغاية، اللاذع للغاية، القوي للغاية إلى حد أنه كان يجب كسره بالماء - لقد كتب شعراء تلك الحقبة عن هذا المزيج، أخبرتنا سارة؛ اختلاط الخمر بالماء كان أشبه بالانفجار، إذ كانت الشرارات تتطاير؛ وكان لون هذا المزيج في الكأس، أحمرَ كعين الديك. أطلعنا بيلغر على أن في قصر الحير، كان ثمة لوحات جدارية رائعة تُصوِّر مشاهد من الصيد ومن سهرات السكر - الصيد والسكر، لكن الموسيقى أيضًا: فعلى إحدى أشهر هذه اللوحات،

نرى عازفًا يرافق مغنيّة على عوده، وحتى لو أن هذه الجداريات كانت بطبيعة الحال نُقلَت إلى مكان آخر، فإن فكرة زيارة هذا القصر العريق أثارت حماستنا إلى أقصى درجة. كنتُ طبعًا أجهل أن ألويس موزيل هو من أعاد اكتشاف هذا القصر وكان أول من وصفه خلال رحلته الثانية. لبلوغه، كان علينا أن نسلك دربًا صغيرًا ومعبّدًا يتّجه شمالًا لمدة عشرين دقيقة، ثمّ أن ننعطف شرقًا نحو متاهاتِ الطرق التي تغور في عمق الصحراء؛ الخريطة التي في حوزتنا كانت مُختَصَرة جدًّا، إلا أن بيلغر كان واثقًا تمامًا في قدرته على العثور على هذا القصر الذي كان زاره من قبل والذي، كما قال، تمكن رؤيته من بعيد جدًّا، مثله مثل الحصون.

شمس بعد الظهر كانت تنعكس بيضاءَ على أكوام الحجارة؛ هنا وهناك وسط هذه الرتابة، كانت ثمة شجيرات صُبير لا ندري كيف نُزِعت أشواكها؛ كنا نُبصِر مجموعات صغيرة من الخِيَم السود تفصل بينها مسافات كبيرة. لم تكن هذه الناحية من البادية مسطحة بتاتًا، غير أن افتقارها إلى النباتات وإلى الظلال كان يحيل تمييز تضاريسها أمرًا عسيرًا: خيمةٌ لمحناها منذ ثانية كانت تختفي فجأة وراء ارتفاع غير مرئي كما لو بفعل شعوذة، ما كان يحيل تحديد وجهتنا أكثر تعقيدًا؛ وفي أحيان أخرى، كنا نهبط في منخفضات واسعة، تجويفات ضخمة حيث يمكن فوجًا كاملًا من الخيالة التواري عن الأنظار بسهولة. سيارتنا ذات الدفع الرباعي كانت ترتج بقوة على الحصى، ثمّ صارت تثب وثباتٍ مذهلة ما إن يتخطى بيلغر سرعة الثلاثين كيلومترًا في الساعة؛ كان عليه بلوغ الستين كيلومترًا والتحليق، إذا جاز التعبير، فوق الحجارة، لكي تهتزّ العربة أقلّ ولا يعود الراكبان يتخضخضان كأنهما في كرسي تدليك جهنّمي - إلا أن القيادة بهذه السرعة كانت تتطلب كثيرًا من التركيز: فأي نتوء مباغت،

حفرة أو حصاة كبيرة كانت تحرف السيارة بعنف عن مسارها، فتصطدم رؤوسنا بالسقف وتصدر العربة صريرًا مريعًا. كان بيلغر متشبثًا إذًا بالمقود بكلتا يديه، يكزّ على أسنانه وعيناه مسمرتان على الطريق أمامه؛ برزت عضلات ساعديه وأوتار معصمه - مرآه هكذا جعلني أفكّر في فيلم عن الحرب شاهدته في طفولتي، وحيث جنديّ من الفيلق الأفريقي - الألماني، كان يقود عربة «جيب» بسرعة جنونية في مكان ما في ليبيا، لكن ليس على أرض رمليّة كما تجري العادة، بل على حجارة حادّة كالسكاكين؛ ومثل بيلغر، كان هذا الجندي يتصبب عرقًا وقد ابيضّت أصابعه من ضغطها الشديد على المقود. يبدو أن سارة لم تكن تعي مدى صعوبة القيادة هكذا؛ كانت تقرأ لنا بالفرنسية، وبصوت مرتفع، قصّة «بني زينب» التي تروي فيها آنا ماري شفارتسنباخ، لقاءَها بمارغا داندوران في تدمر، لقاءً كنا قد تطرّقنا إليه خلال الليلة السابقة: كنا نسألها باستمرار إن لم تكن القراءة في ظروف مماثلة لا تسبب لها غثيانًا، كلا، لسوء حظنا، فما عدا وثبات الكتاب أمام عينيها مع ارتجاج السيارة، لا يبدو أن شيئًا كان يزعجها. لم يكن بيلغر يمتنع عن إطلاق ملاحظات ساخرة، بالألمانية طبعًا: «حسنًا فعلتِ وجلبتِ معك كتابًا صوتيًا مُسجَّلًا، من الممتع الإستماع إلى الكُتب خلال الرحلات الطويلة. كما أن ذلك يتيح لي تحسين فرنسيَّتي». كم رغبتُ في أن أكون إلى جانبها على المقعد الخلفي؛ كنتُ آملُ، من دون أن أعوّل كثيرًا على ذلك، أن نتشارك مجددًا البطانية ذاتها في هذه الليلة أيضًا، وأن أجد هذه المرّة الشجاعة اللازمة لأرمي نفسي في النار، أو بالأحرى على فمها - كان بيلغر يقول إننا سنضطر على الأرجح إلى التخييم في قصر الحير: القيادة مستحيلة في الصحراء خلال الليل، ما كان يناسبُني تمامًا.

أمنيتي كانت ستتحقق، ليس على نحوٍ يتماشى تمامًا مع رغباتي،

لكنّها ستتحقق: سوف ننام في الصحراء. كنا بعد ثلاث ساعات، لا نزال نسير نحو الشّرق بسرعة تتراوح بين الخمسين والستين كيلومترًا في الساعة. وبما أنه لم يكن قد خطر على بال أي منا أن يتطلّع إلى عداد المسافات حين وصولنا إلى مفترق الطرق، لم نكن نعلم المسافة التي اجتزناها فعلًا؛ لم تساعدنا الخريطة بتاتًا: فبالاستناد إليها، لم يكن في المنطقة سوى طريق واحد باتجاه الشّرق الغربي، فيما على الأرض، كان هنالك العشرات من السُبل التي تتقاطع وتعود لتتقاطع باستمرار؛ فقط الشمس، والبوصلة الصغيرة التي على لوحة القيادة، كانتا تدُلاننا بشكل تقريبي على جهة الشمال.

بدأ بيلغر يغضب. راح يشتم ويلعن ويخبط على المقود؛ وكان يقول أن هذا لا يُعقل، أنه كان ينبغي أن نمُرّ بمحاذاة الطريق السريع الذي يصل تدمر بدير الزور، أُنْظُرْ هنا إلى الخريطة، أخذ يصرُخ، هذا مستحيل، مستحيل تمامًا، هذا لا يُعقل أبدًا، لكن كان عليه الرضوخ للأمر الواقع في نهاية المطاف: كنا قد تُهنا. أو لم نَتُه، بل ضللنا طريقنا. أظنُّ أن سارة هي التي أصرّت على فارق المعنى البسيط هذا مراعاةً لكبرياء بيلغر، فارقٍ وجدْتُ صعوبة كبيرة لترجمته إلى الألمانية: لم يواسِ ذلك بيلغر إلا قليلًا، فتابع سبابه، لكن بصوت خفيض، كطفل لا يجيد استخدام لعبته. توقفنا مُطوّلا لنصعد مشيًا تلًا صخريًا، علّ المشهد البانورامي من هناك يتيح لنا الاستدلال بأحد المعالم - طريق دير الزور السريع مثلًا، أو حتّى القصر الأموي الشهير. إلا أن هذا التلّ الذي ظنناه مرتفِعًا ومُشرِفًا على ما حوله، تبدّى أنه على مستوى ما يحيط به نفسه، لا شيء جديد تمكن رؤيته من فوق، هي سيارتنا التي كانت أدنى بقليل من المستوى العام للصحراء. تلك البقعة الخضراء في البعيد نحو الشمال (لكن هل هو الشمال فعلًا؟)، حقلُ قمح ربيعي أو مربّعٌ من العشب؛

وهذه النقاطُ السود هي مجموعة من الخِيَم. لم نكن معرضين لأي خطر، ما عدا إستحالة زيارتنا قصر الحير في اليوم عينه. كان بعد الظهر قد شارف على نهايته - الشمس بدأت تنحدر خلفنا، ما حمل بيلغر على مزيد من الإستياء؛ رحت أفكرُ في ألويس موزيل، مُكتشِف القصور الأمويّة الكبير، وفي رحلاته ومغامراته: في عام ١٨٩٨، وبعد أن قام بدراسة جميع المستندات الغربيّة المتعلقة بمنطقة معان الأردنية، كما كتابات الرحالة التي في مكتبة جامعة القديس يوسف ببيروت التابعة لليسوعيين، امتطى جملًا، وبرفقة بضعة عساكر «أعاره» إياهم قائم مقام العقبة، انطلق في الصحراء بحثًا عن قصر الطوبة الشهير الذي لم يكن قد سمع به أحد منذ قرون، ما عدا البدو. بأيّ شجاعة، أو بأيّ إيمان أو حتّى جنون، كان هذا الكاهن الكاثوليكي المغمور والآتي من منطقة بوهيميا، يتحلّى، حتّى يغور هكذا في قلب الفراغ، سلاحه مُعلّقًا على كتفه، وسط قبائل البدو المعادية إلى حد ما للسلطة العثمانية، والتي كانت بانتظامٍ، تمارس النهب وتشنّ الحروب؟ هل شعر هو أيضًا، برهبة الصحراء، بهذا الجزء الذي يعتصر القلب وسط الخلاء الشاسع، بعنف هذا الخلاء المترامي الذي نتخيَّلُه يخفي أخطارًا كثيرة - أخطارًا وآلامًا تتربص بالروح وبالجسد على حد سواء، العطش والجوع طبعًا، لكن العزلة والضياع واليأس أيضًا؛ كان مُسليًا بعض الشيء أن أفكّر، وأنا على رأس كومة الحصى الوضيعة هذه، أن ابنَي العم ألويس وروبرت موزيل عرف كلاهما، لكن كلّ بطريقته المختلفة، الوحدة والهجران والضياع: روبرت في فيينا وسط أنقاض الإمبراطورية النمساوية المجرية، وألويس على بعد آلاف الكيلومترات من هناك، وسط البدو؛ لقد جال كلّ منهما بين الحطام. أذكرُ مطلع رواية «رجل بلا صفات» (هل هو فعلًا مطلعها؟)، حين يُصادف أولريش متسكعِين

مسلّحين بهراوات، فيطرحانه أرضًا ويتركانه شبه ميتٍ على أحد أرصفة فيينا؛ ثمّ تُنقذه شابة جميلة جدًا، تأخذه في سيارتها، فيروح أولريش خلال الطريق، يُلقي محاضرة ساخرة حول السمات المشتركة بين تجربة التعرض للعنف والتجربة الصوفية: لابن العم ألويس، كانت الصحراء، رحت أفكّر وأنا أراقب سارة تتسلق التلّ بصعوبة فيما أولريش التقى لتوه الإلهة الطيبة التي أنقذته... لابن العم ألويس، كانت الصحراء مكانًا لتجلّي الحقيقة، وللعزلة والضياع، حيث يظهر الله عبر غيابه، تناقضٌ أشار إليه أولريش في رواية وروبرت موزيل: «جناحي طائر كبير، أخرس وذي ألوان كثيرة. شدّد في كلامه، على الجناحين وعلى الطائر الأخرس ذي الألوان الكثيرة - فكرة لا تحمل معنًى كثيرًا، لكن مشحونة بتلك الشهوانية الشديدة التي تُصالح عبرها الحياةُ، دفعة واحدة وفي جسدها الذي لا حدود له، بين جميع التناقضات المُتصادمة. وهنا لاحظ أن جارته لم تفقه من الأمر شيئًا، ومع ذلك راح التساقط الناعم للثلج، الذي كانت تنثره في السيارة، يتكاثف أكثر فأكثر». سارة هي هذا التساقط للثلج على الصحراء، صرتُ أفكّر في ما كانت قد لحقت بي على رأس ذلك التلّ من حيث لم يكن ثمة شيء لمشاهدته.

أظنُّ أنني أغفو، أنني أغور في النوم بهدوء فيما نسيم صحراوي يداعب وجهي، هنا في الدائرة التاسعة من مدينة فيينا الجديدة التي لم يعرفها أيّ من ابنَي العم موزيل، تحت بطانيّتي وعلى وسادتي اللتين تُشكلان خيمة بدوية داخليّة، عميقة ورحبة، كالخيمة التي استضافتنا تلك الليلة في الصحراء: فجأة، توقفت بمحاذاتنا شاحنة تفريغ مُترجرجة، إذ ظن ركابها أننا في محنة ما وبحاجة إلى المساعدة؛ وجوههم مليئة بالتجاعيد لفَحتَها الشمس، يعتمرون كوفيات حمراء وشواربهم سميكة ومتيبسة تقطع وجوههم إلى نصفَيْن - قالوا لنا إن

القصر الذي نبحث عنه ما زال بعيدًا باتجاه الشمال الشّرقي ونحتاج إلى ثلاث ساعات على الأقل لبلوغه، وأن لا أمل في ذلك قبل حلول الليل: وعملًا بأعرق الأصول البدوية، دعونا لنبيت في خيمتهم السوداء. لم نكن الضيوف الوحيدين: كان سبقنا إلى «الصالون» بائع جوّال غريب، يجوب الصحراء مع أكياس من النايلون الرمادي في غاية الضخامة، تشبه قربات عملاقة وتحتوي على مئات البضائع من البلاستيك المصبوب، أقداح ومصافٍ، سطول ومشايات، ألعاب للأطفال وأخرى من التنك، أباريق شاي وقهوة، صحون وأوانٍ وأداوت مائدة: كانت أكياسه الهائلة التي أمام الخمية، مثل يرقات مترهلة أو حبات فاصولياء مُشوَّهة وممسوخة قُطِفت عن نبتة جهنميّة. كان البائع من شمال سورية، ولم يكن يملك سيارة: يجوب البادية مستقلًا شاحنات وجرارات البدو، متنقلًا من خيمة إلى أخرى، إلى أن يبيع كلّ بضائعه فيعود حينذاك إلى حلب للتزوّد بمخزون جديد في متاهات الأسواق الشعبية؛ ثمّ يواصل تجواله، فيستقّل الحافلة إلى ضفة نهر الفرات، ثمّ يطوف في كامل أنحاء المنطقة الواقعة بين النهر وتدمر والحدود العراقية، مستفيدًا (مستغلّا، قد يقول أوروبيٌّ) من كرم البدو، مضيفيه وزبائنه في الوقت عينه. لا بدّ أن لورنس الطناجر هذا كان جاسوسًا بشكل ما، فيُطلع السلطات على نشاطات هذه القبائل التي تربطها صلات وثيقة بالعراق والأردن والسعودية وحتّى الكويت: تفاجأتُ كثيرًا حين علمتُ أننا في «منزلٍ» لعشيرة مطير، قبيلة المحاربين الشهيرة التي تحالفت مع عبدالعزيز آل سعود في بداية العشرينات من القرن المنصرم، فسهّلت وصوله إلى الحكم قبل أن تتمرّد عليه؛ قبيلة «الزوج - جواز السفر» الذي اقترنت به مارغا. يروي محمد أسد، يهوديُّ جزيرة العرب، كيف شارك هو نفسه في عملية تجسسية في الكويت لمصلحة

عبدالعزيز آل سعود، تستهدف قبيلة مطير التي يترأسها فيصل الدويش. بدا لي هؤلاء المحاربون الأشداء (أقلّه في نسختهم السورية) مسالمين للغاية: كانوا رعاة خراف وماعز يمتلكون شاحنة وبضع دجاجات. بداعي الحشمة، كانت سارة ربطت شعرها على عجل في السيارة بينما كنا نلحق بشاحنة البدويين إلى خيمتهم: وعندما خرجَتْ من العربة، ألهبت شعرَها لبرهة، الشمسُ الموشكة على الغروب، قبل أن يحجب نورها ظلّ القماش الأسود؛ لن نبيت مرّة أخرى تحت السماء المرصعة بالنجوم، لن ألتصق مرّة أخرى بسارة، يا لسوء حظي! رحتُ أفكّر، يا له من حظ تعِس ولعين أننا لم ننجح في العثور على ذلك القصر الضائع في الصحراء! كان داخل الخيمة المكسوة بالجلد، مظلمًا لكن لطيفًا ومريحًا؛ ثمة حاجزٌ من القصب، تتخلله أنسجة حمر وخضر، كان يقسم الخيمة جزئين، واحدٌ للرجال والآخر للنساء. زعيمُ هذا المنزل، شيخٌ عجوزٌ للغاية تكشف ابتسامته أسنان ذهبية لامعة، كان حديثه لا ينضب: كان يعرف ثلاث كلمات بالفرنسية تعلّمها خلال خدمته في جيش الشّرق الفرنسي زمن الانتداب على سورية: «قف! إنبطح! إلى الأمام!»، أوامر راح بغبطة مفرطة، يصرخها لاصقًا كلمة بأخرى، «قفنبطح! انبطحلأمام!»، تُبهِجُه ليس متعة استحضار الذكريات القديمة فقط، بل وجود مُستمعين فرنكوفونيين من المفترض أن يستسيغوا هذه الأوامر العسكرية الصارمة - كانت عربيتُنا محدودة للغاية (خصوصًا عربية بيلغر التي تقتصر على «احفر، رفش، معول»، نسخة أخرى عن «قفنبطحأمام»)، فحالت دون فهمنا تمامًا الحكايات الكثيرة التي رواها شيخ القبيلة التسعيني هذا، إلا أن سارة، بحدسها القوي ومعارفها اللغوية الواسعة، استطاعت أن تتابع قصص العجوز وأن تترجم لنا شيئًا من معناها العام حين يتعذّر علينا الفهم. أول سؤال

طرحَتْه على هذا المتوشالح[1] المحليّ كان طبعًا عن مارغا داندوران - هل التقى بها؟ حكّ الشيخ لحيته وهزّ برأسه، كلا، لقد سمع بهذه الكونتيسة التدمرية، سمع بها فقط - لم يحتك أبدًا بالكونتيسة الأسطورية، ولا شك في أن ذلك خيّب أمل سارة. كنا نحتسي شرابًا ساخنًا، طيبًا ومُعطَّرًا بالقرفة، ونجلس متربعين على بُسط من الصوف مفروشة على الأرض تمامًا؛ ثمة كلب راح يعوي عند اقترابنا من الخيمة، كان يحرس الماشية، يحميها من بنات آوى أو حتّى من الضباع: وكانت قصص الضباع التي رواها لنا العجوز وأولاده والبائع الجوّال، تجعل شعر الرأس يقف من فظاعتها. كانت سارة في حالة نشوة تقريبًا، وقد نسيت على الفور خيبتها من عدم عثورها على أحدٍ آخر من شهدوا على عهد مارغا داندوران مجرمة الصحراء؛ أخذت تلتفت نحوي باستمرار فيما ابتسامة تواطؤ ترتسم على وجهها، وكنتُ مُدركًا أنها عثرت في هذه القصص الخرافية، على حكايات مخلوقات الغول والحيوانات الغرائبية الأخرى التي كانت قد أمضت وقتًا طويلًا في دراستها: الضباع التي اختفت بشكل شبه تام من هذه البلاد، كانت تُنسَج حولها الأساطير الأكثر عجائبية. كان الشيخ حكواتيًا من الطراز الرفيع، ممثلًا بارعًا، ممتازًا؛ بحركة وجيزة من يده، يُسكِتُ أبناءه أو البائع لكي يستمتع هو نفسه بالحكاية التي سيسردها - إن الضبع، راح يقول، يسحر ويُنوِّم من شاء سوء حظّه أن تلتقي عيناه بعيني البهيمة؛ يصبح عندها مرغمًا على اللحاق بها عبر الصحراء إلى كهفها، حيث تُعذّبه فتلتهمه. أما الذي ينجح بالفرار، فيلحقه الضبعُ إلى مناماته؛ مُجرّد مُلامسة الحيوان تُخلّف

---

(١) متوشالح هو الشخصية الأكبر سنًا التي ذكرت في العهد القديم، حيث قيل أنها عاشت ٩٦٩ سنة.

بثورًا مريعة على الجلد - ليس مُستغربًا أن دم هذه البهائم المسكينة قد سُفك بغزارة، صرتُ أفكّر. أما فيما يتعلق بابن آوى، فهو حيوان حقير لكن غير مؤذٍ؛ كانت صرخته الطويلة تشقُّ الليل - وجدتُ عويله هذا مشؤومًا للغاية، غير أن البدويين أصرّوا على أنه لا يشبه بتاتًا ذاك النداء الشنيع للضبع، صوتٌ بمقدوره أن يُسمّركم في مكانكم، أن يُجمّدكم من شدة الرعب: فكل من سمع صرخته المبحوحة يتذكرها مدى الحياة.

بعد هذه التأملات في علم الحيوانات الخارقة للطبيعة، حاولتُ وسارة (مثلما فعل ألويس موزيل مع البدو، كما رحتُ أتخيّل) الحصول على معلومات حول المواقع الأثرية القريبة، المعابد والقصور والمدن المنسية التي قد لا يعرفها سوى البدو - هذا المسعى أغضب الملك بيلغر، إذ كان واثقًا في أن الأجيال المتعاقبة من المستشرقين «استنفدت الصحراء»؛ إن غرابار، اتينغهاوزن، هلنبراند وأمثالهم قد كرّسوا أنفسهم طوال سنوات لوصف الآثار الإسلامية في حين أن زملاءهم المختصين بالتاريخ القديم كانوا يعاينون الحصون والقرى الرومانية أو البيزنطية: لم يتبقَّ شيء لاكتشافه، كان بيلغر يعتقد - وبالفعل، فإن مضيفينا راحوا يحدّثوننا عن قصر الحير وعن الرصافة، لكن ليس من دون أن يضيفوا على شروحاتهم قصصًا عن كنوز مُخبأة لم ترق لبيلغر كثيرًا، إذ كان لا يزال منزعجًا من خطئه في الاستدلال على الطريق. شرح لي بالألمانية، أن السكان المحلّيين يقومون بمراقبة عمليات التنقيب ثمّ يشرعون بدورهم في الحفر ما إن يدير العلماء ظهورهم: إن غربان علم الآثار هؤلاء يشكّلون وباءً لا يجهله أحد، يصيب مواقع التنقيب التي ينتهي الأمر بمحيطها، قال بيلغر مبالغًا، مزدحمًا بالحُفَر وبأكوام التراب، كأن حيوانات خلد عملاقة قد عاثت فيها فسادًا.

نساء يرتدين عباءات طويلة وداكنة تُزيِّنها تطريزات، أحضرن طعام العشاء؛ خبزًا عربيًا، عسلًا، زعترًا بريًا مُجففًا مخلوطًا مع السمّاق والسمسم، جبنًا، حليبًا، لبنًا - لولا طعمه المحروق المريع، لكنا ظننا أن الجبنَ صابونٌ مُجفف ومُمَلَّح. في أي حال، كان لجميع مشتقات الحليب، الطعم المحروق ذاته الذي بقيَ بالنسبة إليّ هو طعم الصحراء، طعم أرض الحليب والعسل والنار. كان العجوز لا يأكل إلا القليل القليل، فيما يصرّ علينا أن نتناول مجددًا من هذا الطعام أو ذاك؛ فتحت سارة حديثًا مع إحدى النساء، أصغرهن سنًا في ما بدا لي - بسبب حشمة ربّما فيها شيء من المبالغة، كنتُ أحاول ألا أنظر إليهما أكثر من اللزوم. كنا لا نزال نتكلم عن الاكتشافات والأمور الغامضة. نهض البائع الجوّال وخرج، على الأغلب لقضاء حاجته (أدركتُ أن على عكس مواقع التخييم في منطقة زالسكامرغوت السياحية، لم تكن ثمة تجهيزات صحية على مقربة من الخيمة: أمي لم تكن لتستسيغ ذلك؛ ولكانت حذّرتني من الطعام أيضًا، حتّى لو أن رائحة الشياط القوية كانت دليلًا على أن الحليب قد تم غليه)، فاستغلّ الشيخ غيابه (ما يؤكد أنهم كانوا يشتبهون بأن البائع مخبر) لكي يسرّ لنا بصوت خفيض، أن ثمة فعلًا آثارًا منسية وغامضة، بعيدًا نحو الجنوب الغربي، على حدود الصحراء حيث الجبل الذي يفصل بين البادية وسهل حوران، ثمة مدينة بأكملها، كان يقول العجوز، مدينة مكسوة بالعظام؛ لقد وجدت صعوبات كبيرة لفهم هذه الكلمة، «عظم»، «عظام»؛ اضطررت لسؤال سارة: «ما معنى عظم[1]؟». حسب رواية الشيخ، هي آثار مدينة أحالها غضب الله خرابًا، كما ورد في القرآن - كان

---

(١) بالعربية في النص الأصلي.

يتكلم عنها برهبة، ويقول إن المكان ملعون وإن البدو لا يخيّمون أبدًا، تحت أي ظرف كان، على مقربة منه: هم يكتفون بتأمل جبال العظام والحطام بورع وخشوع، ثمّ يتابعون طريقهم. كان بيلغر يرفع رأسه نحو السماء باستياء فيه كثير من قلة الاحترام لمضيفنا: من السهل جدًّا العثور على هذه المدينة، راح بيلغر يقول ساخرًا، إذ يكفي، بالاستناد إلى الكتاب المقدس، أن نتجه إلى اليمين بعد وصولنا إلى تقاطع طرق المرأة المُتحجِّرة. كنتُ أحاول أن أعلم مزيدًا، هل هي عظام حيوانات؟ مقبرة جِمال ربما؟ ثوران بركاني؟ أسئلتي كانت تُضحِك العجوز، كلا، الجِمال لا تتوارى في مكان سري لكي تموت، هي تنفُق حيثما تكون، تستلقي أرضًا وتلفظ آخر أنفاسها، مثلها مثل جميع المخلوقات الأخرى. أكّد لي بيلغر أن براكين سورية قد انطفأت منذ عشرات الآلاف من السنين، ما يحيل فرضيّة الثوران غير مرجحة؛ كان يبدو عليه أنه يعتبر هذه القصص مجرد حماقات مصدرها مخيّلة السكان المحليين التي تفيض بالخرافات. رحتُ أتخيَّل، على منحدرات جبل بركاني من البازالت بلون القمر، بقايا قلعةٍ قديمة ومدينةٍ ضائعة، كستهما عظام سُكانهما الذين لقوا حتفهم وحده الله يعلم في أي كارثة - رؤيا كابوسية، سوداء، قَمَريّة. عاد البائع الجوال إلى الخيمة، فخرجت بدوري؛ كان الليل قد حلّ، والبرد كأنه يطلع من الحجارة ليصل مباشرة إلى السماء المُثلَّجة بالنجوم. ابتعدتُ من الخيمة للتبول، فرافقني الكلب للحظة قبل أن يتركني ويبتعد ليشتّمّ رائحة العتمة. فجأة، رأيته فوقي، يتألق بعيدًا في السماء، متجهًا نحو الغرب، نحو فلسطين والبحر المتوسط، في حين لم نكن قد أبصرناه قط البارحة: مُذنَّبٌ يفرد شعره الطويل من الغبار اللامع.

الساعة الثانية والدقيقة العشرين ليلًا

أنا مستلقٍ وسارة عارية إلى جانبي؛ ضفائر شعرها الطويلة جدولٌ تُبطِئ صخور الفقرات من سرعة جريانه. يتأكّلني الندم؛ أنظرُ إليها فأمتلئ ندمًا. تتجه بنا السفينة نحو بيروت: هي الرحلة الآخيرة لشركة «لويدز النمساوية» للنقل البحري، تريستا - الإسكندرية - يافا - بيروت. أشعر بأن سارة لن تستيقظ قبل وصولنا غدًا إلى بيروت، حيث ينتظرنا نديم من أجل الزواج. هذا أفضل. أتمعَّنُ في جسدها الممشوق، ذي العضلات المشدودة، والذي يكاد يكون هزيلًا؛ هي لا تأتي بأي حركة حين أداعب فرجها للحظة. أعلم أنه لا ينبغي أن أكون هنا. يخنقني الإحساس بالذنب. عبر الكوّة، أرى البحر يبسط مداه اللامتناهي، الشتائي والضارب إلى الخضرة، يحزّه الزبد الذي على رؤوس الأمواج؛ أغادر الكابينة، الممرات الطويلة مكسوة بالمخمل الأحمر، تُنيرها مصابيح نحاسية مُعلّقة على الجدران، أجوب السفينة وسط الحرارة الدبقة، هو شيءٌ يبعث على التوتر أن أتوه هكذا في الأروقة الخانقة بينما أنا مُتأخِّر؛ ثمة على أبواب الكابينات، لوحات بيضاوية كُتِبت عليها أسماء الركاب وتواريخ ميلادهم ووفاتهم. أتردّد في الطرق على باب كاثلين فيريه، ثمّ على باب لو أندرياس سالومي، لكنني لا أجرؤ على إزعاجهما أخيرًا، أشعر بخجل كبير لأنني تُهت، لأنني اضطررت للتبوُّل في الرواق،

في حاملة مظلات رائعة، قبل أن تأتي المضيفة (فستان سهرة شفاف، أحدِّقُ طويلًا في ملابسها الداخلية) وتأخذ بذراعي، «يا فرانتس، هم ينتظرونك في الأعلى، تعال معي، سوف نمر عبر الكواليس. إن شتيفان تسفايغ يستشيط غضبًا، هو يريد إهانة شرفك، استدراجك إلى مبارزة معه؛ هو يعلم أنك لا تملك الشجاعة اللازمة لمواجهته وأنه سوف يتم إقصاؤك من أخوية الـ'بورشنشافت"[1]».

أحاول تقبيلها على فمها، لا تبدي أي مقاومة، لسانها طريٌّ ودافئ، أدسّ يدًا تحت فستانها، يدًا تُبعدها من جسدها برقّة وحنان وهي تهمس «كلا، كلا، كلا يا عزيزي»[2]، أنا منزعج لكنني أتفهّم. ثمة حشدٌ حولنا في الصالة، الدكتور كراوس يتألق ويثير إعجاب الجميع، نشرع بتصفيق مدوٍّ عندما تنتهي مقطوعة «التنويعات الشبحيّة» لشومان. أحاول استغلال الوضع لكي أرفع مجددًا فستان المضيفة، تصدُّني مرة أخرى بحنان. أنتظر بفارغ الصبر أن تبدأ الأمور الجدية. الكولونيل مسترسل في حديثه مع الدكتور كراوس؛ يقول لي إن كراوس لا يحتمل فكرة أن زوجته تُجيد العزف على البيانو أحسن منه، أوافق على ذلك: ليلي كراوس عازفة بيانو كبيرة، أنتَ لا تُقارن بها أيها الدكتور العزيز. أدلق كوب الحليب على بزّة الكولونيل ذات النسور المُرصّعة بالنجوم، لحسن الحظّ أن الحليب لا يبقع البزّات، على عكس فستان السهرة الذي اضطرت المضيفة لخلعه: كوّرته على شكل كرة ثمّ أخفته داخل خزانة صغيرة.

- ماذا سيحلّ بنا؟ إن هذا البلد صغير وقديم للغاية يا كولونيل، إلى درجة أنه لا جدوى للدفاع عنه. الأجدى استبداله بآخر.

---

(١) منظمة أو أخويّة طالبية ألمانية ذات توجه قومي.

(٢) بالألمانية في النص الأصلي.

- هذا بالفعل هو الحلُّ المناسب للمسألة السورية، يقول.

في الخارج، الحرب لا تزال محتدمة؛ لا يمكننا أن نخرج، سوف نضطر للبقاء مختبئين تحت الدَّرَج.

- أليس هذا المكان ذاته حيث خبّأت فستان عرسك؟ ذاك الفستان الذي لطّخْتُه من غير قصد؟

لنحافظ على هدوئنا، لنحافظ على هدوئنا. نحن ملتصقٌ واحدنا بالآخر، يلفّنا الظلام، إلا أن المضيفة لا تكترث بي، أعلمُ أنها لا تكترث لأحد غير سارة. علينا أن نفعل شيئًا ما، لكن ماذا؟ إن البحر الإيرلندي هائجٌ مسعور، بالتأكيد أننا لن نصل قبل يومين أو ثلاثة أيام. يومين أو ثلاثة أيام! أستاذ ريتر، يقول كراوس برويّة، أعتقد أننا نستطيع الآن استبدال مرضك بآخر. لقد حان الوقت لذلك، أنتَ على حق. لقد حان الوقت. انظر يا فرانتس كيف تداعب هذه المرأة نفسها! ضع وجهك بين فخذيها، هذا سيُحسِّن مزاجك.

يتابع كراوس إطلاق ترهاته، أشعُرُ بالبرد، عليّ مهما كلّف الأمر، أن أعثر على كابينتي وعلى سارة التي ما زالت نائمة، أتركُ المضيفة لاستمنائها وقلبي ينقبض. سيحين دورك قريبًا، أستاذ ريتر. سيحين دورك قريبًا. إن البحر اليوم مسعورٌ بالفعل. اعزف لنا شيئًا لتمضية الوقت! هذا العود ليس لي، لكن ينبغي أن أتمكن من ارتجال مقطوعة عليه. أي مقامٍ تُفضلون؟ النهاوند؟ أم الحجاز؟ الحجاز! هو يتناسب تمامًا مع الظروف الحالية. هيا عزيزي فرانتس، اعزف لنا تلك الفالز، هل تذكُرها. آه، أجل، «فالز الموت»، طبعًا أذكُرها، فا، فا-لا، فا-لا#-سي، سي، سي. تجري أناملي سريعةً على أوتار العود ذي الصوت المطابق لصوت الكمان. إن بار السفينة، وهو صالة أوبرا في الوقت عينه، مفتوحٌ على البحر؛ الرذاذ يبلل العازفين وآلاتهم. العزفُ مستحيلٌ في ظروف كهذه أيها الجمهور

العزيز. يا لها من خيبة! كنا نرغب جدًا في الاستماع إلى «فالز الموت»! ابتهج، فنحن في طريقنا نحو الغرق. أنا مُبتهج أيها الجمهور العزيز، أيها الأصدقاء الأعزاء. أيها الأصدقاء الأعزاء، إن الدكتور تسفايغ يريد إلقاء كلمة (مجددًا هذا التسفايغ العجوز ذو الوجه الذي يميل إلى الطول، يا له من أمر مضجر!). أغادر خشبة المسرح، مفسحًا له في المجال، ثمة بقعة ماء كبيرة تحت الكرسي. تسفايغ يوبِّخني، يُمرر يده في شعري ويقول لي أن أذهب وأجلس. سيداتي سادتي، يصرخ تسفايغ، إنها الحرب! تأهبّوا! إبتهجوا! إنها الحرب!

الجميع يصفق، العساكر، البحارة، النساء، الزوجان كراوس وحتى سارة، أنا متفاجئ جدًّا بأنها هنا، أتوجه نحوها بسرعة، لقد استيقظتِ؟ لقد استيقظتِ؟ أُخبئ العود خلف ظهري، كي لا ترى أنني سرقته من نديم - أنا سرقته؟ أعلمُ أن الشرطة تبحث عني من أجل تلك الجريمة الشنيعة التي اقترفتُها منذ زمن طويل. هل سنصل قريبًا؟ إنها الحرب، أقول. هم مبتهجون لأنهم سيلقون حتفهم في المعركة. ستصبح فيينا العاصمة الجديدة لسورية. سوف يتكلم الناس العربية في شارع «غرابن».

يجب ألا تعلم سارة بتاتًا، أقصد فيما يتعلق بالجريمة والجثة. يا دكتور كراوس! يا دكتور كراوس! إن زهور سوسنك نبتت مجددًا على جثتنا! يا له من ربيع مريع، مع كلّ هذا المطر الذي لا يتوقف عن الهطول، كأننا لسنا في الشّرق. كلّ شي يَفسُد. كلّ شيء يتعَفَّن. العظام لا تنتهي من التحلل. سيكون موسم قطاف العنب مثمرًا هذا السنة، وسيكون نبيذ الموتى غزيرًا. صه! همست سارة، لا تأتي على ذكر نبيذ الموتى، إنه سرّ. شراب سحري؟ ربما. شراب حبٌّ أو موت؟ سوف تعلم ذلك لاحقًا.

ثمة بحار يغنّي في البعيد، «السفينة تبحر نحو الشّرق/ تهبُّ الريح عليلةً نحو بلدي/ يا ولدي الإيرلندي، إلى أين تبحر حياتك؟».

الأغنية تُضحك سارة. هي تُشبه مولي بلوم، تلك المولي التي تجرُّ عربتها الصغيرة في الشوارع الضيقة لكي تبيع صَدَفاتها. يا إلهي كم هو شاسع البحر!

كَم ولدًا سوف نُرزق يا دكتور كراوس؟

كَم ولد؟

من المستحيل أن أزاول هذا النوع من التنبؤ، أنا طبيبٌ جديّ يا أستاذ ريتر. لا تتشاركا هذه الحقنة، سوف يعدي واحدكما الآخر.

لديك عروق جميلة يا فرانتس، هل تعلم ذلك؟

لقد حذّرتُكَ يا أستاذ ريتر.

لديك عروق جميلة يا فرانتس، تقول سارة مجددًا.

عَرَق، عَرَق، عَرَق.

رعب. يا له من رعب يا إلهي. الضوء لا يزال مُشعَلًا، ولا أزال ممسكًا بمفتاح الإنارة. صورة سارة والحقنة في يدها - لحسن الحظ أنني استيقظت قبل حدوث ما لا يمكن الرجوع عنه: سارة تحقنني بسائل مقرف، مثير للغثيان، تحقنني بنبيذ الموتى تحت أنظار الدكتور كراوس الخبيث، يا له من أمر مريع! كيف يجد بعض الأشخاص متعةً في المنامات؟ لنتنفَّس، لنتنفَّس. شيءٌ حقًّا مؤلم هذا الإحساس بأن الهواء ينقصُكَ، كأنكَ تغرق وأنتَ نائم. لحسن الحظ أنني لا أتذكر إلا الثواني الأخيرة من أحلامي، هي تمّحي من ذاكرتي بشكل شبه فوري، لحسن الحظ. هكذا، أهرب من اللاوعي، من وحشيّة رغباتي، من الشعور بالذنب، شعور غريب

غالبًا ما يتملّكني في المنامات. وكأنني اقترفت بالفعل جريمة شنيعة قد يتم اكتشافها. نبيذ الموتى. إن مقالة سارة تستحوذ عليّ، يا لها من فكرة غريبة أن تُرسِل لي هذا النص من ساراواك! أن ترسله الآن فيما أنا مريضٌ وواهن للغاية. أعي إلى أي حدٍّ أنا مُشتاق إليها. إلى أي حدٍّ فوت فرصتي معها. إلى أي حدٍّ قد تكون هي الأخرى مريضة وواهنة، في أدغالها الوارفة، برفقة أشباح قاطعي الرؤوس وشاربي دم الجثث. هذه حالةٌ قد تثير اهتمام مشعوذ شارع «برغاس»، جار السيدة كافكا. في نهاية المطاف، نعود دائمًا إلى الأمور ذاتها. وفق ما أذكر، فإن كارل يونغ، هذا المستشرق الأول في مجال اللاوعي، اكتشف أن إحدى مريضاته تحلم أحلامًا مصدرها «كتاب الموتى» التبتي الذي لم تكن قد سمعت به بتاتًا، ما أثار فضول تلميذ فرويد هذا، شدّ انتباهه ووضعه على المسار الذي سيؤول به إلى اكتشاف اللاوعي الجماعي والنماذج الأصلية. أما أنا، فلا أحلم بـ«كتاب الموتى» التبتي أو الفرعوني، بل بخبايا دماغ سارة. تريستان وإيزولده. شراب الحب وشراب الموت. ديك الجن الحمصي. الشاعر الذي فقد عقله من شدة الغيرة إلى حد أنه قتل حبيبته. لكن هذا لا شيء، كانت سارة تقول لي، فديك الجن كان مولعًا بحبيبته إلى حد الجنون، وكان الألم ينهشه لأنّه قتلها، فجمع رماد جثتها وخلطه بالطين وصنع منه كأسًا، كأسًا مميتة، سحرية ومميتة راح يشرب بها النبيذ، نبيذ الموتى الذي ألهمه لكتابة قصائد عشق في غاية الروعة. كان يشرب بجسد حبيبته، كان يشرب جسد حبه، وقد صار هذا الجنون الـ«ديونيسي» جنونًا «أبولونيًا» من خلال الأشعار، من خلال الأوزان والبحور التي أعطت شكلًا لولعه بجيفة معشوقته التي قتلها من شدّة غيرته بعد أن سمح لأقاويل الناس وللكراهية أن تستحوذ عليه. يقول:

بأبي نبذتك في العراء المقفر

وسترت وجهك بالتراب الأعفر

بأبي بذلتك بعد صونٍ للبلى

ورجعت عنك صبرت أم لم أصبر

ولو كنت أقدر أن أرى أثر البلى

لتركت وجهك ضاحيًا لم يقبر

نتفهَّمُ أنه كان يشرب حتّى الثمالة، هذا الشاعر الحمصي الذي عاش حوالى سبعين عامًا، هل واظب على السكر، على الشرب من كأسه المميتة، حتّى آخر عمره؟ ممكن... على الأرجح. لماذا تُفتتن سارة بهذه الفظاعات، بأكل الجِيَف والسحر الأسود والأهواء الوحشية؟ أراها مجددًا في متحف الجريمة في فيينا، تجول وابتسامة تعلو وجهها، في قبو «ليوبولدشتات»، وسط الجماجم المثقوبة بالرصاص، الهراوات التي استخدمها قتلة من جميع الأصناف - مجرمون سياسيون، أو خسيسون محتالون، أو عُشّاق مجانين - وصولًا إلى ذروة المعرض المقززة، سلّة قش قديمة، يكسوها الغبار، عُثِر في داخلها، بداية القرن العشرين، على جسد امرأة بُتِرَت ذراعاها وساقاها، امرأة - جذع لم يجنبونا رؤية صُوَرها التي تعود إلى تلك الحقبة، حيث نُبصرها عارية ومُشوَّهة، سواد عانتها بسواد كتِفيها وفخذيها حيث سال دم الأطراف الناقصة. أبعد بقليل، كانت ثمة امرأة مبقورة، اغتُصِبَت قبل أن تُنْزَع أحشاؤها. «أنتم النمساويين شعبٌ غريب، قالت لي سارة، تستطيعون عرض صور نساء عُذّبن حتّى الموت، لكنكم تمارسون الرقابة على التمثيل الوحيد للذة الجنسية في كلّ هذا المتحف». كانت تتكلم عن لوحة معروضة في قسم المتحف المخصص لبيوت دعارةِ فيينا، لوحة تُصوِّر وسط ديكور

استشراقي، جارية تداعب نفسها منفرجة الساقَين؛ كان رقيبٌ معاصر قد حجب يدها وأعضاءها الحميمة بمربع أسود كبير. الشرح تحت اللوحة كان مقتضبًا ورزينًا: «الوحة تزيينية مصدرها بيت دعارة». كنتُ طبعًا أشعر بخجل رهيب وأنا أمام هكذا لوحة برفقة سارة، نتأملها ونُعلِّق عليها؛ رحت أشيح بنظري وصار وجهي أحمر، ما اعتبرتْه بمثابة اعتراف: إقرار بأننا منحرفون وشاذون، نحن أهل فيينا - نُخبئ في الأقبية النساء اللواتي عُذّبن، نمارس الرقابة على الشهوات الجنسية؛ أما في الخارج، فنتصرّف بعفّة مُفرطة في احتشامها.

لماذا أفكر الآن في هذه الأشياء يا ترى؟ خيط طويل من الأحلام المتشابكة والمتعاقبة كمُذنِّب يفرد شعره الطويل؟ بقايا شهوات جنسية تُلوِّث الذاكرة؟ عليّ تقبُّل أن هذه الليلة أعطت عمرها، يجب أن أنهض وأنتقل إلى أمر آخر، أن أصحّح تلك الرسالة للماجستير عن موسيقى غلوك، أو أعيد قراءة مقالتي حول «معروف، إسكافي القاهرة»، الأوبرا المقتبسة من ترجمة شارل ماردروس لألف ليلة وليلة؛ أرغبُ كثيرًا في إرسال مقالتي إلى سارة، قد يكون ذلك بمثابة جوابٍ على نصها عن نبيذ الموتى في الساراواك الغامض. أستطيع أن أرسل إليها بريدًا إلكترونيًا، لكن أعلم أنني إن كتبتُ لها، سوف أمضي الأيام المقبلة متسمّرًا كأبله أمام شاشة الكمبيوتر في انتظار جوابها. بالرّغم من كلّ شيء، كنتُ مسرورًا في متحف الجريمة، ففي الأقل كانت هي هناك معي، ولو رغبَتْ هي في ذلك، لكنتُ ذهبت برفقتها حتّى إلى متحف دفن الموتى أو إلى الـ«نارنتورم»[1] لأتأمل داخل برج المجانين القديم هذا، تشوهات جينيّة شنيعة وأمراض مريعة.

---

(١) الـ«نارنتورم»، أي برج المجانين، مستشفى قديم للأمراض العقلية صار متحفًا لعلم الأمراض التشريحي.

إن مقالتي عن «معروف، إسكافي القاهرة» شبه مُكتملة، لا ينقصها سوى لمسة لا أدري ماذا، آه، أستطيع أن أطلب مباشرةً نصيحة سارة ولا أكتفي فقط بإرسال المقالة إليها، قد تكون مناورة ذكية جدًّا للتواصل معها بدل أن أقرّ لها بفجاجة، إنني مشتاق إليها، أو بدل أن أذكّرها بشكل موارب، بامرأة متحف الجريمة العارية (هل تذكرين، عزيزتي سارة، الإضطراب الذي تملكني ونحن نتأمّل معًا لوحة بورنوغرافية في قبوٍ دمويٍ؟)، لقد تعمّقت هي الأخرى في كتابات الدكتور ماردروس، وخصوصًا في كتابات زوجته لوسي التي تُمثّل، مع لو أندرياس سالومي وجين ديولافوا، إحدى أوّل الشخصيات التي دخلت في مجموعة نساء سارة المستشرقات. ماردروس قوقازيُّ الآداب الذي قاتل جدُّهُ الروسَ في صفوف الإمام شامل الداغستاني، هذا رجلٌ لكنتُ أحببتُ أن ألتقي به، ماردروس، في تلك الباريس المتألقة في العقد الأخير من القرن التاسع عشر؛ لقد عاشر مالارميه، ثمّ أبولينير؛ ما إن نزل من باخرة شركة «مِساجري ماريتيم» التي كان يعمل طبيبًا على متنها، حتّى أضحى، بفضل شخصيته الساحرة وعلمه الواسع، محبوبَ الصالونات الباريسية - هذا ما أنا في حاجة إليه لكي أكتب تحفتي: أن أعيش لبضع سنوات في كابينة سفينة، بين مارسيليا وسايغون. وسط البحر، ترجم ماردروس آلاف صفحاتِ ألف ليلة وليلة؛ لقد ترعرع في القاهرة ودرس الطب في بيروت، العربية بمثابة لغته الأم، ها هي أفضليته الكبيرة علينا، نحن المستشرقين غير الشّرقيين: كَسْبُ الوقت في تعلّم اللغة. إن إعادة اكتشاف ألف ليلة وليلة في ترجمة ماردروس، أثارت موجة من الاقتباسات والتقليد، مثلما حدث قبل خمسين عامًا مع ديوان «الشّرقيات» لفيكتور هوغو، مع قصائد روكرت أو مع «الديوان الغربي الشّرقي» لغوته. ظن الجميع هذه

المرّة، أن الشّرق نفسه هو الذي يبث مُباشرةً، قوّته وإيروسيّته وطاقته الإكزوتيكية في فنّ نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين؛ كان الجميع يحب الشهوانية والعنف والملذات والمغامرات والوحوش والجن، الجميع كان يحاول تقليدها، نقلها، التعليق عليها والكتابة عنها؛ فساد أخيرًا اعتقادٌ بأنه صار الآن ممكنًا من دون أي وسيط، رؤية الوجه الحقيقي للشرق الأزلي والغامض: لكنّه كان شرق ماردروس وحسب، مجرد انعكاس، شرق آخر من الدرجة الثالثة؛ إنه في نهاية المطاف، شرق مالارميه و«المجلّة البيضاء»، إنها إيروسيّة بيار لوي - مجرد استيحاء وتأويل. كما في «حكاية الليلة الثانية بعد الألف» لجوزيف روث أو «شهرزاد» لهوفمانستال، أُعيد استخدام عناصر من ألف ليلة وليلة لخلق جوّ من التوتّر الشهواني في بيئة أوروبية؛ ففي رواية جوزيف روث، إن رغبة الشاه في مضاجعة الكونتيسة هي نقطة انطلاق حبكة ذات طابع نمساوي بالكامل، كما أن عروض البالية المقتبسة عن سيمفونية «شهرزاد» لريمسكي كورساكوف، تمامًا مثل رقصات ماتا هاري، تهدف إلى دغدغة شهوات البورجوازي الباريسي: باختصار، إن علاقة هذه الأعمال بما يمكن تسميته شرقًا حقيقيًا، علاقة واهنة للغاية. نحن أيضًا، في الصحراء تحت تلك الخيمة، ورغم أن حياة البدو كانت أمامنا بواقعيتها الحسية والملموسة، اصطدمنا بتصوراتنا وتوقعاتنا التي شوّشت إمكان اختبارنا تلك الحياة؛ إذ كُنا نرى أن فقر هؤلاء النساء والرجال ينضح بشاعريةِ وبساطةِ العصور الغابرة؛ كان عوزهم يُذكّرنا بعوز النُسّاك والمتصوفين، وخرافاتهم تتيح لنا أن نسافر عبر الزمن، وإكزوتيكية عيشهم تحول دون فهمنا نظرتهم إلى الحياة، مثلما هم كانوا يروننا، مع امرأتنا السافرة وسيارتنا ذات الدفع الرباعي ولغتنا العربيّة البدائية، كحمقى غريبي الأطوار، فيحسدوننا على أموالنا

ربما، أو حتّى على سيارتنا، لكن بالتأكيد ليس على معارفنا أو ذكائنا، ولا حتّى على التكنولوجيا التي ننعم بها: لقد أخبرنا الشيخ أن آخِر غربيين استضافهم، أوروبيين من دون شك، كانوا قد أتوا في عربة تخييم، وأن صوت مُحرِّكهم المريع (لتشغيل البراد على أغلب تقدير) منعه من النوم طوال الليل. وحده البائع الجوال، رحت أفكر وأنا أتبول تحت مذنّب هالي وأتفحّص العتمة للتأكد من أن الكلب لا يتأهب لالتهام عضوي، يختبر فعلًا حياة هذه العشيرة، إذ هو يشاركهم إياها؛ لثمانية أشهر في السنة، يتخلى عن كلّ شيء حتّى يُصرِّف بضائعه الزهيدة. أما نحن، فمجرد رحّالة مسجونين في الذات، وقد يطرأ علينا تحوّل ما عند احتكاكنا بالغيريّة، لكننا لا نختبرها بعمق. نحن جواسيس، إحتكاكنا السريع والعابر بالآخر هو احتكاك الجواسيس. وشاتوبريان نفسه، حين اخترع في عام ١٨١١، أدب الرحلات في كتابه «الطريق من باريس إلى القدس»، ذلك قبل ستندال ومُؤلَّفه «مذكرات سائح» بفترة طويلة، وتقريبًا وقت صدور «رحلة إيطالية» لغوته، شاتوبريان كان حينذاك يتجسس لمصلحة الفن؛ هو طبعًا لم يعد ذلك المستكشف الذي يتجسس لمصلحة العلم أو الجيش: صار يتجسس خصوصًا لمصلحة الآداب. للفن جواسيسه، تمامًا مثلما لعلوم التاريخ أو الطبيعة جواسيسها. علم الآثار شكلٌ من أشكال التجسس، كما الشعر وعلم النبات أيضًا. إن علماء موسيقى الشعوب هم جواسيس الموسيقى. والجواسيسُ رحالةٌ، والرحالةُ جواسيس. «احذروا قصص الرحالة»، يقول سعدي الشيرازي في «روضة الورد». هم لا يبصرون شيئًا. يعتقدون أنهم يبصرون، لكنهم لا يرون سوى انعكاسات. نحن سجناء الصُّوَر والتصورات، قد تقول سارة، ووحدهم أولئك الذين، مثل البائع الجوال أو مثلها هي، يقررون التخلّي عن حياتهم (إن كان تخلٍّ كهذا

ممكنًا)، في مقدورهم بلوغ الآخَر. أذكر صوت بَوْلي منهمرًا على الحجارة وسط سكون الصحراء المُسْكِر؛ أذكر أفكاري الضئيلة الشأن، التافهة مقارنة بضخامة الكون ولانهائية مخلوقاته؛ لم أنتبه إلى النمل والعناكب التي أغرقتها في سائلي الأصفر. نحن محكوم علينا، كما يقول ميشيل دي مونتين في مقالته الأخيرة، أن نفكّر مثلما نتبول، خلسةً، بسرعة، كعابري طريق، كجواسيس. وحده الحب، رحت أفكر وأنا عائدٌ إلى الخيمة، مرتعشًا من البرد ومن الرغبة التي ولّدتها فيّ ذكرى الليلة السابقة، وحده الحب يُتيح لنا الانفتاح على الآخر؛ الحبّ بما هو تخلٍّ عن الذات، انصهار بالآخر - ليس غريبًا أن يلتقيَ هذان المُطْلَقان، الصحراء والحب، فينبثق عنهما أحد أهم آثار الأدب العالمي: جنون قيس بن الملوح الذي صرخ هيامه بليلى إلى الحصى والأفاعي السامة، ليلى التي وقع في حبها حوالى عام ٧٥٠ الميلادي، في خيمة تشبه كثيرًا خيمتنا. لقد أُسْدِل الستار المصنوع من جلد الماعز؛ نور مصباح الغاز يتسرب من باب صغير، عليّ الإنحناء للدخول. كان بيلغر نصف ممدّد على فراش من الصوف، ممسكًا شرابه المعطّر بالقرفة؛ وكانت سارة اختفت. لقد دُعيَت للانتقال إلى قسم النساء، في غرفة الخيمة الثانية، فيما بقيتُ وبيلغر مع الرجال. بسطوا لي فراشًا تكسوه بطانية تعبق برائحة الحطب والماشية الطيّبة. كان العجوز قد اضطجع، والبائع الجوال قد التحف بمعطف أسود كبير، فصار يشبه نبيًا. أنا في الصحراء، مثل مجنون ليلى المُتيّم للغاية إلى حدّ أنه تخلّى عن حياته وعن ذاته لكي يعيش مع الغزلان وسط البادية. لقد أخذوا مني سارة أنا أيضًا، فحرموني من ليلتي الثانية ملتصقًا بها، ليلة حب عذري طاهرة، وكان يمكنني أن أصرخ إلى القمر، أو إلى المذنّب، أبيات شعر مُلتاعة أنشد فيها بهاء معبودتي التي انتزعتها مني الأعراف الاجتماعية.

أخذتُ أفكر في رحلات قيس الطويلة في الصحراء، لكي يبكيَ بحرقة على أطلال منزل أهل ليلى، فيما كنتُ أحكُّ نفسي بعنف، مقتنعًا بأن صوفَ فراشي أو قطنه يعجّ بالبراغيث وبحشرات أخرى مستشرسة عقدت عزيتمها على التهام ساقيّ.

كنتُ أسمعُ شخير بيلغر الهامس؛ في الخارج، كانت ثمة سارية أو حبل يطقطق في الريح، وكأننا على متن مركب شراعي في المرسى - غفوت أخيرًا. هو قمرٌ مستدير يلامس الأرض تقريبًا، ما أيقظني قبل الفجر بقليل، بينما كان أحدٌ يفتح الخيمة على الفلاة ذات الزرقة الناعمة: كان ظلّ امرأة يرفع طرف الستار، وعطر الصحراء (رائحة الأرض اليابسة والرماد والحيوانات) يلتف حولي في دوّامة، فيما تصلني قوقأة ما زالت خافتة لدجاجات (وحوش مريعة وشبحية في الضوء الباهت) تلتقط فتات خبز عشائنا أو ربّما حشرات ليلية جذبتها حرارة مخيمنا - ثمّ انبثقت أنامل الفجر الوردية من السديم ودحرت القمر، فأخذت الحياة تدب في كلّ شيء في الوقت عينه: صاح الديك وطرد الشيخ بضربة من بطانيته بعض الدجاجات المُغامِرة التي كانت اقتربت منه ونهض البائع الجوال وارتدى المعطف الذي كان قد التحف به مساءً وخرج - وحده بيلغر كان لا يزال نائمًا؛ ألقيت نظرة إلى ساعتي، كانت الخامسة صباحًا. نهضتُ بدوري؛ كانت النساء منهمكات أمام الخيمة، فوجّهن إليّ إيماءة خاطفة. كان البائع الجوال يتوضأ بتقشّف مستعينًا بإبريق من البلاستيك الأزرق: أحد الأغراض التي يبيعها، تخيّلت. ما عدا احمرار السماء الطفيف جهة الشّرق، كان الليل لا يزال عميقًا وجليديًا؛ ما زال الكلب نائمًا في الخارج، متكورًا على نفسه وملتصقًا بالخيمة. تساءلتُ ما إذا كنت سأبصر سارة تخرج هي أيضًا، ربّما كانت نائمة مثل الكلب، مثل بيلغر. بقيتُ مكاني، أنظر إلى السماء تستعيد لونها رويدًا رويدًا،

وداخل رأسي ألحان وأناشيدُ فيليسيان دافيد، أول من نقل عبر الموسيقى هذه البساطة المروعة للصحراء.

لو أن الساعة صارت الخامسة، لكان يمكنني أن أنهض وقد هزمني الليل، مرهقًا ككل صباح؛ الهروب من سارة مستحيل، أتساءل ما الأجدى، طردها من عقلي أو الاستسلام تمامًا للذة استحضار الذكريات؟ أنا مشلولٌ جالسٌ في سريري، منذ كم من الوقت أحدِّق في المكتبة، بلا أي حركة، ذهني في مكان آخر ويدي لا تزال معلّقة بمفتاح الإنارة كطفل قابضٍ على خشخيشته؟ كم الساعة الآن؟ المنبه عكازُ المصابين بالأرق، عليّ أن أبتاع منبهًا على شكل جامع مثل ذلك الذي كان يملكه بيلغر في دمشق، منبهًا على شكل المسجد النبوي أو المسجد الأقصى، مصنوعًا من البلاستيك المُذهَّب مع بوصلة مغروسة فيه تشير إلى اتجاه القبلة - ها هو تَفَوُّق المسلم على المسيحي: في ألمانيا، يدسون لكَ أناجيلَ في جوف دُرج المنضدة بجانب السرير؛ أما في الفنادق الإسلامية، فيلصقون لكَ بوصلة صغيرة على خشب السرير، ويرسمون لك على المكتب وردة رياح تشير إلى اتجاة مكة، ويمكنك طبعًا استخدام البوصلة ووردة الرياح لتحديد موقع شبه الجزيرة العربية، وموقع روما وفيينا وموسكو أيضًا إن كنتَ ترغب في ذلك: لن تتوه أبدًا في بلاد الإسلام. حتّى أنني رأيت سجّادات صلاة خِيط فيها شكل بوصلة، سجادات يرغب المرء فورًا في جعلها تُحلِّق، إذ هي، هكذا، في أتم الجاهزية للملاحة الجوية: حديقة وسط الغيوم، تعلوها، مثل بساط ريح سليمان في الأسطورة اليهوديّة، قبة من اليمام لاتقاء الشمس - ثمة كثير لكتابته عن بسط الريح، عن هذه الرسومات الجميلة التي تجعلنا نغوص سريعًا في أحلام اليقظة، والتي تُصوِّر أمراء وأميرات متربعين في ثيابهم الفاخرة، وسط سماء أسطورية ومتوهجة حمراء من جهة

الغرب، بُسط تُدين لقصص فيلهلم هوف الخرافية أكثر ممّا تُدينه لحكايات ألف ليلة وليلة، تُدين لأزياء وديكور عروض «شهرزاد» التي تؤديها فرق الباليه الروسية أكثر ممّا تُدينه لنصوص مؤلّفين عرب أو فرس - ها نحن مرة أخرى أمام بُنيان مُشترَك، فعل مُعقَّد للزمن حيث يتداخل خيالٌ بخيالٍ آخر، إبداعٌ بإبداعٍ آخر، أوروبا بدار الإسلام. الأتراك والفرس يعرفون كتاب ألف ليلة وليلة بترجمتي أنطوان غالان وريتشارد برتون، ولا يترجمونه من العربية إلا فيما ندر؛ هم أيضًا يُعمِلون خيالهم على ما قد سبق وترجمه غيرهم: إن شهرزاد التي عادت إلى إيران في القرن العشرين قد سافرت كثيرًا، فصارت مُحمّلة بفرنسا لويس الرابع عشر، بإنكلترا الفكتورية، بروسيا اليسارية؛ حتّى وجهها هو خليط من المنمنمات الصَفوية وأزياء بول بواريه وأنيقات الرسام جورج لوباب ونساء إيران اليوم. «حول المصير الكوزموبوليتاني للأغراض السحرية»، هذا عنوان مقالة يمكن سارة أن تكتبها: سوف تتطرق فيها إلى الفوانيس التي تحتوي على الجن، إلى بسط الريح، إلى الأحذية العجيبة والخارقة؛ وسوف تشرح كيف أن هذه الأغراض هي نتاج جهود مُشترَكة ومُتراكِمة، وكيف أن كثيرًا ممّا نعتبره «شرقيًا» صرفًا، إنما هو في الواقع استعادة لعنصر «غربي» يُمثّل هو نفسه، تعديلًا لعنصر شرقي آخر وسابق، وهلم جرا؛ وسوف تصل إلى خلاصة أن الشّرق والغرب لا يكونان أبدًا كلّ على حدة، أنهما متمازجان على الدوام، كلّ منهما حاضر في الآخر، وأن هاتَيْن الكلمتين - الشّرق، الغرب - لا قيمة علمية لهما ما عدا الدلالة على الاتجاهَيْن المُشار إليها واللذين يستحيل بلوغهما. أتخيّل أنها ستختتم كلّ هذه التأملات بتعليق سياسي تتطرق فيه إلى الكوزموبوليتانية بما هي المنظور الوحيد الممكن إزاء هذه المسألة. أنا أيضًا، لو كنتُ أكثر - أكثر ماذا؟ أكثر فِطنة، أقل مرضًا، أقل تردّدا، لكان

باستطاعتي أن أوسّع هذه المقالة التافهة عن «معروف، إسكافي القاهرة» وهنري رابو وشارل ماردروس، فأقدّم عرضًا شاملًا عن هذا الشّرق من الدرجة الثالثة في الموسيقى الفرنسية، وأتطرق إلى تلامذة جول ماسينيه ربما، وإلى رابوا نفسه، لكن إلى فلوران شميت ورينالدو هان أيضًا، خصوصًا إلى جورج إينيسكو الذي يشكل حالة مثيرة للإهتمام، شرقي عاد إلى الشّرق بعد مروره بفرنسا. إن جميع تلامذة ماسينيه قد ألّفوا ألحانًا عن الصحراء والقوافل، مقتبسين قصائد استشراقية، بدءًا من «القافلة» لتيوفيل غوتيه («القافلة البشرية في صحراء العالم...») وصولًا إلى ديوان «شرقيّات صُغرى» لجول لومَتْر - لطالما تساءلت من هو هذا الجول لومَتْر؛ لا شك في أن قوافلهم تختلف كثيرًا عن قافلة «عَبْر الصحراء»، لحن الفصل الثاني من أوبرا «معروف» حيث يدّعي الأخير، بهدف خداع التجّار والسلطان، أنه يمتلك قافلة باذخة، تتألف من ألوف الجمال والبغال، سوف تصل في أي يوم الآن، ويروح يصف، بالتفصيل، حمولتها الثمينة مستعينًا للغاية بالمخيلة الاستشراقية، وهو أمرٌ مُدَوِّخ: ثمة حلم عن الشّرق في السرديات العربية نفسها، حلم عن الأحجار الكريمة، والأقمشة الحرير، والجمال، والعشق، وهذا الحلم الذي هو حلمٌ شرقيٌّ بالنسبة إلينا، هو في الواقع حلم توراتي وقرآني: هو يشبه وصف الجنة في القرآن، حيث سنرى أواني وأكوازٍ تفيض بكل ما يمكن أن نشتهيه، بكل ما قد يسحر عيوننا، حيث الأشجار مُثقلة بالفواكه الطيّبة، حيث سنرتدي ملابس حريرًا ناعمة، حيث سنتزوج حور العين، حيث سنشرب كوثرًا معطّرًا بالمسك. إن وصف القافلة في أوبرا «معروف» - كما في ألف ليلة وليلة أيضًا - يستخدم هذه العناصر بشكل ساخر: ثمّة بالطبع كثير من التضخيم والمبالغة؛ فالوصف هذا كذبة، حيلة لإغواء الحضور، كاتالوغ أحلامٍ غرائبي

وسحري. نستطيع أن نعثر في ألف ليلة وليلة على كثير من الأمثلة عن هذا الشّرق من الدرجة الثانية، عن هذا الاستشراق داخل الشّرق نفسه. إلا أن لحن قافلة هنري رابو يضيف درجة أخرى إلى هذا البُنيان: فترجمة ماردروس لـ«قصة الفطيرة بعسل النحل»، قد اقتبسها كاتب نصوص الأوبرا لوسيان نيبوتي تحت عنوان «معروف، إسكافي القاهرة»، ثمّ لحّنها رابو وقام بتوزيعها أوركستراليًا بشكل باهر: هنا أيضًا نشعر بلمسة ماسينيه، المتواري في الظل خلف أحد كثبان هذه الصحراء الخيالية التي يسير عبرها، مع أصوات الآلات الوترية والهوائية، جِمالُ وبغالُ هذه القافلة العجيبة المُحمّلة بالأقمشة والياقوت الأحمر والأزرق، والتي يحرسها مئة مملوك يضاهي بهاؤهم بهاء القمر. إن هذه الموسيقى تُبالغ بشكل ساخر للغاية: فبإمكاننا أن نسمع عصا سائقي البغال يخبط الدابة بالتزامن مع الإيقاع، محاكاة للأصوات الحقيقية قد تحمل المستمع على الاستهزاء بها لو أنها لم تكن مُضحكة وفيها كثير من المبالغة المتعمدة بهدف خداع التجار والسلطان: علينا نحن، أن نسمع هذه القافلة تسير عبر الصحراء، لكي يصدّقوا، هم، بوجودها! ومعجزة الموسيقى والكلمة هي أنهم يصدقون ذلك!

أظنُّ أن رينالدو هان، مثل صديقه مارسيل بروست، كان قرأ ألف ليلة وليلة في ترجمة ماردروس الجديدة؛ في أي حال، لقد حضر كلاهما سنة ١٩١٤ العرض الأول لأوبرا «معروف». في مجلّة مختصّة مرموقة، يشيد هان بموسيقى زميله السابق في الكونسرفتوار؛ يلفت الانتباه إلى جودتها، وإلى أن جراتها لا تُعكّر أبدًا صفاءها؛ يشير إلى رهافتها وبراعتها، إلى الخيال العابث الذي تنم عنه، خصوصًا إلى غياب الابتذال عن هذا «الحِسّ الشّرقي الدقيق». ما يشيد به في الواقع هو بروز استشراق «على الطريقة الفرنسية»، أقرب

إلى ديبوسي منه إلى فائض العنف والشهوانية في الاستشراق الروسي - لكلّ ثقافة شرقها وإكزوتيكيتها.

من ناحية أخرى، أتساءل ما إذا كان عليّ أن أوسّع مقالتي لتشمل، مع كلّ طبقات الشّرق المتراكمة هذه، طبقة أخرى، تلك التي أضافها روبرتو ألانيا في المغرب. ذلك سيمنح في الأقل، طابعًا «صحافيًّا» وترفيهيًا لدراسة جديّة إلى حد ما، كما أنه سيسلّي سارة، سوف يضحكها هذا «التينور» الأوروبي اللعوب وهو يغنّي في الشّرق مطلع العقد الأول من القرن الحادي والعشرين - إن تسجيل الفيديو هذا، هزليٌّ للغاية ولا يُعلى عليه: في مهرجان بمدينة فاس، نرى عرضًا لنسخة عربية - مع عود وقانون - من «عبر الصحراء»، لحن قافلة رابو؛ يمكننا من هنا، من فيينا، أن نتخيّل كلّ النيات الحسنة التي تحلّى بها المنظمون: قلب المحاكاة الساخرة رأسًا على عقب، إعادة القافلة إلى موطنها، إلى الصحراء الحقيقية الأصيلة، استخدام آلات أصيلة وديكور أصيل - وبما أن النيات الحسنة أقصرُ الطرق إلى جهنّم، على حدّ قول المثل، كان نصيبهم الفشل. العود لا طائل منه؛ القانون المرتبك في تسلسل رابو النغمي، يُطلق بعض الأصوات المُتوَقّعة خلال توقّف الغناء؛ أما روبرتو ألانيا، فيرتدي جلابيّة بيضاء وينشد كأنه على خشبة «المسرح الوطني للأوبرا الكوميدية» في باريس، لكن ممسكًا بميكروفون في يده؛ تحاول الآلات الإيقاعية (صنوجٌ تُحَفّ ببعضها بعضًا، مفاتيحُ تُضرَب ببعضها بعضًا) أن تملأ بكل الوسائل المتاحة هذا الفراغ الكبير، الهائل الذي كشفت عنه هذه المسرحية التنكرية؛ يبدو على عازف القانون أنه يتألم لسماعه موسيقى رديئة إلى هذا الحدّ: وحده ألانيا العظيم لا يلحظ شيئًا، مفتونًا بإيماءاته المهيبة وبجمّالي قافلته، يا لها من مهزلة! يا إلهي! لو سمع رابو هذا الشيء لمات موتة ثانية. لكن لعل هذا

تحديدًا عقابُ رابو - لعل القدر يعاقبه بهذه الطريقة على سلوكه خلال الحرب العالمية الثانية، على ميوله النازية، على الحماسة التي أبداها في الوشاية بالأساتذة اليهود في كونسرفتوار الموسيقى الذي كان يُديره. لحسن الحظ أن من خلفه في هذا المنصب عام ١٩٤٣ سيكون أكثر حكمةً وشجاعةً، وسيحاول إنقاذ تلاميذه بدلًا من تسليمهم إلى المُحتَلّ. لقد انضمّ هنري رابو إلى اللائحة الطويلة من المستشرقين (فنانين أو علماء) الذين تعاملوا بشكل مباشر أو غير مباشر مع النظام النازي - هل ينبغي أن أتوقف مطولًا عند هذه الفترة من حياته، عند هذه الحوادث التي حصلت بعد وقت طويل من تأليف أوبرا «معروف» عام ١٩١٤، لست أدري. لكن، يبقى أنه قاد بنفسه، في دار الأوبرا، العرض المئة لـ«معروف، إسكافي القاهرة» في الرابع من نيسان ١٩٤٣ (يوم قصفٍ مريعٍ دمّر مصانع سيارات «رينو» وراح ضحيته مئات عدّة من القتلى في غرب باريس) أمام حشد من الضباط الألمان ومن الفيشيين المعروفين. في ذلك الربيع من عام ١٩٤٣، وبينما القتال كان لا يزال مستمرًا في تونس، غير أنه كان معلومًا أن الفيلق الأفريقي وروِمل قد لحقت بهما الهزيمة، وأن آمال النازيين بغزو مصر قد تلاشت، هل كان لـ«معروف، إسكافي القاهرة»، وقتذاك، دلالة خاصة، هل كان عرضها بمثابة نوع من الاستهزاء بالمُحتلّ الألماني، بالتأكيد لا. هي مجرد لحظة من هذا المرح الذي يتّفق الجميع على أن هذه الأوبرا تفيض به، لحظة مرحٍ لنسيان الحرب، لحظة مرحٍ أتساءل إن لم تكن تنطوي، في ظروف كهذه، على شيء من الإجرام: كانوا ينشدون «عبر الصحراء يسير ألف جمل مُحمّلٍ بالأقمشة تحت وقع ضربات عصي جَمّالي قافلتي»، فيما قبل ستة أيام، وعلى بعد بضعة كيلومترات فقط، كانت قافلة (الثالثة والخمسين من نوعها) من اليهود الفرنسيين قد انطلقت من معسكر

الاعتقال في درانسي نحو بولندا، حيث سيُباد المساجين. كان ذلك يثير اهتمام الباريسيين وضيوفهم الألمان أقل بكثير من هزائم رومل في أفريقيا، أقل بكثير من مغامرات معروف الإسكافي وزوجته المفجوعة فطّومة وقافلته الخيالية. ولا شك في أن هنري رابو العجوز، ممسكًا بعصا قائد الأوركسترا بعد مرور ثلاثين عامًا على العرض الأول لأوبرا «معروف»، لم يكترث بتاتًا بقوافل السجناء المريعة هذه. لست أدري ما إذا كان شارل ماردروس في القاعة - هذا ممكن، إلا أنه، وقد بلغ الخامسة والسبعين من عمره، يعيش منذ بداية الاقتتال، منزويًا في «سان جيرمان دي بري»، لا يخرج من منزله إلا فيما ندر، منتظرًا انتهاء الحرب كما ينتظر آخرون توقف المطر. يُحكى أنه لم يكن يغادر شقّته إلا ليقصد مقهى «دو - ماغو»، أو مطعمًا إيرانيًا يتساءل المرء كيف كان في مقدوره، زمن الاحتلال، تأمين الأرز والزعفران ولحم العجل. لكنني أعلمُ في المقابل، أن لوسي دولارو - ماردروس لم تحضر هذا العرض المئة لـ«معروف»؛ هي في النورماندي، تجترّ ذكرياتها عن الشّرق - هي تعمل على ما سيكون كتابها الأخير: «العرب: الشّرق كما عرفته»، حيث تروي تفاصيل الرحلات التي قامت بها برفقة زوجها ماردروس بين عامي ١٩٠٤ و١٩١٤. سوف تموت عام ١٩٤٥، بعد فترة وجيزة من صدور هذه المذكرات: كانت سارة مفتونة بهذا الكتاب وبمؤلّفته؛ لا شك في أنه يمكنني، من هذا المنطلق، أن أطلب منها أن تُساهم في مقالتي - ها هي مصالحُنا تلتقي مرة أخرى: اهتمامي، أنا، بماردروس وباقتباسات رابو وهونيغر الموسيقية لترجمة ألف ليلة وليلة التي أنجزها؛ واهتمامها، هي، بدولارو، الشاعرة والروائية الغزيرة الإنتاج، الغامضة، والتي كانت عشيقة نتالي بارني في عشرينات القرن المنصرم، فكتبت لها أشهر قصائدها، «هيامنا السرّي»، إذ

كانت تُجيد كتابة الأشعار الإباحية المثلية بقدر إجادتها تأليف القصائد الغنائية عن منطقة النورماندي كما القصائد الموجّهة إلى الأطفال. مُذهلةٌ هي مذكرات رحلاتها برفقة ماردروس، عملٌ استشهدَتْ به سارة في كتابها حول النساء والشّرق. نحن ندين للوسي دولارو - ماردروس بهذه الجملة الرائعة: «الشّرقيون يفتقرون إلى أي حسٍّ بالشّرق. نحن من لدينا هذا الحسّ بالشّرق، نحن الغربيون، نحن الروم. (أقصد الروم الذين ليسوا غليظي الذهن، وهم كثرٌ بالرّغم من كلّ شيء)». تَرى سارة أن هذا المقطع وحده يكفي لتلخيص الاستشراق، الاستشراق بما هو حلم، الاستشراق بما هو رثاء، بما هو بحثٌ مصيره دائمًا الفشل. وبالفعل، إن الروم قد استحوذوا على إقليم الحلم؛ هم، بعد الحكواتيين العرب القدامى، من استثمره وطاف في أرجائه، إن كلّ الرحلات ليست سوى مواجهة مع هذا الحلم. حتّى أن ثمة تيارًا أدبيًا غزيرًا بُنيَ على هذا الحلم، ذلك من دون أي حاجة إلى السفر، لا شك في أن أبرز من يُمثّله هو مارسيل بروست وعمله «البحث عن الزمن المفقود»، القلب الرمزي للرواية الأوروبية: لقد اتخذ بروست ألف ليلة وليلة - كتاب الليل هذا، كتاب مقارعة الموت - كأحد نماذجه. مثل شهرزاد التي تصارع كلّ مساء، بعد الحب والجماع، الحُكم المسلط على رأسها عبر سرد حكاية للملك شهريار، يستلّ مارسيل بروست ريشته في كلّ ليلة - الكثير من الليالي، يقول، «ربما مئة ليلة، وربّما ألف» - ليقارع الزمن. أكثر من مئتي مرة في روايته، يُلمّح بروست إلى الشّرق وكتاب ألف ليلة وليلة الذي قرأه بترجمتيّ غالان (نسخة العفّة والطفولة، نسخة كومبراي) وماردروس (نسخة أكثر اضطرابًا وشهوانية، نسخة سن الرشد) - إن عوالم العرب الخيالية والسحرية تخترق كامل روايته الضخمة؛ يسمع «سوان» موسيقى آلة كمان،

فيشبهها بجنيٍّ يطلع من فانوس؛ يسمع سيمفونية، فيتهيأ له أنه يرى «جميع أحجار ألف ليلة وليلة الكريمة». لولا الشّرق (لولا هذا الحلم المكتوب بالعربية والفارسية والتركية، هذا الحلم الذي لا موطن له والذي ندعوه «الشّرق»)، لما كان هناك مارسيل بروست ولا بحثه عن الزمن المفقود.

إلى أين سأتجه على متن بساط ريحي الذي خِيطت فيه بوصلة؟ إن شروق الشمس في فيينا، في كانون الأول، لا يمت بصلة إلى شروقها في الصحراء: أنامل الفجر السخامية لطّخت الثلج، هذا ما كان سيكتبه هوميروس الدانوب. هذا ليس طقسًا تَدَعُ فيه مستشرقًا يتجول في الخارج. أنا باحثٌ مكانه حتمًا وراء مكتبه، لا أمت بصلة إلى بيلغر أو فوجيه أو سارة الذين لا يعثرون على السّعادة سوى خلف مقود سيارة ذات دفع رباعي، في العوالم السفلية الأكثر، كيف أقولها، الأكثر إثارة أو بكل بساطة «في الميدان» كما يقول علماء الإثنولوجيا - أنا مجرد جاسوس، جاسوس رديء، لكانت الأبحاث التي كتبتها هي إياها حتّى لو لم أغادر فيينا أبدًا لأذهب إلى تلك الأراضي البعيدة والقاسية حيث يستقبلك أهلها بالعقارب والمحكومين بالإعدام الذين يتدلون من حبال المشانق، لكانت مسيرتي المهنية بدرجة التفاهة ذاتها حتّى لو لم أسافر بتاتًا - عنوان مقالتي التي يُستشهد بها الأكثر هو «أول أوبرا استشراقية شرقية: 'ليلى والمجنون' لحجيبكوف»، ومن الجليّ تمامًا أنني لم أطأ أبدًا أذربيجان، حيث يتخبّط السكان، في ما يبدو لي، في النفط والأيديولوجيات القومية؛ في طهران، لم نكن بعيدين جدًّا من باكو، وكنا خلال نزهاتنا على ضفاف بحر قزوين، نُبلل أقدامنا في المياه عينها التي تمتدّ إلى الشواطئ الأذربيجانية، في أي حال، هو أمرٌ يبعث على اليأس أن أفكّر في أن الأوساط الجامعية سوف تتذكرني

للتحليل الذي كتبته عن العلاقات بين روسيني وفيردي وحجيبكوف. إن هذا التعداد المعلوماتي والآلي للاقتباسات والاستشهادات سيؤدي بالقطاع الجامعي إلى الهلاك: ما من أحد سيباشر بعد الآن، بأعمال بحثية صعبة، مُكلفة وطويلة الأمد، إذ من الأجدى له نشر مقالات موجزة، اختيرت مواضيعها بعناية، بدل نشر مؤلفات ضخمة تفيض بالمعرفة - لستُ أخدع نفسي فيما يخصّ القيمة الفعلية لمقالتي حول حجيبكوف، فهي يُعاد نشرها في جميع الأعمال التي تصدر حول المؤلِف الموسيقي هذا، بشكل تلقائي، بصفتها إحدى الدراسات الأوروبية النادرة حول حجيبكوف الأذربيجاني، وكل الأهمية التي كنتُ أراها في هذا البحث، أي تطرقه إلى ظهور استشراق شرقي، يُتغاضى طبعًا عنها بشكل كامل. لا داعي للسفر إلى باكو من أجل هذا. لكن عليّ أن أكون منصفًا: لو لم أذهب إلى سورية، لو لم أختبر الصحراء قليلًا جدًّا وبشكل عرضي (ولو لم أتعرّض هناك لخيبة عاطفية، ينبغي الإقرار بذلك)، لما كنتُ قد شُغِفت أبدًا بمجنون ليلى لدرجة أن أقوم بطلب نوتات «ليلى والمجنون» لحجيبكوف، أمرٌ كان في غاية التعقيد وقتذاك؛ ولما كنتُ حتّى قد علمتُ أن هذا العاشق الذي يصرخ هيامه إلى الغزلان والصخور، كان مصدر إلهام لكثير من الروايات الشعرية، بالتركية أو بالفارسية، منها تلك التي ألفها محمد بن سليمان الفضولي، والتي اقتبسها حجيبكوف - أنا كنتُ أصرخ ولعي إلى سارة، لكن ليس ولعي بها، بل ولعي بمجنون ليلى، ولعي بكل المجانين، وكانت حماستي هذه تبدو لها فكاهية إلى أقصى الحدود: أرانا مجددًا جالسَيْن على كراسي الجلد في «المعهد الفرنسي للأبحاث في إيران» حيث كانت من دون سوء نية (من دون سوء نية؟)، تسألني عن «مجموعتي» - كما كانت تُسميها - حين تراني عائدًا من المكتبة متأبطًا حزمة من الكتب، «أما زلتَ مجنونًا

بليلى؟»، كانت تسألني. وكان عليّ أن أقرّ بذلك، أجل، مجنون ليلى، أو «خسرو وشيرين»، أو «ويس ورامين»، باختصار: رواية حبّ كلاسيكية، قصة حبّ ممنوع خاتمته الموت. كانت تقول لي بمكر: «والموسيقى في كلّ هذا؟»، مفتعلةً نظرة لَوْم، لكنني كنت قد عثرت على جوابي: إنني أحضّر لنص شامل ونهائي عن الحب في الموسيقى، من «التروبادور»، الشعراء الجوالون في أوروبا القرون الوسطى، وصولًا إلى حجيبكوف، ومرورًا بشوبرت وفاغنر، وكنتُ أقول ذلك وأنا أحدّق في عينيْها، فيما هي تطلق قهقهةً صاخبة، قهقهة وحشية، قهقهة جنّيةٍ أو ساحرة، قهقهة آثمة، ها أنا أعود مجددًا إلى سارة، لا أستطيع أن أفعل شيئًا حيال ذلك. أي شراب حبٍّ احتسينا يا ترى؟ أهو نبيذ من منطقة ستيريا وقت كنا في قصر هاينفلد، أم نبيذ لبناني في تدمر، أم عرق فندق «بارون» في حلب، أم نبيذ الموتى، يا له من شراب حبٍّ غريب، لا يسري مفعوله إلا على شخص واحد، مبدئيًا - كلا، لقد بدأ كلّ شيء قبل فندق «بارون» في حلب، لكن يا لعاري هناك في ذلك الفندق، يا إلهي، كنتُ قد نجحت بالتخلص من بيلغر الذي بقي على ضفة الفرات، في الرقّة المريعة ذات الساعة المشؤومة وسط الدوّار، وباصطحاب سارة (وأنا لا أزال أرتعش من الليلة التي أمضيناها في تدمر) إلى حلب ومَسَرّاتها، حيث وجدَتْ مجددًا، بكثير من الإنفعال، آنا ماري شفارتسنباخ والرسائل إلى كلاوس مان وكلّ أشجان هذه السويسرية الخُنثى. غير أن الوصف الذي تقدّمه إلّا مايّار في كتابها «الدرب القاسية»، عن آنا ماري، ليس من شأنه إثارة الشغف بهذه الأخيرة: مُدمنة مخدّرات لا تكفّ عن التذمر والانتحاب لأتفه الأمور، لا يسرّها شيء، هزيلة بشكل مرضي وترتدي سراويل فضفاضة، مُتسمّرة على الدوام وراء مقود سيارتها «الفورد»، تبحث في السفر، في معاناة

السفر الطويل من زيورخ إلى كابول، عن عذرٍ أو تبرير ملائم لألمها: يا لها من صورة بائسة! من العسير جدًّا أن نُبصر، خلف هذا الوصف لحطام بشري ذي وجه ملائكي، الناشطة المناهضة للفاشية، الكاتبة المناضلة، والمثقفة الفاتنة التي هامت بها كلّ من إيريكا مان وكارسون ماكولرز - ربّما لأن الرزينة إلّا مايّار، هذه الناسكة الجوّالة، لم تكن الشخص الملائم لوصفها بتاتًا؛ وربّما لأن آنا ماري كانت في عام ١٩٣٩، على صورة أوروبا: تلهث وهي تلوذ بالفرار مرعوبة. تَحدَّثنا عنها في ذلك المطعم المتواري داخل زقاق، ذاك «السيسي هاوس» حيث يرتدي الندل سترات سودًا وقمصانًا بيضًا؛ روت لي سارة الحياة القصيرة والمأساوية التي عاشتها هذه السويسرية، أخبرتي عن إعادة اكتشاف نصوصها حديثًا، نصوص مُشتَّته ومُبعثَرة، وعن شخصيتها التي هي أيضًا مُشتَتَة بين المورفين والكتابة ومثليةٍ جنسية مُحتمَلة كان من الصعب جدًّا عيشُها في تلك البيئة المُحافظة للغاية على ضفاف بحيرة زيورخ.

أوصد الزمن أبوابه علينا؛ هذا المطعم ذو الكراسي من القش، هذه المآكل اللذيذة والعريقة، العثمانية، الأرمنية، في هذه الصحون الصغيرة من الخزف المزجج، تلك الذكرى الحديثة للغاية، ذكرى البدويين وضفاف نهر الفرات النائية ذات الحصون المدمرة، كلّ ذلك كان يسجننا في حميمية غريبة، دفئها، حُنُوّها وعزلتها كدفء وحُنُوّ وعزلة الأزقة الضيّقة والمظلمة، والتي تحيط بها أسوار القصور العالية. كنتُ أتأمّل سارة، شعرَها النحاسي، عينيها اللامعتيْن، وجهَها المشرق، ابتسامتَها الحمراء المرجانية، وكانت هذه السّعادة التامة التي بالكاد يخدشها استحضار ذاك الشجن الذي تُجسّده آنا ماري، تنتمي إلى ثلاثينات القرن العشرين بقدر ما تنتمي إلى تسعينات القرن ذاته، تنتمي إلى القرن السادس عشر العثماني كما إلى عالم

ألف ليلة وليلة، ذلك العالم المُكوَّن من خليط عوالم عدّة، والذي هو خارج الزمان والمكان. كلّ شيء من حولنا كان يُشارك في صوغ هذا الانطباع، من المناديل المخرّمة التي على الطاولة وتلك الأشياء (شمعدانات من طراز «بيدرماير»، أباريق معدنية) الموضوعة على حافة النوافذ المُقوَّسة والمطلة على الباحة الداخلية، وصولًا إلى درجات السلالم الشديدة الانحدار، ذات الدرابزين الحديد البديع، والمفضية إلى مشرَبيات تؤطرها حجارة سوداء وبيضاء؛ كنتُ أستمع إلى سارة تتكلم باللهجة السورية مع النادل والسيدات الحلبيات اللواتي كنّ على الطاولة المحاذية، وشعرْتُ بأنني محظوظ لدخولي هذه الفقاعة، هذه الدائرة السحرية التي تتوسطها سارة؛ كنتُ أتخيّل أن هذه الدائرة ستصير إطارًا لحياتي اليومية، إذ كنتُ مُتيقنًا تمامًا، بعد ليلة تدمر ومعركتنا ضدّ فرسان شفابن، أننا أصبحنا - ماذا؟ ثنائيًا (كوبل)؟ عشيقَيْن؟

يا عزيزي فرانتس المسكين، أنتَ لا تزال ضحيّة أوهامك، كانت ستقول أمي بفرنسيّتها العذبة للغاية، لقد كنتَ دائمًا هكذا، حالمًا، يا ولدي المسكين. لكنّكَ قرأت «تريستان وإيزولده»، و«ويس ورامين»، وأشعار مجنون ليلى، ثمة عقبات يجب التغلب عليها، كما أن الحياة طويلة جدًّا أحيانًا، إن الحياة طويلة جدًّا، بقدر طول الظلال التي تُخيّم على حلب، ظلال الدمار. مرور الزمن قد أحال «السيسي هاوس» خرابًا؛ أما فندق «بارون»، فلا يزال قائمًا، مصاريع نوافذه موصدة، لقد دخل في سبات عميق ريثما يتخذه سفاحو «الدولة الإسلامية» مقرًا لهم، فيحوّلونه سجنًا أو خزنة، أو ينسفونه بالدّيناميت: سوف ينسفون عند ذلك عاري وذكراه التي ما زالت أليمة وحارقة، إضافة إلى ذكريات الكثير من الرحالة، سوف يتساقط الغبار على آنا ماري ولورنس العرب وأغاثا كريستي،

سوف يكسو غرفة سارة والممر الواسع (بلاط ذو رسوم هندسية، جدران مطلية باللكر بلون الكريم)؛ سوف تنهار السقوف العالية للغاية وتتهاوى على رواق الدرج حيث يقبع صندوقان من خشب الأرز، نعشان من الحنين مع لوحتَيْهما الجنائزيتَيْن، «لندن - بغداد خلال ثمانية أيام عبر قطار سيمبلون-الشّرق السريع وقطار تورروس السريع»[1]، سوف يبتلع الركام السلالم الفخمة التي صعدْتُها إثر نزوة مفاجئة بعد ربع ساعة على قرار سارة الذهاب إلى سريرها في منتصف الليل: أرى نفسي مجددًا أطرق بابها - مِصراعان من الخشب اصفرّ طلاؤهما، مفاصل أصابعي تلاصق الأرقام المعدنية الثلاثة - بجزعٍ وتصميمٍ ورجاءٍ وعمى وضيق صدرِ مَنْ ينطلق في مغامرة خطرة ليعثر مجددًا، في سرير، على ذاك الشخص الذي لمحه تحت لحاف في تدمر، مَنْ يريد أن يُكْمِل ما بدأه، أن يتمسّك به، أن يدفن نفسه في النسيان، في تَشَبُّع الحواس، حتّى يطرد الحنانُ الشجنَ، ويهدم الاستكشافُ النهمُ للآخر متاريسَ الذات.

لا أذكر شيئًا ممّا نفوهنا به، لحسن الحظ أن كلّ شيء قد انمحى؛ لم يتبقَّ لي إلا وجهها الصارم بعض الشيء وحدّة الألم المباغتة، الإحساس بأنني عدتُ مجددًا كائنًا يخضع لمرور الزمن، تسحقه قبضة العار ثمّ تقذف به نحو الزوال.

(١) بالإنكليزية في النص الأصلي.

الساعة الثانية والدقيقة الخمسين ليلًا

ألوم نفسي على جبني وتخاذلي، ألوم نفسي على خجلي، حسنًا، سوف أنهض، أشعر بالعطش. لقد قرأ فاغنر «العالم كإرادة وتصوّر» لشوبنهاور في أيلول ١٨٥٤، أي حين بدأت أوبرا «تريستان وإيزولده» ترتسم في مُخيّلته. ثمة فصلٌ عن الحب في «العالم كإرادة وتصوّر». شوبنهاور لم يحب أحدًا في حياته مثلما أحبّ كلبه «أتما». كلبٌ سنسكريتي اسمه يعني «روح». يُحكى أن شوبنهاور، في وصيّته، قد عيّن كلبه وريثه الوحيد، أتساءل إن كان الأمر صحيحًا. لعلّ غروبر سيفعل الشيء نفسه. ذلك سيكون مسليًا. لا بد من أن غروبر وكلبه نائمان، ما من حسّ يصدر من فوق. الأرق... يا له من لعنة! كم الساعة الآن؟ لم أعد أذكر جيدًا نظريات شوبنهاور عن الحب. أعتقد أنه يميّز بين الحب كوهم مرتبطٍ بالرغبة الجنسية من جهة، والحب الكوني، الشفقة، من جهةٍ ثانية. أتساءل ما كان رأي فاغنر في هذا. لا شك في أن ثمة مئات من الصفحات التي كُتِبت حول شوبنهاور وفاغنر؛ أنا لم أقرأ أي واحدة منها. الحياة تبعث على اليأس أحيانًا.

شرابُ حبٌّ، شرابُ موتٍ، موتُ حبٌّ.

سوف أقوم لتحضير شراب ساخن، هذه فكرة جيدة.

وداعًا للنوم.

في يوم من الأيام، سوف أؤلف أوبرا عنوانها «كلب شوبنهاور»، أتطرق فيها إلى مسائل الحب والشفقة، إلى الهند والديانتَيْن الفيديّة والبوذية، إلى فن الطبخ النباتي. أما الكلب، فسيكون من فصيلة «لابرادور»، محبًّا للموسيقى ويأخذه صاحبه إلى الأوبرا، كلب فاغنري. ماذا سأسمي هذا الكلب؟ أتما؟ غونتر؟ هذا اسم جميل: غونتر. سوف يشهد الكلب نهاية أوروبا، انهيار الحضارة وعودة البربرية؛ وفي الفصل الأخير، سوف يطلع شبح شوبنهاور من النيران لينقذ الكلب (الكلب فقط) من الدمار. عنوان القسم الثاني سيكون: «غونتر، كلب ألماني»، وسوف يسرد رحلة الكلب إلى إيبيزا والانفعال الذي سيتملّكه عندما يكتشف البحر الأبيض المتوسط. سيتحدّث الكلب عن شوبان، وجورج ساند، وفالتر بنيامين، عن جميع المنفيين الذين وجدوا الحب أو الأمان في جزر البَليار الإسبانية؛ سوف يمضي غونتر آخر أيام حياته سعيدًا، تحت شجرة زيتون، برفقة شاعر سيلهمه الكلب كتابة قصائد عن الطبيعة والصداقة.

ها إنني أصير مجنونًا، مجنونًا بالكامل. إذهبْ وحضّرْ لنفسك شرابًا ساخنًا يُذكّركَ بزهورات دمشق وحلب، بورود إيران. إن رفضها إياك، ذلك المساء في فندق «بارون»، لا يزال يكويكَ بعض الشيء، رغم انقضاء السنوات وما فعلَتْه هي لاحقًا لمداراتك، رغم طهران والرحلات؛ توجّب عليّ طبعًا أن أواجه نظرتها في صباح اليوم التالي، أن أواجه حرجها وحرجي، لقد أيقظكَ الواقع من حلمكَ وأطاحك أرضًا، أطاحك أرضًا، لقد تفوّهْتُ باسم نديم فتمزّق الستار الذي كان يحجب عنكَ الحقيقة. تصرّفتُ بأنانية، فأخذتُ أتعامل معها ببرودة خلال الأشهر وحتى السنوات اللاحقة - غيّور، غيّور، من المحزن قول ذلك، الكبرياء المجروحة، يا له من

ردّ فعل أبله. بالرّغم من إجلالي لنديم، بالرّغم من الأمسيات الطويلة التي أمضيتها وأنا أنصتُ إلى عزفه، أصغي إلى ارتجالاته وأتعلّم، بصعوبة، تمييز مقامات الموسيقى العربية التقليديّة وإيقاعاتها، بالرّغم من كلّ الصداقة التي كانت قد بدأت تنشأ بيننا، بالرّغم من كَرَمِ نديم، أغلقتُ نفسي حول كبريائي المجروح، ومثل بلزاك، تحوَّلتُ محارًا متقوقعًا داخل صدفته. تابعتُ طريقي وحيدًا وها أنا الآن واقفٌ أبحث عن خفّي، تبحثُ عن خِفّيك بينما تصفُر لحنًا من «كنتاتا» لباخ وقدماكَ على البساط الذي بمحاذاة السرير، سجادة صلاة (من دون بوصلة) من خراسان كانت لسارة التي ابتاعتها من سوق شعبية في طهران، غير أنها لم تستعدها أبدًا منكَ. تلتقط ثوب النوم، فتتشابك يداكَ في الأكمام الواسعة للغاية لهذه العباءة التي تبدو كأنها لأمير بدوي، المطرّزة بالذهب، والتي دائمًا ما تستثير تعليقات هازئة أو مُرتابة من ساعي البريد أو عمّال شركة الغاز، تعثرُ على خفَّيك تحت السرير، تقولُ لنفسك إنه من الحماقة أن يُغضِبكَ أمرٌ بهذه التفاهة، تمشي حتّى مكتبتكَ، تجتذبُكَ رفوف الكُتب كشعلة تجتذب فراشة، تُلامِسُ (إذ ما من جسد أو جلد لتلامسه) أعمال فرناندو بيسوا الشعرية التي على المِقْرإ الخشب، تفتحها عشوائيًا لتشعر بلذة انسياب هذا الورق الرقيق للغاية تحت أناملكَ، تقع طبعًا (بسبب الشريطة داخل المجلّد) على قصيدة «أفيوني» لألبارو دي كامبوس: «قبل الأفيون روحي كانت متألمة./ الإحساس بالحياة يُحيي ويُفني/ وأنا في الأفيون واهب السَّلوى أبحث/ عن شرقٍ في شرقِ الشّرق»[1]. إحدى أعظم قصائد دي كامبوس، هذا الشاعر الذي ابتكره بيسوا - إن مخلوقَه هذا رحّالةٌ، «آذار ١٩١٤، في قناة

---

(١) «قصائد ألبارو دي كامبوس» لفيرناندو بيسوا، ترجمة المهدي أخريف.

السويس، على ظهر السفينة»: يُعتقد أن بيسوا قد عَدَّل التاريخ الحقيقي لهذا التوقيع، لقد لجأ إلى الغش، إذ أراد أن يجعل من ألبارو دي كامبوس شاعرًا «على الطريقة الفرنسية»، مثيلًا لأبولينير، عاشقًا للشرق وللسفن، كاتبًا حداثيًا. قصيدة «أفيوني» نسخةٌ رائعة، نسخة أكثر أصالة من الأنموذج الأصلي: لقد توجّب اختراع «طفولةٍ» لكامبوس، وأشعارٍ من أيام المراهقة، أشعار عن السأم، عن الأسفار وعن الأفيون. يتوارد إلى ذهنكَ هنري جان - ماري لوفيه، شاعر السأم والأفيون والسفن، تبحث في مكتبتكَ (ليس بعيدًا جدًّا، على رفّ «الشعراء الفرنسيين المنسيين»، إلى جانب لويس بروكيه، شاعر ملّاح، موظف في شركة «مِساجري ماريتيم» للنقل البحري، «نجم» آخر من نجوم سارة) فتجد ديوانه «بطاقات بريدية»، كتابٌ في منتهى الصغر: إن أعمال لوفيه الكاملة بالكاد تملأ كف اليد، نصوصه تُعَدُّ على الأصابع. لقد مات من داء السل عام ١٩٠٦ وهو في الثانية والثلاثين من عمره، هذا الديبلوماسي المبتدئ الذي أُرْسِل في مهمة إلى الهند والهند الصينية، وشغل منصب قنصل في لاس بالماس، والذي كنا ننشد أشعاره في طهران: تتذكّر أنكَ لحّنت بعضًا من أبياته، فكتبتَ بضع أغاني جاز مريعة لتسلية الرفاق، أمرٌ مؤسف أن ما من مؤلف موسيقي حقيقي قد التفت إلى نصوصه، ولا حتّى غابريال فابر صديق الشعراء، موسيقي منسي حتّى أكثر من هنري لوفيه نفسه - لقد ربطت بين الرّجلَيْن علاقة جيرة في شارع «الوبيك» الباريسي، وقد قام لوفيه، من بور سعيد، بإهداء ديوانه «بطاقات بريدية» لغابريال فابر:

نُحدِّق في أضواء بور سعيد المُلتمعة
كما كان اليهود يحدِّقون في أرض الميعاد:

إذ لا يمكننا أن ننزل من السفينة؛ فذلك،
في ما يبدو، أمرٌ محظور
- بموجب اتفاقية البندقية -

على نزلاء جناح الحجر الصحيّ الأصفر.
لن نطأ إذًا اليابسة لنهدّئ حواسّنا القلقة
ولن نحصل على مؤونتا من الصوَر الفاحشة
ولا من ذاك التبغ اللاذقاني الممتاز...

لكان الشاعر قد أحبّ، خلال رسو السفينة لفترة قصيرة
أن يدوس أرض الفراعنة لساعة أو ساعتيْن
بدلًا من الاستماع إلى الآنسة فلورانس مارشال
وهي تُغنّي، في الصالون، «حسناء نيويورك».

لكنتَ أحببتَ أن تعثرَ في يوم من الأيام، داخل صندوق منسي، على مخطوطة موسيقية لفابر، تلحينٌ لأبياتٍ لهنري لوفيه - غابريال فابر المسكين، الذي أصيب بالجنون؛ لقد أمضى السنوات العشر الأخيرة من حياته في مصحّ عقلي، لا يزوره أحد، إذ كان الجميع قد تخلّوا عنه. لقد لحّن أشعارًا لمالارميه وماترلينك ولافورغ، وحتى قصائد صينية، قصائد صينية قديمة جدًّا تحبُّ أن تتخيّل أن جاره هنري لوفيه هو من أهداه إياها مُترجمة. تلاحين لا تنمّ عن عبقرية، للأسف، موسيقى باهتة - هذا ما كان ليروق للشعراء: الكلمات كانت أهمّ من الغناء. (ولعلّ تواضع غابريال فابر وسخاءه هما تحديدًا ما حجب عنه المجد بعد مماته، إذ كان منهمكًا للغاية في إرساء مجد الآخرين).

إن ديوان «البطاقات البريدية» عزيز على قلب سارة ككنز ثمين لا

تقلّ سأهميته عن مؤلفات بيسوا - هي تؤكّد أن ألبارو دي كامبوس اليافع قد استلهم أشعار هنري لوفيه، أشعارًا كان قد قرأها في طبعة «فارغ ولاربو». إن صورة هنري، هذا الغندور الرحّالة الذي مات يافعًا جدًّا في أحضان والدته، تحرك مشاعرها - في إمكاننا أن نتكهّن سبب ذلك. كانت تروي لنا في طهران، جالسةً على أحد تلك الكراسي العميقة من جلد الـ «هافان» في «المعهد الفرنسي للأبحاث في إيران»، كيف كانت، خلال مراهقتها في باريس، مفتونة بالسفن، بأحلام السفر، ببواخر شركة «مِساجري مارينيم»، بجميع الشركات الكولونيالية للنقل البحري. وكان فوجيه يحاول إغاظتها، فيقول إن ولعها ولعٌ خاص بالصبيان، إن البواخر، كالقطارات، هي ألعابٌ للصبيان، وإنه لم يعرف قط فتاةً «جديرة بحمل هذه الصفة»، تُحبُّ هذه الأمور: السفن البخارية، الأنابيب النحاسية التي توصِل التعليمات من حجرة القيادة إلى غرفة المُحرِّكات، أكمام الريح، العوّامات، الكريات الذهبية الكبيرة للبوصلات، القبعات المُطرزة، المُقدمة الجليلة للسفينة. كانت سارة تُقرّ بأن الجانب التقني لا يثير اهتمامها إلا قليلًا (حتى لو كانت تستطيع، على حدّ قولها، أن تتذكر خصائص السفن: الحجم، سعة الحمولة، درجة الإرتفاع عن سطح الماء، السرعة)، إذ ما تحبه أكثر من أي شيء آخر، هو أسماء البواخر وخاصة أسماء الخطوط الملاحية: مارسيليا - بور سعيد - السويس - عدن - كولومبو - سنغافورة - سايغون - هونغ كونغ - شانغهاي - كوبي - يوكوهاما في خمسة وثلاثين يومًا، مرّتين في الشهر يوم الأحد، على متن سفينة «تونكين»، «توران» أو «كاو-بانغ» التي كانت حمولتها ٦٧٠٠ برميل حين غرقت، خلال طقس ضبابي، أمام جزيرة «بولو كوندور» حيث سِجْن الأشغال الشاقة الفظيع الذي تقوم السفينة بنقل السّجانين منه وإليه، في عرض بحر الصين

الجنوبي. كانت تحلمُ بهذه الرحلات البحرية البطيئة، اكتشاف المرافئ، الانتظار خلال رسو السفينة لفترة قصيرة؛ صالات الطعام الفاخرة ذات الأثاث من خشب «الأكاجو»؛ غرف التدخين، الصالونات الصغيرة، حُجر النوم الرحبة، أطعمة المأدبات التي تؤول إكزوتيكية أكثر فأكثر كلما طالت الرحلة، والبحر، البحر، هذا السائل الأصلي الذي تُخضخضه الأجرام السماوية مثلما يُخضخض الساقي المشروبات ليصنع منها كوكتيلًا.

باخرة «أرمان بهيك» (التابعة لشركة «مِساجري ماريتيم»)
تُبحر بسرعة أربع عشرة عقدة في عرض المحيط الهندي...
والشمس تغرب في مُرَبًّى بلون الجريمة،
تتهاوى في هذا البحر الأملس كأن كفّ يدٍ قد سطحه.

إذ ثمة شرقٌ آخر ما وراء الشّرق، هو حلمُ رحالةِ الماضي، حلمٌ كولونيالي، كوزموبوليتاني وبورجوازي، حلمٌ بأرصفة الموانئ والسفن البُخارية. أنتَ تحبّ أن تتخيّلَ سارة وهي لا تزال شابة، في شقة في الحيّ السادس عشر الباريسي، تتخيّلها مستلقيةً وفي يدها كتابٌ، تُحدِّق بالسقف وتحلم بأنها تصعد على متن سفينة متجهة إلى سايغون - ماذا كان يتراءى لها خلال تلك الساعات الغريبة، في تلك الغرفة التي كنتَ سترغب في الدخول إليها كمصاص دماء، أو كنورس يحطّ على خشب السرير وكأنه سياج شرفة سفينةٍ يهدهدها الماء، بين عدن وسيلان؟ بيار لوتي في تركيا، رامبو في الحبشة، فيكتور سيغالين في الصين، قراءات الطفولة المتأخرة التي تحمل المرء على اختيار طريق الاستشراق أو درب الحلم، مثل «سِدهارتا» لهرمان هيسه أو «رباعية الإسكندرية» للورنس داريل - جميعنا نُقْدِم على الأمور للأسباب

الخاطئة، فتنحرف مصائرنا، خلال فترة شبابنا، بسهولة انحراف رأس سدادة فلين مُزوَّدٍ بإبرة؛ كانت سارة تحب القراءة والدراسة، الحلم والسفر: ماذا نعرف من السفر عندما نكون في السابعة عشرة من عمرنا، نُفتَتَن بوقع الكلمات على آذاننا، نُسحَرُ بالخرائط، ثمّ نحاول، طوال حياتنا، أن نعثر في عالم الواقع على أوهام الطفولة. إن سيغالين المولود في منطقة بريتاني الفرنسية، وهنري لوفيه المولود في مونت بريزون، وهيسه المولود في الفورتمبيرغ قد حلموا، ثمّ صنعوا بدورهم الأحلام، مثلما فعل رامبو قبلهم، رامبو، هذا الشيطان الرحّالة الذي يتهيأ لنا أن الحياة قد سعت، طوال حياته، إلى تكبيله بسلاسل معدنية لكي تمنعه من الرحيل لدرجة أنها بترت إحدى ساقيْه لتتأكد من أنه لن يقوى على الحراك بعد الآن - لكن حتّى حين لم يعد لديه إلا ساق واحدة، إستطاع أن يقوم برحلة ذهابًا وإيابًا بين مارسيليا والأردِين، جَدعَتُه الشنيعة تؤلمه بشكل مُريع، مترجرجًا على السكك الحديد الفرنسية، تلك الدروب الرائعة حيث خبّأ قصائدَ تنفجرُ ذكريات عند كلّ دورة للعجلات، عند كلّ صرير يصدره احتكاك المعدن بالمعدن، عند كلّ نفثة دخان مبحوحة. يا له من صيفِ ألمٍ مُرعِب! صيف سيصرع هذا العرّاف ذا سحنة السجين المحكوم عليه بالأعمال الشاقة - لن يُمنعَ عنه بلسم الأفيون، ولا عزاء الدّين؛ إن أكبر شاعر فرنسي، هذا الرّجل الذي ما انفك يفرّ للقيام برحلات طائشة إلى تلال الشمال الفرنسي وصولًا إلى جزيرة جاوة الغامضة في إندونيسيا، قد لفظ آخر أنفاسه في ١٠ تشرين الثاني ١٨٩١ في مستشفى «كونسبسيون» في مارسيليا، الساعة الثانية بعد الظهر تقريبًا، تنقصُه ساقٌ ولديه ورمٌ مهول في الأربِيَّة. كانت سارة تتحسّر على مصير هذا الطفل ذي الستة والثلاثين عامًا (أربع سنوات أكثر من هنري لوفيه، ومئات أبيات الشعر والكيلومترات أكثر منه، وعشر سنوات أمضاها في الشّرق)

الذي كتب لشقيقته، مضطجعًا على سرير المستشفى: «ماذا حلّ بالعَدْوِ عبر الجبال، بالأحصنة، بالنزهات، بالصحارى، بالأنهر والبحار؟ أحيا الآن بنصف جسد!»

تنبغي إضافة مُجلَّد آخر إلى تُحفتِنا،

حول أشكال الجنون المختلفة في الشّرق
المجلد الثاني
الغرغرينا والسل

... وإنشاء فهرس عن الذين حلّت بهم البلايا، المصابين بداء السل أو الزهري، أولئك الذين مُنوا بمرض مريع، القروح التناسلية، العدّ الوردي، العدوى الفطرية، الأورام الملتهبة التي تنزّ قيحًا، البصاق الدموي، وصولًا إلى بتر الأعضاء أو الاختناق، مثل رامبو أو هنري لوفيه، شهيدَي الشّرق - وفي إمكاني، بالرّغم من رفضي مواجهة حقيقة مرضي، أن أخصص لنفسي فصلًا كاملًا، أو حتّى فصليْن، «الأمراض الغامضة» أو «الأمراض الوهمية»، وفي استطاعتي أيضًا أن أذكُر نفسي في فقرة «الإسهال» الذي يمثّل، أكثر من أي حالة أخرى، الرفيق الفعلي للمستشرق: أنا اليوم مُرغمٌ، بسبب تعليمات الدكتور كراوس، على أكل اللبن والأعشاب، كميّة هائلة من الأعشاب، من السبانخ وصولًا إلى الـ«سبزي» الإيرانيّ، وهو أمرٌ لا يقلّ إزعاجًا عن نوبة إسهال، حتّى لو أنه أقلّ دراماتيكيّة منها: ذات ليلة وسط عاصفة ثلجية، في حافلة كانت تقلّنا من طهران إلى بحر قزوين، اضطرّ فوجيه إلى التعامل بخشونة مع السائق الذي كان يأبى التوقف على جانب ذاك الطريق الجبلي المُنتشرة على أطرافه أكوام الثلج، قائلًا لفوجيه بنبرة آمرة أن ينتظر حتّى فترة الاستراحة القريبة - كان وجه مارك شاحبًا تمامًا، ومؤخّرته لا تكفّ عن التهزهز؛ أمسك

بالسائق من ياقته وهدده بأنه سوف يُفرغ أمعاءه على الأرضيّة، فأقنعه بالتوقف. أرى مجددًا بوضوح، فوجيه يركض على الثلج ثمّ يختفي (يتهاوى) خلف منحدر؛ وبعد بضع ثوانٍ، وسط ضوء المصابيح الأماميّة الذي تُخططه نُدَف الثلج المتساقطة، تفاجأنا برؤية غيمة من البخار تتصاعد كالدُخان في الرسوم المُتحركة، ما حمل السائق على أن ينفجر ضاحكًا. وبعد دقيقة، أبصرنا فوجيه عائدًا بصعوبة إلى الحافلة، مُبللًا ويرتجف بردًا، وجهه أبيض لكن ترتسم عليه ابتسامة ارتياح باهتة. ثمّ، بعد بضعة كيلومترات، توقف الباص مجددًا لإنزال ركاب عند تقاطع طرق وسط الجبال - في الخلف، كان جبل دمافند وصخوره التي تصل إلى ارتفاع ستة آلاف متر، تحجُبُ بعضًا من نور هذا النهار الشتوي؛ أما أمامنا، فكانت غابات السنديان والشرد، الكثيفة وشديدة الإنحدار، تمتدّ نزولًا حتّى السهل الساحلي. أصرّ السائق على أن يشرب فوجيه كأسَ شاي من قنينته «الترموس»؛ الشاي يشفي كلّ شيء، كان يقول؛ مسافرتان ودودتان قدَّمتا له كرزًا مجففًا حامض المذاق، فرفضه المريض باشمئزاز؛ وثمة رجل عجوز ما انفك يلحّ على إعطائه نصف موزة من المُفترض (أو هكذا فهمنا العبارة الفارسية) أن تُبطئ عملية الهضم - هرع فوجيه للإختباء بضع دقائق داخل مرحاض محطّة الوقود قبل أن يواجه طريقَ النزول نحو مدينة آمل، طريقًا تَحمَّلها ببسالة، متصلّبًا كتمثال، صارًّا على أسنانه فيما جبينه ينضح عرقًا.

بدل الاستعانة بالشاي أو الفواكه المُجففة أو الموز، عالج سيولة خرائه بواسطة الأفيون، ما أدّى، في نهاية المطاف، إلى نتائج مُذهلة: صار زميلًا لي بعد بضعة أسابيع فقط، إذ انضمّ إلى الجانب المظلم للتغوّط، ذاك الحيّز الذي يسكُنه المصابون بالإمساك المُزمِن.

بطبيعة الحال، لم تكن أمراضنا وأوجاعنا كمستشرقين سوى

إزعاج طفيف مقارنةً ببلايا أسلافنا المرموقين: البلهارسيا والتراخوما والأنواع الأخرى من التهابات العينيْن التي أصابت جيوش نابليون، الملاريا وطاعونُ وكوليرا الأزمنةِ الغابرة - إن سرطان الساركوما العظمِي الذي عانى منه رامبو لم يكن، مبدئيًا، يتّسِم بأي إكزوتيكية، إذ كان ممكنًا أن يُصيبه وهو في شارلفيل، حتّى لو كان الشاعر المغامر يُرجِع سبب مرضه إلى التعب والمُناخ والمسيرات الطويلة مشيًا أو على صهوة الحصان. إن الإرهاق الذي لحق برامبو المريض خلال رحلته إلى زيلع وخليج عدن كان من نوع مغاير تمامًا لإرهاق بيلغر وهو في طريقه إلى بحر قزوين: «ستة عشر حمّالًا زنجيًا» لنقّالة المرضى التي كان مضطجعًا عليها، ثلاثمئة كيلومتر في الصحراء من جبال هرر إلى الساحل، اثنا عشر يومًا من الأوجاع الفظيعة، إثنا عشر يومًا جهنميّة تركته منهكًا بالكامل لدى وصوله إلى عدن، لدرجة أن طبيب «المستشفى الأوروبي» قرّر أن يبتر ساقه على الفور، قبل أن يتراجع عن ذلك مُفضّلًا أن يَرْحَل آرتور رامبو لتُقطَع ساقه في مكان آخر؛ وفي ٩ أيار ١٨٩١، إستقلّ رامبالد البحّار، كما كان يُلقِّبه صديقه جيرمان نوفو، سفينة «الأمازون» البخارية المتجهة إلى مارسيلا. كانت سارة تتلو مقاطع بأكملها من أشعار مُستكشف مدينة هرر هذا، «الرّجل ذو نِعال الريح»:

باركتِ العاصفةُ يقظاتي البحريّة.
وبأكثرَ خفّةً من فلّينةٍ رقصتُ على الأمواج
التي تُدعى مُدَحرِجاتِ الضّحايا، الأزليّة،
طيلة عشرِ ليالٍ، دون أن آسفَ على مقلةِ الفوانيسِ البلهاء![1]

---

(١) من قصيدة «المركب السّكران» لآرتور رامبو، ترجمة: كاظم جهاد، ص ٣٥١، منشورات الجمل ٢٠٠٧.

وكان الجميع يصغون إليها، جالسين على تلك المقاعد الإيرانيّة العميقة التي كان هنري كوربان نفسه قد جلس عليها، مُتحدّثًا مع علماء كبار آخرين عن السهروردي وعن حكمة الإشراق؛ كنّا نُشاهد سارة تتحوّل إلى مركب، إلى عرّافة من عرّافات رامبو:

مُذّاكَ استحَممتُ في قصيدةِ البحرِ اللّبنيّة
المنقوعةِ بالكواكبِ، والتي كانت تلتهمُ اللّازوردَ الأخضر،
هناكَ حيثُ ينزلُ أحيانًا في تطويفٍ شاحب،
غريقٌ مُستغرقُ الفكرِ، مجذوب؛[1]

وكانت عيناها تلتمعان، وابتسامتها تصبح أكثر إشراقًا؛ كانت سارة تُشعُّ نورًا، تتوهّج بالشاعرية، ما كان يخيف بعض الشيء العلماء الحاضرين. أما فوجيه، فكان يضحك قائلًا إنه ينبغي «الجم هذا الإلهام الشيطاني الذي يستحوذ عليها»، محذرًا إياها، بلطف، من هذه «النوبات الرومنطيقية»، ما كان يحملها هي أيضًا على القهقهة عاليًا. إلا أنهم كانوا كُثرًا، المستشرقون الأوروبيون الذين يدينون باختيارهم مهنهم إلى أحلام الحياة الكولونياليّة: مراوح تهوئة ذات شفرات خشب إكزوتيكيّة، مشروبات روحيّة قويّة، علاقات حب مع النساء المحلّيات، ولع بالجواري. كانت هذه الأوهام العذبة أكثر حضورًا لدى الفرنسيين والإنكليز مقارنةً بغيرهم من شعوب الاستشراق؛ فللألمان، في المجمل، أحلام توراتية وأخرى تتمحور حول علم الآثار؛ وللإسبان هوامات إيبيريّة حول الأندلس الإسلامية وحول الغجر؛ وللهولنديين هلوسات بالتوابل، وبأشجار الفلفل

(١) من قصيدة «المركب السّكران» لآرتور رامبو، ترجمة: كاظم جهاد، ص ٣٥٢، منشورات الجمل ٢٠٠٧.

والكافور، وبالسفن وسط العواصف، على مسافة من رأس الرجاء الصالح. بهذا المعنى، كانت سارة وأستاذها جيلبير دي مورغان، مدير المعهد، فرنسيَّيْن تمامًا: كانا شغوفَيْن ليس بالشعراء الفرس فحسب، بل أيضًا بأولئك الذين ألهمهم الشّرق بطريقة أو بأخرى، أمثال اللورد بايرون ونيرفال ورامبو، وبالذين بحثوا، كفرناندو بيسوا ومخلوقه ألبارو دي كامبوس، عن «شرقٍ في شرقِ الشّرق».

شرقٌ أقصى ما بعد نيران الشّرق الأوسط؛ يروح المرء يُفكّر في أن الدولة العثمانية كانت تُعتَبر سابقًا «رجل أوروبا المريض»: في يومنا هذا، أوروبا هي الرّجل المريض، رجلٌ عجوزٌ أنهكته السنون، جسدٌ متروك، يتدلى من المشنقة، يُراقب نفسه يتعفّن ويتحلل وهو يقول لنفسه أن «باريس ستبقى دائمًا باريس»، بثلاثين لغة مُختلفة، من ضمنها البرتغالية. «أوروبا رجل راقد، يُنازع، ويرفع نفسه بمرفقيْه»، كتبَ بيسوا في ديوان «رسالة»، إن أعماله الشعرية الكاملة بمثابة نبوءة، نبوءة أسى حالكة. في شوارع إيران، يُصادف المرء متسوّلين مُتسلّحين بعصافير، يتربصون بالمارّة لكي يتنبأوا لهم بمستقبلهم: مقابل قليل من المال، يُشير الطائر (ببغاءٌ صغير، أصفر أو أخضر، أكثر الطيور دهاءً) بمنقاره إلى ورقة مطوية أو ملفوفة يعطيك إياها المتسوّل، وقد كُتِب عليها بيت لحافظ الشيرازي، إن هذه العادة تُدعى نبوءة حافظ: سأجرّب نبوءة بيسوا، سأرى ما يُخبئه لي هذا البرتغالي بطل العالم في رياضة القلق.

تترُكُ إصبعك تنزلق عشوائيًا لبضع صفحات بعد قصيدة «أفيوني» فيما أنتَ مغمض العينين، ثمّ تفتحهما: «شاسعة هي الصحاري، وكل شيء صحراء»، هكذا إذن، الصحراء من جديد، مصادفةً، الصفحة ٤٢٨، وألبارو دي كامبوس مجددًا، ومصادفةً أيضًا، ذلك يجعلكَ تُفكّر، لبعض من الوقت، في أن كلّ شيء مترابط، في أن

كلّ كلمة، كلّ حركة، متّصلة بجميع الكلمات وبجميع الحركات. كلّ الصحاري صحراء، «أُشْعِلُ سيجارة لأرجئ الرحلة/ لأرجئ الرحلات كلها/ لأرجئ الكون بأكمله».

المكتبة تتسع للكون بأكمله، لا حاجة إلى خروج منها مطلقًا: ما فائدة مغادرة البُرج، كان يقول هولدرلين، إن نهاية العالم سبق أن حلّت، لا داعي لذهاب المرء لاختبارها بنفسه؛ تتريث، ظفركَ بين صفحتَيْن (ناعمتَيْن للغاية كأنهما من القشدة) حيث يصبح ألبارو دي كامبوس، هذا المُهندِس الغندور، حقيقيًا أكثر من بيسوا، نسخته الأصلية من لحم ودم. شاسعة هي الصحاري، وكل شيء صحراء. ثمة شرق خاص بالبرتغالية، مثلما هناك شرق خاص بكل لغة من لغات أوروبا، شرق في داخلها وآخر خارجها - قد يرغب المرء، مثلما يقفز الإيرانيّون فوق النار في آخر أربعاء من السنة لإبعاد الحظ السيئ، في أن يقفز، هو الآخر، فوق نيران فلسطين وسورية والعراق، فوق نيران الشّرق الأوسط، ليحطّ في بلاد الخليج أو في إيران. إن الشّرق البرتغالي يبدأ من سقطرى وهرمز، وهما محطّتان على طريق الهند البحري، جزيرتان احتلّهما ألفونسو دي ألبوكيرك في بداية القرن السادس عشر. أنتَ لا تزال أمام مكتبتكَ، أعمال بيسوا في يدك؛ أنتَ تقف عند مقدّمة سفينة توّاقة - سفينة ندم، تواقة إلى الغرق، ما إن تجتاز رأس الرجاء الصالح حتّى لا يعود ثمة شيء في مقدوره أن يوقفها: إن مراكب أوروبا تبحر صعودًا نحو الشمال، البرتغاليون في المُقدّمة. جزيرة العرب! الخليج! إن الخليج العربي ذيلُ لُعابٍ خلّفه هذا الضفدع الذي هو الهلال الخصيب، عرقٌ ساخن، أملس، بالكاد تُعكّر صفوه، قرب الشواطئ، لطخات البترول السود واللزجة، بقايا ناقلات النفط، حيوانات البحر المجترّة هذه. تتأرجحُ؛ تتمسّكُ بكتاب سميك، بعمود خشب، لقدْ تعثّرتَ بحبل من

حبال السفينة - كلا، تعثّرتَ بثوب النوم، مِعطَفُ قرصان، التفّ حول المقْرإ الخشب وعَلِق به. تتأمّلُ كنوزك على الرفوف، كنوزٌ منسيّةٌ، مدفونة تحت الغبار: جَمَلٌ من الخشب، طلسم سوريٌّ من الفضَّة نُقشت عليه رموز قديمة (تروحُ تُفكّر في أن وظيفة هذه التميمية العصية على القراءة، كانت، في ما مضى، تهدئة أو حتى شفاء المجانين الخطرين)، منمنمة رُسِمت على لوح خشب مزدوج، صغير، ذي مفاصل نحاسيّة مال لونها إلى الأخضر، تُصوِّر شجرةً وظبيًا صغيرًا وعاشقيْن، من دون أن ندري بالضبط إلى أي رواية حبٍّ يعود هذا المشهد الريفي الذي اشتريته من أحد باعة الأثريات في شارع منوتشهري في طهران. تتخيّلُ أنك عُدتَ إلى دركه أو إلى دربند، في أعالي الجبال ناحية شمال المدينة، نُزهةُ يوم جمعة، على ضفاف جدولٍ ناءٍ، بعيدًا من الحشود، وسط الطبيعة، تحت شجرة، برفقة شابة ترتدي وشاحًا رمادي ومعطفًا أرزق، تُحيط بكما شقائق النعمان، زهور الشهداء التي تعشق هذه الجداول وهذه الحصى، فتنثر هنا، كلّ ربيع، بذورها المتناهية الصغر - خرير الماء، الريح، عبير التوابل والفحم، مجموعة شباب على مقربة، لكن غير مرئيين، هناك في الوادي، لا تصل إليكَ سوى أصوات ضحكاتهم وروائح أطعمتهم؛ تبقى حيث أنتَ، تحت الظّل الشائك لشجرة رمّان عملاقة، تواصِلُ رميَ الحصى في الماء، وأكل الكرز والخوخ المجفف، متأملًا، متأملًا ماذا؟ يحمورًا، وعلًا، هرًّا برّيًا، لا يأتي أي منها؛ لا أحد يمرّ من هنا، سوى درويش عجوز يعتمر قبعةً غريبة ويبدو كأنه خرج للتو من ديوان «المثنوي» لجلال الدّين الرومي؛ هو يصعد نحو إحدى هذه القمم بحثًا عن ملاذ، فيما عصاه في يده وآلة نايٍ مُعلّقة على كتفه. تُحيّيه قائلًا «يا عليّ!»، خائفًا بعض الشيء من هذا الفأل، من هذا التوغّل للروحانيّة في مشهدٍ تُريده، على العكس

تمامًا من ذلك، دنيويًا إلى أقصى الحدود، يفيض بالعشق والغرام. «أنصت إلى الناي يحكي حكايته، ومن ألم الفراق يبث شكواه: ومذ قُطِعْتُ من الغاب، والرجال والنساء لأنيني يبكون». هل ثمة ترجمة ألمانية كاملة لديوان «المثنوي»؟ أو ترجمة فرنسية؟ ستة وعشرون ألف بيت. أحد أهمّ آثار الأدب العالمي. موسوعة شعرية تفيض بالحكمة الصوفية، مئات من النوادر، آلاف من الحكايات والشخصيات. للأسف أن روكرت لم يُترجِم سوى بضعة من أشعار الرومي الغزليَّة، هو لم يدنو بتاتًا من «المثنوي». في أي حال، إن طبعات أعمال روكرت رديئة للغاية في يومنا هذا. قد تجد إما إصدارت حديثة، هزيلة وزهيدة، لمختاراتٍ من كتاباته، أو طبعات تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين، من دون هوامش أو شروحات، وتعجّ بالأخطاء؛ إن الطبعة العلميَّة في طور الإعداد في ما يبدو، «طبعة شفاينفورت» («مكانٌ بديع، اسم مريع»، كما يقول الشاعر)، بطيئة، في عشرة مجلدات أو اثني عشر مُجلّدًا، باهظة الثمن، يستحيل العثور عليها - ترفٌ للمكتبات الجامعية. لمَ ليس من سلسلة «لا بلياد»[1] في ألمانيا أو النمسا؟ هذا اختراعٌ تُحسَد عليه فرنسا، هذه المُجلدات الناعمة، ذات الأغلفة الجلدية الطريّة، المُحرَّرة بعناية، مع مُقدّمات وملاحق وهوامش وتعليقات حققها باحثون، وحيث في إمكاننا العثور على مجمل الأدب الفرنسي والأجنبي. إن هذه المجموعة لا تمت بصلة إلى المجلّدات الفخمة والأقلّ رواجًا بكثير، الصادرة عن دار «دويتشر كلاسيكر»، والتي نادرًا ما تُقدَّم كهدايا في عيد الميلاد. لو كان فريدريش روكرت فرنسيًا، لصدرت أعماله في

---

(١) «لا بلياد» (La Pléiade) هي سلسلة كُتب فرنسية عريقة مُخصصة لكبار الكُتّاب.

مجموعة «لا بلياد» - إذ ثمة، ضمن هذه السلسلة، ثلاثة مُجلّدات من كتابات غوبينو، المستشرق صاحب النظريات العنصرية والمُختصّ بإيران. «لا بلياد» أكثر من سلسلة كُتُب، إنها مسألة سياسية بالغة الأهمية. فدخول هذا أو ذاك إلى هذه المجموعة، لينعم بحماية السترة البلاستيك الشفافة والغلاف الجلدي المُلوَّن، كفيلٌ بتأجيج المشاعر وإثارة الكثير من الجلبة. إن أعظم شرف قد يناله كاتبٌ هو، بكل تأكيد، أن يَدخُل إلى سلسلة «لا بلياد» فيما لا يزال حيًّا يُرزق - أن يتأمّل ضريحه ويذوق طعمَ مَجْدٍ ما بعد الموت (طعم يُفتَرَض أنه لذيذ)، لكن من دون أن تكون الديدان باشرت بنهش لحمه بعد. أما أسوأ ما قد يصيبه (لكن لا أعتقد أن مثل هذه الحالة قد حصلت فعلًا)، فهو، بعد أن يكون قد دخل إلى السلسة، أن يُستبعد منها وهو لا يزال حيًّا. نفيٌ إلى أبد الآبدين، إذ من الممكن أن يخرج المرء من هذه السلسلة الجليلة، وقد تسبب ذلك، في طهران، بحادثة تليق بـ«كتاب أخلاق الشُّطار» للجاحظ: كان مدير «المعهد الفرنسي للأبحاث في إيران»، وهو مُستشرق مرموق، يصرخ ويستشيط غضبًا داخل مكتبه، لدرجة أنه غادره وراح يذرع الردهة جيئةً وذهابًا وهو يزعق «إنها فضيحة!»، «يا للعار!»، ما أثار هلع موظّفيه على الفور: اختبأت السكرتيرة الوديعة (التي كانت تخشى كثيرًا تقلّبات مزاج ربّ عملها) خلف ملفّاتها، غطس مبرمج الكمبيوتر تحت طاولة فيما مفك براغٍ في يده - حتّى أن الأمين العام الطيّب والخنوع، اخترَع لنفسه ابنةَ عمٍّ، أو ربّما خالة مُسنّة، راح يُهاتفها على وجه السرعة، مُغدقًا عليها التحيات وعبارات اللباقة بصوت مُرتفع جدًّا.

سارة: (على عتبة مكتبها، قلقة) ماذا يجري؟ هل كلّ شيء على ما يرام يا جيلبير؟

مورغان: (ممسكًا بالصاعقة في يده) إنها فضيحة مهولة يا سارة، ألا تعلمين ما حصل؟ تمالكي نفسك جيدًا! يا لها من إهانة للباحثين والجامعيين! يا لها من خسارة فادحة للأدب!

سارة: (مُترنِّحة، خائفة، صوتها مخنوق) يا إلهي! ماذا حدث؟

مورغان: (سعيدًا بفرصة مشاركة ألمه) لن تُصدِّقي: لقد طردوا جيرمان نوفو من الـ«لا بلياد».

سارة: (مصعوقة، غير مُصدِّقة) لا؟ لكن كيف هذا؟ لا يمكن طرد أحد ما من الـ«لا بلياد»! ليس جيرمان نوفو!

مورغان: (مفجوع) بلى، لقد تمّ ذلك. خرجَ جيرمان نوفو. وداعًا. إن الطبعة الجديدة لا تحتوي سوى على لوترِيامون، فقط لوترِيامون، من دون جيرمان نوفو. إنها كارثة.

سارة: (تسحبُ لا إراديًا القلم من شعرها فينسدل على كتفيها فوضويًا؛ هي تُشبه امرأة مُنتحِبة في مأساة إغريقية) علينا أن نفعل شيئًا، أن نُرسل عريضة، أن نُعبِّئ المجتمع العلمي...

مورغان: (بوقار، مستسلمًا للقدر) فات الأوان... الطبعة الجديدة قد صدرت... لوترِيامون فقط. كما أن الناشر أعلن أنه لن يُصدِر أعمال جيرمان نوفو خلال السنوات المقبلة.

سارة: (ساخطة) يا له من أمر فظيع! نوفو المسكين! البائس!

فرانتس: (يُراقب المشهد من عتبة مكتب الباحثين الزائرين) هل ثمة أمرٌ خطير؟ هل في إمكاني مُساعدتكما؟

سارة: (صابةً غضبها على هذا الأجنبي المسكين) لا أدري ماذا يُمكن النمسا أو حتّى ألمانيا أن تُساعدانا في هذه اللحظة تحديدًا. شكرًا.

مورغان: (ردّ الفعل نفسه، لكن من دون أي سخرية) نحن في حداد وطني يا فرانتس!

فرانتس: (منزعجٌ بعض الشيء فيما يُغلق باب المكتب) تعازيي الحارّة إذًا.

كنتُ أجهلُ تمامًا من هو هذا الجيرمان نوفو الذي سبّب طرده كلَ هذا الألم والأسى للباحثين والجامعيين: لكنني علمتُ ذلك سريعًا، من طريق سارة طبعًا التي أهالت عليّ محاضرة كاملة عن الموضوع، محاضرة وتوبيخات، إذ كان جليًا أنني لم أقرأ مقالتها «جيرمان نوفو في لبنان والجزائر» المنشورة في مجلّة «الآداب الفرنسية»، بالرّغم من أن عنوان المقالة، يا لعاري، كان مألوفًا لي بعض الشيء. بعد نصف ساعة من الحداد الوطني، دعتني إلى تناول الشاي «في الطبقة العلوية»، في صالون شقة الضيوف، بهدف تأنيبي: إن جيرمان نوفو هو أحد رفاق درب رامبو (كان قد تبعه إلى لندن) وفيرلين (كان قد تبعه على طريق السكر والكاثوليكية)، رفيق لا شك في أنه لم يحظَ بمجد هذا أو ذاك، لكنّه شاعر ممتاز، عاش هو الآخر حياة استثنائية، فلم يكن ثمة شيءٌ قد يَحسُدُ عليه هذين الآخريْن. لقد نشأ في الجنوب الفرنسي وقدِم إلى العاصمة وهو لا يزال فتًى في مقتبل العمر، لكنّه كان كبيرًا بما فيه الكفاية لارتياد حانات مونمارتر والحيّ اللاتيني. كان يريد أن يصبح شاعرًا.

لهوَ أمر يبدو اليوم في غاية الغرابة، أن تترك مارسيليا عام ١٨٧٢ وتذهب إلى باريس آملًا أن تصبح شاعرًا، لا تحمل في جيوبك سوى قصيدتيْن أو ثلاث قصائد، بضع فرنكات ذهبية، وأسماء المقاهي حيث يلتقي البوهيميون: «تابوري»، «بوليدور»... أتخيُّل أن شابًّا من إنسبروك أو كلاغنفورت يتوجّه، في يومنا هذا، إلى فيينا وليس في حوزته سوى رسالة توصية من أستاذ اللغة الألمانية، وقصائده المحفوظة على الـ«آي باد»: سيكون من الصعب جدًّا أن يعثر على

إخوانه الشعراء - سوف يعثر، بكل تأكيد، على مشروب الأبسنت كما على جميع أصناف المخدّرات لينتشي بها، لكن على الشعر، قطعًا لا. من المحتمل (لحسن حظّ الشعر) أنني لا أعرف مدينتي جيدًا، نظرًا إلى عدم ارتيادي المقاهي في الأمسيات، كما أنني لا ألتقي بالشعراء، الذين لطالما بدوا لي غواةً مريبين، بشكل خاص في بداية القرن الحادي والعشرين. جيرمان نوفو كان شاعرًا حقيقيًا، لقد بحث عن الله في التنسُّك والصلاة وصار مجنونًا، أصيب بـ «هذيان اكتئابي تُرافقه تخيُّلات صوفية» بحسب تشخيص أطبّاء مستشفى «بيساتر» حيث أمضى الأشهر الستة لإقامته القسرية الأولى. وكما أشارت سارة في مقالتها، إن نوبة الهذيان الأولى التي استحوذت على نوفو، تزامنت تمامًا مع رحلة رامبو المضنية نزولًا من جبال هرر، واستمرّت حتّى وفاة هذا الأخير؛ لقد خرج نوفو من المصحّ العقلي حين مات رامبو، في تشرين الثاني ١٨٩١. بالطبع ،كان جيرمان نوفو يجهل المصير المُخزِن الذي لحق برفيق دربه، إلا أنه، وبعد فشله في الاستقرار في لبنان، ثمّ تجواله على غير هدى في أنحاء فرنسا، انطلق في مغامرة شرقيّة جديدة، فذهب إلى مدينة الجزائر حيث كتب رسالة إلى رامبو، أرسلها إلى عدن، ليُطلِعَه على مشروعه: أن يصبِحَ دهّانًا في الإسكندرية أو عدن، وليسأله عما يدور بينهم من ثرثرات. «ها قد مرّت سنتان تقريبًا من دون أن أرى فيرلومب»، كتبَ نوفو. كانت سارة تجد هذه الرسالة إلى مَيْتٍ مؤثّرة جدًا؛ لقد كان في إمكان فيرلومب - فيرلين أن يُعلِمه بأن رامبو قد توفّيَ من سنتيْن بالضبط. همسٌ في الليل. لهوَ أمرٌ مُسِرٌّ التفكير في أن الباحثين، إلى يومنا هذا، لم ينفكّوا يحاولون برهنة (بعناد، إذ تنقُصُهُم الأدلّة) أن صاحب كتاب «الاشراقات» هو جيرمان نوفو وليس رامبالد البحّار - على الأرجح أننا لن نحصل أبدًا على جواب.

كانت سارة قد أعادت بصبرٍ رسم مغامرات (أو بالأحرى تعثُّرات) جيرمان نوفو في بيروت وفي مدينة الجزائر. هو أيضًا حلِم بالشّرق، لدرجة أنه سعى إلى الاستقرار في بيروت كأستاذ في مدرسة للروم الكاثوليك. لقد جالت سارة على جميع المؤسسات التابعة للروم الكاثوليك في لبنان، محاولةً العثور، وسط الأرشيف والوثائق التي بعثرها الدهر والحروب، على رسائل التوظيف، خاصة على سبب إقالته من منصبه مدرسًا بعد بضعة أسابيع من وصوله - من دون جدوى. لم يبقَ سوى أسطورة، تروي أن جيرمان أقام علاقة مع والدة أحد تلاميذه. لكن، نظرًا إلى ما نعلمه عن ماضيه في السلك التعليمي، كما إلى التقارير الكثيرة لرؤسائه الساخطين («هذا الرّجل يصلح لأي مهنة ما عدا مهنة التدريس»، قال مدير مدرسة)، فإن سارة تميل إلى الاعتقاد أن عدم الكفاءة سببُ طرد جيرمان نوفو. لقد بقيَ في بيروت، من دون مال أو وظيفة، حتّى الخريف، محاولًا استحصال راتبه. يُحكى أنه أُغرِم بامرأة شابة وضريرة كان يرسلها إلى باب إدريس للتسوّل لشخصيْن؛ هي ربّما المرأة نفسها (عمياء كانت أو غير عمياء) التي يصفها في إحدى قصائده التي كتبها في لبنان، قصائد أشبه بلوحات استشراقية:

آه! أن أرسُم شعركِ الأزرق كالدخان،
وبشرتَك المُذهَّبة التي تلتمع - فأخالني أبصِر
وردة محروقة! - وجسدَك الذي يعبق عطرًا،
أن أرسُمَك في ملابس الملائكة الداخلية، كما في
اللوحات الجدارية.

لعله حصل أخيرًا على مُبتغاه، كما على تعويض مالي ما، أو ربّما أعادته القنصلية الفرنسية إلى وطنه، على متن باخرة «التيغر»

التابعة لشركة «مِساجري ماريتيم»، والتي رسَت لفترة قصيرة في يافا - لم يقوَ جيرمان نوفو، المسيحي الورع، على مقاومة قُرْب الأماكن المقدسة، فذهب مشيًا إلى القدس، ثمّ إلى الإسكندرية، وهو يتسوَّل قوته؛ وبعد بضعة أسابيع، صعد على متن باخرة «لا ساين» المتجهة إلى مرسيليا؛ وفي نهاية عام ١٨٨٥، اجتمع مجددًا بفيرلين وعاود شرب الأبسنت وارتياد المقاهي الباريسية.

أفتح طبعة «لا بلياد» التي تضمّ أعمال نوفو ولوترِيامون، شرق جيرمان وأوروغواي إيزيدور، هذه الـ «لا بلياد» حيث دوكاس دي لوترِيامون يسرح ويمرح لوحده اليوم، بعد أن تخلّص من منافسه الذي ألصقته به مصادفة - هو ذا قدر «البائس»، كمّا لقّب نوفو نفسه؛ إن هذا الشاعر المتسوّل والزاهد بالدنيا لم يرغب أبدًا في أن يُعيد إصدار حفنة كتاباته المنشورة التي، في يومنا هذا (على الأقل بحسب سارة)، أضحت كنجمة متوارية، تشعُّ من خلف غيوم النسيان.

على أي حال، سوف أموت مجنونًا،
أجل، يا سيّدتي، أنا مُتيقّنٌ من ذلك،
مجنونًا، بادئ ذي بدء، بأدنى حركة من حركاتك،
مجنونًا... بمرورك أمامي،
مرورٌ سماوي يُخلّف عطر ثمرة ناضجة،

بمشيتك الرشيقة والجريئة،
أجل، مجنونًا من العشق، أجل، مجنونًا من الوله،
مجنونًا... بهزّة وركيْك اللعينة
التي تغرُس في القلب جزعًا
يفوق ذاك الذي يبثّه قرع الطبول.

المسكين هذا مات بالفعل مجنونًا، مجنونًا من الغرام، ومجنونًا بالمسيح، وتعتقد سارة - ربّما هي مُحقّة في ذلك - أن الأشهر التي أمضاها في بيروت، ثمّ حجّه إلى القدس (إضافة إلى «لقائه» بالقديس بنوا لابر، شفيعه وشفيع فيرلين)، شكّلت بداية هوسه الإكتئابي وأدّت إلى النوبة التي أصابته عام ١٨٩١: أخذ حينذاك يرسم إشارات الصليب على الأرض بواسطة لسانه، يتمتم صلواتٍ من دون توقّف، يخلع ملابسه ويتخلّص منها. استحوذت عليه هلوسات سمعيّة، فلم يعد يستجيب لأي شيء مصدره العالم الخارجي. أُدْخِل قسرًا إلى المصحّ العقلي. وإما لأنّه عمد إلى إخفاء علامات قداسته بقدر المستطاع، أو لأن مفعول الأبسنت تلاشى، أُفرِج عنه بعد بضعة أشهر - أمسكَ حينذاك بعصاه وحقيبته واتجه إلى روما سيرًا على الأقدام، كما فعل القديس بنوا لابر في القرن الثامن عشر:

هو الله من قاد ذاك القديس إلى روما،
واضعًا في يده عصًا،
ذاك القديس الذي كان مجرد رجل مسكين،
سنونوة الدروب الطويلة،
الذي ترك رقعة أرضه بأكملها
- حجرته الضيّقة حيث كان ينزوي -
وحساء الدير،
ومقعده حيث دفء الشمس،
صامًّا أذنيه عن ترّهات عصره،
لا يُرحَّب به سوى في هياكل الربّ...
غير أن هبة المُعجزات كانت تكسو جسده،
وهالة ذهبية تُحيط براسه.

ممارسة البؤس: هكذا كانت سارة تُسمّي القاعدة التي التزم بها القديس جيرمان نوفو. يروي شهودٌ أنه خلال سنواته الأخيرة في باريس، قبل رحيله إلى الجنوب، كان يسكن عُليَّة حيث ينام على لوح من الكرتون؛ أنه شوهِد أكثر من مرّة مُتسلّحًا بخطّاف، يبحث عن قوته في القمامة. لقد أوصى أصدقاءه بحرق كتاباته، ورَفَع دعاوى قضائية على الذين نشروها من دون علمه؛ أمضى السنوات العشر الأخيرة من حياته في الصلاة، والصوم الطويل والمفرط، مكتفيًا بالخبز الذي يهبه إياه مأوى الفقراء: لقد مات من الجوع بعد صيام طويل، تمامًا قبل عيد الفصح، مضطجعًا على سريره الحقير، لا أنيس له سوى القمل والعناكب. تَرى سارة أنه أمر عجيب لا يُصدَّق، أننا لا نعرف من تحفته، «نظرية الحُبّ»، إلا ما حفظه منها، عن ظهر قلب، أحد المعجبين بكتاباته، الكونت دي لارمندي. لم يتبقَّ أي مخطوطة. كان لارمندي يقول: كمستكشفي «المدن المنسية»، اختلستُ ثمّ خبّأتُ في فؤادي، جواهرَ ملكٍ راحل، لكي أبرزها مُجددًا تحت نور الشمس. إن وصول تُحفته إلينا بهذه الطريقة التي تُلقي ظلال الريبة والشك على النصّ (ألم يكتب نوفو إلى لارمندي، حين علم أن ديوانه قد قُرصِن بهذا الشكل: «أنتَ تنسب إليّ ترهات!»)... إن وصولها إلينا هكذا يحيل نوفو شبيهًا بمؤلّفي الآثار الأدبية القديمة، صوفيّي الأزمنة الغابرة وشعراء الشّرق الذين تناقلت الأجيال أبياتهم شفويًا قبل أن تُدوَّن لاحقًا، بعد سنوات كثيرة في معظم الأحيان. فيما نحن جالسان على مقعدَيْن من تلك المقاعد الجلديّة الشهيرة، نشرب الشاي في الطبقة العلوية، راحت سارة تُخبرني عن الحبّ الذي تكنُّه لنوفو، لا شك لأنها كانت تحدس أنها سوف تختار هي الأخرى، بعد فترة ليست بطويلة، السير في درب التنسّك والتصوّف، حتّى لو أن المأساة التي

سوف تحتّم عليها مثل هذا الخيار، لم تكن قد وقعت بعد. البوذية كانت قد بدأت تثير اهتمامها حتّى منذ تلك الفترة، كانت تتلقى دروسًا وتمارس التأمّل - أمور كان يصعب عليّ أخذها على محمل الجدّ. هل لديّ هنا، في مكان ما، مقالة سارة: «جيرمان نوفو في لبنان والجزائر»، لقد أخرجْتُ البارحة مساءً معظم مقالاتها - وسط المكتبة، الرّف المخصص لسارة. أضع بيسوا على المقْرإ الخشب من جديد، أعيد نوفو إلى جانب هنري لوفيه، إن مكان كتابات سارة هو بين كتب النقد الموسيقي، لماذا، لم أعد أذكُر. ربّما لكي تكون أعمالها خلف بوصلة «بُون»، كلا، يا لغبائي، لكي تكون سارة في وسط المكتبة، مِحْورها، كما هي مِحْور حياتي، هذا غباء أيضًا، بسبب حجم كُتُبها وألوانها الزاهية، إنه التفسير الأرجح. أمامي الآن الشّرق البرتغالي، صورةٌ مؤطّرة لجزيرة هرمز، حيث أرى فرانتس ريتر الأصغر سنًّا بكثير، يجلس على مدفع قديم يغور في الرمال، على مقربة من الحصن؛ البوصلة في علبتها، تمامًا أمام «الشّرق الأنثوي»، أول كتاب لسارة، و«الشّرق المعاكِس»، وهو نسخة مُلخّصة عن أطروحتها للدكتوراه، و«التهام»، عملها عن القلب المأكول والقلب الواشي وكلّ فظاعات أكل لحوم البشر الرمزي. كتابٌ فيه الكثير من طابع فيينا، يستحقّ أن يُترجم إلى الألمانية. إن الفرنسيين يستخدمون عبارة «ولعٍ مُلتَهِم»، وهو تحديدًا ما يتمحور حوله الكتاب - ما بين الولع والالتهام النهم. مقالتها الغامضة عن ساراواك ليست سوى امتداد لهذا الكتاب، بضع خطواتٍ إضافية قُدمًا في أراضي الفظاعات. نبيذ الموتى. عصير الجثث.

صورة جزيرة هرمز هذه جميلة بالفعل. سارة موهوبة في التصوير. هو أضحى فنًّا مُبتذلًا مُستهلكًا في يومنا هذا، الجميع

يُصوِّر الجميع، بواسطة هواتف خليوية وأجهزة كمبيوتر و«آي باد» ملايين من الصور الرديئة، أضواء الفلاش التي تسحق الوجوه بدل أن تُبرِز محاسنها، لقطات ضبابية تحاول، بشكل أخرق، افتعال أساليب تعبيرٍ فنيّة، لقطات مقابلة للضوء مثيرة للشفقة. كانت الصوَر في زمن «النيغاتيف» تُلتقط بعناية أكبر في ما يبدو لي. لكن لعلّني لا أزال أبكي على الأطلال. يا له من مرضِ حنينٍ عضال! عليّ الاعتراف بأنني أجدني وسيمًا، في هذه الصورة. لدرجة أن أمي قد وضعت نسخةً مُكبَّرة منها في إطار. القميصُ الأزرق ذو المربَّعات، الشَعر القصير، النظّارات الشمسيّة، الذقن المُثبَّتة على قبضة اليد اليمنى، هيئة مُفكِّر يتأمّل زرقة الخليج العربي والسماء. نستطيع، هناك في العمق، أن نرى الساحل، ومدينةً لا شك في أنها بندر عباس؛ على يساري، ثمة أحمرُ وأمغرُ الأسوار المنهارة للحصن البرتغالي. والمدفع. أذكر أنه كان هناك مدفع ثانٍ، لكنّه لا يظهر في الصورة. في ذاك الشتاء، كنا مسرورَيْن لمغادرتنا طهران - كان الثلج قد تساقط بكثافة لبضعة أيام، ثمّ اجتاحت المدينةَ موجةُ صقيع. كانت تلك القنوات التي بمحاذاة الأرصفة غير مرئيّة، يكسوها الثلج، فصارت فخاخًا ممتازة للمشاة وحتى للسيارات: كنا نرى بضع عربات من نوع «بيكان» وقد غاصت اثنيْن من عجلاتها في هذه الجداول الصغيرة عند منعطفات الطرق. شمالًا من حيّ ونك، في شارع ولي عصر، كانت أشجار الدلب الضخمة تتخلّص من ثمارٍ ثلجيّة مؤلمة، فتلقيها على المارّة كلّما هبّت الرياح. وفي شميرانات، كان الصمت يسود وسط رائحة الحطب والفحم. أما في ساحة تجريش، فكان الناس يلجأون إلى السوق الصغيرة اتقاءً من تيّارات الهواء الجليديّة التي يشعر المرء بأنها تنساب من الجبال عبر وادي دربند. حتّى فوجيه نفسه كان كفّ عن ارتياد الحدائق العامّة؛ نصف

طهران الشمالي بأكمله، بدءًا من شارع انقلاب، كان في حالة خدرٍ جليدي. كان مكتب السفريات في ذلك الشارع، على مقربة من ساحة فردوسي؛ عبر وكالةٍ ذات اسم موسيقي: «آريا إير»، كانت سارة قد اشترت بطاقات لرحلة مباشرة إلى بندر عباس، على طائرة من طراز «إليوشين» عمرها ثلاثون سنة، استصلحتها شركة «إيروفلوت»، وحيث كلّ شيء مكتوب بالروسيّة. استأتُ من تصرّفها، يا لهذه الفكرة! محاولة توفير وضيعة، ربح بضعة ريالات نتيجة فرق السعر لكن المخاطرة بحياتِكَ، أراني مُجددًا أوبّخُها على متن الطائرة، هذا بخلٌ، توفيرٌ وضيع، سوف تنسخينها، سوف تنسخين مئة مرّة «لن أسافر أبدًا مرّة أخرى مع شركات مريبة تستخدم تكنولوجيا سوفياتيّة»، كانت تقهقه، تعرُّقي خوفًا كان يُضحكها، تملّكني الرُعب عند الإقلاع، صار المحرّك يرتجّ بقوة مريعة كأنه سينفجر توًّا. لكنّه لم ينفجر. وخلال الساعتيْن اللتين استغرقتهما الرحلة، أخذتُ أنصتُ بانتباه شديد إلى الأصوات كلها. تصبّبت عرقًا من جديد حين حطّت هذه المكواة أخيرًا، بخفّة ديك رومي يحطّ على عشّه. لدى وصولنا، أعلن المضيف أن الحرارة تبلغ ٢٦ درجة مئوية. كانت الشمس كأنها تضربنا، وسرعان ما راحت سارة تلعن حظّها وعباءتها الشرعية وحجابها الأسود - كان الخليج العربي كتلةً ضبابية بيضاء، تتخللها زرقة خفيفة عند القاعدة؛ وبندر عباس مدينةٌ مُسطّحة، تمتدُّ على شاطئ طويل، حيث حاجز أمواج عريض، ومرتفع جدًّا، يغور بعيدًا في البحر. مررنا على الفندق حيث وضعنا أمتعتنا؛ المبنى كان يبدو جديدًا للغاية (مصعد أحدث طراز، طلاء لامع)، إلا أن غرفه في حالة تداعٍ يُرثى لها: خزانات عتيقة مخلوعة، سجادٌ بالٍ، بطانيات مرقّطة بحروق السجائر، مناضد متضعضعة، مصابيح سرير متصدعة. علمنا في ما بعد سرّ هذا

التناقض: كان مبنى الفندق حديثًا بالفعل، إلا أن محتواه (إذ لا بد أن ورشة البناء استنفدت كلّ أموال المالك) استُقدِم مثلما هو من المبنى السابق؛ أضف إلى ذلك أن الأثاث، وفق ما أطلعنا موظّف الاستقبال، كان قد تعرّض لبعض من الأضرار خلال عمليّة النقل. من فورها، رأت سارة في ذلك كنايةً بليغة عن إيران الحديثة: مشاريع إعمار جديدة، ليست سوى حلّة للأمور العتيقة نفسها. أما أنا، فلكنتُ أحببتُ أكثر قليلًا من الرفاهية، أو حتّى من الجمال، إذ كانت هذه السمة الأخيرة تبدو غائبة تمامًا عن وسط مدينة بندر عباس: كان على المرء أن يستعين كثيرًا بمخيّلتِه (كثيرًا كثيرًا) لكي يلمح شيئًا من الميناء القديم حيث مرّ الإسكندر الكبير وهو في طريقه إلى بلاد آكلي السمك، لكي يعثر على مرفإ «كامارِاو» البرتغالي هذا، مخزنُ البضائع الآتية من الهند، المدينة الساحليّة التي استُعيدَت بمساعدة الإنكليز، والتي سُميّت «ميناء عبّاس» تيمنًا بالشاه عباس الأول الذي أعاد إلى الفرس هذا المنفذ على مضيق هرمز كما الجزيرة ذات الاسم نفسه، فوضع، بهذه الطريقة، حدًّا للوجود البرتغالي في الخليج العربي. كان البرتغاليون يطلقون على بندر عباس لقب «ميناء القريدس»، وما إن أودعنا أمتعتنا في غُرفتَيْنا المريعتَيْن حتّى شرعنا نبحث عن مطعم نتذوّق فيه قريدسَ المحيطِ الهندي، الأبيضَ والضخم، ذاك القريدس الذي كنا نراه يلتمع في الثلج عند سَمَّاك سوق تجريش في طهران. كانت «التشِلو ميغو» - يخنة هذه القِشْريات - لذيذة بالفعل؛ كانت سارة استبدلت عباءتها الشرعية بأخرى من القطن الرقيق القشديّ اللون، وغطّت شعرها بحجاب مُزيّن برسومات ورود. لقد تأكّد لنا، خلال نُزهتنا على طول الواجهة البحرية، أن ما من شيء يُرى في بندر عباس سوى سلسلة من البنايات الحديثة نسبيًا؛ هنا وهناك على الشاطئ، كنا نلمح نساءً

بزيّهن التقليدي، على وجوههن تلك الأقنعة الجلد المُزخرفة التي تحيل مظهرهن مُقلقًا بعض الشيء، شخصيات شنيعة في حفلة تنكريّة مريبة أو في رواية من روايات ألكسندر دوما. كانت السوق الشعبية ترزح تحت وطأة التمور من جميع الأصناف، تمر من مرمان وتمر من بَم، جبال من التمر، ومن البلح أيضًا، تتجاور مع أهرام حمر، صفر وبُنيّة من الفلفل الحار والكركم والكمّون. كان المرفأ المخصص للركاب، وسط الرصيف البحري، عبارة عن جسر يمتد مئة متر داخل البحر - كان القاع رمليًا، ينحدر بشكل طفيف؛ الاقتراب من الشاطئ لم يكن متاحًا للمراكب الكبيرة الحجم. لكن أغرب ما في الأمر أنه لم تكن ثمة سفن كبيرة، فقط زوارق سريعة ضيّقة بعض الشيء، ثُبّتت محرّكاتها الضخمة على مؤخراتها، قوارب تهيّأ لي أنها من النوع نفسه الذي استخدمه الحرس الثوري لشنّ هجمات على ناقلات النفط وسفن الشحن. للركوب على متن أحد هذه القوارب، كان ينبغي إذًا نزول سُلّم معدني يصل إلى الماء: في الواقع، لم يكن رصيف الميناء يُستخدم سوى لحشدِ الرّكاب المحتمَلين - أقلّه في ما يتعلّق بالراغبين (ولم يكن عددهم كبيرًا) في الذهاب إلى جزيرة هرمز، إذ إن المسافرين إلى الجزيرتيْن الكبيرتيْن المجاورتيْن، كيش وقشم، كانوا يصعدون على متن عبّارات مريحة، ما دفعني إلى التلميح بجبنٍ لسارة «لمَ لا نذهب إلى قشم عوضًا عن ذلك؟»: لم تكلّف نفسها حتّى عناء الإجابة وراحت، بمساعدة بحّار، تنزل السلّم على مسافة ثلاثة أمتار من الزورق الذي تؤرجحه الأمواج في الأسفل. لتقوَى عزيمتي، أخذتُ أفكّر في شركة «لويدز النمساوية» للنقل البحري التي كانت سفنها الأبيّة تغادر ميناء تريستا لتجوب بحار العالم، وبالزوارق الشراعية التي قُدتها مرّة أو مرّتيْن على صفحة بحيرة ترون. الحسنة الوحيدة لتلك السرعة الجنونية التي

راح يسير بها قاربنا - لا يُلامس منه الماء سوى مروحته وعمود مُحرِّكِه فيما مُقدِّمته المُنتصبة تُشير نحو السماء - كانت اختصار مسافة الرحلة، رحلةٌ أمضيتها مُنشبِّثًا بحافة الزورق، محاولًا ألّا أقع مثل أخرق إلى الخلف أو إلى الأمام، في كلّ مرّة كانت موجة متناهية الصغر، تكاد تحوّل زورقنا نوعًا غريبًا من الطائرات المائية. كنتُ متأكدًا أن القبطان - هو وحده الطاقم بأكمله - قد قاد سابقًا مركبًا انتحاريًا، وأن فشله في مهمته تلك (الإنتحار) لا يزال يؤرقه بعد عشرين عامًا من انتهاء الحرب. لا أذكُر شيئًا من هبوطنا على جزيرة هرمز: دليلٌ على انفعالي الكبير؛ أرى مجددًا الحصن البرتغالي مواجهًا للمضيق، الحصن الذي كانت سارة تسعى بلهفة إلى اكتشافه - إنه برجٌ عريضٌ ومربّعٌ تقريبًا، ذو رأسٍ منهار، حجارة حمر وسود، سوران واطئان بعض الشيء، قناطر محطّمة ومدافع عتيقة وصدئة. كانت الجزيرة عبارة عن صخرة ضخمة وقاحلة، شبه صحراوية - لكن كانت ثمة قرية صغيرة، بضع عنزاتٍ، وأعضاء من الحرس الثوري: وعلى عكس ما كنا نخشاه، إن هؤلاء الـ«باسداران» بالزيّ العسكري الرملي اللون، لم يتّهمونا بالتجسس، بل بدوا مسرورين بتبادل أطراف الحديث معنا وبإرشادنا إلى الطريق للالتفاف حول الحصن. تخيَّلْ، راحت تقول سارة، بحّارةَ القرن السادس عشر البرتغاليين الذين كانوا هنا، على هذه الحصاة، يحرسون المضيق. أو في الجهة المقابلة، في ميناء «كامارا»، من حيث كانت تأتي جميع المواد الغذائية للجنود والحرفيين، بما في ذلك مياه الشرب. لا بدّ أن أوّل استخدام لعبارة الحنين إلى الوطن كان هنا. أسابيع من السفر عبر البحار، لكي يجد المرء نفسه على هذه الجزيرة الصغيرة، وسط قيظِ الخليج العربي ورطوبته. يا لها من عزلة!...

كانت تتخيّل - أفضل مني بكثير، يجب الإقرار بذلك - عذابات

أولئك المغامرين البرتغاليين الذين جابهوا ببسالة «رأس العواصف» و«العملاق أداماستور»[1] - «مَلِكُ الأمواج العميقة» في أوبرا جياكومو مايربير - لكي ينشئوا مستعمرة على هذه الصخرة المستديرة تمامًا، ويستحوذوا حينئذٍ على لآلئ الخليج العربي وتوابل الهند وحريرها. أخبرتني سارة بأن ألفونسو دي ألبوكيرك كان مهندس سياسات مانويل الأول ملك البرتغال، سياسات كانت أكثر طموحًا بكثير ممّا يمكن تكهنّه استنادًا إلى تواضع الآثار المتبقيّة: فمن خلال تمركزهم في الخليج العربي، ومهاجمتهم، من الخلف، مماليك مصر بعد دحرهم أسطول هؤلاء في البحر الأحمر، كان البرتغاليون يسعون ليس فقط إلى إقامة شبكة من الموانئ التجارية تمتدّ من ملقا الماليزيّة إلى مصر، بل إلى شنّ حرب صليبية أخيرة أيضًا، لتحرير القدس من الكفّار. كان هذا الحلم البرتغالي لا يزال متوسطيًّا بقدر لا بأس به: هو ينتمي إلى موجة التحوُّل التي حدَّت، شيئًا فشيئًا، من دور البحر الأبيض المتوسط محورًا أوحدَ للنزاعات السياسية والاقتصادية بين القوى البحرية الأوروبية. كان برتغاليّو نهاية القرن الخامس عشر يحلمون، في الوقت عينه، ببلاد الهند وببلاد الشام، كانوا (أقلّه مانويل الأوّل ومُغامِره ألبوكيرك) بين برزخيْن، بين حُلميْن وحقبتيْن. في بداية القرن السادس عشر، كان من المستحيل إحكام القبضة على جزيرة هرمز من دون مُتَّكإٍ على القارّة، أكان المتّكأ هذا فارسيًّا كما في يومنا هذا، أم عُمانيًّا كما خلال فترة سلطنة هرمز التي قضى عليها حاكم الهند، ألفونسو دي ألبوكيرك، بواسطة مدافعه وسُفنه الخمسة والعشرين.

---

(١) «رأس العواصف» و«العملاق أداماستور» تسميتان قديمتان لرأس الرجاء الصالح.

أما أنا، فرحتُ أفكّر في أن كلمة «سُوداد»[1] البرتغاليّة تَصِف أيضًا شعورًا عربيًّا وإيرانيًّا للغاية، وأن الـ«باسداران» اليافعين على جزيرتهم هؤلاء، إذا كانوا قد أتوا من شيراز أو طهران ولا يرجعون إلى منازلهم كلّ مساء، لا بدّ من أنهم يتلون قصائد حول نار مُخيّم لنسيان شجنهم - بالتأكيد ليس أبياتًا للويس دي كامويس مثل سارة المتربعة على الزورق الصدئ وكأنه عرشها. جلسنا على الرمل، أمام البحر، متظلّلَيْن بأحد الأسوار الصغيرة، كلّ منا تائهٌ في الـ«سُوداد» الخاصة به: أنا في «سُوداد» تجاه سارة، القريبة جدًّا لكي لا أشعُر برغبة في دفن رأسي بين ذراعيْها، وهي في «سُوداد» تجاه الطيف الحزين لبدر شاكر السيّاب الذي كان ينعكس على مياه الخليج العربي، بعيدًا ناحية الشمال، بين الكويت والبصرة. كان الشاعر ذو الوجه الذي يميل إلى الطول قد قضى فترة في إيران خلال عام ١٩٥٢، لا شك في عبادان أو الأهواز، هربًا من قمع النظام العراقي، غير أننا لا نعلم شيئًا عمّا فعله خلال مكوثه هناك. «أصيح بالخليج: 'يا خليجْ/ يا واهبَ اللؤلؤ، والمحار، والردى!'/ فيرجعُ الصَّدَى/ كأنَّه النشيجْ:/ 'يَا خَلِيجْ/ يَا وَاهِبَ المَحَارِ وَالرَّدَى...'»، إن هذه الأبيات التي أجترّها أنا أيضًا، ترجع إليّ كالصدى، «أنشودة» هذا العراقي الذي طرده موت والدته من عالم الطفولة ومن قريته جيكور، فانطلق في رحلته الأليمة وعاش في منفى أبدي، مثله مثل هذه الجزيرة المكسوة بأصداف المحار النافقة. ثمة في كتاباته أصداءٌ لت. س. إليوت، الذي كان السيّاب قد نقل بعضًا من أشعاره إلى

(١) «سُوداد» (Saudade) كلمة برتغالية غالبًا ما يُقال إنه لا يمكن ترجمتها؛ هي تُشير إلى حالة من الحزن العميق والحنين إلى شيء أو شخص أو مكان أو تجربة ما. تختلف عن الحنين إلى الماضي في أن الشخص قد يشعر بالـ«سُوداد» تجاه شيءٍ لم يحدث قط.

العربية. لقد ذهب إلى إنكلترا، حيث عانى كثيرًا من الوحدة والعزلة، وفق ما يقول في نصوصه ورسائله - اختبر هناك الحياة في «مدينة الوهم»، وصار شبحًا من بين أشباح جسر لندن. «قالت: هنا ورقتكَ، ورقة البحّار الفينيقي الغريق، (تلك اللآلئ كانت عينيه. أنظرا!)»[١]. الولادة، الموت، الانبعاث، الأرض الجدباء، العقيمة كسهول نفط الخليج العربي. كانت سارة تُدندن لحن أغنية «الليد» التي اقتبسْتُها عن «أنشودة المطر»، لحنًا بطيئًا ورزينًا، جنائزيًا بقدر ما هو مُتكلّف، في حين أن السيّاب كان متواضعًا إلى أقصى الحدود. لحسن الحظ أنني توقفت عن تأليف الألحان، إذ كان ينقصني تواضع غابريال فابر وتعاطفه. وولعه أيضًا، لا شك في ذلك.

أخذنا نتلو قصائدَ للسياب وإليوت، أمام الحصن البرتغالي القديم، إلى أن أتت عنزتان أخرجتانا من حالتنا التأمليّة، عنزتان ذات شعرٍ بنيّ مائل إلى الأحمر، ترافقهما فتاة صغيرة تلتمع نظراتها بالفضول؛ كانت العنزتان وديعتين، ورائحتهما قويّة جدًّا، راحتا تدفعاننا بأنفيْهما، بنعومة لكن بثبات: وضع هذا الهجوم الهوميريّ حدًّا لجوّ الحميمية الذي كان يلفُّنا، إذ كان جليًّا أن الطفلة قد صمّمت، هي وحيواناها، على تمضية بعد الظهر برفقتنا. وصلت لباقة الطفلة وعنزتيْها إلى حد مرافقتنا (دون التفوّه بأيّ كلمة، أو الإجابة عن أيّ من أسئلتنا) في طريق عودتنا إلى الرصيف البحري من حيث تغادر الزوارق إلى بندر عباس: رأت سارة أن ثمة شيئًا مضحكًا في هذه الفتاة التي لا تسمح لأحد بأن يدنو منها، وعلى عكس العنزتيْن، تلوذ بالفرار ما إن نحاول الاقتراب منها، لكنّها لا تلبث أن تعود بعد بضع ثوانٍ، مُبقيةً بينها وبيننا، مسافة متر أو متريْن؛ أما أنا،

(١) «أرض الضياع» لت. س. إليوت، ترجمة نبيل راغب.

فكنتُ أجدها مخيفة بعض الشيء، خصوصًا بسبب صمتها التام والغامض.

حين بلغنا الرصيف، لم يُبْدِ أعضاء الـ«باسداران» أي استغراب لرؤية هذه الطفلة ملتصقة بنا، هي وحيواناها. استدارت سارة لتصافحها، فلم تنجح في إثارة أي ردّ فعل منها، ولا حتّى حركة واحدة. تناقشنا مُطوَّلًا حول أسباب سلوكٍ بريٍّ إلى هذا الحدّ؛ أخذتُ أقول إن الفتاة (عشر سنوات أو اثنتا عشرة سنة على الأكثر) لا بد من أنها مُصابة بإعاقة عقلية، أو ربّما هي صمّاء؛ سارة كانت تعتقد أنها خجول فحسب: لا شك في أنها المرّة الأولى التي تسمع فيها لغة أجنبيّة، راحت تقول، ما بدا لي غير محتمَل. في أي حال، كان العساكر، والفتاة الغريبة التي ظهرت من العدم، السكان الوحيدين الذين أبصرناهم في جزيرة هرمز. أعادنا قبطان آخر غير ذاك الذي أتى بنا، إلا أن مركبه وأسلوب ملاحته كانا مماثلين لمركب ملاحة الأوّل وأسلوبه - مع هذا الفارق البسيط أنه أنزلنا عند الشاطئ، رافعًا المحرّك وتاركًا زورقه جانحًا على القاع الرملي، على بعد بضعة أمتار من اليابسة. أتيحت لنا إذًا فرصة تبليل أقدامنا في مياه الخليج العربي والتحقق من أمريْن: الأول هو أن الإيرانيّين أقلّ صرامة ممّا قد نتخيّل، وأن ما من شرطيٍّ متوارٍ تحت حصاة، إندفع نحو سارة ليأمرها بستر كاحليْها (مع أن هذا الجزء من جسد المرأة يُعتَبر مثيرًا لشهوات الرّجل) وخفض أسفل سروالها؛ والثاني - أمرٌ مُحزِن - هو أنه إذا كان قد ساورني أي شك حول إمكان وجود محروقات في المنطقة، فكان في إمكاني الآن أن أطمْئِن بالي: كان أخمص إحدى قدميّ مُلطخًا بمادة سميكة ودبقة خلّفت، لفترة طويلة، هالةً بنيّة مقززة على الجلد والأصابع بالرّغم من كلّ محاولاتي المستميتة لإزالتها وأنا أستحِمُّ لاحقًا في الفندق: تمنّيتُ لو أن في

حوزتي بعضًا من مواد التنظيف القويّة التي تشتريها أمي، تلك العبوات الزجاجية الصغيرة التي كُتِب عليها «الدكتور» لا أدري ماذا، والتي أتخيَّل، ولا شك في أنني مخطئ في ذلك، أن فاعليتها ترجع إلى سنوات من التجارب المُخزية لإزالة البقع من البزّات النازيّة - بزّات يصعُب تنظيفها، مثلما تقول أمي عن شراشف الطاولات البيض.

وفي ما يتعلّق بالماعز والخِرَق: من الضروري أن أسارع في أخذ ثوب النوم هذا إلى خيّاط ليُقصِّره، سوف ينتهي بي الأمر إلى التعثُّر، فيرتطم رأسي بحافة كرسي أو منضدة ووداعًا يا فرانتس، وداعًا، سيكون الشّرق الأوسط قد قضى عليك أخيرًا، لكن ليس بواسطة طفيليات مُرَوِّعة، أو ديدان تلتهم العيون من الداخل، أو تَسمُّم عبر جلد القدميْن، بل بواسطة عباءة بدوية طويلة أكثر من اللزوم فحسب، ثأر الصحراء - يُمكننا تخيُّل الخبر في الجريدة، «قتله ذوقه المريع في الثياب: كان هذا الأكاديمي المجنون يتنكَّر كعمر الشريف في فيلم لورنس العرب». كعمر الشريف، أو بالأحرى كأنطوني كوين الذي يلعب دور عودة أبو تايه - عودة البدوي الأبيّ، من قبيلة الحويطات التي تضمّ المقاتلين الشجعان الذين، برفقة لورنس، انتزعوا العقبة من أيدي العثمانيين في عام ١٩١٧، عودة الشرس في الحرب كما في الملذات، مُرشِد جميع المستشرقين الذين أتوا إلى الصحراء: لقد رافق ألويس موزيل المورافي كما لورنس الإنكليزي أو الأب أنطونان جوسان القادم من الأرديش. إن هذا الكاهن الدومينيكاني الذي تلقّى تعليمه في القدس، قد التقى بموزيل ولورنس، فأضحوا هكذا، بمثابة فرسان الاستشراق الثلاثة، مع عودة أبو تايه في دور الفارس الرابع دارتانيان. كاهنان، ومُغامِرٌ، ومُحاربٌ بدوي يهوى قتل الأتراك - لسوء الحظ أن مجريات السياسات الدولية

وضعت موزيل في معسكرٍ، وجوسان ولورنس في المعسكر المقابل؛ أما عودة، فقد قاتل في بداية الحرب العالمية إلى جانب الأول ثمّ انتهى به المطاف حليفًا للأخيرَيْن حين نجح فيصل، ابن شريف مكّة حسين بن علي، في إقناعه بوضع فرسانه البواسل في خدمة الثورة العربية الكبرى.

ومن ناحية أخرى، ليس من شكّ في أن جوسان، فيما لو استشارته حكومة بلده حول ذلك، كان سيفضّل الالتحاق بصفّ الكاهن والمُستكشِف النمساوي الذي كان الأب الدومينيكاني سيستمتع، خلال رحلاتٍ طويلة على ظهور الجمال عبر بادية الشام، بالتحدّث معه في مسائل لاهوتية وفي التاريخ العربي القديم، بدل التحاقه بصفّ ذاك البريطاني الطويل القامة والهزيل الجسد الذي تفوح منه روائحُ تصوّفٍ ووثنيّةٍ مريعة، ومن حكومته، نتانةُ الخيانةِ والمكائدِ التي تُحاكُ في الظلمات. أرغمت الحوادث إذًا أنطونان جوسان وألويس موزيل (أرغمتهما نسبيًا: فكلاهما، وفيما كان لباس الرهبنة يقيهما شرّ العساكر، قد تطوّعا للقتال) على مواجهة واحدهما الآخر بغية السيطرة على الشّرق العربي وبالتحديد على تلك القبائل التي تتقاتل في ما بينها ولا تكفّ عن شنّ الغارات في المنطقة الممتدة من البادية السورية وصولًا إلى الحجاز. أما عودة - المعروف أيضًا بأنطوني كوين - فلم يكن يحمل ضغينة لموزيل ولا لجوسان؛ كان رجلًا واقعيًا عمليًا، يهوى، بشكل خاص، المعارك والسلاح وأشعار البطولات الحربية القديمة. يُحكى أن جسده كان مليئًا بندبات جراحه، ما كان يثير فضول النساء تجاهه؛ وتضيف الأسطورة أنه تزوّج حوالى عشرين مرّة، وأنجب الكثير من الأولاد.

آه، لقد نسيتُ أن أطفئ جهاز «الستيريو»! لم أشترِ بعد سماعات

الرأس اللاسلكيّة تلك: حينذاك، سيكون في استطاعتي أن أمشي حتّى المطبخ وأنا أستمع إلى محمد رضا شجريان أو فرانتس شوبرت. ما زال ضوء لمبة السقف يرتجف حين أشْعِل غلّاية الماء الكهربائية. الأمور مترابطة. الغلّاية على اتصال بلمبة السقف، حتّى لو أن لا علاقة بينهما نظريًا. الكمبيوتر المحمول يتثاءب على الطاولة، نصف مفتوحٍ، كأنه ضفدع من الفضّة. أين وضعتُ ظروف الزهورات؟ أرغب في الاستماع إلى القليل من الموسيقى الإيرانيّة، إلى آلة «التار»، «التار» و«الكاسور». الراديو، أنيس المصابين بالأرق. فقط من جافاه النوم يستمع إلى إذاعة Ö1-Klassiknacht في مطبخه. شومان. أقطعُ يدي إن لم يكن هذا شومان، ثلاثيّة للآلات الوتريّة. من المستحيل أن أخطئ.

ها هي الظروف إذًا: «شاي السامسارا» أو «الحبّ الأحمر» - ها نحن قد عدنا إلى الموضوع نفسه. ما الذي دفعني إلى شراء هذه الأشياء؟ كما أن «شاي السامسارا» هو... شاي. حسنًا، حسنًا، حسنًا، قليلٌ من «الحب الأحمر». وفق ما كُتِب على العلبة: بتلات الورد، التوت المجفف، زهور الخطمي. لمَ ليس في أدراجي بعضٌ من البابونج؟ أو بعض من رعي الحمام أو الترنجان. بائعة الأعشاب الطبيّة التي كانت في الحيّ، قد أغلقت حانوتها منذ خمس أو ست سنوات، كانت سيّدة طيّبة جدًّا، تستلطفني كثيرًا، كنتُ زبونها الوحيد في ما يبدو؛ ينبغي القول أن متجرها لم يكن قديمًا - ولا وقورًا - بما فيه الكفاية لكي يوحي بالثقّة؛ كان، بكل بساطة، متجرًا شنيعًا يعود إلى السبعينيات، يفتقر تمامًا إلى ذينك العتق والتهلهل الساحرَيْن - كما أن الرفوف كانت من خشب الفورمايكا. ومذّاك، أنا مضطر إلى ابتياع «شاي السامسارا» أو لست أدري ماذا من السوبر ماركت.

أجل، شومان، كنتُ أعلم ذلك. يا إلهي، إنها الساعة الثالثة

صباحًا. ألأخبار دومًا مثيرة للاكتئاب، بالرّغم من صوت المذيع المُطمْئِن والناعم. لقد قُطِع رأس رهينة في سورية، في الصحراء، قام بذلك جلاد ذو لهجة لُنْدُنِيَّة. في إمكاننا تخيُّل كلّ ذاك الإخراج المسرحي الهادف إلى بثّ الرعب في نفوس المشاهدين الغربيين، السفاحُ المتواري خلف قناعه الأسود، الرهينةُ الراكعة مُنحنية الرأس - لقد أضحت تسجيلات الفيديو لعمليات الذبح رائجة جدًّا منذ نحو عشر سنوات، منذ قَتْل دانيال بيرل في كراتشي عام ٢٠٠٢، وحتى قبل ذلك ربما، في البوسنة والشيشان، كم عدد الذين أعدموا لاحقًا بالطريقة ذاتها، العشرات، المئات، في العراق وفي أمكنة أخرى: ما غاية هذا الأسلوب في الإعدام، النحر بواسطة سكين مطبخ إلى أن يُقتلع الرأس، لعلّهم يجهلون قوّة السيف أو الفأس. على الأقل أن السعوديين، الذين يقطعون رؤوس أعداد هائلة من المساكين كلّ سنة، يقومون بذلك كما تقتضي الأصول والتقاليد، إذا جاز التعبير - بواسطة السيف الذي نتخيَّل أن يد مارد تُمسِك به: يهوي الجلاد سلاحه على الرقبة، فيكسر فورًا، بضربة واحدة، فقرات العنق ويفصل (لكن هذا من الكماليّات في نهاية المطاف) الرأس عن الكتفيْن، كما في زمن السلاطين. إن حكايات ألف ليلة وليلة تفيض بقطع الرؤوس، بالطريقة إياها، السيف الذي يهوي على الرقبة؛ وروايات الفروسية الأوروبيّة أيضًا، بواسطة السيوف والفؤوس، بعد وضع الرأس على جذع شجرة، كما حصل لميلايْدي دي وينتر، زوجة آتوس في «الفرسان الثلاثة»، كان ذلك، في ما أذكر، امتيازًا للنبلاء، أن يُقطع رأسُكَ بدلًا من أن تُحرَق أو تُخنَق أو تُقطَّع أوصالُك - سوف تنظِّم الثورةُ الفرنسية كلّ هذه الأمور عبر اختراعها المقصلة؛ في النمسا، لدينا مشنقتنا الخاصة القريبة من كسّارة الأعناق الإسبانيّة، خنقٌ يدوي بالكامل. طبعًا، كان ثمة نموذج عن

هذه المشنقة في متحف الجريمة، لقد استطاعت سارة أن تكتشف طريقة عملها وتعرّفت إلى شخصية جوزيف لانغ، الجلّاد الذي أضحى الأشهر في تاريخ النمسا بفضل تلك الصورة المذهلة التي تعود إلى العقد الثاني من القرن العشرين، حيث نراه - قبعة سوداء مستديرة، شاربان، ربطة عنق «بابيون»، إبتسامة عريضة - منتصبًا على رأس سُلَّم خلف جثّة رجل أعدِم حسب الأصول، متدلٍّ، ميت، مخنوق، وفيما المساعدون حول الجلاد يبتسمون هم أيضًا. تأمّلت سارة هذه الصورة وتنهّدت، «ابتسامة العامل الذي أنجز عمله على أتمّ وجه»، مُبديةً بذلك أنها فهمت جيّدًا نفسيّة جوزيف لانغ، رجلٌ بسيط وعادي للغاية، ربُّ أسرة صالح كان يتباهى بقدرته على قتلكَ بحرفية عالية، وفيما «يتملّكُكَ إحساس عذب». «يا له من ولع بالموت، هذا الذي يُبديه مواطنو بلدك»! راحت تقول سارة. ولعٌ بالذكريات الشنيعة. وحتى برؤوس الموتى - منذ بضع سنوات، أخذت جميع صحف فيينا تتحدث عن دفن جمجمة، جمجمة قرة مصطفى باشا على وجه التحديد. إن الصدر الأعظم هذا الذي قاد حصار فيينا الثاني عام ١٦٨٣ ثمّ خسر المعركة، قد قُتِل خنقًا، بأمر من السلطان، في بلغراد التي كان قد انسحب إليها مع قوّاته - أراني مجددًا وأنا أخبر سارة غير المُصَدِّقة، أن بعد خنقه بواسطة خيط حرير، قُطِع رأسه وهو ميت، ثمّ سُلِخ جلد وجهه وأرسِل إلى إسطنبول كدليل على وفاته، ودُفِنت جمجمته (وما تبقّى من عظامه، على ما يُفترَض) في بلغراد. حيث اكتشفها آل هابسبورغ بعد خمس سنوات، عند احتلالهم المدينة. إن جمجمة قرة مصطفى باشا قُدِّمَت كهديّة إلى لسْتُ أدري أي أسْقُفٍ من فيينا الذي أهداها بدوره إلى متحف التاريخ العسكري، ثمّ إلى متحف المدينة حيث عُرِضت لسنوات، إلى أن اعتبر أمينٌ من أمناء المتحف أن لا محلّ لهذا

الشيء العتيق والمقزز بين المجموعات الأثرية العريقة التي تروي تاريخ فيينا، فقرّر التخلّص منه. وبما أن رمي جمجمة قرة مصطفى باشا الذي كان قد نصب خيمته على بعد خطوتَيْن من هنا، على مقربة من الدانوب... بما أن رميها في المزبلة لم يكن جائزًا، ابتدعوا لها قبرًا ما في مكان مجهول. هل لبقايا هذا التركي علاقة ما بموضة النقوش البارزة التي تُصوِّرُ رؤوس أتراك ذي شوارب، وتُزيِّن قوصرات مدينتنا البهيّة؟ هذا سؤال لسارة، أنا متأكّد أن ليس بمقدور أحدٍ أن يجاريها في الحديث عن قطع الرؤوس، عن الأتراك ورؤوس الأتراك، عن الرهائن وحتى عن خنجر الجلّاد - لا بدّ أنها تستمع إلى الأخبار إياها، هناك في ساراواك، إلى نشرة الراديو نفسها، أو ربّما لا، من يدري. فلعلّ مدار الحديث في ساراواك هو آخِر القرارات التي اتخذها سلطان بروناي وليس بتاتًا القتلة المُقنَّعين، أصحاب الرايات السود، المنتمين إلى هذه النسخة الهزلية والمُروِّعة من الإسلام. إنها قصّة أوروبيّة للغاية: ضحايا أوروبيون، جلّادون لهجتهم لندنيّة. إسلام منطرف، عنيف وحديث العهد، أبصر النور في أوروبا وفي الولايات المتحدة، قنابل غربيّة، كما أن الضحايا الذين لهم اعتبار هم أوروبيون في نهاية المطاف. مساكين السوريون. مصيرهم لا يثير اهتمام وسائل إعلامنا إلا قليلًا جدًّا في الواقع. لا شك في أن عودة أبو تايه، المُحارب الأبيّ ورفيق لورنس وموزيل، كان سيقاتل اليوم في صفّ «الدولة الإسلامية»، حركة جهادية عالمية أخرى بعد الكثير من مثل هذه الحركات - مَن أوّل من خطرت له فكرة الجهاد العالمي، نابليون في مصر، أو ماكس فون أوبنهايم عام ١٩١٤؟ كان عالم الآثار، المولود في كولونيا، ماكس فون أوبنهايم قد صار مُسنًّا عند اندلاع القتال، وكان قد سبق له أن اكتشف تلّ حلف؛ ككثيرٍ من مستشرقي تلك الحقبة ومستعربيها، التحق بـ «مكتب

استخبارات الشّرق» الذي أسسه الألمان بهدف جمع معلومات عسكرية مصدرها الهند والشّرق الأوسط. كان أوبنهايم على علاقة وثيقة برجال السلطة؛ هو من أقنع فيلهلم الثاني بالقيام بزيارة رسمية إلى الشّرق وبالحجّ إلى القدس؛ كان مؤمنًا بأهمية الوحدة الإسلامية وقوّتها، وقد ناقش هذا الموضوع مع السلطان الأحمر عبدالحميد الثاني. كان المستشرقون الألمان أكثر دراية بوقائع الشّرق من مستعربي بونابرت الذين كانوا، قبل مائة عام، أوّل من حاول، من دون نجاح كبير، إيهام العرب بأن هذا الكورسيكي القصير القامة هو محرّرهم من نير الأتراك. إن أول حملة كولونيالية أوروبية على الشّرق الأدنى كانت فشلًا عسكريًا ذريعًا. لم يَلقَ نابليون بونابارت النجاح المتوقّع كمخلّصٍ للمسلمين، كما أنه مني بهزيمة نكراء على أيدي البريطانيين الغدّارين - فبعد أن أهلك الطاعون والطفيليات وقذائف المدافع البريطانية، القسم الأكبر من هذا الجيش المجيد الذي كان قد انتصر في معركة «فالمي»، لم يكن من خيار آخر سوى المغادرة والتخلّي عمّا تبقّى من جنود؛ فُرُوعُ المعرفة الوحيدة التي استفادت نوعًا ما من هذه المغامرة كانت، بالترتيب من حيث الأهمية، الطبّ العسكري، وعلم الآثار الفرعونيّة، واللسانيات الساميّة. هلّ فكّر الألمان والنمساويون في نابليون حين أطلقوا دعوتهم إلى الجهاد الشامل عام ١٩١٤؟ كان المُخطط (طرحه عالم الآثار أوبنهايم) ينطوي على دعوة مسلمي العالم إلى العصيان - مغاربة جيشِ أفريقيا الفرنسي، الرماة الجزائريين والسنغاليين، مسلمي الهند، القوقازيين، التركمان، جميع من كان «الوفاق الثلاثي» يُرسلهم على الجبهات الأوروبيّة - وعلى زَرْعِ الفوضى، من طريق أعمال الشغب أو حروب العصابات، في المستعمرات الإسلامية التابعة للإنكليز والفرنسيين والروس. راقت هذه الفكرة للنمساويين

والعثمانيين، فأُعْلِن الجهاد، باللغة العربيّة وباسم السلطان-الخليفة، من إسطنبول في ١٤ تشرين الثاني ١٩١٤، تحديدًا من مسجد الفاتح، ذلك لإضفاء كلّ الثقل الرمزي الممكن على هذه الفتوى التي تنطوي على شيء من التناقض، إذ هي لا تدعو إلى قتال جميع الكفّار وتستثني منهم الألمان والنمساويين وممثّلي البلدان المحايدة. يلوح لي الجزء الثالث من هذا العمل الذي سيحصد لي المجد:

حول أشكال الجنون المختلفة في الشّرق
المجلد الثالث
بورتريهات مستشرقين كقادة جيوشِ المؤمنين

فورًا بعد هذه الدعوة، انطلقت مسيرةٌ مهيبة وصلت إلى السفارتيْن الألمانيّة والنمساويّة، ثمّ نُفِّذت أوّل عملية حربيّة: فلمّا انتهت الخطابات، أفرغ شرطيٌّ تركي سلاحه في الساعة الإنكليزية الجليلة التي في ردهة «فندق توكاتليان الكبير»، هي طلقةُ المسدس التي افتتحت الجهاد، إن صدَّقنا ذكريات الترجمان الألماني شابينغر، أحد الذين صاغوا الإعلان المهيب الذي دفع بالقوى الاستشراقيّة كلّها إلى المعركة. على عجلٍ، أُوفِد ألويس موزيل إلى البادية، لضمان دعم عودة أبو تايه والقبائل البدويّة. ردّ البريطانيون والفرنسيون من طريق تعبئة علمائهم ومستشرقيهم، من أمثال لورنس وجوسان وماسينيون، لإطلاق جهادٍ مضاد. حصيلة ذلك معروفة: ملاحم فيصل وعودة أبو تايه في الصحراء - بداية أسطورة لورنس العرب التي، لسوء حظّ العرب، انتهت إلى الانتداب الفرنسي والبريطاني على الشّرق الأوسط. لديّ في حاسوبي، مقالة سارة حول جنود المستعمرات الفرنسية والجهاد الألماني، مُرفَقة بصورٍ لذاك المعسكر الأنموذجي لأسرى الحرب المسلمين المتاخم لبرلين،

والذي تردّد إليه جميع علماء إثنولوجيا تلك الفترة ومستشرقيها؛ مقالةٌ موجّهة إلى جمهور غير مُختصّ، نُشِرت في مجلّة «التاريخ» التي تحتوي على صور، أو ربّما في أخرى من الصنف ذاته، هذا ما قد يتناسب تمامًا مع الزهورات ونشرة الراديو الإخباريّة.

يقتصر كلّ ما نعلمه عن هذين الرّجليْن، على ما تحويه الأرشيفات المحفوظة ضمن مجموعات وزارة الدفاع التي عملت بصبرٍ على رقمنة ما يقرب من مليون وثلاثمئة وثلاثين ألف بطاقة تعود إلى المليون والثلاثمئة وبضعة آلاف شخصٍ الذين ماتوا في سبيل فرنسا بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨. إن هذه البطاقات التي تم ملؤها بخطّ يد أنيق، وبالحبر الأسود، وجيزة جدًّا. لقد نُوِّن عليها اسم الجندي المتوفى وكنيته، تاريخ وميلاده ومكانه، رتبته، الوحدة العسكرية التي ينتمي إليها، رقم تسجيله، إضافة إلى هذه المعلومة الفجّة، البعيدة كلّ البعد من الكلام المُلطَّف الذي يستخدمه المدنيون: «نوع الموت». نوع الموت، من دون أي شاعريّة؛ إلا أن نوع الموت له شاعريّته الخاصة، شاعريّة غامضة، عنيفة، حيث تتناسل من الكلمات صورٌ مخيفة: «قُتِل في المعركة»، «إصابات»، «جروح»، «مرض»، «غرِق مع السفينة» – عددٌ لامتناهٍ من التنويعات والتكرارات... والكلمات المشطوبة أيضًا؛ إذ من الممكن أن تُشطب كلمة «جروح»، فيُكتب فوقها «مرض»؛ ويمكن عبارة «مفقود» أن تُستبدل فيما بعد بـ«قُتِل في المعركة»، ما يعني أن الجثّة قد عُثِر عليها لاحقًا، وأن المفقود لن يرجع بالتالي ابدًا؛ إن عدم ظهوره حيًّا يجعله جديرًا بعبارة «قُتِل في سبيل فرنسا»، وبكلّ التكريمات التي تنجم عن ذلك. ثمّ، على البطاقة أيضًا، يُدوَّن المكان حيث فَعَل نوع الموت فِعْلته، اي وضْعُ حدٍّ نهائي لمسيرة الجندي في هذه الدنيا. نحن نعلم إذًا القليل جدًّا عن هذين المقاتليْن، إذ حتّى المعلومات حول أحوالهم المدنية مُختصرة للغاية، كما

PARTIE À REMPLIR PAR LE CORPS.

Nom BABA

Prénoms TAMBOURA

Grade [illegible]

Corps [illegible] Sénégalais

N° Matricule. 30414 au Corps. — Cl. 1911

30414 au Recrutement Issa Ber

Mort pour la France le 17 Avril 1917

à bord de l'Athos vapeur torpillé en mer

Genre de mort torpillé et coulé

Né le [illegible] en 1890 Soudan

à [illegible] Département Soudan

Arr municipal (p Paris et Lyon), à défaut rue et N°.

est inscrit à Issa Ber

Cette partie n'est pas à remplir par le Corps.

Jugement rendu le 18 Juin 1918

par le Tribunal de Marseille

acte ou jugement transcrit le [illegible] 1918

à Marseille

N° du registre d'état civil

534-708-1921. [20434.]

هي الحال غالبًا في ما يتعلّق بجنود المستعمرات. فقط تاريخ ميلاد. وكنية يتبعها الاسم الأول. إلا أنني أفترض أنهما أَخَوان. أخوا سلاح في الأقل. أبصر كلاهما النور في مدينة نيافونكيه على ضفاف نهر النيجر، جنوب تِمبكتو، في ذاك السودان الفرنسي الذي صار يُدعى مالي في يومنا هذا. سنتان فقط تفصلان ما بين تاريخ ميلاد كلّ منهما: ١٨٩٠ و١٨٩٢. هما من شعب البمبارا، من قبيلة طنبورة. يُدعيان بابا وموسى. ألحِق كلّ منهما بفوجٍ مُختلف. هما متطوِّعان – إنها التسميّة التي يُطلقها الاستعمار على العساكر الذين يصادرهم من ديارهم: فعلى كلّ حاكم منطقة تزويد الفرنسيين بكمٍّ معيّن من الجنود؛ لا أحد، في باماكو أو في

داكار، بأبه بالطريقة التي يتمّ فيها الحصول عليهم. نحن نجهل أيضًا ما تركه بابا وموسى وراءهما حين غادرا مالي: مهنة، والدة، زوجة، أولاد. لكن نستطيع من ناحية أخرى، أن نتخيّل مشاعرهما لحظة الرحيل، شيءٌ من الفخر لارتداء البزّة العسكرية، بالتأكيد الخوف من المجهول، وبشكل خاص هذا التمزّق الداخلي الأليم الذي ينتاب المرءَ حين ينسلخ عن وطنه. كان بابا أوفر حظًا من موسى. بدايةً، أُلحِق بابا بكتيبة تابعة لسلاح الهندسة، لقد نجا بأعجوبة من الانخراط في حملة غاليبولي التي آلت مجزرة، وسوف يبقى قابعًا لأشهر طويلة في أفريقيا، في الصومال الفرنسي تحديدًا.

أما موسى الذي وصل إلى مارسيليا في بداية عام ١٩١٦، فسوف يتلقّى تدريبه في معسكر «فريجوس» قبل أن يُرسَل إلى فردان في ربيع العام نفسه. يمكننا أن نتخيّل الذهول الذي تملّك الرماة السنغاليين لدى اكتشافهم أوروبا. غاباتٌ من أشجارٍ لم يبصروا مثلها في حياتهم، أنهر تجري مياهها بسكون، وترسم خطوطًا على السهول الخضر للغاية في الربيع، أبقارٌ مُدهشة، مُبقّعة بالأسود والأبيض. ثمّ على حين غرّة، بعد التعريج على مُعسكرٍ عند الخطوط الخلفية، ومسيرة لانهائيّة على الأقدام من مدينة فردان، ها هو الجحيم. خنادق وأسلاكٌ شائكة وقذائف، الكثير الكثير من القذائف لدرجة أن السكون أصبح شيئًا نادرًا ومريبًا للغاية. اكتشف جنودُ المستعمراتِ، في الوقت عينه، الموتَ والمُشاةَ البيض الذين يسيرون بمحاذاتهم. إن عبارة «وقود حرب» لم تتّسم أبدًا بمثل هذه الدقّة من قبل. صار الرجال يتفككون كالدمى تحت وقع المتفجرات، يتمزّقون كالورق حين تخترقهم الشظايا، يصرخون، ينزفون، فاضت الخنادق بالحطام البشري الذي طحنته المدفعية. لقد سقط ٧٠٠٠٠٠ قتيل في فردان، على ضفتي نهر «المُوز». دُفِنوا تحت التُّراب، أحرِقوا أحياءً، قطّعتهم إربًا إربًا المدافع الرشاشة وملايين القذائف التي حرثت أرض

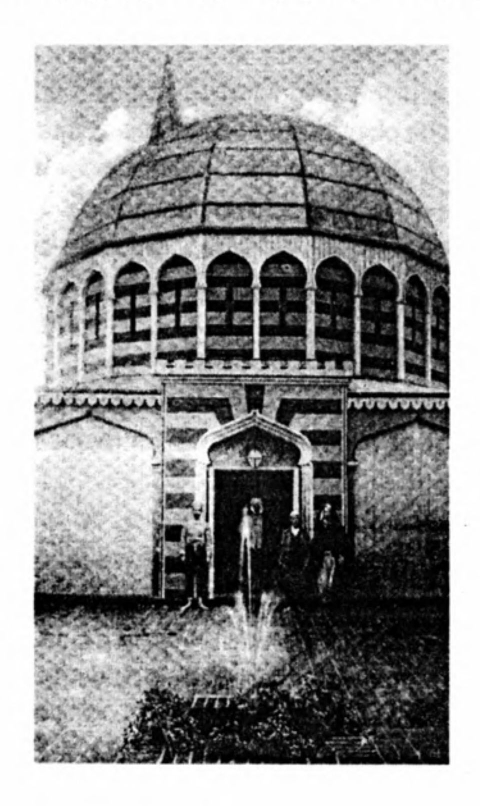
المعركة. مثله مثل رفاقه، اختبر موسى الخوف، ثمّ الخوف العظيم، ثمّ الهلع المهول؛ وفي قلب هذا الرعب، وجد الشجاعة اللازمة ليلحق بعريفِ كي يشارك في هجوم على موقع في غاية التحصين إلى درجة أنه سيتحتّم العزوف عن الاستيلاء عليه، ذلك بعد أن شاهد موسى إخوتَه في السلاح يتساقطون حوله، من دون أن يفهم لأي سبب عجيب لا يزال هو حيًّا سالمًا. للموقع هذا اسم مُلائم للظرف، «لو مور-اوم»، «الميت-الرّجل»؛ يصعب تصديق أنه كانت ثمة قرية في مكان هذه المقبرة الجماعية التي حوّلتها أمطار الربيع مستنقعًا تطفو على سطحه، بدلًا من النباتات المائية، الأصابع والآذان. في نهاية المطاف، سوف يؤسر موسى طنبورة في ٢٤ أيّار ١٩١٦، هو ومعظم أعضاء فصيلته، أمام هذه الهضبة الصغيرة التي مات للتو ١٠٠٠٠ جندي دفاعًا عنها، من دون جدوى.

في اللحظة ذاتها تقريبًا، وفيما موسى الذي نجا لتوه من الموت بأعجوبة، يتساءل ما إذا كان أخوه لا يزال على قيد الحياة، نصب بابا خيمته على تخوم جيبوتي. سوف يُعاد تشكيل سريّته عبر إلحاق المزيد من جنود المستعمرات بها. يُتوقّع وصول فصائل من الهند الصينية قبل الانطلاق نحو فرنسا.

بالنسبة إلى موسى - لمَ إنكارُ ذلك - كان الوقوع في الأسر بمثابة فرج؛ فالألمان كانوا يعاملون الجنود المسلمين معاملة خاصة. أرسِل موسى طنبورة إلى معسكر أسرى حرب في جنوب برلين، على بعد ألف كيلومتر من الجبهة. لا بد من أنه فَكّر خلال رحلته هذه، في أن المناظر الطبيعيّة الألمانية تُشبه تلك التي رآها في الشمال الفرنسي. اسم المعسكر الذي اعتُقِل فيه «هَالبموند - لاغر»، أي «مُعسكر الهلال»، وهو يقع في تسوسن، على مقربة من فونسدورف؛ هو مخصص للأسرى «المُحمّديين»، أو الذين يُفترض أنهم كذلك. كان المرء سيجد فيه

جزائريين، مغاربة، سنغاليين، ماليين، صوماليين، نيباليين من الهيمالايا، سيخ ومسلمين من الهند، قَمَريين، ماليزيين، وفي معسكر آخر مجاور، مسلمين من الإمبراطورية الروسية، تتر وأوزبك وطاجيك وقوقازيين. لقد بُنيَ المُعسكر على شكل قرية صغيرة، وهو يحتوي على جامع خشب جميل من الطراز العثماني؛ إنه أوّل جامع شُيِّد على تخوم برلين. جامع حربي.

يحدس موسى في أنه لن يخوض أي معركة أخرى، أن القذائف لن تلحق به إلى هذا المكان البعيد في عمق بروسيا؛ لكنّه يتردّد في السماح لنفسه بالابتهاج بذلك. هو طبعًا في منأى عن الإصابات المريعة الأسوإ من الموت، لكن الإحساس بالهزيمة، وبالمنفى، وبالبعد، هي آلامٌ مريرة



تتغلغل رويدًا رويدًا في أعماق الرّوح فيما تنهشها – على الجبهة، التوتر سيّد الموقف، وثمّة حرب يوميّة تُشَنّ ضدّ الألغام والمدافع الرشاشة. أما هنا، ما بين الثكنة والجامع، فثمة شيء من الودّ بين الناجين؛ يحكي موسى وأبناء بلده لبعضهم بعضًا، من دون أي كلل، قصصًا عن موطنهم، باللغة البمبريّة، فيبدو لهم صدى لغتهم هذه غريبًا وسط كلّ هذه اللغات الأخرى، بين كلّ هذه المصائر، وفي هذا المكان البعيد كلّ البعد من نهر النيجر. يبدأ شهر رمضان في الثاني من تموز في تلك السنة؛ الصوم خلال نهارات صيف الشمال، الطويلة جدًّا، عذابٌ حقيقي – بالكاد خمس ساعات من الظلمة. لم يعد موسى وقودًا للحرب، بل وقودًا للمستشرقين وعلماء الإثنولوجيا وصُنّاع البروباغندا: فجميع علماء الإمبراطورية الألمانية يزورون هذا المعسكَر، يتحدّثون مع الأسرى للاطلاع على عاداتهم وتقاليدهم؛ يقوم هؤلاء الرجال ذوو المعاطف البيض بالتقاط صوَر للأسرى، بمراقبتهم ووصفهم، بقياس حجم جماجمهم، بحملهم على سرد حكايات عن بلادهم لكي يُسجلوها ويشرعوا لاحقًا بدراسة لغاتهم ولهجاتهم. سوف تُشكّل هذ التسجيلات التي أجريت في معسكر «تسوسن» مادّة خصبة لدراسات لغويّة كثيرة كالتي أنجزها، على سبيل المثل، فريدريش كارل سالومي، زوج لو أندرياس سالومي، حول اللغات الإيرانيّة والقوقازية.

الصورة الوحيدة التي نملكها لموسى طنبورة التُقِطت في هذا المعسكر. هي مِنْ فيلم بروباغندا موجّه إلى العالم الإسلامي، يُصوِّر الاحتفال بعيد الفطر يوم ٢١ تموز ١٩١٦. ثمة ضيفا شرف: أرستقراطيّ بروسي، والسفير التركي في برلين. نُبصر موسى طنبورة وثلاثة من رفاقه يجمعون الحطب لإشعال النار. جميع الأسرى يجلسون على الأرض؛ جميع الألمان يقفون، وفي إمكاننا رؤية شواربهم الجميلة. ثمّ تتوقف الكاميرا مطولًا على النيباليين، على السيخ الأبهياء، على المغاربة،



على الجزائريين؛ يبدو سفيرُ البابِ العالي مشتَّتَ الذهن، والأمير البروسي شديدَ الفضول وهو يُحدِّق بهذا الصنف الجديد من جنود العدّو: هؤلاء المسلمون الذين يتمنى الألمان هروبهم من الجيش بشكل جماعي، أو تمرّدهم على السلطات الاستعمارية: إن ألمانيا تحاول إظهار نفسها صديقة للإسلام، مثلما هي صديقة للأتراك. قبل عام في إسطنبول، كان جميع مستشرقي الإمبراطورية الألمانية قد وضعوا نصًّا بالعربيّة الفصحى، يدعو مسلمي العالم إلى الجهاد ضدّ روسيا وفرنسا وبريطانيا العظمى، آملين بأن ينتفض جنود المستعمرات على أسيادهم. لذا، يصوِّرونهم الآن بالكاميرا التي يبدو أن موسى طنبورة لا يلحظها لأنه منهمك بجمع الحطب.

في معسكر تسوسن الأنمونجي هذا، تُحرَّر وتُنشر صحيفة يُطبع منها خمسة عشر ألف نسخة، اسمها، بكل بساطة، «الجهاد»، وهي «صحيفة موجّهة إلى أسرى الحرب المُحمّديين». تَصدُر في آن واحد بالعربيّة والتتريّة والروسيّة؛ وصحيفة ثانية، «القوقاز»، موجّهة إلى الجورجيين، وثالثة، «الهندوستان»، بطبعة أرْدِيَّة وأخرى هنديّة. إن كتّابَ


وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة

الجنة تحت ظلال السيوف

الجهاد

وقاتلوا في سبيل الله

إن تنصروا الله ينصركم

اتقوا الله وكونوا مع الصادقين

عدد -٦٠-

برلين ١٥ يوليو سنة ١٩١٧

Berlin den 15. Juli 1917

EL DSCHIHAD

Zeitung für die mohammedanischen Kriegsgefangenen

Nr. 60. Arabische Ausgabe

الأحوال السياسية

لما شرع الانكليز في هجومهم في
فصل الربيع ولم يصلوا لغايتهم ثم
وقف هجومهم هذا عن سيره عادوا بعد
مدة يسيرة من الزمن لم تكن منتظرة

في بلاد الانجليز من الطيارات الألمانية
وان الانجليزي لينظر نظر الباهت المذهول
الى عدم فائدة الوسائل التي اتخذها
لمنع هجوم الألمان على بلاده في الجو فزاد
حنقا وغيظا. وكذا هجومهم عليهم
بالغواصات فقد ادخل عليهم الضيق
والعسر. اذ ان المواد الغذائية وكذا

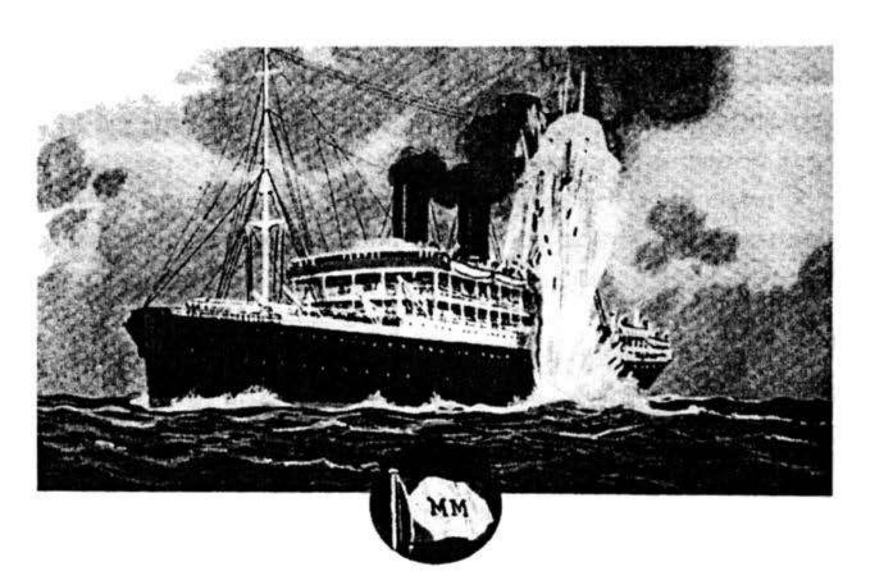
فاذا ارتكنت انجلترا على مساعدة من
احدى ممالك الأمم الأخرى
كان ارتكانها هذا واهيا. فمثلا
البرازيل لا يتأتى لها مساعدة ما
غاية ما في الأمر انها تحتكر السفن الألمانية
الموجودة بالقرب من شواطئها. ومملكة
الصين مثلا لا يمكن لها بحال من الأحوال

هذه المنشورات ومترجميها هم أسرى، ومستشرقون، و«سكّان أصليون» غالبيتهم من مناطق تابعة للدولة العثمانية، تمّ كسب ولائهم للسياسات الألمانية. عالم الآثار الشهير ماكس فون أوبنهايم كان أحد المشرفين على الصحيفة العربيّة. وكانت وزارتا الخارجيّة والحرب تأملان بأنه ستكون في استطاعتهما «إعادة استخدام» جنود المستعمرات هؤلاء، بعد «اهتدائهم» المُرتجى إلى الصراط المستقيم والتحاقهم بالجهاد.

لا نعلم إلا القليل جدًا عن تبعات هذا الجهاد الألماني في المناطق المعنيّة؛ لا بدّ من أن هذه التبعات كانت شبه معدومة. نحن، على سبيل المثال، لا نعلم حتّى ما إذا كانت الدعوة الجهاديّة قد وصلت إلى بابا طنبورة في جيبوتي. يجهل بابا أن أخاه يساهم رغمًا عنه في المشروع الألماني؛ يتخيَّلُه ميتًا أو حيًا على جبهة القتال التي تصل أصداؤها، عبر مصفاة الرقابة، حتّى شواطئ البحر الأحمر: بطولات وأمجاد وتضحيات، هكذا يتصوُّر بابا الحرب. هو على يقين تام بأن أخاه، هنالك في فرنسا،

بطلٌ يقاتل ببسالة. لكن بعضًا من الشكّ ينتابه حول مشاعره هو، خليطٌ مُبهم من الحماسة والتوجّس. أخيرًا، في كانون الأول ١٩١٦، وفيما موسى يشعر بأولى لسعات الشتاء البرليني الجليدي، يعلَم بابا أن سريّته سوف تُرسَل، بعد طول انتظار، إلى الجبهة الفرنسيّة من طريق بور سعيد وقناة السويس. يجب على ٨٥٠ جنديًا من الرماة أن يغادروا في نهاية كانون الأول على متن باخرة « آثوس» التابعة لشركة «مِساجري ماريتيم»، سفينة جميلة، جديدة تقريبًا، طولها ١٦٠ مترًا وحمولتها الإجمالية ١٣٠٠٠ برميل، آتية من هونغ كونغ فيما عنابرها مُحمّلة بـ٩٥٠ عاملًا صينيًا - في نهاية المطاف، لن تغادر السفينة إلا في شهر شباط، فيما موسى مريضٌ في برلين، يسعُل ويرتجف بردًا في الشتاء البروسي.

غادرت باخرة «آثوس» بور سعيد في ١٤ شباط ١٩١٧؛ وبعد ثلاثة أيام، حين كان الرماة قد بدأوا للتّو يعتادون وحشيّة البحر وهم في عمق العنابر، حدث أن صادفت «الآثوس»، على بعد بضعة أميال من جزيرة



مالطا، الغواصة الألمانية الرقم ٦٥ التي أطلقت على الباخرة صاروخ طوربيد أصابها في المَيْسرة. ستوقع الضربة ٧٥٠ ضحيّة من الركّاب، من بينهم بابا الذي لن يكون قد رأى شيئًا من الحرب إلا موته المفاجئ والعنيف. إنفجارٌ مُرعِب تلته صرخات ألم وذعر، صرخاتٌ وأجسادٌ ابتلعتها سريعًا المياه التي اجتاحت العنابر وسطح السفينة والرئات. لن يعلم موسى أبدًا بموت أخيه، إذ هو أيضًا سيلقى حتفه بعد بضعة أيام، نتيجة «مَرَض خلال الأسر، في مستشفى مُعسكر تسوسن»، كما جاء في وصف «نوع الموت» الذي على بطاقة «مات في سبيل فرنسا»، وهي الأثر الوحيد المتبقي من ألم المنفى في مُعسكر الهلال.

يا لجنون هذه الحرب التي هي فعلًا أوّل حربٍ عالمية! أن تموت غَرَقًا وسط ظلام العنابر! يا له من أمرٍ مروِّع وشنيع! أتساءل ما إذا كان هذا الجامع الجهادي لا يزال قائمًا حتّى اليوم في جنوب برلين، وسط سهول «إمارة براندنبورغ» الرمليّة، سهول تتخلّلها بحيرات ومستنقعات. ينبغي أن أسأل سارة عن ذلك - واحدٌ من أوائل جوامع أوروبا الشمالية، للحرب نتائج حقًّا غريبة. لقد صنع هذا الجهاد الألماني علاقات زمالة فيها الكثير من النشاز - بين علماء كأوبنهايم أو فروبنيوس، وضبّاط، وديبلوماسيين أتراك وألمان، وحتّى جزائريين منفيين أو سوريين ولبنانيين موالين للعثمانيين كالدرزي شكيب أرسلان. كان ممكنًا، تمامًا مثل اليوم، إطلاق أي صفة على الحرب المقدّسة ما عدا صفة الروحانيّة.

يُحكى أن المغول كانوا يقيمون أهرامًا من الرؤوس المقطوعة لزرع الرعب في نفوس سكان المناطق التي يغزونها - الجهاديون في سورية يلجأون إلى الوسيلة نفسها تقريبًا، بث الرعب والذعر عبر استخدامهم على البشر، تقنية ذبح كانت حتّى الآن مخصصة للتضحيّة

بالخراف فقط: النحرُ ثمّ جزُّ العنق بصعوبة إلى أن ينفصل الرأس عن الجسد، الله أكبر. هو ذا أمرٌ مروّع آخر ابتُكِر بشكل مُشْتَرَك: إن الجهاد، هذه الفكرة التي تبدو، للوهلة الأولى، عجيبة غريبة، هي نتيجة مسار جماعي طويل، حصيلة تاريخ شنيع ومُعَوْلَم - حفِظنا الله والله أكبر، «الحبّ الأحمر»، قَطْع الرؤوس ومندلسون بارتولدي، «ثُمانيّة للآلات الوتريّة».

الحمدلله أن نشرة الأخبار قد انتهت، عَوْدةٌ إلى الموسيقى، مندلسون ومايربير، عَدُوًّا فاغنر اللدودان، بخاصةً مايربير، محطّ كلّ الكراهية الفاغنريّة، تلك الكراهية المُرعِبة التي لطالما تساءلتُ ما إذا كانت سبب أم نتيجة معاداته للساميّة: ربّما صار فاغنر معاديًا للساميّة لأنّه يحسد مايربير كلّ الحسد على نجاحه وأمواله. هي ليست سوى واحدة من تناقضات فاغنر الكثيرة: هو يشتم مايربير في مقالته «اليهوديّة في الموسيقى»، مايربير نفسه الذي كان فاغنر قد أغدق عليه المديح طوال سنوات وحلم بتقليده، مايربير الذي سهّل لفاغنر إقامة عروضٍ لأوبرا «رينزي» وأوبرا «المركب الشبح». «ينتقم الناس ممن أسدى لهم معروفًا»، يقول توماس برنهارد، هذه جملة تنطبق تمامًا على فاغنر. ريتشارد فاغنر ليس في مستوى أعماله. فاغنر منافق ودجّال، مثله مثل جميع معادي الساميّة. انتقم من مايربير لأن الأخير أسدى له معروفًا. في كتاباته الحاقدة، هو يُعيب على مندلسون ومايربير افتقارهما إلى لغة أمّ: يُعيب عليهما إذًا، أنهما يبربران بلهجة لا تزال، بعد أجيال عدّة، تعكس «نُطق الشعوب الساميّة». إنّ افتقارهما هذا إلى لغة خاصّة بهما يحرمهما من امتلاك أسلوب شخصي ويحتّم عليهما سرقة أعمال الآخرين. إن كوزموبوليتانيّة مندلسون ومايربير المريعة تحول دون بلوغهما الفنّ والإبداع. يا له من غباء مُطلق! إلا أن فاغنر ليس غبيًّا، هو إذًا منافق ودجّال. هو

يعي أنّ أقواله سفيهة. كراهيته هي ما يتكلّم هنا. كراهيته تُعميه، كما ستُعميه لاحقًا زوجته كوزيما لِيسْت عند إعادة نشر مقالته في كُتيّب بعد عشرين سنة، ممهورًا باسمه هذه المرّة. فاغنر مُجرم. مجرمٌ مشحونٌ بالكراهية. إن كان فاغنر على دراية بأعمال باخ وبعِلْم الهارموني الذي استخدمه بشكل رائع ليحدث ثورة في الموسيقى، فهو يدين بذلك إلى مندلسون. مندلسون الذي، في لايبزيغ، انتشل باخ من النسيان النسبي الذي كان يلفُّه. أتخيَّلُ مجددًا تلك الصورة الفوتوغرافيّة التي تعود إلى أواسط ثلاثينات القرن المنصرم، حيث نرى شرطيًا ذا شاربَيْن يعتمر قبّعةً ويقف مُعتدًّا بنفسه أمام تمثال مندلسون المكبّل بالسلاسل والمربوط برافعة - التمثال على وشك أن يُحطَّم. هذا الشرطي هو فاغنر. نستطيع أن نُبرّر قدر ما نشاء، إلا أن نيتشه نفسه شعر بالاشمئزاز من نفاق فاغنر ودجله. لا يهمّ أن نيتشه هجا شرطيّ لايبزيغ لأسباب شخصيّة. هو محقّ في شعوره بالاشمئزاز من فاغنر المعادي للكوزموبوليتانية والتائه في أوهامه عن الأمّة الجرمانيّة. كلّ ما في فاغنر معيبٌ لا يمكن القبول به، ما عدا تأثيره الكبير في مالر وشونبرغ. إن عمل فاغنر الوحيد الذي قد يُطاق سماعه هو «تريستان وإيزولده»، ذاك أنه الوحيد الذي لا يفيض بجرمانيّةٍ أو مسيحيّةٍ شنعية. صحيحٌ أن هذه الأوبرا تنهل من أسطورة كلتيّة أو إيرانيّة، أو ربّما من قصّة ابتكرها كاتب قروسطي مجهول، لكن ذلك لا يهمّ، إذ ثّمة شيءٌ من ويس ورامين في «تريستان وإيزولده». ثمّة ولَعُ قيس بليلى، وولع خسرو بشيرين. ثمة راعٍ وناي. «البحر موحشٌ، كلّه شجن». التجريد في تصوير البحر والعشق. ما من نهر الراين، ما من ذهبٍ ولا جنّيات ماء تسبح على خشبة المسرح بطريقة مثيرة للسخرية. أتخيّلُ إخراج فاغنر المسرحي في بايروت، لا بدّ من أنه تفوّق هناك في مجالي الكيتش البورجوازي والادّعاء

الرماح والخُوَذ المُجنَّحة. ما اسم تلك الفرس التي أهداها الملك المجنون لودفيغ الثاني لمسرح بايروت؟ اسم مثيرٌ للسخرية، لكنني نسيته. لا بدّ من أن ثمة لوحات تصوِّر هذه البهيمة الشهيرة؛ الفرس المسكينة! لقد توجّب صمّ أذنيها بالقطن وتغطيّة عينيها بغِمامة كي لا تُصاب بالذعر وتروح تأكل ثياب جنيّات الماء. أمرٌ مُسلٍ أن يُفكّر المرء في أن أوّل فاغنريٍّ في الشّرق كان السلطان العثماني عبدالعزيز الذي أرسل لفاغنر مبلغًا كبيرًا من المال لتغطيّة جزءٍ من تكاليف إنشاء مسرح بايروت - لسوء حظّه أنه سيموت قبل أن يُتاح له التمتّع برؤية الرماح والخُوَذ والفرس، وبالخواص الصوتيّة الاستثنائية لهذا المكان الذي ساهم في تشييده.

ذاك النازي الإيرانيّ في «متحف الزجاج والخزف» في طهران كان ربّما فاغنريًّا هو الآخر، من يدري - كم تفاجأنا حين دنا منا، بين مزهريّتيْن رائعتيْن، ذلك الرّجل الثلاثيني السمين ذو الشاربَين، رافعًا ذراعه وهو يزعق «يحيا هتلر!». بادئ الأمر، ظننتُ أنها مزحة سيّئة، أنه يعتقد أنني ألماني ويحاول إهانتي بطريقة ما، ثمّ تنبّهت إلى أنني كنت أتكلم بالفرنسيّة مع فوجيه. كان هذا المُتعصّب الأرعن يُحدّق بنا مُبتسمًا، ذراعه لا تزال مرفوعة، فقلت له: «ما بك؟ ما خطبك؟». كان فوجيه يقهقه عاليًا إلى جانبي. فجأةً، ارتسمت علامات ندم على وجه الرّجل، راح ينظر إلينا بعينيْن حزينتيْن وتنهّد بحسرة: «آه، أنتما لستما ألمانيَيْن، يا له من أمر مؤسف». «مؤسف فعلًا، نحن لسنا ألمانيَيْن ولا من محبّي النازيين»، قال فوجيه ضاحكًا. بدا الرّجل خائبًا للغاية، انطلق في خطبة هتلرية طويلة، محمومة، ناريّة، أخذ يُصرّ على أن هتلر «جميل، جميل جدًّا، هتلر جميل، جميل جدًا»، هذا ما راح يصيح به بالفارسيّة وهو يغلق قبضته على كنزٍ غير مرئي، كنز الآريين على الأرجح. شرح لنا مُطوّلًا أن

هتلر كشف للعالم حقيقةَ أن الألمان والإيرانيّين شعبٌ واحد، وأن قدر هذا الشعب أن يقود مصائر أمم الأرض كلّها، وأنه أمرٌ مؤسف للغاية، أجل، مؤسف للغاية، أن هذه الأفكار الرائعة لم تتجسد بعد. كان هذا التصوّرُ عن هتلر كبطلٍ إيراني مخيف وفكاهي في الوقت عينه، هناك وسط المزهريات والكؤوس والأطباق المُزخرفة. حاول فوجيه مجاراته في الحديث قليلًا، أراد امتحان آخر نازي من الشّرق (أو ربّما لم يكن الأخير) و«جس نبضه» لمعرفة ما إذا كان فعلًا على دراية بالنظريات القومية الاشتراكية وخاصة بمفاعيلها، لكنّه عزف سريعًا عن ذلك، إذ أن أجوبة هذا الممسوس كانت تقتصر على إيماءات مهيبة، قاصدًا بها على الأغلب: «انظرا حولكما! انظرا! تأمّلا عظمة إيران!»، كأن هذه الزجاجيّات والخزفيات الجليلة هي بحد ذاتها انبثاق عن تفوّق العرق الآري. كان الرّجل في غاية اللباقة؛ فبالرّغم من خيبته لأنّه لم يصادف ألمانيّيْن نازيّيْن، تمنّى لنا نهارًا ممتازًا وإقامة ممتعة في إيران، أصرّ على معرفة ما إذا كنّا في حاجة إلى أي شيء، مسّد شاربَيْه الجميليْن اللّذين يشبهان شاربي فيلهلم الثاني، تأهّب كجندي وغادر، تاركًا إيانا، وفق فوجيه، كمخبولَين مشدوهَين ومصعوقَين. استحضار طيف أدولف العزيز وسط كلّ روائع هذا المتحف - قصر صغير بُنيَ على الطراز السلجوقي - كان في غاية الغرابة إلى درجة أننا أصبنا بإرباك شديد؛ أخذنا نقهقه مذهولَيْن. لدى عودتنا إلى المعهد، رويْتُ لسارة هذه المغامرة. راحت تضحك مثلنا في بادئ الأمر؛ ثمّ أخذت تتساءل عن معنى هذا الضحك - لأن إيران كانت تبدو لنا في غاية البُعد من جميع المسائل الأوروبية، لم نكن نرى في نازيٍّ إيراني سوى شخص غير موذٍ، غريب الأطوار، في غير مكانه وزمانه: في أوروبا، كان الشخص ذاته سيثير غضبنا وسخطنا؛ أما هنا، فكنا نجد صعوبة في

تصديق أنه يفقه المعنى الحقيقي لما يتفوّه به. أضف إلى ذلك أن النظريات الآرية العنصرية كانت تبدو لنا عبثيّة كقياس الجمجمة لتحديد موضِع النتوء المُتعلّق باللغات. وهمٌ خالص. لكن هذه الحادثة، أضافت سارة، تقول الكثير عن قوّة بروباغندا الرايش الثالث في إيران - مثلما حصل خلال الحرب العالميّة الأولى، وغالبًا بالاعتماد على الطاقم نفسه (طاقم يضمّ طبعًا ماكس فون أوبنهايم)، سعت ألمانيا النازيّة إلى كسب مودّة المسلمين لمباغتة الإنكليز والروس وضربهم في آسيا الوسطى السوفياتيّة، في الهند وفي الشّرق الأوسط، وأطلقت مجددًا دعوة إلى الجهاد. كانت المؤسسات العلميّة (من الجامعات وصولًا إلى «الجمعيّة الشّرقيّة الألمانية») قد أضحت نازيّةً إلى حدّ بعيد منذ الثلاثينيات، فارتضت لعب الدور المطلوب منها: حتّى أن المستشرقين المختصين بالإسلام استُشيروا لمعرفة ما إذا كان القرآن، بطريقة أو بأخرى، يتنبأ بقدوم الفوهرر، ما لم يستطع العلماء، على الرغم من كلّ تعاونهم وحسن نيّتهم، الردّ عليه بالإيجاب. غير أنهم اقترحوا كتابة نصوص بالعربيّة تصبّ في هذا الإتجاه. وقد وصلت الأمور إلى حدّ تداول فكرة توزيع «بورتريه للفوهرر كقائد للمؤمنين» - صورة فكاهيّة حيث نرى هتلر معتمرًا عمامة ومكتسيًا بأوسمة ونياشين من الطراز العثماني - لتحبيب قلوب المسلمين به. غوبلز صدمته هذه الصورة المريعة، فوضع حدًّا للمشروع. يبدو أن نفاق النازيين قد أجاز لهم الإستعانة بـ «أعراق دنيا» بغية تحقيق أهداف عسكرية مُبرَّرة، لكنّه لم يسمح لهم بوضع عمامة أو طربوش على رأس زعيمهم الأكبر. كان على الاستشراق النازي، خاصة في نسخته النمساوية التي صاغها عالم الآشوريات الشهير التابع لجهاز الـ«إس إس» فيكتور كريستيان، أن يكتفي بثلاثة أمور: «انزع الصبغة الساميّة» عن التاريخ القديم، اللجوء

إلى الغش والخداع لإثبات أن الآريين قد تفوّقوا تاريخيًّا على الساميّين في بلاد ما بين النهرَين، وافتتاح «مدرسة للملالي» في درسدن، حيث كان سيتم تدريب الأئمة التابعين لجهاز الـ«إس إس» والمكلّفين بنشر التعاليم التي سيتلقونها على المسلمين السوفيات - بسبب نظرياتهم التقريبيّة العَجُولة، وجد النازيون مصاعب جمّة للبتّ بأمر ما إذا كانت هذه المؤسسة ستُدرِّب أئمة أم ملالي، كما لاختيار اسم لهذا المشروع العجيب.

انضمّ فوجيه إلى المحادثة؛ كُنّا قد غلينا بعضًا من الشاي؛ كان إناء السَّماوَر يرتعش بهدوء. أخذت سارة قطعة سكّر نبات وتركتها في فمها لتذوب؛ كانت قد خلعت حذاءها ووضعت ربلتَيْها تحت فخذيها فيما هي جالسة على الكرسي الجلد. كنّا قد شغّلنا أسطوانة موسيقى، فكان صوت آلة السيتار يملأ فواصل الصمت - كنّا في الخريف، أو في الشتاء، كان الظلام قد حلّ باكرًا. كان فوجيه لا يكفّ عن المشي دائريًّا، مثل كلّ يوم عند الغروب. سوف ينجح في تمالك نفسه لساعة بعد، ثمّ سيتعاظم جزعه، ما سيحتّم عليه الذهاب لتدخين غليونٍ أو سيجارةِ أفيون، فيعود إلى حالته الطبيعيّة خلال الليل. تذكّرتُ نصائحه التي كان يُغدقها عليّ في إسطنبول كخبير - هو لم يعملْ بها في ما يبدو. فها هو بعد ثماني سنوات، وقد صار مدمنًا؛ كانت تُقلقه كثيرًا فكرة العودة إلى أوروبا حيث العثور على الأفيون أصعب بكثير. كان يعلم ما سيحدث؛ سينتهي به الأمر إلى تعاطي الهيروين (كان قد بدأ، في أوقات نادرة، يدخّن القليل منه في إيران)، إلى اختبار آلامَ الإدمان أو المعاناة المُرافِقة للأعراض الانسحابية. ففكرة العودة، إضافة إلى الصعوبات الماديّة التي ستستتبعها (توقّف المنحة البحثيّة؛ الانسداد، على المدى القصير، لآفاق العمل في هذا التنظيم السرّي الذي يُشكّله العالم الجامعي

الفرنسي، في هذا الدَيْر العلماني حيث قد يبقى المرء مدى حياته راهبًا مُبتدئًا)، كانت تنطوي أيضًا على تبصُّرٍ مُرعِب، وعيٍ تام لحالته، هلع من حتميّة فراق الأفيون - هلع كان يداويه بالإنخراط في نشاطات لا تُعدّ ولا تُحصى، كان يُكثر من النُزهات (مثل اصطحابي إلى «متحف الزجاج والخزف»)، من اللقاءات، من الرحلات الاستكشافية إلى أماكن مريبة، من الليالي بلا نوم، محاولًا تمديد الزمن ومنغمسًا في الملذّات والمخدّرات لنسيان أن إقامته هنا شارفت على نهايتها، مضاعِفًا هكذا جزعه يومًا بعد يوم. لم يكن مدير المعهد جيلبير دي مورغان مستاءً من التخلّص منه - ينبغي القول أن هذا المُستشرق المُخضرم الذي كان يتحلّى بوقار عتيق الطراز، لم يكن يرتاح كثيرًا لفائض حيويّة فوجيه، لحرّيته ولأبحاثه الغريبة. فمورغان كان على قناعة بأن الباحثين الذين يعملون على مواضيع «معاصرة» هم سبب كلّ متاعبه ليس مع الإيرانيّين فقط، بل مع السفارة الفرنسيّة أيضًا. الآداب (الكلاسيكيّة إذا أمكن)، الفلسفة والتاريخ القديم: ها هي لائحة الاختصاصات التي كانت لا تثير امتعاضه. هل ترون، كان يقول، ها هم يرسلون لي ناشطًا سياسيًا آخر (هكذا كان يدعو الطلّاب المختصين بالتاريخ المعاصر، بالجغرافيا أو بعلم الاجتماع). إنهم مجانين في باريس. نحن نستميت للحصول على تأشيرات للباحثين، ثمّ نجد أنفسنا نُقدِّم ملفّات نعلم جيّدًا أنها لن تروق بتاتًا للإيرانيين. علينا إذًا أن نكذب. يا له من جنون!

والجنون كان فعلًا عاملًا أساسيًّا في النشاط البحثي الأوروبي في إيران. فالكراهيّة والنفاق، المشاعر المزيّفة والحسد، الخوف والتلاعب بالآخر، كانت متفشيّة في مجتمع الباحثين والعلماء، أقلّه في ما يخصّ علاقاتهم بالمؤسسات. جنون جماعي وانحراف فردي - كان على سارة أن تتحلّى بالكثير من الصلابة كي لا تتأذّى من هذا

الجوّ. مورغان كان قد عثر على تسمية بسيطة لسياسته الإداريّة: الجَلْد. على الطريقة القديمة. ألم يكن عُمْر الإدارة الإيرانيّة آلاف السنين؟ كان ينبغي العودة إلى مبادئ تنظيميّة سليمة: الصمت والكرباج. لهذا النهج الشرس والفعّال مساوئه طبعًا، إذ كان يُبطئ العمل (مثلما حصل للأهرام أو لقصر برسيبوليس) بشكل ملحوظ. كما كان يُضاعف من أعباء مورغان الذي لم يكن يكفّ عن التذمّر؛ كان يقول إنه لا يملك الوقت لفعل أي شيء سوى مراقبة مرؤوسيه. كان إلى حدّ ما، يغض النظر عمّا يفعله الباحثون. يغض النظر عمّا تفعله سارة. لكنّه لم يكن يرحم فوجيه. أمّا الأجانب المقيمون لفترة قصيرة، البولندي أو الإيطالي أو أنا، فلم يكن أحدٌ يأبه بنا وبما نفعله. كان جيلبير دي مورغان يحتقرنا باحترام، يتجاهلنا بلباقة، تاركًا إيانا ننعم بجميع تسهيلات معهده، بخاصّة بالشقّة الكبيرة التي فوق المكاتب، حيث كانت سارة ترتشف الشاي وفوجيه لا يقوى على البقاء جالسًا في مكانه؛ حيث كنّا نتحدّث عن نظريات مجنون «متحف الزجاج والخزف» (لقد قرّرنا أخيرًا أنه مجنون)، عن أدولف هتلر معتمرًا طربوشًا أو عمامةً وعن مُلهِمه البعيد الكونت دي غوبينو، مُخترع فكرة الآريّة: إن صاحب كتاب «التفاوت بين الأجناس البشريّة» كان مستشرقًا أيضًا، لقد شغل منصب الأمين العام للبعثة الديبلوماسيّة الفرنسيّة إلى بلاد فارس، ثمّ صار سفيرًا وأقام مرّتيْن في إيران في أواسط القرن التاسع عشر - لقد استحقّت مؤلفاته أن تُجمع في ثلاثة مجلّدات جميلة ضمن سلسلة «لا بليياد» الشهيرة التي، وفق مورغان وسارة، كانت ظالمة للغاية في طردها المسكين جيرمان نوفو. أبُ العنصرية الفرنسيّة، ومُلهِم هيوستن ستيوارت تشامبرلين، ذاك المُنظّر الكبير للقوميّة الجرمانية المليئة بالكراهيّة الذي اكتشف أعمال الفرنسي بفضل كوزيما لِيسْت وفاغنر، صديقيّ غوبينو منذ

تشرين الثاني ١٨٧٦: كان غوبينو فاغنريًا أيضًا؛ لقد كتب حوالى خمسين رسالة لفاغنر وكوزيما. لقد ضَمَن له ذلك، لسوء الحظ، شهرة وحياة مستقبلية للجزء الأكثر سوادًا من مؤلفاته؛ فبفضل جماعة بايروت (خاصةً تشامبرلين الذي تزوّج بإيفا فاغنر)، ستنطلق نظرياته حول تطوّر الأجناس البشريّة في مسيرتها المريعة. لكن غوبينو، كما كانت تشير سارة، لم يكن معاديًا للساميّة، على العكس تمامًا، إذ كان يَعتبر «العرق اليهوديّ» من أنبل الأعراق وأكثرها علمًا وبراعة، من أقلّها انحطاطًا وأقواها مناعةً في وجه حالة الأفول العام. إن جماعة بايروت وفاغنر وكوزيما وهيوستن تشامبرلين وإيفا فاغنر هم من أضافوا معاداة الساميّة. اللائحة الطويلة والرهيبة لأتباع بايروت، الشهادات المُرعِبة، غوبلز ممسكًا بيد تشامبرلين وهو يُحتضر، هتلر الذي حضر مأتم الأخير، هتلر الصديق الحميم لفينيفرد فاغنر - يا له من ظلم وإجحاف أن ترمي طائرات الحلفاء قنبلتَين حارقتَين على قاعة «غيفاند هاوس» في لايبزيغ، حيث كان مندلسون المسكين قائد أوركسترا، ولا ترمي ولو قنبلة واحدة على مسرح بايروت! حتّى الحلفاء أنفسهم كانوا، رغمًا عنهم، متواطئين في نشر الأساطير الآريّة - بالطبع كان تدمير مسرح بايروت سيشكّل خسارة للموسيقى. لا يهمّ، إذ كان سيُعاد تشييده بشكل مُطابق للأصل، إلا أن فينيفرد فاغنر وابنها كانا سيختبران شيئًا من هذا الدمار المُروِّع الذي أطلقا العنان له، شيئًا من ألم الخسارة عند رؤيتهما الإرث الآثم لوالد زوج الأولى وجدّ الثاني يستحيل دخانًا. هذا لو كان يمكن القنابل التكفير عن الذنوب ومحو الجرائم. إنه أمرٌ يحمل على الغيظ أن إحدى الصلات التي تربط فاغنر بالشّرق (أكثر من التأثيرات التي وصلته من طريق شوبنهاور أو نيتشه أو قراءة «مقدمة في تاريخ البوذيّة الهنديّة» ليوجين بورنوف) هي افتتانه بكتاب الكونت دي غوبينو «التفاوت بين

الأجناس البشريّة» - من يدري، لعلّ فاغنر قد قرأ أيضًا «ثلاث سنوات في آسيا» و«حكايات آسيويّة». كوزيما فاغنر نفسها قد نشرت، في «صفحات بايروت»، ترجمتها الألمانيّة لإحدى دراسات غوبينو «ما يحدث في آسيا»؛ غالبًا ما كان غوبينو يزور الزوجَين فاغنر. لقد رافقهما إلى برلين لحضور العرض الأوّل ذي النجاح المنقطع النظير، لأوبرا «خاتم النيبلونغن» عام ١٨٨١، بعد خمس سنوات من افتتاح مسرح بايروت وقبل سنتَيْن من وفاة المُعَلّم في البندقية، معلّمٌ كان - وفق ما يُروى عنه - لا يزال، في نهاية حياته، يُفكّر في تأليف أوبرا بوذيّة: «المنتصرون»، عنوان لا يمتّ إلى البوذية بصلة، كان يجعل سارة تقهقه عاليًا - أقلّه قدر ما كانت تدفعها إلى القهقهة بعضٌ من ملاحظات غوبينو: لقد ذهبَتْ وأتت بأعماله الكاملة «من القبو»، أي من مكتبة المعهد، وأرانا مجددًا - في حين تبدأ الحركة الثانية من «ثمانيّة» مندلسون - نقرأ بصوت عالٍ مقاطعَ من «ثلاث سنوات في آسيا». حتّى أن فوجيه توقّف عن دورانه المضطرب للإصغاء إلى نثر هذا المستشرق المسكين.

ثمّة شيء موثّر في شخصيّة غوبينو - كان شاعرًا مريعًا وروائيًّا لا يمتلك موهبة كبيرة؛ فقط النصوص التي يسرد فيها رحلاته، والقصص القصيرة التي استلهمها من ذكرياته، يمكنها أن تُشكّل مصدر اهتمام حقيقي. كان نحّاتًا أيضًا، حتّى أنه عرض بعض التماثيل النصفيّة، من ضمنها ثلاثة تماثيل عنوَنها كالآتي: «الفالكيري»، «السوناتا العاطفيّة» و«الملكة ماب» (فاغنر وبيتهوفن وبرليوز: كان الرّجل يتمتّع بذوق رفيع)، منحوتات رخاميّة تنمّ عن دقّة وبراعة، وتتسم بقوّة تعبيريّة ما، وفق النُقّاد. كان معروفًا إلى حدّ ما في الأوساط السياسيّة؛ لقد التقى نابليون الثالث وزوجته ووزراءه؛ وعمل ديبلوماسيًّا فترة طويلة، فشغل مناصب في ألمانيا وبلاد فارس، في

اليونان والبرازيل والسويد والنروج؛ عاشر ألكسي دي توكفيل وإرنست رينان وفرانس لِيْست إضافة إلى كثيرٍ من مستشرقي زمانه، كالألماني فريدريش أوغست بوت المختصّ بالسنسكريتية، أو الفرنسي يوليوس مول المختصّ بإيران وأوّل من ترجم «كتاب الملوك». يوليوس أويتنغ نفسه، المُستعرب الكبير ومدير مكتبة جامعة ستراسبورغ حين كانت هذه المدينة تابعة للألمان، اشترى، نيابة عن الإمبراطوريّة الألمانية، كامل إرث غوبينو بعد وفاته: المنحوتات والمخطوطات، الرسائل والبُسُط، جميع الخردوات التي قد يخلّفها مستشرقٌ وراءه: وقد شاءت المصادفات، تؤازرها الحرب العالمية الأولى، أن تعود هذه المجموعة مجددًا إلى أحضان فرنسا عام ١٩١٨ - لهوَ أمرٌ في غاية الغرابة أن يُفكّر المرء في أن ملايين القتلى الذين سقطوا في هذه الحرب الغبيّة كانوا لا يسعون، في نهاية المطاف، سوى إلى حرمان النمسا من الشواطئ المُطلّة على البحر الأدرياتيكي، وإلى استعادة خردوات غوبينو التي تشبّث بها الجرمانيون لبضع سنوات. مؤسفٌ أن موت كلّ هؤلاء الأشخاص ذهب سُدًى: فثمّة الآن ملايين من النمساوين الذين يمضون عطلاتهم على شواطئ إستريا وفينيتو، كما أن جامعة ستراسبورغ عزفت منذ فترة طويلة عن عرض أثريّات غوبينو في متحفها الصغير، كأن مخلّفات هذا الرّجل الذي وقع ضحيّة تنظيرات عصره العنصريّة، بمقدورها حرق أيادي الأمناء الذين تعاقبوا على المتحف.

كان الكونت دي غوبينو يمقت الديمقراطيّة كلّ المقت - «كراهيتي لسلطة الشعب لا حدود لها»، يقول. وكان عنيفًا ساخرًا تجاه غباء عصره المُفترَض، غباءُ عالَم تسكُنه حشرات مُسلّحة بأدواتٍ تدميريّة، «همّها الوحيد أن تدوس كلّ ما أجْلَلْتُه وأحببتُه يومًا؛ عالم يحرق المُدُن، يهدم الكاتدرائيات، يريد التخلّص من

الكُتب والموسيقى واللوحات، واستبدال كلّ شيء بالبطاطا وشرائح اللحم الغنيّة بالعصارة والنبيذ الأزرق»، كَتبَ في روايته «نجوم الثريّا» التي استهلّها بهذه الخطبة اللاذعة ضدّ الحمقى، خطبة تُذكّر بأقوال مثقفي اليمين المتطرّف الحاليين. إن الأساس الذي بنى عليه غوبينو نظريّاته العنصريّة هو البكاء على الأطلال: إحساسه بانحطاط الغرب المُزمنِ، وحقده على كلّ ما هو سوقي ومُبتذل. أين عظمة إمبراطورية داريوس؟ وأين مجد روما؟ لكن على عكس أتباعه اللاحقين، لم يكن يعتبر «العنصر اليهوديّ» مسؤولًا عن تقهقر العرق الآري. هو يعتقد (أمرٌ لم يكن طبعًا ليَروق لفاغنر أو تشامبرلين) أن أفضلَ مثل على صفاءِ العرقِ الآري طبقةُ النبلاء الفرنسيين، فكرة فكاهيّة بعض الشيء. إن «التفاوت بين الأجناس البشريّة»، هذا العمل الذي يعود إلى فترة صباه، ينمّ عن تأثرٍ بالنظريات التقريبيّة لعلوم اللسانيات، كما بالعلوم الإنسانية التي كانت لا تزال في طور الطفولة - لكن غوبينو سوف يرى في بلاد فارس - خلال مكوثه هناك ممثلًا فرنسا مرّتَين - حقيقةَ إيران؛ وبعد اكتشافه برسيبوليس وأصفهان، سوف يقتنع أنه كان محقًّا بشأن عظمة الآريين. ما كتبه عن إقامته هناك كان لامعًا، وفي كثير من الأحيان مُضحكًا أيضًا، لكنّه لم يكن أبدًا «عنصريًا» بالمعنى الحديث للكلمة، أقلّه في ما يتعلّق بالإيرانيّين. كانت سارة تقرأ لنا مقاطع حملت على الضحك حتّى فوجيه المَوْتور. أذكُر هذه الجملة: «من بين جميع الأخطار التي تتربصّ بالمسافر في آسيا، أعترف أنني أضعُ في المرتبة الأولى، من دون أي تردّد وغير مُكترثٍ بالكبرياء المجروح للنمور والأفاعي واللصوص، مآدبَ العشاء البريطانية التي علينا مُكابدتها». هذا قولٌ جميلٌ ومُسِرٌ للغاية! كان غوبينو يفيض في الكلام الساخر عن الأطباق «الشيطانيّة» التي يقدّمها الإنكليز، وكيف أن المرء يغادر مائدانهم مريضًا أو معدته خاوية

تُقرقر، «مُستشهدًا، أو ميتًا من الجوع». إن انطباعاته عن آسيا تجمع بين الوصف الأكثر تبصّرًا والتأملات الأكثر فكاهيّة.

لهذه الزهورات طعمٌ حامضٌ واصطناعي كالبونبون، طعمٌ إنكليزي، كان سيقول غوبينو. طعمٌ لا يمت بصلة إلى زهور مصر أو إيران. عليّ إعادة النظر في تقييمي «ثمانية» مندلسون، هي مثيرة للاهتمام أكثر ممّا كنتُ أتخيّل. إذاعة Öl-Klassiknacht، حياتي في نهاية المطاف كئيبة، كان في إمكاني أن أقرأ بدلًا من اجترار الذكريات الإيرانيّة القديمة فيما أستمع إلى الراديو. مجنونُ «متحف الزجاج والخزف». يا إلهي كم كانت حزينة طهران! الحداد الأبدي، اللون الرمادي الذي يصبغ كلّ شيء، التلوُّث. طهران... عقوبة الإعدام. كان أي بصيص نورٍ يُضاعف من هذا الحُزن، كأنّه يؤطّره مُبرِزًا معالمه؛ إن كانت الحفلات الصاخبة التي يُقيمها في شمال المدينة الشبّان والشابات الأثرياء والمُتهوِّرون تُسلّينا في حينها، فكان تباينها الصارخ مع موت الأماكن العامة يدفع بي لاحقًا نحو شجن عميق. كانت تلك الشّابات الرائعات، بثيابهن وحركاتهن المثيرة جدًّا، يرقصن على أنغام مُحرّمة استُقدِمت من لوس أنجيليس فيما يعاقرن البيرة التركيّة أو الفودكا قبل أن يرتدين مجددًا أحجبتهن وعباءاتهن لكي يختفين في الحشود الإسلاميّة المُحتشمة. إن هذا الفصل الإيراني للغاية، الذي لحظه غوبينو منذ حوالى قرن ونصف القرن، بين الـ«بيرون» والـ«اندرون»، بين داخل المنزل وخارجه، بين الخاصّ والعامّ، بلغ أقصى حدوده في ظلّ الجمهورية الإسلامية. كنّا ندخل إلى شقة أو فيلا في شمال طهران، فنجد فجأة أنفسنا وسط شبّان وشابّات في ملابس البحر، يمرحون حول حوض سباحة وهم يسكرون، يتكلّمون بطلاقة الإنكليزية أو الفرنسيّة أو الألمانيّة، ويحاولون بواسطة اللهو والخمور المُهرّبة، نسيان رماديّة العالم

الخارجي وانعدام أي مستقبل لهم في هذا المجتمع الإيرانيّ. كان ثمة شيء من اليأس في هذه السهرات؛ يأسٌ كنا نشعر بأن بمقدوره أن يتحوّل، لدى الأكثر شجاعة بينهم أو الأقل يسرًا، إلى تلك الطاقة العنيفة التي يتميّز بها الثوّار. كانت وتيرة مداهمات شرطة الآداب ترتفع أو تنخفض بحسب الفترات والحكومات؛ وكانت تصلنا أنباء، مثل أن فلانًا قدّ أوقِف، أو أن آخرًا قد ضُرب ضربًا مبرّحًا، أو أن تلك الشابة أُذِلّت عبر إخضاعها لفحص العذرية للتأكد من أنها لم تُقِم علاقات جنسية غير شرعيّة. مثل هذه الأخبار التي دائمًا ما كانت تذكّرُني بالفحص الشرجي المريع الذي خضع له فيرلين بعد إطلاقه النار على رامبو، كانت جزءًا من حياة المدينة اليوميّة. كان المثقفون والجامعيون فقدوا إلى حدّ كبير طاقة وزخم الشّباب، وكانوا ينقسمون فئات عدّة: الذين نجحوا، نوعًا ما، في بناء حياة مريحة نسبيًّا «على هامش» الحياة العامة؛ الذين يزايدون في نفاقهم جريًا وراء أكبر قدر ممكن من الفتات الذي ينثره لهم النظام؛ والكُثُر الذين يعانون من اكتئاب مُزمِن، من حزن وحشي يداوونه إلى حدّ ما، بالغوص في العِلم والكُتب، في الرحلات الخياليّة وفي الفراديس الاصطناعية[١].

ماذا حلّ ببارفيز - لقد مرّ دهرٌ على آخر خبرٍ وصلني من هذا الشاعر الكبير ذي اللحيّة البيضاء، أستطيع أن أكتب له، لَمْ أفعل ذلك منذ فترة طويلة. بأي ذريعة أراسله؟ في إمكاني أن أترجم إحدى قصائده إلى الألمانية، إلا أن الترجمةَ من لغة لا نُتقنها تجربةٌ مريعة، إذ نشعر حينئذٍ أننا نسبح في ظلمة حالكة - عندذاك، تبدو البحيرةُ الهادئةُ بحرًا هائجًا، والبركةُ الصغيرةُ نهرًا عميقًا. ذلك كان أبسط بكثير في طهران، فهو نفسه كان يشرح لي معنى نصوصه موضحًا دلالات كلّ

---

(١) «الفردوس الإصطناعي» عنوان كتاب لبودلير عن الحشيش والأفيون.

كلمة كتبها. لعلّه لم يعد يعيش في طهران. ربّما صار في أوروبا أو في الولايات المتحدة. لكنني أشكّ في ذلك. كان حزن بارفيز (كحزن صادق هدايت) يتأتّى من فشل محاولتَيه القصيرتي الأمد للعيش في المنفى، في فرنسا ثمّ في هولندا: كان يشتاق إلى إيران، فيرجع إليها بعد شهرَيْن. وحين يعود، كانت تكفيه بضع دقائق ليمقت مجددًا أبناء وطنه. أمام نساء شرطة الحدود اللواتي يرتدين الشادور ويأخذن جوازات سفرِكم في مطار مهرآباد - كان يقول لنا - يجد المرء نفسه عاجزًا عن التمييز بين الجلاد والضحيّة؛ فبأقنعتهن السود هذه، هنّ يُشبهن جلّادي القرون الوسطى؛ لا يبتسمن لكم أبدًا؛ هنّ مُحَاطات بأولئك العساكر الغِلاظ ذوي المعاطف الكاكيّة والمسلّحين برشاشات «جي ٣» فخر الصناعة الإيرانيّة، والذين لا ندري إن كانت مهمّتهم حمايتهن من الغرباء النازلين من هذه الطائرات النجسة، أم رميهن بالرصاص في حال أبدَيْن للمسافرين فائضًا من الوِدّ واللطافة. نحن ما زلنا نجهل (وكان بارفيز يقول ذلك وهو يتنهّد باستسلام ساخر، مزيجٌ إيرانيٌّ تمامًا من الحزن والتهكّم) إن كانت نساء الثورة الإيرانيّة يمسكن بزمام بالسلطة أم إن كنّ، على العكس، رهائن لها. إن موظّفات «مؤسسة المحرومين» - وهنّ أيضًا يلبسن الشادور الأسود - من بين أثرى نساء إيران وأكثرهن نفوذًا. هذه الأشباح رمز بلدي، كان يقول، هذه الظلال، هذه الغربان... حين يُعدَمن شنقًا، تُربَط أحجبتهن السود بإحكام تفاديًا لأي استفزاز للمشاعر، فما يستفزّ المشاعر هنا ليس الموت المتفشّي في كلّ ناحية، بل العصفور، والتحليق، واللون. خاصة لون أجساد النساء، أجسادٌ بيض، شديدة البياض - أجسادٌ لم تلفحها حرارة الشمس أبدًا، قد يُعمي نقاؤها عيون الشهداء. المرأةُ-الجلّاد في لباس الحِداد الأسود أضحيتُنا المُفضّلة هنا، نشنُقها عقابًا لها على جمالها الذي لا يُرَوَّض؛ ونقتل

ونشنق ونجلد ونعذّب ما نحبّ وما نُفتتن بجماله، والجمالُ نفسه يمسكُ السوطَ، يمسكُ بدوره الفأسَ وحبلَ المشنقة، فتخرج من رحمه شقيقة النعمان، زهرة الشهداء التي لا أريج لها، محض لونٍ، محض مصادفة في حقل، حمراء، حمراء، حمراء - التبرّج ممنوع على أزهار الشهداء، فهي الألم بعينه وتموت عاريةً، يحقّ لها أن تموت حمراء لا يكسوها أي سواد. الشفاه دائمًا حمر أكثر من اللزوم في نظر الجمهوريّة الإسلامية التي ترى في ذلك منافسة تفتقر إلى الاحتشام - وحدهم القدّيسون والشهداء يجوز لهم أن يزفروا عذوبة دمائهم الحمراء على إيران، ذلك محظور على النساء اللواتي عليهن، بداعي الحشمة، تلوين شفاههن بالأسود، والتشبّث بهذه الحشمة حين نشنقهن، انظروا! انظروا إلى أمواتنا البديعين، المعزّزين والمُكرّمين، ها هم يتدلّون بأبهة من أعلى الرافعات ويتأرجحون بعد أن أعدموا بكثير من الاحتشام، فلا يأتيَنَّ أحدٌ ويلومنَّا على افتقارنا إلى التكنولوجيا، فنحن شعبٌ عاشقٌ للجَمال. مسيحيونا، على سبيل المثل، رائعون. هم يحتفون بالموت على الصليب ويتذكرون شهداءهم مثلنا تمامًا. وزرادشتيونا رائعون. هم يضعون أقنعة من الجلدِ تعكسُ النارُ عليها عظمةَ إيران؛ هم يتركون أجسادهن لتتعفن وتصبح قوتًا للطيور. وجزّارونا رائعون. هم يذبحون البهائم باحترام ووقار مثلما كانت تُذبح في أيام النبي. نحن عظماء كداريوس، بل أعظم؛ كأنوشيران العادل، بل أعظم؛ كقورش الكبير، بل أعظم؛ لقد دعا الأنبياءُ إلى الحرب وإلى الحماسة الثوريّة، فتنشّقنا دماءَ المعاركِ وغازاتها السامة.

لقد تعلّمنا كيف نتنشّق الدماء، كيف نملأ رئاتنا بالدماء وكيف نستفيد من الموت. لقد حوّلنا الموت جمالًا طوال قرون، حوّلنا الدم أزهارًا، ينابيع من الدم، وملأنا واجهات عرض متاحفنا ببزّات

عسكرية ملطّخة بالدم، بنظّارات كسرتها الشهادة، ونحن نفتخر بذلك، لأن كلّ شهيد هو شقيقة نعمان حمراء، وشقيقة النعمان جميلة، والجمال هو جوهر هذا العالم. لقد صنعنا شعبًا سائلًا وأحمرَ، يحيا في الموت ويَسعد في الفردوس السماوي. لقد أسدلنا ستارًا أسودَ على الفردوس حتّى نحميه من الشمس. لقد غسلنا جثثنا في نهر الفردوس. الفردوس كلمة فارسيّة. هناك، في الفردوس، تحت خِيَم الحِداد السود، نُقدّم للمارّة مياه الموت ليرتووا بها. الفردوسُ اسم بلدي، اسم المقابرِ التي نعيش فيها، اسم التضحية.

لم يكن بارفيز يجيد الكلام نثرًا؛ على الأقل ليس بالفرنسيّة. أما بالفارسيّة، فكان يترك سوداويته وتشاؤمه لقصائده، وكان أقلّ جدّية بكثير، يفيض سخريةً؛ ومن كانت معرفته بالفارسيّة تتيح له - كفوجيه وسارة - تذوُّق هذه السخرية، كان غالبًا ما يقهقه عاليًا؛ كان بارفيز يحبّ رواية القصص المُضحكة والبذيئة، قصص يندهش المرء، في أي بقعة أخرى من العالم، أن شاعرًا كبيرًا يعرفها. وكان غالبًا ما يتكلّم عن طفولته في قُم، في الخمسينات من القرن المنصرم. كان والده رجل دين ومُفكّر دائمًا ما أطلق عليه بارفيز في كتاباته، إن لم تخني الذاكرة، تسمية «الرّجل المُلتحف بالسواد». بفضل هذا «الرّجل المُلتحف بالسواد»، اكتشف فلاسفةِ الفُرس - من ابن سينا إلى علي شريعتي - والشعراء الصوفيين، وحفظ عن ظهر قلب عددًا مهولًا من الأبيات القديمة - لجلال الدّين الرومي وحافظ الشيرازي وخواجو الكرماني ونظامي الكنجوي وميرزا عبدالقادر بيدل - والحديثة - لنيما وشاملو وسبهري ومهدي أخوان ثالث. يا له من مكتبة جوّالة - ريلكه، سيرغي يسينين، لوركا، رينه شار... كان يستطيع أن يُلقي آلاف القصائد، بالفارسيّة وبلغتها الأصليّة. يوم التقينا لأول مرّة، وما إن علم أنني من فيينا، أخذ يبحث في ذاكرته كمن يتصفّح كتاب

مُختارات، ثمّ عاد من هذه الرحلة الداخليّة الوجيزة وفي حوزته قصيدة للوركا، بالإسبانيّة:

"En Viena hay diez muchachas, un hombro donde solloza la muerte y un bosque de palomas disecadas".

لم أفهم منها شيئًا بالطبع، فكان عليه أن يُترجمها، «في فيينا، ثمّة عشر شابات، وكتف يبكي الموت عليه، وغابة من الحمام المُحنّط»، ثمّ نظر إليّ بجدّية بالغة وسألني: «هل هذا صحيح؟ أنا لم أذهب أبدًا إلى هناك».

أجابت سارة بدلًا مني:

- أجل، طبعًا هذا صحيح، خاصةً فيما يتعلّق بالحمام المُحنّط.

- هذا أمر مثير جدًا للاهتمام، مدينة لتحنيط الحيوانات!

لم أكن متأكدًا ممّا سيؤول إليه الحديث، خشيت أن يُظهرني بصورة غير مواتية، فنظرتُ إلى سارة نظرة عتاب، ما أبهجها على الفور، ها هو النمساوي يشعر بالإهانة، ما من شيء يُسرّها أكثر من فضح عيوبي في العلن - كانت شقّة بارفيز صغيرة لكن مريحة، مليئة بالكُتب والسّجاد؛ والغريب أنها تقع في جادّة تحمل اسم شاعرٍ، نظامي أو العطّار، لم أعد أذكر. نحن ننسى الأمور المهمّة بسهولة. عليّ أن أكفّ عن التفكير بصوتٍ عالٍ، يا لعاري فيما لو قام أحدٌ بتسجيل هذياني! أخشى أن أبدو مجنونًا - ليس كمجنون «متحف الزجاج والخزف» أو كالرفيق بيلغر، لكن معتوهًا مع ذلك. المخبولُ الذي يتكلّم مع جهازه الراديو ومع كمبيوتره المحمول. الذي يتحدّث مع مندلسون ومع فنجان «الحبّ الأحمر» الحامض. لمَ لم أجلب معي أنا أيضًا إناء سَماوَر من إيران؟ هل تستخدم سارة ذاك السماور الذي اقتنته؟ كان عليّ أن أبتاع واحدًا بدلًا من شراء كلّ هذه الأسطوانات والآلات الموسيقية وأعمال شعراء لن أفهمها أبدًا. هل

كنتُ أتحدّث إلى نفسي فيما مضى؟ هل كنتُ أبتدع أدوارًا، أصواتًا، شخصيات؟ يا عزيزي مندلسون، يجب أن أعترف لك أنني لست مُطّلعًا على أعمالك بما فيه الكفاية. ماذا تريدني أن أقول، لا يستطيع المرء أن يستمع إلى كلّ شيء، آمل أنك لست غاضبًا مني. لكنني زرتُ منزلك في لايبزيغ. ورأيت التمثال النصفي لغوته على مكتبك. غوته مُعلّمك الأول. الذي استمع إلى عزف طفلَيْن عبقريَيْن، موتزارت الصغير وأنت. رأيتُ اللوحات المائية المُعلّقة على جدران بيتك، تلك التي تُصوِّر مشاهدًا جميلة من الطبيعة السويسرية. رأيتُ صالونك. مطبخك. وبورتريه المرأة التي كنت تحبّ، والتذكارات التي جلبتها معك من إنكلترا. وأولادك. وتخيّلتُ زيارة من كلارا وروبرت شومان، فرأيتك تخرج مُسرعًا من مكتبك لاستقبالهم. كانت كلارا متألقة، ترتدي طرحة صغيرة جدًا وشعرها مربوطًا إلى الخلف، مع بضع جدائل متدليّة على صدغيْها. وكان روبرت يحمل تحت إبطه مخطوطة موسيقيّة فيما بعضٌ من الحبر يُلطّخ كمّه الأيمن؛ لقد ضحكتَ. جلستم جميعًا في الصالون. صباح اليوم نفسه، كانت قد وصلتكَ من لندن رسالة إيغناز موشيليس التي أعلمك فيها عن موافقته على القدوم إلى لايبزيغ للتدريس في الكونسرفتوار الذي كنتَ قد افتتحته للتو. موشيليس، أستاذك الذي علّمكَ العزف على البيانو. أزْفَفْتَ الخبر السّار إلى شومان. سوف تعملون أنتم الثلاثة معًا. طبعًا في حال وافق شومان على ذلك. وقد وافق. ثمّ تناولتما الغداء. ثمّ خرجتما للتنزّه، لطالما تخيّلتُكما، أنتَ وشومان، من مُحبّي رياضة المشي. تبقّى لك أربع سنوات من حياتك. بعد أربع سنوات، سيحمل موشيليس وشومان نعشك.

وفي دوسلدورف بعد سبع سنوات، سيحين دور شومان للارتماء في نهر الراين وفي الجنون.

أيّهما سيصرعني أوّلًا يا عزيزي مندل، المرض أم الجنون؟

«دكتور كراوس! يا دكتور كراوس! ألزِمُكَ بالإجابة عن هذا السؤال. بالاستناد إلى آخر أبحاث الأطباء النفسيين الذين يدرسون حالات المرضى بعد وفاتهم، يبدو أن شومان لم يكن مجنونًا ولا معتوهًا. كان بكل بساطة حزينًا، حزينًا جدًّا، نتيجة الصعوبات التي اعترضت علاقته العاطفية، نتيجة اندثار شغفه، وكان يداوي حزنه بالخمر. تركته كلارا ليموت وحيدًا، ليتعفّن طوال سنتَيْن في مستشفى الأمراض العقليّة، هذه هي الحقيقة يا دكتور كراوس. حقيقةٌ أكّدتها بيتينا فون أرنيم، شقيقة برينتانو، وهي الشخص الوحيد الذي زاره خلال تلك الفترة (إضافة إلى برامز، لكنّك ستوافقني أن برامز لا يُؤخذ في الحسبان). في رأيها، كان احتجاز شومان إجحافًا. فهو ليس هولدرلين في بُرجِه. وللمناسبة، إن «أناشيد الفجر»، آخر أعمال شومان المهمّة للبيانو التي ألّفها بالكاد قبل ستّة أشهر من دخوله المستشفى، هي مُستلهمة من هولدرلين ومهداة إلى بيتينا فون أرنيم. هل كان شومان يُفكّر في برج هولدرلين المُحاذي لنهر النيكار، هل كان يخيفه ذلك يا دكتور كراوس، ماذا تعتقد؟

- في مقدور الحبّ أن يُدمّرنا، لديّ قناعة عميقة بذلك يا دكتور ريتر. لكن بلوغَ اليقين في أي شأنٍ مستحيلٌ. في أي حال، أنصحك بتناول هذه الأدوية حتّى نستريح قليلًا يا صديقي. أنتَ تحتاج إلى الهدوء والراحة. أما فيما يخصّ الأفيون، فلا، لن أصفه لك «لإبطاء عمليات جسدك الفيزيولوجية» حسب تعبيرك. لا يمكنك إرجاء لحظة موتك عبر «إبطاء عمليات جسدك الفيزيولوجية»، عبر مَطّ الزمن، هذه فكرة طفولية تمامًا يا دكتور ريتر.

- لكن يا عزيزي كراوس، ما الذي كانوا يعطونه لشومان طوال سنتين، في المستشفى ببون؟ مَرَق دجاج؟

- لست أدري يا دكتور ريتر، ليس لدي أدنى فكرة. أعلمُ فقط أن أطباء تلك الفترة قد شخّصوا ذهانًا إكتئابيًّا، فتوجّب إدخاله المستشفى قسرًا.

- يا لفظاعة الأطباء! أنتم لن تخالفوا أبدًا تشخيص أحد زملائكم! دجّالون يا دكتور كراوس! أنتم دجّالون! مُرتشون! ذهان اكتئابي؟ أيُّ هراءٍ هذا! كان بكامل قواه الذهنيّة، هذا ما تؤكّده بيتينا! كان قدّ مرّ بأزمة عصبية بعض الشيء، فقط لا أكثر. مجرّد أزمة، ثمّ أيقظه نهر الراين، أنعشه، وبما أنه ألماني أصيل، بعث فيه الراين الحياة من جديد، دغدغت جنيّات الماء أعضاءه الحميمة فوثب متعافيًا! تصوَّرْ يا دكتور كراوس أنه حتّى قبل زيارة بيتينا، كان يُطالب بوَرَقٍ لتدوين الموسيقى، بنسخة من «نزوات» باغانيني، وبأطلس. أطلس يا دكتور كراوس! كان شومان يتوق إلى رؤية العالم، إلى مغادرة حيّ «أندنيش» والهروب من جلّاده الدكتور ريشارز. رؤية العالم! لم يكن ثمة أي مُبرر لاحتجازه في مستشفى للمجانين. زوجته هي المسؤولة عن مآسيه. كلارا. فرغم كلّ التقارير التي كانت تصلها من «أندنيش»، لم تذهب أبدًا لإخراجه من هناك. كلارا التي اتبعت بحذافيرها توصيات ريشارز الإجراميّة. إن كلارا هي المسؤولة أصلًا عن أزمة شومان المؤقتة التي حوّلها الطبّ إلى دَفْنٍ مديد. إنه الشغف، واندثار الشغف، وجزع الحبّ... هذا ما أصابه بالمرض.

- ماذا تقصد بذلك يا دكتور ريتر، ما الذي تحاول قوله وأنت تشرب آخر رشفة من هذه الزهورات الاصطناعيّة المريعة؟ إن حالتك، أنت أيضًا، ربّما ليست خطيرة؟ إنكّ، أنت أيضًا، تمرّ «بأزمة عصبية بعض الشيء، فقط لا أكثر»، سببها مسألة حبٍّ ولا مرضٌ مريع ومُزمِن؟

- يا دكتور كراوس، أنا أرغب كثيرًا في أن تكون مُحقًّا.

وأرغب كثيرًا في أن أكون، أنا أيضًا، مُحقًّا في ما يتعلّق بشومان. إن «أناشيد الفجر» في غاية... في غاية الفرادة. هي خارج عصر شومان، خارج أعماله هو أيضًا. لقد كان شومان خارج نفسه عندما كتب «أناشيد الفجر» قبل بضعة أسابيع من تلك الليلة المصيريّة، ومباشرة قبل عمله النهائي «التنويعات الشبحيّة» - عمل لطالما أرعبني - الذي ألّفه عن (خلال) غطسته في الراين. سلّم «مي» منخفض الكبير. لحنٌ وُلِد من هلوسة سمعيّة، طنينُ أذنٍ موسيقيٌّ أو وحيٌ إلهي، شومان المسكين. «مي» منخفض الكبير، السلّم المُستخدم في سوناتا «الوداع» لبيتهوفن. الأشباح والوداع. الفجر، الوداع. يوسابيوس المسكين. فلورستان المسكين. رفيقا داوود المسكينان. يا لأقدارنا البائسة جميعًا، نحن المساكين»!

الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين ليلًا

أتساءل أحيانًا ما إذا كنت أنا أيضًا مُصابًا بالهلوسة. فها أنا آتي على ذكر مقطوعة «الوداع» لبيتهوفن، فتُعلن إذاعة Ö1-Klassiknacht أنها ستبثّ السوناتا ٣٢ لبيتهوفن ذاته، العمل الرقم ١١١. لعلّ جدول برامجهم عكسيًا: أعمال شومان المتأخرة، يليها مندلسون ثمّ بيتهوفن؛ ينقص شوبرت - إذا بقيتُ أستمع لوقت كافٍ، فأنا متأكد من أنه ستُبَثّ سيمفونيةٌ لشوبرت: موسيقى الحُجرة أوّلًا، ثمّ البيانو، لا ينقص سوى الأوركسترا. لقد فكّرت بالسوناتا ٢٦ المعنونة «الوداع»، وها هي تُبَثّ السوناتا ٣٢ التي اسمّاها توماس مان «الوداع إلى السوناتا» في روايته «الدكتور فاوستوس». هل حقًّا بات العالم يستجيب لرغباتي؟ لقد حان دور هذا المشعوذ توماس مان للظهور في مطبخي؛ أنا أكذب دومًا حين أخبر سارة عن أيام صباي، أقول لها: «إن رواية 'دكتور فاوستوس' هي ما جعلني أوقن أن عليّ أن أصبح عالِمًا موسيقيًا، فخلال قراءتها وأنا في الرابعة عشرة من عمري، نزل عليّ الوحي واكتشفت فعلًا ما الموسيقى»، يا لها من كذبة هائلة! لا وجود بتاتًا لذاك اليقين. فأنا، في أحسن الأحوال، الدكتور سيرونوس زايتبلوم[1]: شخصيّة مُتخيَّلة بالكامل؛ أما في أسوأ

---

(١) إحدى شخصيات «الدكتور فاوستوس».

الأحوال، فأنا فرانتس ريتر الذي كان يحلم وهو طفل، بأن يصير ساعاتيًا. رغبةٌ لا يمكن البوح بها، إذ كيف أشرح للعالم، يا عزيزي توماس مان، يا عزيزي المشعوذ، أنني كنتُ في طفولتي، مولعًا بساعات اليد وساعات البندول؟ سيظنون فورًا أنني محافظٌ متزمّتٌ (أنا هكذا بالمناسبة)، ولن يُبصروا فيّ الشخص الحالم، المُبدع المهجوس بالزمن. وللوصول من الزمن إلى الموسيقى، ليس على المرء أن يخطو سوى خطوة واحدة يا عزيزي مان. هذا ما أردده لنفسي حين ينتابني الحزن. صحيحٌ أنّكَ لم تتقدم قيد أنملة في عالم هذه الآلات الميكانيكيّة السحريّة، عالم ساعات الوقواق والساعات المائيّة، إلا أنّكَ، عبر الموسيقى، أضحيتَ سيّدًا على الزمن. الموسيقى ترويضٌ للزمن، هي تأطيره وتحديده في أشكال، ما يُحيله قابلًا للاستنساخ. وكما بالنسبة إلى ساعات اليد وساعات الحائط، نحن نوّد أن يتّسم الزمن بالكمال، ألّا ينحرف عن مساره ولو لميكروثانية واحدة، هل ترى إلى أين أريد الوصول بكلامي يا دكتور مان، يا عزيزي «النوبلي»، يا منارة الآداب الأوروبيّة. جدّي من أورثني الشغف بالساعات، علّمني بكثير من الصبر والحنان حبَّ هذه الآلات البديعة، حبّ نوابضها المعدنية ودواليبها المسننة التي تُثبّت بالاستعانة بمجهر (على عكس الأوزان العموديّة، كان يقول لي، تكمن صعوبة النابض الدائري في أنه يُصدِر عند بداية الإرتخاء طاقة أكبر من التي يُصدرها عند نهايته؛ علينا إذًا أن نحدّ من نطاق امتداده لكن من دون إتلافه كثيرًا). إن حماستي الساعاتيّة حتّمت عليّ دراسة الموسيقى، حيث ثمّة أيضًا نوابض وأثقال موازِنة، أوزان وضبط إيقاعات، فها هو ذا هدف استطرادي الطويل، أنا لا أكذب إذًا على سارة - ليس فعلًا - حين أقول لها إن دراسة علم الموسيقى كانت مُقدَّرة لي - هذا العلم الذي هو للموسيقى كصناعة الساعات للزمن.

آه يا دكتور مان! أراكَ تعقد حاجبيك، أنتَ لم تكن أبدًا شاعرًا. أجل، لقد كتبتَ «فاوستوس»، العمل الذي يروي قصّة الموسيقى، الجميع يعترف لك بهذا الإنجاز، عدا ذاك المسكين شونبرغ الذي يُقال إنه كان يحسدك كثيرًا على ذلك. يا لهؤلاء الموسيقيين! لا شيء يرضيهم. ذواتهم مُتضخّمة مُتورّمة. تقولُ إن شونبرغ هو نيتشه زائد مالر، تقولُ إنه نابغة لا يُضاهى، لكنّه لا يكفّ عن التذمّر. لا شكّ في أنه يتذمَّر من أنك لم تَدْعُه أرنولد شونبرغ، بل أدريان ليفركون[1]. ربّما كان سيُسرّ كثيرًا لو أنك خصصت له ستمئة صفحة من الرواية، وأربع سنوات من جهدك وعبقريّتك، وأنتَ تدعوه باسمه، شونبرغ، حتّى لو أن أدريان ليفركون لم يكن فعلًا هو، بل نيتشه مُتخيَّلًا، قارئًا لأدورنو وأبًا لولدٍ ميت. بالطبع كان هذا النيتشه الذي ابتكرته مصابًا بداء الزهري، مثله مثل شوبرت وهوغو فولف. يا دكتور مان، ليس في نيّتي إغاظتك، لكن يبدو لي أن ثمة شيء من المبالغة في قصّة الماخور هذه. ألا ترى حالتي أنا؟ في إمكان المرء أن يُصاب بداءٍ في غاية الإكزوتيكية من دون أن يقع في حبّ مومسٍ مهمّشة بلغت الحضيض بعد التقاطها مرضًا خلال مزاولة مهنتها. يا لها من قصّة مُرعِبة! هذا الرّجل الذي يلحق المرأة التي يعشق إلى ما بعد الماخور، فيضاجعها مُدركًا أنه سيلتقط البكتيريا المخيفة التي تُعشش في جسدها. لعلّ هذا سبب حُقْد شونبرك عليك، زعمُك الموارب أنه مصابٌ بالزهري. تخيّلْ ما آلت إليه حياته الجنسية بعد صدور «الدكتور فاوستوس»، يا له من مسكين! تخيَّلْ الارتياب الذي انتاب النساء اللواتي كان يقيم معهنّ علاقات. طبعًا أنا أبالغ، فما من أحدٍ راودته مثل هذه الأفكار. في تصوُّرِكَ، المرضُ نقيضُ

(١) الشخصيّة الرئيسيّة في «الدكتور فاوستوس».

«الصحّةِ» النازيّة. تبنّيكَ للجسد المريض والعقل المريض تصدٍّ مباشر لأولئك الذين قرّروا تصفية جميع المصابين بعاهات نفسية وجسديّة في أولى غرف الغاز. أنتَ مُحقٌّ في ذلك. لكن كنتَ تستطيع أن تختار مرضًا آخر، السلّ مثلًا. أعذرني، إذ أعلم أن ذلك كان مستحيلًا. فالإصابة بداء السلّ - وحتى لو لم تكن قد كتبتَ «الجبل السحري» - تفترض عزل المرضى عن المجتمع، جمعهم معًا في مَصَحَّات مجيدة، في حين أن الزهري لعنةٌ تبقى طي الكتمان، مرضٌ من أمراض العزلة التي تبري جسد المرء وروحه في الخفاء. السلّ والزهري: هو ذا تاريخ الفنّ الأوروبي - الحيّز العامّ والاجتماعي: السلّ؛ الخفاء والعار: الزهري. بدلًا من الـ«ديونيسي» والـ«أبولوني»، أقترح استخدام هذين التصنيفَيْن لدراسة الفنّ الأوروبي. رامبو: السلّ. نيرفال: الزهري. فان غوغ؟ الزهري. غوغان؟ السلّ. روكرت؟ الزهري. غوته؟ مسلول كبير بكل تأكيد! ميشيل أنجلو؟ مسلول بشكل مريع. بروست؟ الزهري. بيكاسو؟ السلّ. هسه؟ صار مسلولًا بعد فترة من الإصابة بالزهري. روث؟ الزهري. إن النمساويين عمومًا مصابون بالزهري، عدا شتيفان تسفايغ طبعًا، فهو أنموذج المسلول. أُنظرْ إلى توماس برنهارد: مُصاب بالزهري بشكل رهيب ومطلق، وبالرّغم من مرضه الرئوي. موزيل: الزهري. بيتهوفن؟ آه، بيتهوفن. لقد تساءل البعض ما إذا كان سبب صمم بيتهوفن إصابته بالزهري، مسكينٌ بيتهوفن، لقد شخّصوا لديه جميع الأمراض بعد مماته. التهاب الكبد، تشمّع الكبد نتيجة إدمان الكحول، الزهري، إن الطبّ يُنكّل بالرجال العظماء، ما من شكّ في ذلك. يُنكّل بشومان، ببيتهوفن. هل تعلم ما قتله يا دكتور مان؟ هل تعلم ما نعرفه نحن اليوم من مصدر موثوق إلى حدّ ما؟ الرصاص. التسمم بمادة الرصاص. أجل يا سيّدي. لا داء الزهري ولا تشمّع

الكبد ولا من يحزنون. ومن أين جاء الرصاص؟ أتحدّاك أن تحزر. من الأطباء. هي العلاجات الشنيعة والعبثيّة التي لجأ إليها هؤلاء الدجّالون ما قتل بيتهوفن، وما أصابه بالصمم أيضًا على الأغلب. أمرٌ مُروِّع، أليس كذلك؟ لقد ذهبتُ مرّتين إلى بون. المرّة الأولى حين كنتُ طالبًا في ألمانيا. ثمّ مرّة ثانية في الآونة الأخيرة، لإلقاء محاضرة عن الشّرق في أعمال بيتهوفن، خاصة في مقطوعته «أطلال أثينا»، فالتقيت حينذاك بشبح صديقي بيلغر. لكن هذه قصّة أخرى. هل سبق لك أن رأيت أجهزة بيتهوفن السمعيّة المعروضة في «بيت بيتهوفن» في بون؟ مخيفة إلى أقصى الحدود. مطارق ضخمة، علبٌ معدنيّة كتلك التي تُحفظ فيها المواد الغذائيّة، مُثبّتة على أنابيب طويلة يتهيّأ للمرء أنه لا يمكن إمساكها سوى بكلتا اليدَيْن. آه، ها هو العمل الرقم ١١١! في البداية، نحن لا نزال في السوناتا. ليس ثمّة من وداع بعد. الحركة الأولى بكاملها مبنيّة على المفاجآت والتفاوت: الافتتاحيّة المهيبة على سبيل المثال. يتهيّأ لنا أننا استقللنا قطارًا فيما هو يتحرّك، أننا فوّتنا على أنفسنا شيئًا ما؛ نَدخُل إلى عالمٍ بدأ دورانه قبل ولادتنا، ونشعر بشيء من الضياع نتيجة التآلف السُباعي الناقص - إن هذه النوتات العالية أعمدةُ معبد قديم. رواقُ كونٍ جديد، رواقٌ ذو عشرة موازين موسيقيّة نَصِل عبره إلى مقام «دو صغير»، القوّة والهشاشة في الوقت عينه. الشجاعة، البهجة، الأبّهة. هل مخطوطات السوناتا ٣٢ هي أيضًا محفوظة في صالات «بودمر» في بون؟ يا دكتور مان، أعلَم أنّكَ التقيت بهانز كونراد بودمر الشهير. أكبرُ جامعٍ لممتلكات بيتهوفن. لقد جمع بصبرٍ كلّ شيء، اشترى كلّ شيء بين عامي ١٩٢٠ و١٩٥٠، المخطوطات الموسيقيّة، الرسائل، الأثاث، الأغراض الأكثر تنوّعًا؛ كان يملأ بها الفيلا التي يملكها في زيورخ، ويُريها للعازفين الكبار الذين يحلّون عليه ضيوفًا مثل

باكهاوس وكورتو وكزال. بوساطة مبالغ هائلة بالفرنك السويسري، أعاد بودمر ترميم بيتهوفن كما يُرمَّم إناء خزفي قديم ومكسور. أعاد لصق ما تبعثر طوال مئة سنة تقريبًا. هل تعلم أي غرضٍ من بين جميع هذه الأغراض يؤثّر فيّ أكثر من غيره يا دكتور مان؟ مكتب بيتهوفن؟ ذاك الذي امتلكه شتيفان تسفايغ وكتب عليه معظم كتبه وباعه أخيرًا، مع مجموعة مخطوطات، لصديقه بودمر؟ كلا. صندوق الكتابة الذي كان يستخدمه خلال سفره؟ سمّاعاته؟ كلا. بوصلته. كان بيتهوفن يملك بوصلة. بوصلة نحاسًا صغيرة، نستطيع رؤيتها إلى جانب عصاه خلف إحدى واجهات العرض. بوصلة جَيْبٍ مستديرة ذات غطاء، تُشبه كثيرًا النماذج الراهنة في ما يبدو لي. ميناءٌ جميلٌ مُلَوَّن مع وردة رياح بديعة. نعلم أن بيتهوفن كان يعشق المشي. لكنّه كان يمشي حول فيينا شتاءً، وفي ضواحيها الريفيّة صيفًا. لم يكن بحاجة إلى بوصلة حتّى يغادر غرنتسينغ أو يهتدي إلى حديقة «أوغارتن» - هل كان يحمل معه هذه البوصلة خلال نزهاته في غابات فيينا، أو حين كان يمشي وسط الكروم وصولًا إلى ضفاف الدانوب في كلوسترنيبورغ؟ هل كان يُخطط لرحلة طويلة؟ إيطاليا ربّما؟ اليونان؟ هل أقنعه هامر-بورغشتال بالسفر إلى الشّرق؟ كان هامر اقترح على بيتهوفن تلحين نصوصٍ «شرقيّة»، نصوص من تأليفه، إضافة إلى أخرى مُترجمة. لم يوافق المُعَلّم على ذلك بتاتًا على ما يبدو. فليس من أعمال «شرقيّة» لبيتهوفن عدا «أطلال أثينا» التي كتب نصّها كوتسيبو المريع. ثمة فقط البوصلة. أمتلك نسخة مُطابقة عنها - أو على الأقّل نموذجًا مشابهًا. نادرًا ما تتاح لي فرصة استخدامها. أعتقد أنها لم تغادر أبدًا هذه الشّقة. هي لا تزال تُشير إلى الاتجاه ذاته إذًا، إلى أبد الآبدين، لا تتحرّك عن رفّها، غطاؤها مُغلق. عقربها المزدوج، الأحمر والأزرق الذي تحته قليلٌ من الماء، تجذبه

بلا كلل القوّة المغناطيسيّة، فيُشير دومًا إلى الشّرق. لطالما تساءلت أين عثرت سارة على هذا الغرض العجيب. إن بوصلتي البيتهوفنيّة تُشير إلى الشّرق. ليس الميناء فقط، لا، لا، فما إن تحاول تحديد وجهتك حتّى تعي أن هذه البوصلة تُشير إلى الشّرق وليس إلى الشمال. بوصلة لتدبير المكائد الهزليّة. لقد لهوت بها كثيرًا، غير مُصدّق، قمت بعشرات المحاولات، عند نافذة المطبخ، عند نافذة الصالون، عند نافذة غرفة النوم، هي بالفعل تُشير إلى الشّرق. كانت سارة تُمسك بطنها من شدّة الضحك وهي تراقبني أدير هذه البوصلة في جميع الاتجاهات. قالت لي: «هل عثرتَ إذًا على وجهتك؟». كان ذلك مستحيلًا تمامًا بواسطة هذه الأداة. كنتُ أستدير نحو وجهة كنيسة «فوتيف»، فيَثْبُت العقرب سريعًا ويجمد في مكانه، ثمّ أدير العجلة حتّى يصبح الحرف الـ N تحت العقرب، إلا أن السَّمْت كان يُعلمني أن كنيسة «فوتيف» هي في اتجاه الشّرق بدلًا من الشمال. هي بكل بساطة كاذبة، لا تعمل كما ينبغي. كانت سارة تنفجر ضاحكةً، مسرورة جدًّا بدُعابتها، أنتَ لا تُجيد حتّى استخدام بوصلة! لقد قلت لكَ إنها تُشير إلى الشّرق! وبالفعل - يا للعجب! - ما إن نضع حرف الـ E تحت العقرب بدلًا من الحرف الـ N حتّى يعود عندها كلّ شيء إلى مكانه وكأن في الأمر نوعًا من السحر: يُضحي الشمال في الشمال، والجنوب في الجنوب، وكنيسة «فوتيف» على طرف جادّة «الرينغ». لَمْ أفهم كيف كان ذلك ممكنًا - بفعل أيّ شعوذة كان ثمّة بوصلة تُشير إلى الشّرق وليس إلى الشمال؟ المغناطيسيّة الأرضيّة تتمرد على مثل هذه الهرطقة، إن هذا الغرض يُستخدم في طقوس السحر الأسود! كانت عينا سارة تدمعان من شدّة ما كان ارتباكي يُضحكها. أبت أن تقول لي أين الخدعة. كنتُ مستاءً للغاية، أدير وأدير هذه البوصلة اللعينة في جميع الاتجاهات. لكن المُشعوذة

المسؤولة عن هذا السحر (أو أقلّه عن شرائه: فحتّى أعظم السحرة يشترون خدعهم) أشفقت أخيرًا على مُخيّلتي الفقيرة، فأسرّت إليّ أن ثمة في الواقع عقربَيْن نفصلهما قطعة من الكرتون؛ كان العقرب الممغنط تحتها، غير مرئي، أما العقرب الثاني، فمثبّتٌ بالأول ويُشكّل زاوية من تسعين درجة مع المغناطيس، فيشير دائمًا، بطرفيه، إلى الشّرق والغرب. ما فائدة ذلك؟ فعدا أن يكون اتجاه براتيسلافا أو ستالينغراد مباشرة أمام عينيكَ من دون اللجوء إلى أي عمليّة حسابية، لم أكن أرى جدوى ذلك.

- أنتَ تفتقر إلى الشاعريّة يا فرانتس. ففي حوزتكَ الآن واحدة من البوصلات النادرة التي تُشير إلى الشّرق، بوصلة حكمة الإشراق، بوصلة السهروردي. عصا ساحرٍ صوفي.

لا بد أنكَ تتساءل يا عزيزي السيّد مان، ماذا يجمع بين السهروردي، هذا الفيلسوف الفارسي الكبير الذي عاش في القرن الثاني عشر ميلادي وقُطِع رأسه في حلب بأمرٍ من صلاح الدّين، وبين بوصلة بيتهوفن (أو أقلّه تلك النسخة المسحورة عن هذه البوصلة). السهروردي الذي ولد في بلدة سهرورد، في شمال غربي إيران، والذي اكتشفه الأوروبيون (والإيرانيّون أيضًا إلى حدّ كبير) بفضل هنري كوربان (هل أخبرتُك عن مقاعد كوربان الجلديّة التي كنّا نجلس عليها في إيران ونحن نأكل الفستق؟)، هذا المختّص بهايدغر الذي انتقل إلى الإسلام، فكرّس للسهروردي وأتباعه مجلدًا كاملًا من عمله الكبير «عن الإسلام في إيران». لا شكّ في أن هنري كوربان واحدٌ من المفكرين الأوروبيين الأكثر تأثيرًا في إيران، وقد ساهمت أعماله البحثية المديدة في تجديد الفكر الشيعي وإعادة إحياء تُراثه؛ وبشكل خاص في تجديد شروحات مؤلّفات السهروردي، أحد أعظم الصوفيين ووريث أفلاطون وأفلوطين وابن سينا وزرادشت.

ففيما انطفأت شُعلة الميتافيزيقيا الإسلامية في الغرب القروسطي المظلم مع موت ابن رشد، بَقِيَت تشع شرقًا في فلسفة تلامذة السهروردي الصوفية. هذه هي الطريق التي تُشير إليها بوصلتي وفق سارة، درب الحقيقة حيث يسطع نور الشمس المشرقة. إن أوّل مُستشرق بالمعنى الدقيق للكلمة، هو ذلك الحكيم المتصوّف الذي قُطِع رأسه في حلب، شيخُ الإشراق، شيخُ أنوار الشّرق. كان صديقي الشاعر الإيرانيّ بارفيز باهارلو، المثقّف الكبير والمَرِح حتّى في حزنه، غالبًا ما يُحدّثنا عن السهروردي وعن حكمة الإشراق هذه وعلاقتها بالتراث الزرادشتي، صلة الوصل التي تربط إيران الشيعيّة الحديثة ببلاد فارس القديمة. كان يرى أن هذا التيّار الفكري أكثر راديكاليّة وإثارة للإهتمام من ذاك الذي أطلقه علي شريعتي حين دعا إلى إعادة قراءة الفكر الشيعي بوصفه سلاحًا للنضال الثوري؛ كان بارفيز ينعت التيار الأخير بـ«النهر الجافّ»، إذ إن التراث لم يكن يجري فيه، فكان يفتقر إذًا إلى الدفق الروحاني. وكان يرى أن ملالي السلطة الإيرانيّة لا يعبأون لا بهذا التيار ولا بذاك، إذ لا يقتصر الأمر على أن أفكار شريعتي الثوريّة لم تعد متداولة (فالخميني نفسه كان قد أدان فلسفته بوصفها تحديثًا مُستهجَنًا)، بل يصل إلى محو الطابع الصوفي من دين الدولة، ذلك لمصلحة نظرية ولاية الفقيه الجافّة: إن رجالَ الدّين، وإلى حين ظهور المهدي المنتظر، هذا الإمام الغائب الذي سيحقق العدالة على الأرض، هم المسؤولون عن إدراة شؤون العباد اليومية بوصفهم ممثلي المهدي ليس الرّوحيّين فقط، بل الدنيويين أيضًا. في بادئ الأمر، أثارت هذه النظرية انتقادات عنيفة من مرجعيات دينية شيعيّة كبيرة مثل آية الله الشريعتمداري الذي كان والد بارفيز من مريديه في قُم. وكان بارفيز يُضيف أن ولاية الفقيه حملت عددًا مهولًا من الناس على اختيار مهنة الدّين - زاد عدد

الملالي مئة ضعف، إذ أن الكهنوت الدنيوي يتيح ملء الجيوب على نحو أسهل بكثير (ووحده الله يعلم كم هي عميقة جيوب الملالي) من كهنوتٍ روحي يدرُّ على المرء مكافآت غزيرة في الآخرة، لكن أجره متدنٍ في دُنْيَانا هذه: تفشّت العمامات إذًا كالوباء في إيران، أقلّه قدر تفشّي موظّفي الدولة في الإمبراطورية النمساوية المجرية. ووصلت الأمور في يومنا هذا إلى حدّ اشتكاء بعض رجال الدّين من أن عدد الملالي تجاوز عدد المُصلّين في الجوامع، ومن أن هناك الكثير الكثير من الرُعاة، والقليل القليل من الخراف لجزّ صوفها، تقريبًا مثلما كنّا نجد، في فيينا نهاية الحقبة الإمبراطورية، موظّفي دوائر رسميّة أكثر بكثير من اشخاصٍ في حاجة لإجراء مُعاملات. كان بارفيز نفسه يشرح لنا أنه لم يكن يرى سببًا قد يحثّه على دخول الجامع، ذاك أنه كان يعيش في جنّة الإسلام على الأرض. وكان يقول إن التجمّعات الدّينية الحاشدة هي فقط تلك التي تتسم بطابع سياسي ويدعو إليها هذا الزعيم أو ذاك: يستأجرون عددًا كبيرًا من الحافلات لجلب السكان من جنوب المدينة، فيصعد هؤلاء على متنها والبهجة بادية عليهم، مسرورين بهذه النُزهة المجّانية وبوجبة الطعام التي ستُقدَّم لهم عقب انتهاء الصلاة الجماعيّة.

غير أن إيران الفلسفة والتصوّف كانت لا تزال حيّة، تجري كنهر جوفي تحت أقدام ملالٍ غير مبالين؛ إن دعاة العرفان، المعرفة الرّوحيّة، حافظوا على استمرارية التراث عبر الممارسة والتأويل. كما أن كبار الشعراء الإيرانيّين شاركوا في صلاة القلب هذه، صلاة ربّما غير مسموعة وسط صخب طهران، لكن خفقانها الخفيف للغاية هو الإيقاعُ الأكثر حميمية للمدينة وللبلد. من كثرة ما يلتقي بالمثقّفين والموسيقيين، يكاد المرء ينسى القناع الأسود الذي يرتديه النظام، ستار الحداد هذا الذي يسدله على كلّ شيء تطاله يده؛ يكاد يتحرر

من ظاهر الأمور ليدنو من باطنها الخفي، من حكمة الإشراق. يكاد فقط، لأن طهران كانت تُجيد أيضًا تمزيق روحكَ على حين غرّة، فتدفع بك إلى حزنٍ رمادي وتافه، حيث لا نشوة ولا موسيقى - نازيٌّ «متحف الزجاج والخزف» على سبيل المثل، ذاك المعتوه بشاربَيْه وتحيّته الهتلريّة، أو رجل الدّين الذي صادفناه في الجامعة، أستاذ لم أعد أدري ماذا، والذي راح يلومنا، نحن المسيحيين، لأننا نؤمن بثلاثة آلهة، ولأننا من دُعاة الأضاحي البشرية، ولأننا نشرب الدم: لم نكن إذًا مجرد كفّار، بل وثنيين مرعِبين بالمعنى الحرفي للكلمة. حين أفكّر الآن في الأمر، أعتقد أنها كانت المرّة الأولى التي نعتني فيها أحدٌ بـ«مسيحي»: المرّة الأولى التي أشار فيها أحدٌ إلى معموديّتي ليُحقِّرني، مثلما كانت حادثة «متحف الزجاج والخزف» المرّة الأولى التي فُرِضت عليّ فيها صفة ألماني من أجل ضمّي إلى صفوف الهتلريين. إنه عنفُ الهويّة التي يُلصقها بك الآخرُ ويُدينك بواسطها، عنفٌ كانت سارة تشعر به أكثر مني بكثير. في إيران، كان عليها أن تبقي كنيتها طيّ الكتمان: فحتى لو أن الجمهورية الإسلامية كانت تحمي رسميًا اليهود الإيرانيّين، فإن جاليتهم الصغيرة التي تعيش في طهران منذ أربعة آلاف سنة كانت عرضة للمضايقات والشُبُهات؛ وكان أحيانًا يتم توقيف هؤلاء القلّة القليلة التي تبقّت كالفتات من عهد الأخمينيين، فيُعذَّبون ويُشنَقون بعد محاكمات مدوية أقرب إلى طقوس الشعوذة القروسطية منها إلى العدالة الحديثة، إذ يتّهمونهم مثلًا - وهي واحدة من آلاف التهم العجيبة الأخرى - بالمتاجرة بالأدوية المغشوشة ومحاولة تسميم مسلمي إيران تنفيذًا لمخطط جهنمي وضعته إسرائيل بالطبع التي ما إن تأتي على ذكرها في طهران حتّى يُخيَّل إليكَ أنك استحضرت وحوش وقصص الأطفال وذئابها. وحتى لو أن سارة لم تكن في الواقع يهودية ولا حتّى كاثوليكية، كان عليها أن تحتاط

(نظرًا إلى السهولة التي كانت الشرطة تُفبرك بها الجواسيس) وتُخفي صِلاتها القليلة بهذا الكيان الصهيوني الذي لا يكفّ الخطاب الرسمي الناري، عن الدعوة اليومية إلى تدميره.

لهوَ أمرٌ غريبٌ اليوم في أوروبا أننا نُطلق بسهولة كبيرة صفة «مسلم» على كلّ من يحمل كنية أصلها عربي أو تركي. عنفُ الهويات الإلزامية.

آه، تكرار اللحن للمرّة الثانية! يجب الإصغاء إليه بواسطة عدسة مُكبِّرة. يمّحي كلّ شيء. يتلاشى كلّ شيء. نسير في أراضٍ عذراء. يندثر كلّ شيء. ينبغي الإقرار أن في مقدور الصفحات التي كتبتَها عن السوناتا ٣٢ لبيتهوفن، إثارة حسد علماء الموسيقى يا عزيزي توماس مان. كرتزشمار، هذا المُحاضِر الذي يُعاني من التأتأة، والذي يزعق مُحاضراته وهو يعزف على البيانو. يا له من شخصيّة! مصابٌ بالتأتأة يتكلم عن أطرش. لماذا ليس من حركة ثالثة في هذه السوناتا؟ أودُّ أن أشرح لك نظريّتي الخاصة. إن هذه الحركة الثالثة الشهيرة موجودة بشكل باطني. حاضرةٌ بغيابها. هي في السماوات، في الصمت، في المستقبل. وبما أننا نرتقب قدومها، فهي تكسر ثنائيّة المواجهة بين الحركتَيْن الأوليين. لو كنا نستطيع سماعها، لأيقنا أن هذه الحركة بطيئة. بطيئة، بطيئة للغاية أو سريعة للغاية إلى حدّ أنها تبقى في حالة من التوتّر اللانهائي. في المحصّلة، نحن أمام المسألة نفسها التي يطرحها علينا ذاك الإئتلاف الموسيقي الذي يفتتح أوبرا «تريستان وإيزولده». المزدوج، المُبهَم، الغائم، المُتلاشي. الهارب. الـ«فوغا»[1]. لقد أشار بيتهوفن نفسه إلى هذه الدائرة

(١) الـ«فوغا» (Fugue) نوع من الموسيقى الكلاسيكية؛ باللاتينيّة، «فوغا» تعني هروب.

الزائفة، إلى هذه العَوْدَة المستحيلة، منذ بداية المقطوعة، في هذه الافتتاحية المهيبة التي استمعنا إليها منذ حين. هذا التآلف السُباعي الناقص. وَهْمُ المقام الموسيقي المُرتَقَب، آمال البشر التي تضيع عبثًا وتُخيّبها الأقدار بمنتهى السهولة. ما نعتقد أننا نسمعه، ما نعتقد أننا نرتقبه. إن الأمل العظيم بالانبعاث من الموت، الأمل بالحب وبالعزاء، لا يليه سوى الصمت. ليست هناك حركة ثالثة. أليس هذا مرعبًا؟ أنَّ الفنَّ والفرحَ، الملذات والآلام، مجرّد جلبة تتردّد في الفراغ؟ أنَّ كلّ هذه الأمور التي لا تُقدَّرُ بثمن، الـ«فوغا» والسوناتا، هي هشّةٌ للغاية، يُفتّتها الزمن؟ أنْصِتْ إلى نهاية هذه الحركة الأولى، إلى عبقرية هذه الخاتمة التي تبقى مُعلّقة في الهواء بعد هذه الدرب التناغمية الطويلة - حتّى الفاصل بين الحركتَيْن مُبهمٌ مُلتبس. من الـ«فوغا» إلى التنويعات، من الهروب إلى التحوُّل والتعقيد. يتواصل اللحن على إيقاعٍ مُفاجئ، مسيرةٌ نحو بساطة اللاشيء. وهمٌ أيضًا هو الجوهرُ؛ لا يمكننا اكتشافه في التنويعات، ولا تحديده بواسطة الـ«فوغا». نظنّ أن الحبّ قد لمسنا، فنجد أنفسنا نتدحرج من أعلى سلالمِ عجيبة، لا نفضي سوى إلى نقطة بدايتها - لا إلى الجنّة، ولا إلى الجحيم. إن عبقريّة هذه التنويعات، ولا شك في أنّك ستوافقني على ذلك يا دكتور مان، هي في الانتقال من تنويعة إلى أخرى: هنا الحياة، الحياة الهشّة، في الصلة التي تربط بين جميع الأشياء. الجمالُ هو العبور، هو التحوُّل، هو المراوغات التي يلجأ إليها كلّ ما هو حيّ. إن هذه السوناتا تنبض بالحياة، تحديدًا لأنها تنتقل من الـ«فوغا» إلى التنويعة وتفضي إلى اللاشيء. «في اللوز- ماذا يوجد في اللوز؟ اللاشيء. إنهُ يقفُ ويقف». طبعًا أنتَ تجهل أبيات بول سيلان هذه يا دكتور مان، إذ كنتَ في قبرك وقت صدورها.

لا شيء
كنا، نكونُ، سنبقى
مزهرين:
زهرة *اللاشيء*،
زهرة *اللا أحد*.

كلّ شيء يفضي إلى هذه الحركة الثالثة الشهيرة، بصمتٍ عظيم، زهرة اللاشيء، زهرة اللا أحد.

لكنني أهدر وقتكَ يا عزيزي توماس مان، إذ أعلمُ أنّكَ من رأيي ولا داعي لإقناعك بأي شيء. هل يُزعجكَ إن أطفأتُ الراديو؟ بالمُحصّلة، إن الإستماع إلى بيتهوفن يصيبني بالحزن، بخاصةً الاستماع إلى هذا المقطع الذي لا ينتهي، تمامًا قبل التنويعة الختامية. بيتهوفن يُحيلني إلى العدم؛ إلى بوصلة الشّرق، إلى الماضي، إلى المرض وإلى المستقبل.

الحياة تنتهي هنا بنغمة قرار[1]؛ تنتهي ببساطة، برقّة، بـ «دو كبير»، بتآلف موسيقي أبيض يليه ربع تنهيدة. ثمّ اللاشيء.

المُهِمّ ألّا نضيع وجهة الشّرق. لا تضيع الشّرق يا فرانتس. أطْفِئ الراديو وكُفّ عن مخاطبة شبح الساحر توماس مان بصوت عالٍ. توماس مان صديق برونو فالتر. صديقه حتّى المنفى، صديقه لخمسٍ وثلاثين سنة. توماس مان، برونو فالتر وقضيّة فاغنر. هذه الورطة الدائمة التي اسمها فاغنر. برونو فالتر تلميذ مالر؛ لقد طردته

(١) نغمة القرار هي أوّل درجة في سُلَّم موسيقي مُعيّن.

أخيرًا بورجوازية ميونخ من منصبه كقائد أوركسترا بذريعة أنه يهوديٌ يُلوّث الموسيقى الألمانية. لم يكن يُمجِّد فاغنر بما فيه الكفاية. سيصبح في الولايات المتحدة أحد أعظم قادة الأوركسترا في التاريخ. لماذا يثير فاغنر ثائرتي هذه الليلة؟ لعله تأثير بوصلة بيتهوفن، تلك التي تُشير إلى الشّرق. فاغنر هو الظاهرُ، الغربُ المشؤوم حيث الجفاف. هو يعترض مجرى الأنهار الباطنية. فاغنر سَدٌّ تسبّب بفيضان جدول الموسيقى الأوروبية. لقد أوصد كلّ شيء، أغلقه بإحكام. دمّر الأوبرا. أغرقها. صار «الفنّ الشامل» الذي نظَّر له فنًّا شموليًا. ماذا في حبّة اللوز التي في حوزته؟ الكلّ الكامل. سراب الكلّ الكامل. الغناء، الموسيقى، الشعر، المسرح، الرسم، الديكور، الأجساد والممثلون وحتّى الطبيعة مع نهر الراين والأحصنة. فاغنر هو الجمهورية الإسلامية. بالرّغم من اهتمامه بالبوذية، بالرّغم من ولعه بشوبنهاور، اختزل فاغنر كلّ هذه الغيريّة وأعادها إلى الذات المسيحيّة. لقد تحوّلت الأوبرا البوذيّة «المنتصرون» إلى «بارسيفال»، أي إلى أوبرا مسيحيّة. وحده نيتشه من استطاع أن يبقى بعيدًا من هذا المغناطيس. وحده من أدرك مدى خطورته. فاغنر: مسلول. نيتشه: مُصابٌ بالزهري. نيتشه المُفكّر، الشاعر، الموسيقي. كان نيتشه يريد انتشال الموسيقى من اكفهرار فاغنر وضبابيته، حتّى تُشرِق عليها شمس المتوسط من جديد. كان يحبّ فائضَ حيويّة «كارمن»، إكزوتيكيةَ موسيقى بيزيه. كان يحبّ. كان نيتشه يرى الحبَّ في بحر مدينة رابالو وقت الغروب، في أنوار الساحل الإيطالي المتوارية حيث يتلاشى الأخضر الداكن في اللون الفضّي. لقد أدرك نيتشه أن مسألة فاغنر لم تكن القمم الشاهقة التي استطاع الأخير بلوغها، بقدر ما كانت إستحالة خلافته، موت إرثٍ لم تعد الغيريّة تبثّ فيه (في الذات) الحياة. الحداثة الفاغنرية

المريعة. «الانتماء إلى فاغنر ثمنه باهظ». لقد أراد فاغنر أن يكون صخرة معزولة، فدفع بقوارب أتباعه نحو الشِعاب.

يرى نيتشه أن العودة إلى المسيحيّة في أوبرا «بارسيفال» شيءٌ كريه لا يُطاق. هو يكاد يعتبر عثور بارسيفال على الكأس المقدسّة إهانةً شخصيةً له. الانغلاق في الذات، في الوهم الكاثوليكي.

فاغنر بليّة أصابت الموسيقى، يقول نيتشه. مرضٌ. عصابٌ. أما العلاج، فهو «كارمن»، والبحر الأبيض المتوسط، والشّرق الإسباني. المرأة الغجرية. أسطورة حبٌ تختلف كثيرًا عن أسطورة تريستان. ينبغي تهجين الموسيقى، هذا مقصد كلام نيتشه. لقد حضر نيتشه حوالى عشرين عرضًا لأوبرا «كارمن». الدم، العنف، الموت، الثيران؛ الحب كمصيبة قدريّة، كتلك الوردة التي يرمونها لك، فيُكتب عليك العذاب. تلك الوردة التي تذبل وتجف معكَ في السجن، لكن من دون أن نفقد أريجها. حبٌّ وثني. ماساوي. بالنسبة إلى بيزيه، الشّرق هو إيطاليا - هو صقلّية، حيث اكتشف جورج بيزيه الشاب، الفائز بجائزة روما، أثر المغاربة، السماوات الملتهبة بالعشق، أشجار الليمون، المساجد التي صارت كنائسَ، والنساء المكتسيات بالسواد مثل بطلات قصص ميريمه[1]، ميريمه نفسه الذي كان نيتشه مولعًا بكتاباته. في إحدى رسائله (تلك المُسماة «رسالة السمكة الطائرة»، حيث يقول إنه «يحيا حياةً غريبة على قمم الأمواج»)، يشرح العرّاف ذو الشوارب الكثّة والمتدلّية أن الاتّساق والتماسك التراجيديّيْن في قصّة ميريمه قد انتقلا إلى أوبرا بيزيه.

تزوّجَ بيزيه بيهوديّة وابتكر غجريّةً. تزوّج بيزيه بابنة فرومنتال

---

(١) بروسبير ميريمه (١٨٠٣ - ١٨٧٠) كاتب ومؤرخ وعالم آثار فرنسي، مؤلّف قصة «كارمن» التي اقتبس عنها بيزيه الأوبرا ذات العنوان نفسه.

هاليفي، مؤلّف «اليهوديّة»، الأوبرا الأكثر عرضًا في باريس حتّى ثلاثينات القرن العشرين. يُحكى أن بيزيه مات وهو يقود أوركسترا «كارمن»، خلال المشهد المعروف باسم «ثلاثي ورق اللعب»، في اللحظة عينها التي تُردّد فيها البصّارات الثلاث: «الموت! الموت!»، فيما يكشفن الورقة المشؤومة. هل هذا صحيحٌ يا تُرى؟ ثمّة شبكة كاملة من الغجريات المُميتات في الأدب والموسيقى، من شخصيّة مينيون الخُنثى في رواية «فلهلم مايستر» لغوته وصولًا إلى كارمن ومرورًا بإزميرالدا الشيطانيّة في «أحدب نوتردام» - خلال سنوات مراهقتي الأولى، كنتُ أرتعب من رواية «إيزابيلا المصرية» لأخيم فون أرنيم، زوج بيتينا برينتانو؛ لا أزال أذكر بدايةَ هذا النص القاتمة، عندما تُشير الغجريّة العجوز للشابّة بيلا إلى نقطة في أعلى الهضبة وهي تقول لها إنها مِشنَقةٌ على مقربة من جدول ماء؛ والدكِ هو المشنوقُ فوق. لا تبكي، تقول لها، سنذهب هذه الليلة لنرمي جسده في النهر لكي يعود إلى مصر؛ خُذي طبق اللحم هذا وكأس النبيذ، وأقيمي وليمة جنائزيّة على شرفه. وكنتُ أتخيّل الشابة تحت ذاك القمر الصارم، تتأمل في البعيدِ المشنقةَ المتدلية منها جثة والدها؛ كنتُ أراها لوحدها، تأكل اللحم وتشرب النبيذ فيما تُفكّر في زعيم الغجر، ذلك الأب الذي سيكون عليها أن تُحرّر جثّته من المشنقة لتُسلمها إلى النهر، نهر جارف جبّار بمقدوره إعادة الأجساد إلى الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسط، إلى مصر، أرض الموتى والغجر، ولمخيّلتي التي كانت لا تزال طفولية، كانت جميع مغامرات بيلا اللاحقة والمُرعبة، خَلْقُ ذاك المسخ الذي هو رجل مُصغَّر، لقاء كارلوس الخامس، كان كلّ ذلك بمثابة لا شيء مقارنة بتلك البداية المُروِّعة، جثّة زعيم الغجر ميشال وهي تتأرجح في الليل، في أعلى غابةِ العدالة، الطفلةُ لوحدها، تأكل اللحم وتشرب

النبيذ. بيلا، أكثر من كارمن، هي غجريّتي أنا: إن المرّة الأولى التي اصطحبني فيها والدَيّ إلى دار أوبرا فيينا - طقس عبور لكلّ أبناء البورجوازية - كانت لحضور عرضٍ لـ«كارمن» يقوده كارلوس كلايبر؛ إنبهرتُ بالأوركسترا، بموسيقى الأوركسترا، وبعدد الموسيقيين؛ إنبهرت بالمُغنيّات، بحفيف فساتينهن، وبالرقْصات الشهوانية المُلتهبة، لكنني صُدِمت بالنُطق الفرنسي المُريع لتلك الإلهات: وا اسفاه! فبدلًا من لكنة إسبانيّة مثيرة، كانت كارمن روسيّة، وميكايلّا ألمانية، كانت الأخيرة تقول للجنود «كلا، كلا، شَوْفَ أغُودُ»، ما بدا لي (كم كان عمري، إثنتا عشرة سنة ربّما) قمّة في الفُكاهة. كنتُ أتوقّع حضور أوبرا فرنسيّة تجري حوادثها في إسبانيا العنيفة والمُتَّقدة، فإذا بي لا أفهم شيئًا، لا من الحوارات ولا من الأناشيد، كان ما يخرج من أفواه المُغنّين بَرْبَرةً مريخيَّةً كنتُ أجهل آنذاك أنها أضحت، لسوء الحظّ، لغة الأوبرا في كلّ مكان. على خشبة المسرح، كان الهرج والمرج لا يُعقل، غجريات، جنود، حمير، أحصنة، أكوام من القشّ، سكاكين، حتّى أنه خُيِّل إليَّ أن ثورًا حقيقيًّا قد يثب من رواء الكواليس، فيقتله إسكاميليو (روسي هو الآخر) على الفور؛ كان كلايبر يقفز في مكانه لحثّ الأوركسترا على العزف بصوت أعلى وأعلى، دافعًا بالعازفين إلى جموح مفرط إلى حدّ أن الحمير والأحصنة، وسيقان النساء تحت الفساتين، والنهود في «الديكولتيه»، أخذت تبدو مجرّد احتفالٍ قروي مُحتشم ورزين - عازفو آلة المُثلّث كانوا يخلعون أكتافهم، عازفو الآلات النحاسيّة كانوا ينفخون بقوّة مهولة فيتطاير شعر عازفي الكمان وتنانير صانعات السيجار، وكان صخب الآلات الوتريّة يطغى على نشيد المُغنّين المُرغمين على النهيق كالحمير والصهيل كالأحصنة لإيصال أصواتهم التي باتت تفتقر إلى أي نوع من الرهافة؛ وحدهم أطفال

الجوقة، «أتيْنا برفقة الحرس» إلخ، كانوا يبدون مُبتهجين بهذه المُبالغة وبهذا التكلّف، يزعقون هم أيضًا بكلّ ما أوتوا من قوّة فيما يرفعون عاليًا أسلحتهم الخشبيّة. كان عدد الأشخاص على خشبة المسرحة هائلًا إلى درجة أنني أخذت أتساءل كيف في إستطاعتهم أن يتحرّكوا من دون السقوط في حفرة الأوركسترا؛ كانت ثمة قُبّعات، وقلانيس، وورود في الشَعر، ومظلّات، وبنادق: كتلةٌ حيّة، غوغائيّة، لا شكل لها، انطباعٌ يُعزّزه في ذاكرتي (لكنّ الذاكرة تبالغ على الدوام) إلقاءُ الممثلين الذي كان يمسخ النصّ فيحيله قرقرة مَعِدةٍ عملاقة - لحسن الحظّ أن والدتي كانت قد روت لي سابقًا، بكثير من الصبر، قصّة هيام دون خوسيه بكارمن؛ أذكر تمامًا ما سألتُها، لكن لماذا يقتلها؟ لماذا يقتل المرأة التي يُحبّ؟ وإن كان يُحبّها، فلماذا يطعنها بالخنجر؟ وإن لم يعد يُحبُّها - إذ هو يتزوَّج من ميكايلّا - فكيف يمكنه أن يكرهها إلى حدّ قتلها؟ كانت هذه القصّة تبدو لي منافيّة للعقل. وكنتُ لا أصدّق أن ميكايلّا نجحت بمفردها في اكتشاف مَخْبَأ المُهرّبين في الجبل، بينما عجزت الشرطة عن ذلك. ولم أكن أفهم أيضًا كيف يسمح دون خوسيه لكارمن، في نهاية الفصل الأول، بالنجاة من الإعتقال، في حين أنه بالكاد يَعرِفُها. فهي قد شطبت بالسكّين وجه شابّة مسكينة! أيفتقر دون خوسيه إلى أيّ حسٍّ بالعدالة؟ هل كان مُجرمًا منذ البداية؟ كانت أمّي تتنهّد وتقول إنني لا أفهم شيئًا عن جبروت الحبّ. لحسن الحظّ أن جموح كلايبر أتاح لي أن أنسى النصّ وأركّز على النساء وهنّ يرقصن على خشبة المسرح، أن أتأمّل ثيابهنّ، أجسادهنّ، حركاتهنّ، أن أتوه في عالمِ من الغواية والشبق. إن تصوير الغجريات في الأدب والفن الأوروبيَّيْن هو بمثابة تأريخٍ للولع والشغف. فمنذ قصّة «الغجرية الصغيرة» لسرفانتس، جسّد الغجر غيريّةَ الرغبةِ والعنفِ، أسطورةَ حُرّيةٍ وترحالٍ - وذلك حتّى في

الموسيقى: عَبْر الشخصيّات التي يُزوِّدون بها الأوبرا، لكن عبر الألحان والإيقاعات أيضًا. في كتابه «الغجر وموسيقاهم في المجر» - وبعد مُقدِّمة كريهة من تسعين صفحة حول اليهود في الفنّ والموسيقى، مُقدّمة تفيض بمعاداة الساميّة (دومًا الحجج الفاغنريّة العبثيّة ذاتها: النفاق، الكوزموبوليتانية، الافتقار إلى الإبداع وإلى العبقرية والتعويض عنهما بالتقليد والموهبة: باخ وبيتهوفن، عبقريان؛ مقابل مايربير ومندلسون، مُقلّدان موهوبان) - يصف فرانتس ليست، في عمله هذا، الحريّة بأنها الميزة الأساس لهذا «العرق الغجري العجيب». إنّ عَقْل لِيسْت الذي ينهشه مفهومُ العرقِ ومعاداةُ الساميّة، يُغالب نفسه لإنقاذ الغجر - فإن كانوا على نقيضٍ من اليهود، يُتحِفُنا لِيسْت، فذلك لأنهم لا يكتمون شيئًا، لأنهم لا يملكون لا كتابًا مقدّسًا ولا عهدًا قديمًا؛ هم طبعًا لصوص، إذ لا يمتثلون لأي قانون، تمامًا كالحُبّ في «كارمن»، حبّ «لم يخضع يومًا لأي شريعة». إنّ أطفال الغجر يجرون وراء «شرارة الإحساس الكهربائيّة». هم مستعدّون لفعل أي شيء، لدفع أي ثمن، كي يشعروا بالتوحُّد مع الطبيعة. أكثر ما يُسعِد الغجري هو أن يغفو وسط الغابة، يُعلِمُنا فرانتس ليست، أن يتنشّق روائح الطبيعة عبر كلّ مسامه. حريّة، طبيعة، حُلم، شغف: إن غجر لِيسْت هم الشعب الرومنطيقي بامتياز. لكن الدرجة القصوى من التبصُّرِ والمحبّةِ التي يُبديها لِيسْت، هي حين ينسى فاصل العرق الذي سَجَنَ خلفه الغجر، فيشرع يعاين مساهماتهم في الموسيقى المجريّة، يدرس الألحان الغجريّة التي تُغذّي الموسيقى المجريّة - إن الملحمة الغجرية تجري في عروق هذه الموسيقى، وسوف يتحوّل لِيسْت إلى مُنْشِدٍ لهذه المغامرات الموسيقيّة. إن امتزاج موسيقى الغجر مع عناصر تترية (وهي الأصول التي كانت تُنسب آنذاك إلى المجريين الغامضين)

مثّلت ولادة الموسيقى المجرية. وعلى العكس من إسبانيا حيث لا إرث موسيقي غجري يُذكر (فالعزف البليد على غيتارٍ عتيق ورديء في أحد كهوف ساكرومونت أو في قصر الحمراء لا يُعَدُّ موسيقى، يقول)، إزدهرت، بحسبه، الألحان الغجريّة في السهول المجريّة - أتخيّلُ لِيسْت في إسبانيا، بين الآثار الرائعة والمنسيّة التي خلّفتها الدولة المُوَحّدية، أو في مسجد قرطبة، يبحثُ بولع عن الغجر لسماع موسيقاهم؛ لقد قرأ في قرطبة «حكايات قصر الحمراء» لواشنطن إيرفينغ، وسمع رؤوس بني سراج تتهاوى، تحت ضربات سيوف الجلّادين، في حوض النافورة ذات الأسود - واشنطن إيرفينغ الأميركي، صديق ماري شيلي ووالتر سكوت، أوّل من أعاد إحياء ملاحم مسلمي إسبانيا، أوّل كاتبٍ عاش لفترة في قصر الحمراء وأعاد التأريخ لحرب غرناطة. غريبٌ أن فرانتس لسيت لم يسمع شيئًا في أنغام ذلك الغيتار الرديء عدا التفاهات: غير أنه يُقرّ بأن الحظ لم يحالفه بتاتًا. المحظوظ هو دومينيكو سكارلاتي، الذي من دون شكّ وصلته، خلال إقامته الطويلة في بلاط إشبيلية الصغير بالأندلس، كثيرٌ من أصداء موسيقى المغاربة التي نقلها الغجر إلى الفلامنكو الحديث العهد آنذاك؛ أنْعَشَ هذا الهواء موسيقى الباروك وساهم، بفضل سكارلاتي الخلّاق، في تطوّر الموسيقى الأوروبيّة. إنّ الشغف الغجري الذي يعيش على هامش المجتمع، في سهول المجر وعلى الهضاب الأندلسيّة، قدّ بثّ طاقته في الموسيقى المُسماة «غربيّة» - حجرٌ إضافيٌّ في فكرة سارة حول «البُنيان المُشترَك». هنا تحديدًا يكمن تناقضُ لِيسْت: فحين يَعزل، في داخل «العرق الأبيض» حسب مفهوم غوبينو، المساهمة الغجرية، فهو بذلك يُبعِدها ويُبطل مفعولها؛ هو يعترف بهذا الإسهام، لكنّه يعجز عن تصوّره إلّا على شكل سيلانٍ قديم، تدَفّقَ من «هذا الشعب الأجنبي كاليهود» وصبّ

في مجرى الموسيقى المجريّة خلال الأزمنة الأولى: رابسودياتُ لِيِسْت تُدعى «رابسوديّات مجريّة» وليس «رابسوديّات غجريّة»... إن حركةَ الإقصاء «القومي» الواسعة النطاق هذه، إن عمليّةَ بناء الموسيقى «الألمانيّة» أو «الإيطاليّة» أو «المجريّة» بصفتها تعبيرًا عن أمّة مُعيّنة منسجمة تمامًا مع ذاتها، قد ناقضها، في الواقع، المُنظّرون لها أنفسهم. التلاعُب بالمقامات في بعضٍ من سوناتا سكارلاتي، كما التعديلات الغجريّة للسُلَّم الموسيقي (يتكلّمُ لِيسْت عن «تلألؤٍ صادمٍ وفي غاية الغرابة»)، هي ضرباتُ سكينٍ في التناغم الكلاسيكي، ضربةُ سكينِ كارمن التي حفرت صليبَ القديس أندراوس على وجوه صانعات السيجار. أستطيع أن أقترح على سارة الإنكباب على غجر الشرق، فالدراسات التي تتناولهم نادرة جدًّا: غجر تركيا وسورية وإيران - المُترحّلون والمتوطنون الذين نجدهم من الهند إلى المغرب العربي، مرورًا بآسيا الوسطى، منذ عهد الساسانيين والملك بهرام غور. الغجرُ في الشعر الفارسي القديم، أحرارٌ ومحبّون للحياة وللموسيقى؛ بهاؤهم بهاءُ القمرِ، يرقصون ويفيضون فتنةً وإغراء - هم تجسيدٌ للعشق وللرغبة. لا أعلمُ شيئًا عن موسيقاهم، هل تختلف عن موسيقى إيران أم هي، على العكس، التربة التي تنبت منها المقامات الإيرانيّة؟ بين الهند وسهول أوروبا الغربيّة، نسمع نبض دمائهم الحرّة التي تسري في لغاتهم الغامضة، في كلّ ما حملوه معهم في ترحالهم - هم يرسمون خريطة أخرى، خريطة سريّة، خريطة وطن شاسع يمتدّ من وادي السند حتّى نهر «الوادي الكبير» في إسبانيا.

لا أزال أدور في فلك الحبّ. أحرّك ملعقتي الصغيرة في الفنجان الفارغ. هل أرغبُ في المزيد من الزهورات؟ الأمر المؤكّد الوحيد هو أنني لا أشعر بالنعاس. ماذا يُحاول القدر أن يقول لي

هذه الليلة؟ أستطيع التبصير بالورق، ولاستعنتُ بأوراق «التارو» لو أنني أجيد استخدامها. «إن مدام سوسوتريس، العرّافة الذائعة الصيت، معروفةٌ بأنها أحْكَمُ امرأةٍ في أوروبا، وبأن في حوزتها ورق لعب ملعونًا»[1]. ها هي ورقتي، ورقة البحّار الفينيقي الغريق. الرّجل الشّرقي المائي المشنوق، بالمحصّلة. «اِخْشوا الموتَ غرقًا». أو عند بيزيه:

لكن إن كان لا بدّ من الموت،
إن كان القدر المشؤوم
قدّ خطّ الكلمة المروّعة،
أَعِدْ الكَرَّة عشرين مرّة
وسوف تقول الورقةُ
مجددًا: الموت!
سوف تقول ذلك
مرّة ثانية، وثالثة!
الموت مجددًا!
واليأس!
الموت أبدًا!

أن تقتُلَكَ كارمن أو مدام سوسوتريس، الأمر سيان. الحَدْس باقتراب الموت، كما في المُلاحظة الختامية، الوجيزة والبسيطة، لإحدى آخر رسائل نيتشه، العملاق ذي الشاربين الطينين،

(١) «أرض الضباع» لت. س. إليوت.

ملحوظة: سأبقى في نيس هذا الشتاء. عنواني الصيفي هو الآتي: سيلس ماريا، أعالي الأنغادين، سويسرا. لقد عزفت عن التعليم في الجامعة. أضحيت شبه أعمى، فقدت ثلاثة أرباع بصري.

كلامٌ أشبه بذاك الذي يُنقش على الأضرحة. يَصعب تخيّل أن ثمّة ليلة أخيرة، أننا فقدنا ثلاثة أرباع بصرنا. تُعدّ سيلس ماريا من أجمل المناطق الجبليّة في أوروبا. بحيرة سيلس وبحيرة «سيلفا بلانا» اللتان كان نيتشه يتنزّه حولهما. نيتشه الفارسي، نيتشه قارئ كتاب الأفيستا، آخر أو أوّل زرادشتي أوروبي؛ لقد أعماه سطوع نارِ أهورا مزدا إله النور. تتقاطع السُبُل دائمًا؛ نيتشه عاشقُ لو سالومي، لو نفسها التي ستتزوّج بالمُستشرق فريدريش كارل أندرياس، المختّص باللغات الإيرانيّة الذي كاد يَقتُلَ نفسه بضربة سكين لأنها حرمته من جسدها وألهبت شهوته إلى حدّ الجنون؛ التقى نيتشه بآنا ماري شفارتسنباخ في سيلس ماريا، حيث كان للزوجين شفارتسنباخ شاليه فاخر؛ والتقت آنا ماري شفارتسنباخ بشبح نيتشه في طهران، حيث أقامت مرّات عدة؛ إلتقت آنا ماري شفارتسنباخ بتوماس مان وبرونو فالتر من طريق إيريكا وكلاوس مان اللذين بعثت لهما تلك الرسائل المُضطربة من سورية وإيران. والتقت آنا ماري شفارتسنباخ بآرثر دي غوبينو من دون أن تُدرِك ذلك، في وادي «لار»، على بعد عشرات الكيلومترات من شمال طهران. البوصلة تُشير دومًا إلى الشّرق. في طهران، اصطحبتني سارة لزيارة هذه الأمكنة، واحدًا تلو الآخر: الفيلا في منطقة فرمانية التي أقامت فيها آنا ماري برفقة زوجها الديبلوماسي الفرنسي الشابّ كلود كلاراك، بيتٌ جميلٌ ذو أعمدة من الطراز الفارسي، له حديقة رائعة وأضحى اليوم سكنًا للسفير الإيطالي، وهو رجلٌ خلوقٌ رحّب بنا في منزله وسُرَّ حين علم أن السويسريّة الحزينة

قد عاشت هنا لفترة من الزمن - سارة تشعّ وسط ظلال الأشجار، شعرها كتلك السمكات الذهبية التي تلتمع في المياه البنيّة؛ هي سعيدة باكتشاف هذا المنزل، الإبتسامة لا تُفارق وجهها؛ أنا أيضًا سعيدٌ للغاية ببهجتها الطفوليّة إلى حدّ أنني أشعر بكياني يمتلئ بنشوة ربيعيّة قويّة كأريج ورود طهران التي لا تُعدّ ولا تُحصى. الفيلا في منتهى البهاء - الخزفيات القاجاريّة على الجدران تروي حكايات أبطال الفُرس؛ الأثاث، ومعظمه قديم، يتأرجح بين أوروبا العجوز وإيران الخالدة. لقد خضع المبنى لتعديلات وتمّ توسيعه في الأربعينات من القرن المُنصرم؛ هو مزيجٌ متناسقٌ إلى حدّ ما، من العمارة الإيطاليّة القوطيّة الحديثة والقرن التاسع عشر الفارسي. المدينة من حولنا التي غالبًا ما تبدو قاسيةً، تضحي أكثر طراوة وأنا أبصر سارة راكعةً على حافة بركة فيما يدها البيضاء تغوص في الماء الذي تكسو سطحَه الزنابق. لقائي بها هذا في إيران كان بعد أشهرٍ من مناقشة أطروحتها في باريس وزواجها؛ بعد أشهر طويلة من الغيرة، بعد دمشق وحلب وباب غرفة فندق «بارون» الذي أوصِدَ في وجهي - تلاشى الألم شيئًا فشيئًا، جميع الآلام تتلاشى، العارُ هو تخيُّلٌ للآخَر داخل الذات، تماهٍ مع نظرة الآخر، إنشطارُ الذات إلى شخصَيْن، والآن، فيما أجرجر خُفيّ نحو الصالون والمكتب، وأرتطم كالعادة بحاملة المِظلات البورسلانيّة غير المرئيّة في العتمة، أقول لنفسي إنني كنتُ حقيرًا حين عاملتها هكذا، ببرودة وجلافة، بينما كنتُ أسعى في الوقت عينه، بكلّ الأساليب المُتاحة والتي يُمكن تصوُّرها، إلى ملاقاتها من جديد في إيران، محاولًا العثور على موضوعاتِ أبحاثٍ، على مِنَح، على دعوات من معاهد، لكي أذهب إلى طهران، وكان هاجسي هذا يعميني تمامًا إلى حدّ أنني قلبت رأسًا على عقب مشاريعي الجامعيّة العزيزة كلها؛ الجميع كان يستوضحني

في فيينا: لماذا طهران؟ لماذا بلاد فارس؟ إسطنبول ودمشق، حسنًا، لا بأس، لكن إيران! وكان عليّ أن أخترع أسبابًا ملتوية وعجيبة: تساؤلات حول «معنى الإرث الموسيقي»، حول الشعر الفارسي القديم وأصدائه في الموسيقى الأوروبيّة، أو أن أجيب حاسمًا: «عليّ أن أعود إلى المصدر»، ما كان يُسكِتُ توًا الفضوليين، إذ يتأكّد لهم عندذاك أنّ الوحي قد نزل عليّ أو، في أغلب الأحيان، أن الجنون راح يعصف بي.

ها إنني قد شغّلت تلقائيًا جهاز الكمبيوتر، أعْلَمُ ما ستفعله الآن يا فرانتس، سوف تنبش قصصًا قديمة، المُلاحظات التي دوّنتَها في إيران، وتُعيد قراءة رسائل سارة الإلكترونيّة، انتَ تُدرِكُ أنها فكرة سيّئة، أنّ من الأجدر بكَ أن تشرب فنجان زهورات ثانيًا ثمّ تأوي إلى فراشك. أو صَحِّحْ إذًا، صَحِّحْ رسالة الماجستير الجهنميّة هذه حول أعمال الأوبرا الاستشراقية لغلوك.

نَفْحَةُ أفيونٍ إيراني، نَفْحَةُ ذكريات، هي نوعٌ من النسيان، نسيانُ الليل الذي يتقدّم، المرض الذي يتعاظم، العَمَى الذي يجتاحنا. ربّما هذا ما افتقر إليه صادق هدايت عندما ترك الغاز يتسرّب في شقّته في باريس عام ١٩٥١: غليونُ أفيونٍ وذكريات، أنيسٌ لوحدته؛ إن أعظمَ كاتبِ نثرٍ إيراني في القرن العشرين، الكاتب الأكثر سوداويّة، وسخريّة، وشراسة، قد استسلم أخيرًا للموت نتيجة الإرهاق؛ انكسرَ، كفَّ عن المقاومة، لم تعد حياته تبدو له جديرة بأن تُعاش، لا هنا ولا هناك - هو يمقت فكرة العودة إلى طهران بقدر كرهه للبقاء في باريس، هو يطفو، يطفو في تلك الشقّة الضيّقة التي بذل الكثير من الجهد والعناء للحصول عليها، في شارع «شامبيونيه» بباريس، مدينة الأنوار التي قلّما يُبصِرُ فيها بصيصَ نور. في باريس، يُحبُّ الحانات، والكونياك، والبيض المسلوق، فهو نباتيٌّ منذ فترة مديدة،

منذ رحلاته إلى الهند؛ في باريس، هو يُحبُّ ذكرى المدينة التي عرفها في العشرينيات، وإن هذا التباينَ الحادّ بين باريس يفاعته وباريس ١٩٥١ - بين شبابِه وعام ١٩٥١ - ألمٌ يختبره يوميًّا خلال نزهاته الطويلة في الحيّ اللاتيني، خلال سيره على غير هدى في الضواحي. هو يتردّد على (وفي القَوْل هذا شيءٌ من المُبالغة) بضعة من الإيرانيّين يعيشون مثله في المنفى؛ هم يرون أنه متعالٍ بعض الشيء، أنه يزدريهم نوعًا ما، والأرجح أنهم مُحقّون في ذلك. هو لم يعد يكتب كثيرًا. «لا أكتبُ سوى لظلّي الذي يعكسه ضوء اللمبة على الحائط؛ عليّ أن أُعَرِّف نفسي إليه». سوف يحرق نصوصه الأخيرة. ما من أحد أحبّ إيران وكرهها قدر حبّ هدايت وكرهه لها، كانت تقول سارة. ما من أحد كان أكثر دقّة في نقل لغة الشارع، في رسم أناس الشوارع، في تصوير المتزمّتين والبُسطاء والنافذين. ما من أحدٍ أجاد، في الوقت عينه، نقد إيران بهذه الوحشيّة المهولة، وتمجيدها بهذا الشكل المنقطع النظير، سوى هدايت. لعله كان رجلًا حزينًا، خاصةً في نهاية حياته، حين أضحى حقودًا وقاسيًا، لكنّه ليس كاتبًا حزينًا على الإطلاق.

لطالما أخافتني باريس مثلما أخافت هدايت؛ العنفُ الغريب الذي تَستشعرُه هناك، رائحةُ الفول السوداني الدافئة التي تعبق في محطّات المترو، عادةُ السكّان بالركض بدلًا من المشي، عيونهم مُسمّرة في الأرض تأهبًا لإطاحة كلّ ما قد يعترض طريقهم؛ الوسخ الذي يبدو أنه أخذ يتراكم في المدينة من دون انقطاع أقلّه منذ عهد نابليون؛ النهر الجليل، والمخنوق بين رصيفَيْن من الحجر بُعثِرت عليهما صُروحٌ شامخة وغير مُتجانسة. إن كلّ ذلك، تحت العَيْن الواهنة والحليبيّة لكنيسة «القلب المُقدّس»، يتبدّى لي متالّقًا بجمالٍ بودليريٍّ شنيع. باريس، عاصمة القرن التاسع عشر وعاصمة فرنسا.

لم أستطع أبدًا في باريس، التخلّص من ارتباكي، من إحساسي بأنني مجرد سائح، كما أن فرنسيّتي هناك، ومع أنني أفتخر ببلاغتها، هي دومًا في المنفى - أشعر أنني لا أفهم سوى نصف الكلمات التي ينطقون بها، بل أسوأ من ذلك، يا للعار! إذ غالبًا ما يُطلَبُ مني أن أكرر جُمَلي: منذ فيلون[1] وأواخر القرون الوسطى والجميع في باريس يتكلّم بالعاميّة فقط. لست أدري ما إذا كانت هذه السمات الباريسيّة تُبدي فيينا وبرلين مدينتَين ريفيّتَين هادئتَين أم - على العكس تمامًا - إن كانت باريس هي الغارقة في ريفيّتها وعزلتها وسط منطقة «إيل دو فرانس»، «الجزيرة الفرنسيّة» التي لعلّ إسمها هو سبب غرابة أطوار المدينة وأهلها. سارة باريسيّة أصيلة، إن كان لهذه الصفة من معنى - على أيّ حال، لقد وُلِدَتْ ونشأَتْ هناك، وهي ترى أن «ما من لسانٍ يُجيد النميمة أكثر من اللسان الباريسي»[2]. أشاطرها الرأي - عليّ الاعتراف بأن سارة، حتّى عندما يُصيبها الهزال نتيجة الإرهاق، وترتسم هالتان سوداوان تحت عينيها، ويكون شعرها أقصر من المُعتاد وكأنها قد دخلت ديرًا أو سجنًا، ويشحب لون يديها وتَبْرُز عظام رسغيها، ويصير محبسها واسعًا جدًّا يسرح ويمرح حول إصبعها، تبقى مثالًا للجمال الأنثوي. أيّ ذريعة اختلقْتُ لتلك السَفْرَة القصيرة إلى باريس، لم أعد أذكر؛ نزلت وقتذاك في فندق صغير على مقربة من ساحة «سان جورج»، وهي واحدة من تلك الساحات الرائعة التي أحالها اختراعُ السيارةِ جهنّم - ما كنتُ أجهله هو أن «على بُعْد خطوتَين من ساحة «سان جورج»» (وفق ما وَرَد في كاتالوغ الفندق الذي لا بدّ من أنني اخترته، لا شعوريًا، بسبب الوَقْع اللطيف لاسم

---

(١) فرنسوا فيلون (١٤٣١ - ١٤٦٣)، شاعر فرنسي.

(٢) بيت من قصيدة لفرنسوا فيلون.

هذا القدّيس على أذنيّ، اسم مألوف أكثر بكثير من «نوتردام دي لوريت» أو «سان جيرمان لوكسيروا» على سبيل المثل) كانت، لسوء الحظّ، تعني أيضًا على بُعْد خطوتَين من ساحة «بيغال»، مَعْلَمٌ رماديّ يزخر بالفظاعات البصريّة، حيث يمسك القوّادون ذراعكَ ليقترحوا عليك شُرْب كأسٍ في حاناتهم، ولا يطلقون سراحك إلّا بعد نَعتِكَ باللوطيّ والعاجز جنسيًا، مُتيقّنين أن هذه الإهانات سوف توقِظ رجولتَكَ. والغريبُ أن ساحة «بيغال» هذه (والشوارع المُجاورة) كانت تمتدُّ بيني وبين سارة. كانت شقّة سارة ونديم تقع فوق «بيغال» بقليل، في ساحة «دي آبيس»، في منتصف الطريق الصاعد الذي يقودكَ (آه يا باريس!) من عاهرات «بيغال» إلى رهبان كنيسة «القلب المقدّس»، ومن ثمّ - بعد أن تجتازَ التَلّ الذي نَصب عليه ثوّار «الكومونة» مدافعهم - إلى آخر منزل سَكَنَه صادق هدايت. خلال زيارتي هذه، كان نديم في سورية: أمرٌ ملائمٌ تمامًا. في طريقي لملاقاة سارة، كنتُ كلّما صعدت في هذه الشوارع التي تتحوّل معالمها، من دون سابق إنذار، من مُقزّزةٍ إلى سياحيّةٍ، ومن سياحيّةٍ إلى بورجوازيّةٍ، أدركُ أكثر أن ما زال لديّ أمل، أملٌ مجنونٌ كان يرفض البَوْح بمكنوناته، ثم، وبينما رحت أنزل السلالم الكبيرة في شارع «مون سيني» - بعد أن كنتُ تهت بعض الشيء وصادفت كرمَ عنبٍ مُدهشًا، محشورًا بين منزلَين، ذكّرتني كرماته القديمة بفيينّا ونسدورف - درجةً تلو الأخرى باتجاه مبنى البلديّة في الحيّ الثامن عشر، باتجاه فقرِ الضواحي وبساطتها اللذَين يعقبان مباشرةً أبّهة مونمارتر الصارخة، ذاب ذلك الأمل في رماديّةِ المكان الكئيبة التي كان يبدو أنها تُصيب بالحزن حتّى أشجار شارع «كوستين» المسجونة جذورها تحت تلك الشِباك الحديد، تلك الأصفاد الباريسيّة للغاية التي تُكبّلُ شراسةَ الحياة النباتيّة (لا شيء يُمثّل العقلَ الحديث قدر

هذه الفكرة الغريبة: وضعُ شِباكٍ فوق جذوع الأشجار. فمهما قيل لكَ إن الغايةَ من قِطَع الحديد المهيبة هذه حمايةُ شجرة الدلب أو الكستناء، إن هذا لمصلحة الأشجار، لتجنّب إلحاق الأذى بجذورها، تظلّ الحقيقة أنّ ما من تصوير أكثر عنفًا للصراع حتّى الموت بين المدينة والطبيعة، وما من رمزٍ أكثر تعبيرًا عن انتصار الأولى على الثانية)، وحين وصلت أخيرًا - بعد شيءٍ من التردّد، ومبنى بلديةّ، وكنيسة، ومُستديرةٍ مزدحمةٍ - إلى شارع «شامبيونيه»، كانت باريس قد أطاحت أملي. كان يمكن للمكان أن يكون لطيفًا، ساحرًا حتّى؛ كانت بعضٌ من البنايات أنيقةً بطبقاتها الخمس وعلاليها تحت سقوف من معدن التوتياء، إلا أن غالبية المتاجر كانت تبدو مهجورة؛ كان الشارع مقفرًا، مُستقيمًا، لامتناهيًا. مقابلَ منزل هدايت، كان ثمّة بيت واطئ قديم لا شكّ في أنه يعود إلى القرن الثامن العشر، مُلاصقًا لمبنى ضخم من حجر الطوب فيه مدخل موقفٍ للحافلات الباريسيّة. فيما كنتُ أنتظر سارة، كان لديّ متّسع من الوقت لتأمّل نوافذ الشقّة الرقم ٣٧ حيث قرّر هدايت أن يضع حدًّا لحياته، مشهدٌ لم يكن، تحت تلك السماء الرماديّة الباهتة، يُثير البهجة على نحو خاص. أخذتُ أفكّر في هذا الرّجل ذي الثمانية وأربعين عامًا وهو يسدُّ أطراف باب مطبخه بخرقٍ قبل أن يفتح الغاز ويستلقي أرضًا على غطاءٍ ثمّ يغفو إلى الأبد. آنذاك، كان المستشرق روجيه ليسكو أنهى تقريبًا ترجمة «البومة العمياء»، لكن دار «غراسيه» عدلت عن نشرها أو ربّما باتت تفتقر إلى الإمكانات المادية للقيام بذلك. سيُفتتن جوزي كورتي، صاحبُ المكتبة ذات الاسم عينه وناشرُ أعمال السرياليين، بهذا النصّ الذي سيَصدُر بعد سنتين من رحيل مؤلّفه. إن «البومة العمياء» حلمٌ بالموت. كتابٌ عنيف، ذو إيروسيّة متوحّشة، حيث الزمن هاوية تلفُظ محتواها كقيءٍ سامّ. كتابٌ أفيونيّ.

رأيتُ سارة تقترب. كانت تمشي بسرعة، حانيةً رأسها قليلًا فيما حقيبتها مُعلّقة على كتفها؛ لم تكن قد أبصرتني بعد. رغم المسافة بيننا، عرفتُها من لون شعرها ومن الأمل المخيف الذي راح يتسلّل مجددًا إلى قلبي ويعتصره. إنها أمامي، تنورة طويلة، جزمة قصيرة، وِشَاح عملاق أحمر ترابيّ. تُمسك بيديّ، تبتسم، تقول إنها سعيدة جدًّا لرؤيتي. طبعًا، كان لا ينبغي أن أقول لها توًّا، إنها نحفت كثيرًا وتبدو شاحبة، وإن ثمّة هالتين سوداوين تحت عينيها - لم يكن ذلك في غاية الذكاء؛ إلّا أنني فوجئت كثيرًا بهذه التحولات الجسديّة، كما أن جزعي كان يحملني على التفوّه بالترهات، فبدأ يومنا معًا - هذا اليوم الذي كنت قد خطّطت له وترقبته بلهفة وتخيّلته بأدقّ تفاصيله - بطريقة يُرثى لها. كانت سارة مستاءة - حاولَتْ ألّا تُظهر شيئًا من ذلك، وبعد أن انتهينا من زيارة شقّة هدايت (أو بالأحرى زيارة سلالم البناية، إذ رفض مستأجر الشقّة الحالي فتح بابه لنا: كان بحسب سارة التي هاتفته في اليوم السابق، مؤمنًا بالخرافات، تُرعبه فكرة أن رجلًا إيرانيًا غامضًا ربّما انتحر على أرضيّة مطبخه المُشمّعة)، وفيما كنا نصعد شارع «شامبيونيه» ثمّ شارع «دامريمون» المُفضي إلى مقبرة «مونمارتر»، وقبل أن نتوقّف لتناول الغداء في مطعم تركي، بقيَتْ هي صامتةً حانقةً في حين رحتُ أنا أغوص في ثرثرة هستيريّة - الغرقى يتخبطون، يضربون الماء بأيديهم وأرجلهم؛ كنتُ أحاول تلطيف مزاجها، أو إثارة اهتمامها على الأقل؛ أطلعتها على آخر أخبار فيينا، أو على ما يعدُّ أخبارًا في هذه المدينة التي لا يحدث فيها شيء، وانتقلتُ إلى أغاني «الليد» الاستشراقيّة لشوبرت التي كنتُ مولعًا بها آنذاك، ومن ثمّ إلى برليوز الذي كنّا سنزور قبره، وقراءتي الشخصيّة جدًّا لأوبرا «الطرواديون» - إلى أن توقّفَتْ وسط الرصيف ونظرَتْ إليّ مبتسمةً نصف ابتسامة:

- أرهقتني يا فرانتس. هذا لا يُعقل. أنتَ تتكلم من دون توقّف منذ كيلومترَين. يا إلهي كم في إمكانك أن تكون ثرثارًا!

كنتُ فخورًا بأن أحاديثي المشوّقة أنهكتها، فلم أرَ مناسبًا التوقف في منتصف الطريق:

- أنتِ محقّة، أنا أتكلّم وأتكلّم ولا أفسح لكِ مجالًا للتفوّه بحرف. قولي لي إذًا، كيف عملك؟ هل مِن تقدّمٍ في الأطروحة؟ سوف تنتهين منها قريبًا، أليس كذلك؟

إن لم يكن وقع سؤالي هو المُرتجى، كان أقلّه مُفاجئًا: تنهّدت سارة تنهيدة عظيمة، هنا، وسط رصيف شارع «دامريمون»؛ وضعَت وجهها بين كفّيْها ثمّ أخذت تهزّ رأسها ورفعت ذراعيْها نحو السماء، مُطلقةً صيحة طويلة. صرخةٌ ساخطة تستجدي بها الآلهة، توسُّلٌ مُفعمٌ بالغيظ تركني مشدوهًا، أخرسًا، مُتألّمًا، شاخصَ البصر. ثمّ سكتَت والتفتَت نحوي مُتنهدةً من جديد:

- هيا، تعالَ نتغدّ.

كان ثمة مطعم على الرصيف المُقابل؛ مطعمٌ ذو طابع إكزوتيكي، سجادٌ على الجدران، وسادات، أشياءٌ من شتّى الأنواع، عتيقة ومُغبَّرة قدر تغبُّر الواجهة الزُجاجية التي فقدت شفافيتها من فرط قذارتها؛ لم يكن من زُبُن سوانا، إذ كنّا في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا في حين أن الباريسيين الذين يتباهون بتأثّرهم بعادات جنوبيّة ويفتخرون بحريّةِ عيشٍ تفتقر إليها بقيّة شركائهم في الوطن، يتناولون غداءهم في وقت متأخّر. هذا إن حدث وتناولوه في مثل هذا المكان أصلًا. شعرتُ بأننا أوّل زبونيْن منذ أسبوع، أو ربّما منذ شهر، إلى درجة ما بدا صاحب المطعم (المُتراخي تمامًا خلف طاولة، محاولًا كسر رقمه القياسي في لعبة «تتريس») متفاجئًا برؤيتنا. كانت بشرته الشاحبة، لهجته، مزاجه العكِر، وقائمة أسماره، دليلًا قاطعًا على أنه

باريسيّ أصيل: ما من ضيافة شرقيّة، لقد شاءت المصادفات أن ندخل المطعم التركي الوحدي الذي يملكه أحد أهل البلد - لم يترك جهازه الكمبيوتر ليستقبلنا إلّا متنهدًا، وبعد الانتهاء من لعبته.

كان دوري أنا لأسكت كان قد حان، كنتُ مجروحًا في الصميم من صياح سارة السخيف. من تعتقد نفسها؟ أبْدي اهتمامًا بشؤونها، وعلامَ أحصل في المقابل؟ على زعيق ونوبة غضب طفوليّة؟ بعد بضع دقائق من هذا الصمت الناقم، وفيما كنتُ مواريًا تجهّمي خلف لائحة الطعام، اعتذَرَت أخيرًا.

- أنا آسفة يا فرانتس، سامحني، لست أدري ما انتابني. لكننا لا نستطيع أن نقول أنّكَ تُسهِّل الأمور.

(في قمّة الاستياء، بنبرةِ مُستضعَفٍ مثيرة للشفقة) - إنه أمرٌ لا يُذكر، انسي الموضوع. لنحاول بدلًا من ذلك، أن نعثر على شيءٍ يُؤكل في هذا المطعم الفاخر الذي أحضرتِنا إليه.

- في استطاعتنا أن نذهب إلى مكان آخر، إن كنتَ تُفضِّل.

(بحزم، وبشيء من النفاق) - لا نستطيع أن نُغادر بعد جلوسنا وقراءتنا لائحة الطعام . هذا لا يجوز. فكما تقولون في فرنسا: يجب شرب النبيذ إن فُتِحت القنينة.

- يمكنني أن أتذرّع بتوعّك. إن لم تُغيِّر تصرفكَ، فسوف أصاب بتوعّك.

(بمَكر؛ وجهه لا يزال متواريًا خلف قائمة الطعام) - أنتِ لست بخير؟ هذا ما قد يُفسِّر تقلّب مزاجك.

- فرانتس، سوف تنجح فعلًا بإغاظتي. سوف أغادر إن تابعت التصرّف هكذا، سوف أعود لأكمل عملي.

(بجبن وخوف وارتباك، واضعًا لائحة الطعام على الطاولة) -

كلا، كلا، لا تُغادري، قلت ذلك ممازحًا، أنا متأكد أن الطعام جيّدٌ هنا. شهيٌّ حتّى.

أخذَت تضحك. نسيْتُ ماذا أكلنا حينذاك، أذكر فقط رنّة الميكروويف التي ملأ صداها المطعمَ المقفر فورًا قبل وصول الأطباق. كانت سارة تُخبرني عن أطروحتها، عن هدايت وشفارتسنباخ والشخصيّات الأخرى العزيزة على قلبها؛ عن تلك المرايا بين الشّرق والغرب التي تريد تحطيمها، راحت تقول، بوساطة استمرارية النُّزهة. كَشْفُ جذور هذا البُنيان المُشترَك للحداثة. إظهار أن «الشّرقيين» لم يُستثنوا من ذلك، بل إنهم غالبًا كانوا مُلهمي هذا التفاعل والمبادرين إليه؛ في المحصّلة، إظهار أن نظريات إدوارد سعيد قد أضحت رغمًا عنه، أداةَ هيمنة مُلتوية في منتهى الفاعليّة: ليست المسألة ما إذا كان سعيد أصاب أم أخطأ في رؤيته للاستشراق؛ المُشكلة هي هذه الثغرة، هذا الشرخ الكياني، الذي سلّم به قُرّاؤه، بين غربٍ مُهيمِن وشرقٍ مُهيمَن عليه، شرخٌ راح يتّسع ويتخطّى العلوم الكولونياليّة، مُساهمًا في إرساء هذا الأنموذج المُبتَكَر على أرض الواقع، ومُحققًا، بأثر رجعي، سيناريو الهيمنة الذي كان سعيد يسعى إلى محاربته. في حين أنه كانت تمكننا قراءة التاريخ بطريقة مُغايرة تمامًا، كانت تقول، في حين أنه كان يمكن التاريخ نفسه أن يُكتَب بطريقة مُغايرة تمامًا، في مناخ من التفاعل والمشاركة والاستمراريّة. تحدّثَتْ طويلًا عن الثالوث المُقدّس للنظريّة ما بعد الكولونياليّة، إدوارد سعيد، هومي بابا، غياتري سبيفاك؛ عن مسألة الإمبرياليّة، عن الاختلافات بين الشعوب، عن القرن الحادي والعشرين حيث، لمواجهة العُنف، صرنا في أمسّ الحاجة إلى التخلّص من هذه الفكرة المُنافية للعقل حول غيريّة

الإسلام المُطلقة، وإلى الإقرار ليس بعنف الاستعمار المروع فقط، بل بكل ما تدين به أوروبا للشرق أيضًا - استحالةُ الفصل بينهما، ضرورة تغيير المنظور. يجب تجاوز حماقة جَلْد النفس، وتجاوز الحنين إلى عصر الكولونياليّة الذهبي أيضًا، لتكوين رؤية جديدة تَستَدْخِل الآخَر في الذات. من كلا الطرفيْن.

شكّل ديكورُ الصالةِ خلفيّةً ممتازة لحديثها: إن التجاور بين السجّاد الأناضولي المُقلّد، والأثريات المُصنّعة في الصين، والتصرّف الباريسي جدًّا لصاحب المطعم، بدا كأنه المثل الأكثر تعبيرًا عن نظريّتها.

الشّرق بُنيانٌ تخييليّ، مجموعةُ تصوّرات يستطيع من يشاء، حيثما وُجِد، أن يغرف منها ما يريد. ساذجٌ الإعتقادُ - تابعت سارة بصوتٍ عالٍ - أن صندوق الصوّر الشّرقيّة هذا حكرٌ على أوروبا. كلا. إن هذه الصُوَر، إن هذا الكنز في متناول الجميع، والجميع أيضًا يُضيف إليه صورًا جديدة، بورتريهات جديدة، ألحان جديدة. الجزائريون والسوريون، اللبنانيون والإيرانيّون، الهنود والصينيون يغرفون بدورهم من حقيبة السفر العملاقة هذه، من هذه المُخيّلة المُشتركة. سوف أعطيك مثلًا ملموسًا ومُدهشًا: يمكننا النظر إلى الأميرات المُحجّبات وبُسط الريح التي تصوّرُها استوديوات «والت ديزني» على أنها كاريكاتوريّة وتنمّ عن رؤية «استشراقيّة»؛ إلا أنها أحد التعبيرات الأحدث عهدًا عن هذا البُنيان التخييلي المُشترك. ذاك أن هذه الأفلام ليست فقط مُرخّصة ومسموحاً عرضها في المملكة العربية السعودية، بل هي تتمتّع هناك بحضور طاغٍ على الدوام. جميع الأفلام التثقيفيّة القصيرة (لتَعلّم الصلاة والصوم والعيش كمسلم فضيل) تُقلّدها وتستنسخها. إن المجتمع السعودي المعاصر والمُحتشم هو فيلمٌ لوالت ديزني. السلفيّة الوهابيّة فيلمٌ لوالت ديزني.

كما أن المخرجين الذين تستعين بهم المملكة، يضيفون صورًا على هذا المخزون الخيالي المُشترك. مثلٌ آخر، صادمٌ للغاية: قطع الرؤوس في العلن، بواسطة سيف معقوف يهوي به جلادٌ يرتدي الأبيض؛ أو أيضًا، أكثر ترويعًا، نحر العنق حتّى اقتلاع الرأس. هذا كلّه نتاج بُنيان مُشترك انطلاقًا من مصادر إسلاميّة امتزجت بكلّ صور الحداثة. الفظاعات هذه جزء من هذا العالم التخييلي الصوَري؛ هي مواصلة لتشييد البُنيان المُشترك. هي تُرعبُنا نحن الأوروبيين كأنها لا تمُتّ إلينا بصلة، كأنها الغيريّة بعينها؛ لكنّها غيريّةٌ مُخيفة بالقدر نفسه للعراقي واليمني أيضًا. حتّى ما نرفضه رفضًا مُطلقًا، ما نكرهه وننفر منه، ينتمي إلى هذا العالم التخييلي المُشترك. إن ما نراه «غيريًّا»، «مُختلِفًا» و«شرقيًّا» في عمليات قطع الرؤوس الشنيعة هذه، هو أيضًا «غيريّ» و«مُختلِف» و«شرقي» في نظر عربيٍّ أو تركي أو إيراني.

كنت أستمع إلى حديثها شاردَ الذهن، مُستغرقًا في تأمّلها. بالرّغم من هزالها والهالات السود تحت عينيها، كان وجهها ينضح بالقوّة والتصميم والحنوّ في الوقت عينه. نظراتها كانت تشعّ بلهيب أفكارها؛ صدرها كان يبدو أكثر ضمورًا من ما كان عليه قبل بضعة أشهر؛ كانت تقويرة كنزتها من الكشمير الأسود، تكشف عن طرفٍ من اللون عينه، لثوبها الداخلي الذي يَظهر خطّ حمّالته الرفيع تحت الصوف وسط الكتف. وكان النمش الذي يُبرقع بشرتها حيث العظمة الناتئة التي تتوسط قفصها الصدري، ينتشر على طول طرف ثوبها الداخلي وصولًا إلى عظمتي الترقوة اللتين يتدلّى فوقهما قرطان من أذنَيْها. كان شعرها مربوطًا مرفوعًا إلى الأعلى بواسطة مشط فضّي صغير. كانت يداها الشاحبتان اللتان تَبْرُز عروقهما الزرقاء الطويلة، تتعاركان مع الهواء وهي تُلقي خطبتها. بالكاد كانت قد تناولت شيئًا من طعامها. رحتُ أستحضر ذكريات تدمر، أفكرُ بجسدي مُلامسًا

جسدها، كنتُ أوّد أن أستلقي مُتكوِّرًا مُلتصقًا بها حتّى الزوال. كانت قد انتقلت إلى موضوع آخر: الصعوبات التي تواجهها في عملها مع جيلبير دي مورغان، الأستاذ المُشرِف على أطروحتها الذي ذكّرتني بأنني كنتُ تعرّفتُ إليه في دمشق؛ كانت تُقلِقها تقلّباتُ مزاجه ونوبات اكتئابه وإسرافه في معاقرة الخمر - خصوصًا نزْعَته المشؤومة للبحث عن الخلاص في ابتسامات طالبات السنة الأولى والثانية. كان يلتصق بهنّ كأن الفُتُوَّة عدوى يمكن التقاطها. ولم تكن جميعهن موافقات على تركه يمتصّ دمهن. صورة مصاص الدماء هذه جعلتني أبتسم ثمّ أقهقه بطريقة فيها شيء من الشبق، فوبّختني سارة بصرامة، فرانتس، هذا ليس أمرًا مُضحكًا، أنتَ ذكوري قدر جيلبير. النساء ليست أشياء، إلخ. هل كانت مُدركةً طبيعة رغبتي أنا، بالرّغم من أنها كانت رغبة مُقنّعة، متوارية خلف الدماثة والاحترام. غيّرَتْ الموضوع مرّة ثانية: علاقتها بنديم صارت أكثر فأكثر تعقيدًا. أسرّت لي أنهما تزوّجا لتسهيل قدوم نديم إلى أوروبا. بعد بضعة أشهر أمضاها في باريس، أخذ يحنّ إلى سورية؛ في دمشق وحلب، كان عازفًا مشهورًا ومرموقًا؛ أما في فرنسا، فليس سوى مهاجر إضافي. كانت سارة منهمكة للغاية في عملها على أطروحتها، فلم تستطع لسوء الحظ أن تُكرّس له إلا القليل من الوقت؛ راح نديم يمقت موطنه الجديد، وصار يُهيَّأ إليه أن العنصريين وكارهي المُسلمين مُنتشرون في كلّ مكان؛ كان يحلم بالرجوع إلى سورية، ما أتاحه له حصوله مؤخّرًا على إقامة دائمة. كانا قد انفصلا تقريبًا، قالت لي. كانت تشعر بالذنب. وكان الإرهاق واضحًا عليها؛ فجأةً، التمعت دموعٌ في عينيها. لم تكن تعي أنّ ما أفشت لي به قدّ ولّد فيّ آمالًا أنانيّة. اعتذرَتْ، حاولتُ أن أطمئنها بقَوْل تفاهة، بعد الأطروحة سيتحسّن كلّ شيء. بعد الأطروحة ستجد نفسها من دون وظيفة ولا مال ولا

مشاريع للمستقبل، قالت. كانت تنهشني رغبة مهولة في أن أصرخ لها أنني مولعٌ بها حدّ الجنون. لكن الجُمْلة هذه تحوّلت داخل فمي لتخرج منه على شكل اقتراح غريب، ربّما تمكِنُكِ الإقامة في فيينا لبعض من الوقت. صُعِقَت في بادئ الأمر، ثمّ ابتسمت، شكرًا، أنتَ لطيفٌ جدًّا. لطفٌ منكَ أن تنشغل بي. لطفٌ كبير. وبما أن السحرَ ظاهرةٌ نادرة وعابرة، لا تدوم لأكثر من برهة، قاطعنا صاحب المطعم: رشقنا بفاتورة لم نكن قد طلبناها، في وعاء صغير وشنيع من الخيزران رُسِم عليه عصفور. «بلبلى خون دلى خورد ولُى حاصل كرد، إستنزف البلبل دماء قلبه فحصل على وردة»، فكَّرتُ، لكنني لم أقل سوى «حافظ المسكين»، ففهمت سارة توًّا ما كنتُ ألمّح إليه وضحكَت.

ثم خرجنا وبدأنا سيرنا نحو مقبرة مونمارتر، لننعم هناك برفقةِ الأموات المُطَمْئنة.

الساعة الرابعة والدقيقة الثلاثين ليلًا

غريبة هي الحوارات التي تنشأ في الجغرافيا العشوائيّة للمقابر، أخذتُ أفكّر وأنا واقفٌ أمام ضريح هاينرش هاينه («أين الملاذ الأخير للجوّال التَعِب، أتحت نخيل الجنوب، أم تحت أشجار الزيزفون على ضفاف الراين؟» - لا هذا ولا ذاك، بل تحت أشجار الكستناء في مونمارتر): قيثارةٌ، ورودٌ، فراشةٌ من الرخام ووجهٌ ناعمٌ منحنٍ إلى الأمام بين عائلة مارشان والسيّدة بوينْثِر، قبران أسودان يؤطّران البياض الناصع لهاينه الذي يعلوهما كأنه حارسٌ حزين. ثمّة شبكة تمتدّ تحت الأرض وتربط القبور في ما بينها، تربط هاينه بالمؤلفَيْن الموسيقيّيْن هكتور برليوز وشارل فالنتين ألكان اللذين على مقربة منه، أو بهاليفي مؤلّف أوبرا «اليهوديّة»، هم جميعهم هنا، يؤنس واحدهما الآخر: تيوفيل غوتيه صديق «هنري هاين الطيّب» أبعد بقليل؛ ماكسيم دو كامب الذي رافق فلوبير إلى مصر ومتّع نفسه بجسد كونشوك هانم؛ أو إرنست رينان المسيحي للغاية، لا بد من أن ثمة الكثير من النقاشات السريّة تدور بين هذه الأرواح، في الليل، مُحادثات مُفعمة بالحيويّة تنقلها جذور الأشجار، حفلات موسيقيّة جوفيّة وصامتة يواظب على حضورها حشد الأموات هذا. كان برليوز يتشارك ضريحه مع حبيبته «أوفيليا المسكينة»؛ أما هاينه، فكان وحيدًا

في قبره في ما يبدو، وقد بثّت فيّ هذه الفكرة شيئًا من الحزن بالرّغم من طابعها الطفولي.

كانت سارة تطوف بين القبور كيفما اتفق وبلا هدف، تاركةً لأسماء الزمن الماضي أن تُرشِدها، من دون الاستدلال بالخريطة التي حصلنا إليها مجّانًا من مكتب الاستقبال - بطبيعة الحال، أوصلتنا خطواتها إلى ماري دوبليسيس غادة الكاميليا، وإلى لويز كوليه التي عرّفتني عليّها إذا جاز التعبير. تفاجأتُ بعدد القطط التي يمكن رؤيتها في مقبرة باريسيّة، وكأنها هنا لتكون برفقة الشعراء الأموات الذين لطالما آنستهم في وحشتهم خلال حيواتهم: ثمة هرّ ضخم بلون الصخر الرمادي، كان يتكاسل على ضريح يُصوِّر ميتًا راقدًا، بديعًا ووقورًا، مجهول الهويّة ويبدو غير مكترِثٍ بإهانات الحمام وبحنان القطّ.

جميعهم ممددون جنبًا إلى جنب، الهررة، البورجوازيون، الرسامون ومغنّو المنوّعات - الضريح الأكثر تنميقًا وحيث أكبر عدد من باقات الزهور والسيّاح المحتشدين، كان ضريح داليدا المحاذي مدخل المقبرة: تمثال واقفٌ للمغنيّة، تُحيطه شجيرات كرويّة، يرتدي ثوبًا شفافًا ويخطو خطوة إلى الأمام باتجاه المُتنزّهين؛ وخلف داليدا شمسٌ متوهّجة تُرسِل خيوطَها الذهبية على لوحة رخامية سوداء تتوسّط قوسًا مهيبًا رماديًا متموّجًا: كان من الصعب التكهّن أيّ إلهة كانت هذه المُغنيّة تعبد خلال حياتها، ربّما عدا إيزيس في جزيرة فيلة أو كليوباترا في الإسكندريّة. إن هذا الظهور المُباغِت للحُلم الشّرقي في حيّز انبعاث الأموات، كان سيروق لكثير من الرسامين الذين ينعمون بالراحة الأبدية في مقبرة مونمارتر، من بينهم هوراس فيرنيه (ضريحه رصين جدًّا، مجرّد صليب من الحجر، على عكس اللوحات الحربيّة التي رسمها هذا المُستشرق، لوحات يدبّ فيها صخبُ

الحياة) أو تيودور شاسيريو الذي جمع بين دقّة آنغر الإيروسيّة وغليان ديلاكروا العنيف. أتخيّلُه مسترسلًا في حديث طويل مع تيوفيل غوتيه، صديقه الذي في الطرف الآخر من المقبرة - هما يتكلمان عن النساء، عن أجساد النساء، ويناقشان المزايا الإيروسيّة لتمثال داليدا. شاسيريو ذهب في رحلة إلى الجزائر، وعاش لفترة من الزمن في قسنطينة حيث راح هو الآخر برسم الجَمال الغامض للجزائريات المُحتشمات. أتساءل ما إذا كان خليل شريف باشا يمتلك لوحةً لشاسيريو، على الأرجح نعم: كان ذلك الديبلوماسيُّ العثماني - صديقُ سانت-بوف وغوتيه - الذي تبوّأ لاحقًا في إسطنبول منصب وزير الخارجية، يمتلك مجموعة رائعة من اللوحات الاستشراقيّة التي تُصوِّر مشاهدًا شهوانيّة: لقد اشترى لوحة «الحمام التركي» التي رسمها آنغر، ومن الطريف أن هذا التركي المولود في مصر والمُتحدِّر من عائلة شغل أفرادها مناصب عليا في الدولة، كان يهوى جمع اللوحات الاستشراقية التي تُصوِّر حريم السلاطين والجزائريات العاريات. ثمّة مادّة روائيّة خصبة في حياة خليل شريف باشا المصري هذا، الذي دخل السلك الديبلوماسي في إسطنبول بدلًا من أن يفعل ذلك في بلده الأم، لأنّه يعاني «من مشكلات في عينيه سبَبُها غبار القاهرة»، كما يشرح بالفرنسيّة في رسالته إلى الصدر الأعظم. إستهلّ مسيرته المهنيّة اللامعة في باريس مسؤولًا عن الجناح المصري في المعرض العالمي الذي أقيم عام ١٨٥٥، ثمّ شارك في العام التالي بالمؤتمر الذي وضع حدًّا لحرب القرم. كان بإمكانه أن يلتقي بأحمد فارس الشدياق، الكاتب العربي الكبير والعزيز على قلب سارة الذي طبع روايته الضخمة في باريس في الوقت عينه، في مطبعة الأخوان بيلوي الكائنة في المبنى ٥٠ بجادّة مونمارتر، على بعد رمية حجر من هذه القبور التي كنا نزورها بوَرَع شديد. خليل باشا مدفون في

إسطنبول في ما أعتقد؛ أوّد في يوم من الأيام أن أضع بعضًا من الورود على ضريحه - أجهل تمامًا بمن التقى هنا في فيينا بين عامي ١٨٧٠ و١٨٧٢، في حين كانت باريس تعيش حربًا تلتها ثورة، تلك «الكومونة» التي سترغم صديقه غوستاف كوربيه على أخذ طريق المنفى. تعرّف خليل باشا إلى كوربيه خلال إقامته الثانية في باريس، وكلّفه رسم لوحات - أُولاها لوحة «النوم» المُرهفة التي اشتراها لقاء عشرين ألف فرنك، تلك اللوحة التي تُصوِّر الشبق والحب المثلي، حيث نرى امرأتَين عاريتَين، نائمتَين ومُتعانقتَين، واحدة سمراء والأخرى شقراء، تتعارض ألوان شعريهما وبشرتيهما بشكل رائع. كثيرون قد يدفعون أموالًا طائلة للحصول على نسخة خطيّة عن الحديث الذي أدّى إلى التكليف برسم هذه اللوحة، وقد يدفعون حتّى أكثر من ذلك لو أُتيح لهم أن يشهدوا على الحديث اللاحق الذي أفضى إلى التكليف بإنجاز لوحة «أصل العالم»: إن هذا التركيّ الشاب قد أهدى لنفسه لقطة قريبة لفرج امرأة رسمه أحد الفنانين الأكثر موهبة في تصوير الجسد بدقّة وواقعيّة حسيّة، هي لوحة-فضيحة، مباشَرة، لا مواربة فيها، ستبقى لعقود محجوبة عن أعين الجمهور. يمكننا تخيُّل اللذة التي كانت تُدغدغ خليل باشا كلّما فكّر في أنه يمتلك هذه الجوهرة السريّة، فرجٌ داكن ونهدان؛ كان مقاسها الصغير يُتيح له تخبئتها بسهولة، في حمامه خلف ستار أخضر، إنّ صدّقنا رواية ماكسيم دو كامب الذي كان يكره كوربيه قدر كرهه نزوات وثراء هذا الديبلوماسي العثماني. إن هوية صاحبة شعر العانة هذا، الداكن للغاية، وهذين النهدين الرخاميين، لا تزال مجهولة؛ لأحبّت سارة كثيرًا أن يكون هذا الفرج فرج ماري-آن ديتورباي المعروفة باسم جان دي تورباي، والتي حملت لاحقًا، منذ زواجها وحتى وفاتها، لقب الكونتيسة دي ليونس؛ تلك المرأة التي أولع بها

فلوبير وكانت عشيقةَ - ومُلهمةَ - كثير من شخصيات باريس الأدبية البارزة في ستينات القرن التاسع عشر، وربّما من بينهم ذاك الغندور خليل باشا. كان قبر جان دي توربااي في مكان ما من مقبرة مونمارتر هذه، ليس بعيدًا جدًّا عن ضريحيّ رينان وغوتيه اللذين استضافتهما في صالونها حين كانت تُطلَق عليها صفة «محظيّة» المُرعبة؛ لكننا لم نعثر على قبرها، ربّما لأن العُشب كان يحجبه، أو لأن السلطات المُتبرّمة من توفيرها ملاذًا لعظام الحوض هذه المثيرة للفضائح، قد قرّرت نقل التابوت إلى مكان آخر كي لا تقع عليه النظرات الشبقة للمارّة. فيما كنا نسير على الدرب الذي تُظلله أشجار الكستناء الشامخة وتنتشر على جانبَيه الأضرحة، راحت سارة تتخيّل أن هذا الفرج المفتوح جزئيًا وبنعومة، مَثَّل لخليل باشا ذكرى امرأة كان يشتهيها، طلب من كوربيه أن يُخفي وجهها بداعي الحشمة؛ هكذا، كان يستطيع أن يتأمّل عُريها من دون تعريض سُمعتها لأي إساءة.

مهما تكن الهويّة الحقيقية لهذه المرأة، يبقى أننا ندين للدولة العثمانيّة ولأحد أبرز ديبلوماسييها بإحدى جواهر الرسم الإيروسي الأوروبي. لم يكن الأتراك أنفسهم غير مبالين بسحر الأحلام الاستشراقية، بل على العكس تمامًا، قالت سارة - والشاهدُ خليل باشا الديبلوماسي جامع اللوحات، أو عالم الآثار عثمان حمدي بيك، أوّل رسّام مُستشرق من بلاد الشّرق الذين ندين له باكتشاف توابيت صيدا، وبلوحات استشراقيّة رائعة تُصوِّر مشاهد من الحياة اليوميّة.

هذه النُزهة في عالم الذكريات السحري أعادت الحيويّة إلى سارة؛ نَسيَتْ همومها وأطروحتها لتسافر من قبر إلى آخر، من حقبة زمنية إلى أخرى، وحين بدأ الظّل الأسود لجسر «كولانكور» (القبور

التي تحته تمامًا تقبع في ظلام سرمدي) ولأعمدته المعدنية المُثبّتة بمسامير فولاذية ضخمة، بجناح مدينة الموتى، توجّبت علينا مُغادرة دنيا الماضي بحسرة، لنعود إلى غليان ساحة كليشي: كنتُ أشعر بأن في رأسي خليط عجيب من شواهد القبور وفروج النساء، مقبرةٌ في غاية الوثنيّة ترسم في مخيّلتي «أصلًا للعالم» أحمرَ كشعر سارة التي كانت تنزل نحو الساحة الكبيرة المُزدحمة بالحافلات والسيّاح.

بالرّغم من كلّ الجهد الذي بذلْتُه، لا يزال مكتبي هذا في حالة من الفوضى العارمة، مزدحمًا بالأوراق والكتب كمقبرة مونمارتر بالتوابيت. أرتّب وأرتّب وأرتّب من دون أي جدوى. تتراكم الكتب والأوراق وترتفع بقوّة المياه أثناء المدّ، وعبثًا أنتظر بداية الجزر. أُزيح، أُرتِّب، أُكدِّس؛ ويواظب العالم على إفراغ شاحناته المُحمّلة بالغائط في مكان عملي المتناهي الصغر. في كلّ مرّة أريد وضع حاسوبي على المكتب، عليّ أوّلًا أن أدفع بعيدًا هذه القاذورات وكأنني أكنس أوراقًا ميتة. إعلانات دعائيّة، فواتير، كشوفات حساب ينبغي فرزها وتبويبها وأرشفتها. موقدٌ ومدخنة، هو ذا الحلّ. موقد أو آلة لتمزيق الورق، مقصلةُ الموظفين. في طهران، أخبرنا ديبلوماسي فرنسي عجوز أنه فيما مضى، حين كانت الجمهورية الإسلاميّة المُحتشمة تحظر استيراد المشروبات الرّوحيّة حتّى على السفارات، قام بعض من موظّفي السفارة الفرنسيّة المُصابين بالملل، بتحويل آلةِ تمزيقِ ورق يدوية عتيقة إلى معصرة، فصاروا يُصنّعون النبيذ في القبو لقتل الضجر، بالتعاون مع الإيطاليين الذين كانت مكاتبهم في الجهة المقابلة من الشارع. كانوا يطلبون عنبًا طيّبًا من أرومية، يعصرونه، يُخمّرونه في أحواض لغسل الثياب، ثمّ يُعبّئونه في زجاجات. حتّى أنهم راحوا يطبعون مُلصقات جميلة للعبوات، عليها رسمٌ للسفارة وعبارة «نبيذ نوفل لوشاتو»، نسبة إلى الاسم الذي

فرضته إيران الثوريّة على «شارع فرنسا» السابق الذي أضحى شارع نوفل لوشاتو. كانوا إذًا كرهبانٍ عرابدة محبوسين في ديرهم، يواسون أنفسهم بالوسائل المُتاحة، ويُحكى أن في فصل الخريف، كان الشارع بأكمله يعبق برائحة النبيذ الحامضة التي تتسلل من فتحات تهوية القبو وتستفزّ أنوف عناصر الشرطة الإيرانيّة خلال حراستهم لمبنى السفارة الجليل. طبعًا كانت جودة الخمر تتبدّل ليس فقط حسب نوعيّة العنب، بل حسب مهارة اليد العاملة أيضًا: فغالبًا ما كان يتمّ تغيير الموظفين، أو يُستعدى مختصّ النبيذ هذا أو ذاك (وقد يكون محاسبًا أو ضابطًا للأحوال المدنيّة أو مُشَفِّرًا) إلى وطنه الأمّ، ما كان يبثّ اليأس في النفوس كلها، خصوصًا إن سبق الرحيل هذا موعد التعبئة في الزجاجات.

لم أصدّق أيًا من هذه الحكايات إلا حين نبش الديبلوماسي العجوز واحدة من هذه العبوات السحريّة وعرضها أمام أعيننا المشدوهة: بالرّغم من الغُبار، كانت الكتابة على المُلصق لا تزال مقروءة؛ مستوى السائل كان قد انخفض، والسُدادة التي يتآكلها العفن، وقد خرج نصفها من عنق الزجاجة، كانت أشبه بورم أخضر تتخلله عروق بنفسجيّة، ما لا يجعلك ترغب كثيرًا في نزعها. ترى ألا تزال آلة تمزيق الورق هذه في أحد أقبية السفارة الفرنسيّة في طهران؟ على الأرجح نعم. إن أداة من هذا النوع ستحقق مُعجزات في غرفة مكتبي: الخلاصُ أخيرًا من سيل هذه الأوراق التي ستتحوّل إلى قصاصات طويلة ورفيعة للغاية، إلى كتلة من الخيوط من السهل ضغطها لتصبح على شكل كرة، ثمّ رميها. كان الطلّاب «أتباع خطّ الإمام الخميني» قد انهمكوا خلال عدّة أيام في إعادة ترميم الأوراق المُمَزّقة لبرقيات السفارة الأميركيّة وتقاريرها؛ شابات وشبّان انكبّوا على لعبة «البازل» العملاقة هذه التي انتشلوا قطعها من سلّات

مُهملات العمّ سام، ألصقوا بكثير من الصبر والتأني، هذه القصاصات الدقيقة واحدة بالأخرى، مُبرهنين بذلك أن عصر العنب بواسطة هذه الآلات أجدى من استخدامها لإتلاف الملفات السريّة: لقد نُشِرت جميع هذه البرقيات من قبل هؤلاء الطلّاب الذين كانوا قد اقتحموا السفارة الأميركية واحتلّوا «عشّ الجواسيس» هذا، لقد صدرت عشرات من المُجلّدات، وكانت الخطوط الطويلة المتوازية التي على الصفحات، دليلًا على الصبر العظيم الذي اقتضاه وضع هذه الشرائط - عرض الواحدة منها ثلاثة مليمترات - جنبًا إلى جنب، فقط بهدف إحراج العمّ سام عبر فضح خباياه التافهة. أتساءل ما إذا كانت آلات تمزيق الورق لا تزال تعمل بالطريقة ذاتها في يومنا هذا، أم إن كان مُهندس أميركي ما قد كُلّف تطويرها لتجنّب فكّ رموز أسرار وزارة الخارجيّة من قبل زمرة طلاب ينتمون إلى مدرسة العالم الثالث، مُتسلّحين فقط بعدسات مُكبِّرة. في نهاية المطاف، إن ويكيليكس ليست سوى النسخة ما بعد الحداثيّة للصمغ الذي استخدمه الثوّار الإيرانيّون.

حاسوبي صديقٌ مُخلِصٌ، الضوءُ الأزرق المُنبعث منه هو لوحةٌ تتحرّك في عتمة الليل - عليّ أن أغيّر الصورة الخلفيّة، إن لوحة بول كلي هذه ما زالت هنا، على الشاشة، منذ دهر، حتّى أنني لم أعد ألحظها، صارت شبه متوارية خلف أيقونات سطح المكتب التي تتراكم كأنها أوراق افتراضيّة. لكلّ امرئ طقوسه، فتح البريد، حذف غير المرغوب فيه، الرسائل الترويجيّة والإخباريّة، ما من رسالة حقيقيّة واحدة بين الرسائل الخمس عشرة الجديدة، نفايات فقط، مخلّفات فيضان الخراء المتواصل هذا الذي هو عالمنا اليوم. كنتُ آمل بأن أجد بريدًا من سارة. حسنًا، عليّ أخذ المُبادرة. رسالة جديدة. إلى سارة. الموضوع: عن فيينا. عزيزتي الغالية، إستلمتُ

مقالتكِ هذا الصباح - كلا، البارحة صباحًا؛ شكرًا جزيلًا، لكن يا لفظاعة نبيذ الموتى هذا! ها أنا قلقٌ عليكِ إذًا. هل كلّ شيء على ما يرام؟ ماذا تفعلين في ساراواك؟ لا شيء هنا سوى الروتين. لقد افتتحوا سوقًا لمناسبة عيد الميلاد في وسط حرم الجامعة. الروائح الكريهة للنبيذ الساخن والنقانق. هل تنوين زيارة أوروبا قريبًا؟ أخبريني ما جديدكِ. أقبّلكِ بحرارة. رسالةٌ مُرتجلة في الساعة الرابعة والدقيقة التاسعة والثلاثين. آمل أنها لن تنتبه إلى ذلك، أمرٌ مثيرٌ للشفقة بعض الشيء إرسال بريد في الساعة الرابعة والدقيقية التاسعة والثلاثين صباحًا. هي تعلم أنني أنام باكرًا عادةً. قد تتخيّل أنني عدت لتوي من سهرة ما. أستطيع أن أنقر على اسمها لتظهر لي كلّ رسائلها دفعة واحدة، متسلسلةً حسب الترتيب الزمني. ذلك سيكون أمرًا مُحزنًا للغاية. ما زال لديّ ملفٌ عنوانه «طهران»، أنا لا أرمي أي شيء. أصلح لأكون أمين أرشيف ماهر. لماذا كتبتُ لها عن النبيذ الساخن والنقانق؟ يا لي من أحمق! ثمّة الكثير من الخِفّة في رسالتي لكي تكون حقًا صريحة. لا يمكن استرداد بريدٍ متى رميته في هذا اللغز الأكبر الذي هو التدفق الإلكتروني. أمرٌ مؤسف. آه، كنتُ قد نسيتُ هذا النصّ الذي كتبتُه بعد عودتي من طهران. لكنني لم أنسَ مضمونه المُرعب. أرى مجددًا جيلبير دي مورغان في حديقته في حيّ زعفرانية. ذاك الاعتراف الغريب، قبل بضعة أسابيع من مغادرة سارة إيران على عجل. ليس هناك من مصادفات، كانت ستقول. لماذا رويتُ كتابةً ما حدث خلال بعد الظهر ذاك؟ هل للتخلّص من هذه الذكرى اللزِجَة، أو لمناقشتها مرّة ثانية وثالثة مع سارة، أو لتجميلها وتزيينها بمعارفي الواسعة عن الثورة الإيرانيّة، أو فقط للتمتّع بالكتابة بالفرنسيّة، لذّة نادرة للغاية؟

«ليس من عاداتي التكلُّم في أمور الحُبّ، وحتّى أقل من ذلك التكلّم عن نفسي، لكن بما أنكما تهتمان بحكايات الباحثين الذين يتوهون في الشّرق وفي مواضيع أبحاثهم، عليّ إذًا أن أخبركما قصّة في غاية الاستثنائيّة، مروّعة في بعضٍ من جوانبها وتعني لي الكثير. لا بدّ أنكما تذكران أنني كنتُ هنا، في طهران، بين عامَي ١٩٧٧ و١٩٨١. لقد شهدْتُ على الثورة وعلى بداية الحرب العراقيّة الإيرانيّة، إلى أن بلغ توتّر العلاقات الفرنسيّة الإيرانيّة أشدّه فتمّ إجلاؤنا وإدخال 'المعهد الفرنسي للأبحاث في إيران' في حالة من السُّبات».

كان جيلبير دي مورغان يتكلّم بصوت يشوبه شيء من الارتباك؛ وكانت نهاية بعد الظهر قائظةً خانقةً: الأرضيّةُ كلوح فرنٍ حجريّ يبث الحرارة التي خزّنها خلال النهار. التلوّث يُسدِل ستاره الزهري على الجبال التي لا تزال مُشتعلة بما تبقّى من أشعّة الشمس الموشكة على الغروب؛ علامات جفاف فصل الصيف كانت بادية حتّى على العريشة الكثيفة الأوراق التي فوق رؤوسنا. نسيم خانم، مُدبّرة المنزل، كانت قدّمت لنا ليموناضة لذيذة ومُثلَّجة راح مورغان يُضيف إليها، في كأسه، الكثير من الفودكا الأرمنيّة: كان مستوى السائل في زجاجة الفودكا الجميلة ينخفض بانتظام؛ سارة التي سبق لها أن شهدت على ميول أستاذها الاكتئابيّة، كانت تُراقبه بشيء من القلق في ما بدا لي - لكن لعلّها كانت تُصغي إليه باهتمام شديد فقط. كان شعرها يتلألأ في الليل. كانت نسيم خانم تحوم حولنا لتقدّم لنا الحلويات وأعواد سكّر النبات بالزعفران - ووسط الورد وزهور البتونيا، كنا ننسى صخب الشارع، صوت أبواق السيارات وحتّى رائحة الديزل المُنبعثة من الحافلات التي تمرّ بأقصى سرعتها خلف جدار الحديقة، فترتجّ الأرضيّة قليلًا وتتصادم ببعضها مُكعّبات الثلج في الكؤوس. كان جيلبير دي مورغان يُتابع سرد حكايته من دون إيلاء تحركات نسيم

خانم ولا ضجّة شارع ولي عصر الاهتمام؛ بقع العرق تحت إبطيه وعلى صدره كانت تتّسع.

«يجب أن أخبركم بقصة فريدريك ليوتي، قال، شابٌ من ليون وباحث مُبتدئ هو الآخر، مختصّ بالشعر الفارسي القديم، كان يتردّد على جامعة طهران وقت اندلاع أولى التظاهرات المُناهضة للشاه. بالرّغم من تحذيرنا إياه مرارًا، كان يُشارك في جميع المسيرات الاحتجاجيّة؛ كان مولعًا بالسياسة، بمؤلفات علي شريعتي، برجال الدّين المنفيين وبالناشطين من شتى الألوان. وفي خريف عام ١٩٧٧، خلال التظاهرات التي أعقبت وفاة شريعتي في لندن (في تلك الفترة، كان الجميع مُقتنعًا بأنه تمّت تصفيته)، أوقِف ليوتي مرّة أولى من قبل السافاك، الشرطة السريّة، ثمّ أفرجوا عنه فورًا حين أدركوا أنه فرنسي؛ إلا أن إطلاق سراحه هذا حصل بعد تعرّضه لضربٍ طفيف، كما كان هو يصفه، ما أخافنا جميعنا: رأيناه في المعهد تكسو الكدمات الزرق وجهه، عيناه متورّمتَين ويده اليُمنى - منظر مُرعِب - ينقصها ظفرَيْن. لم يكن يبدوعليه تأثر بالغ؛ حتّى أن مُغامرته هذه كادت تبدو له أمرًا مضحكًا. إلا أن شجاعته الظاهريّة هذه أقلقتنا بدلًا من أن تطمئننا: فحتّى الرجال الأشد بسالةً كانوا سينهارون تحت وطأة العنف والتعذيب، لكن ليوتي كان يستمّد من ذلك طاقة فيها الكثير من التبجج، إحساسٌ بالفوقيّة في غاية الغرابة إلى حدّ أننا أخذنا نشكّ في أن أذى ما قد لحق بصحتّه العقليّة، أقلّه بقدر الأذى الذي أصاب جسده. كان ساخطًا من ردّ فعل السفارة الفرنسية التي، كما أخبرنا، أفهمته أنه يستحقّ ما تعرّض له، أنه ينبغي عليه ألّا يُشارك في هذه التظاهرات التي لا شأن له بها، وأن عليه اعتبار ما حصل له بمثابة تحذير. قام ليوتي بمحاصرة مكتب السفير راوول دولاي لأيام عدة، فيما ذراعه لا تزال في حمّالة الكتف ويده مُضمّدة، لكي يشرح له وجهة نظره، إلى أن نجح أخيرًا في صبّ نار غضبه على السفير خلال حفلة

رسميّة: كنا جميعنا هناك، علماء آثار، باحثون، ديبلوماسيين، ورأينا ليوتي بضماداته القذرة وشعره الطويل الدبق وسراوله الجينز الواسع جدًّا، يوبّخ دولاي الدمث للغاية الذي كان يجهل تمامًا من هو هذا الرّجل الذي يصرخ فيه - ينبغي القول دفاعًا عن السفير، إنه على عكس اليوم، كان ثمة الكثير من الباحثين والطلاب الفرنسيين في طهران آنذاك. أذكُر المشهد بوضوح تام: صار وجه ليوتي أحمر وراح اللعاب يتطاير من فمه وهو يقذف دولاي باللعنات والشعارات الثوريّة إلى أن ارتمى عنصرا أمن فرنسيّان على هذا الممسوس الذي شرع حينذاك ينشد قصائد بالفارسيّة وهو يزعق ويُلوّح بيديه، أبياتٌ في غاية العُنف لم أكن أعرفها. مصدومين بعض الشيء، رأينا كيف اضطر، في إحدى زوايا حديقة السفارة، إلى التعريف عن نفسه كعضو في المعهد الفرنسي لكي يَسمح له عنصرا الأمن بالمغادرة من دون تسليمه إلى الشرطة الإيرانيّة.

طبعًا كان الحاضرون بمعظمهم عرفوا من هو، فسارع بعض من فاعلي الخير إلى إطلاع السفير على هويّته: أخذ دولاي الحانق والمُصفرّ الوجه، يتوعّد بترحيل هذا «المجنون المسعور» من إيران؛ لكنّه لم يبادر إلى أي شيء، ربّما مُتأثّرًا بما تعرّض له الشاب من تعذيب، أو احترامًا لاسم عائلته ولعلاقة القربى التي قد تربطه بالمارشال ليوتي المرحوم. الإيرانيّون لم يفعلوا شيئًا أيضًا، إذ لا بد كانوا منهمكين بأمور أهمّ من مُلاحقة الثوّار الأوروبيين - لم يضعوه إذا على أوّل طائرة مُتّجهة إلى باريس، ولاشك في أنهم ندموا على ذلك لاحقًا.

في أي حال، وجدناه بعد مغادرتنا تلك السهرة، جالسًا بهدوء على الرصيف أمام السفارة الإيطاليّة، على بعد خطوات من البوابة؛ كان يُدخّن ويبدو أنه يُكلّم نفسه أو يتابع تمتمة تلك الأبيات المجهولة، كأنه شحّاذ أو مُتشرّد يهذي، ويخجلني بعض الشيء الإقرار بأنه لولا إصرار أحد رفاقنا على أن نُعيده إلى منزله، لكنت

استدرت وعبرت «شارع فرنسا» في الاتجاه الآخر، تاركًا ليوتي لمصيره.

بعد يومَين، تطرّق إلى «قضيّة ليوتي» شارل-هنري فوشيكور، مدير معهدنا آنذاك الذي لا بدّ من أن السفارة كانت قدّ أنّبته بقسوة؛ فوشيكور عالمٌ وباحثٌ كبير، لذا استطاع على الفور تقريبًا، نسيان هذه الحادثة لكي يغوص مجددًا في الأدب الفارسي القديم، وفي حين كان ينبغي علينا أن نقلق على صحّة ليوتي، فضّلنا جميعًا، الأصداقاء والباحثين والسلطات، ألّا نكترث أبداً بذلك».

توقّف جيلبير دي مورغان عن كلامه لكي يُفرغ كأسه بجرعة واحدة، مُدحرجًا مُكعّبات الثلج التي لم تكن قد ذابت بعد؛ رمقتني سارة مجددًا بنظرة قلقة، بالرّغم من أن لا شيء في حديث المُعلّم كان يدلّ على الثمالة - لم أستطع منع نفسي من التفكير في أنه هو أيضًا، مثل فريدريك ليوتي هذا الذي كان يُخبرنا قصّته، يحمل كنية مشهورة، أقلّه في إيران: إن جاك دي مورغان هو، بعد ديولافوا، مؤسس علم الأثار الفرنسي في بلاد فارس. هل كان لجيلبير علاقة قربى تربطه بناهب القبور الرسمي للجمهوريّة الفرنسية الثالثة، ليس لديّ أدنى فكرة. أخذ المساء يهبط على حيّ زعفرانية وراحت الشمس تختفي أخيرًا وراء أوراق الدلب. لا بدّ من أن زحمة شارع ولي غصر كانت مهولة في تلك الساعة - لا بدّ من أن الطريق كان مقفلاً تمامًا فصار غير مجدٍ إطلاق أبواق السيارات، ما جعلنا ننعم ببعضٍ من الهدوء في حديقة هذه الفيلا الصغيرة جدًّا، حيث تابع مورغان حكايته بعد أن صبّ لنفسه كأسًا أخرى:

«لم نعلم شيئًا جديدًا عن فُرِد ليوتي طوال أسبوعَين - كان يأتي إلى المعهد من وقت لآخر، يشرب معنا فنجان شاي من دون إطلاعنا على أي أمرٍ ذي أهميّة، ثمّ يُغادر. مظهره الخارجي كان قد عاد طبيعيًّا؛ لم يكن يُشارك في نقاشاتنا حول الغليان الإجتماعي والسياسي؛ يكتفي بالنظر إلينا مُبتسمًا بطريقة فيها شيءٌ من الفوقيّة،

أو ربّما قليلٌ من الاحتقار، كان في أي حال مزعِجًا للغاية، كأنه الوحيد الذي يستطيع فهم معنى الحوادث الجارية. كانت الثورة على وشك الانفجار، حتّى لو أن ما من أحد بين جميع من كنا نُعاشرهم، الإيرانيّين كما الديبلوماسيين الأجانب، كان يمكن أن يُصدّق في بداية عام ١٩٧٨، أن الشاه سيسقط - بالرّغم من ذلك، كانت سلالة بهلوي تعيش آخر سنة من عمرها.

وفي أواخر شباط (أي بعد وقت قصير من «انتفاضة» تبريز)، صادفتُ ليوتي في مقهى «نادري». كان برفقة شابّة فاتنة، بل رائعة إلى أقصى الحدود، طالبةٌ جامعية تدْرُس الأدب الفرنسي اسمها عذراء كان سبق لي أن رأيتها مرّة أو مرّتَيْن فلفتني حينذاك - لمَ كتمان الأمر؟ - جمالها الأخّاذ. صُعقتُ حين وجدتها برفقة ليوتي. في تلك الفترة، كان قد صار مُتمكّنًا تمامًا من اللغة الفارسية، فيتكلّمها بطلاقة تُخوّله الادعاء بأنه إيراني إن شاء ذلك. حتّى معالم وجهه كانت تغيّرت بشكل طفيف، بشرته اسمرّت بعض الشيء في ما بدا لي، وأعتقدُ أنه كان يصبغ شعره الذي يتركه متوسّط الطول على الموضة الإيرانيّة. كان يدعو نفسه فَريد لاهوتي للشبه بين هذا الاسم واسم فْرِد ليوتي».

قاطعته سارة: «لاهوتي مثل الشاعر أبي القاسم لاهوتي؟

- أو كبائع البُسط في السوق الشعبي، ما أدراني؟ في أي حال، كان النادلون لا يدْعونه سوى آغا لاهوتي، ما يحملني على التساؤل إن لم ينتهِ به المطاف إلى تصديق أن هذا هو اسم عائلته الحقيقي. كان أمرًا مثيرًا للسخرية، أزعجنا إلى أقصى الحدود، من دون شك بسبب الغيرة، إذ إن فارسيّته كانت ممتازة: كان يُتقن اللغة العاميّة المحكيّة كما الفصحى القديمة. علمتُ لاحقًا أنه نجح في الحصول - وحده الله يدري كيف - على بطاقة طالب عليها صورته واسم فريد لاهوتي. عليّ الاعتراف بأن رؤيته برفقة عذراء في مقهى «نادري» صدمتني - كان المقهى هذا بمثابة وكرنا، نحن أعضاء

المعهد. لماذا أتى بها إلى هذا المكان تحديدًا؟ آنذاك، كان ثمة الكثير من المقاهي والحانات في طهران، على العكس تمامًا من اليوم. فكّرتُ في أنه يريدنا أن نراها برفقته. أو ربّما كلّ ذلك كان مجرد مصادفة. مهما يكن من أمر، فقد جلستُ معهما، قال مورغان متنهدًا، وبعد ساعة من الوقت لم أعد الشخص نفسه».

كان يُحدِّق بكأسه، مُركّزًا على الفودكا، وربّما على ذكرياته أيضًا؛ لعله كان يرى في داخل السائل وجهًا أو شبحًا ما.

«سُحِرتُ بجمال عذراء، بنضارتها ورقّتها».

كان صوته انخفض قليلًا فصار يبدو كأنه يكلّم نفسه. رمقتني سارة بنظرة فحواها: «لقد تعتعه السكر». كنتُ أرغب في معرفة المزيد، في أن يخبرنا ماذا حصل في مقهى «نادري» فيما الثورة كانت على وشك الإندلاع - لقد ذهبتُ لاحقًا إلى هناك، إلى ذاك المقهى الذي كان يتردّد عليه صادق هدايت، سارة هي التي جرّتني إليه معها؛ مثل جميع مقاهي طهران ما بعد الثورة، كان المكان يبعث على شيء من الاكتئاب، ليس لأن معاقرة الكحول صارت مستحيلة، بل لأن الشبّان الذين يعبّون البيبسي الزائف فيما يحدّق بعضهم في عيون البعض الآخر، أو الشعراء الذين يقرأون الصُحف والسجائر مُتدليّة من شفاههم، كانوا يبدون جميعهم حزينين، مُنكسرين، مسحوقين تحت وطأة الجمهوريّة الإسلاميّة؛ كان مقهى «نادري» صار طيفًا، أثرًا من آثار الماضي، مجرد ذكرى عمّا كانه وسط المدينة الكوزموبوليتانية، فبات يحمل سريعًا زبائنه على الشعور بحنين جارف.

كانت سارة تنتظر إما أن يُكمل جيلبير حكايته، أو أن تقضي عليه الفودكا فيتهاوى على عشب هذه الحديقة الصغيرة التي أمام الشرفة؛ أخذتُ أتساءل إن لم يكن من الأجدى لنا أن نُغادر ونعود أدراجنا إلى أسفل المدينة، لكن فكرة أن أجد نفسي وسط زحمة سير خانقة في هذا الحرّ القائظ لم تكن مُشجّعة كثيرًا. كان المترو يبْعُد من فيلا

حيّ زعفرانية مسافة كافيّة لنتيقّن من أننا إن بلغناه سيرًا على الأقدام، فسيكون العرق قد بلّل ثيابنا كلها، خصوصًا سارة التي كانت مُحجّبة وترتدي عباءة. كان من الأجدى لنا الإنتظار قليلًا في هذه الحديقة الإيرانيّة للغاية لنتذوّق المزيد من الحلوى الإصفهانية التي تُقدّمها لنا نسيم خانم، أو لنلعب «الكروكيت» على العشب الناعم - الذي بقي أخضر بفضل اعتناء المُستأجر به - تحت ظلّ الأشجار الكبيرة، إلى أن تنخفض الحرارة قليلًا وتبدأ الجبال المُرتفعة تمتصّ لهيب الوديان عند الغروب.

توقفت مورغان عن كلامه لدقائق طويلة، ما أحرج مُستَمِعَيْه بعض الشيء. لم يكن ينظر إلينا، بل يراقب انعكاسات نور الشمس تحوّل مُكعبات الثلج في كأسه بلّورات الماس هشّة. رفع رأسه أخيرًا.

«لست أدري لماذا أخبركما بكلّ هذا، أعذراني».

إلتفتت سارة إليّ كأنها تلتمس منّي تأيدًا - أو لتعتذر مُسبقًا عن تفاهة الجملة المنافقة التي ستتفوّه بها:

«أنتَ لا تُضجرنا بتاتًا، على العكس. الثورة الإيرانيّة موضوع شيّق للغاية».

إنتشلت الثورةُ مورغان من أحلام يقظته على الفور.

«كانت هديرًا يتضخّم في كلّ مرّة، يتعاظم كلّ اربعين يوماً. خلال نهاية آذار، كانت ثمّة تظاهرات في عددٍ من مدن إيران الكبرى إحياءً لذكرى شهداء تبريز. ثمّ تلتها مظاهرات أخرى في العاشر من أيار، وهلم جرا. كلّ أربعين يوماً - ذكرى الأربعين. غير أن الشاه كان قد اتخذ اجراءات لاسترضاء المعارضة - إستبدال ضبّاط السافاك الأكثر بطشًا، وضع حدّ للرقابة على الصحافة، الإفراج عن كثير من المعتقلين السياسيين؛ إلى حدّ أن ال«سي آي إيه» أرسلت لحكومتها في أيار تقريرًا شهيرًا أكدّ فيه العملاء الأميركيون في إيران أن «الأوضاع على وشك العودة إلى طبيعتها وأن إيران لم تعد قط تعيش حالة ثورية». لكن الهدير لم يتوقّف عن التعاظم. كانت مهمّة

محاربة التضخّم الإقتصادي، المطلب الشعبي الأساس، قد أوكِلَت إلى رئيس الوزراء جمشيد آموزيجار، الذي لجأ عندذاك إلى سياسية شديدة القسوة: جمّد بشكل منهجي الحركة الإقتصادية، أوْقَف كليًّا الإستثمار العام، وضَعَ حدًّا للمشاريع الحكوميّة الكبيرة وفرَضَ نظام غراماتٍ وإذلالٍ على «الانتهازيين»، وهم خصوصًا باعة الأسواق الشعبية الذين تعكس أسعار بضائعهم الارتفاع العام للأسعار. كُلّلت هذه السياسة الصارمة بالنجاح: فخلال سنتَيْن، تمكّن آموزيجار من إدارة الأزمة الإقتصادية واستبدال التضخّم ببطالة هائلة ومدينيّة، فاستطاع ببراعة فائقة أن يثير سخط ليس الطبقات الوسطى والعاملة فقط، بل الطبقة البورجوازية التجارية أيضًا. ما يعني أن باستثناء عائلته الضخمة التي تُبذّر بتباهٍ مليارات البترول في جميع أصقاع الأرض تقريبًا، وبضعة من جنرالاته الفاسدين الذين يتبخترون في المؤتمرات الدولية حول التسلّح وفي صالونات السفارة الأميركيّة، لم يكن قد تبقّى لرضا شاه بهلوي أي سندٍ حقيقي مع حلول عام ١٩٧٨. كان عائمًا فوق الجميع. حتّى من اغتنوا بفضله، ومن أفادوا من التعليم المجاني، ومن تعلّموا القراءة بفضل حملاته لمحو الأميّة، أي جميع منَ كان هو يعتقد أن عليهم إبداء عرفان بالجميل تجاهه، كانوا يرغبون في رحيله. كان مؤيدوه الوحيدون من لا خيار آخر أمامهم.

أما نحن الباحثون الفرنسيون اليافعون، فكنا نتابع مجريات الحوادث من مسافة مُباعدة بعض الشيء، برفقة أصدقائنا الإيرانيّين؛ لكن لا أحد، لا أحد بتاتًا (ربما عدا أجهزة استخباراتنا في السفارة، لكنني أشكّ في ذلك) كان يستطيع تخيُّل ما الذي كان ينتظرنا في السنة التالية. إلا فريديريك ليوتي طبعًا، الذين لم يكن فقط يتخيّل ما يمكن أن يحصل، إطاحة الشاه، الثورة، بل يتمنى حصوله أيضًا. كان ثوريّ الهوى. كنا نراه أقل فأقل. كنتُ أعرف من عذراء أنه صار، مثلها هي، ناشطًا في مجموعة تقدميّة

«إسلامية» (كان للكلمة معنى آخر وقتها) صغيرة كانت تدعو إلى تطبيق أفكار علي شريعتي الثوريّة. سألتُ عذراء ما إذا كان ليوتي قد أسلم - نظرَتْ إليّ مدهوشة ولم تفهم سؤالي. فلاهوتي كان في نظرها إيرانيًا أصيلًا إلى حدّ أن شيعيّته كانت أمرًا بديهيًا للغاية، ولو أنه أسلم، فذلك سيكون قد حصل من زمن بعيد. طبعًا - وينبغي التشديد على هذه النقطة - ثمة الكثير من الباحثين في مجالَيّ الدراسات الإيرانيّة والإسلاميّة الذين ينزل عليهم الوحي فجأة، فيصبحون متديّنين أو حتّى مُتعصّبين. لا جدال في ذلك. سوف أخبركم في يوم من الأيام قصة تلك الزميلة الفرنسية التي حين توفّيَ الخميني عام ١٩٨٩، راحت تذرف الدموع بغزارة وهي تصرخ «مات الإمام! مات الإمام!»، فكادت هي الأخرى تموت من الحزن وسط الحشود التي تجمّعت في مقبرة بهشت زهرا يوم الدفن، وفيما رذاذ ماء الورد يتساقط عليها من المروحيات. كانت قد اكتشفت إيران قبل بضعة أشهر فقط. لم تكن تلك حالة ليوتي. لم يكن مُتعصّبًا، أنا أكيد من ذلك. لم تكن لديه حماسةُ وتشدّدُ من أسلموا حديثًا، ولا تلك الطاقة الصوفيّة التي نرى مفاعيلها عند البعض. هو أمرٌ حقًّا لا يعقل، لكنّه كان بكل بساطة، شيعيًّا عاديًّا كأيّ إيراني، بعفويّة تامّة. ربما نتيجة تعاطفه مع الإيرانيّين. أنا لست حتّى متأكدًا إن كان حقًّا مؤمنًا. لكنّه كان مولعًا بأفكار شريعتي حول «التشيُّع الأحمر» والإستشهاد، حول العمل الثوري في مواجهة «التشيُّع الأسود»، تشيُّعُ الحداد واللافعل. وكان مشغوفًا بإمكانيّة أن يصبح الإسلام قوّة للتجديد، أن تستقي إيران من حضارتها هي، مفاهيمَ ثورتها الخاصة. مثله مثل عذراء وملايين من الإيرانيّين. وما كنتُ أجده طريفًا (ولست الوحيد في ذلك) هو أن شريعتي تلقّى تعليمه في فرنسا؛ لقد تابع دروس لويس ماسينيون وجاك بيرك، كما أن جيلبير لازار هو من أشرف على أطروحته. إن علي شريعتي، المُفكّر الأكثر إيرانيةً، أو أقلّه الأكثر شيعيّةً من بين

مُلهمي الثورة، قد بنى نظرياته متتلمذًا على أيدي المُستشرقين الفرنسيين. هذا أمرٌ ينبغي أن يروق لكِ يا سارة. حجرٌ إضافي إلى نظريّتكِ حول «البُنيان المُشترك». هل يذكر إدوارد سعيد شريعتي في كتاباته؟

- أجل، أظن ذلك. في «الثقافة والإمبرياليّة». لكنني نسيتُ ما يقول».

كانت سارة قدّ عضّت شفتها قبل أن تجيب؛ هي تكره أن تبدو جاهلةً أمرًا ما، مهما ضؤل شأنه. كنتُ متيقنًا أنه حال مُغادرتنا، سوف تهرع إلى مكتبة المعهد - وأنها ستشرع بالصراخ إن حدث ولم تعثر هناك على الأعمال الكاملة لإدوارد سعيد. إستغلّ مورغان انحراف مسار الحديث لكي يصبّ لنفسه كأسًا أخرى من الفودكا، والحمد لله أنه لم يُصرّ على أن نحذو حذوه. كان ثمة عصفوران يُحلّقان حولنا ويحطّان أحيانًا على الطاولة لمحاولة نقر بعض الحبوب. كان صدراهما أصفرَين، ورأساهما وذيلاهما زرقاً. كان مورغان يقوم بإيماءات هزليّة بعض الشيء لإخافتهما كأنهما ذبابٌ أو دبابير. كان قد تغيّر كثيرًا منذ التقيت به في دمشق وحتّى منذ صادفته في باريس خلال مناقشة أطروحة سارة قبل قدومي إلى طهران. بسبب لحيته، وشعره الدهني الذي تلتصق خصلاته ببعضها، وثيابه التي من زمن آخر، وحقيبته الصغيرة من الجلد الأزرق والأسود - هديّةٌ ترويجيّة من شركة «إيران للطيران» تعود إلى سبعينيات القرن الماضي - وسترته بلون الكريمة المُسوّدة عند الكوعَين وعلى طول فتحة السحّاب، وأنفاسه المُحمّلة أكثر فأكثر برائحة الخمر. . . بسبب كلّ هذه التفاصيل الدقيقة التي راحت تتراكم على جسده، صرنا نرى أنه يتهاوى، أنه يسقط في بئر لا قاع لها. كان مظهره يختلف تمامًا عن تلك الهيئة المُهمَلة لبعض الجامعيين الشاردي الذهن والمنغمسين في أبحاثهم. كانت سارة تتخيّل أنه التقط إحدى أمراض الرّوح التي تلتهم المرء في العزلة؛

في باريس، قالت، كان يداوي نفسه بالنبيذ الأحمر، في شقّته الصغيرة المؤلّفة من غرفتَيْن، حيث تصطفّ الزجاجات أمام المكتبة، تحت الدواوين الجليلة لشعراء الفرس. أما هنا، في طهران، فبالفودكا الأرمنيّة. كان هذا البروفيسور الكبير سوداويًّا خائبًا يتأكّله الحزن، في حين أن مسيرته المهنيّة كانت تبدو لي لامعة مُثيرة للحسد؛ كان يحظى باحترام كبير وكان اسمه معروفًا على نطاق عالمي؛ يجني مبالغ لا بدّ من أنها خياليّة بفضل منصبه الجديد خارج بلاده، لكنّه كان يتهاوى. يتهاوى، ويحاول التمسّك بشيء ما أثناء سقوطه، التمسّك بالأغصان، وخصوصًا بالنساء، النساء اليافعات، يحاول التشبّث بابتساماتهن ونظراتهن التي تُعذّب روحه النازفة، بلسمٌ أليمٌ على جرح مفتوح. كانت سارة تعرفه منذ أكثر من عشر سنوات، وكانت تخشى أن تكون معه وحدها، خاصةً إن كان قد شرب: لم يكن الباحث الكهل هذا نمرًا مُرعِبًا على الإطلاق، لكن سارة كانت تريد تجنيبه إذلالًا وإحساسًا بالرفض لا شك في أنهما سيفاقما سُويداءه في حال اضطرت هي إلى إيقافه عند حدّه. أما أنا، فكنت أرى أن البروفيسور المرموق، هذا العلّامة الكبير في الشعر الغنائي الفارسي والأوروبي الذي يعرف عن ظهر قلب أبيات حافظ الشيرازي وبترارك، أشعار نيما يوشيج وجيرمان نوفو، كان بكل بساطة يُظهِر جميع عوارض أزمة منتصف العمر، لكن أزمة طويلة الأمد رافقته حتّى سنٍّ مُتقدِّمة؛ وكان يبدو لي أن فتور الرغبة الجنسيّة لدى زير نساء أصيل، لدى رجلٍ يشي الحطامُ الذي آل إليه، أنه كان وسيمًا وفاتنًا... كان يبدو لي أن فتور الرغبة هذا سببٌ كافٍ لكي يُصاب بالكآبة، كآبةٌ تتخللها نوبات من الحماسة المُفرطة كالنوبة التي كنا نشهدها وسط الورود والعصافير، ونحن نتناول الحلويات ونشرب الليموناضة فيما قيظ طهران كان أشدّ وطأة من جميع أحجبة الأمّة الإسلاميّة.

«بعد لقائنا ذاك، صادفتُ عذراء مرّات عدّة خلال عام ١٩٧٨.

كانت قد صارت رسميًا «خطيبة» فريدريك ليوتي، أو بالأحرى فريد لاهوتي الذي أخذت تمضي وقتها برفقته في النشاطات النضالية والتظاهرات والنقاشات حول مستقبل إيران وحول الثورة وإمكان اندلاعها. خلال الصيف، راح الشاه يضغط على الحكومة العراقيّة لكي تطرد الخميني من النجف، ظانًّا أنه سيعزل الإمام بهذه الطريقة ويقطع تواصله مع أطراف المعارضة الداخلية. غادر الخميني إلى إحدى الضواحي الباريسيّة، إلى نوفل لوشاتو حيث أصبحت كامل قوّة الإعلام الغربي بين يديه. صحيحٌ أنه أضحى هكذا أبعد بكثير عن طهران، لكن قريبًا كلّ القرب من آذان أبناء وطنه وقلوبهم. وبهذا يكون الإجراء الذي اتخذه الشاه قد انقلب مرّة أخرى عليه. دعا الخميني إلى إضراب عام، فشلّ البلد وجميع المؤسسات العامّة، وخصوصًا - أخطر شيء بالنسبة إلى النظام - قطاع النفط. في الأثناء، كان فريد وعذراء يشاركان في احتلال حرم جامعة طهران ثمّ في المواجهات مع الجيش التي ستؤدّي إلى انتفاضاتِ وأعمالِ شغب الرابع من تشرين الثاني ١٩٧٨ : إنتشرت أعمال العنف وراحت النيران تلتهم طهران. إحترق جزءٌ من السفارة البريطانية؛ إحترقت متاجر وحانات ومصارف ومراكز بريد - تمّت مُهاجمة كلّ ما كان يُمثّل سلطان الشاه أو النفوذ الغربي. وفي صباح اليوم التالي، في الخامس من تشرين الثاني، كنتُ برفقة عذراء في منزلي. كانت قد أتت حوالى الساعة التاسعة صباحًا من دون إبلاغي بذلك مُسبقًا، وكان جمالها منقطع النظير، بالرّغم من الحزن البادي عليها. كانت بكل بساطة لا تُقاوَم. وكأنها تُحلّق مع رياح الحريّة الحارقة التي تعصف بإيران. كان وجهها رقيقًا، في غاية التناسق، تنْحته الظلال، وكانت شفتاها بلون حبّات الرمان وبشرتها بنيّة داكنة بعض الشيء. كانت تنبعث منها رائحة خشب الصندل والسُّكّر الدافئ. جلدُها طلسمًا إن مسّه المرء فقد عقله. وعذوبة صوتها كفيلة بمواساة الموتى. إن الحديثَ مع عذراء تنويمٌ

مغناطيسي سريعًا ما تستسلم له لكي يُهدهدك كلامها فتصبح عاجزًا عن الإجابة، تدخل في سبات وكأن ملاكًا قدّ خدَّرَكَ بصوته. في منتصف ذاك الخريف، كان الضوء لا يزال خلّابًا؛ غليتُ بعضًا من الشاي، وكانت الشمس تغمر شُرفتي بالغة الصغر المُطلّة على زُقاق موازي لشارع حافظ. كانت قد أتت مرّة واحدة إلى منزلي، قبل فصل الصيف، برفقة بعض من أعضاء زمرة مقهى «نادري». في أغلب الأحيان، كنتُ أصادفها في المقاهي. كنتُ أمضي معظم وقتي خارج البيت. أعيش في الحانات آملًا برؤيتها هناك، وإذ بها تظهر على عتبة منزلي عند الساعة التاسعة صباحًا، بعد أن عبرَتْ مشيًا مدينةً يعمّها العنف! لقد تذكّرَتْ عنواني. أخبرتني أنها شهدت البارحة مواجهات بين الطلاب والجيش في حرم الجامعة. أطلق الجنود النار وقُتِل شبّان وشابات، كانت لا تزال ترتجف من الانفعال. سادت فوضى عارمة إلى حدّ انقضاء ساعات قبل تمكّنها من مغادرة الحرم والعودة إلى منزل والديها اللذين منعاها من الرجوع إلى الجامعة - لم تمتثل لأوامرهما. طهران في حالة حرب، أخذت تقول. كان هواء المدينة يعبق برائحة الحرائق؛ مزيجٌ من الإطارات والنفايات المُشتعلة. كان إعلان حظر التجوّل وشيكًا. حظر التجوّل، ها هي سياسة الشاه. سوف يُعلنه بعد الظهر عينه الذي تشكّلت خلاله حكومة عسكريّة، قائلًا: «يا شعب إيران، لقد انتفضتم في وجه القمع والفساد. بصفتي إيرانيًا وشاه إيران، ليس في وسعي سوى أن أُحَيّي ثورة الأمّة الإيرانيّة هذه. يا شعب إيران العزيز، لقد سمعتُ صوت ثورتكم». كنتُ قد أبصرتُ أنا أيضًا دخان الحرائق من نافذتي، وسمعتُ الصيحات وتحطُّم زجاج محالٍ في شارع حافظ، كنتُ قد رأيتُ عشرات من الشبّان يركضون في الدرب المسدود الذي تحت منزلي - هل كانوا يبحثون عن حانة أو مطعم غربيّ الاسم لتحطيمه؟ كانت تعليمات السفارة واضحة: يجب عدم مغادرة المنزل. انتظار هدوء العاصفة.

كانت عذراء قلقة، تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا. كانت خائفة على ليوتي. لقد أضاعته خلال تظاهرة قبل ثلاثة أيام. انقطعت عنها جميع أخباره. حاولَت مهاتفته ألف مرّة، قصدت منزله وذهبت إلى جامعة طهران بالرّغم من أوامر أهلها، علّها تجده هناك. من دون جدوى. كانت مضطربة إلى أقصى الحدود، وكنتُ الشخص الوحيد الذي تعرفه من بين أصدقائه ليوتي الفرنسيين».

أحال طيفا عذراء والثورة الإيرانيّة هيئةَ مورغان مُفزِعة بعض الشيء. كان وَلَعُه قد أضحى باردًا؛ غارقًا في ماضيه من دون إظهار أي تأثر، كان يحدّق في كأسه وهو يتكلّم، مُحكمًا إمساكه بكلتا يديه وكأنه يحتوي على ذكرياته. راحت سارة تُبدي علامات انزعاج أو ضجر، أو ربّما حتّى الإثنين. صارت تُبدِّل جلوسها باستمرار، تضع ساقًا على ساق ثمّ تفرد ساقيها، تنقر بأصابعها ذراع كرسي الخيزران وتلعب بشكل آلي بقطعة حلويات لكن من دون أن تلتهمها، فتعيدها أخيرًا إلى الصحن الصغير أمامها.

«كانت تلك أوّل مرّة نتكلّم فيها عن ليوتي. كانت عذراء تتجنّب عادةً هذا الموضوع بداعي الحشمة؛ أما أنا، فبسبب الغيرة. علي أن أقرّ بأنني لم أكن أكترث بتاتًا بمصير هذا المعتوه. لقد سرق منّي المرأة التي أولِعتُ بها. فحتّى لو كان في جهنم برفقة الشياطين، لم يكن ذلك ليعنيني. كانت عذراء في منزلي، وكان هذا القدر من السّعادة أكثر من كافٍ. وكنتُ طبعًا أريد الإستفادة من ذلك لأطول وقت ممكن. قلت لها إذًا إنه من المحتمل جدًّا أن يتّصل بي ليوتي أو أن يأتي كعادته إلى منزلي من دون إبلاغي بذلك، كلامٌ كان بطبيعة الحال كذبًا محضًا.

بقيَتْ عندي فترة طويلة من النهار. هاتفَتْ والديها لطمأنتهما، فقالت لهما إنها عند صديقة لها وفي منأى عن الخطر. شاهدنا التلفاز ونحن نستمع إلى إذاعة الـ«بي بي سي» في الوقت عينه. سمعنا الصراخ وصفارات الإنذار الآتية من الشارع. في بعض

الأحيان، تهيّأ لنا أن ثمّة إطلاق نار. رأينا الدخان يرتفع في سماء المدينة. كلّ ذلك ونحن جالسَيْن على الأريكة التي لا أزال أذكر حتّى ألوانها. إن تلك اللحظة ما انفكّت تُلاحقني منذ سنوات. عنف تلك اللحظة. عذوبتها، وعطر عذراء على يدَيّ».

ما إن قال ذلك حتّى أوقعت سارة فنجانها الذي ارتطم بالأرض، وارتدّ ثمّ راح يتدحرج على العشب من دون أن ينكسر. قامت عن كرسيها لالتقاطه. حدّق مورغان طويلًا بساقيها ثمّ بردفيها بلا أي مواربة. لم تعد سارة إلى الجلوس في كرسيها؛ بقيت واقفة في الحديقة تنظر إلى الواجهة الغريبة الشكل للفيلا. طرد مورغان مجددًا بعض العصافير بظهر يده ثمّ صبّ لنفسه كأسًا أخرى، لكن من دون ثلج هذه المرّة. تمتم شيئًا بالفارسيّة، من دون شك أبيات قصيدةٍ ما، إذ تهيّأ لي سماع قافية. كانت سارة قد راحت تذرع الحديقة الصغيرة ذهابًا وإيابًا؛ كانت تنظر إلى كلّ شتلة ورد، إلى كلّ شجرة رمّان، إلى كلّ شجرة كرز يابانيّة. كان في وسعي تخيّل الأفكار التي تدور في رأسها، تخيُّل انزعاجها وألمها لسماع اعتراف أستاذها. لم يكن مورغان يتوجّه بكلامه إلى أحد. كانت الفودكا تفعل فعلها، فرحتُ أتخيّل أنه سيروح بعد حين يذرف دموع سكّير يتباكى على نفسه وعلى مصيره. لم أكن متأكّدًا من رغبتي في سماع حكايته إلى آخرها؛ لكن قبل أن تعود سارة فتتيح لي أن أقوم بدوري عن مقعدي، تابع مورغان سرد قصّته بصوت عميق ولاهث.

«عليكما الإقرار بأن الإغراء كان قويًا للغاية. أن أكون إلى جانبها، قريبًا جدًّا منها أكاد ألامسها... أذكر دهشتها الجليديّة حين كشفتُ لها ولعي. كانت لسوء الحظّ - كيف أقول ذلك - في عادتها الشهريّة. كما في «ويس ورامين»، قصّة الحبّ. ذكرى حكاية العشق القديمة هذه أيقظتني. شعرت بالخوف. انتهى بي الأمر إلى مرافقتها في طريق العودة إلى منزل أهلها وقت العصر. كان علينا الالتفاف حول وسط المدينة المُدمَّر الذي يحتلّه الجيش،

وكانت عذراء تمشي محدّقةً في الأرض. ثمّ رجعت وحدي. لم أنسَ أبدًا هذه الأمسيّة. كنتُ سعيدًا وحزينًا في الآن عينه.

ليوتي عاد وظهر أخيرًا في مستشفى عسكري في شمال المدينة. كان قد تعرّض لضربة قويّة على رأسه. أبلغَتْ السلطاتُ السفارةَ بذلك، واتصلت الأخيرة بالمعهد. صعدتُ من فوري في سيارة واتجهتُ إلى المستشفى. أمام باب غرفته، كان ثمّة ضابط من الجيش أو الشرطة صدره عريضٌ مُغطّى بالأوسمة. إعتذر عن هذا الخطأ بتهذيب في منتهى الإيرانيّة. لكن كما تعلم، قال لي مبتسمًا بسخرية، إن التمييز بين إيراني وفرنسي وسط مظاهرة عنيفة ليس بالأمر السهل. خصوصًا إذا كان الفرنسي يهتف شعارات بالفارسيّة. كان ليوتي مُغطّى بالضمادات ويبدو مرهقًا. شرع توًا يقول لي إن الشاه سيسقط قريبًا، فوافقته بإيماءة. ثمّ أخبرته بأن عذراء تبحث عنه، أنها ستفقد عقلها من شدّة القلق؛ طلب مني الاتصال بها لطمأنتها - اقترحتُ عليه أن أسلّمها بنفسي رسالةً منه مساء اليوم عينه إن كان يرغب في ذلك. شكرني بحرارة على لطفي. كتب تحت ناظريّ رسالة موجزة بالفارسيّة. كان لا يزال عليه أن يبقى هناك تحت المراقبة لثلاثة أيام. ذهبْتُ بعد ذلك إلى السفارة؛ أمضيتُ نهاية النهار ساعيًا إلى إقناع ديبلوماسيينا الأعزّاء أنه تبتغي إعادة ليوتي إلى فرنسا، أن ذلك لمصلحته، أنه مجنون، أنه يدعو نفسه فريد لاهوتي، أنه ينتحل شخصيّةً إيرانيّة، أنه منخرط في العمل السياسي والنضالي، أنه يُشكّل خطرًا حتّى على نفسه. ثمّ مررت بمنزل عذراء لأسلّمها رسالة فرِد. لم تدعُني إلى الدخول، لم تنظر حتّى إليّ، أبقَت الباب مواربًا ثمّ صفعته في وجهي بقوّة ما إن صارت الورقة في يدها. بعد أربعة أيام، فورًا بعد خروجه من المستشفى، كان فرِد ليوتي على متن طائرة متّجهة إلى باريس، إذ صدر قرار رسمي بإعادته إلى وطنه لأسباب صحيّة. الإيرانيّون هم

حقيقةً من طردوه عبر تدخّلٍ من السفارة، وكان محظورًا عليه الرجوع إلى إيران.

صارت عذراء لي وحدي إذًا. لكن كان عليّ إقناعها بأن تغفر لي تهوّري وهفواتي التي كنتُ نادمًا عليها أشدّ الندم. كانت متأثّرة جدًّا برحيل ليوتي الذي أخذ يراسلها من باريس ليقول لها إنه وقع ضحيّة مؤامرة، وإنه سوف يعود إلى إيران «هو والحريّة في الوقت عينه». في رسائله تلك، كان يدعوني «صديقه الفرنسي الوحيد، الفرنسي الوحيد الذي يثق به في طهران». بسبب الإضرابات التي شلّت حركة البريد، كان يبعث الرسائل إليّ أنا عبر الحقيبة الديبلوماسيّة، موكلًا إليّ إيصالها إلى عذراء. رسالة أو رسالتَين في اليوم الواحد، تصلني برزمات من ثماني أو عشر رسائل كلّ أسبوع. كنتُ لا أقوى على منع نفسي من قراءتها، وكنتُ أفقد صوابي من شدّة الغيرة. أشعارٌ غزليّة شهوانيّة بالفارسيّة، في منتهى الروعة. أناشيد حبٌّ مُلتاعة، قصائدٌ طويلة، قاتمة وكئيبة، تُنيرها شمس العشق الشتويّة... كان عليّ أن أضعها في صندوق بريدِ المعشوقة. إيداعها بنفسي في صندوق بريد عذراء كان يُمزّق روحي من شدّة الغضب والعجز. عذابٌ حقيقي - إنتقام ليوتي اللاشعوري. لم أكن ألعب دور ساعي البريد إلا أملًا بمصادفة عذراء أمام بنايتها. كان الألم يصل بي أحيانًا إلى حدّ حرق بعض من هذه الظروف بعد فتحها - حين تكون القصائد بديعة للغاية، شهوانية للغاية وباستطاعتها مُضاعفة حبّ عذراء للاهوتي، حين كانت تُلحق بي أنا عذابًا كبيرًا، كنتُ أتلفها.

في كانون الأول، إزدادت الثورة اشتعالًا. كان الشاه قد حبس نفسه في قصر نيافاران، وكان يبدو أنه لن يخرج منه سوى على حمّالة الموتى. الحكومة العسكرية كانت طبعًا عاجزة عن تنفيذ أي إصلاح في البلد، وكانت الإضرابات قد شلّت مؤسسات الدولة. بالرّغم من حظر التجوّل ومنع التظاهر، تابعت المُعارضة تنظيم

نفسها؛ أخذ دور رجال الدّين في إيران وفي بلاد المنفى يتعاظم. ولم يكن التقويم الهجري ليُسهّل الأمور: كان كانون الأول ذاك يوافق شهر محرَّم، وكان يُتَوَقّع خروج تظاهرات عارمة خلال إحياء ذكرى عاشوراء. هو الشاه من سرّع سقوطَه بنفسه مرّة أخرى؛ فتحْتَ ضغوطاتِ رجال الدّين، سمح بإقامة مسيرات عاشورائيّة سلميّة. نزل ملايين الإيرانيّين إلى الشوارع في كلّ أنحاء البلد. إستولت الحشود على طهران. والغريب أنه لم يقع أي حادث كبير. كان الإحساس العام أن المُعارضة بلغت حدًّا كبيرًا من القّوة والإتساع بحيث صار قمعها بالعنف لا طائل منه. كان شارع رضا شاه سيلًا بشريًا جارفًا يصبّ في ميدان شهياد الذي أضحى بحيرةً مُرتمِشة يعلوها كصخرة عملاقة البرجُ الذي يُخلّد ذكرى الملوك، والذي كنا نشعر أن دلالاته بدأت تتبدّل، أنه في طور تحوّله إلى نصب الحريّة والثورة وانتصار الشعب. أعتقد أن جميع الأجانب الذين كانوا في طهران خلال تلك الأيام، يتذكّرون تمامًا ذاك الإحساس بأن ثمّة قوّة خارقة تنبعث من هذه الحشود. باسم الإمام الحسين الذي تركه أنصاره، باسم العدالة في مواجهة الطغيان، إستفاقت إيران من سباتها ونهضت. أيقنّا جميعنا في ذاك اليوم أن النظام سيسقط. وظننا جميعنا في ذاك اليوم أن عهد الديمقراطيّة قد بدأ.

في فرنسا، كان فريدريك ليوتي قد نجح، بإصراره المجنون، في عرض خدماته كمترجم على الخيمني في نوفل لوشاتو: هكذا صار لبضعة أسابيع واحدًا من بين مساعدي الإمام الكُثر؛ كان يجيب نيابة عنه على رسائل المُعجَبين الفرنسيين. وكان المقرّبون من الخميني يحتاطون منه ويخالونه جاسوسًا، ما كان يؤلمه إلى أقصى حدّ - كان غالبًا ما يهاتفني، فيروح يُعلّق بنبرة ودودة للغاية على آخر مجريات الثورة فيما يقول لي إنني محظوظ جدًّا لأنني في المكان المناسب في هذه اللحظات «التاريخيّة». الظاهر أنه كان

يجهل ولعي بعذراء ومؤامرتي لطرده من إيران. هي لم تطلعه على أي شيء. في واقع الأمر، هو من دفعها إلى العودة إليّ. أوقِف والد عذراء في منزله في الثاني عشر من كانون الأول وأرسِل إلى مكان سرّي هو سجن إيفين على الأرجح. كانت الإعتقالات قد أضحت شبه مُنعدمة في تلك الفترة؛ وكان الشاه يسعى إلى التفاوض مع المعارضة للتخلّص من الحكومة العسكريّة وللدعوة لاحقًا إلى انتخابات حرّة كمحاولة أخيرة منه لتنفيذ إصلاحات. لذا كان توقيف والد عذراء - مجرد أستاذِ مدرسةٍ ثانوية وناشطٍ حديث العهد في حزب توده - أمرًا يكتنفه الكثير من الغموض. كان إندلاع الثورة يبدو حتميًا لا مفر منه، لكن الآلة القمعية تابعت دورانها العبثي في العتمة - لا أحد كان يفهم لماذا أوقِف هذا الرّجل في حين أن الملايين في الأيام السابقة، كانوا يهتفون علانيّةً في الشارع، «الموت للشاه». في الرابع عشر من كانون الأول، نزلت مظاهرة مضادة مؤيّدة للشاه: مسيرة من بضعة آلاف من البلطجيين والجنود باللباس المدني، يرفعون صوَر بهلوي وعائلته. بطبيعة الحال، لم نكن نستطيع توقّع مجريات الحوادث، ولا التكهّن بأن الشاه سيُرغَم على مُغادرة البلاد بعد شهر. كان قلق وخوف عائلة عذراء يتفاقمان كلّما زاد الإضطراب العام واشتدّ الزخم الثوري. ليوتي من أقنع عذراء، عبر مكالمة هاتفية، بضرورة الإتصال بي. هاتفتني قبل عيد الميلاد بقليل؛ لم أكن أرغب في العودة إلى فرنسا لقضاء فترة الأعياد هناك؛ صدِّقا أو لا تُصدِّقا، لكنني لم أكن أريد أن أبتعد عنها. كنتُ أخيرًا سوف أراها من جديد. فطوال شهر ونصف الشهر، ما انفك ولعي يتعاظم. كنتُ أكره نفسي وأرغب في عذراء إلى حدّ أنني كنتُ أكاد أضرب رأسي بالجدران أحيانًا».

كانت سارة قد اقتربت من طاولة الحديقة؛ وكانت لا تزال واقفة، مُسندةً يديها على ظهر الكرسي كمراقب أو حَكَم، تستمع إلى مورغان نصف شاردة وبشيء من الإحتقار. أومأتُ لها برأسي

خلسةً: إشارةٌ تعني «أنرحل؟» لم تجِب عليها. كنتُ (مثلها هي من دون شك) متأرجحًا بين رغبتي في معرفة نهاية القصّة وبين نوع من الخجل، تتخلله حشمة، يكاد يحملني على الهرب من هذا العلّامة التائه في ذكرياته العشقيّة والثوريّة. الظاهر أن مورغان لم يكن يلحظ تردّدنا؛ كان يبدو أنه يرى بقاء سارة واقفة أمرًا طبيعيًا للغاية؛ لا شك في أنه كان سيتابع استحضار ذكرياته بمفرده فيما لو غادرنا. كان لا يتوقّف عن الكلام إلا ليتجرّع بعضًا من الفودكا أو ليرمق جسد سارة بنظرة تفيض شبقًا وبذاءة. كانت مدبرة المنزل قد اختفت، لقد التجأت إلى الفيلا، لا بد من أنه كان لديها أمور تفعلها أجدى من مراقبة سيّدها يسكر.

«طلبَتْ مني عذراء أن أستعين بعلاقاتي للحصول على معلومات حول احتجاز أبيها. أخبرتني أن الإحتمالات الأكثر جنونًا تتوارد إلى ذهن والدتها: مثل أن والدها يعيش في الواقع حياةً مزدوجة، أنه عميلٌ سوفياتي، إلخ. كان ليوتي قد رآني وهو مضطجع في سرير المستشفى، أتحدّث مع ضابطٍ تغطي سترته الأوسمة، فحمله جنونه على الاستنتاج أنني على معرفة شخصيّة بقادة السافاك. تركتُ عذراء لفكرتها الموهومة عني. طلبتُ منها أن تأتي إلى منزلي لكي نتكلّم في الأمر، لكنّها رفضت. عرضتُ عليها أن نلتقي في مقهى «نادري»، مؤكّدًا لها أنني ساكون في الأثناء قدّ تحرّيتُ عن وضع والدها. قبلَتْ بذلك. كانت سعادتي لا توصف. كنا في أوّل يوم من شهر «دَي» بحسب التقويم الفارسي، أي في يوم الانقلاب الشتوي؛ ذهبتُ إلى لقاء شعري فألقت امرأة قصائدَ لفروغ فرخزاد: «النؤمن ببداية فصل الصيف» ولا سيما «قلبي يحترق على الحديقة» التي ثَلّج شجنُها البسيط والعميق قلبي، لست أدري لماذا - لا أزال أعرف عن ظهر قلب نصف هذه القصيدة، «لا أحد يفكر في الأزهار، لا أحد يفكر في الأسماك، لا أحد يريد تصديق أن الحديقة تحتضر». أعتقد أن ترقبي للقاء عذراء مجددًا أحالني

مُرهَفَ الأحاسيس، أتأثّر بكلّ ما يحدث حولي. كانت أشعار فروغ تملأني حزنًا جليديًا. فالحديقة المهجورة وحوضها الفارغ وأعشابها الضارة كانت صورةً عن عزلتي وعذاب روحي. تناول كل واحد من الحضور كأسًا بعد انتهاء جلسة القراءة - على العكس مني، كان الحاضرون فرحين عمومًا، قلوبهم تنبض بالأمل الثوري: كانوا لا يتحدّثون إلا عن رحيل الحكومة العسكرية وعن إمكانيّة ترشيح شابور بختيار، وهو معارض معتدل، لمنصب رئيس الوزراء. حتّى أن البعض راح يتنبأ بتنحّي الشاه في القريب العاجل. أخذ كثيرٌ يتساءلون عمّا سيكون رد فعل الجيش - هل سيحاول الجنرالات القيام بانقلاب مدعومٍ من الأميركيين؟ كانت هذه الفرضيّة «التشيليّة» تخيف الجميع. كانت الذكرى الأليمة لإسقاط محمد مصدق عام ١٩٥٧ حاضرةً في الأذهان أكثر من أي وقت مضى. في تلك السهرة، كنتُ لا أكفّ عن الحركة ولا أثبت لحظةً في مكاني. سُئِلتُ أكثر من مرّة عن أخبار لاهوتي؛ كنتُ أتجنّب الإجابة وأنتقل سريعًا إلى مُحادِث آخر. كان معظم الحاضرين - طلّاباً، أساتذة جامعين يافعين، كُتّابًا مُبتدئين - يعرفون عذراء. علمت من أحدهم أنها لم تعد تغادر منزلها منذ رحيل ليوتي.

طرحتُ على صديق لي يعمل في السفارة بضعة أسئلة عن والد عذراء - أتى جوابه مُختصرًا فظًّا: إذا كان إيرانيًا فلا نستطيع فعل شيء. لو أنه يحمل الجنسيّتَيْن، قد يمكننا... ربّما... كما أن الإدارات الرسميّة في حالة فوضى مهولة، فلا يدري المرء مَن عليه أن يُكلّم. كان يكذب من دون شك. أُرغِمْتُ إذًا على الكذب بدوري. جلسَتْ عذراء أمامي في مقهى «نادري»؛ كانت ترتدي كنزة صوفيّة سميكة ينسدل عليها شعرها الأسود اللامع؛ لم تنظر في عينيّ ولم تصافحني؛ حيّتني بصوت بالكاد يُسمع. بدأتُ أعتذر مطوّلًا عن الأخطاء التي ارتكبتُها خلال الشهر السابق ولا سيما عن جلافتي، ثمّ رحتُ أكلّمها عن الحبّ، عن ولعي بها، بكل الرقّة

التي كنتُ قادرًا عليها. إنتقلتُ بعد ذلك إلى تحرّياتي حول وضع والدها؛ طمأنتها مؤكدًا لها أنني سأحصل على معلومات في القريب العاجل، على الأغلب في الغد. قلتُ لها إن رؤيتها قلقة ومُكتئبة إلى هذا الحدّ تُحزنني كثيرًا، وإنني سأقوم بكلّ ما في وسعي بشرط أن تزورني في منزلي من جديد. رجوتُها. ظلّتْ لا تنظر إليّ، بل إلى الندل والزبن وأغطية الطاولات البيض والكراسي المطلية باللّكر. كانت عيناها ترتجفان. بقيَتْ صامتة. لم أكن أشعر بالخجل. ما زلتُ لا أشعر بالخجل. إن لم يسبق للحبّ أن زلزل كيانكما، فلن تفهماني».

أما نحن، فكنا نشعر بالخجل - كان مورغان خائرًا، يتراخى أكثر فأكثر على الطاولة التي يتّكئ عليها؛ رأيتُ سارة مذهولة، مشدوهة بما آل إليه هذا الإعتراف؛ تخيّلتُ غضبها المُتعاظم. كنتُ مُحرجًا، لم يكن لدي سوى رغبة وحيدة، مغادرة هذه الحديقة القائظة - كنا في تمام الساعة السابعة. كانت العصافير تهلو مُتنقّلةً بين الظّل ونور شمس المغيب. نهضتُ بدوري.

رحت أنا أيضًا أتمشّى في الحديقة الصغيرة. كانت فيلا مورغان في حيّ زعفرانيّة مكانًا سحريًّا: بيتُ دمية لا بدّ من أنه شُيِّد لحارس منزلٍ كبير هُدِم ولم يتبقّ منه أي أثر، ما يُفسِّر موضع الفيلا الغريب، تقريبًا على حافة شارع ولي عصر. كان مورغان قد استأجرها من أحد أصدقائه الإيرانيّين. في المرّة الأولى التي أتيتُ فيها إلى هذه الفيلا، تلبيةً لدعوة سيدّ المنزل، في الشتاء، قبل وقت قصير من رحلتنا إلى بندر عباس، وفيما كان الثلجُ يكسو كلّ شيء وشجيراتُ الورد العارية تلتمع من الصقيع، كانت ثمة نارٌ في المدفأة - مدفأة شرقيّة الطراز تُذكِّر بالمدافئ التي في قصر توب كابي في إسطنبول. كانت الأرض كلها مُغطاة بسجاد ثمين زاهي الألوان، بنفسجي

وأزرق وبرتقالي؛ أما الجدران، فعُلّقت عليها الخزفيات القاجاريّة والمنمنمات النفيسة. كان الصالون صغيرًا وسقفه منخفضًا، فكان مناسبًا لفصل الشتاء؛ راح البروفيسور يلقي هناك أشعارًا لحافظ الشيرازي الذي كان يحاول، منذ سنوات، حفظ كامل ديوانه عن ظهر قلب، ساعيًا بذلك إلى السير على خطى مُستشرقي الماضي؛ كان يؤكد أن حفظَ كلّ الديوان عن ظهر قلب السبيلُ الوحيد لفهم ما كان يدعوه «الفضاء الغزلي»: تسلسل الأبيات، ترتيب القصائد وعلاقة بعضها بالبعض الآخر، ظهور الشخصيات والموضوعات عينها في أكثر من قصيدة؛ أن تحفظ جميع أشعار حافظ هو أن تختبر الحبّ في أعماق وجدانك. أن تُدرِك السرّ، بل الأسرار - أسرار الأصوات والأوزان والكنايات. وا اسفاه، فالشاعر كان يصُدّ المستشرق الكهل: رغم كلّ العناء الذي بذله، فإن حفظ كلّ أبيات القصائد الأربعمئة والثمانين التي يتألّف منها الديوان تبدّت مهمة مُستحيلة. كان يختلط عليه ترتيب الأبيات، وكان ينسى بعضًا منها أيضًا. إن الأسس الجمالية التي اعتمدها الديوان، لا سيما وحدة كلّ بيتَيْن متتالين - أبياتٌ تتسم بالكمال وكأنها لآلئ صُفَّت بالتالي على خيط الوزن والقافية لتنعقد غزلًا - كانت تُسهِّل نسيان بعضٍ من الأبيات. من بين الأربعة آلاف بيت التي يحتوي عليها هذا العمل، أعرف ربّما ثلاثة آلاف وخمسمئة بيت، كان مورغان يقول متحسّرًا. ينقصني دومًا خمسمئة. دومًا. لكنّها ليست أبدًا الأبيات نفسها. يظهر بعضها ويختفي بعضها الآخر. هي كغيمة من الشذرات تحول بيني وبين الحقيقة.

كنا نرى أن هذه التأمّلات الصوفيّة إلى جانب المدفأة مجرّد نزوة أدبيّة، النزوة الأحدث عهدًا التي تملّكت هذا العلّامة - إلا أن الاعترافات التي سمعناها خلال ذاك الصيف في الحديقة سوف

تمنحها معنى آخر، إذ لمحنا حينذاك منبع الولع والكتمان والإحساس بالذنب. وإن كنتُ قد كتبتُ هذا النصّ الوقور والمهيب ما إن عُدتُ إلى فيينا، فذلك لتدوين ما علِمتُه عن هذا المنبع، كما لألتقي مجددًا، عبر النشر، بسارة التي غادرت إيران مشجونةً وفي غاية الاضطراب، لترجع إلى فرنسا وإلى الكآبة الباريسيّة. يا له من إحساس غريبٍ ينتابُ المرء حين يُعيد قراءة ما كتبه! مرآةٌ تُحيلُكَ عجوزًا. تتراءى لي أناي وكأنها شخص آخر، أُفتَتَن بها وانفر منها في الوقت عينه. ذكرى من الدرجة الثانية، أُقحِمَت بيني وبين الذكرى الأولى. ورقة شفّافة يخترقها الضوء ليرسم عليها صورًا أخرى. زجاج كنيسة. الأنا هي في عتمة الليل. كياننا هو دومًا في هذه المسافة، في مكان ما بين الذات التي لا يُمكن سبر غورها والآخر الذي في الذات. في الإحساس بالزمن. في الحبّ، الذي هو استحالة ذوبان الذات في الآخر. في الفنّ، وفي مُلامسة الغيريّة.

كنّا في ورطة، لا نستطيع أن نُغادر في حين أنّ مورغان كان يبدو بعيدًا كلّ البعد عن اختتام حكايته - تابع اعترافاته، مُتفاجئًا من قدرته على الكلام كما من قدرتنا على الإصغاء إليه. رغم كلّ إيماءاتي لسارة، ورغم اشمئزازها من حديث مورغان، بقيَتْ متشبّثة بكرسيها المعدني.

«في نهاية المطاف، قَبِلتْ عذراء بأن تزورني في منزلي. حتّى أنها أتت مرّات عدّة. وصرت أختلق لها الأكاذيب عن وضع والدها. في السادس عشر من كانون الثاني، عَمِل الشاه بنصيحة أركان جيشه وغادر إيران «لقضاء عطلته في الخارج» على ما زُعِم حينذاك، فترك السلطة لحكومة إنتقاليّة يرأسُها شابور بختيار. كان أول الإجراءات التي اتخذها بختيار حلّ السافاك وإطلاق سراح السجناء السياسيين. بقي والد عذراء مختفيًا. أعتقد أن أحدًا لم

يعرف ما حصل له. كانت الثورة تبدو وكأنها اكتملت. بعد أسبوعَين، عاد الخميني إلى طهران على متن طائرة «بوينغ» تابعة للخطوط الجوية الفرنسية، خلافًا لنصيحة تلك الحكومة. إستقبله آلاف الإيرانيّين وكأنه المهدي المنتظر. لم يكن يُخيفني سوى شيء واحد: أن يكون ليوتي على متن الطائرة. لكن كلا: سوف يأتي في القريب العاجل، هذا ما كتبه لعذراء في الرسائل التي كنتُ أقرأها. كان يقلقه حزن عذراء، صمتُها وبرودتها. كان يؤكّد لها حُبّه؛ مجرّد بضعة أيام أخرى، يقول لها، ونجتمع من جديد، تشجّعي. ثمّ يقول إنه لا يفهم هذا الإحساس بالألم والعار الذي تتكلم عنه من دون أن تشرح سببه.

خلال لقاءاتنا، كانت عذراء في غاية الحزن إلى حدّ أنني رحت شيئًا فشيئًا أشمئزّ من نفسي. كنتُ أعشقها بجنون وأريدها سعيدةً، فرحةً، وعاشقةً هي أيضًا. كانت مُلامساتي المحمومة وقبلي الحارّة لا تنتزع منها سوى دموع صامتة وباردة. كنتُ ربّما أمتلكُ جمالها، لكنّها كانت تنسلّ من بين يديّ. كان الشتاء طويلًا لا نهاية له، جليديًّا ومُظلمًا. وكانت إيران تغرق في الفوضى. لقد ظننا للحظة أن الثورة وصلت إلى خواتيمها، إلا أنها كانت لا تزال في طور البدايات. دخل رجال الدّين ومؤيدو الخميني في مواجهة مع الديمقراطيين المعتدلين. وكان الخميني قد عيّن بعد بضعة أيام من عودته إلى البلاد، رئيسَ وزرائه الخاص والموازي: مهدي بازركان. أضحى بختيار عدوًّا للشعب وآخِر ممثّل للشاه. بدأنا نسمع هتافات مؤيدة لقيام «جمهوريّة إسلاميّة». نُظّمت لجان ثوريّة في جميع الأحياء - هذا إن كان ممكنًا استخدام كلمة «تنظيم». إنتشر السلاح. العصي الغليظة، الهراوات، ثمّ - عقب إعلان جزء من الجيش تأييده للثوار في الحادي عشر من شباط - الأسلحة الرشاشة: إحتلّ مناصرو الخميني جميع مباني الإدارات الحكوميّة وحتّى قصور الشاه. صار بازركان أوّل رئيس حكومة لم يُعَيّنه الشاه

بل الثورة - أي الخميني في الواقع. كنا نشعر بخطر محدق، بأنّ الكارثة وشيكة. وكانت القوى الثوريّة غير مُتجانسةٍ وغاية في التنافر إلى حد استحالة التكهّن بالشكل الذي قد يتّخذه النظام الجديد. شيوعيّو حزب توده، الشيوعيون الإسلاميون، مجاهدو الشعب، رجال الدّين الخمينيون المناصرون لولاية الفقيه، الليبراليون المؤيدون بختيار وحتّى الأكراد الاستقلاليون، جميعهم كانوا يتنافسون فيما بينهم على السلطة في مواجهة شبه مفتوحة. كانت حريّة التعبير مطلقة، وكانت الصُحُف والمنشورات السياسيّة ودواوين الشعر تُطْبَع بكميات مهولة. أما الاقتصاد، فكان في حالة كارثيّة، إذ وصلت الفوضى في البلاد إلى حدّ عدم توافر السلع الأساسية. كأن ثروات طهران والترف الباذخ قد تبخّرت بين ليلة وضحاها. لكن بالرّغم من كلّ شيء، كنا نلتقي ، نحن شلّة الأصدقاء، ونلتهم علبةً بعد علبةٍ من الكافيار المهرّب، ذي الحبّات الكبيرة والخضراء، مع خبز «السانجاك» الإيرانيّ والفودكا السوفياتيّة - كنا نشتري كلّ ذلك بالدولار. فالخوف من انهيار البلد بأكمله دفع البعض إلى اللجوء إلى العملات الأجنبيّة.

كنتُ قد علمتُ من وقت قصير سببَ عدم عودة ليوتي إلى إيران؛ كان أُدْخِل مستشفى في الضاحيّة الباريسيّة. اكتئاب حاد، هلوسات، هذيان. صار لا يتكلّم إلا بالفارسية وبات مقتنعًا أنه يُدعى فريد لاهوتي. أرجع الأطباء حالته إلى الإرهاق في العمل وإلى صدمة نفسيّة مرتبطة بالثورة الإيرانيّة. رسائله إلى عذراء التي كانت أصلًا كثيرة، أخذت تتزايد وصارت أكثر سوداويّة. لم يكن يحدّثها عن علاجه في المستشفى، بل عن آلام الحبّ والمنفى فقط. ثمّة صورٌ كانت تتكرر في مراسلاته: الجمرة التي تحوّلت في غياب الحبيب، فحمًا صلبًا، قاسيًا وسهل التَفَتُّت؛ شجرةٌ أغصانها جليديّة، قتلتها شمس الشتاء؛ رجلٌ في المنفى أمام وردة غامضة لا تتفتح أبدًا. وبما أن ليوتي نفسه لم يكن يأتي على ذكر ذلك، لم

أطْلِع عذراء على وضعه الصحّي. كان ضميري يؤنبني على ما اقترفته من ابتزاز لها وكذب عليها. كنتُ أريد عذراء لي وحدي بكاملها؛ إمتلاكي جسدها لم يكن سوى رشفة صغيرة من بحر لذّة أكثر اكتمالًا. كنتُ أحاول أن أكون لطيفًا، أن أغويها وألّا أكْرِهها على أي شيء. وكنتُ في أكثر من مرة على وشك الاعتراف لها بالحقيقة، بكل الحقيقة: جهلي التام بوضع والدها، حالة ليوتي الصحيّة في باريس، مؤامرتي الهادفة إلى طرده. تضليلي لها كان في الواقع دليلًا على حبّي. فأنا لم أكذب عليها إلا لأنني كنتُ مولعًا بها، وكنتُ آمل أن تفهم ذلك.

كانت عذراء تُدرِك أن والدها لن يعود أبدًا على الأرجح. كان قد أُطلِق سراح جميع أسرى الشاه الذين سرعان ما حلّ محلّهم، في السجون، جنود النظام ومؤيدوه. كانت الدماء تسيل - عساكرٌ وموظفون كبار يُعدَمون على عجل. صار المجلس الثوري الذي أنشأه الخميني، يرى في مهدي بازركان، رئيس الوزراء الذي عيَّنه الإمام نفسه، عائقًا أمام قيام الجمهوريّة الإسلاميّة. إن تلك المواجهات الأولى، إضافة إلى ما أعقبها من تحوّل اللجان الثوريّة إلى «حرس الثورة الإسلامية» وإلى «قوات تعبئة الفقراء والمستضعفين»، كانت تُمهّد الطريق للإستيلاء على السلطة. منتشيّةً بالغليان الثوري، بدت الطبقات الوسطى والتشكيلات السياسيّة الأكثر قوّة (حزب توده، الجبهة الديمقراطيّة، مجاهدو الشعب) وكأنها لا تعي مدى تعاظم الأخطار. أما المحكمة الثوريّة الجوّالة التي يرأسها صادق خلخالي المُلقَّب بالجزار - وهو في الوقت عينه القاضي والجلّاد - فكانت باشرت عملها. بالرّغم من كلّ ذلك، منذ نهاية آذار، وفي أعقاب استفتاء دعا إليه، من بين آخرين، الشيوعيون والمجاهدون، تحوّلت الإمبراطورية الإيرانيّة إلى الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة وشرعت تصوغ دستورها.

كانت عذراء قد تخلّت في ما يبدو عن نظريات شريعتي للتقرّب

من حزب توده الشيوعي. كانت لا تزال منخرطة في العمل النضالي، تُشارك في التظاهرات وتنشر مقالات نسويّة في الصحف المُقرّبة من الحزب. كما أنها جمعت بعضًا من قصائد فريد لاهوتي - القصائد الأكثر سياسيّةً - في ديوان صغير سلّمته إلى أحمد شاملو نفسه، الشاعر الأكثر شهرةً وتحديثًا ونفوذًا حتّى منذ تلك الفترة؛ وجد شاملو الديوانَ رائعًا (مع أنه كان صارمًا قاسيًا في آرائه حول أعمال مُعاصريه من الشعراء): ذهِل حين علم أن هذا اللاهوتي هو في الحقيقة مستشرق فرنسي، ونشر بضعة من هذه النصوص في مجلّات مرموقة. إن هذا النجاح الذي لاقاه ليوتي أفقدني صوابي من شدّة الغيرة. حتّى وهو في الإقامة الجبرية قابعًا في سرير مستشفى على بعد آلاف الكيلومترات، كان يقدر أن يُنكّد عليّ حياتي. كان ينبغي أن أتلِف كلّ تلك الرسائل اللعينة بدلًا من الإكتفاء بحرق بعضٍ منها فقط. في آذار، حين عاد الربيع وافتتح النوروز العامَ ١ من حياة الجمهوريّة الجديدة، وحين كانت آمال شعبٍ بأكمله تنمو مع الورد، آمالٌ ستتآكلها النيران بسهولة كأنها مجرّد ورد، وبينما كنتُ أسعى للزواج بالمرأة التي أحبُّها بجنون، أخذ هذا الديوانُ التافه، نتيجة إعجاب أربعة مثقّفين به، يوثّق الصلة بين عذراء وفرِد. هي لم تكن تتكلم إلا عن هذا الأمر. إلى أي درجةٍ راقت هذه القصائد لهذا أو ذاك. وكيف أن المُمَثّل الفلاني سوف يقرأ هذه الأبيات خلال سهرة ستنظّمها هذه المجلّة الرائجة أو تلك. كان هذا النجاح المُبهِر يمنح عذراء القوّة لاحتقاري. صرتُ أشعر باحتقارها في حركاتها ونظراتها. تحوّل إحساسها بالذنب إلى كراهية واحتقارٍ لي ولكل ما كنتُ أمثّل، فرنسا، الأوساط الجامعيّة. كنتُ أحاول من خلال وساطاتي أن أحصل لها على منحة دكتوراه لكي ترافقني إلى باريس بعد انتهاء إقامتي في إيران. كنتُ أريد الزواج بها. كانت ترفض كلّ ذلك باحتقار. والأسوأ أنها كانت تمنع نفسها عني. كانت تأتي إلى شقّتي

لتستفزّني وتستهزئ بي، لتُحدّثني عن قصائد ليوتي وعن الثورة، ثمّ لتصدّني. كنتُ قبل شهرين فقط، أعانقها وأضمّها إلى صدري، وإذا بي أجد نفسي قد أضحيتُ قمامةً مُقزّزة ترميها عذراء بقرف».

دفع جيلبير كأسه فاندلق محتواها فيما هو يطرد بيده العصافير التي كانت قد تجرّأت على نقر فتات الحلويات على الطاولة. صبّ لنفسه كأسًا أخرى وأفرغها بجرعة واحدة. كانت عيناه مغرورقتَيْن بدموعٍ يبدو أن سببها ليس السكر. كانت سارة قد عادت إلى الجلوس. راحت تُراقب العصافير وهي تطير لتحتمي بالشجيرات. كنتُ أعلم أنها متأرجحة بين الشفقة والغضب؛ كانت تتجنب النظر إلى مُحدِّثنا، لكنّها لم ترحل. ظلّ مورغان صامتًا وكأنه قد اختتم حكايته. فجأةً، ظهرت نسيم خانم من جديد. أزالت الفناجين والصحون. كانت ترتدي حجابًا أزرق داكنًا مربوطًا بإحكام تحت الذقن وقميصًا رماديًا مُزركشًا بالبني؛ لم ترمق ربّ عملها ولو بنظرة واحدة. إبتسمت لها سارة؛ ردّت لها الإبتسامة وعرضت عليها بعضًا من الشاي أو الليموناضة. شكرتها سارة بلطف وبالفارسيّة لاهتمامها وعنائها. إنتبهتُ إلى أنني أموت من العطش، فغالبتُ خجلي لكي أطلب من نسيم خانم مزيدًا من الليموناضة: كان لفظي للفارسيّة مريعًا للغاية إلى حد أنها لم تفهمني. سارعتْ سارة إلى نجدتي كالعادة. تهيّأ لي - يا له من إحساس مزعج - أنها تُكرر تمامًا ما كنتُ قد تفوّهتُ به للتّو، إلا أن نسيم خانم فهمت على الفور هذه المرّة. رحتُ أتخيّل أن ثمّة مؤامرة، أن هذه السيّدة المُحترمة تتظاهر بعدم فهمي لأنها تُصنّفني في خانة الرجال، إلى جانب ربّ عملها المُرعِب الذي بقي صامتًا، عينَاه حمراوَان من الفودكا والذكريات. تلحظ سارة انزعاجي واضطرابي، تُسيء تفسيرهما؛ تُحدّقُ بي لبرهة وكأنها تُمسِكُ بيدي لتنتشلنا نحن الإثنين من وحل نهاية بعد الظهر هذا، فيُحيل هذا الحنانُ المُباغت وترَ الرابط بيننا مشدودًا متينًا للغاية إلى حد أن طفلًا في استطاعته أن

يلعب به لعبة القفز فوق الحبل المطاط، هنا وسط هذه الحديقة المشؤومة التي يحرقها قيظ الصيف.

لم يعد لدى مورغان أي شيء يُضيفه. كان يهزّ كأسه مرّة وثانية وثالثة فيما عيناه تائهتان في الماضي. حان وقت المغادرة. جذبتُ نحوي تلك الحبال الخفيّة المُمتدّة بيني وبين سارة، فنهضنا معًا.

شكرًا يا جيلبير على هذه الجلسة الرائعة. شكرًا. شكرًا.

أعِبُّ كأس الليموناضة الذي جلبته نسيم خانم للتو. جيلبير لا ينهض، هو يتمتم أبياتًا فارسيّة لا أفقهُ منها شيئًا. سارة واقفة؛ تروح ترتدي حجابها الحريري البنفسجي. أعدّ آليًا بقع النمش على وجهها. أفكّر: عَذرا[1]، سارة، اللفظ والأحرف نفسها تقريبًا. الولع نفسه. مورغان ينظر هو الآخر إلى سارة. هو جالسٌ وعيناه مسمرتان على ردفيها يحجبهما الرداء الإسلامي الذي لبسته لتوّها بالرّغم من الحرّ.

«ماذا حلّ بعذراء؟». كنتُ أريد حمله على إشاحة بصره عن جسد سارة. سألته ذلك بغباءٍ، مدفوعًا بالغيرة، وكأنني أُذَكّر فاجرًا عربيدًا باسم زوجته لعلّ الصوت هذا والله عزّ وجل وقانون كانط الأخلاقي يجلدونه ويعيدونه إلى الصراط المستقيم.

إلتفت مورغان صوبي والأسى بادٍ على وجهه:

«لست أدري. قيل لي إن النظام أعدمها. هو أمرٌ محتمل. لقد اختفى آلاف الناشطين السياسيين خلال بداية الثمانينات. رجال ونساء. الوطن في خطر. بدلًا من أن يُضعِفَ العدوانُ العراقي النظامَ كما كان متوقّع، أمدّه بالمزيد من القوة ومنحه ذريعة للتخلّص من المُعارضة الداخليّة بأكملها. إن الشبّان والشابات الذين شهدوا على سقوط الشاه وقيام الجمهوريّة الإسلاميّة، هذه الطبقة الوسطى (يا لها من عبارة كريهة) التي هتفت وكتبت وناضلت سعيًا إلى

---

(١) اسم عذراء يُلفظ «عذرا» بالفرنسية.

الديمقراطيّة، إن هؤلاء جميعهم قد انتهى بهم الأمر إما مشنوقين في سجن مُظلِم، أو مقتولين على جبهة القتال، أو مرغمين على العيش في المنفى. غادرتُ إيران بعد بداية الحرب بقليل. عُدتُ إليها بعد ثماني سنوات، في العام ١٩٨٩. كانت قد أضحت بلدًا آخر. كانت الجامعات تعجّ بمقاتلين سابقين لا يجيدون تركيب جملة وقد صاروا طلابًا بنعمةٍ من الباسيج. طلابٌ سوف يصبحون أساتذة. أساتذة جهلة سوف يتلمذ على أيديهم طلابٌ مصيرهم الرداءة. كان جميع الشعراء، جميع الموسيقيين، جميع الباحثين والعلماء منفيين داخل وطنهم، تسحقهم ديكتاتوريّةُ الحِداد. جميعهم قابعون تحت ظلال الشهداء. كلّما رمشت لهم عين، يُذكّرونهم بشهيد ما. جميع شوارع أحيائهم وأزقتها ومحالها كانت تحمل أسماء شهداء. أموات، دماء. قصائد للموتى، أناشيد للموتى، ورود للموتى. إمتزج الشعر الغنائي بأسماء العمليات العسكرية: فجر ١، فجر ٢، فجر ٣، فجر ٤، فجر ٥، كربلاء ١، كربلاء ٢، كربلاء ٣، كربلاء ٤ وهلم جرا حتّى ظهور المهدي. لا أعرف أين ومتى ماتت عذراء. في سجن إيفين على الأرجح. مُتُّ معها. أو حتّى قبل ذلك. في العام ١٩٧٩، أي العام ١ للثورة، أو عام ١٣٥٧ بحسب التقويم الفارسي. لم تعد تريد أن تراني. الأمر بهذه البساطة. ذابت في إحساسها بالعار. حين كان الخميني يتخبّط محاولًا تعزيز سلطته، هجرتني عذراء بعد أن أمدتّها قصائد لاهوتي بالقوة اللازمة للإقدام على ذلك، ولم أرَها مرّة أخرى. لقد علمَتْ الحقيقة، قالت لي. حقيقة واحدة - مؤامرتي لإبعاد حبيبها وأكاذيبي حول وضع والدها - ولا الحقيقية. فالحقيقة هي حبّي لها، حبٌّ إستطاعت أن تتيقّن منه في كلّ لحظة أمضيناها معًا. هذه هي الحقيقة الوحيدة. فأنا لم أشعر بالإكتمال إلا في تلك اللحظات التي كنتُ فيها مع عذراء. أنا لم أتزوج قط. لم أقطع وعدًا على أي امرأة. إنتظرتها طوال حياتي.

لم يتحلّ فرِد ليوتي بصبري. شَنق لاهوتي نفسه على شجرة دردار بواسطة شرشف، في حديقة المُستشفى، في كانون الأول ١٩٨٠. لم تكن عذراء قد رأته منذ حوالى سنتَين. أعلمها أحدٌ ما بوفاته. لكنّها لم تأتِ إلى السهرة التي اقمناها في المعهد تكريمًا لذكرى ليوتي. كما أن أحدًا من أولئك الشعراء الذين ادّعوا إعجابهم بكتاباته لم يأتِ. كانت سهرة جميلة، ورِعة، حميمة. بأسلوبه المُنمّق والمُتكلّف المُعتاد، كان ليوتي قد عيّنني «وصيًا على شؤونه الأدبية». أحرقتُ أوراقه كلها في حوض المجلى، مع أوراقي أنا. جميع ذكريات تلك الفترة. كانت الصور الفوتوغرافية تتلوّى وقد أضحت صفراء وسط النيران؛ وكانت الدفاتر تحترق ببطء وكأنها حطب».

غادرنا. كان مورغان لا يزال ينشد قصائد غامضة. أومأ لنا سريعًا بيده حين عبرنا البوابة الصغيرة التي في جدار الحديقة. بقي وحده مع مُدبّرة منزله وطيور نقّار الخشب، تلك الطيور التي تُعشش في جذوع الأشجار وغالبًا ما يكون أعلى رأسها أحمر.

في سيّارة الأجرة التي عادت بنا إلى وسط المدينة، راحت سارة تُكرر: «يا له من مسكين، يا إلهي، لماذا أخبرنا هذه القصّة، يا له من وضيعٍ قذر»، بنبرة تنمّ عن عدم التصديق، كأنها، في نهاية المطاف، كانت عاجزة عن التسليم بصحّة حكاية جيلبير دي مورغان، عن الإقتناع بأن هذا الرّجل الذي تَعرِفه منذ أكثر من عشر سنوات، هذا الرّجل الذي لعب دورًا محوريًا في حياتها المهنيّة، كان في الواقع شخصًا آخر، يُشبه فاوست لكنّه لا يحتاج إلى مفيستوفيليس كي يبيع روحه للشّر ويمتلك عذراء، شخصٌ عِلْمُه كله مبنيٌّ على دَجَلٍ لا يُصدَّق، منقطع النظير. كانت سارة عاجزة عن تخيُّل أن هذه القصّة قد تكون حقيقيّة لسبب بسيط جدًّا، ألا وهو أن جيلبير نفسه مَن رواها. لا يمكنه أن يكون مجنونًا لدرجة تدمير نفسه بهذا الشكل، هو إذًا - أقلّه بحسب منطق سارة، طريقتُها في حماية

نفسها - يكذب. يختلق حكايات. يريدنا أن نلومه لسبب غامض وحده الله يعلم ما هو. ربّما يريد أن يُحمّل نفسه مسؤولية شناعةٍ ارتكبها شخص آخر. إن كانت تحقد عليه وتنعته بالحقير، فذلك لأنّه لطّخنا بهذه السفالات والخيانات. لا يمكنه أن يعترف بهذه البساطة بأنه اغتصب تلك الفتاة وابتزها، هذا لا يُعقل، لا يمكنه أن يروي ذلك بكل هذه البرودة وهو يشرب الفودكا في حديقته، وكنتُ أشعرُ بالتردّد في صوتها. كانت على حافة البكاء، في سيارة الأجرة التي كان سائقها يضغط بكامل قوّته على دواسة الوقود منحدرًا بسرعة هائلة في شارع «مدرّس» الذي كان يُدعى سابقًا في زمن عذراء وفريد - شارع ملك الملوك. لم أكن مقتنعًا بأن مورغان يكذب. بل على العكس تمامًا، إذ كانت تصفيّة الحساب مع النفس التي شهدنا عليها في الحديقة، تبدو صادقة إلى أقصى الحدود، حتّى في مضامينها التاريخيّة.

كان هواء الغسق دافئًا، جافًّا ومُكهربًا، يعبق برائحة العشب المُحترق وبكلّ أكاذيب الطبيعة.

في أي حال، أعتقد أنه كان يروق لي نوعًا ما، هذا الجيلبير ذو الوجه الذي يميل إلى الطول. هل كان يعلم أنه مريض، يوم ذاك الاعتراف؟ أمرٌ محتمل، فقد غادر إيران نهائيًا بعد أسبوعَين لأسباب صحيّة. لا أذكر أنني أطلعتُ سارة على هذا النصّ؛ ربّما ينبغي أن أرسله لها، أو بالأحرى نسخة منه حُذِفت منها التعليقات المُتعلّقة بها. هل سيثير اهتمامها؟ لا شكّ في أن سارة سوف تقرأ هذه الصفحات بطريقة مُختلفة. قد ترى في قصّة حبّ فريد وعذراء حكاية رمزية عن الإمبرياليّة والثورة. ولعلها ستتوقف عند أوجه التباين بين ليوتي ومورغان؛ وسوف تستخلص من كلّ ذلك تأملات حول مسألة الغيريّة: فِرد ليوتي ينفي الغيريّة تمامًا ويغوص في الآخَر، يَعتقد أنه

صار الآخَر ويكاد، في جنونه، أن ينجح في أن يصير الآخر؛ أما مورغان، فيسعى إلى امتلاك هذه الغيريّة، إلى السيطرة عليها، إلى جذبها إليه للإستيلاء عليها والتمتّع بها. مُحزنٌ جدًّا أن سارة عاجزة عن قراءة قصّة حبّ على ما هي عليه: مجرد قصّة حبّ، حيث يخلع الهيامُ العقلَ عن عرشه؛ إن عَجْزها هذا له دلالات كثيرة، قد يقول الدكتور فرويد. هي تُبدي مُقاومة. في نظر سارة، الحبّ ليس سوى التقاء أمور عَرَضِيَّة، هو في أحسن الأحوال، منظومة كونيّة لتبادل الهبات والخدمات بين البشر؛ أما في أسوأها، فهو لُعبة سيطرةٍ تُلعَب بواسطة مرايا الرغبة. يا لها من نظرة مُحْزِنة! هي تحاول أن تقي نفسها الألم الذي تُولّده العواطف، لا شكّ في ذلك. تريد أن تتحكّم بكلّ ما يمتلك القدرة على إيذائها؛ أن تحتمي إستباقيًا من الضربات التي قد تُسدَّد إليها. هي تعزل نفسها.

إن المستشرقين كلّهم، مستشرقي الماضي ومستشرقي اليوم، يطرحون على أنفسهم هذا السؤال حول الإختلاف، حول الذات وحول الآخَر - بعد مدّة وجيزة من رحيل مورغان، وفي حين كان مثالي الأعلى العالم الموسيقي جان دورينغ قد وصل للتوّ إلى طهران، أتى لزيارتنا في المعهد جيانروبرتو سكارسيا، وهو باحث إيطالي مرموق إختصاصه الأدب الفارسي، كان قد تتلمذ على يد بوزاني العظيم، أحد مؤسسي مجال الدراسات الإيرانيّة في إيطاليا. كان سكارسيا رجلًا إستثنائيًّا، لامعًا، واسع العلم وساخرًا. وكان من بين أمور أخرى، يُعنى بأدب أوروبا الفارسي: وكانت هذه العبارة، «أدب أوروبا الفارسي»، تسحر سارة. كان يُبهِجُها أنّ شعراء كانوا ينظمون قصائد بالفارسيّة على بعد بضعة كيلومترات من فيينا وحتّى نهاية القرن التاسع عشر، قدر ما كانت تُبهِجها (أو ربّما أكثر) ذكرى أولئك الشعراء العرب الذين عاشوا في صقلّية وجزر البَلْيار

وفالنسيا. حتّى أن سكارسيا كان يؤكّد أن آخِرَ شاعرٍ فارسي في الغرب، وفق ما كان يدعوه، ألبانيٌ ألّف روايتَين منظومتَين على أوزان الشعر واستمرّ يكتبُ قصائد غزليّة إباحيّة حتّى الخمسينات من القرن المنصرم، مُتنقلًا بين تيرانا وبلغراد. واصلَت إذًا لغةُ حافظ الشيرازي ريّ القارة العجوز إلى ما بعد حرب البلقان وحتّى إلى ما بعد الحرب العالميّة الثانيّة. المُدهش - أضاف سكارسيا وابتسامة طفوليّة تعلو وجهه - هو أن هؤلاء الشعراء ساروا على درب التراث الشعري الفارسي القديم، لكنّهم طعّموه بعناصر من الحداثة - تمامًا مثلما كان نعيم فراشري، مُمجّد القوميّة الألبانيّة وآخر شاعر فارسي في الغرب، ينظم أشعارًا بالفارسيّة والألبانيّة وحتّى بالتركيّة واليونانيّة؛ لكنّه فعل ذلك في حقبة مختلفة تمامًا: فألبانيا أضحت بلدًا مستقلًا في القرن العشرين، كما أن الثقافة التركيّة-الفارسيّة في البلقان كانت في طور احتضارها وقتذاك. «كم هو غريب، قالت سارة مفتونةً، أن يكتب شاعرٌ بلغة لم يعد أحد يفهمها أو يريد أن يفهمها في بلده!». فأضاف سكارسيا فيما شعلة مَكرٍ تلتمع في عينيه الفاتحتَين للغاية، أنه ينبغي كتابة تاريخ أدب أوروبا العربي والفارسي لكيّ يُعاد اكتشاف هذا الإرث المنسي. الآخَر في الذات. بدا على سكارسيا شيءٌ من الحزن: «لسوء الحظ أن جزءًا كبيرًا من هذا الكنز قد أُتلِف مع تدمير مكتبات البوسنة في بداية التسعينات من القرن الماضي. إن هذ الأثر لأوروبا مُغايرة يُزعِج كثيرين. لكن ثمة كُتب ومخطوطات لا تزال في إسطنبول وبلغاريا وألبانيا، وفي جامعة براتيسلافا أيضًا. فكما سبق وكَتبتِ يا عزيزتي سارة، على الاستشراق أن يكون إنسانويّة». فتحت سارة عينيها على اتساعهما - سكارسيا قد قرأ إذن مقالتها عن إغناتس غولدتسيهر وجرشوم شولم والاستشراق اليهوديّ. لقد قرأ سكارسيا كلّ شيء. كان من عَلياء

سنيه الثمانين، ينظر إلى الدنيا بفضولٍ لم يَفتر أبدًا.

إن بناء الهويّة الأوروبيّة بما هي لعبة «بازل» ظريفة حيث تُصَفُّ القوميات واحدةً جنب الأخرى، قد محا كلّ ما لم يعد يَدْخُل في خانات هذه الأيديولوجيا. وداعًا الاختلاف، وداعًا التنوّع.

إنسانويّة تستند إلامَ؟ إلى أي مبدأ كوني؟ الله، الذي لا تصدُر عنه أي إشارة في صمت الليل الأبدي؟ هل باستطاعة وحدة الشرط البشري - وسط ناحري العنوق ومُجوّعي البشر ومُلوّثي البيئة - التأسيس لشيء ما، ليس لديّ أدنى فكرة. العِلم؟ ربما. العلم، وكوكب الأرض كأُفُقٍ جديد. الإنسان بما هو أحد الثدييات. بما هو أحد المخلّفات الشديدة التعقيد لتطوّر جزيئات الكربون. بما هو جُشْأة. برغوث. ليس في الإنسان حياةٌ أكثر ممّا في برغوث. فيه حياة قدر ما في برغوث من حياة. هو يحوي كمًّا أكبر من المادة، لكن القدر نفسه من الحياة. صحيح أنني أتذمّر من الدكتور كراوس، لكنني أحسَد على شروط حياتي مُقارنة بشروط حياة حشرة. إن الجنس البشري ليس في أحسن أحواله ولا يقوم بما في وسعه في هذه الأيام. يرغب المرء في أن يتّخذ من الكتب وأسطوانات الموسيقى وذكريات الطفولة ملاذًا له. يرغب في أن يُطفئ الراديو. أو في أن يَغرَق في الأفيون مثل فوجيه. كان حاضرًا هو الآخر خلال زيارة جيانروبرتو سكارسيا. كان قد عاد لتوه من رحلة إستكشافيّة في العوالم السُفْليّة. إن هذا الباحث المَرِح للغاية والمُختّص بالدعارة كان يطبخ آنذاك معجمًا للألفاظ العاميّة الفارسيّة، قاموس فظاعات: المفردات المتعلّقة بالمخدّرات وتعاطيها طبعًا، لكن أيضًا العبارات التي يستخدمها أهل الدعارة من الرجال والنساء - رجالٌ ونساءٌ كان يُعاشِرهم. ففوجيه كان يشتهي الذكور والإناث؛ وكان يروي لنا مُغامراته بصراحةٍ غاية في السوقيّة إلى حد أنني غالبًا ما كنتُ أودّ صمّ

أذنيّ. لو كوّن المرء تصوّره عن طهران عبر الاستماع إلى فوجيه حصرًا، لتخيّل أنها ماخورٌ ضخم لا يسكنه سوى المدمنين - صورة فيها الكثير من المبالغة، لكنّها لا تفتقر تمامًا إلى الصّحة. ذات يوم، فيما كانت سيارة الأجرة تنحدر بي من ساحة تجريش، سألني السائق العجوز الذي يبدو أنه أرخى براغي مِقوَده بعض الشيء كي لا يتأثر كثيرًا بارتجاج السيارة العنيف... سألني فجأة ومن دون أي مواربة: ما ثمن المومس في أوروبا؟ كان عليه أن يُكرّر سؤاله مرّات عدّة لدرجة ما كانت كلمة «جنده» تبدو لي عصيّة على الفهم وحتّى على اللفظ: لم أكن قد سمعت أحدًا يتفوه بها قط. كان تبرير جهلي أمرًا عسيرًا، فالسائق العجوز أبى أن يُصدِّق أنني لم أعاشر أي عاهرة في حياتي. أرهقني إلحاحُه فاستسلمت أخيرًا وأعطيته رقمًا عشوائيًا بدا له هائلًا، لا يُصدَّق؛ راح يُقهقه وهو يقول آه، الآن فهمتُ لماذا لا تتردّد على بيوت الدعارة! إن كانت هذه كلفتهن، فالأحرى بالمرء أن يتزوّج! ثمّ أخبرني أنه بالأمس فقط، ضاجع عاهرة هنا، في سيارته. قال لي: «النساء اللاتي تراهنّ وحدهنّ بعد الساعة الثامنة مساءً هن في أغلب الأحيان مومسات. عاهرة البارحة هي التي عرضت عليّ خدماتها».

كان يضغط على دواسة الوقود بكلّ قوّته، يقود متعرجًا بين العربات التي يتجاوزها أحيانًا من جهة اليمين، يُطلق بوق السيّارة وهو يُخضخض المقود كأنه ممسوس؛ كان يلتفت إلى الخلف لينظر إليّ، فتنحرف عربة الـ«بيكان» العتيقة يسارًا ونكاد نتعرّض لحادث.

«هل أنتَ مسلم؟

- كلا، مسيحي.

- أنا مسلم، لكنني أحبّ العاهرات كثيرًا. عاهرةُ البارحة طلبَتْ مني عشرين دولارًا.

- آه.

- هل تجد أن هذا كثير؟ في إيران، هن يصبحن عاهرات لأنهن في حاجة إلى المال. أمرٌ حزين. الوضع هنا يختلف عن أوروبا.

- أوضاعهنّ في أوروبا ليست أفضل بكثير.

- في أوروبا، هن يتمتّعن بعملهن. هنا كلا».

تخاذلتُ ولم أحاول تبديل قناعاته. توقّفَ لحظة عن الكلام لينسَلّ مسرعًا بين حافلةٍ وسيارةٍ يابانيّة هائلة، رباعيّة الدفع. على طرف الطريق السريع، كان ثمة عمّال بساتين يشجذّبون شجيرات الورد.

«عشرون دولارًا مبلغٌ باهظ. لقد قلتُ لها: ألا تهاودي معي في السعر، فأنا في عمر جدّك؟.

- آه.

- أنا أجيد التعامل مع العاهرات».

حين وصلتُ إلى المعهد، أخبرتُ هذه القصّة العجيبة إلى سارة التي لم تضحك قط، وإلى فوجيه الذي راح يقهقه عاليًا. كان ذلك قبل مدّة وجيزة من اعتداء عناصر من الباسيج عليه؛ تلقّى بضعة ضربات بالهراوات ولم يتّضح سبب تعرّضهم له - رسالة سياسيّة موجّهة إلى فرنسا، أم «مجرد قضيّة إخلال بالآداب العامة»، لم نكن نعلم. راح فوجيه يداوي كدماته الزرق بالضحك والأفيون، وكان يرفض الدخول في تفاصيل المواجهة، مُكررًا لكلّ من يرغب في الإنصات إليه أن «علم الإجتماع هو فعلًا رياضة قتالية». كان يُذكّرني بشخصيّة ليوتي في حكاية مورغان - كان يأبى الإقرار بالعنف الذي تعرّض له. كنا نُدرِك أن إيران بلدٌ يمكن أن يكون أحيانًا محفوفًا بالأخطار، بلدٌ أزلام نظامه الرسميون والمستترون يرتكبون ما يحلو لهم من شناعات في وضح النهار، لكن كنا نظنّ أن جنسياتنا الأجنبيّة

ومناصبنا الجامعيّة تقينا شرورهم - كنا مخطئين: إذ أن الإضطرابات الداخليّة للسلطة الإيرانيّة كان يمكنها أن تطاولنا وتلحق بنا الأذى، من دون أن نفهم تمامًا سبب ذلك. لكن المعنيّ الأساسي في هذه المسألة لم يكن مُخطئًا: كانت أبحاثه تتماهى مع سلوكاته وأخلاقه وآدابه، فآدابه وأخلاقه وسلوكاته جزء لا يتجزّأ من أبحاثه، وكان الخطر أحد العوامل الرئيسية التي تجذبه إلى موضوعاته البحثيّة. كان يؤكدّ أن تلقّي المرء ضربة سكين في حانة من حانات إسطنبول المريبة أمرٌ أكثر احتمالًا من تعرّضه للمثل في حانات طهران، ولا شكّ في أنه كان مُحقًّا. على أي حال، كانت فترة إقامته في إيران قد شارفت على نهايتها (ما كان يُريح بال السفارة الفرنسيّة كثيرًا)؛ كان يقول إن الضربَ الذي ناله طريقةُ إيران في وداعه، وأن الكدمات على جسده تذكارٌ أهدته إياه الجمهوريّة الإسلاميّة. إن أهواء فوجيه وولعه بكل ما هو مُضطرب وعَكِر لم تكن لتُضعِف من تبصّره المُذهل والقاسي فيما يتعلّق بشخصه وحالته - كان هو نفسه موضوعًا لأبحاثه؛ كان يُقرّ أنه ككثر من المستشرقين والديبلوماسيين الذين لا يعترفون بذلك بسهولة، إختار الترحال في بلاد الشّرق، في تركيا وفي إيران، تدفعه رغبة شبقيّة في امتلاك الجسد الشّرقي - صورةٌ شهوانيّة عن عالم إباحي، سحرته منذ أيام المراهقة. كان يحلمُ بعضلاتٍ مدهونةٍ بالزيوت لرجالٍ يُمارسون الرياضة عُراة، بأحجبة الراقصات اللاتي يعبقن بالعطور الطيّبة، بعيونٍ - لرجال ونساء - يُزيّنها الكحْل، بأبخرة الحمّامات التركيّة حيث الهوامات كلّها تستحيل حقيقةً. كان يتخيّل نفسه مستكشفًا الأهواء والرغبات، وهذا ما أضحى. لقد أتى مفتونًا بهذه الصورة الاستشراقية عن العالِمة والغلام، وراح يدرس تجلّياتها في دنيا الواقع فأولِع بالصورة الحقيقية إلى حدّ أنه استبدَل بها الحُلم؛ كان يعشق راقصاته العاهرات والمُسنّات، وقواداته اللاتي

يعملن في مواخير إسطنبول المريبة؛ يعشق مُخَنَّثيه الإيرانيّين المُتبرّجين بإفراط، ولقاءاته العابرة في عتمة حديقة عامة في طهران. ولا بأس إن كانت الحمّامات التركيّة كريهة وقذرة أحيانًا، ولا بأس إن كانت ذقون الغلمان غير محلوقة بعناية، ملمسها ملمس فرشاة تنظيف غليظة، إذ كان ولعه بالاستكشاف لا يفتر أبدًا - ولعه بالملذات والاستكشاف، كانت تُضيف سارة التي كان قد أطلعها على «دفتر يومياته في الميدان» كما كان يُسمّيه: إن فكرة غوص سارة في مثل هذه القراءة كانت طبعًا تؤلمني، كما أن هذه العلاقة الغريبة التي، من خلال دفتر يوميات، تربطها بفوجيه، كانت تستثير فيّ غيرة مريعة. ومع أنني كنتُ مُدركًا أن سارة لم تكن تشعر بأيّ انجذاب إلى فوجيه، وأن مارك هو الآخر لم يكن يشعر بأيّ انجذاب إليها، إلا أن تخيُّل أن في وسع سارة الإطّلاع عن كثب على خصوصياته، على تفاصيل حياته العلميّة التي، في هذه الحالة تحديدًا، تتطابق مع تفاصيل حياته الجنسيّة، كان أمرًا لا يُحتمَل. كنتُ أرى سارة وكأنها لويز كوليه تقرأ يوميّات رحلة عشيقها فلوبير إلى مصر.

«عوالم - سماء زرقاء - النساء جالسات أمام أبواب منازلهنّ - على حُصر من سعف النخيل أو واقفات - القوادات برفقتهنّ - أثواب فاتحة اللون، ارتُدِيَت واحدٌ فوق الآخر، تُرَفرِفُ في النسائم الدافئة».

أو أسوأ من ذلك بكثير.

«أضاجع صوفيا صُغَيِّرة - فاسقة للغاية، تتهزهز، ترتعش من النشوة، نمرة صغيرة. ألطّخُ الديوان.

مضاجعةٌ ثانية، مع كوتشوك هانم - شعرتُ وأنا أقبّلُ كتفها، بعقدها المُستَدير تحت أسناني - كان فرجها يُدنِّسني وكأنه لحمٌ من المُخمَل - أحسستُ بأنني مُتوحِّش».

وهلم جرا، كلّ الشذوذ الذي في جعبة المستشرقين. إن تخيُّلي لسارة تتلذّذ بقراءة نثر هذا الغندور التافه، الفاحش، المهووس جنسيًا والذي كنتُ مُتأكدًا أن في مقدوره أن يكتب فظاعات على نسق «فرجها يُدنِّسُني»، كان عذابًا خالصًا. كيف استطاع فلوبير أن يُلحِق كلّ ذلك الألم بلويز كوليه، أمرٌ أعجزُ عن فهمه؛ لا بدّ من أن صاحب الأسلوب الرفيع هذا كان واثقًا كلّ الثقة من عبقريته. أو لعله كان يظنّ مثل فوجيه، أن يوميّاته بريئة، أن ما يتبدّى فيها من بذاءات لا ينتمي إلى عالم الواقع، بل إلى حيّز آخر، حيّز العِلم أو ربّما الترحال، أن الأمر برمته تحقيق ميداني يُبعِد هذه التأملات البورنوغرافية من شخصه ومن جسده: فحين يكتب فلوبير «مُجامعة، فمُجامعة ثانية كلّهما حنان» أو «كان فرجها الأحرّ من بطنها يكويني وكأنه حديد مُحمّى»، وحين يروي كيف أنه بعد أن غفت كوتشوك هانم بين ذراعيه، راح يلهو بسحق حشرات البقّ على الجدار، حشرات اختلطت رائحتها بعطر الصندل الذي يطفو فوق جسد الشابة النائمة (أخذ دمّ الحشرات الأسود يرسم خطوطًا جميلة على كِلس الحائط)... حين يكتبُ فلوبير كلّ ذلك، يكون مُقتنِعًا أن مُلاحظاته مثيرة للاهتمام وليس للقرف: لقد أدهشه استياء لويز كوليه وتقززها من هذا المقطع الذي يروي فيه مغامراته في مدينة إسنا. سعى إلى تبرير نفسه في رسالة أقلّ ما يُقال فيها إنها على الدرجة نفسها من الشناعة: «حين وصلتُ إلى يافا، أخذتُ أتنشّق في الوقت عينه عبير شجر الليمون ورائحة الجثث». يرى فلوبير الفظاعات في كلّ مكان؛ هي تمتزج بالجمال؛ كما أن الجمال والمتعة عديما القيمة من دون القبح والألم؛ ينبغي اختبارها كلّها معًا (إن قراءة مخطوطة يوميات فلوبير سوف تُشكّل للويز كوليه صدمة بالغة إلى حدّ أنها ستسافر هي الأخرى إلى مصر بعد ثمانية عشر عامًا لحضور احتفالات تدشين قناة

السويس عام ١٨٦٩، حيث ستجد أوروبا كلّها محتشدةً على ضفاف النيل - سوف ترى العوالم ورقصاتهنّ، وستجدهنّ مبتذلات؛ وسوف يثير سخطها ألمانيان مسحوران ومُنوّمان مغناطيسيًا بخشخشة عقود العوالم إلى درجة أنهما سيختفيان وتفوتهما الباخرة، ثمّ بعد بضعة أيام، سيظهران من جديد، «منهكَيْن مُبتَسِمَين بشكل مخزٍ»؛ وستوقفّ هي الأخرى في إسنا، لكن لتتأمل ما ألحقه الزمن بجسد كوتشوك هانم المسكينة: سوف تنال إذًا ثأرها).

إن الحُلم بالشّرق ينمّ أيضًا عن رغبةٍ جنسيّة، عن رغبةٍ في الهيمنة بوساطة الجسد لمَحْو الآخَر في النشوة: نحن لا نعلمُ شيئًا عن كوتشوك هانم، عن راقصةٍ وعاهرةِ النيل هذه، عدا الطاقة الإيروسيّة الهائلة التي تشعّ منها، واسم الرقصة التي كانت تؤديها: «النحلة»؛ عدا ثيابها وحركاتها وملمس فرجها، نحن نجهل كلّ شيء عنها، كلماتها، مشاعرها - لا شكّ في أنها كانت أشهر عالمة في إسنا، أو ربّما العالمة الوحيدة هناك. غير أن في حوزتنا شهادة ثانية عن كوتشوك هانم، شهادةُ أميركيٍّ هذه المرة، كان قد زار المدينة قبل سنتَين من زيارة فلوبير إليها، ثمّ نشر لاحقًا في نيويورك «مذكرات خواجة على ضفاف النيل» - إن جورج ويليام كورتيس قد خصص لكوتشوك فصلَيْن من كتابه؛ فصلين شاعريّين يزخران بالإحالات إلى الميثولوجيا وبالاستعارات الشهوانيّة («آه يا فينوس»)، جسدُ الراقصة يتلوّى كأنه أنبوب نارجيلة أو ثعبان الخطيئةِ الأصليّة، جسدٌ «عميق، شرقي، عنيف، مُرعِب». لن نعلم عن كوتشوك سوى مسقطِ رأسها - سورية يقول لنا فلوبير، فلسطين بحسب كورتيس - وكلمةٍ واحدة، «بونو»، أي جيّد - «الكلمة الإيطالية الوحيدة التي كانت تعرفها» وفقًا لكورتيس. كلمة «بونو»، والمُتَع الدنيئة التي منحتها لفلوبير وكورتيس - متعٌ لا يُثقلها عبء الحشمة الغربيّة - وصفحات «سَلامبو» و«تجربة

القديس أنطونيوس» التي استلهمها فلوبير منها، هذا تقريبًا كلّ شيء.

في أبحاثه التي ينتهج فيها أسلوب «المُراقبة المُشارِكة»، يولي فوجيه اهتمامًا كبيرًا لشهادات عوالم وخولات القرن الحادي والعشرين؛ يستمع إلى قصصهم، يسعى إلى فهم حيواتهم، آلامهم وأفراحهم؛ هو يربط بهذه الطريقة بين أهواء المستشرقين القدامى وطموحات العلوم الإجتماعية المُعاصرة، مذهولًا، مثله مثل فلوبير، بهذا المزيج بين الجمال والشناعة، مفتونًا بدمّ حشرات البقّ المسحوقة - وبنعومة الأجساد التي يستحوذ عليها.

لكن، قبل أن يستطيع المرء تأمّل الجمال، عليه أن يغوص أولًا في أعماق الرعب والشناعة ليستكشف أصنافَهما كلّها - هذا ما كانت تقوله سارة؛ كانت طهران تعبق أكثر فأكثر برائحة العنف والموت: الإعتداء على فوجيه، مرض مورغان، عمليات الإعدام شنقًا، الحِداد الأبدي على الإمام الحسين... لكن لحسن الحظّ كان ثمة الموسيقى، والتراث، والعازفون الإيرانيّون الذين عرّفني إليهم جان دورينغ، وهو خير خلفٍ لكبار مستشرقي مدرسة ستراسبورغ - في عقر دار الإسلام الأصولي والمتزمّت، كانت ثمة شعلة لم تنطفئ بعد، شعلة الموسيقى والآداب والتصوّف والفكاهة والحياة. مقابل كلّ مشنوقٍ، ألف حفلة موسيقيّة، ألف قصيدة؛ مقابل كلّ رأسٍ مقطوع، ألف حلقة ذِكر وألف قهقهة. فقط لو أن شيئًا غير الألم والموت كان يثير اهتمام صحافيينا... إنها الساعة الخامسة والنصف صباحًا، صمتُ الليل المطبق. شاشة الكمبيوتر عالمٌ بعينه، عالمٌ حيث لا زمن، ولا مكان. عشق، هوى، حبّ، محبّة... أسماء الحبّ عند العرب، الحبّ البشري والحبّ الإلهي، وهما سيان. قلب سارة: إلهيٌ؛ جسد سارة: إلهيٌ؛ كلمات سارة: إلهيّة. إيزولده، تريستان. تريستان، إيزولده. إيزولده، تريستان. شراب

الحب. الوَحْدة. عذراء وفريد، مصيرهما المأساوي، الكائنات التي تسحقها عجلة القدر. أين أنوار السهروردي، إلى أيّ شرقٍ ستشير البوصلة، أيّ ملاك سيأتي بثوبه القرمزي ليفتح قلوبنا على الحبّ؟ «إيروس»، أو «فيليا»، أو «أغابي»[1]، أيّ إغريقيٍّ سكّيرٍ ينتعل صندلًا سيظهر علينا مجددًا، ترافقه عازفة ناي جبينها مُكلّلٌ بزهور البنفسج، ليُذكّرنا بهذا الجنون الذي هو الحبّ؟ إن الخميني قد كتب قصائد حبّ. قصائد في النبيذ والسّكر، في العاشق الذي يبكي الحبيب، في الورد، وفي طيور العندليب التي تنقل رسائل الحبّ. في نظره، الشهادةُ رسالة حبّ. والعذابُ نسيمٌ عليل. والموتُ شقيقةُ نعمان. وجهةُ نظرٍ كثيرةُ الدلالات. يتهيّأ لي أن لا أحد سوى الخميني يتكلّم عن الحبّ في يومنا هذا. وداعًا الرحمة، يحيا الموت.

كنتُ أغار من فوجيه بلا سبب، أعلمُ جيدًا أنه كان يتألّم، أن العذاب كان ينهش روحه، أنه كان يهرب، أنه هرب، أنه يهرب من نفسه منذ زمن طويل، إلى أن انتهى به المطاف، في طهران، على سجّادة، منكمشًا على نفسه، ركْبَتاه تحت ذقنه، منتفضًا متشنّجًا؛ أخبرتني سارة بأن أوشامه اختلطت برضّاته لتُشكّل رسومًا غريبة وغامضة؛ قالت إنه كان نصف عارٍ، يتنفّس بصعوبة، وإنه أبقى عينيه مفتوحتَين جامدَتَين؛ رحتُ أهدهده كطفلٍ، أضافت سارة مذعورة، وجدتُ نفسي مضطرة إلى هدهدته كطفل، وسط الليل، على حديقة الربيع الأبدي[2] التي تصبحُ ورودُها الحمراء والزرقاء مُرعبةً وقت

---

(١) «إيروس»، «فيليا» و«أغابي» (éros ؛ philia ؛ agapé) مصطلحات إغريقيّة تعني تباعًا: الحبّ الجسدي؛ المودّة والصداقة؛ محبة الله للبشر ومحبة البشر لله.

(٢) «السجاد العجمي، أو حديقة الربيع الأبدي» هو كتابٌ لباتريس فونتين عن صناعة السجاد في إيران.

الغسق - كان فوجيه يتخبطّ في جزعه وجوعه الناجم عن حرمانه من الأفيون، وكان الجزعُ يُفاقم الجوعَ، والجوعُ يُفاقم الجزعَ، وكان هذان الوحشان ينقضّان عليه في عتمة الليل. عملاقان، كائنان غرائبيّان يتلذّذان بتعذيبه. الخوف، الهلع، عزلة الجسد المُطلقة. كانت سارة تواسيه. قالت إنها بقيتْ إلى جانبه حتّى الفجر؛ غفا عند شروق الشمس، يدُه في يدِها، لا يزال على السجادة حيث طرحته نوبته. إن إدمان فوجيه الأفيون (ثم الهيروبين مثلما توقّع هو نفسه) كان يقترن بإدمان ثانٍ، أقلّه بحدّة الأوّل: إدمانُ هذا الصنف الآخر من النسيان الذي هو الجنسُ وملذاتُ الجسدِ والحُلمُ بالشّرق؛ إنتهى طريقه نحو الشّرق هناك، على تلك السجادة، في طهران، في ورطته تلك، في ذاك المأزق بين الذات والآخَر، ألا وهو الهويّة.

«النوم جيّد، والموت أفضل منه»، يقول هاينرش هاينه في قصيدته «مورفين»، «لكن ربّما أفضل شيء ألّا تكون قد ولدت من الأساس». ترى هل أمسك أحدٌ بيد هاينه خلال شهور عذابه الطويلة، أحدٌ غير مورفيوس، إله الأحلام المُكلّل بزهور الخشخاش، ذاك الإله الذي يُلامس بنعومة جبهة المريض، فيخلّص روحه من جميع آلامها - أما أنا، فكيف سيكون احتضاري، هل سأكون وحدي في غرفتي أو في المستشفى، ينبغي عدم التفكير في ذلك، علي إشاحة نظري بعيدًا من المرض والموت، مثل غوته الذي كان يتحاشى المُحتضرين والجثث والمآتم: كان مُسافر فايمار هذا ينجح كلّ مرّة في تجنّب مرأى الوفاة، في تجنّب عدوى الموت؛ هو يتخيَّل نفسه كشجرة جنكة، تلك الشجرة الخالدة التي تنبت في بلاد الشّرق الأقصى، سَلَف كلّ الأشجار، والتي تُشكّل أوراقها ذات الفلقتَين، تمثيلًا غاية في الروعة للتوحّد في الحبّ إلى درجة أن غوته أرسل ورقة جنكة يابسة لماريانه فون فيلمر - «ألا تشعرين، حين

تصلُكِ أناشيدي، بأنني واحدٌ ومزدوجٌ في الآن عينه؟». هذه النمساويّة الجميلة (خدّان ممتلئان، جسدٌ مُكتنِز) عمرها ثلاثون سنة؛ أما غوته، فقد بلغ الخامسة والستين. هو يرى الشّرق نقيضًا للموت؛ التطلّع نحو الشّرق هو إشاحة النظر بعيدًا من الرّدى. هو هروب. هروب إلى أشعار سعدي الشيرازي وحافظ الشيرازي، هروب إلى القرآن، هروب إلى بلاد الهند البعيدة؛ إن هذا الجوّال الهائم يسير نحو الحياة. نحو الشّرق، نحو الصِبا وماريانه، مبتعدًا من الشيخوخة ومن زوجته كريستيانه. تحوّل غوته إلى حاتم، وماريانه إلى زليخة. سوف تموت كريستيانه في فايمار وحيدةً، لن يمسك غوته بيدِها، ولن يحضر دفنها. ألستُ أشيح أنا أيضًا بنظري عمّا هو حتميّ الوقوع، عبر التفكير بسارة إلى حدّ الهوس، عبر التنقيب في ذاكرة هذا الحاسوب عن الرسالة التي بعثتها لي من فايمار...

عزيزي الغالي فرنسوا - جوزيف،

لهوَ أمرٌ غريبٌ بعض الشيء أن أجد نفسي في ألمانيا، فأسمَعُ الناس يتكلّمون هذه اللغة التي تُشعرني بأنني أضحيتُ قريبةً جدًّا منك؛ إلا أنّكَ لست هنا. لا أعلم إن سبق لكَ زيارة فايمار؛ أفترِضُ أنّكَ فعلت: غوته، فرانتس ليست، وحتّى فاغنر، أتخيّل أن كلّ هؤلاء قد اجتذبوك من قبل. أذكر أنّكَ أمضيتَ سنةً تَدْرُس في توبنغن - ليس بعيدًا جدًّا من هنا. فأنا في تورينغن منذ يومَيْن: ثلجٌ وثلجٌ وثلج. وبردٌ جليدي. لا شكّ في أنّكَ تتساءل ماذا أفعل هنا - ندوةٌ، بالطبع. ندوة عن أدب الرحلات في القرن التاسع عشر. مشاهيرٌ من العالم الجامعي. التقيتُ بسارغا موسى، مختّص كبير بالنظرة الأوروبيّة إلى الشّرق خلال القرن التاسع عشر. مُساهمته حول السفر والذاكرة رائعة. أحسدُه قليلًا على سعة علمه، لا سيما أنه يتكلّم

الألمانية بطلاقة، مثله مثل معظم المدعوّين. قدّمتُ للمرّة الألف ورقةً عن رحلات أحمد فارس الشدياق في أوروبا؛ هي بالتأكيد نسخة جديدة مختلفة، لكن الإحساس بتكرار نفسي على الدوام لا يُفارقني. هذا هو ثمن المجد.

طبعًا؛ قمنا بزيارة منزل غوته - يتهيّأ لكَ هناك أن المُعَلّم نفسه سوف ينهض من كرسيه ليرحّب بكَ، إذ يبدو وكأن لا شيء قد تزحزح من مكانه. إنه منزل شخص يهوى جمع أشياء عدة متنوّعة - ثمّة أغراض في كلّ مكان. خزانات صغيرة لتوضيب الرسومات، أدراجٌ للأحجار المعدنيّة، هياكل عظميّة لطيور، نسخات من تماثيل إغريقيّة ورومانيّة. غرفته المتناهيّة الصغر، إلى جانب مكتبه الواسع. الكرسي بذراعَين، الذي مات جالسًا عليه. بورتريه ابنه أوغِست الذي مات في روما بعد سنتَيْن من وفاة والده. بورتريه زوجته كريستيانه التي ماتت قبله بخمسة عشر عامًا. غرفة كريستيانه، ومقتنياتها: مروحة يدويّة جميلة، ورق لعب، بضع زجاجات صغيرة، فنجان أزرق نُقِشت عليه بالذهبيّ عبارة مؤثّرة بعض الشيء: «إلى المُخْلِصة». ريشة. لوحتا بورتريه صغيرتان حيث نراها شابة في الأولى وأكبر سنًا في الثانية. ينتابُكَ إحساسٌ غريب وأنت تتجوّل في هذا المنزل حيث بقيَ كلّ شيء على حاله منذ عام ١٨٣٢ وفق ما يُقال. إحساسٌ يُشبه قليلًا ذاك الذي قد يعتريكَ وأنتَ تزور قبرًا فيه مومياء.

إلا أن أكثرَ ما يُثير الدهشة العلاقةُ التي تربط فايمار بالشّرق - عبر غوته بطبيعة الحال، لكن عبر هردر أيضًا، وشيلر والهند، أو عبر كريستوف مارتين فيلاند وحكاياته عن «عالم الجن». ناهيك بأشجار الجنكة (التي لا تعود تُشبه نفسها خلال الشتاء) المنتشرة في المدينة منذ أكثر من قرن إلى درجة تخصيص متحف لها. لكن أتخيّل أنّكَ

تعرف كلّ ذلك - أنا كنتُ أجهله. الجانب الشّرقي للأدب الكلاسيكي الألماني. ها أنا أدرك مرّة أخرى إلى اي درجة أوروبا هي بنيان مُشترَك، كوزموبوليتاني... هردر، فيلاند، شيلر، غوته، رودلف شتاينر، نيتشه... في فايمار، يتهيّأ لكَ أنه يكفي أن ترفع حجرًا لكي تَظهر تحته صلة بالشّرق البعيد. إلا أننا نبقى في أوروبا - فالدمار دومًا على مسافة قريبة. مُعسكر بوخنفالد على بعد بضعة كيلومترات من هنا، زيارته تثير الرعب في النفوس على ما يبدو. ليس لديّ الشجاعة للقيام بذلك.

لقد قُصِفت فايمار بشكل مُكثّف ثلاث مرّات خلال عام ١٩٤٥. هل تتخيّل فظاعة ذلك؟ أن تَقصُف مدينةً يبلغ عدد سكانها ستين ألف نسمة ولا تتمتّع بأهمية استراتيجيّة، وفيما أنتَ قد ربحت الحرب تقريبًا؟ عنف محض، ثأر محض. أن تَقصف فايمار، رمز أوّل جمهورية برلمانيّة ألمانية، أن تسعى إلى تدمير منزلي غوته ولوكاش كراناخ، وأرشيف نيتشه... بمئات الأطنان من القنابل يُلقيها طيّارون يافعون، وصلوا لتوّهم من آيوا أو من وايومنغ وسوف يُخرّفون أحياء في قمرة القيادة، من الصعب أن أرى أيّ معنى في كلّ هذا، أفضّل أن ألوذ بالصمت.

لديّ هديّة صغيرة لكَ؛ هل تَذكُر مقالتي عن بلزاك واللغة العربيّة؟ أستطيع الآن أن أكتب مقالة أخرى عن الموضوع نفسه، انْظرُ إلى هاتَين الصفحتَين الجميلتَين اللتين لا بدّ من أنكّ رأيتهما من قبل:



هما من الطبعة الأولى للـ«ديوان الغربي الشّرقي». ثمة هنا أيضًا كتابة بالعربيّة، ثمة هنا أيضًا فروقات بين العنوانَيْن العربي والألماني، كما في إمكانك أن ترى: بالعربيّة، هو «الديوان الشّرقي للمُؤلّف الغربي». أجد العنوان هذا مثيرًا للفضول، ربّما بسبب ظهور الكاتب «الغربي». لم يعد الكتاب، هكذا، عملًا مُختلطًا مثلما يوحي العنوان الألماني، لم يعد ديوانًا «غربيًا-شرقيًا»، بل أضحى ديوانًا شرقيًا ألّفه رجلٌ غربي. من المنظور العربي للأمور، ليس ثمّة مزيج، ولا انصهار بالآخَر، بل ثمّة عملٌ شرقي منفصل عن مؤلّفه. من ترجم هذا العنوان لغوته؟ أساتذة من جامعة ينا؟ رأيتُ في متحف غوته صفحةً من التمارين الكتابيّة بالعربيّة - خَطٌ جميلٌ لمبتدئ؛ يبدو أن المُعلّم الكبير كان يتلهّى بتعلّم كلمات أخذها من كتاب هاينريش فريدريش فون

ديتس، أحد أوائل المستشرقين البروسيين: Denkwürdigkeiten von Asien in Künsten und Wissenschaften (يا إلهي ما أصعب الألمانيّة، لقد استغرقني نقل هذا العنوان خمس دقائق).

ثمّة دومًا شيء من الآخَر في الذات. تلك هي حال أعظم رواية في القرن التاسع عشر، «كتاب الساق على الساق في ما هو الفارياق» لأحمد فارس الشدياق الذي تكلّمْتُ عنه في مداخلتي بعد ظهر اليوم، هذا النصّ العربي الهائل الذي طبع في باريس بنفقة رافائيل كحلا، وهو دمشقيٌّ كان يعيش في المنفى. عليّ أن أُريكَ صفحة العنوان الداخليّة، لا أستطيع مقاومة ذلك:


كتاب
الساق على الساق في ما هو الفارياق
او
ايام وشهور واعوام في عجم العرب والاعجام
تاليف العبد الفقير الى ربه الرزاق فارس بن يوسف الشدياق

تاليف زيد وهند في زمانك ذا   اشهى الى الناس من تاليف سفرين
ودرس لوزين قد لمّنا الى قرن   اشهى وانفع من تدريس حبرين

طبعه بنفقته العبد الفقير الى رحمة ربه المولى رافائيل كحلا الدمشقي
وذلك في مدينة باريس المحمية سنة ١٨٥٥ مسيحية ١٢٧٠ هجرية

LA VIE ET LES AVENTURES
DE FARIAC
RELATION DE SES VOYAGES
AVEC SES OBSERVATIONS CRITIQUES
SUR LES ARABES ET SUR LES AUTRES PEUPLES
Par FARIS EL-CHIDIAC

PARIS
BENJAMIN DUPRAT, LIBRAIRE DE L'INSTITUT,
1855

إن الخليط اللغوي والفروقات بين العنوانَين العربي والفرنسي تُذكِّرنا بـ«ديوان» غوته؛ يبدو أن المئة والخمسين سنة اللاحقة لم تُؤدِّ إلا إلى تمزيق ما كان يسعى هذان الرّجلان إلى جمعه ومواءمته.

قد يرى المرء أيضًا في فايمار (لائحة عشوائيّة) لوحة مذبحٍ لكراناخ تُصوِّر عفريتًا مُشوَّهًا وأخضر؛ منزلَيّ شيلر وفرانتس ليست؛ جامعة باوهاوس؛ قصورًا باروكيّة جميلة؛ قلعة؛ ذكرى دستورٍ جموريٍّ هشّة؛ حديقة فيها أشجار زان يتجاوز عمرها المئة عام؛ كنيسة مُهدَّمة تبدو كأنها تفصيل في لوحةٍ لكارل فريدريش شينكل؛ بضعة نازيين جدد؛ نقانق، مئات الأصناف من نقانق تورينغن، نيئة، مُقدَّدة، مشوية، وأفضل ذكرى لي عن بلاد الجرمان،

محبّتي،

سارة

... لكي أنسى، وأنا أعيد قراءتها، أنني سأموت من دون شك قبل بلوغ سنّ وفاة غوته أو أحمد فارس الشدياق، في الأقل ثمّة احتمال ضئيل بأن ألقى حتفي في قمرة قاذفة قنابل أصابها مدفعٌ جويّ أو أسقطتها طائرةٌ مقاتلة، هذا مستبعدٌ جدًا، حتّى لو أن الموت في حادث طيارة ممكنٌ دائمًا: ففي يومنا هذا، قد تُقتَلُ بصاروخٍ روسي أثناء رحلة جويّة، أو قد تُمزَّقُ إربًا إربًا بتفجير إرهابي، هذا لا يُطَمْئِن. قرأتُ ذاك اليوم في صحيفة «دير شتاندارت» أن جهاديًا عمره أربع عشرة سنة اعتُقِل فيما هو يُحضّر لعمليّة تستهدف إحدى محطات القطارات في فيينا، طفلٌ جهادي من مدينة سانت بولتن، وكرٌ للإرهابيين، هذا أمرٌ معروف، وكان هذا الخبر سيبدو مضحكًا لولا أنه علامة من علامات العصر - فعما قريب، ستنطلق جحافل المؤمنين من منطقة ستريا للانقضاض على أهل فيينا الكفّار، ولن

يعلو حينئذٍ صوتٌ فوق صرخة المعركة: «يسوع أكبر!»، وستشتعل الحرب الأهليّة. لا أذكر وقوع أي عملية إرهابية في فيينا منذ تلك التي استهدفت مطار فيينا الدولي في الثمانينيات والتي نفّذها فلسطينيو أبي نضال، لا سمح الله، لا سمح الله، لكن الله ليس في أحسن أحواله في يومنا هذا. ولا المستشرقون أيضًا - سمعتُ باحثًا مختصًّا بالشّرق الأوسط، يقترح السماح لكلّ من يهوى الجهاد بالذهاب إلى سورية، ليرحلوا عن بلادنا ويقتلوا أنفسهم في مكان آخر؛ سوف يموتون تحت القذائف أو في المناوشات ولن نسمع عنهم بعد ذلك. يكفي فقط منع الناجين منهم من العودة إلى هنا. إلا أن هذا الاقتراح المُغري يطرح مُشكلة أخلاقيّة، هل يجوز لنا أن نُرسِل أفواج مجانيننا المُلتحين لكي ينتقموا من أوروبا عبر ارتكاب مجازر بحق المدنيين الأبرياء في سورية والعراق؛ هذا تقريبًا مثل أن يرمي المرء قمامته في حديقة جاره، ليس تصرفًا لائقًا. عمليٌّ، أجل، بالطبع، لكن يفتقر إلى شيء من الأخلاقيّة.

الساعة الخامسة والدقيقة الثالثة والثلاثين ليلًا

سارة مُخطئة، أنا لم أذهب أبدًا إلى فايمار. هي فعلًا أنموذجٌ مُصغَّر ومُكثَّف عن ألمانيا. صورة. يا لهذه الطاقة التي كان يمتلكها غوته! أن يقع في حُبّ حافظ الشيرازي وماريانه فون فيلمر وقد بلغ الخامسة والستين. أن يقرأ كلّ شيءٍ من خلال عدسة الحبّ. الحبُّ يُوَلِّد الحبَّ. الولع كمُحرِّك. غوته كآلة تُنتِج الرغبة. الشِعر كوقود. كنتُ قد نَسيتُ أن صفحة العنوان الداخليّة لـ«ديوان» مطبوعةٌ بلُغتَيْن. لقد نَسينا جميعنا تلك الحوارات، إذ كُنّا في عجلة من أمرنا لإغلاق الأعمال الأدبيّة على الأمّة من دون أن نلمح تلك الفُسحة حيث تتلاقى اللغات، حيث تتلاقى الألمانية والعربية على هوامش الصفحات وعلى طول طيّات الأوراق. علينا أن نولي مزيدًا من الإهتمام للأعمال الموسيقيّة المُقتبسة عن «الديوان الغربي الشّرقي»، شوبرت، شومان، فولف، عشرات من الموسيقيين، وصولًا إلى «أناشيد غوته» المؤثّرة جدًّا - لآلات الكلارِنيت ومُغنّيات الـ«ميتسو سوبرانو» - التي ألّفها لويجي دالابيكولا. جميلٌ أن نرى مدى الأثر الذي تركه حافظ الشيرازي والشعر الفارسي في الفن البورجوازي الأوروبي، حافظ وعمر الخيّام طبعًا؛ هناك حتّى تمثالٌ للخيام، لهذا العالم المُتهكِّم، ليس بعيدًا من هنا، في وسط «مركز فيينا العالمي» - هديّةٌ قدّمتها إيران للمركز منذ بضع سنوات، يبدو أن الجمهوريّة

الإسلاميّة ليست حاقدة على شاعر الخمر الذي خاصَم الله. أحبُّ أن أصطحب سارة في يومٍ من الأيام إلى ضفّة الدانوب لأريها هذا النَصب الذي يتوسّط الساحة بين مباني الأمم المتحدة، لأريها هؤلاء العلماء الأربع من الرخام الأبيض، الجالسين تحت قبّة من الحجر البنيّ تُحيط بهم أعمدةٌ تُذكِّر بتلك التي كانت في صالات عروش برسيبوليس. ما إن تَرجم إدوارد فتزجيرالد قصائدَ الخيّام حتّى اجتاح الأخيرُ أوروبا وآدابها، فأضحى عالمُ الرياضيات المنسي هذا، شاعرًا أوروبيًا رفيع المستوى منذ عام ١٨٧٠ - تطرّقت سارة إلى عمر الخيّام في أبحاثها ومقالاتها عن صادق هدايت الذي كان قد كرّس للشاعر الفارسي دراسة مطوّلة، وأصدر طبعة مُحقّقة للـ«رباعيات». في طبعته هذه، إختزل هدايت ديوانَ الخيّام ولم يُبقِ إلّا على جوهره، أيّ الرباعيات التي نجدها في المخطوطات الأقدم عهدًا. وبهذا، قدَّم عن الخيّام صورةً أقرب إلى معتنقٍ مذهبَ الشكّ منه إلى متصوّف. كانت سارة تُرجع هذا الرواج العالمي الذي لاقته أشعار الخيّام إلى عاملَين، أوّلهما بساطة هذا الشكل الشعري الذي هو الرباعيّة، وثانيهما التنوّع الذي يتميّز به الديوان ككلّ: ملحِدٌ ثمّ لاأدريٌّ فمسلمٌ؛ غاوٍ شَبِق ثمّ عاشقٌ عذري؛ سكّيرٌ فمتصوّفٌ... إن عالِم خراسان كما يتبدّى لنا في الرباعيات المنسوبة إليه، التي يتجاوز عددها ألف رباعيّة، يتمتع بكمّ هائل من الصفات يكفي لإرضاء أذواق الجميع - ومن بينهم حتّى فرناندو بيسوا الذي نَظَم خلال حياته، حوالى مئتيّ رباعية استلهمها من قراءته ترجمة فتزجيرالد. كانت سارة تُقِرّ من دون موارِبة بأن أكثر ما يُعجِبها في عمر الخيام، هو مقدّمة هدايت وقصائد بيسوا؛ كانت ستروق لها كثيرًا فكرة جمع مقدّمة الإيرانيّ وقصائد البرتغالي في كتاب واحد، فتَصنع، بهذه الطريقة، مسخًا بديعًا: قنطور أو أبو الهول، صادق

هدايت مُقدِّمًا رباعيات بيسوا، تحت ظلّ عمر الخيّام. كان بيسوا يُحبّ النبيذ هو الآخر،

البهجة تلي الألم، والألم يلي البهجة.
نشربُ النبيذَ في الأفراح، وأحيانًا
نشربُ النبيذَ حين نغرق في الألم.
ولكن ماذا بقي من هذا النبيذ أو ذاك؟

... وكان مُتهكّمًا ويائسًا أقلّه بقدر تهكّم سَلَفه الفارسي ويأسه. كانت سارة تُخبرني عن حانات لشبونة التي كان فرناندو بيسوا يتردّد عليها لمعاقرة الخمر وللاستماع إلى الموسيقى أو إلى القراءات الشعريّة، وكانت تقول إن هذه الحانات تُشبه كثيرًا تلك التي كانت في إيران قديمًا، ثمّ تُضيف بسخرية أن بيسوا اسم مستعار يتوارى خلفه عمر الخيّام، أن الشاعر الأوروبي الأكثر تمثيلًا للغرب هو في الواقع تَجسُّدٌ للإله عمر الخيام،

بَعد الورود، أيها الساقي، سكبت
النبيذ في كأسي وابتعدت.
مَن زهرةٌ أكثر منك، أنتَ الذي هربت؟
مَن نبيذٌ أكثر منك، أنتَ الذي نفسك حَرَمْت؟

... وخلال أحاديث لامتناهية مع صديقنا بارفيز في طهران، كانت تلهو بإعادة ترجمة رباعيات بيسوا إلى الفارسيّة، لكي نعثر من جديد، كانت تقول، على مذاق ما أضعناه - روح السكر.

دعانا بارفيز ذات يوم إلى حفلة موسيقيّة خاصة حيث راح مُغنٍّ، يُرافقه عازفا تار وكاسور، يُنشد رباعياتٍ للخيّام. كان المغني (ثلاثون عامًا ربما، قميصٌ أبيض ذو قَبّة مُستديرة، بنطالون أسود،

وجهٌ وسيم، حزين وصارم) يمتلك صوتَ «تينور» جميل جدًّا كان الصالون الضيّق حيث جلسنا يتيح لنا سماع كلّ تموّجاته؛ كان الطبال يتألّق - عزفٌ نقيٌّ واضح، في الطبقات الصوتية العاليّة والمنخفضة، مهارة لا يُعلى عليها في أداء الإيقاعات الأكثر تعقيدًا، كانت أنامله تضرب جلدة الكاسور بدقّة وسرعة مدهشتَيْن. أما عازف التار، فكان مراهقًا في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره، وكانت هذه الحفلة من أولى الحفلات التي يُشارك فيها؛ كانت براعةُ رفيقَيْه الأكبر سنًّا تثير حماسته، حماسة يُضاعفها العزف أمام جمهور؛ وكان حين يرتجل، يؤدي نغمات المقام الموسيقي بمهارة وقدرة على التعبير كانتا، بالنسبة إلى أذنيّ غير المُتمرّستَيْن، تعوّضان إلى حدّ كبير عن قلّةَ خبرته. كانت كلمات الأناشيد وجيزة، أربعة أبيات للخيّام، ما أتاح للعازفَيْن، رباعيّةً تِلو الأخرى، بالتنقّل بين المقامات وبعزف أنغام متنوّعة. كان بارفيز مسرورًا جدًّا، وكان يكتب لي، على دفتري الصغير، أبياتَ الرباعيّات بتفانٍ. وكانت مُسجّلتي ستتيح لي لاحقًا أن أمارس ذاك التمرين المريع الذي هو تدوين النوتات. كان قد سبق لي أن دوّنت نوتات عزفٍ على آلاتٍ كالتار أو الكاسور، لكن كان ثمّة صوت المُنشد الآن، وكان لدي فضول لأرى، برويةٍ وعلى الورق، كيف ينتظم، في الغناء، هذا التناوب للنوتات الطويلة والقصيرة الذي يُميّز المقامات الإيرانيّة؛ كيف يحوّل المُغنّي أوزان الأبيات ومقاطعها اللفظية لكي يُدرِجها في الإيقاع، وبأي طريقة كان يبثّ الحياة في موسيقى الـ«رديف» التقليديّة. إلتقاء نصٍّ من القرن الثاني عشر وتراثٍ موسيقي يعود إلى أكثر من ألف عام وموسيقيين معاصرين يعيدون، أمام جمهور معيَّن، إحياء كلّ ذلك الماضي السحيق.

هاتِ لي لخمرة لأقول وداعًا
وداعًا للرحيق الورديّ كونتَيْكِ المُلتهبَتَيْن
وا أسفاه! إن توبتي لمستقيمةٌ
كاستقامة الزخارف التي ترسمها ضفائركِ[1]

كنّا جميعنا - العازفان والمُنشد والحضور - متربّعين على سجّادة حمراء من تبريز يتوسّطها شكل دائري لونه أزرق داكن؛ وكان الصوف والوسادات وأجسادنا تمنع ارتداد الصدى تمامًا؛ إلى يميني، كانت سارة جالسةً على كعبيّها، كتفها تلامس كتفي. كان عبير النشيد يُسْكِرنا؛ وكانت أمواج الكاسور العميقة تفيض من قلوبنا المُرتشعة مع نغمات التار؛ كان تنفّسنا يُحاكي غناء المُنشد، فنحبس أنفاسنا للحاق به إلى أعالي تلك النوتات الطويلة، المترابطة، الواضحة التي لا يشوبها أي تردّد أو رجفة، إلى أن ينطلق فجاةً، بعد بلوغه هذه السماء الصوتيّة، في استعراض بهلوانياته الجويّة، سلسلةٌ من الإطناب النغمي والارتجافات المتموّجة للغاية، المؤثّرة للغاية إلى درجة أن عينيّ كانتا تغرورقان بدموع مكبوتة فيما التار يستجيب للغناء عبر تكراره، مُزخرفةً أكثر فأكثر، الجملة التي كان المغنّي قد رسمها للتو بين الغيوم.

إرْتَشِفْها فذا لَعَمْرِي الخُلُودُ
فِيهِ تَمْتَازُ لِلشَّبَابِ عُهُودُ
ذا أَوانُ الأَزْهارِ والرَّاحِ
والصُّحْبُ نَشَاوى فاهْنَأ فهذا الوجودُ

---

(١) تُرجمت هذه الرباعية عن الفرنسية لعد العثور على ترجمة عربية.

كنتُ أشعر بحرارة جسد سارة المُلتصقة بي، وكانت سكرتي تتضاعف - كنا ننصتُ معًا، منسجمَين تمامًا واحدنا مع الآخر، تَنَفُّس كلّ منا ودقات قلبه متزامنة مع تنفّس الآخر ودقات قلبه كأننا كنا نُغنّي نحن أيضًا، متأثرَيْن مُنتشيَيْن بهذه الأعجوبة التي هي صوت الإنسان، بهذا التناغم المُطلق بين النفوس، بهذه اللحظة النادرة التي نتشارك خلالها ببشريّتنا ونشرب، كما يقول الخيّام، نبيذ الأبديّة. كان بارفيز مبتهجًا هو أيضًا - فبعد أن انتهت الحفلة على تصفيق حارّ استمرّ طويلًا، وفيما كان مُضيفنا، طبيبٌ من أصدقائه عاشقٌ للموسيقى، يدعونا إلى تناول أطعمةٍ ومعاقرة خمورٍ أكثر دنيويّة، خرج بارفيز عن تحفّظه المُعتاد وأبدى لنا حماسته، ضاحكًا وراقصًا على قدم ثمّ على الأخرى ليريح ساقَيْه اللتَيْن أصابهما التنميل إثر جلوسه متربعًا لوقت طويل، نصف سكران من الموسيقى هو الآخر، ولا يزال ينشد القصائد التي كنّا قد سمعناها للتو بصوت المُنشد.

كانت شقّة ريزا، الطبيبُ الذي استضافنا، في الطبقة الثانية عشرة من برج حديث جدًّا يقع على مقربة من ساحة فَنَك. لا شكّ في أنه كان يمكن رؤية طهران كلها وصولًا إلى ورامين إذا كان الطقس صافيًا. كان قمرٌ، لونه ضارب إلى الحمرة، قد ارتفع في السماء فوق ما أفترضت أنه طريق «كرج» السريع، طريقٌ تصطفّ البنايات على جانبيه ويمتدّ متعرّجًا بين التلال إلى أن يختفي تمامًا خلفها. كان بارفيز يتكلّم مع سارة بالفارسيّة؛ أما أنا، فكنتُ منهكًا من حدّة المشاعر التي استثارتها فيّ الموسيقى فلا أقوى على متابعة حديثهما؛ كنتُ تائهًا في أحلامي، مُحدّقًا بعتمة الليل، مبهورًا بتلك السجادة السحرية التي تُخيطها الأضواء الصفر والحمر الآتية من جنوب المدينة، حيث كانت قديمًا الخانات التي تردّد عليها عمر الخيّام؛ خلال رحلاته من نيسابور إلى أصفهان، لا بدّ من أنه توقّف في

الري، أهمّ عاصمة لحُماته السلاجقة، ذلك قبل فترة طويلة من هبوب العاصفة المغولية التي حوّلت المدينة كومة من الحصى. من برج المراقبة حيث أقيمت تلك الحفلة، كانت تمكنني رؤية الشاعر وعالم الرياضيات عمر الخيّام يسير وسط قافلة طويلة من الأحصنة والجمال بسنامَين، قافلة يرافقها جنود لحمايتها من غارة قد يشُنها إسماعليو قلعة آلموت. كان بارفيز وسارة يتكلّمان عن الموسيقى، وكنتُ لا أفهم من حديثهما سوى بضع كلمات: دستگاه، سه گاه، چهارگاه. مثله مثل الكثير من الفلاسفة وعلماء الرياضيات المسلمين، كتب عمر الخيام رسالة في الموسيقى حيث استخدم نظريته حول الكسور، لتحديد المسافات بين النوتات. الإنسانيّة في بحثها الدؤوب عن التناغم وعن موسيقى الأجرام السماوية. كان المدعوون والموسيقيون يتجاذبون أطراف الحديث. وكانت ثمّة زجاجات مُلوّنة جميلة تحتوي على شتّى أصناف المشروبات؛ أما البوفيه، فكان يفيض بالخضار المحشيّة والحلويات والفستق ذي الحبّات الضخمة والورديّة اللون. راح بارفيز يُروّج لمشروبٍ من اختراعه (من دون أن يلقى نجاحًا كبيرًا معي): «الأبيض الإيرانيّ»، وهو مزيجٌ من اللبن والعرق الإيرانيّ يُضيف إليه قليلًا من البهارات. كان بارفيز ومُضيفُنا الطبيب يتذمّران من عدم توافر النبيذ - هذا حقًّا مؤسف، لكان عمر الخيام سيرغب في شرب النبيذ، الكثير من النبيذ، قال بارفيز؛ نبيذٌ من أرومية، من شيراز، من خراسان... يا لها من دنيا عجيبة! ردّ عليه الطبيب، أن تعيش في أكثر بلدٍ تغنّى شعراؤه بالنبيذ وأن تكون محرومًا منه. يمكنكم أن تصنّعوا نبيذكم بأنفسكم، أجبته وأنا أفكّر في قصّة نبيذِ السفارة الفرنسيّة، نبيذ «نوفل لوشاتو». نظر إليّ بارفيز والقرف بادٍ عليه - نحن نجلّ شراب الآلهة كثيرًا لكي نسمح لأنفسنا بشرب عصير عنبٍ كريه مُخمّر في مطابخ طهران. سوف أنتظر حتّى ترفع الجمهوريّة

الإسلاميّة الحظر عنه، أو حتّى تغضّ النظر رسميًا عن استهلاكه. في آخر مرّة ذهبت فيها إلى أوروبا، قال مُضيفنا، إبتعتُ فور وصولي ثلاث زجاجات من نبيذ شيراز الأسترالي شربتها وحدي وأنا أراقب الباريسيات يعبرن تحت شرفتي. الفردوس! ذاك هو الفردوس! وحين تعتعني السكر وخررتُ، كانت حتّى أحلامي تعبق بالعطور الطيبة.

كنتُ أستطيع بسهولة تخيُّل مفعول تلك الزجاجات الثلاث على إيرانيّ كان لا يشرب بتاتًا النبيذ الأحمر. فبعد كأس من الفودكا ممزوجًا بعصير البرتقال، وكأس أخرى من «الأبيض الإيرانيّ»، أضحيتُ أنا نفسي ثملًا بعض الشيء. كان يبدو أنّ سارة قد استساغت شراب بارفيز، هذا الخليط المريع حيث أخذ اللبن يتخثّر بعض الشيء بسبب العرق. شرع الطبيب يسرد علينا قصصًا عن أعوام الثمانينيات المجيدة، حين بلغ شحّ المشروبات الرّوحيّة أقصى حدوده، ما حمل مضيفنا على اختلاس كميّات مهولة من الإيثانول بنسبة تسعين في المئة لكي يُصنّع شتّى ألوان المشروبات، مُستخدمًا الكرز، الشعير، عصير الرمان، إلخ. إلى أن أصبح يُضاف الكافور إلى الإيثانول كي يمسي شربه مُستحيلًا فلا يُسْرَق، أضاف ريزا بنبرة حزينة. وهل تذكُر، سأله بارفيز، حين بدأت الجمهوريّة الإسلاميّة تمارس الرقابة على دبلجة الأفلام والمُسلسلات الأجنبيّة؟ لحظةٌ تاريخيّة. فجأة، صار راعي البقر، مُسدّسَه على خصره، يدخل حانة ويقول للساقي بالفارسيّة: «ليموناضة!»، فيقدّم له الأخير قدحًا متناهي الصغر فيه سائل داكن بلون الكهرمان يعبّه راعي البقر بجرعة واحدة قبل أن يُكرّر: «ليموناضة!». كان يُغمى علينا من شدّة الضحك. أما الآن، فلم نعد حتّى نلحظ ذلك، أضاف بارفيز. لا أدري، فأنا لا أشاهِد التلفزيون الإيرانيّ منذ زمن طويل، قال ريزا.

بعد الطعام وهذه التأمّلات الخمريّة، غادرنا؛ كنتُ لا أزال تحت تأثير الموسيقى - في حالة تُشبه التنويم المغناطيسي. كانت شذرات من جمل موسيقيّة تستحوذ على ذهني، وكنتُ لا أزال أسمع نبض الكاسور وتذبذبات التار وتموّجات صوت المُنشِد. رحتُ أفكّر في أولئك المحظوظين الذين يمتلكون هذه القدرة النادرة على بثّ مثل هذه المشاعر في الآخرين، في أولئك الذين ينعمون بموهبةٍ موسيقية أو شعريّة؛ أما سارة الجالسة في الطرف الآخر من مقعد سيارة الأجرة، فلا بدّ من أنها كانت تحلم بعالَم حيث تُتلى أشعار الخيّام في لشبونة، وأشعار بيسوا في طهران. كانت ترتدي عباءة زرقاء داكنة وحجابًا مُنقَّطًا بالأبيض تبرُز منه بضع خصلات من شعرها الأصهب. كانت مُلتصقة بباب السيّارة، مُلتفتةً نحو النافذة وليل طهران؛ كان السائق يهزّ رأسه ليطرد النُعاس، والراديو يبثّ أناشيد مُغمّة بعض الشيء عن الاستشهاد في سبيل فلسطين. كانت يد سارة على جلد المقعد، وكانت بشرتُها النورَ الوحيد داخل العربة، إن أمسكتُ يدها فسوف أستحوذ على حرارة العالم وضوئه: دهشتني، إذ من دون أن تلتفت نحوي، ضغطَتْ بقوّة على أناملي بأناملها، وجذبت يدي نحوها - ولم تُفلتها حين وصلنا وتوقّفت السيّارة، ولا حتّى، بضع ساعاتٍ لاحقًا، حين ألهب الفجرُ الأحمرُ جبلَ دمافند ثمّ اجتاح غرفتي وأضاءَ، وسط الشراشف التي دعكها جسدانا، وجهَها الشاحب من شدّة الإرهاق، ظهرَها العاري عريًا لا نهائيًا حيث يتكاسل، تُهدهِدُه موجات أنفاسها، تنّينُ الفقراتِ الطويل الذي خلّف حوله آثار لَهَبه، بقعُ النمش هذه التي تمتدّ إلى عنقها، أجرامٌ سماوية احترقت وانطفأت، مجرّةٌ كنتُ أجول فيها بإصبعي راسمًا رحلاتٍ خياليّة فيما سارة تمسكُ بيدي اليُسرى وتضغطها على أسفل صدرها. وكنتُ أداعب رقبتها التي يُحيلها شُعاعٌ رفيعٌ

وزهري، سحريّةً رائعةَ الجمال؛ عند ذاك الفجر، وأنا لا أزال متفاجئًا بهذه الحميميّة الكاملة، برائحة فمها الصباحية العذبة والمخمورة بعض الشيء، مفتونًا بالأبديّة المُنجليّة أمامي، بإمكانية ان أدفُن وجهي، أخيرًا، في شعرها، أن ألامس ببطء، من دون أي عجلة، ما طاب لي من خدَّيها وشَفَتيّها، مذهولًا بحنوّ قبلاتها السريعة والعميقة، المُفعمة بالحياة والفرح، مصدومًا، مقطوع الأنفاس، لأنني تركتها تنزع عنّي ثيابي بلا أي خجل أو انزعاج، يعميني جمالها، تعميني بساطة عُرِينا نحن الاثنَين بعد دقائق أو ساعات من احتفاف القطن بالحرير والمَشابك بالأزرار، من الارتباك والهفوات الصغيرة، من محاولات النسيان في انسجام الجسد والقلب والشّرق، في هذا الكُلّ الأكبر الذي هو الرغبة، حيث ثمّة عوالم شاسعة، عوالم اندثرت، وأخرى تلوح في أفق المُستقبل، لمحتُ في ليلِ طهران سارة عاريةً. رحنا نتبادل المُلامسات، ولم يَسْعَ أيّ منا إلى طمأنة نفسه أو الآخَر بكلمة «حبّ» إلى درجة ما كنّا نتمرّغ في أوحال الحبّ الأكثر دنسًا وجمالًا، ألا وهي الحضورُ المُطلَق بالقرب من الآخَر، داخل الآخَر، الرغبةُ المُشبَعَة في كلّ لحظة، المُتجدّدة في كلّ لحظة، إذ كنّا نعثر كلّ ثانيَة على لونٍ جديد نشتهيه في تموّجات هذا المزيج من الظلال والأنوار الخافتة - كانت سارة تتنهّد وتضحك، كانت تتنهدّ وتضحك وكانت ضحكُتها هذه تُخيفني، تُخيفني بقدر ما تثير فيّ الرغبة، كنتُ أريد الهروب من ضحكتها بقدر ما أوّد سماعها، مثل الآن في ليل فيينا، فيما أحاول أن ألتقط هذه الذكريات عن سارة مثل حيوانٍ يحاول التقاط شُهُبٍ متساقطة. مهما نبشتُ في ذاكرتي، لا أعثر، من تلك الليلة، سوى على ومضات. ومیضُ أوّل تلامسٍ لشفاهنا، بعد احتكاك خدودنا ببعضها بعضًا، تلامسٌ أخرق لشفاهٍ

شبقة وحمقاء تتوه على الأنامل التي تجول على وجهَيْنا، شفاه تشفي جبهتَيْنا اللتين تصطدمان واحدة بالأخرى من هول المُفاجأة، تلك المُفاجأة الخرقاء حين أدركنا أننا نتبادل القبلات، أخيرًا، من دون أن يكون أيّ شيء، قبل بضع دقائق، قد حضَّرنا لانقباض القلب هذا، لضيق التنفّس هذا، لا السنوات التي أمضيناها نتخيَّلهُما، ولا الأحلام، الأحلام الكثيرة التي، على حين غرَّة، صارت جسدًا نُلامسه، فبهتت وتلاشت، محتها بدايةُ تحققها: طعمُ نَفَسِ الآخر، ونظرةٌ قريبة للغاية إلى حدّ أننا نُغلِق عينينا، فنفتحهما من جديد، فنُغلِق العينَيْن المُحدِّقتَيْن بنا، بواسطة شفتَينا، نُقبِّل هاتَين العَينَيْن، نُغلِقهما بشفتَيْنا ونُدرِك حجم يدٍ حين تتشابك الأصابع، حين لا يعود بعضها ممسكًا بالبعض الآخر، إذ أضحت كلّها مُتداخِلة.

وميضٌ يُضيء جذعَها المُنتصب بين الظلال، أفقٌ يشطُبُه رخام صدرها الأبيض الذي تسبحُ تحته دوائر بطنها؛ وميضُ فكرةٍ، سُلّمُ «سي» الكبير، فكَّرتُ: سُلَّم «سي» الكبير، وتهتُ للحظة بعيدًا من الحاضر، رأيتُ نفسي، في سلّم «سي» الكبير، شخصًا آخر يقوم بحركاتٍ كأنما لست أنا بفاعِلها، ورُحتُ، لبضع ثوانٍ، أتساءل، لماذا سلّم «سي» الكبير، كيف أهرب من سلّم «سي» الكبير، وكانت هذه الفكرة عبثيّة للغاية، مُخيفة للغاية إلى حدّ أنني شُلِلْتُ لبرهة أصبحتُ خلالها بعيدًا من كلّ شيء، فانتبهتْ سارة (وقد أبطأتْ وتيرةَ حركتها وأخذتْ تُلامس صدري بنعومة) إلى ارتباكي، وبكلّ بساطةٍ، إنتشلتني منه بمعجزة حنوّها.

وميضُ همساتٍ في عتمة الليل، وميضُ احتفافِ الأصوات بالجسدَيْن... وذبذباتُ هواء طهران المشحون بالتوتّر، والموسيقى التي لم تُبارحنا نشوتُها الناعمة بعد - ماذا قال واحدنا للآخر في تلك الليلة ولم يَمْحُهُ الزمن بعد، لمعانٌ حالكٌ لعَيْنٍ حنون، وهنُ نهدٍ،

مذاقُ بشرةٍ خشنة بعض الشيء تحت اللسان، عطرُ عرقٍ، حموضةُ ثنايا مُلتَهِمة، رطِبة، سريعةُ التأثّر، تفيض منها أمواجُ النشوةِ ببطء؛ طراوةُ أصابع مَعْشوقة في شعري، على كتفَيّ، على قضيبي الذي كنتُ أحاول إخفاءَه وإبعادَه من مُلامساتها قبل أن أستسلم بدوري أنا أيضًا، فأهبها جسدي كما وهبتني هي جسدها، لكي يتواصل الجماع ويتقدّم الليل نحو الفجر الحتمي: أرانا جانبيًّا، لا نعلمُ أيّ سوائل وإفرازات تُرافق أيّ تنهدات، في وضعيّة تمثالَيْن مُتداخِلَيْن، أيادينا المُتشابكة تضغط على صدرها، الركبة في ثنيّة الركبة، نظراتُنا تتعانق كثعبانَيْن، لسانانا المُلتهبان غالبًا ما يُبَرِّدهما العَضّ، عضُّ العنقِ، عضُّ الكتفِ، فيما نحاول بصعوبة أن نُمسِك بلجام جسدَيْنا اللذين يُطلِق عنانَهما اسمٌ مهموسٌ فيُحيلهما صرخاتٍ وتأوهاتٍ يخنقها العِناقُ المحموم.

قبل أن يصلنا نورُ الفجر من جبل دمافند، النورُ الأحمر الذي يعشقه محاربو «كتاب الملوك»، وفيما سكونٌ لاهث يُخيِّم علينا وأنا لا أزال مذهولًا، مبهورًا بالتصاق سارة بي، علا ذاك النشيدُ الذي ننساه في طهران ولا نسمعه أبدًا، إذ يطمسه صخب المدينة: صدح الأذان - معجزةٌ هشّة لم نُدرك ما إذا كان مصدرها مسجدًا قريبًا أم شقّةً في البناية، هبط علينا الأذان، غمرنا، إدانةٌ أو بركة، مَرهَمٌ صوتيّ، «وبينما راح قلبي يثب ولِعًا بهذه المدينة وبأصواتها، بدأتُ أشعُر بأن لجميع نزهاتي هدفًا واحدًا لا ثاني له: محاولة فهم معنى هذا النداء»، قال محمد أسد، ففهمتُ أخيرًا معناه، أحد معانيه، عذوبةُ المُشاركةِ والحبّ، وكنتُ أعلم أن سارة تفكِّر، مثلي أنا، بأبيات الشعراء الجوالين، بأغاني الحبّ الحزينة التي كانوا ينشدونها عند شروق الشمس؛ اختلط نداءُ المُؤَذِّن بتغريد الطيور الأولى، عصافير المدينة، بلابلُ الفقراء («حكى البلبلُ الفجرَ الحكايةَ لريح

الصَّبا»)، اختلط بصوت مرور السيارات، وبروائح طهران، روائح القطران والأُرُزّ والزعفران التي ما إن أستحضرها حتّى أتذكّر مذاقَ المطرِ المالحِ لبشرة سارة: بقينا بلا أي حركة، مشدوهَيْن، ننصِت إلى ذبذبات هذه اللحظة العمياء، ونحن نعي أنها، في الوقت عينه، لحظةُ ذوبان في الحبّ، ولحظة فراقٍ وسط ضوء النهار.

الساعة السادسة فجرًا

لا جواب بعد. هل لديهم إنترنت في كوتشينغ، عاصمة ساراواك؟ أجل، بالتأكيد. لا مكان على وجه الأرض لم تصِله الشبكة العنكبوتيّة بعد. حتّى وسط أفظع الحروب - لحسن الحظ أو لسوئه - تتوافر خدمة الإنترنت. حتّى بالقرب من دَيْرٍ سارة، في دارجيلينغ، ثمّة مقهى إنترنت. مستحيلٌ الهروبُ من شاشة الكمبيوتر، حتّى حين تقع الكوارث.

في طهران، في اليوم التالي لتلك الليلة العذبة للغاية، بعدما قفزَتْ إلى الطائرة الأولى المُتّجهة إلى باريس - الرحلة المسائية للخطوط الجويّة الفرنسيّة - وهي ترتجف من الألم والإحساس بالذنب، وبعدما كانت قد أمضت نهارها، من دون أن يغمض لها جفن، تتنقّل من مكتب شرطة إلى آخر لإتمام تلك المُعاملات الإداريّة الكريهة للحصول على تأشيرة خروج، معاملاتٌ يتفنّن الإيرانيّون في تعقيدها، مُتسلّحةً بورقة أرسلتها السفارة الفرنسيّة على عجل، تَشْهَد على خطورة حالة شقيقها الصحية وترجو السلطات الإيرانيّة تسهيل رحيلها، وفيما كانت مُقتنعةً كلّ الاقتناع، بعد سماعها نبرة صوت والدتها، بأن صموئيل قد توفي، رافضةً الإصغاء إلينا ومنهارة من هول الصدمة، ونتيجة المسافة التي تفصلها عن بلدها وعدم استيعابها ما حصل وتصديقها النبأ، في ذاك المساء تحديدًا،

وفيما كانت تتململ على كرسيها عاجزةً عن النوم وسط النجوم الباردة اللامباليّة، هرعْتُ نحو الإنترنت لأبعث إليها برسائل، برسائل وبرسائل سوف تقرأها، كما كنتُ آمَل بحماقة، لدى وصولها. أمضيتُ ليلتي تلك من دون أن يغمض لي جفن أنا أيضًا، في حالة من الحزن والغضب وعدم التصديق.

كانت والدتها حاولت عبثًا الإتصال بها طوال تلك السهرة وحتّى الصباح، اتّصلَتْ، يائسةً، بالمعهد، بالقنصليّة، أقامت الدنيا وأقعدتها، وأخيرًا، فيما سارة كانت قد أغلقت على نفسها بحشمة باب الحمّام كي لا يراها الدخيل، مُرسلةً لي قبلة من بعيد، أتى شخصٌ لإبلاغي بالنبأ - كان الحادث قد وقع بعد ظهر اليوم السابق، الحادث، أو الحدَث، أو اكتشاف الجثّة، لا أحد كان يعلم شيئًا بعد، كان على سارة أن تتّصل بوالدتها هاتفيًا في المنزل، وكانت هاتان الكلمتان، «في المنزل»، ليس في المستشفى أو في أيّ مكان آخر، بل في المنزل تحديدًا، ما جعلها تحدس بالفاجعة. هرعَتْ نحو الهاتف، أرى من جديد لوحةَ المفاتيح وأناملَها المُتردّدة تُخطئ في طلب الرقم، خرجْتُ من الشقة مراعاةً لمشاعرها، ونتيجة جُبني أيضًا.

خلال ذلك النهار الأخير، رافقتُها في جولة في العوالم السفليّة للنظام القضائي الإيرانيّ، في مكتب جوازات السفر، مملكة الدموع والظُلْم، حيث رأينا مهاجرين أفغانًا غير شرعيين، ملابسهم مُلطّخة بالإسمنت والطلاء، مطرقي الرؤوس وأياديهم مُكبّلة، يمرّون أمامنا في صفّ طويلٍ يحرسه أعضاء من حرس الثورة فيما يبحثون على شيء من المواساة في عيون الحاضرين؛ انتظرنا لساعات على ذاك المقعد الخشب المهترئ، تحت صورتي مُرشدَي الثورة الأوّل والثاني، وكانت سارة تنهض كلّ عشر دقائق لتتّجه نحو الموظّف

الذي خلف الشبّاك الزجاجي، فتروح تُكرر بالفارسيّة، السؤال نفسه والطلب نفسه، «يجب أن أغادر هذا المساء، يجب أن أغادر هذا المساء»، وكان الموظّف يجيبها في كلّ مرّة «غدًا»، «غدًا»، «سوف تغادرين غدًا»، ومدفوعًا بأنانيّة الشغف، أخذْتُ بالفعل آمل بأنها لن تُغادر قبل الغد، أنني سوف أمضي معها سهرة أخرى، ليلة أخرى أواسيها خلالها وأخفف عنها من هول الكارثة التي كُنا فقط نلمحُها، وكان أفظعُ شيء، في غرفة الانتظار المُتصدِّعة جدرانها تلك، تحت نظرة الخميني الحانقة ونظّارتيّ الخامنئي السميكتَين، استحالةَ احتضانها بين ذراعَيّ وحتّى إمساك يدها ومسح دموع الهلع والعجز والغضب المنهمرة على وجهها، إذ كنتُ أخشى أن مثل هذا الإخلال بالآداب العامة، مثل هذا الخروج عن الحشمة الإسلاميّة، قد يقلل من حظوظها القليلة أصلًا، في الحصول على تأشيرة خروج. في نهاية المطاف، وبعدما كنا قد فقدنا كلّ أمل، مرّ أمامنا ضابطٌ (في العقد الخامس من العمر، لحية طويلة رمادية، كرشٌ لا بأس به، سترةُ بزّةٍ عسكرية في منتهى النظافة) يتّجه نحو مكتبه؛ استمع ربُّ الأسرةِ العطوفِ هذا لقصّة سارة فأشفق عليها، وبسماحةٍ ونُبْلٍ لا مثيل لهما إلا في الأنظمة الديكتاتورية، وقّع مستندًا غامضًا ونادى أحد مرؤوسيه وأمره بدمغ جواز سفر الآنسة بالختم المُتعذّر الحصول عليه نظريًّا، فإذ بالمرؤوس، وهو ذاك الموظّف المُتعنِّت عينه الذي لم ينفكّ يصدُّنا بفظاظة كبيرة طوال الصباح، يقوم بمهمّته على الفور وابتسامةُ سخريةٍ أو شفقةٍ ترتسم على شفتَيْه، وطارت سارة إلى باريس.

سُلَّمُ «سي» الكبير - الفجرُ الذي يضعُ حدًّا لمشهد الحبّ؛ الموت. هل يستخدم سيمانوفسكي، في تُحفته «نشيد الليل»، تلك السيمفونيةُ التي تربط ببراعة فائقة بين أبياتِ المُتصوّفِ جلال الدّين

الرومي وليلِ تريستان وإيزولده الطويل... هل يستخدم فيها سُلّمُ «سي» الكبير؟ لا أذكر، لكنّه أمرٌ مُحتمل. إحدى أروع المؤلفات السيمفونية في القرن الماضي، لا شكّ في ذلك. ليلُ الشّرق. شرقُ الليلِ. الموت والفراق. مع تلك الجوقة التي تلتمع كأنها عنقود نجمي.

لقد لحّن سيمانوفسكي قصائدَ لحافظ الشيرازي أيضًا، مجموعتان من الأناشيد ألّفها في فيينا قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بقليل. حافظ. يتهيّأ لنا أن العالم يدور حول السرِّ الذي في حوزته، مثلما يدور طائرُ النار حول الجبل. «أَصْمُتْ يا حافظ! لا أحد يعلمُ الأسرار الإلهية، أَصْمُتْ! من ستسأل ماذا حلّ بدورة الأيام؟». حَوْل أسراره ومُترجِميه، من هامر-بورغشتال وصولًا إلى هانز بيتجي الذي غالبًا ما لُحِّنَت «ترجماته» المُقتبَسة عن ترجمات سابقة. سيمانوفسكي، مالر، شونبرغ، فيكتور أولمان - جميعهم يستخدمون ترجمات بيتجي. بيتجي، مسافرٌ لم يبارح مكانه تقريبًا، يجهل العربيّة والفارسيّة والصينيّة. إن الأصلَ والجوهرَ هما في برزخ ما بين النصّ وترجماته، في بلادٍ ما بين اللغات، ما بين العوالم، في اللامكان، في ذاك العالم التخييلي الذي تنبع منه الموسيقى أيضًا. ليس من نص أصلي. كلّ شيء في حركة دائمة. بين اللغات، بين الأزمنة، زمن حافظ وزمن هانز بيتجي. الترجمة بما هي فعلٌ ميتافيزيقي. الترجمة بما هي تأمّل. لقد تأخّر الوقت كثيرًا للتفكير في هذه الأمور. هي الموسيقى وذكرى سارة ما يدفعان بي نحو هذه الأشجان. نحو تلك الفضاءات الشاسعة حيث فُرِّغ الزمن من محتواه. كنا نجهل ما كان الليلُ يُخبئه لنا من ألم، أيّ فراق طويل وغريب كان يبدأ حينذاك، بعد تلك القبلات - مستحيلٌ أن أعود إلى سريري، ما من عصافير أو مُؤذّن في عتمة فيينا، قلبي يخفق بقوّة من

وطأة الذكريات، ونتيجة هذا الإحساس الأليم بالفقدان الذي هو ربّما بحدّة الجوع الناجم عن الحرمان من الأفيون، شهوةٌ ناجمة عن حرماني من المُلامسات.

إن مسيرة سارة المهنيّة لامعة؛ هي تُدْعى على الدوام إلى أهمّ المؤتمرات والندوات بينما لا تزال، في العالم الأكاديمي، أشبه ببدوية هائمة على وجهها في بقاع الأرض، لا تملك «منصبًا» كما يقولون، خلافًا لي، فأنا أمتلكُ عكسَ كلّ ذلك: استقرارٌ مادي، طبعًا، تؤمّنه لي وظيفتي التعليميّة، فأعيش في المدينة التي ترعرت فيها حيث أدرِّس في حرمٍ جامعي مريح، طلابًا لطفاء، غير أن شهرتي كباحثٍ تُقارب الصفْر. أستطيع في أحسن الأحوال، التعويل على دعوةٍ إلى مشاركة في ندوةٍ ما تُقام في جامعة غراتز أو حتّى براتيسلافا أو براغ، ما قد يُتيح لي تحريك ساقيّ بعض الشيء. لقد مضت سنوات من دون أن أعود إلى الشّرق الأوسط ولا حتّى إلى إسطنبول. أستطيع البقاء لساعاتٍ متسمرًا هكذا أمام شاشة الكمبيوتر، تائهًا في نصوص سارة ورسائلها، معيدًا رسم رحلاتها ومُغامراتها: ندوات في مدريد، في فيينا، في برلين، في القاهرة، في آكس أون بروفانس، في بيركلي، وصولًا إلى مومباي، كوالالمبور أو جاكارتا، خريطة المعرفة العالمية.

يتهيأ إليّ أحيانًا أن الليل قد حلّ، أن ظلمات الغرب قد اجتاحت الشّرق وأنواره. أن الفِكرَ والتأمُّل، ومتعةَ الفكرِ والتأمُّلِ، ونبيذَ الخيام وبيسوا، لم تصمد أمام القرن العشرين، أن ذاك البُنيان المُشترك الكوزموبوليتاني، ما عاد مؤسَّسًا على تبادل الحبّ والفِكْر، بل على تبادل العنف والسّلع المُصنَّعة. الإسلاميون في مواجهة الإسلام. الولايات المُتحدّة وأوروبا في حربٍ مع الآخَر الذي في الذات. ما جدوى انتشال أنطون روبنشتاين، و«أناشيد ميرزا شفيع»

التي ألّفها، من هوّة النسيان؟ وما جدوى تَذكُّر فريدريش فون بودنشتت، وكتابه «ألف نهار ونهار في الشّرق»، ووصفه سهرات انعقدت في تبليسي حول الشاعر الاذربيجاني ميرزا شفيع، وسكراته شاربًا النبيذ الجورجيّ، ومديحه المُتعثّر لليالي القوقاز والشعرِ الفارسي، والقصائد التي كان هذا الألماني يلقبها بصوت مجلجل، مخمورًا في شوارع تبليسي؟ بودنشتت، هو ذا مترجمٌ منسيٌّ آخر. رحّالة. بخاصة مُبدع. غير أن كتاب «أناشيد ميرزا شفيع» لاقى نجاحًا كبيرًا في القرن التاسع عشر، إذ اعتُبِر وقتذاك من أبرز الأعمال الأدبيّة «الشّرقيّة» في ألمانيا. تمامًا مثل الاقتباس الموسيقي لأنطون روبنشتاين عن «أناشيد ميرزا شفيع» في روسيا. ما جدوى تَذكُّر المستشرقين الروس وتأثّرهم بموسيقى آسيا الوسطى وأدبها؟ على المرء أن يمتلك طاقة سارة ليُعيد بناء نفسه باستمرار، ليحدِّق على الدوام في الفقدان والمرض، ليُثابر على التنقيب في شجن الدنيا كي ينتشل منه جمالًا أو معرفةً.

عزيزي الغالي فرانتس،

اجل، أعلمُ ذلك، أنا لا أراسلكَ في هذه الأيام، لا أُطلِعكَ على أخباري، فأنا غارقةٌ في السفر. أنا الآن في فيتنام، في تونكين، في أنام، في كوشين-الصين[1]*. أنا في هانوي في عام ١٩٠٠. أراكَ من هنا تفتحُ عينَيْك على وسعهما مندهشًا: في فيتنام؟ أجل، أنا منهمكة في بحثٍ يتناول المُخيّلة الكولونيالية! لكن لسوء الحظ من دون مُغادرة باريس. بحثٌ يتناول موضوع الأفيون. أغوص الآن في*

(١) تونكين، أنام وكوشين-الصين أسماءٌ كانت تُطلق قديمًا على فيتنام أو على بعض من أجزائها.

كتابات جول بُوَسْيِير، ذاك المُدمِنُ والموظّف الحكومي الأُكْسيتانيّ[1] الذي قتَلَه شغفُه وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، بعد أن دخّن الكثير الكثير من غلايين الأفيون وواجه أخطار أدغال تونكين، مُتحدّيًا البرد والمطر والعنف والأوبئة، لا يؤنِس وحشته سوى الضوء القاتم المُنبعث من مصباح الأفيون - إن تصوير الأفيونِ في الأدب الكولونيالي أمرٌ مُدهشٌ يثير الإهتمام للغاية: نسبة الأفيون جوهريًا إلى «الشّرق الأقصى»؛ كلّ ما تَكثّف في هذا «المُخدِّر العذب والطيّب»، حسب تعبير بُوَسْيِير، من صوفيّةٍ وأنوارٍ وسط العنف الاستعماري. يرى بُوَسْيِير أن الأفيون هو الصلة التي تربطه بالفيتناميين؛ هو لا يُدخِّن غلايينهم ولا يضطجع في مضاجعهم فقط، بل يختبر مثلهم عنف ذاك الزمان وألم الجوع الناجم عن الحرمان من المُخدِّر. مُدخِّنُ الأفيون كائنٌ يختلف عن غيره، حكيمٌ ينتمي إلى جماعة من العرّافين: هو رؤيويٌّ ومُتسوّل. الأفيون سوادٌ مُضيءٌ على نقيضٍ من قسوة الطبيعة وتوحّش البشر. إن المرء يُدخِّن بعد القتال، بعد ممارسة التعذيب، بعد تأمّل الرؤوس التي قطعتها السيوف، والآذان التي صلمتها السكاكين، والأجساد التي مسخها الزحار المعوي أو الكوليرا. الأفيونُ لغةٌ، عالَمٌ مشترَك؛ وحده الأفيون يتيح لنا التسلل إلى أعماق «روح آسيا». إن هذا المُخدِّر، هذا الوباء السابق للاستعمار، والذي أتت به التجارة الأوروبيّة - وهي سلاحُ هيمنةٍ رهيب - قد صار مفتاحًا لعالم غريب ينبغي ولوجه، ثمّ أضحى ما يُمثّل هذا العالم خير تمثيل، الصورةَ التي ترمز إليه في أذهان الأوروبيين.

---

(١) أكسيتانيا أو قسطانية منطقة في أوروبا حيث كانت اللغة الأكسيتانيّة مُنتشرة تاريخيًّا، وهي تشمل النصف الجنوبي من فرنسا، إضافة إلى أندورا وموناكو وأجزاء صغيرة من إيطاليا وإسبانيا.

أُنْظُرْ مثلاً إلى هاتين البطاقتَين البريديتَّين المُرسلتَين من سايغون في عشرينات القرن المنصرم.

COCHINCHINE
Fumeur d'Opium préparant la pipe



عند رؤية مدى يفاعة هذين الولدَين، يتهيأ لنا أن تدخينَ الأفيونِ ليس عادة منتشرة للغاية فقط، بل عادة مقبولة اجتماعياً، أزليّة، ريفيّة وطبيعيّة أيضًا؛ لا شكّ في أن العلبة السوداء المقفولة تحوي أسرار

هذا البلد الإكزوتيكي للغاية حيث يُدلّل الجميع أنفسهم بهذه المتعة الطفوليّة. صورةُ الآسيوي كطفلٍ منتشٍ.

«على الإنسان أن ينتشي على الدوام: هذا البلدُ ينتشي بالأفيون والإسلام والحشيش، والغربُ بالمرأة. لعلّ الحبّ هو وسيلةُ الغربيين للتحرر من قدرهم كبشر»، يكتب أندريه مالرو في روايته «قدر الإنسان»؛ جملةٌ أقلّ ما يُقال عنها إنها مثيرة للفضول؛ هي تُظهِر بوضوح كيف أضحى الأفيون حكرًا على شعوب الشرق الأقصى، وبأيّ طريقةٍ تُصْنَعُ تصَوُّراتُنا؛ ليس الهدفُ بتاتًا التشكيك في حقيقة الويلات التي ألحقها الأفيونُ بالصينيين أو بالفيتناميين، بل محاولة تبيان كيف تشكّلت تلك المُخيّلة، وبأي طريقة تَخْدُم البروباغندا الكولونياليّة.

أتذكّر مارك في طهران تائهًا في الأفيون فأتساءل ما إذا كان قد وقع تحت سحر حلمٍ كبير، ما إذا لم تكن تبريراته العلميّة كلّها مجرد أعذار لاواعية لكي يغوص، مثلنا نحن جميعًا، في دنيا الأحلام حيث يتخلّص المرء من ذاته.

ها أنا أشرح لك كلّ هذه الأمور، غير أن ما أرغب فيه حقًّا هو التمدّد، أنا أيضًا، على حصيرة، مُسندةً رأسي إلى حقيبة، لأستنشق دخان النسيان، لأسلّم روحي إلى شراب السلوان وأنسى كلّ آلام الفقدان. إن أفيوني أنا هو هذه النصوص والصوَر التي أُنَقِّب عنها يوميًّا في المكتبات الباريسيّة؛ أفيوني كلماتٌ أجمعها كأنها فراشات، فأتمعّن النظر فيها من دون التفكير في أيّ شيء آخر؛ أفيوني بحرٌ من الكتب أسعى إلى الغرق فيه - لكن بالرّغم من كلّ شيء، ما زلت أفكّر في أخي، يتهيّأ لي أنني أعْرُج، أنني لم أستعد توازني بعد، وحين أقع على نصٍّ عنيف للغاية، أو مؤثّر للغاية، يصعبُ عليّ كثيرًا كبحُ دموعي، فأنزوي في غرفتي، وأتناول حبّةً من هذه الأدوية

الحديثة التي لا تملك سحر الأفيون ولا فاعليته، وأنام أربعًا وعشرين ساعة متواصلة.

أيها المتألّمون هو ذا كنزُكم الوحيد:
دخّنُوا. وأيتها الآلهة ما أوسع رحمتك،
إذ جعلت السّعادة تقتصر على حركة.

إنه النقش على ضريح جول بُوَشْيِير في هانوي، وقد كتبه صديقُه ألبير بوفورفيل. أوَدُّ لو أن السّعادة تقتصر على حركة. أعلم أنّكَ تفكّر فيّ؛ أنا أقرأ رسائلكَ كلّ يوم وأحاول الإجابة عنها لكنني أعجزُ عن ذلك، فأروح أخشى أنكَ غاضبٌ عليّ، فأدفن نفسي في أبحاثي كطفلٍ يختبئ تحت لحافه.

لكن لا تسمح لذلك أن يحول دون كتابتكَ رسائل لي، أقبّلكَ،

سارة

لقد أعادت سارة بناء نفسها عبر اتجاهها أبعد فأبعد نحو الشّرق، عبر غوصها أعمق فأعمق في ذاتها، ماضيةً قدمًا في سعْيِها الرّوحيّ والعلمي الذي أتاح لها الهروبَ من مآسيها – أما أنا، فأُفَضّل البقاء هنا، في شقّتي بفيينا، حتّى لو كانت عليّ مكابدة الأرق والمرض وكلب غروبر. لا أمتلكُ شجاعتها. أزمنة الحرب دومًا غير مواتية لطائفتنا، نحن المستشرقين، إذ يتحوّل حينئذٍ علماءُ الآثار جواسيسًا، وعلماءُ اللسانيات صانعي بروباغندا، وعلماءُ الإثنولوجيا سجّانين. حسنًا فعلتْ سارة حين نفت نفسها في تلك البلاد الغامضة والبعيدة حيث التوابل والمفاهيم الفلسفيّة تثير اهتمام السكّان أكثر بكثير ممّا تثير اهتمامهم ارتكابات قاطعي الرؤوس ومختصّي المُتفجرات. «في شرق الشّرق»، كما يقول بيسوا. علامَ قد أعثر

هناك يا ترى؟ في الصين البعيدة، في مملكة سيام، عند تلك الشعوب المقهورة في فيتنام وفي كمبوديا، أو في الفيليبين، هذه الجزر التي غزاها الإسبان قديمًا، والتي تبدو على الخريطة كأنها مُتردّدة بين هذا الجانب وذاك من العالم، مُغلِقةً بحر الصين الجنوبي ومُشرِفةً على ضخامة المُحيط الهادئ، أو في ساموا، أبعد نقطة من ألمانيا شرقًا وغربًا، إحدى مستعمرات إمبراطوريّة بسمارك الذي اشترى من الإسبان آخر فتات ممتلكاتهم في المحيط الهادئ، علامَ قد نعثر يا ترى في غرب الغرب، حيث يُرْبَط حزامُ الكرة الأرضيّة، على بضعة علماء إثنولوجيا طاعنين في السن وحكّام مستعمرات مُتعرّقين يداوون سويداءهم بالخمر والعنف أمام العيون المُتحسّرة للسكّان المحليين، على شركات تصدير واستيراد، على فروع لمصارف غربيّة، على سيّاح، أم على العِلم والموسيقى والحبّ والتلاقي والتبادل - إن الأثر الوحيد المُتبقّي من الاستعمار الألماني هو بيرة «تشينغداو» التي سُمِّيت باسم عاصمةِ مستعمرةِ كياوتشو الألمانيّة، في شمال شرق الصين الغامضة؛ كان ثمّة بضعة آلاف من الألمان يقطنون تلك المنطقة التي استؤجِرت من امبراطوريّة السماء[1] تسعة وتسعين عامًا، إلا أن القوات اليابانية، تؤازرها فرقة عسكرية بريطانيّة، استولت عليها في خريف عام ١٩١٤، ربّما طمعًا منها بمصنع البيرة المُشيَّد بالطوب، والذي لا يزال يُصدِّر حتّى يومنا هذا، ملايين من الزجاجات إلى العالم كله - وبهذا تكون الدائرة قد اكتملت مرّة أخرى: بيرة كولونياليّة تجتاح بدورها، بعد قرن من الزمن، مجمل البلدان الرأسمالية. أتخيّل العمّال المختصّين بصناعة البيرة الآتين مع آلاتهم من ألمانيا، يصلون في عام ١٩٠٠ إلى ذاك الخليج الرائع بين

(١) الاسم الّذي كان الصينيون يُطلقونه على امبراطوريتهم.

شانغهاي وبكين. خليج انتزعته زوارق المدفعية الألمانيّة من سلالة تشينغ الحاكمة التي كانت تنهشها القوى الغربيّة مثلما تنهش الديدان جثّة مُتحلّلة: استحوذ الروس على «بور آرتور»، والفرنسيون على «فور بايار»، والألمان على تشينغداو، ناهيك بالامتيازات الممنوحة في مُدنٍ كتيانجين أو شانغهاي. حتّى إمبراطوريتنا النمساوية المجرية المسكينة حصلت على رقعة أرضٍ في تيانجين سارعت إلى كسوِها بمبانٍ من الطراز النمساوي، كنيسةٌ وبضعة منازلٍ ومحال تجاريّة. لا بد من أن مدينة تيانجين هذه التي تقع على بعد مئة وستين كيلومترًا من بكين، كانت تُشبه معرضًا أوروبيًّا: أحياء فرنسي، وبريطاني، وألماني، وروسي، ونمساوي، وبلجيكي، وحتّى إيطالي - نزهةٌ قصيرة، بضعةُ كيلومترات فقط، فيتهيّأ للمرء أنه اجتاز أوروبا المُتعاليّة والاستعماريّة كلّها، أوروبا المُغامرين واللصوص وقُطّاع الطرق الذين كانوا قد نهبوا وأحرقوا القصر الصيّفي في بكين عام ١٨٦٠، مُستشرسين على أكواخ الحديقة، على الخزفيات، على الزخرفات الذهبيّة، على البرك بنوافير وحتّى على الأشجار، كان الجنود البريطانيون والفرنسيون ينتزع واحدهم من الآخر كنوز القصر كأنهم مجرد أوباش قبل أن يضرموا النار في المكان، وسوف تصل لاحقًا إلى أسواق لندن وباريس، غنائمُ النهبِ والعنفِ من خزفياتٍ ونُحاسياتٍ صينيّة تعود إلى الحقبة الإمبراطوريّة. بيتر فليمينغ، شقيقُ مُبتَكِر شخصيّة جيمس بوند ورفيقُ سَفرِ إلّا مايّار خلال رحلاتها في آسيا، يروي في كتابه حول حوادث الأيام الخمسة وخمسين الشهيرة التي وقعت في بكين، حيث قام التنظيم المُسلّح، المُناهض للاستعمار، والمعروف بحركة الملاكمين، يؤازره عناصر من الجيش الصيني الإمبراطوري، بمحاصرة جنود ومدنيين أوروبيين ويابانيين، إضافة إلى مدنيين صينيين من معتنقي المسيحيّة، في حيّ المفوضيّات

الأجنبيّة. . . يروي بيتر فليمينغ أن مستشرقًا راح يبكي بحرقة حين رأى النيران تلتهم النسخة الكاملة الوحيدة من الـ«يونغل داديان»، الموسوعة الهائلة الضخامة التي وُضِعَت في القرن الخامس عشر في عهد سلالة مينغ الحاكمة، والتي تحوي معارف العالم كلها. أحد عشر ألفًا من المُجلدات، أحد عشر ألفًا من المُجلدات، ثلاثة وعشرين ألفًا من الفصول، ملايين وملايين من الأحرف المُدوَّنة التي تبخّرت وسط ألسنة اللهب في المكتبة الإمبراطوريّة التي، لسوء الحظ، كانت بمحاذاة القنصليّة البريطانيّة. عالِمٌ مجهول، مختصّ بالحضارة الصينيّة، بَكَى: أحد الأشخاص القلائل الذين أدركوا، خلال الهيجان الحربي هذا، قيمة ما قد اختفى للتوّ إلى الأبد؛ كان هناك، وسط الكارثة، وشعر فجأة بأن موته أو نجاته أمرٌ ضئيل تافه لا يستحقّ الوقوف عنده، فهو رأى المعارفَ تتبخّر، وإرثَ العُلماءِ القُدامى يمّحي - هل استجدى إلهًا مجهولًا والكراهيّة تملأه، لكي تُهْلِك النيرانُ البريطانيين والصينيين معًا، أم إنه، فاقدًا عقله من هول الصدمة، أخذ يتأمّل بخَبَلٍ الشرارت المُتطايرة وفراشات الورق المُتوهّجة تجتاح عتمة ذاك الليل الصيفي، فيما دموعُ غضبِه تحمي عينَيْه من الدخان، لا أحد يدري. الأمر الوحيد الذي لا لبس فيه، كانت ستقول سارة، هو أن انتصار الأجانب على الصينيين أدّى إلى مجازر وعمليات نهب كان عنفها منقطع النظير، فحتّى المُبشّرون المسيحيون انغمسوا، في ما يبدو، في متعة الدمِ ونشوة الثأر برفقة جنود أممنا المُتحالفة والمجيدة. عدا ذلك المستشرق المجهول، لم يبكِ أحدٌ الموسوعةَ التي احترقت، لقد وُضِعت على لائحة ضحايا الحرب، ضحايا الهيمنة الإمبرياليّة والغزو الإقتصادي اللذين طاولا إمبراطوريّة أنوفًا ترفض بعنادٍ أن تُقطَّع أوصالَها.

في غرب الغرب أيضًا، لسنا بمنأى من عنف الفتوحات

الأوروبية، من عنف تجّارها وجنودها ومستشرقيها ومبشّريها - المستشرقون هم مترجمون ينقلون لغةً أجنبيّة إلى لغتهم الأمّ، فيما المبشرون مترجمون ينقلون لغتهم الأمّ إلى لغة أجنبيّة: ففي حين يَستوردُ المستشرقون معارفَ أجنبية، يُصدِّرُ المبشرون إيمانهم وديانتهم، هذا وهم يتعلّمون لغات السكّان المحليين لكي يستطيعوا تلقين هؤلاء أناجيلهم. إن أوّل القواميس الفيتنامية والصينية والخميرية وضعها مبشّرو الإرساليات، يسوعيين كانوا أم عازاريين أو دومينيكانيين. لقد دفع هؤلاء ثمنًا باهظًا لنشر عقيدتهم - ينبغي أن أكرّس لهم مُجلّدًا من تُحفتي:

حول أشكال الجنون المختلفة في الشّرق
المجلد الرابع
موسوعة مقطوعي الرؤوس

إن أباطرة الصين وأنام، وسواهم، عَذّبوا وقتلوا عددًا لا يُستهان به من المُبشرين المسيحيين، كثيرون منهم طوّبتهم روما لاحقًا أو حتّى أعلنت قداستهم، شهداءُ فيتنام والصين وكوريا الذين كانت آلامهم تُضاهي آلام الشهداء الرومان، مثل تيوفان فينار الذي استلزم قطعُ رأسه، ليس بعيدًا من هانوي، خمس ضربات بالسيف: لقد أظهر هذا الفرنسيّ الشاب قوّة إيمانه على ضفّة النهر الأحمر، في الخمسينيات من القرن التاسع عشر، حين أرغَمت العلمياتُ العسكريّة الفرنسية في أنام الإمبراطور على تشديد اضطهاده للمسيحيين. في اللوحات والرسومات التي تُصوِّره، نراه راكعًا أمام النهر والطمأنينة بادية عليه، فيما الجلّاد بمحاذاته: ضربة السيف الأولى مُتسرّعة للغاية، فتُخطئ الرقبة ولا تتسبب إلا في جرح في الخد؛ يتابع تيوفان صلواته. الضربة الثانية، ربّما لأن توتّر الجلّاد قد تفاقم نتيجة فشل محاولته

الأولى، تُصيب طرف العنق فتريق قليلًا من دماء المُبشّر من دون أن توقف صلواته؛ سوف ينبغي على فاصل الرؤوس (نتخيَّله فارع الطول، بدينًا، أصلع، كما في الأفلام، لكن لعلّه كان قصير القامة، طويل الشعر، وبخاصّة، وفقما تنقله رويات، سكّيرًا، ما قد يُفسّر بشكل معقول فشل محاولاته المُتتالية) أن يرفع ذراعه خمس مرّات لكي يتدحرج أخيرًا رأسُ الشهيد ويتهاوى جسدُه وتتوقف صلواتُه. رأسه سوف يُنصب على رمح عند ضفة النهر الأحمر؛ وجسده سوف يُدفَن في الوحل - وسوف يَسرق مسيحيون الجسدَ والرأسَ مستترين بظلام الليل، سوف يقيمون ضريحًا حقيقيًا للجذع في مقبرة مسيحيّة ويضعون الرأس في ناقوس زجاجي لكي تُحافِظ عليه أسقفية هانوي بوصفه ذخيرة مُقدَّسة، وبعد مئة وخمسين عامًا، سوف تُعلَن قداسةُ هذا الكاهن اليافع المنتمي إلى «إرساليات باريس الأجنبيّة»، تزامنًا مع إعلان قداسة كثير من إخوانه الذي لقوا حتفهم إما ممزقين إربًا إربًا، أو مخنوقين، أو محروقين، أومقطوعي الرؤوس.

«نوع الموت»: قطع الرأس بالسيف، الصلب، تقطيع الأوصال، نزع الأحشاء، الغرق، أساليب تعذيب متنوّعة... هذا ما قد تقوله بطاقات المبشّرين الذين ماتوا في آسيا.

أيّ قديس أناشد طالبًا مواساتَه خلال احتضاري، القديس تيوفان فينار أو قديسًا آخر من الذين سُفِكت دماؤهم، أم بكل بساطة القديس مارتين، قدّيسُ طفولتي الذي كنتُ أفتخر به كثيرًا في النمسا خلال مسيرات شموع الحادي عشر من تشرين الثاني - بالنسبة إلى أبناء بلدي، لم يكن القديس مارتين هو نفسه القديس مارتين التوروزي الذي كنتُ قد رأيتُ قبره وأنا طفل في الكاتدرائيّة التي تحمل اسمه في مدينة تور (هي كنيسة ذو طابع شرقي أكثر منه فرنسيًا) برفقة جدّتي وأمّي، ما كان يُشعرني، نتيجة الطبيعة الطفولية لإيماني، أن علاقة

مميزة تجمعني بهذا الجندي الروماني الذي قطع معطفَه بسيفه ليعطي نصفه لشحّاذٍ، علاقة كانت ترتبط، في مُخيِّلتي، بالقصب المنتشر على الضفاف الرملية لنهر اللوار، وبأعمدة الضريح حيث كان يرقد هذا القديس الرؤوف للغاية الذي، كانت تقول جدّتي، نستطيع التماس شفاعته في أي لحظة كانت ولأي سبب كان، ما لم أكن أتورّع عن فعله، على نحو أخرق طبعًا، لأطلب منه السكاكر والحلوى واللُّعَب. كانت تضرعاتي لهذا الجندي-الأسقف في منتهى الإنتهازية، وحين كنا نقصد ريف فيينا في منتصف الخريف لنأكل إوزّة عيد القديس مارتين، كنتُ أشعر بأن هذا الطائر ذا اللحم الجاف بعض الشيء، يرتبط مباشرة بمدينة تور؛ لا بد من أنه كان يأتي من هناك مُحلِّقًا - إن كان بمقدور جرس أن يعود من روما ليزفّ خبر قيامة المسيح، فبمقدور إوَزة إذًا أن تُحلّق من تورين إلى النمسا لكي تُكرِّم قديسًا عبر اضطجاعها، مشوية بالكامل، بين حبّات الكستناء. غريبٌ أن القديس بندِكت، ومع أن قرية جدّتي تحمل اسمه، بقي بالنسبة إلي مُجرّد اسم؛ من دون شك لأن جنديًا يهب نصف معطفه لمتسوّل مسكين أكثرُ سحرًا لطفلٍ من ناسك إيطالي، مهما كانت أهمية الأخير لمسحيي القرون الوسطى - إلا أن القديسَ بندِكت شفيع المُحتضرين، هو ذا شفيعي إذًا، قد أستطيع اقتناء صورة للقديس بندِكت، فأخون بذلك أيقونة القديس كريستوفر التي أملكها. لقد قُطِع رأس الكنعاني العملاق هذا هو أيضًا - في جزيرة ساموس؛ إنه قدّيس العبور، هو من يساعد المرء على اجتياز الأنهار، هو من حمل يسوع من ضفة إلى أخرى، هو شفيع المُسافرين والمُتصوفين. كانت سارة تُحبّ قدّيسي الشّرق. القديس أندراوس القسطنطيني أو سمعان الحمصي، كانت تروي قصص هؤلاء المجانين المولعين بالمسيح الذين كانوا يوارون قداستهم خلف قناع جنونهم - والجنون، في تلك

الأزمنة، كان يعني الغيريّة، كان يشير إلى غرابة كبيرة لا تفسير لها، غرابة سلوكٍ وأفعالِ شخص ما: سمعان الذي عثر على كلبٍ ميتٍ في طريقه إلى حمص، فربط حبلًا حول عنقه وراح يجرّه خلفه كأن الحيوان لا يزال حيًا؛ سمعان أيضًا، الذي أخذ يلهو بإطفاء شموع القدّاس راميًا عليها حبّات من الجوز ثم، حين حاولوا طرده، تسلّق منبر الوعظ ليمطر الحضور بوابلٍ من الجوز إلى أن نجح بطرد الجميع من الكنيسة؛ سمعان راقصًا، مُصفقًا وقافزًا في الهواء، ساخرًا من الرهبان وآكلًا الترمس مثل الدِببة.

لعل بيلغر قدّيس، من يدري، أوّل قديس يمتهن علم الآثار؛ لعله يخفي قداسته خلف جنونٍ لا يمكن سبر غوره. لعل الإلهام جاءه في الصحراء، في مواقع التنقيب، وفيما أمام ناظريه بقايا الماضي التي كان ينتشلها من الرمال فراحت الحكمة التوارتيّة تتغلغل شيئًا فشيئًا في نفسه إلى أن تحوّلت الحكمةُ هذه، ذات يوم سماؤه في منتهى الصفاء، قوسَ قزحٍ يمتد من الأفق إلى الأفق. في أي حال، بيلغر هو الأصدق بيننا. هو لا يكتفي بآلام طفيفة، بليالي أرق، بأمراض عصيّة على الفهم كأمراضي، ولا بظمأ سارة الرّوحيّ؛ هو اليوم مُستكشف غيريته العميقة.

كانت سارة مولعة أيضًا بالمبشّرين المسيحيين، الشهداء وغير الشهداء؛ كانت تقول إنهم الموجةُ الباطنية للاستعمار، النظيرُ الصوفي والمَعْرفي للزوارق الحربيّة - فكلا الطرفين يسير معًا، الجنود يتبعون أو يتقدمون بمسافة قصيرة رجالَ الدّين والمستشرقين. رجالُ الدّين هم أنفسهم المستشرقون في بعض الأحيان؛ وفي أحيان أخرى، تجتمع الصفات الثلاث - مُبشّر ومُستشرق وجندي - في شخص واحد: مثل ألويس موزيل، أو الأب الدومينيكاني أنطونان جوسان، أو لويس ماسينيون - الثالوث المُقدّس عام

١٩١٧. إن أوّل من عَبَر التِبت، على سبيل المثل (وقد سررْتُ بإطلاع سارة على هذا الإنجاز العظيم لكنيستنا الوطنية)، كان يسوعيًا نمساويًا من مدينة لينتس، يوهان غروبر، ربّما أحد أسلاف جاري: إن هذا المُبشّر الذي عاش في القرن السابع عشر وكان عالم رياضيات في أوقات فراغه، أضحى، بعد عودته من الصين، أوّل أوروبي زار لاسا، عاصمة التِبت. خلال رحلاتها الاستكشافية الطويلة في الأراضي البوذيّة، التقت سارة بمبشّرين آخرين، بمستشرقين آخرين روتْ لي قصصهم المُثيرة كمُغامرات جواسيس الصحراء - الأب إيفاريست هِك مثلًا، الذي أضفَت طيبةُ قلبه وبساطتُه الجنوبيّتان (لقد وُلِد، إن لم تخني الذاكرة، في بلدة مونتوبان الواقعة على ضفاف نهر التارن، وهي مسقط رأس آنغر، الرسّام العزيز على قلب المستشرقين وخليل باشا) شيئًا من الخفّة على غداء نمساوي مملّ، يشوبه بعض من التوتّر، أثناء أوّل زيارة لسارة بعد وفاة صموئيل. كانت آنذاك مقيمةً في دارجيلينغ. متاحف نمساوية مريعة، ذكرياتُ مُستشرقَيْن، ومسافة غريبة تَفصل بيننا، نحاول اجتيازها مُستعنَيْن بأحاديث فكريّة وعلميّة. بدت لي زيارتها تلك طويلة جدًّا. وكانت سارة مُزعِجة. كنتُ في الآن عينه فخورًا بأنني أريها حياتي في فيينا، وخائبًا جدًّا لأنني لم أعثر توًا على تلك الحميميّة التي نمت بيننا في طهران. حماقات، مناكفات، نفاد صبر، سوء فهم، هذه حصيلة لقاءاتنا حينذاك. كنتُ أوّد اصطحابها إلى متحف بيلفيدير، أو إلى مارياهيلف حيث أمضيتُ فترةً من طفولتي، لكنّها لم تكن تكترث سوى بالفظاعات وبالمراكز البوذيّة. كنتُ قد قضيت شهورًا أستعيد ما حصل بيننا، أنتظر قدومها بشوق ولهفة، راسمًا في ذهني امرأةً في غاية الكمال إلى حدّ أنني كنتُ اتخيَّل أنها ستضيء حياتي فجأة حين أراها من جديد - يا لها من أنانيّة، عندما

أعود وافكّر في الأمر. لم أدرك كم كانت حزينة، لم أعِ حدّة الألم والإحساس بالظلم اللذين قد ينجمان عن الموت المُباغت لشخصٍ نُحبُّه، لم أعِ ذلك بالرّغم من رسائلها:

عزيزي فرانتس، شكرًا لرسالتك الديبلوماسيّة التي حملتني على الابتسام - أمرٌ صعبٌ بعض الشيء في هذه الأيام. أنا مُشتاقة جدًّا إليك. أو بالأحرى أنا مُشتاقة جدًّا إلى كلّ شيء. أشعر بأنني أحيا خارج الدنيا، بأنني أطفو في حدادي. يكفي أن تلتقي نظراتي بنظرات أمي حتّى نشرع نبكي. كلّ واحدة منا تبكي على حزن الأخرى، على هذا الفراغ الذي تراه كلّ منا على وجه الأخرى المُنهَك. باريس مقبرةٌ، فتاتُ ذكريات. أتابع رحلاتي الاستكشافية في عوالم الأفيون الأدبيّة - لم أعد أدري تمامًا ما أبحث عنه.

أقبّلُكَ بحزن، إلى اللقاء،

سارة

كَتبَ فرانتس ريتر:

عزيزتي الغاليّة سارة،

آه لو تعلمين ما أصعب أحيانًا ألّا يَخِيب ظنُّ المرء بنفسه حين لا يُحالفه الحظ بألّا يكون فرنسيًّا، وما أصعب أن يرتفع إلى القمم، مستعينًا بقدراته العقليّة فقط، القمم التي يسكُنها مواطنو بلدكِ، وما أصعب أن يفهم نُبُلَ دوافعِهم واهتماماتِهم ومشاعرِهم! لقد دُعيتُ ذاك المساء إلى عشاء عند المُستشار الثقافي الفرنسي، فرأيتُ أن مستشارنا يحتاج إلى زمن طويل ليبلغ مقدرة مُستشار بلدكِ العظيم. الأخير عازفٌ موسيقي؛ أنتِ تذكرين أنه لم يكن ليُفوّت فرصة للحديث معي

عن أوبرا وأوركسترا فيينا. هو عازبٌ يقيم سهرات كثيرة في فيلّته الجميلة بنيافاران. أشعرتني هذه الدعوة بالإطراء. تعالَ، قال لي، لقد دَعيتُ أصدقاء إيرانيين، سوف نعزف الموسيقى ونتناول العشاء. ستكون سهرة أليفة وبسيطة.

وصلتُ في الوقت المُحدد، حوالى الساعة الثامنة مساءً، بعدما مشيتُ ربع ساعة في الثلج، إذ إن سيارة الأجرة من نوع «بيكان» كانت تنزلق كلما سارت صُعدًا. أبلغُ البوابة الخارجيّة، أقرع الجرس، أنتظر، أقرع الجرس ثانيةً: لا شيء. أقرر استغلال هذه الفرصة للقيام بجولة قصيرة في الليل الجليدي. عليّ الإقرار أن البقاء بلا حركة كان سيودي بي إلى موت مُحتّم. أمشي بضع دقائق ثمّ أعود إلى البوابة، فأصادف مُدبّرة المنزل التي خرجت من الفيلا للتو: هرعتُ نحوها، طرحتُ عليها بضعة أسئلة، فقالت:

- هذا أنتَ من قرع الجرس. السيّد المُستشار يعزف الموسيقى مع أصدقائه، هو لا يفتح الباب أبدًا حين يعزف.

من دون شكّ لأن صالون الموسيقى يقع في الجانب الآخر من الفيلا، حيثُ لا يُسمع صوت الجرس. حسنًا حسنًا. ادخلُ مُسرعًا ثمّ أسير في الرواق ذي الأعمدة الدوريسيّة المهيبة والإنارة الكلاسيكيّة كالموسيقى التي كانت تصلني، هاربسيكورد، فلوت، مقطوعة لكوبران؟ أجتاز الصالون الكبير فيما أحرص على ألّا ادوس السجاد الثمين. أتساءل ما إذا كان عليّ الانتظار هنا، وأنتِ تعرفينني جيّدًا، أنا شخص مهذّب إلى حد ما، أبقى إذًا واقفًا لا أبارح مكاني، منتظرًا استراحتهم عن العزف لأدخل صالون الموسيقى كما ينتظر المرء حين يصل مُتأخرًا إلى قاعة «الموزيكفرآين» في فيينا. لديّ متّسع من الوقت لتأمل اللوحات، والمنحوتات البرونزيّة التي تُمثّل شبّانًا يافعين بديعين، فأبصر فجأةً - يا للفظاعة! - بُقع الوحل التي

خلّفها حذائي المُتّسخ على الأرضيّة الرخامية. يا للعارا جرمانيٌّ همجيٌّ يحطّ رحاله في ملاذٍ اجتمعت فيه الأناقة والجمال. كان يُمكن تتبُّع مساري المُتردّد حول السجادة، ثمّ من منحوتة إلى أخرى. يا للعارا لا يهمّ: أرى علبة من الصَدَف يبدو أنها تحوي محارم، أمسك بها آملًا بأن يطول عزف السوناتا لمدّة تتيح لي إتمام فعلتي المُذلّة، أركع ممسكًا بالعلبة فأسمع:

- آه، أنتَ هنا؟ ماذا تفعل، تريد أن تلعب بالكِلل؟ هيا، تعال، أُدْخُل.

كانت العلبة تحتوي فعلًا على كريات خزفية، لا تسأليني كيف ظننتُها علبة محارم، فلن أعلم بما أجيبكِ: لا بد من أن السبب هو كلّ هذه الأشياء الجميلة، إذ يشعر المرء حينئذٍ بأن علبة محارم في مثل هذا المكان لا يمكن أن تكون إلّا مكسوّة بالصدف. يا للحماقة، جعلتُ من نفسي أضحوكة، حملتُ مضيفي على الاعتقاد بأنني أريد أن ألعب بالكِلل فيما هم يعزفون موسيقى بديعة. فظّ، جاهل. العالِم الموسيقي النمساوي يلعب بالكِلل بدلًا من الاستماع إلى ألحان كوبران.

أتنهّد، أعيد العلبة إلى مكانها بحرص شديد وأتبع المُستشار نحو صالون الموسيقى: أريكة، كرسيان، بضع لوحات استشراقيّة، مزيد من المنحوتات، هاربسيكورد، عازفان (المُستشار وعازف فلوت إيراني) والحضور: شابٌّ ذو ابتسامة ودودة جدًّا.

- هذا ميرزا، وهذا عبّاس. وهذا فرانتس ريتر، عالم موسيقي نمساوي، تلميذ جان دورينغ.

أصافحهم. أجلس، فيعودون إلى العزف، ما يتيح لي نسيان عاري للحظة والضحك على نفسي. كان المستشار يُدندِن بعض الشيء وهو يعزف على الهاربسيكورد، مُغمضًا عينيه بغية التركيز.

موسيقى حقًّا بديعة، أنغام الفلوت العميقة والنابضة بالحياة، صوتُ الهاربسيكورد الهشّ كالكريستال.

فرغوا من عزف المقطوعة بعد خمس دقائق، أُصفّق. ينهض المُستشار:

- حسنًا، حان وقت أكل «الفوندو». تفضّلوا، من هنا.

لقد نسيتُ أن أخبركِ أنني كنتُ مدعوًا لتناول «فوندو» مُحضَّر على طريقة منطقة سافوا، وهو طبقٌ نادرٌ بما فيه الكفاية في إيران كي لا يفوِّت المرء مثل هذه فرصة على نفسه. حين قال لي المستشار إن هذا ما سنتناوله على العشاء، أجبته:

- «فوندو»؟ أنا لم أذقه أبدًا من قبل.

- أبدًا؟ أليس لديكم «فوندو» في النسما؟ حسنًا، هذ مناسبة لتتذوّقه. إنه أطيب من «الراكليت»، حتّى «الراكليت» السويسريّة. إنه أرفع مذاقًا. أجل، أرفع مذاقًا. ومع تساقط كلّ هذا الثلج، إنه الطبق المثالي.

إن المُستشار الثقافي يهتمّ بكل الفنون، من ضمنها فنّ الطبخ.

دخلنا إذًا إلى المطبخ. بالرّغم ممّا كان المستشار قد قاله لي حول بساطة السهرة وإلفتها، كنتُ أظنّ أنني سأصل لأجد وليمة باذخة بعض الشيء، فيها مُقبّلات وأطباق رئيسيّة نأكلها جالسين إلى طاولة كبيرة، فإذ بي أربط مئزرًا حول خصري، ثمّ توكل إلي مهمة تقطيع الخبز. حسنًا، أباشر التقطيع، تحت إشراف الطاهي الذي يتحقق من حجم قطع الخبز. والطاهي هو ميرزا، رئيس نادي الذوّاقة الذي علمتُ أن أعضاءه يجتمعون مرّة في الأسبوع في فيلا المُستشار.

- الأسبوع الماضي، يا إلهي، طيور الفرّي، ما أطيبها، قال لي. رائعة! الأمر طبعًا مُختلف هذا المساء: وجبة بسيطة. «فوندو»،

لحوم مُقددة، نبيذ أبيض. السرّ هو في الخبز الإيراني وأطباق «السبزي». سوف نستمتع كثيرًا.

يُراقب المُستشار ضيوفه مُبتهجًا، واضحٌ أنه يحبّ أن يرى الحياة تدبّ في مطبخه. يقطع بروية شرائح «جومبون» ونقانق مُجفّفة، ثمّ يضعها في صحن كبير من الخزف الإيرانيّ الأزرق. أنا لم أتناول لحم خنزير منذ أشهر، ينتابني إحساس بأنني على وشك ارتكاب إثم عظيم. نُعِدّ المائدة، نتبادل أطراف الحديث فيما نتناول مشروبًا فاتحًا الشهيّة، حان وقت الطعام. نُخرج الشوَك المُخصصة لأكل «الفوندو» ونُحضّر أطباق «السبزي» التي تضفي، هي وخبز «السانجاك»، طابعَ تعدّدٍ ثقافي على هذا العشاء الوثني. وفي هذه اللحظة، يصيح المُستشار بطريقة غير ديبلوماسيّة:

- والآن، سوف نلعب لعبة «فوندو» التعرّي: من يُضيع قطعةَ خبز يَنزع قميصه. ثمّ يروح يقهقه عاليًا، رافعًا عينيه نحو السماء وهازًا رأسه يمنة ويسرة. أتمسّكُ بشوكتي مصدومًا.

نَصُبُّ النبيذ - نبيذ «غراف» أبيض ولذيذ. يدشّن ميرزا العشاء: يُغمّس قطعة خبز في الجبنة الذائبة ثمّ يسحبها بسهولة فيما خيوط من الجبن لا تزال عالقة بها. أحاول بدوري: يجب الإقرار بأن «الفوندو» ممتاز.

يدور الحديث حول النبيذ.

يقول المُستشار والرضا بادٍ عليه:

- أريد أن أزفّ إليكم خبر أنني صرت مساهمًا في المؤسسة التي تنتج نبيذ «كوت-دي-رون». أجل يا أصدقائي.

أرى علامات الحسد ترتسم على وجهيّ رفيقَيه.

- خبر رائع! يهزّان رأسيهما معًا. الـ«كوت-دي-رون»!

يتحدّثون عن تخمير العنب وقياس مُعدّل السكر فيه، وعن

أساليب حفظ النبيذ في البراميل. أنا مُنهمك في معركتي مع «الفوندو» الذي اكتشفت أن أكله بعد أن يبرد ليس بالأمر السهل، خاصة أكله بقطعة من الخبز الإيرانيّ، إذ هو خبز طريٌّ رخوٌ يتبلل بسرعة فائقة، فلا يمكن غمسه لفترة طويلة من دون أن يبدأ التفتت. كدتُ أخسر قميصي أكثر من مرّة.

باختصار، لم أتناول كثيرًا من الطعام.

فرغنا أخيرًا من أكل «الفوندو» من دون وقوع أي حادث، فلم يفقد أحدنا شيئًا عدا الأوهام التي ضاعت في قعر الطنجرة. ثمّ الحلوى، فالقهوة، فمشروب روحي مُساعد على الهضم، فخطاب عن الفنّ - بالترتيب: حلوى الكستناء المُحضّرة على طريقة منطقة بروفانس، قهوة «إسبريسو» إيطاليّة، كونياك و«الشّكل والمضمون». أصغي إلى كلام المُستشار كأنما أشربه مثل الكونياك الذي أحتسيه مُعتقًا لأربع سنوات.

- أنا عاشقٌ الجمال، يقول. ثمة جمال في كلّ شيء. إن الشّكل أحيانًا هو المضمون بعينه.

- ما يُعيدنا إلى مسألة «الفوندو»، أقول.

أنال نظرات ساخطة من زميليه في عشق الجمال، لكن المُستشار الذي يتمتّع بروح سخرية عالية يقول:

- إيران بلدُ الشكليات. بلدٌ متمسّكٌ بالشكليات الجماليّة.

كما ترين، لديّ الكثير من وقت الفراغ للتفكير بكِ. آمل بأن اكون استطعت حملك على الابتسام في أيامكِ هذه الشديدة الحزن. اقبّلُك بحرارة.

فرانتس

هي تقول لي إن باريس مقبرة، فأروح أروي لها قصصًا فكاهيّة عن سهرات عشاء يُقيمها عليّة القوم، وأرسُم لها صورًا هزليّة لأشخاص لا تكترث لهم، يا لحماقتي، يا لتصرّفي المشين! - إن العجز واليأس وغياب الحبيب تدفع بنا أحيانًا إلى التخبط كغريق. كان ذلك المُستشار يجمع بين حبٍّ عميق لإيران وثقافة واسعة. لقد كذبتُ عليها، فأنا لم أخبرها شيئًا عن تلك الأسابيع الطويلة التي أمضيتُها من دونها في طهران، أسابيع اقتصرت فيها نشاطاتي على قراءة الشعر برفقة بارفيز العظيم، الصديق الذي تحمَّل صمتي صابرًا مُصغيًا إلى كلّ ما لا أقوله.

فيما عدا بارفيز، لم يكن قد بقي لي أي صديقٍ في طهران. كان فوجيه قد عاد أخيرًا إلى بلده في حالة من الانهيار الجسدي التام، تائهًا في موضوع أبحاثه، في حلمٍ يعبق بأدخنة الأفيون. ودّعني كأنه مسافرٌ إلى العالَم الآخَر، بوقار ورزانة مُخيفتَين بعض الشيء لدى هذا الغندور الذي كان يفيض حيويّة فيما مضى - تذكّرتُ الرّجل الذي كانه، الأزعر الغاوي، أمير ليالي إسطنبول وطهران، كان ذاك الرّجل قد اضمحلّ وصار على وشك الاختفاء. لا أدري ما حلّ به. تكلّمنا بالأمر أنا وسارة أكثر من مرة، ثمّة شيء واحد مؤكّد: بالرّغم من كفاءته العالية ومقالاته العلميّة الكثيرة، لم يعد لمارك فوجيه أي صلة بالعالم الأكاديمي. حتّى «غوغل» لا يعلم شيئًا عن أخباره.

في الأثناء، كان باحثون جدد قد قدموا إلى أيران، من بينهم نمساوي تتلمذ على يد بيرت فراغنر، مدير معهد الدراسات الإيرانيّة التابع لأكاديميّة العلوم في فيينا، وهي الأكاديميّة التي أسّسها فيما مضى العزيز هامر-بورغشتال. لم يكن هذا المورّخُ ابن بلدي شخصًا كريهًا، لم يكن لديه سوى علّة واحدة، ألا وهي أنه يتكلّم أثناء المشي - كان يذرع الأروقة جيئةً وذهابًا وهو يُفكّر بصوت عالٍ،

ساعات من التفكير يقطع خلالها كيلومترات كثيرة وهو لا يزال يطوف في الأروقة، وكانت تثير أعصابي رتابةُ هذا اللحن الذي يفيض بالعلم بقدر ما هو عصيٌّ على الفهم. أما في الأوقات التي لا يجوب خلالها المعهدَ، فكان يلعب إلى ما لا نهاية لعبة الـ«غو» الصينية مع وافد جديد آخر نرويجي: نرويجيٌّ إكزوتيكيّ يعزف الفلامنكو على الغيتار بمهارة عالية تُخوّله المُشاركة كلّ سنة في مهرجان في إشبيلية. يا له من لقاء غريب عجيب! جامع طوابع نمساوي، مولع بتاريخ الطوابع الإيرانيّة، يلعب الـ«غو» مع عازف غيتار نروجي وغجري منكبّ على دراسة قطاع النفط.

خلال تلك الأسابيع الأخيرة، أمضيتُ كامل وقتي في منزل بارفيز، ما عدا سهرة أو سهرتَيْن كتلك التي دعاني إليها المُستشار الثقافي العاشق للموسيقى؛ بقيتُ إذًا منزويًا، تُحيط بي أشياء سارة، الأشياء التي لم تستطع حملها معها حين رحيلها المُفاجئ إلى باريس: الكثير من الكتب، سجادة صلاة من خراسان، تلك السجادة ذات اللون البنفسجي الرائع التي لا تزال قرب سريري، إناء سَماوَر فضيّ اللون يعمل بالكهرباء، مجموعة نُسَخٍ عن منمنمات قديمة. كانت بالطبع بين الكتب، أعمال آنا ماري شفارنسنباخ، لا سيما «الوادي السعيد» و«الموت في بلاد فارس»، وهما كتابان تصف فيهما هذه السويسرية وادي لار عند سفح جبل دمافند. كنتُ وسارة عزمنا على الذهاب إلى هناك، إلى ذاك الوادي المُرتفع والقاحل الذي تصبّ فيه مياه أعلى قمّة في إيران، ذاك الوادي حيث نصب الكونت دي غوبينو هو الآخر خيمته قبل مئة وخمسين عامًا - يا لها من قمّة مهيبة يكسوها الثلج الأبيض حتّى في فصل الصيف! هي مثل قمّتَي فوجي وكليمنجارو، صورة عن الجبل المثالي، مُنفردة وسط السماء، تتشامخ على مُحيطها بارتفاعها البالغ خمسة آلاف وستمئة مترًا. كان

ثمّة أيضًا كتاب صوَرٍ لآنا ماري في حياتها، يحوي صورًا كثيرة التقطتها خلال رحلاتها، إضافة إلى بورتريهات لها التقطها آخرون، لا سيما زوجها الديبلوماسي كلاراك - نراها على أحد هذه البورتريهات نصف عارية، كتفاها ضيقتان، شعرها قصير، مياه النهر تصل إلى ركبتيها، ذراعاها مسدلتان على طول جسدها فيما لا ترتدي سوى «شورت» أسود. إن عريَ نهديها، ووضعيّةَ يديها المُتأرجحتَين إلى جانب فخذيها، والمُفاجأة الباديّة على وجهها تحيلها كائنًا هشًّا وحزينًا وسط عظمة المناظر الطبيعيّة في ذاك الوادي الذي تنتشر على أطرافه الأعشاب الطويلة وشجيرات الشوك وتُشرف عليه المُنحدرات القاحلة والصخرية للجبال. لقد أمضيتُ أمسيات طويلة منزويًا في غرفتي، أتصفّح كتاب الصوَر هذا وأتمنى بحسرة لو أن في حوزتي صورًا لسارة، ألبومات أتوه فيها برفقتها - كنتُ أستعيض عنها بآنا ماري شفارتسنباخ؛ لقد قرأتُ مذكرات رحلتها برفقة إلّا مايّار من سويسرا إلى الهند. غير أن العمَلَين اللذين كنتُ أبحث فيهما عن شيء من سارة، هما نصّا آنا ماري عن الحبّ المحموم والسويداء المُخدِّرة، نصّان تدور حوادثهما في طهران، واحدهما انعكاس للآخر؛ كنتُ أتخيَّل ما قد تقوله لي سارة عن هذين العملَيْن وعن الأسباب الدفينة لولعها بحياة هذا «الملاك الحزين» وكتاباته. على صفحات الكتابَين خطوطٌ ومُلاحظات مُدوَّنة بالحبر؛ نستطيع حسب ألوان المُلاحظات تحديد المقاطع التي تنمّ عن الخوف - ذاك الجزع المهول الذي كان يتملّك الراوية في الليالي - وتلك التي تتناول المخدّرات والمرض، وتلك التي لها علاقة بالشّرق، بنظرة هذه الشابة السويسرية إلى الشّرق. أثناء قراءتي هذه المُلاحظات المُدوّنة (كتابة دقيقة، مُتناهية الصغر، قراءتها أشبه بفكّ الرموز)، كنتُ ألمح من بعيد فكرةً محورية لا تكمن وراء أبحاث سارة ومقالاتها فقط، بل

تجذبني إلى نصوص آنا ماري أيضًا - الشّرق كحيّز لترميم الذات، كسعيٍ للشفاء من مرض غامض، من جزع دفين. سعيٌ روحيّ وصوفيّ بمعزل عن الله، حيث لا قوّة عُليا نستعين بها سوى تلك التي تنبع من أعماق الذات، سعيٌ انتهى إلى فشل ذريع في حالة آنا ماري. ما من شيء في تلك الأنحاء كان يستطيع تسهيل شفائها، ما من شيء كان يستطيع أن يُخفف آلامها: الجوامعُ ظلّت خالية؛ والمحاريب بقيت مجرّد تجاويف في الجدران؛ والأماكن الطبيعيّة التي أرادت رؤيتها، كانت إما جافّة وقائظة في الصيف، أو يتعذّر بلوغها في الشتاء. كانت تسير في عالم مهجور. وحتى حين جمعتها علاقة حبّ بشابة نصف تركية نصف شركسية فظنّت أن الحياة ستدبّ أخيرًا في تلك الأمكنة الموحشة المُحاذية لمنحدرات جبل دمافند المُلتهب، لم تعثر إلا على الموت. مرضُ الحبيبة وزيارةٌ من عزرائيل. الحبّ لا يشفي آلامنا، ولا يُتيح لنا مُشاركةَ الآخرِ آلامه. في نهاية المطاف، نحن دومًا وحيدون، كانت تقول آنا ماري شفارتسنباخ، وكنتُ أخشى، أثناء فكّي رموز المُلاحظات التي دوّنَتْها في هوامش كتاب «الموت في بلاد فارس»، أن تكون هذه الفكرة عن الحياة هي فكرة سارة أيضًا، فكرة لا شك في أنها كانت، حين قرأتُ هذه الأسطر، أشدّ سوداوية نتيجة حدادها، مثلما هي سوداء لي نتيجة عزلتي الآن.

ليس اهتمامها وولعها بالبوذية مجرد سعي إلى الشفاء، إذ هما ينبعان من إحساس عميق لديها أعلمُ أنه يسبق موت شقيقها بوقت طويل - إن رحيلها إلى الهند بعد تعريجها على الشّرق الأقصى في المكتبات الباريسيّة، لم يكن أمرًا مفاجئًا، مع أنني اعتبرته صفعة لي، عليّ الإقرار بذلك، إذ رأيتُ فيه نوعًا من الهجران. أنا مَن تركَتْه حين قرّرت مُغادرة أوروبا، وكنت أعتزم أن أجعلها تدفع ثمن ذلك، كنتُ

أريد الانتقام من ألمها هي. لكن حين قرأتُ هذه الرسالة الإلكترونية المؤثرة جدًّا التي حدّثتني فيها عن دارجيلينغ والأندلس،

دارجيلينغ، ١٥ حزيران

عزيزي الغالي فرانتس،

ها إني قد رجعتُ إلى دارجيلينغ بعد مرور سريع بأوروبا: يومين في باريس لرؤية العائلة، يومين في غرناطة للمشاركة في ندوة مُضجرة (أنتَ تعلم كم مضجرة هي الندوات) ويومين للعودة، عن طريق مدريد ودلهي وكالكوتا. كنتُ أوّد أن أمرّ بفيينا (من هنا، تبدو أوروبا صغيرة للغاية، فنتصوّر أننا نستطيع بسهولة اجتيازها بأكملها لمجرّد تحقيق نزوة) لكنني لم أكن متأكدة ما أنكَ هناك. أو أنكَ ترغب حقًا في رؤيتي.

كلّما عدتُ إلى دارجيلينغ، عثرت على الهدوء والجمال والسكينة. شجيرات الشاي تنحدر على التلال التي في الأسفل؛ هي تُزرع مُتراصّة، شكلها مُستدير وأوراقها ممطوطة: حين تراها من الأعلى، تبدو حقول الشاي هذه فسيفساء من الأزرار الخضر الكثيفة، كريات من الرغوة تجتاح منحدرات الهيمالايا.

سوف تهبّ الرياح الموسميّة قريبًا، وسوف ينهمر في شهر واحد مقدار أمطارٍ يفوق ما يتساقط عندكم في فيينا في سنة كاملة. تنظيف على نطاق واسع: سوف تتحوّل الجبال شلالاتٍ؛ سوف يستحيل كلّ شارع، كلّ درب وكل زقاق سيلًا وحشيًّا. وسوف تجرف المياهُ الحجارةَ والجسور، وحتى البيوت أحيانًا.

لقد استأجرتُ غرفة صغيرة ليست بعيدة من الدير حيث أتلقّى دروس مُعلّمي. حياتي هنا بسيطة. أمارس التأمّل في الصباح الباكر

ثمّ أذهب إلى الدير لتلقّي الدروس؛ وبعد الظهر، أقرأ أو أكتب قليلًا، وفي المساء أمارس التأمل من جديد، ثمّ النوم، وهلم جرًا. الروتين يُلائمني. أحاول تعلّم القليل من النيباليّة والتبتيّة، من دون نجاح كبير. الإنكليزية هي اللغة المحليّة. لقد اكتشفتُ أمرًا مثيرًا: ألكسندرا دافيد - نيل كانت مُغنيّة، مغنية «سوبرانو» تحديدًا. لقد عمِلتْ في هذا المجال لمدّة من الزمن: تخيّل أنها تعاقدت مع داري أوبرا هانوي وهايفونغ... حيث غنّت لماسينيه، لبيزيه، إلخ. لا شكّ في أن برنامج أوبرا هانوي سيثير اهتمامك! الاستشراق في بلادِ الشّرق، الإكزوتيكيّة في أراضي الإكزوتيكيّة، هذه ضالتُكَ! أضحت ألكسندرا دافيد-نيل لاحقًا من أولى مُستكشفات التِبت وأولى الأوروبيات اللاتي اعتنقن البوذيّة. أنا أفكّر فيكَ كما ترى.

علينا التكلّم ذات يوم عمّا حدث في طهران وحتّى في دمشق. أنا أعي مسؤوليّتي في كلّ هذه القصة التي كان يمكن أن ندعوها «قصّتنا» لو لم تكن هذه التسميّة طنّانة. أرغب كثيرًا في الذهاب إلى فيينا لرؤيتكَ: أتخيّلُنا نتحدث، قليلًا؛ أتخيّلُنا نتنزّه معًا - لا تزال لدي لائحة طويلة من المتاحف المريعة التي أودّ زيارتها. متحف الخدمات الجنائزيّة مثلًا. كلا، أنا أمازحك. أجل، أفكاري غير مُترابطة. لا بد لأنني أودّ قول أمورٍ لا أجرؤ على التفوه بها، واستعادة أحداث يؤلمني تذكّرها - أنا لم أشكركَ بعد على رسائلكَ التي كتبتها لي بعد موت صموئيل. رسائل تفيض بحنانٍ وتعاطفٍ ما زالا يُدفئان قلبي إلى الآن. ما من كلمات عزاء لمستني مثل كلماتك.

سنتان تقريبًا. سنتان! ليس مِن «اعتناقٍ» في البوذيّة، فالمرء لا يعتنق هذه الديانة، بل يلتجئ إليها، يلتجئ إلى بوذا. هذا بالضبط ما فعلته. التجأتُ إلى هنا، وجدتُ ملاذي في كنف بوذا، في تعاليم بوذا وبين النُسّاك البوذيين. سوف أسير في الاتجاه الذي تُشير إليه

هذه البوصلات الثلاث. أشعر بشيء من المواساة. أكتشفُ في دواخلي وفي العالم حولي طاقةً جديدة، قوّة لا تشترط بتاتًا تنازل الإنسان عن عقله، على العكس تمامًا. المهمّ هو فقط ما يختبره الإنسان من تجارب.

أراكَ تبتسم... من الصعب مشاركة مثل هذه الأمور. تخيَّل أنني أجد متعة في النهوض كلّ يوم مع الفجر ثمّ في ممارسة التأمّل لساعة من الزمن، تخيَّل أنني أنكبّ على دراسة نصوص قديمة جدًّا، حكيمة جدًّا، تتيح لي فهم العالم على نحو أبسط وأعمق ممّا أتاحه لي كلّ ما قرأته أو سمعته حتّى الآن. الحقيقةُ التي تتجلّى عبر هذه النصوص، تفرض نفسها على نحو عقلاني بحت. ما من شيء للإيمان به، فالأمر لا يمت إلى الإيمان بصلة. ثمّة فقط كائنات تائهة في دنيا من العذاب والألم، ثمّة فقط إدراكٌ بسيط جدًّا ومُعقّد جدًّا لعالم حيث كلّ شيء مترابط، عالم لا جوهر له. أودّ أن أحملك على اكتشاف هذه الأمور، لكنني أعلم أن كلّ شخص يشقّ طريقه بنفسه - أو لا يشقّ أي طريق.

لنُغيّر الموضوع - خلال الندوة التي أقيمت في غرناطة، ووسط سيول من الضجر، استمعتُ إلى مُداخلة رائعة، شُعلةٌ من الجمال تائهة في بحار من التثاؤب. مُداخلةٌ حول الشعر الغنائي العبري في الأندلس وعلاقته بالشعر العربي، بحثٌ يتطرق بخاصة إلى إسماعيل بن النغريلة، وهو شاعر مُحارِب (كان وزيرًا) يُروَى أنه كان ينظم قصائدَ حتّى في ساحات المعارك. يا لجمال تلك الأبيات التي سمعتها، العبريّة والعربيّة! وفيما كنتُ لا أزال تحت سحر أناشيد الحبّ الدنيوية بالكامل هذه - وصفٌ لوجوه وشفاه ونظرات - ذهبت للتنزّه في قصر الحمراء. كان الطقس جميلًا، وكانت جدران المباني الحمراء مُحاطةً بزرقة السماء كأنها صورة في إطار. تملّكني شعور

غريب؛ أحسستُ بأن الزمن تجسّد أمامي هو وصخبه. لقد مات اسماعيل بن النغريلة قبل وقت طويل من تحوّل القصر مكانًا بديعًا عند إتمام ترميمه في القرن الثالث عشر، إلا أنه كان قد كتب أشعارًا عن البرك والحدائق، عن الورود والربيع - الورود التي رأيتُها في جنّة العريف هي ورود أخرى، حتّى أحجار الجدران صارت أحجارًا أخرى؛ أخذتُ أفكّر في تقلّبات التاريخ وهجرات عائلتي، تقلّباتٌ وهجراتٌ أعادتني أخيرًا إلى حيث عاش أسلافي القدامى على الأرجح، فاستحوذ عليّ إحساس بأن الورود كلّها ليست إلا وردة واحدة، بأن الحيوات كلّها ليست إلا حياة واحدة، بأن الزمنَ حركةٌ وهمية مثل المد والجزر ومسار الشمس في السماء. إنها مسألة وجهة نظر. وربّما لأنني كنتُ خرجت للتوّ من ذلك المؤتمر لمؤرخين يواظبون على كتابة سِيَر أشخاص واراهم الثرى، تراءت لي أوروبا شيئًا مُبهمًا، مُتعدِدًا ومتنوّعًا قدر إبهام، تعدّد وتنوّع ورود قصر الحمراء هذه التي تضرب جذورها عميقًا في الماضي وفي المُستقبل إلى درجة أننا نعجز عن تحديد الزمن الذي تنبثق منه. ولم يكن الإحساس المُدَوِّخ هذا مُزعجًا، على العكس تمامًا، إذ صالحني للحظةٍ مع الدنيا ورفع لبرهةٍ الحجابَ عن عجلة القدر. . .

أسمعُكَ تضحكُ من هنا. لكنني أؤكّد لكَ أنها كانت لحظة استثنائية ونادرة. انتشاءٌ بالجمالِ وإدراكٌ لخوائه في الآن عينه. حسنًا، عليّ أن أتركَكَ بعد هذا الوعظ، لقد تأخّر الوقت. سوف أذهب غدًا إلى مقهى الإنترنت لأبعث لك هذه الرسالة. أنتظر ردّكَ سريعًا، حدّثني قليلًا عن فيينا، عن حياتكَ في فيينا، عن مشاريعكَ. . .

أقبّلُكَ،

سارة

... تلاشى حقدي على حين غِرّة ووجدت نفسي متيّمًا بها قدر تيّمي بها في طهران، وربّما أكثر - ما الذي فعلتُه في هاتَين السنتَين، لقد تهتُ في حياتي اليوميّة وفي وظيفتي الجامعيّة؛ كتبتُ مقالات، تابعتُ العمل على بضعة من الأبحاث، نشرتُ كتابًا صدر في سلسلة علمية مجهولة؛ أحسستُ ببدايات المرض، اختبرت أولى ليالي الأرق. الالتجاء. كلمةٌ جميلة. وممارسات جميلة أيضًا. مُحاربة الألم، أو بالأحرى محاولة الهروب من عجلة القدرة، من هذه الدنيا التي ليست سوى عذاب. حين قرأتُ هذه الرسالة الأندلسيّة، أصِبتُ بانهيار: عاودتني بحدّة حوادث طهران، وذكريات دمشق أيضًا، ومثلما يُضفي شعاعُ شمس واحد لونَه على سماءِ المساء الشاسعة، كان ذلك كافيًا ليصبغ باريس وفيينّا بالحزن والمرارة. رأى الدكتور كراوس أنني لست على ما يرام. أما أمي، فكان يقلقها هُزالي ولامبالاتي بأيّ شي. حاولت تأليف الموسيقى، الهواية التي كنتُ قد هجرتها منذ سنوات (إن استثنينا لهوي بقصائد جان-ماري لوفيه في طهران)؛ حاولت أن أكتب، أن أخطّ بقلمي، أو بالأحرى أن أطبع على الكمبيوتر، ذكريات طهران، أن أعثر على موسيقى أو نشيد يستطيع احتواءها. عبثًا حاولتُ أن أعثر حولي، في الجامعة أو في الحفلات الموسيقيّة، على وجه جديد أسْقِط عليه هذه المشاعر المُربِكة والمُتمرّدة، مشاعرٌ لم تكن تتوجه قط لغير سارة؛ كان ينتهي بي المطاف إلى الهروب ممّا كنتُ أبادر إليه أنا نفسي، مثلما حدث خلال ذاك العشاء مع كاتارينا فوكس.

مُفاجأة سارّة: فيما كنتُ أتخبّط في ذكرياتي، أتى نديم إلى فيينا لإحياء حفلة موسيقيّة مع فرقة حلبيّة؛ ابتعت تذكرة في الصفّ الثالث من القاعة - لم أعلمه بحضوري. مقامات الراست والبياتي والحجاز، إرتجالات مُطوّلة تؤازرها آلة الإيقاع، حوارٌ مع الناي

الذي كانت أنغامه في انسجام تام مع عزف نديم الرائع على العود. لم يكن ثمّة مغنٍّ، إلا أن نديم كان يتكئ في عزفه على ألحانٍ تراثيّة؛ كان الجمهور (لقد حضرت الحفلة الجاليةُ العربية كلّها المقيمة في فيينا، وبينهم السفراء) يتعرّف إلى الأغاني قبل ضياعها في التنويعات، وكنتُ أسمع أحيانًا الحاضرين يدندنون تلك الألحان بصوت خفيضٍ، فأشعرُ بحماستهم المكتومة التي تفيض ورعًا وإجلالًا. كان نديم يبتسم أثناء عزفه - وكانت لحيته القصيرة والداكنة تحيل وجهه أكثر إشراقًا. كنتُ أعلمُ أنه لا يستطيع رؤيتي، إذ يُعميه ضوء «البروجكتور». بعد انتهاء العزف، وأثناء التصفيق الذي طال، انتابتني حالة من التردّد، هل أبقى، أم أغادر مُتسللًا، أعود إلى منزلي من دون إلقاء التحيّة على نديم، ألوذ بالفرار؟ ماذا سأقول له إن بقيت؟ عما أكلّمه، سوى عن سارة؟ وهل أرغب حقًا في لقائه؟

طلبتُ من موظّف أن يُرشدني إلى حجرة نديم؛ كان الرواق مكتظًّا بشخصيات رسميّة تنتظر دورها لإلقاء التحيّة على الفنانين. شعرتُ بين هؤلاء الناس، بأنني مثير للسخرية بعض الشيء. كنتُ خائفًا - مِمّ؟ من ألّا يتعرّف إليّ؟ من أن يتملّكه الحرج مثلي؟ غير أن نديم أنبَل منّي - ما إن تجاوز رأسُه بابَ الحجرة حتّى تقدّم مخترقًا الحشد من دون ثواني التردّد القليلة التي يستغرقها تحوّل شخص غريب صديقًا قديمًا، فضمّني إلى صدره وهو يقول كنتُ آمل بأن أجدكَ هنا يا رفيقي العزيز.

خلال العشاء الذي تلى الحفلة، وفيما كنّا جالسَين واحدنا مُقابل الآخر، يُحيط بنا العازفون والديبلوماسيون وشخصيات مرموقة أخرى، قال لي نديم إن ما يصله من أخبار سارة ضئيل جدًّا، وإنه لم يرَها منذ دفْن شقيقها في باريس؛ هي في مكان ما في آسيا، لا شيء

أكثر. سألني إن كنتُ أعلم أنهما تطلّقا من فترة طويلة، وقد جرحني سؤاله هذا كثيرًا؛ كان نديم يجهل كم كنّا مُقرّبَيْن. بمجرّد تفوهه بهذه الجُملة، انتزع سارة منّي من دون أن يعي ذلك. غيّرتُ الموضوع، استعدنا ذكرياتنا عن سورية، عن الحفلات الموسيقيّة في حلب، عن بضعة دروس العزف على العود التي لقنني إياها في دمشق، عن سهرات الأُنس[1]، هذه الكلمة العربية البديعة التي تصف لقاءات الأصدقاء. أما الحرب الأهلية التي كانت قد اشتعلت منذ مدّة وجيزة، فلم أجرؤ على ذكرها.

فجأةً، انضم إلى حديثنا ديبلوماسي أردني (بذلة داكنة في منتهى الأناقة، قميص أبيض، نظّارتان مُذهّبتان)؛ قال إنه كان قد التقى أكثر من مرّة بالعوّاد العراقي العظيم منير بشير في عمّان - غالبًا ما لاحظتُ أن الحاضرين في مثل سهرات العشاء الموسيقيّة هذه، يشرعون بتعداد أسماء العازفين الكبار الذين التقوا بهم أو سمعوا موسيقاهم، من دون أن يكون جليًّا إن كانت هذه المُقارنات الضمنيّة مديحًا أم تحقيرًا؛ واستحضار هذه الاسماء غالبًا ما يستثير لدى الموسيقيين الذين فرغوا لتوّهم من العزف، ابتساماتٍ مرتبكة تشي بغضبهم المكتومِ من فظاظة هؤلاء المُعجبين المزيّفين. ابتسم نديم للرجل الأردني ابتسامة واهنة، ضجرة، مُتخمة، أجل، منير بشير أعظمُ عازف عود وكلّا، لم يُحالفه الحظ بلقائه حتّى لو أن لديهما صديقًا مشتركًا، جلال الدّين فايس. أعادنا توًّا اسم فايس إلى أحاديثنا عن سورية، وانتهى المطاف بالديبلوماسي إلى الالتفات نحو جاره الجالس إلى يمينه - موظّف في الأمم المتحدّة - وتركنا لذكرياتنا. النبيذ والتعب، وهذه الحماسة التي تلي إحياء حفلة موسيقية، دفعت بنديم إلى أن يُسرّ لي أن سارة

---

(١) بالعربيّة في النص الأصلي.

كانت حبّ حياته. بالرّغم من فشل زواجهما. لو أن حياتي كانت أبسط خلال تلك السنوات، قال. لو أننا رزقنا بذاك الطفل، قال. لكان ذلك قد غيّر أمورًا كثيرة، قال. ما مضى قد مضى. بالمناسبة، غدًا عيد ميلادها، قال.

تأمّلتُ يديّ نديم، فتخيّلتُ كيف كانت أنامله تنساب على عنق العود، وكيف كان يضرب الأوتار بالريشة، ريشةُ نسرٍ ينبغي إحكام القبض عليها من دون خَنْقِها. كان شرشف الطاولة أبيض، وكان ثمّة بضعة بذور بقطين خضراء تساقطت قرب كأسي من قطعة خبز، وكانت فقاعاتٌ تتصاعد في كأسي هذه، فقاعاتٌ متناهية الصغر ترسم خطًّا دقيقًا لا يمكن التكهّن، وسط شفافية الماء المُطلقة، من أين يأتي. فجأة، التصقت هذه الفقاعات بعينيّ، كان عليّ ألّا أنظر إليها، كانت تتصاعد وتتصاعد - رسمُها لخطٍّ دقيقٍ كالإبرة، وغياب أي منبع لها، وعنادها الذي لا هدف له سوى التصاعد ثمّ الزوال، والإحساس الطفيف بالحريق الذي سببته لي، حملتني على إغلاق جفنيّ بقوّة، فعجزت عن النظر إلى نديم وإلى الماضي، ذاك الماضي الذي كان نديم قد أتى على ذكره للتوّ، وكلّما كان يطول الوقت الذي بقيتُ خلاله مُطأطئًا رأسي، كانت حدّة الحريق في عينيّ تزداد والفقاعات تتضخّم أكثر وأكثر، كانت مثل الفقاعات التي في الكأس، تسعى إلى بلوغ العالم الخارجي، كان عليّ أن أحول دون نجاحها في ذلك.

تذرّعتُ بأمرٍ طارئ ولذتُ بالفرار مُنخاذلًا، بعد اعتذار مُقتضب.

دارجيلينغ، ١ آذار

عزيزي الغالي فرنسوا- جوزيف،

أشكُرك على هدية عيد ميلادي الرائعة هذه. إنها أجمل جوهرة تلقيتُها في حياتي - وقد سُرِرتُ جدًّا أنكَ من اكتشفها. سوف تُتوّج مجموعتي الموسيقية. أنا لا أعرف هذه اللغة، ولا هذه الموسيقى، إلا أن هذه الأغنية السحريّة فتنتني. «سيفدا»[1]! «سُوداد»! سوف أتطرّق إليها في مقالة لاحقة، إن أذِنتَ لي بذلك. دومًا هذا البُنيان المُشترك، هذا التبادل، فيينا بوصفها بوابة الشّرق؛ إن جميع مُدن أوروبا بواباتٌ للشرق. هل تذكر أدب أوروبا الفارسي الذي كان سكارسيا يتكلّم عنه في طهران؟ إن أوروبا كلّها هي في الشّرق. الثقافات حقل تبادل في ما بينها، هي جميعها كوزموبوليتانيّة. أتخيّل صدى موسيقى الـ«سيفدالينكا» هذه يتردّد بين فيينا وسراييفو مثل تردّد حزنِ و«سودادِ» ألحان الـ«فادو»[2] البرتغاليّة، فأشعر بشيء من... بشيء مِمّ؟ أنا مُشتاقة إليكَ، إلى أوروبا وإليك. أشعر بقوةٍ بـ «الشانكارا دُكا»، بالعذاب الكُليّ الوجود، وهو ربّما التسميّة التي تُطلقها البوذيّة على السويداء. دوران عجلة الـ«سامسارا». مرور الزمن، العذاب نتيجة إدراكنا محدوديّة الحياة. ينبغي ألّا نستسلم لهذه الأمور. سوف أمارس القليل من التأمّل الآن؛ أنتَ حاضرٌ على الدوام في الصوَر الذهنية التي أركّز عليها طاقتي أثناء التأمّل، أنتَ خلفي، برفقة الأشخاص الذين أحبّ.

أقبّلك، بلّغ تحياتي إلى «طلعة شترودلهوف»،

سارة

---

(١) الـ«سيفدالينكا»، أو الـ«سيفدا» اختصارًا، نوعٌ من الغناء البوسني التراثي.

(٢) نوع من الغناء والموسيقى البرتغاليّين.

كتب فرانتس ريتر:

عزيزتي الغاليّة سارة،

عيد ميلاد سعيدًا!

آمل أن كلّ شيء على ما يُرام في دَيْرِكِ. ألا تُعانين من البرد هناك؟ أتخيّلك مُتربّعةً أمام وعاء أرُزّ في حجرة ضيّقة وجليديّة: صورةٌ مُقلِقة بعض الشيء. لا شكّ في أن رهبان الدَيْر هناك لا يشبهون رهبان «تان تان في التِبت»، لكن قد يُحالفك الحظّ بمشاهدة ناسك يطفو في الهواء. أو بسماع صوت الأبواق التبتيّة الضخمة، أعتقد أن جلبتها تصمّ الآذان. يبدو أن ثمّة أحجامًا مُختلفة من هذه الأبواق؛ هي آلات مهيبة للغاية إلى درجة أنه يَصعُب التحكّم بنوعية الصوت بواسطة النَفَس أو الفم. لقد بحثتُ عن تسجيلات في الأرشيفات الصوتيّة، فلم أعثر على شيء يُذكر في قسم «الموسيقى التبتيّة». لكن كفى ثرثرة. أسمح لنفسي بمقاطعة تأمّلكِ لأن لديّ هدية صغيرة لكِ لمناسبة عيد ميلادكِ.

في الفلكلور البوسني، ثمّة أغانٍ تُراثيّة تُدعى الـ«سيفدالينكا». يأتي الاسم هذا من كلمة تركيّة، «سِفداه»، مأخوذة بدروها من كلمة «السوداء» العربيّة. والسوداء هي التسميّة التي يُطلقها ابن سينا في كتابه «القانون في الطب» على العُصارة السوداء - أحد الأخلاط الأربعة التي في جسم الإنسان - أي الملنخوليا عند الإغريق. الـ«سيفدالينكا» هي إذاً المُعادِل البوسني لكلمة الـ«سوداد» البرتغاليّة التي (على عكس ما يقوله علماء أصول الكلمات) تأتي هي الأخرى من كلمة السوداء العربيّة - أي من العُصارة السوداء إياها. إن أغاني الـ«سيفدالينكا» شكلٌ من أشكال التعبير الموسيقي عن حالة السويداء، مثلها مثل أغاني الـ«فادوا» البرتغاليّة. ألحان هذه الأغاني

البوسنيّة بمثابة نسخة بلقانيّة عن الموسيقى العثمانيّة. نهاية التمهيد حول أصول الكلمات. والآن هديّتكِ:

أهديكِ أغنية. أغنية «سيفدالينكا» اسمها «كراج تانانا سادرفانا» تروي حكاية قصيرة. كلّ يوم عند الغسق، تُنصِتُ ابنة السلطان الجميلة إلى خرير مياه النافورة؛ وكلّ يومٍ عند الغسق، يُحدِّق عبد عربيٌّ شابٌّ بالأميرة الحسناء صامتاً، فيما يزداد شحوب وجهه مساء بعد مساء، فيُضحي أخيرًا شاحبًا كالموت. تسأله الأميرة عن اسمه، بلاده، قبيلته؛ يُجيبها ببساطة أنه محمدٌ من اليمن، وأن قبيلته قبيلة عذرة، مضيفًا: هم قوم يموتون حين يعشقون.

كلمات هذه الأغنية ليست مُقتبسة عن قصيدةٍ قديمة من العصر العثماني، بل هي نصٌّ لصافِت بك باشاجيك - ترجمةٌ لقصيدة هاينرش هاينه الشهيرة «قبلية عذرة». (هل تذكرين ضريح هاينة المسكين في مقبرة مونمارتر؟).

لقد ولد صافِت بك عام ١٨٧٠ وتلقّى تعليمه في فيينا في نهاية القرن التاسع عشر. كان يُجيد التركيّة، وتعلّم العربيّة والفارسيّة على أيدي مستشرقي فيينا. كتب أطروحةً بالألمانية وتَرجم رباعيات الخيّام إلى البوسنيّة. إن هذه الـ«سيفدالينكا» تجمع بين هاينرش هاينه والدولة العثمانية - قصيدةٌ استشراقيّة تحوّلَتْ قصيدة شرقية؛ عَثَرَتْ مجدداً (بعد طريق طويل في عالم الخيال، طريق يمرّ بفيينّا وسراييفو) على موسيقى الشّرق.

هي إحدى أشهر الـ«سيفدالينكا» وأكثرها غناءً في البوسنة، حيث قلّة من الذين يسمعونها يعرفون أنّ مصدرها مُخيّلة مؤلّف قصيدة «الوريلي» اليهوديّ الذي ولد في دوسلدورف ومات في باريس. يمكنكِ أن تسمعيها بسهولة (أنصحُكِ بها بصوت هِمزو بولوفينا) عبر الإنترنت.

ارجو أن تُعجِبَكِ هذه الهدية الصغيرة،
أقبّلكِ بقوة،
على أمل اللقاء القريب،

فرانتس

كنتُ أريد أن أخبرها بلقائي بنديم، عن الحفلة الموسيقيّة وبشذرات حياتهم معًا التي أسرّ لي بها، لكنني عجزت عن ذلك ورأيتُ نفسي مُرغمًا على أن أقدّم لها هذه الهدية الغريبة التي حلّت محلّ اعتراف صعبٍ لم أجرؤ على الإقدام عليه. أفكار السابعة صباحًا: إن جبني منقطع النظير، لقد تهرّبت من صديق عزيز لأطارد تنورة امرأة، كما قد تقول أمي. لقد تَرَكْتُ الشكوك هذه تعتمل في داخلي، شكوكًا غبيّة كانت سارة لتبدِّدها سريعًا بحركة حازمة من يدِها، أو هذا ما أظنّه في الأقل، فأنا لم أطرح عليها أي سؤال حول هذه الأمور. هي لم تحدّثني مجددًا عن نديم إلّا باحترام وعن مسافة. أفكاري مُرتبكة للغاية إلى حد أنني أجهل ما إذا كان نديم صديقًا، عدوًّا أم شبحًا من أشباح الماضي أدّى ظهوره الشكسبيري في فيينا إلى مُفاقمة تشّوش مشاعري المُتضاربة، ذَيْلُ ذاك المُذنّب الذي ألهب سمائي في طهران.

أقول لنفسي «حان وقت نسيان هذه الأمور كلّها، سارة، الماضي، الشّرق»، إلا أنني أتبع بوصلة هَوَسي نحو صفحة بريدي الإلكتروني، لا أخبار من ساراواك بعد، إنها الواحدة بعد الظهر هناك، هل هي على وشك تناول الغداء، طقس جميل، تتراوح الحرارة بين ٢٣ و٣٠ درجة وفقًا لعالَم الإنترنت الوهمي. حين نَشَر كزافييه دي ميستر روايتَه «رحلة حول غرفتي»، لم يتخيّل قط أن بعد مئة وخمسين عامًا، سيضحي هذا النوع من الرحلات الاستكشافية

الأنموذج الأكثر رواجًا. وداعًا للقبّعة الكولونياليّة، وداعًا للناموسيّة، فها أنا أزور ساراواك مترديًا ثوب النوم. ثمّ سأقوم بجولة في البلقان لأسمع أغنية «سيفدالينكا» وأنا أتأمّل صورًا لمدينة فيشيغراد. ثمّ أعبر التِبت، من دارجيلينغ إلى رمال تكلامكان، صحراء الصحاري، فأصِل إلى كاشغر، مدينة الأسرار والقوافل - أمامي، ناحية الغرب، جبال البامير الشاهقة؛ وخلفها طاجيكستان ومَمَّر واخان الذي يمتدّ كإصبع معقوفة نستطيع الانزلاق عليه وصولًا إلى كابول.

إنها ساعة الهجران، ساعة العزلة والاحتضار؛ لا يزال الليل صامدًا، يأبى أن يغرق في ضوء النهار كجسدي في النوم، عضلاتي منقبضة، ظهري مُتصلّب، ذراعاي ثقيلتان، بداياتُ تشنّج في ربلتي، ألمٌ في الحجاب الحاجز، ينبغي أن أستلقي، لمَ محاولة النوم الآن من جديد، فيما طلوع الفجر وشيك؟

لعله حان وقت الصلاة، وقت فتح «الأجيبة»، كتابُ الصلوات القبطيّة الأرثوذكسية؛ ربي إرحم عديمي الإيمان أمثالي، أولئك الذين ينتظرون مُعجزة هم أصلًا عاجزون عن رؤيتها. غير أن المُعجزة كانت قريبة منّا. فالبعض قد استنشق رائحة البخُور في الصحراء، حول أديرة آباء الكنيسة؛ والبعض الآخر أبصر، في الخلاء الشاسع، طيف القديس مقاريوس الكبير الذي قَتَل في أواخر حياته برغوثًا بيده: لقد ندم ندمًا عظيمًا على فعلته هذه، فعاقب نفسه بالبقاء ستة أشهر عاريًا في الصحراء، إلى أن استحال جسده كلّه جرحًا واحدًا. لقد مات بسلام، «تاركًا وراءه ذكرى حياةٍ طاهرة وأعمالٍ فاضلة». لقد رأينا عمود القديس سمعان، تلك الصخرة المُتأكّلة في الكنيسة الكبيرة والزهرية اللون، سمعان الذي كانت تطلع عليه النجوم عاريًا وهو على عموده الضخم في أعماق الوديان السوريّة؛ لمحنا القديس جوزيف الكوبرتيني، هذا المُهرّج الطائر الذي كان ثوبه وتحليقه في

الهواء يُحيلانه يمامةً وسط الكنائس؛ سرنا على خطى مار نقولا الإسكندراني الذي لجأ هو الآخر إلى رمال الصحراء، وهي الله على شكل غبار يلتمع في ضوء الشمس، واقتفينا آثارَ قدّيسين آخرين أقل شهرة، آثارًا تكسوها بنعومةٍ الحصى والعظامُ التي يُلامسها ضوء القمر ويُفتتها المطر والنسيان: الحُجّاج الذين غرقوا أمام شاطئ عكا، رئاتهم تملأها المياه التي تفصلهم عن الأرض المُقدّسة، الفارس البربري آكل لحوم البشر الذي كان يشوي الكفّار في أنطاكية قبل أن يعتنق ديانة التوحيد وسط جفاف بلاد الشّرق، الشركسي حافر الأنفاق وقت حصار فيينا، هذا الرّجل الذي حفر مصير أوروبا بيديه وارتكب خيانةً ثمّ أغفِيَ عنه، النحّات القروسطي الذي صقل إلى ما لا نهاية مسيحًا من الخشب وهو يُغنّي له ترنيمات وكأنه دُمية، الإسباني مُعتنق القبلانية مُنكبًّا على قراءة كتاب «الزوهار»، الخيميائي في ثوبه الأرجواني باحثًا عن الزئبق الفلسفي إلى ما لا نهاية، الكهنة المجوس الذين لم تكن جثثهم تلوّث الأرضَ قط، الغربان التي كانت تفقأ عيون المشنوقين كأنها حبّات كرز، الحيوانات المُفترسة التي كانت تُمزّق في الحلبة أجسادَ المساجين، الرمل والنشارة اللذان تشرّبا دماءَهم، عويلُ من أُعدِموا حرقًا ورمادُ جثثهم، شجرة الزيتون التي أُحنِيَت وبقيَت تُثمر، التنانين، كائنات «الغرفين»، البحيرات، المحيطات، الرواسب التي حُبِسَت في داخلها فراشات تعود إلى آلاف السنين، الجبال التي اختفت تحت جليدها... حَصاةٌ تِلْوَ الحَصاة، ثانيةٌ تِلْوَ الثانية، وصولًا إلى الصُهارة في الأعماق، هذه الشمس السائلة، إن الأشياء كلّها تُعلي نشيدها تمجيدًا للخالق - لكن الإيمان ينبذني، حتّى في عمق الليل. باستثناء يقظة الشبشب الرّوحيّة في مسجد سليمان القانوني، ليس مِن سُلّم لأرى الملائكة تتسلّقه، ليس من كهف بالقرب من أفسس لأنام في داخله مئتيّ عام فيما

يحرسني كلب وفيّ؛ وحدها سارة عثرت، في مغارات أخرى، على طاقة التُراث وعلى دربها نحو اليقظة الرّوحيّة. إن طريقها الطويل نحو البوذيّة بدأ بالفضول العلمي، باكتشافها قصّة بوذاسف في «مروج الذهب» للمسعودي، عندما كانت تعمل على بحثها حول المخلوقات الغرائبيّة خلال بداية مسيرتها المهنية: السبيل الذي سلكَتْه نحو الشّرق الأقصى يمرّ بالإسلام وبالمسيحيّة، وحتّى بهؤلاء الصّابِئين الغامضين الذين ورد ذكرهم في القرآن واعتبرهم المسعودي، في القرن الثامن الميلادي، من أتباع بوذاسف هذا، وهو أوّل ظهور في الإسلام لبوذا الذي ربطه المسعودي بهرمس الهرامسة. بكثير من الصبر، أعادت سارة رسم جميع تحوّلات هذه الروايات، وصولًا إلى أصدائها في المسيحيّة: حياةُ القديسَيْن بارلام ويهوشافاط، وهي نسخة سريانيّة عن قصّة البوديساتفا وطريقِه نحو اليقظة؛ لقد أولِعَت بحياة وتعاليم الأمير سِدْهارتا غوتاما نفسه، بوذا زمانُنا. أعلمُ أنها تكنُّ حبًّا عميقًا لبوذا وللتراث التِبتي الذي أخذت تُمارس طقوسه التأمليّة، لماربا المُترجِم ولتلميذه ميلاريبا، الساحر الشرير الذي نجح، حوالى العام ألف، وبعد امتثاله لقواعد السلوك الصارمة بل المروِّعة التي لقّنه إياها مُعلّمُه، في بلوغ اليقظة في حياة واحدة، ما يُدغدِغ أحلام الساعين إلى الصحوة الرّوحيّة - من بينهم سارة. لقد هجرَتْ سريعًا الأفيون الكولونيالي لتصبّ اهتمامها كلّه على بوذا؛ لقد شُغِفَت بمستكشفي التِبت، بالعلماء والمُبشّرين والمُغامرين الذين أذاعوا أسرار البوذية التِبتية في أوروبا قبل أن يستقرّ، منذ الستينات، معلّمو التِبت الكبار في كلّ أنحاء الغرب لكي يبثّوا هم أنفسهم الطاقةَ الروحانية. كبستانيٍّ غاضبٍ يريد إبادة عُشبة ضارّة فيبعثر بذورها في الرياح، إن الصين، عبر احتلالها التِبت وتدميرها الأديرة ونفيها رهبانًا كُثرًا، قد نثرت البوذية التِبتيّة في الكرة الأرضية برمتها.

وصولًا إلى ليوبولدشتات: حين غادرنا متحفَ الجريمة، متحف الجلّادين والمواخير والنساء التي قُطّعت أوصالهن، وأخذنا نمشي في إحدى تلك الشوارع الصغيرة حيث البيوت المُنخفضة تُتاخم مباني القرن التاسع عشر والعمارات الحديثة، شارعٌ على بعد خطوتَيْن من سوق الكَرْمليين، وفيما كنتُ أحدِّق بقدميّ كي لا أحدِّق كثيرًا بسارة التي كانت تُفكّر بصوتٍ عالٍ فتتناهى إلى مسامعي شذرات من خواطرها حول فيينا والجريمة والموت، توقّفَتْ على حين غرة لتقول لي انْظُر هناك، مركزٌ بوذي! وشرعَتْ تقرأ لائحة البرامج المُعلّقة على الواجهة الزجاجيّة، مُنتشيةً بأسماء القادة الرّوحيّين التبتيين الذين كانوا يرعون هذا الحصن الكهنوتي في بلاد المنفى - فاجأها انتماء هذه الجالية إلى المدرسة نفسها التي تنتمي هي إليها، قبّعات حمر أم صفر، ما عدتُ أدري، لطالما عجزتُ عن تذكّر لونِ قبّعاتٍ أو أسماءِ المُتقمّصين الكبار الذين تُجِلُّهم، غير أنني سُرِرتُ بالفأل الذي قرأتْه هي في هذه المُصادفة، سُرِرت بابتسامتها وبالبريق في عينيها، حتّى أنني تمنّيتُ في سرّي أن تتخذ من هذا المركز في ليوبولدشتات كهفًا جديدًا لها في يوم من الأيام - كانت علامات الفأل الحسن كثيرة ذلك النهار، خليطٌ غريبٌ من ذكرياتنا المُشتركة: بعد مسافة قصيرة، وصلنا إلى شارع هامر-بورغشتال؛ كنتُ قد نسيتُ (هذا إن كنتُ قد علمتُ بذلك أصلًا) أن ثمّة شارع في فيينا سمّي باسم المُستشرق الكبير. كانت اللوحة التذكارية تصفه كـ«مؤسّس أكاديميّة العلوم»، ولا ريب أن إنجازه هذا، أكثر من ولعه بالنصوص الشّرقيّة، هو ما جعله يستحقّ هذا التكريم. كانت ندوة هاينفلد تدور في رأسي فيما سارة (سروال أسود، كنزة ذات قبّة عالية حمراء، معطف أسود تحت خصلات شعرها المُلتهبة) تتابع خطابها عن القدر. كان يلتهمني مزيجٌ من الصوَر المشحونة بالشبق، ذكريات من طهران وقصر هامر في

ستيريا، أمسكتُ بذراعها، وكي لا نُغادر الحيّ توًّا ولا نعبر القناة مرّة ثانية، انحرفتُ نحو تابورشتراسه.

دخلنا متجر حلويات فاخر، ديكوره من الطراز الباروكي الجديد، وكانت سارة تتكلّم عن المُبشّرين المسيحيين، وحين وصلَتْ بتداعيات أفكارها إلى الأب إيفاريست هِك، أحسستُ بأن هذا السَيل اللامتناهي من الكلام لا هدف له سوى إخفاء ارتباكها؛ ومع أن قصّة هذا الأب هِك - الذي من شدّة افتتانه بمدينة لاسا وبحواراتِه مع الرهبان البوذيين لم ينفكّ يحلم في العودة إلى هناك طوال السنوات العشرين اللاحقة - كانت مثيرة للاهتمام بعض الشيء، إلا أنني كنتُ أجدُ صعوبةً في الإصغاء إليها. كنتُ أرى في كلّ شيءٍ حُطامَ علاقتِنا وعجزَنا الأليم عن العثور على إيقاع واحد وموسيقى واحدة، ثم، فيما كانت سارة تُرهِقُ نفسها محاولةً تلقيني مبادئ فلسفية أوليّة، البوذا، الـ«دارما»، الـ«سانغا»، وهي تشرب الشاي، لم أستطع منع نفسي من التحسّر على هاتَيْن اليدَيْن ذوات العروق الزرق الممسكَتَيْن بالفنجان، وعلى هاتَيْن الشفتَيْن المُلونتَيْن بالأحمر إياه الذي يصبغ الكنزة، أحمر بقَّع البورسلان، وعلى شريانها السباتي عند طرف عنقها، وكنتُ مُتيقّنًا أن الشيء الوحيد الذي كان يجمعنا حينذاك، إن استثنينا الذكريات التي كانت تذوب حولنا كأنها ثلج موحِل، هو هذا الارتباك المُشترك، هذه الثرثرة الخرقاء التي لا غاية لها سوى تفادي الصمت وطمس الجزع. كانت طهران قد اختفت، وتواطؤ جسدينا قد امّحى. أما تواطؤ روحَينا، فكان في طريقه إلى الزوال. إن زيارتها فيينا للمرّة الثانية هذه، افتتحت شتاءً طويلًا لم تفعل الزيارة الثالثة سوى ترسيخه - أتت للعمل على بحث حول فيينا بصفتها بوابة الشّرق ولم تمكُث في شقّتي أو تَنَمْ فيها ولو لمرّة واحدة، ما جنّبني ساعات من الوحدة والأرق قابعًا في سريري بلا أي حركة وآملًا طوال الليل بأن تأتي

إليّ؛ كنتُ أسمعُ صوتَ تصفُّحها لكتاب ما، ثمّ أرى من تحت بابي أن مصباحها قد انطفأ، فأروح أنصِتُ إلى تنفّسها طويلًا، متمسّكًا بأملي حتّى بزوغ الفجر، راجيًا ظهورها على عتبة غرفتي، وإن لتقبّلني على جبيني فقط، ما كان ليبعِد منّي وحوش الظلام.

لم تكن سارة تعلم أن ليوبولدشتات حيث متجر الحلويات ذاك، كانت أهمّ منطقة يهوديّة في فيينا في القرن التاسع عشر، وأن أكبر معابد المدينة كانت هناك، من بينها، على ما يُقال، الكنيس التركي الرائع المُشيَّد على الطراز الموريسكي - لقد هُدِمت تلك المباني كلّها عام ١٩٣٨، شرحْتُ لها، فلم يبق منها سوى لوحات تذكاريّة وبضع صوَر تعود إلى تلك الحقبة. شونبرغ، شنيتزلر وفرويد ترعرعوا بالقرب من هنا - عيّنة صغيرة من الاسماء الكثيرة التي تبادرت إلى ذهني، من بينها اسم زميل لي في المدرسة الثانويّة، اليهوديّ الوحيد الذي تكررت لقاءاتي به في فيينا : كان يدعو نفسه سيث، غير أن اسمه الحقيقي كان سيبتيموس[1]، إذ كان الطفل السابع والأخير لوالدَين ودودَين جدًا، مُدرّسين أصلهما من غاليسيا. كانا غير متديّنَين، ولكي لا تنقطع صلة ابنهما بثقافته، كانا يرغمانه مرّتَين في الأسبوع بعد الظهر، على اجتياز المدينة بأكملها وصولًا إلى ليوبولدشتات حيث يتلقّى دروسًا في الأدب اليديشي لدى مُعلّم لتواني نجا بأعجوبة من المحرقة وحطّت به أخيرًا في تابورشتراسه عواصفُ القرن العشرين. كانت تلك الدروس قصاصًا لسبتيموس: كانت تقتصر على نحويّي القرن الثامن عشر وقراءةِ صفحات وصفحات من أعمال إسحق باشيفيس سنجر ثمّ التعليق عليها. اشتكى صديقي ذات يوم إلى مُعلّمه :

---

(١) سيبتيموس كلمة لاتينيّة تعني السابع.

- أستاذ، هل يمكننا، ولو لمرّة واحدة، أن نُغيّر الكاتب؟

لا شك في أن الأستاذ هذا كان يتمتّع بروح سخرية عالية، إذ أنزل به قصاصًا حقيقيًا هذه المرّة، ألا وهو حمله على أن يحفظ قصّة طويلة جدًّا لإسرائيل جوشوا سنجر، الشقيق الأكبر لإسحق؛ أراه مجددًا يتلو لساعات هذه القصّة عن الخيانة، إلى أن حفظها عن ظهر قلب. كان اسمه اللاتيني، وعفويّته، وتلقّيه دروسًا في الأدب اليديشي، تحيله في نظري كائنًا فريدًا من نوعه. لاحقًا، صار سبتيموس ليبوفتش أحد أكبر مؤرّخي الثقافة اليدشية ما قبل المحرقة، فكتب أبحاثًا طويلة منتشلًا من هوّة النسيان، عالمًا ماديًا ولغويًا بأكمله. لم ألتقِ به منذ زمن طويل، بالرّغم من أن مئتيّ متر فقط تفصل بين مكتبَيْنا الكائنَيْن في إحدى باحات حرم جامعة فيينا البديع الذي يحسُدنا عليه العالم برمّته - في آخر زيارة لها، رأت سارة أن الباحة الداخلية التي نتشاركها، نحن العلماء الموسيقين، مع مؤرّخي الفنّ، هي في منتهى الروعة؛ لقد أذهلها هذا الفناء المُحاط بأعمدة كثيرة، وحيث بوابتان ضخمتان ومقعدٌ جلسَتْ عليه تقرأ كتابًا بهدوء لتنتظر عودتي من الصفّ. وفيما كنتُ ألقي مُحاضرتي حول مقطوعة «باغود» لديبوسي بلا تركيز وبتسرّع كبير، كنتُ أرجو بأن تتبع إرشاداتي فلا تضلّ طريقها وتعثر على مدخل الكلّية؛ لم أستطع منع نفسي عن التوجّه إلى النافذة للنظر عبرها كلّ خمس دقائق، ولا بد من أن الطلّاب أخذوا يتساءلون عن سبب هذا الولع المُفاجئ بالأرصاد الجوية الذي كان يحملني على تفحّص سماء فيينا بقلق رهيب، مع العلم أن لونها الرمادي كان في غاية الاعتياديّة. بعد انتهاء الدرس، هبطتُ الدرج ركضًا ثمّ حاولت استعادة مشيّة طبيعة حين بلغتُ الطبقة الأرضيّة؛ كانت تقرأ بهدوء جالسةً على المقعد، فيما وشاح برتقالي طويل حول كتِفَيها. كنتُ منذ الصباح، أتخبّط

في حالة من الحيرة: هل يجب أن أصطحبها في زيارة القسم؟ وكان يتجاذبني شعوران متناقضان: اعتزازٌ طفولي يحثّني على أن أريها مكتبي وصالات المُحاضرات والمكتبة الجامعيّة؛ وخجلٌ لا شك في أنه سيتملكني إن صادفنا زملاء لي، بخاصة النساء منهم - إذ بأي صفة سأقدّمها لهم؟ سارة، صديقة، بكلّ بساطة، فللجميع أصدقاء. غير أنني لم أُشاهَد أبدًا في هذا القسم برفقة أحد إلا فيما ندر مع أساتذة مُحترمين أو والدتي. لعلّه حان أوان تغيير كلّ هذا، فكَّرْت. أن أتجوّل بصحبة نجمة عالمية في مجال الأبحاث الأكاديميّة، امرأة لامعة وساحرة، لعلّ هذا كفيل بالإعلاء من شأني وتحسين صورتي، فكَّرْت. لكن ربّما لا، فكَّرْت. ربّما سيظنّون أنني أسعى إلى إبهارهم بهذه الحسناء ذات الشعر الأحمر والوشاح البرتقالي. لكن هل أودّ حقًا تضييع لحظات ثمينة في محادثات تافهة في أروقة الجامعة؟ سارة لن تبقى في فيينا إلا لفترة قصيرة جدًّا، فلمَ هدر جزء من هذا الوقت مع زملاء قد يُفتتنون بها. هي أصلًا لا تنام في منزلي، متذرّعةً بأنها تريد الاستفادة من غرفتها الفاخرة في ذاك الفندق، فلن أتركها إذًا بين أيدي رجال فاحشين أو نساء حسوداتٍ سليطاتِ الألسنة.

كانت سارة غارقة في قراءة كتابِ جَيْبٍ ضخم - وكانت تبتسم، تبتسم للكتاب. في اليوم السابق، كُنّا قد التقينا في أحد مقاهي وسط المدينة ثمّ تنزّهنا في شارع غرابن، لكن مشاعري بقيت كالجمر تحت الرماد إلى أن رأيتها على ذلك المقعد، مُستغرقةً في القراءة، فيما وشاحها على كتفَيْها، وسط مكانٍ مألوف للغاية، فغمرتني موجةٌ من الحزن والشوق والحنين. كانت قد بلغت الخامسة والأربعين وتبدو في عمر طالبة. مشطٌ داكنٌ يضفر شعرها، مِشبك فضيّ يلتمع تحت وشاحها. لم تتبرّج. كان وجهها يشعّ ببهجة طفوليّة.

انتبهَت أخيرًا إلى أنني أراقبها، فنهضَت وأغلقَت الكتاب. هل هرعتُ نحوها والتهمتها بقبلاتي، كلّا، إطلاقًا. قبلة خرقاء على الخدّ فقط.

- لا بأس بالمكان هنا، أليس كذلك؟

- مرحبًا فرانتس. كيف كانت المُحاضرة؟ إنه فعلًا حرمٌ ساحر!

شرحتُ لها أن المُجمَّع الضخم هذا كان سابقًا مُستشفى - مُستشفى فيينا العام القديم الذي أُسِّس في القرن الثامن عشر وتمّ توسيعه طوال القرن التاسع عشر إلى أن قُدِّم هبةً إلى العِلم من بضع سنوات فقط. اصطحبتُها في جولة على أبرز معالم الجامعة: الساحة الكبيرة، المكتبات، الكنيس الصغير الذي كان تابعًا للمستشفى (على واجهته عبارة «الشفاء للأرواح») وأضحى اليوم نصبًا تذكاريًا لضحايا النازيّة، وهو مبنى صغير على شكل قُبّة يُشبه أضرحة القديسين في القرى السوريّة. كانت سارة لا تنفكّ تُكرر «يا له من حرم بديع». «إنه صنفٌ آخَر من الأديرة»، قلتُ لها، ما حملها على الإبتسام. بعد اجتيازنا الباحات المُتتالية، وصلنا إلى الـ«نارنتورم»، البرج الضخم من حجر الطوب الذي كان قديمًا مصحًّا للمجانين، برجٌ مستدير مُتصدِّع يُشرف بطبقاته الخمس على حديقة صغيرة حيث رأينا مجموعة من الطلّاب جالسين على العُشب يتحدّثون ويأكلون السندويشات بالرّغم من الطقس المُنذِر بهطول المطر. النوافذ الطويلة والضيّقة جدًّا، الكتابات ورسومات الـ«الغرافيتي» على الواجهة، والسواتر الخشب التي نُصِبَت منذ بدء أعمال الترميم، كانت تُحيل المبنى أكثر رُعبًا - ربّما لأنني كنتُ أعلم ما في داخل «برج المجانين» هذا من فظاعات، متحفُ علم الأمراض التشريحي، كميّات هائلة من الجرار الزجاجية مليئة بمادة الفورمول وتحوي أورامًا مُقزّزة، تشوّهات خلقيّة، كائنات برأسَين، أجنّة مشوّهة، قروح استُؤصِلت من مصابين

بالزهري، حصى كلويّة، كلّ ذلك في غرفٍ طلاؤها مُتقشِّر وخزاناتها يكسوها الغبار وأرضياتها غير مُستوية تتعثَّر في سيرِكَ عليها نتيجة الحُفَر التي خلّفها انتزاع بعض من البلاطات، غرفٌ يحرسها طلّاب طبّ بالثوب الأبيض يتساءل المرء ما إذا كانوا يشربون، للترفيه عن أنفسهم، ذلك الكحول الطبّي، فيجرّبون يومًا عصير عضو ذكري عملاق ويومًا آخر عصير جنين مُتضخِّم الرأسِ، آملين بسذاجة اكتساب قدرات عقليّة وجنسية خارقة. جميع فظاعات الطبيعة في أنقى صوَرها. آلام الأجساد الميتة حلّت محلّ عذابات الأرواح المريضة؛ لا صُراخ هنا في يومنا هذا سوى ذاك الذي يطلع من حناجر بعض السيّاح المرعوبين من اكتشاف هذا الجحيم.

أشفقَت سارة عليّ: إكتفَتْ بوصفي هذا للمتحف ولم تصِرّ (ما اعتقدْتُه - يا لسذاجتي - دليلًا على أن البوذية والتأمّل قد هَدَّآ ولعها بالفظاعات) على زيارة هذا المكبّ الضخم لنفايات طبّ القرون الماضية. جلسنا على مقعد غير بعيدٍ من الطلّاب؛ لحسن الحظّ أن سارة كانت لا تستطيع فهم فحوى أحاديثهم التي لا تمتّ إلى العلم بصلة. كانت تحلمُ بصوت عالٍ، تتكلم عن الـ«نارنتورم» وتربطه بالرواية الضخمة التي كانت تقرأها: إنه برج دون كيخوته، راحت تقول، برج المجانين. هل تعلم أن «دون كيخوته» هي أوّل رواية عربيّة؟ أوّل رواية أوروبيّة وأوّل رواية عربيّة، أُنْظُر هنا، إن سرفانتس ينسب الكتاب إلى السيّد حامد بن الأيل - هو يكتب اسمه «سيدي حامت بن إنجيلي». إن أوّل مجنون كبير في الأدب ابتكره مؤرّخ عربي من منطقة لامنشا الإسبانيّة. علينا الاستيلاء على هذا البرج لتحويله متحفًا للجنون، بدءًا بأولئك القديسين المشرقيين المجانين والمولعين بالمسيح - إخوان دون كيخوته - وصولًا إلى المستشرقين. متحفٌ للتمازج والهجنة.

- يمكننا حتّى إهداء شقّة لصديقنا بيلغر، في الطبقة الأخيرة، شقّة جدرانها زجاجية لكي نستطيع مُراقبته.

- كمّ أنتَ شريرٌ أحيانًا. كلّا، سوف نُخصص الطبقة الأخيرة لـ «دون كيخوته» في نصّه العربي الأصلي الذي كُتب بعد مئتين وأربعين عامًا من النصّ الإسباني: «كتاب الساق على الساق في ما هو الفارياق» لأحمد فارس الشدياق.

كانت تتابع استكشاف أراضي الحُلم. لكن، لا شكّ في أنها كانت مُحقّة، لعلّها ليست بالفكرة العاطلة، متحفٌ للآخَر الذي يَسكُن الذات، يُقام في برج المجانين، سوف يكون في الوقت عينه تكريمًا واستكشافًا للغيريّة. فكرة رائعة؛ متحفٌ مُدوّخ. مُدوّخ بقدر هذا المصحّ الدائري تمامًا الذي تفيض حُجراته بحطام الجثث وعصائر مميتة تليق بمقالتها عن ساراواك ونبيذ الموتى - منذ متى هي هناك، منذ بضعة أشهر على الأكثر، ما تاريخ آخر رسالة بعثتها لي،

عزيزي الغالي فرانتس،

سوف أغادر دارجيلينغ قريبًا.

من أسبوع، كلّمني مُعلّمي بعد الدرس. قال إنه من الأفضل لي أن أعود إلى العالم. هو لا يرى أن مكاني هنا. هذا ليس عقابًا، قال لي. لكن من الصعب أن أصدّق ذلك. أنتَ تعرفُني، لقد جرحني ذلك وثبّط عزيمتي. إنه الغرور، أعلمُ ذلك. أشعرُ بأنني طفلة نهرها أحد والديها إجحافًا، وأتألّم حين أعي أن أناي لا تزال قويّة إلى هذا الحدّ. كأن كلّ ما تعلّمته هنا قد تلاشى في الخيبة التي تتملّكني. العذاب - الـ«دُكا» - قد انتصر. إن فكرة العودة إلى أوروبا - أي إلى باريس - ترهقني مُسبقًا. قد يعرضون عليّ وظيفة في «المدرسة

الفرنسية للشرق الأقصى» في كالكوتا. لا شيء رسميًا حتّى الآن، مجرّد منصب باحثة مُشاركة، لكنّه نقطة انطلاق في الأقل. مزيدٌ من الأراضي الجديدة لاستكشافها. لا شكّ في أن كتابة أبحاثٍ حول الهند سوف تثير حماستي - أبحاثٌ حول تمثّلات الهند في أوروبا، وحول صورة أوروبا في الهند. حول تأثّر الغرب بالفكر الهندي في القرنَين التاسع عشر والعشرين. حول المُبشّرين المسيحيين في الهند. أبحاثٌ كالتي كتبتُها حول البوذيّة طوال سنتَين. عملٌ طبعًا لا يُعيل عائلةً، لكنني قد أعثر على بضعة تلاميذ أعلّمهم الفرنسيّة. الحياة سهلة للغاية في الهند. أو صعبة للغاية.

أتخيّلُ ردّ فعلكَ (أسمع من هنا نبرتَكَ الواعظة المُعتدّة): سارة، أنتِ تهربين. كلّا، سوف تقول: أنتِ تلوذين بالفرار. فنّ تولية الأدبار. لقد اضمحل كثيرًا ما يربطني بفرنسا - بضعة زملاء، رفيقتان أوثلاثة رفيقات من أيام الثانوية لم أرَهنّ منذ عشر سنوات. والداي. أتخيّلُني أحيانًا وقد عدتُ إلى شقّتِهما، إلى غرفةِ أيام مراهقتي المُلاصقة لغرفة صموئيل التي تعجّ بأشيائه، فأرتجف. لا تزال الأشهر القليلة التي قضيتها هناك بعد وفاته، غارقةً في الأفيون الكولونيالي، تُصيبني بالقشعريرة. مُعلّمي يعرفُني أكثر من أي أحد آخر، فلا شكّ في أنه مُحقّ: ليس الدير مكانًا للاختباء. وليس عدمُ التعلّقِ بشيء وسيلةً للهروب. هذا على الأقلّ ما فهمته. لكن مهما تأملتُ في ذلك، تصعُب عليّ رؤية الفرق بين الاثنَين... أمره إياي بالرحيل مؤلمٌ جدًّا أعجز عن فهمه.

أقبّلكَ. سوف أكتبُ لكَ رسالة أطول في القريب العاجل،

سارة

ملحوظة: أعدتُ قراءة هذه الرسالة. لا أرى فيها شيئًا سوى

غروري ومشاعري المُشوَّشة. يا لها من صورة ستكوِّنُها عنّي! لا أعلم لماذا أكتبُ لكَ كلّ هذا - أو بالأحرى بلى، أعلم تمامًا. سامحني.

لا كلمة أخرى منها منذ الربيع الفائت، بالرّغم من الرسائل الكثيرة التي واظبتُ على كتابتها كالمُعتاد - بقيتُ أُطلِعُها على أدنى تفاصيل حياتي وعلى تحرّياتي الموسيقيّة؛ قلقتُ على صحّتها من دون ازعاجها بمشاكلي أنا، فلم أخبرها بزياراتي التي لا تُحصى إلى عيادة الدكتور كراوس («لحسن حظّي أنني حظيت بكَ يا دكتور ريتر! وكم سيكون ضجري رهيبًا بعد شفائكَ أو موتِكَ!») للتخلّص من أرقي واستعادة عقلي، ثمّ سَئمْت. الصمت ينتصر على كلّ شيء. يُغلّف كلّ شيء. يخمده. يُخدِّره.

إلى أن وصلتني صباح أمس الحلقة الجديدة من تأمّلاتها حول أكل لحوم البشر الرمزي. نبيذ موتى ساراواك. هي تُقارن هذه الشعيرة بأسطورة قروسطيّة، قصيدة حبّ مأساوي ظهرت للمرّة الأولى في «رواية تريستان» لتوماس البريطاني - إيزولده مُتيّمة بتريستان: من لوعتها وحُزنها تُولَد أغنية كئيبة تُنشِدُها لسيّدات حاشيتها؛ تروي هذه القصيدةُ موتَ غِيران، الذي باغتته مكيدةٌ نصبها له زوج حبيبته، فقُتِل على الفور. عند ذاك، يَقتلع الزوج قلب غِيران ويُرغِم حبيبة الأخير على أكله. ترد هذه القصّة، مع بعض التعديلات، في كثير من النصوص اللاحقة؛ ثمّة نساء عدّة حُكِم عليهنّ بابتلاع قلوب عُشّاقهنّ خلال ولائم مُرعِبة. إن حياة الشاعر الجوّال غيليم دي كَبِشتَني تنتهي بهذه الطريقة: يُقتَل، ثمّ تُرغم عشيقته على التهام قلبه قبل أن تُقتَل بدورها. لأشنع أشكال العنف نتائج غير متوقّعة أحيانًا، إذ تتيح لعاشِقَيْن أن يُصبح واحدهما داخل الآخر إلى الأبد، أن يتجاوزا الهوّة التي تفصل بين الذات والآخر. الحبّ يتحقّق في الموت، تقول

سارة، شيءٌ حزين جدًّا. أتساءَلُ أيّهما الأسوأ، دور المأكول أم دور الآكلة، بالرّغم من العبارات المُلطَّفة كلّها التي تستخدمها الروايات القروسطية في وصفها طريقة التهام القلب العاشق.

ها قد بدأ الضوء يمحو العتمة رويدًا رويدًا. أسمع زقزقة بضعة عصافير. واضحٌ أنني بدأتُ أشعر بالنعاس. عيناي تُغلقان. لم أصلِح رسالة الماجستير تلك، لكنني كنتُ قد وعَدْتُ الطالبة -

عزيزي الغالي فرانتس،

سامحني على انقطاعي عن مُراسلتكَ - لم أكتب لكَ منذ وقت طويل جدًّا فبت لا أعلم كيف أكسر هذا الصمت؛ أرسلتُ لك إذًا تلك المقالة - وحسنًا فعلْت.

أنا في ساراواك منذ بداية الصيف؛ ذلك بعد إقامة وجيزة في كالكوتا (مدينة أكثر جنونًا ممّا تتخيَّل) ثمّ في جاوة، حيث صادفتُ طيفيّ رامبو وسيغالين. حين وصلتُ إلى ساراواك، لم أكن أعرف أحدًا هنا ولا حتّى أعلم شيئًا عن المكان عدا مُغامرات عائلة بروك، ومن الجيّد أحيانًا أن نستسلم للأمور الجديدة ولحبّ الاستكشاف. لقد رافقتُ عالمة إنثروبولوجيا لطيفة جدًّا إلى الغابة؛ هي التي أرشدتني إلى الطريق المؤدي (إذا جاز التعبير) إلى نبيذ الموتى وأتاحت لي إمضاء بعض من الوقت عند إحدى قبائل البيراوان.

كيف حالكَ؟ لا يمكنكَ تخيُّل كم أفرحتني رسالتكَ (القصيرة). في الأيام الأخيرة، فكَّرتُ كثيرًا بدمشق وطهران. في مرور الزمن. تخيّلتُ مقالتي داخل كيس من القماش على متن سفينة، ثمّ على متن قطار، ثمّ في حقيبةِ راكِب دراجة هوائية، ثمّ في علبة بريدكَ وأخيرًا بين يدَيْكَ. يا لها من رحلة قامت بها بضع الصفحات هذه.

حدّثني قليلًا عنكَ. . .
أقبّلُكَ بقوّة وآمل أن تكتُبَ لي سريعًا جدًّا،

سارة

كتب فرانتس ريتر:

عزيزتي الغالية، استلمتُ مقالتكِ البارحة صباحًا؛ شكرًا جزيلًا، لكن يا لفظاعة نبيذ الموتى هذا! ها أنا قلقٌ عليكِ إذًا. هل كلّ شيء على ما يرام؟ ماذا تفعلين في ساراواك؟ لا شيء هنا سوى الروتين. لقد افتتحوا سوقًا لمناسبة عيد الميلاد في وسط حرم الجامعة. الروائح الكريهة للنبيذ الساخن والنقانق. هل تنوين زيارة أوروبا قريبًا؟ أخبريني ما جديدكِ.
أقبّلُكِ بحرارة.

فرانتس

القلبُ لم يؤكَل، لا يزال ينبض - هي طبعًا لا تتوقّع أن أكون أنا أيضًا أمام شاشة الكمبيوتر. أجيبها. لكن هل هي على ما يُرام؟ ما قصّة البيراوان هؤلاء، لقد قلقتُ إلى حدّ أنني عجزتُ عن النوم. لا شيء جديدًا فعلًا في مدينتي. إلى متى ستبقى في ساراواك؟ أكذِب: يا لهذه المصادفة، كنتُ قد نهضتُ لتوّي حين وصلتني رسالتُها. قبلات، إمضاء، الإرسال سريعًا كي لا أتيح لها فرصة العودة إلى تلك البلاد الغامضة والعجائبيّة.

ثم الانتظار.

والانتظار. كلا، لا أستطيع أن أبقى هنا أعيد قراءة رسائلها إلى ما لا نهاية منتظرًا أن

فرانتس!

أمرٌ غريبٌ ومُفرِح أن أعلم أنكَ هنا، في الطرف الآخَر من العالم، وأن أفكّر أن هذه الرسائل أسرع من الشمس بكثير. أشعُر بأنكَ تسمعُني.

تقول إن مقالتي عن قبائل البيراوان تُقلقُكَ - أنا مسرورة أنكَ تُفكّر فيّ؛ أنا بالفعل لست في أحسن حالاتي، أنا حزينة بعض الشيء الآن. لكن لا علاقة للأمر بساراواك، إنها مصادَفات التقويم الزمني فقط: تستيقظ ذات يوم فتجد أنّه موعد ذكرى أليمة - سوادٌ طفيف يصبغ حينئذٍ كلّ شيء، رغمًا عنكَ، ولا تنقشع الغشاوة إلا بعد بضعة أيام.

كما قرأتَ في مقالتي، يضع البيراوان أجساد موتاهم في جرار فخّارية على مصاطب «البيوت الطويلة»، هذه المساكن الجماعية المُماثلة لقُرانا، والتي يمكنها احتواء حوالى مئة عائلة. يتركون الجثث تتحلّل. ينساب السائلُ الناتج من التحلّل عبر قصبة خيزران جوفاء توضع في أسفل الجرّة. مثل صُنع نبيذ الأرُزّ. ينتظرون توقّف انسياب هذه الحياة من الجسد لكي يُعلنوا موتَه. الموت في نظرهم عمليّةٌ طويلة وليس لحظة. إن عُصارة التعفّن هذه دليلٌ على أن الحياة لا تزال حاضرة. حياةٌ سائلة، ملموسة، يمكن شربها.

ما وراء الرعب والقرف اللذَين قد تثيرهما لدينا مثل هذه الممارسات، ثمّة جمال كبير يكمن في هذه الشعيرة. هو الموت ما يتسرّب من الجسد ويُغادره، وليس الحياة فقط. الإثنان معًا، على الدوام. لا يقتصر الأمر على أكل لحوم البشر الرمزي - كما هي حال ديك الجن الحمصي الذي كان يشرب الخمر بكأس صنعها من رماد جثّة معشوقته - بل يتعدّاه إلى شيء أشبه بولادة الكون.

الحياةُ تأمّلٌ طويلٌ في الموت.

هل تَذكُر خاتمة أوبرا فاغنر، موتُ إيزولده الذي حدّثتني عنه مُطوّلًا؟ كنتَ تَسمع في تلك الموسيقى لحن حبٍّ مُطلق، حبٌ لم يَعِه حتّى فاغنر نفسه. لحظةُ حبٍّ، وتلاقٍ، وتوحُّدٍ في الكلّ الأكبر، توحُّدٌ بين أنوار الشّرق وظُلُمات الغرب، بين النصّ واللحن، بين صوت المُغنّين وموسيقى الأوركسترا. أما أنا، فأرى خاتمة الأوبرا هذه تمثيلًا للشفقة، للـ«كارونا»، للرحمة. لا يقتصر الأمر على إيروس ساعيًا إلى الأبديّة. الموسيقى بما هي «تعبير كوني عن عذاب الدنيا»، يقول نيتشه. تشعرُ إيزولده، وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، بحبٍّ عظيم للغاية إلى حدّ أنه يتحوّل حبًّا للدنيا كلّها. الجسد متوحّدًا مع الروح. إنها لحظة هشّة. تحمل في صلبها بذور دمارها. كلّ عملٍ يحمل بذور دماره. مثلنا نحن البشر. الحبّ ليس في متناولنا، ولا الموت أيضًا، إذ علينا أولًا بلوغ اليقظة والوعي التام؛ وإلّا فمصيرنا أن نستحيل عصير جثّة - كلّ ما يخرُج منّا ليس سوى إكسير العذاب.

أنا مُشتاقة إليكَ. مشتاقةٌ إلى الضحك. إلى بعضٍ من الخفّة. كمّ أوّد أن أكون إلى جانبكَ. لقد سئمتُ السفرَ. كلا، هذا ليس صحيحًا - فمهما كَثُر ترحالي، لن أسأم أبدًا؛ لكنني أيقنتُ شيئًا ما، ربّما مع بيسوا:

يُقال إن الخيّام يرقد بسلام
في نيسابور بين الورود العطرة.
لكنه ليس الخيّام من دُفِن هناك.
هو هنا: هو ورودُنا.

اعتقد أنني بتُّ أفهم الآن ما كان يُريد مُعلّمي أن يقوله لي في دارجيلينغ، حين نصحني بالرحيل. العالم في حاجة إلى التمازج

والشّتات. أوروبا لم تعد قارّتي، أستطيع إذًا أن أعود إليها؛ أن أشاركَ في نَسْج هذا الشبكة العملاقة من الخيوط المتناسلة والمتقاطعة - أن أستكشف كلّ ذلك بصفتي غريبةً. أن أساهم بشيء ما. أن أردّ الجميل وأسلّط الضوء على نعمة التنوّع.

سوف آتي إلى فيينا لإمضاء بعض من الوقت، ما رأيكَ؟ سوف آتي إلى الجامعة لملاقاتك، سوف أجلس على مقعد تلك الباحة الجميلة وأنتظرك فيما أتأمّل تارةً ضوء مكتبكَ وتارةً أخرى الطلّاب في صالة القراءة. ولعلّ أستاذًا سيكون ترك نافذة صفّه مفتوحة: سوف تجتاح الموسيقى الفناءَ فأشعر حينذاك، مثلما شعرتُ في المرّة السابقة، بأنني في عالم يملأه الوُدّ والطمأنينة، المتعة والمعرفة. سوف أضحَكُ مُسبقًا من تفاجُئكَ وعبوسكَ لرؤيتي هنا، سوف تقول «كان عليكِ إبلاغي بقدومكِ»، وسوف تقوم بتلك الحركة الرقيقة التي يشوبها شيء من الارتباك والتكلّف: تميل بصدرِكَ نحوي لتقبّلني فيما تتراجُع خطوة واحدة، يداكَ خلف ظهرِكَ. كمْ أحبّ حركاتكَ المتردّدة هذه، هي تُذكّرني بحلب وتدمر، بخاصةً بطهران، هي رقيقةٌ وحنونة.

نحن لسوء الحظّ كائناتٌ ليس مُقدَّرًا لها بلوغ إشراقة العقل. نستطيع في بعض من الأحيان أن نعي الفرق بين الذات والآخَر، أن نُدرك معنى الغيريّة، أن نلمح الآخَر يتخبّط في شكوكه ومصاعبه وأخطائه. سوف آتي إلى الجامعة لملاقاتكَ، سوف نمرّ أمام برج المجانين، برجنا، وسوف تتذمّر من حالة المبنى التي يُرثى لها، لاعنًا القائمين عليه لإهمالهم «متحف الفظاعات» الذي في داخله؛ سوف تقول «هذا غير مقبولٍ بتاتًا! هذا عارٌ على الجامعة!»، وسوف يحملني انفعالُكَ على الضحك؛ ثمّ سوف ننزل درج «طلعة شترودلهوف» لكي أودِع حقيبتي في منزلكَ، وسوف ينتابكَ شيء من

الحرج، فتروحُ تتجنّب نظراتي. أتعلم يا فرانتس، ثمّة شيءٌ لم أطلعكَ عليه أبدًا: في زيارتي الأخيرة إلى فيينا، مكثتُ في ذاك الفندق الفخم حيُث عُرِضت عليّ غرفة، هل تذكُر؟ بدلًا من أن أنام في شقّتكَ؟ ما أثار استياءكَ جدًّا جدًّا. أعتقد أن ما حملني على ذلك أملٌ لم أعترف به لنفسي، أملٌ طفولي، ألا وهو أنّكَ كنتَ سترافقني إلى هناك، أننا كُنا سنكمل، في غرفة فندق بديعة، ما كنّا قد بدأناه في طهران.

فجأة، يتملّكني شوقٌ إليك،
ما أجمل فيينا!
ما أبعد فيينا!

سارة

يا لوقاحتها! «المُتكلّف»، بحسب قاموسي، هو «الذي يُظهر نفسه على غير حقيقتها، محاولًا أن يبدو رزينًا». عارٌ عليها. إنها تُبالغ. هي تعرف كيف تجعل من نفْسها كريهة أحيانًا. لو أنها فقط على دراية بحالتي، بحالتي المُريعة، لو أنها تعلم في أي جزع ورعب أتخبّط، لما كانت لتسخر منّي بهذه الطريقة. إنه الفجر؛ يموت الناس عند بزوغ أوّل شعاع شمس، يقول فيكتور هوغو. سارة. إيزولده. كلا، ليست إيزولده. لنشِح نظرنا بعيدًا من الموت. مثلما يفعل غوته. غوته الذي يأبى رؤية الجثث والاقتراب من المرضى. هو يرفض الموت. يُشيح نظره. يعتقد أنه يُدين بعمره الطويل لهروبه هذا. لنُشِح نظرنا، لنُفكّر في شيء آخر. أنا خائف، أنا خائف. خائف من الموت ومن الإجابة على رسالة سارة.

«ما أجمل فيينا، ما أبعد فيينا»! أهذا اقتباس؟ لكن من أي

عمل، ولأي كاتب؟ كاتب نمساوي؟ غريلبارتسر؟ أم بلزاك؟ حتّى مُترجَمًا إلى الألمانية، هو لا يُذكّرني بأي شيء. يا إلهي يا إلهي بما أجيبها، بما أجيبها، لنستحضر الجنّي «غوغل» مثلما يستدعي علاء الدّين جنّيَ المصباح، أيها الجنّي، هل تسمعني... هذا ليس اقتباسًا أدبيًّا في ما يبدو، ولِمَ الأدب أصلًا، إنه مقطع من أغنية فرنسيّة مريعة، أغنية فرنسيّة مريعة، هو ذا النص كاملًا، عثر عليه «غوغل» بـ ٠,٠٠٩ ثانية - يا إلهي ما أطول نصّ هذه الأغنية. الحياة طويلة، إن الحياة طويلة جدًّا أحيانًا، بخاصة ونحن نستمع إلى باربارا هذه، «إن كتبتُ لكَ من فيينا هذا المساء»، ما هذه الفكرة يا سارة، ماذا كان يدور في رأسكِ، فأنتِ تعرفين عن ظهر قلب أشعارًا كثيرة، رامبو، الرومي، حافظ الشيرازي - إن وجهَ هذه الباربارا مريبٌ، نظراتها لعوب، أو ربّما شيطانيّة، يا إلهي كم أكره الأغاني الفرنسية، صوت إديث بياف كمنشار خشب، أما صوت باربارا، فهو كفيلٌ باقتلاع سنديانة من شدّة ما هو حزين، لقد عثرتُ على جوابي، سوف أنسخُ مقطعًا من أغنية أخرى، شوبرت والشتاء، هو ذا جوابي، سوف أنسخه فيما تنبهر قليلًا عيناي بخيوط الفجر الأولى التي تُشير كأصابعِ إلى الدانوب، يتسرّب نور الأمل خافتًا، علينا أن ننظر إلى كلّ شيء عبر عدسة الأمل، أن نودَّ الآخَر الذي يَسكُن ذواتنا، أن نحبّ هذا النشيد الذي يحوي كلّ الأناشيد، أناشيد الشعراء الجوّالين، «أناشيد الفجر» لشومان وكلّ أشعار الغزل التي كُتِبت على مرّ التاريخ، نحن نَتفاجَأ دومًا بكلّ ما هو حتمّي: جوابُ الزمن لنا، العذاب، الشفقة، الموت؛ الشمسُ التي لا تنفكّ تُشرق وتُشرق؛ حكمةُ الإشراق، الملاك القرمزي، الشّرق، اتجاه البوصلة، نحن نَتفاجَأ بالعالم الرخامي الذي تسري فيه شرايين العذاب والحبّ، لنتحرّر من الإحساس بالعار، فليس من عارٍ حين يبزغ الفجر، ليس من عارٍ منذ

زمن طويل، ليس عارًا نسخ كلمات أغنية الشتاء هذه، ليس عارًا الاستسلام لمشاعرنا،

اغمضُ عينيّ مرّة أخرى
ولكن قلبي لا يزال يخفق بقوّة.
متى ستعود الأوراق خضراءَ خلف نافذتي؟
متى سأحتضن حبّي بين ذراعيّ؟

... ولشمس الأمل الدافئة.

حول
أشكال الجنون المختلفة
في الشَرق

إهداء

إلى بيتر ميتكالف وبحثه «نبيذ الجثّة، أكل لحوم البشر داخل القبيلة الواحدة ووليمة الموتى الكبرى في بورنيو» (Wine of the Corpse; Endocannibalism and the Great Feast of the Dead in Borneo) المنشور في مجلّة «ريبريزانتاسيون» (*Representations*) عام ١٩٨٧ والذي استلهمتُ منه مقالةَ «حول نبيذ الموتى في ساراواك» - من نافل القول إن بحث بيتر ميتكالف ينمّ عن عمقٍ وسعةِ معرفة أكثر ممّا يوحي به كلام فرانتس وسارة.

إلى «برنامج فنانون في برلين» التابع للـ«هيئة الألمانية للتبادل الثقافي» (Berliner Künstlerprogramm des Deutscher Akademischer Austauschdienst) الذي استضافني في برلين وأتاح لي أن أغوص في الاستشراق الألماني.

إلى جميع الباحثين الذين ألهمتني أعمالهم، مستشرقين قدامى ومُعاصرين، مؤرّخين، عُلماء موسيقيين، باحثين في الأدب؛ حاولتُ قدر المُستطاع، حين ورد ذكرهم، ألّا أخون وجهات نظرهم.

إلى مُعلّمَيّ السابقَيْن كريستوف بالاي وريكاردو زيبولي؛ إلى دائرة المُستشرقين المحزونين؛ إلى رفاقي في باريس، في دمشق وفي طهران.

إلى السوريين.

هذا الكتاب

كنت أستمع إلى حديثها شاردَ الذهن، مُستغرقًا في تأمّلها. بالرّغم من هزالها والهالات السود تحت عينيها، كان وجهها ينضح بالقوّة والتصميم والحنوّ في الوقت عينه. نظراتها كانت تشعّ بلهيب أفكارها؛ صدرها كان يبدو أكثر ضمورًا من ما كان عليه قبل بضعة أشهر؛ كانت تقويرة كنزتها من الكشمير الأسود، تكشف عن طرفٍ من اللون عينه، لثوبها الداخلي الذي يَظهر خطّ حمّالته الرفيع تحت الصوف وسط الكتف. وكان النمش الذي يُبرقع بشرتها حيث العظمة الناتئة التي تتوسط قفصها الصدري، ينتشر على طول طرف ثوبها الداخلي وصولًا إلى عظمتي الترقوة اللتين يتدلّى فوقهما قرطان من أذنَيْها.